# المنهج الموضوعي

## لشرح ابن أبي الحديد لكتاب نهج البلاغة

المجلد الثاني


بإشراف

الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني

ومسايعي الدكتور احمد القرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

# المنهج الموضوعي

## لشرح ابن أبي الحديد لكتاب نهج البلاغة

المجلد الثاني




باشراف

الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني

ومساعي الدكتور احمد القرائي

واعظزاده خراساني، محمّد
[شرح نهج البلاغه]
المنهج الموضوعي لشرح ابن ابيالحديد لكتاب نهج البلاغة/باشراف محمّد واعظزاده الخراساني ومساعي احمد القرائي سلطان آبادي. ـ مشهد: مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٣٣ق. = ١٣٩٠ش.
ج.
ISBN 978-964-971-920-7 (ج ٢)
فيبا.
ISBN set 978-964-971-505-6
١. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ خطبه‌ها. ٢. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ نامه‌ها ٣. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ كلمات قصار ۴. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ نهج البلاغه ـ نقد و تفسير ۵. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ شرح نهج البلاغه ـ نقد و تفسير الف. قرائي سلطان آبادي، احمد ب. ابن ابي‌الحديد، عبدالحميد بن هبة الله، ۵٨۶ ـ ۶۵۵ ق. شرح نهج البلاغه ج. علي بن ابي‌طالب عليه‌السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ۴٠ق. ـ نهج البلاغه. شرح د. بنياد پژوهشهاي اسلامي. هـ عنوان.
BP ٣٨٠٤٢٣٢ / ٢ و ١٣٩٠ ٢٩٧/٩۵١۵
كتابخانهٔ ملی جمهوری اسلامی ایران ٢۵٩٠۵٩٩

# المنهج الموضوعي

## لشرح ابن ابي الحديد لكتاب نهج البلاغة

## المجلّد الثاني

باشراف محمّد واعظزاده‌الخراساني
و مساعي الدكتور احمد القرائي
مراجعة : محمد حسن مؤمن زاده ـ اسماعيل ضغيم

الطبعة الأولى: ١٤٣٦ق / ١٣٩٣ش
١٠٠٠ نسخة ـ وزيري/ الثمن: ٤٤٠٠٠٠ ريال إيرانيّ
المطبعة: دقت

مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣۶۶-٩١٧٣۵
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٣٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٣٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٣٧٧٣٣٠٢٩

www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

## تصدير

### بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد خاتم النّبيّين، وعلى آله الطّاهرين، وصحبة المنتجبين، والتّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وبعد، فهذه كلمة موجزة حول المجلّد الثّاني من كتاب: «المنهج الموضوعيّ لشرح ابن أبي الحديد»، وكان المجلّد الأوّل حاويًا خمسة أبواب في المسائل الكلاميّة والفقهيّة وغيرها.

أمّا هذا مجلّد فكلّه في المسائل الأخلاقيّة والعرفانيّة ونحوها وهو الباب السّادس من أبواب الكتاب. ولا يخفى على مَن له أُنس بكتاب «نهج البلاغة» أنّ أغلب ما فيه هي الخُطَب والكُتُب والحِكَم الأخلاقيّة وما يجرى مجراها.

فلوقلنا: إنّ هذا المجلّد وهذا الباب هما أهمّ ما في شرح ابن أبي الحديد من نتاج نهج البلاغة ما كنّا مبالغين ومتجاوزين عن ما هو الحقّ الواقع.

والّذي يزيد في اهتمام الشّارح بهذه المسائل من الكتاب أنّ ابن أبي الحديد لم يكتفِ بشرح كلمات الإمام عليّ عليه السلام في تلك المسائل، بل أضاف إليها حكمًا وكلمات كثيرة من الشِّعروالنّثرعن غيرالإمام من الحكماء والشّعراء بحيث صار شرحه أكبرذخيرة وأعظم خزينة من الأدب والحكم في الإسلام، ولايوجد له نظير.

وآخردعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وسلام على المرسلين.

محمّد واعظ زاده الخراسانيّ

مديرقسم القرآن في مجمع البحوث الإسلاميّة

في الآستانة الرّضويّة

١٧ جُمادَى الآخرة ١٤٣٤

# الباب السّادس المسائل الأخلاقيّة والعرفانيّة،
## وفيه فصول:

## الفصل الأوّل: [في العقل وفضل العلم]

**(الخطبة: ١٠٢) ... الْعَالِمُ مَن عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ ...**

**الشّرح:** قوله عليه السلام: «العالم مَن عرف قدره»، مِن الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال النّاس بعده في ذلك فأكثروا، نحو قولهم: إذا جهلت قَدْر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل. ونحو قولهم: مَن لم يعرف قدر نفسه، فالنّاس أعذر منه إذا لم يعرفوه، ونحو قول الشّاعر أبي الطّيّب [المتقارب]:

ومَن جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ رأى غيرُه مِنه مَا لا يَرَى

ثمّ عبّر عن هذا المعنى بعبارة أُخرى، فصارت مَثَلًا أيضًا، وهي قوله: «كفى بالمرء جهلًا ألّا يعرف قَدْره»، ومن الكلام المرويّ عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام مرفوعًا: « ما هلك امرؤ عَرَف قَدْره»، رواه أبو العبّاس المبرّد عنه في «الكامل»، قال: ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «وما إخالُ رجلًا يرفع نفسه فوق قَدْرها إلّا من خلل في عقله».

وروى صاحب «الكامل» أيضًا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: لمـا حضرت الوفاة عليّ بن الحسين عليه السلام أبي، ضمّني إلى صدره، ثمّ قال: يا بُنيّ، أُوصيك بما أوصاني به أبي يوم قُتِل، وبما ذكر لي أنّ أباه عليًّا عليه السلام أوصاه به: يا بنيّ عليك ببَذْل نفسك، فإنّه لا يسرّ أباك بذل نفسه حُمُر النِّعم.

وكان يقال: مَن عرف قَدْره استراح. وفي الحديث المرفوع: «ما رفع امرؤ نفسه في الدّنيا درجة إلّا حطّه الله تعالى في الآخرة درجات».

**وكان يقال:** مَن رَضِي عن نفسه كَثُر السّاخطون عليه ... (٧ : ١٠٨ ــ ١٠٩)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... فَإِنَّ خَيْرَ الْقَولِ مَا نَفَعَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنفَعُ، وَلَا يُنتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ ...**

**الشّرح:** ... قوله: «لا خير في علمٍ لا ينفع»، قولٌ حقٌّ، لأنّه إذا لم ينفع كان عَبَثًا.

قوله: «ولا ينتفع بعلمٍ لا يحقّ تعلُّمه»، أي لا يجب ولا يندب إليه، وذلك لأنّ النّفع إنّما هو نفع الآخرة، فما لم يكن من العلوم مرغّبًا فيه إمّا بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به في الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقيّ ونحوهما ... . (١٦ : ٦٤ ـ ٦٥)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِن شَيءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَن يَقْسُوَ قَلْبُكَ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ ذكر أنّ التّعلّم إنّما هو في الصّبيّ، وفي المثل: «الغلام كالطّين يقبل الختم ما دام رطبًا». وقال الشّاعر [البسيط]:

اختمْ وطينُك رَطْب إن قدرت فَكَمْ قد أمكن الخَتْمُ أقوامًا فما خَتمُوا

ومثّل هو عليه السلام قلب الحَدَث بالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته، وكان يقال: التّعلّم في الصّغر كالنّقش في الحجر، والتّعلّم في الكِبَر كالخطّ على الماء... .
(١٦ : ٦٧)

**(كتابه : ٣١) ... مَن أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَن تَفَكَّرَ أَبْصَرَ... وَإِيَّاكَ وَالْاِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوكَى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ ...**

**الشّرح :** ... قوله: «مَن تفكّر أبصر»، قالت الحكماء: الفكر تحديق العقل نحو المعقول، كما أنّ النّظر البَصَريّ تحديق البَصَر نحو المحسوس، وكما أنّ مَن حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لا بدّ أن يبصره، كذلك مَن نظر بعين عقله، وأفكر فكرًا صحيحًا لا بدّ أن يدرك الأمر الّذي فكّر فيه وينالَه ... .

قوله: «العقل حفظ التّجارب» مِن هذا أخذ المتكلّمون قولهم: العقل نوعان: غريزيّ، ومُكتسِبٌ، فالغريزيّ العلوم البديهيّة، والمكتسب ما أفادَتْهُ التّجربةُ وحَفِظَتْه النّفسُ. (١٦ : ١٠٢)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَمَنِ اقْتَصَرَعَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ...**

**الشّرح:** ... قوله: «مَن اقتصر على قَدْره كان أبقى له». هذا مثل قوله: «رحم الله امْـرَأً عـرف قَـدْره، ولم يتعـدّ طـوره». وقـال: مَـن جهـل قـدره قتـل نفسـه. وقـال أبو الطّيّب [المتقارب]:

ومَن جهلت نفسُه قدرَهُ رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

(١٦ : ١١٨)

**(كتابه عليه السلام: ٧٨) ... فَدَعْ عَنكَ مَا لَا تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرَارَالنَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ.**

**الشّرح:** ... ثمّ قال: «فَدَعْ عنك ما لا تعرف»، أي لا تبن أمرك إلّا على اليقين والعلم القطعيّ، ولاتُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونَقَلَة الحديث، فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيرًا، فلا تصدِّق ما عساه يبلِّغك عنيّ شِرار النّاس، فإنّهم سراع إلى أقاويل السّوء، ولقد أحسن القائل فيهم [البسيط]:

إن يَسْمَعُوا الخيرَ يخْفُوه وإن سَمِعُوا شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كَذَبُوا[1]

ونحو قول الآخر [البسيط]:

إن يَسْمَعُوا ريبةً طَارُوا بها فَرَحًا وإن ذُكِرْتُ بخَيرٍ عندهم دَفَنُوا

(١٨ : ٧٦)

**(الحكمة: ٥) : الأصل: اَلْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالْآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ**

---

١ ـ البيت لطريح بن اسماعيل،الثقفيّ، عن التّذكرة الحمدونيّة، والإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينيّ، والأغانيّ.

صَافِيَةٌ.

**الشّرح:** إنّما قال: «العلم وراثة»، لأنّ كلّ عالم من البشر إنّما يكتسب علمه من أُستاذٍ يهذّبه وموقِف يُعلّمه، فكأنّه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المال عن أبيه، وقد سبق منّا كلام شافٍ في العلم والأدب.

**وكان يقال:** عطيّة العالم شبيهة بمواهب الله عَزَّوجَلَّ، لأنّها لاتنفد عند الجود بها، وتبقى بكمالها عند مفيدها.

**وكان يقال:** الفضائل العلميّة تشبه النّخل، بطيء الثّمرة، بعيد الفساد.

**وكان يقال:** ينبغي للعالم ألّايترفّع على الجاهل، وأن يتطامَن له بمقدار ما رفعه الله عليه، وينقله من الشّكّ إلى اليقين، ومن الحيرة إلى التّبيين، لأنّ مكافحته قسوة، والصّبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحكماء: الخيّر من العلماء مَن يَرَى الجاهل بمنزلة الطّفل الّذي هو بالرّحمة أحقّ منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فَرَط منه ولايعذر نفسه في التّأخّر عن هدايته.

**وكان يقال:** العلم في الأرض بمنزلة الشّمس في الفَلَك، لولا الشّمس لأظلم الجوّ، ولولا العلم لأظلم أهل الأرض.

**وكان يقال:** لا حُلّة أجمل من حُلّة الأدب، لأنّ حُلَل الثّياب تبلى، وحُلَل الأدب تبقى، وحُلَل الثّياب قد يغتصبها الغاصب، ويسرِقها السّارق، وحُلَل الآداب باقية مع جوهر النّفس.

**وكان يقال:** الفكرة الصّحيحة اصطرلابٌ روحانيٌ.

وقال أوس بن حَجَر يرثي [المنسرح]:

إنّ الّذي جَمَّع السّماحة والـ ... نَّجدة والحَزْم والنُّهَى جمعَا[1]

---

١ ـ ديوانه : ٢٦ .

الألمعيّ الّذي يظنّ بك الـ ظّنّ كأن قد رأى وقد سَمِعَا

ومن كلام الحكماء: النّار لاينقصها ما أُخِذَ منها، ولكن يخمدها ألّا تجد حطبًا، وكذلك العلم لايُفْنِيه الاقتباس ولكن فقد الحامِلين له سبب عدمه.

قيل لبعضهم: أيّ العلوم أفضل؟ قال: ما العامّة فيه أزهد.

وقال أفلاطون: مَن جَهِل الشّيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتَين.

وكان يقال: ثلاثةٌ لا تجربةَ معهنّ: أدب يزين، ومجانبة الرّيبة، وكفّ الأذى.

(١٨ : ٩٣ ــ ٩٤)

**(الحكمة: ٥١): الأصل: لَا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلَافَقْرَكَالْجَهْلِ، وَلَامِيرَاثَ كَالأَدَب، وَلَا ظَهِيرَكَالْمُشَاوَرَةِ.**

**الشّرح:** روى أبو العبّاس في «الكامل» عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: خمسٌ مَن لم يكنّ فيه لم يكن فيه كثير مستمتع: العقل، والدّين، والأدب، والحياء، وحُسن الخُلق.

وقال أيضًا: لم يُقسم بين النّاس شيء أقلّ من خمس: اليقين، والقناعة، والصّبر، والشُّكر، والخامسة الّتي يكمل بها هذا كلّه: العقل.

وعنه عليه السلام: أوّل ما خَلَق اللهُ العقلَ، قال له: أقْبِلْ، فأقْبَلَ ، ثمّ قال له: أدْبِر، فأدبر، فقال: ما خلقتُ خَلْقًا أحبّ إليّ منك، لك الثّواب، وعليك العقاب.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله ليبغض الضّعيف الّذي لا زَبَرَله. قال: الزَّبر: العقل.

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ما قَسَمَ اللهُ للعباد أفضلَ من العقل، فنَوْم العاقل أفضلُ من سَهَر الجاهل، وفِطْرُ العاقل أفضل من صَوْم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شُخوص الجاهل، وما بعث الله رسولًا حتّى يستكمل العقل، وحتّى يكون عقله أفضل من عُقول جميع أُمّته، وما يُضْمره في نفسه أفضل مِن اجتهاد جميع المجتهدين،

وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتّى عَقَل عنه، ولا يبلُغ جميعُ العابدين في عباداتهم ما يَبلُغه العاقل، والعُقَلاء هم أُولُو الألباب، الّذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

**قال أبو العبّاس:** وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له ـ وقد سمعه يقول، بل يروى مرفوعًا: إذا بلغكم عن رجلٍ حُسْن الحال، فانظروا في حُسْنِ عَقْله، فإنّما يُجازَى بعقله ـ: يا بن رسول الله، إنّ لي جارًا كثيرُ الصَّدَقة، كثيرُ الصّلاة، كثير الحجّ، لا بأس به! فقال: كيف عَقْله؟ فقال: ليس له عَقْل، فقال: لا يرتفع بذاك منه.

**وعنه** عليه السلام: ما بعث الله نبيًّا إلّا عاقلًا، وبعض النّبيّين أرجح من بعض، وما استخلف داودُ سليمانَ عليه السلام حتّى اختبر عَقْله، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فمكث في مُلْكه ثلاثين سنة.

**وعنه مرفوعًا:** صَديقُ كلّ امرئٍ عَقْلُه، وعدوُّه جَهْلُه.

**وعنه مرفوعًا:** إنّا معاشر الأنبياء نكلِّم النّاس على قَدْر عقولهم.

**قال أبو العبّاس:** وسُئِل أبو عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ فقال: ما عُبِد به الرّحمٰن، واكْتُسِبَت به الجِنان.

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: سُئِل الحسن بن عليّ عليه السلام عن العقل، فقال: التّجرُّع للغصّة، ومُداهنة الأعداء.

**قلت:** هذا كلام الحسن عليه السلام، وأنا أقطع بذلك.

قال أبو العبّاس: وقال أبو عبد الله عليه السلام: العاقل لا يحدّث مَن يخاف تكذيبه، ولا يسأل مَن يخاف منعه، ولا يثق بمن يخاف عُذْره، ولا يرجو مَن لا يوثق برجائه.

**قال أبو العبّاس:** ورُوِي عن أبي جعفرٍ عليه السلام، قال: كان موسى عليه السلام يُدْني رجلًا من بني إسرائيل لطُول سُجوده، وطُولِ صَمْته، فلا يكاد يذهب إلى موضع إلّا وهو معه،

---

١ ـ البقرة/٢٦٩.

فبينا هو يومًا من الأيّام إذ مرّ على أرض مُعشبة تهتزّ، فتأوّه الرّجلُ، فقال له موسى: على ماذا تأوَّهْتَ؟ قال: تمنّيت أن يكون لربّي حمارٌ وأرعاه هاهنا، فأكَبّ موسى طويلًا ببَصَره إلى الأرض اغتمامًا بما سمِع منه، فانحطّ عليه الوَحْي، فقال: ما الّذي أنكرت من مقالة عبدي! إنّما آخُذ عبادي على قَدْر ما آتيتُهم.

**قال أبوالعبّاس:** وروي عن عليّ عليه السلام: هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاثٍ ليختار منها واحدة ويَدَع اثنتَين، وهي: العقل، والحياء، والدِّين، فاختار العقل، فقال جبرائيل للحياء والدِّين: انصرفا، فقالا: إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال: فشأنَكما! ففازَ بالثّلاث. (١٨: ١٨٥ ـ ١٨٧)

**(الحكمة: ٦٩) الأصل: إذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ.**

**الشّرح:** قد سبق القول في هذا المعنى.

**وكان يقال:** إذا رأيتم الرّجل[1] يُطِيل الصَّمْتَ ويَهْرُب من النّاس، فاقرُبوا منه، فإنّه يلقَّى الحكمة. (١٨: ٢١٧)

**(الحكمة: ٧٨): قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ.**

قَالَ الرَّضيّ: وهي الكلمة الّتي لاتُصابُ لها قيمةٌ، ولَاتُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ، ولاتُقْرَنُ إليها كلمةٌ.

**الشّرح:** قد سَلَف لنا في فَضْل العلم أقوالٌ شافية، ونحن نذكرهاهنا نُكَتًا أُخرى.

**يقال:** إنّ مِن كلام أرْدَشيربن بابك في رسالته إلى أبناءِ الملوك: بحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان، يتزيّن به غيرأهله، ويدّعيه مَن لايصلحُ به. قال: وبحَسْبكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كلّ أحدٍ يَنتفي منه، ويَغْضَب

---

١ ـ أ: «رجلًا»

أن يُسمَّى به.

وقيل لأنوشَرْوانَ: ما بالُكم لاتستفيدون من العلم شيئًا إلّا زادكم ذلك عليه حِرْصًا؟ قال: لأنّا لانستفيد منه شيئًا إلّا ازدَدْنا به رِفعةً وعِزًّا. وقيل له: ما بالُكم لاتأنَفون من التّعلّم من كلّ أحدٍ؟ قال: لعِلْمنا بأنّ العلم نافعٌ من حيث أُخِذ.

وقيل لبُزُرْجِمِهْر: بمَ أدركتَ ما أدركتَ من العِلم؟ قال: ببُكورٍ كبُكور الغُراب، وحرصٍ كحرصِ الخِنزير، وصبر كصبر الحِمار.

وقيل له: العلم أفضل أم المال؟ فقال العِلم، قيل: فما بالُنا نرى أهلَ العِلم على أبواب أهل المال أكثر ممّا نرى أصحاب الأموال على أبواب العُلَماء! قال: ذاك أيضًا عائد إلى العلم والجَهْل وإنّما كان كما رأيتم لعلم العلماء بالحاجة إلى المال، وجَهْل أصحاب المال بفضيلة العلم. وقال الشّاعر[الطّويل]:

تَعَلَّم فليس المرءُ يُخلَق عالما ... وليس أخوعِلْمٍ كمن هو جاهلُ

وإنّ كبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عندَه ... صغيرٌإذا التَفَّتْ عليه المحافِلُ[1]

(١٨ : ٢٣٠ ـ ٢٣١)

**(الحكمة : ٨٢) الأصل: مَن تَرَكَ قَوْلَ: «لَا أَدْرِي» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ.**

**الشّرح:** جاءت امرأة إلى بُزُرْجِمِهْر، فسألته عن مسألةٍ، فقال: لا أدري، فقالت: أيُعْطِيكَ المَلِكُ كلّ سنةٍ كذا كذا وتقول: لا أدري؛ فقال: إنّما يعطيني المَلِكُ على ما أدري، ولوأعطاني على ما لا أدري لما كفاني بيت ماله.

**وكان يقول:** قول«لا أعلم» نصف العلم.

**وقال بعض الفضلاء:** إذا قال لنا إنسان: «لا أدري» علّمناه حتّى يدري، وإن قال: أدري، امتحنّاه حتّى لا يدري. **(١٨ : ٢٣٦)**

---

١ ـ اليتان للشّافعيّ في ديوانه، وفيه «الجحافل» بدل «المحافل».

**(الحكمة: ٨٨): الأصل: أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ.**

**الشّرح:** هذا حقّ، لأنّ العالم إذا لم يظهر من علمه إلّا لَقْلَقَةُ لسانه من غير أن تَظْهَر منه العبادات، كان عالمًا ناقصًا، فأمّا إذا كان يُفيدُ النّاس بألفاظه ومنطقه، ثمّ يشاهده النّاس على قَدَم عظيمةٍ من العبادة، فإنّ النّفع يكون به عامًّا تامًّا، وذلك لأنّ النّاس يقولون: لولم يكن يعتقد حقيقة ما يقوله لما أذأب نفسه هذا الذَّأب.

وأمّا الأول؛ فيقولون فيه: كلّ ما يقوله نِفاقٌ وباطلٌ، لأنّه لوكان يعتقد حقيقة ما يقول لأخَذَ به، ولظَهَر ذلك في حَرَكاته، فيَقْتَدون بفعله لا بقوله، فلا يشتغل أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها. (١٨ : ٢٤٥)

**(الحكمة : ٩٤) الأصل: اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتُهُ قَلِيلٌ.**

**الشّرح:** نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمعوا منه أو من غيره أطرافًا من العِلم والحكمة، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليوم المحدّثون، وكما يقرأ أكثر النّاس القرآن دراسةً ولا يدري من معانيه إلّا اليسير. وأمرهم أن يعقلوا ما يسمعونه عَقْل رِعايةٍ أي معرفة وفهم.

ثمّ قال لهم: «إنّ رُواة العلم كثير، ورُعاته قليل» أي مَن يُراعِيه ويتدبّره، وصدق عليه السلام! (١٨ : ٢٥٤)

**(الحكمة: ١٠٩) وقَالَ عليه السلام: لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ...**

**الشّرح:** ... أمّا المال فإنّ العقل أعْوَدُ منه، لأنّ الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحُمْقه، فعاد أحمق فقيرًا، والعاقل الّذي لا مال له طالما اكتسب المال بعَقْله، وبقي عقله عليه. (١٨ : ٢٧٦)

(الحكمة: ١٤٣) ومن كَلَام لَهُ عليه السلام لِكُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيّ:

قَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ: أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَّانِ، فَلَمَّا أَصْحَرَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، ثُمَّ قَالَ:

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ! إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَك. النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَؤُا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ! الْعِلْمُ خَيْرٌمِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ! مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ! هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْمًا جَمًّا ـ وَأَشَارَبِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ـ لَوأَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِنًا غَيْرَمَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنيَا، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِن شُبْهَةٍ.

أَلَا لَا ذَا وَلَاذَاكَ، أَوْ مَنهُومًا بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ، لَيْسَا مِن رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهًا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِن قَائِمٍ لِلهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، وإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ.

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ! أُولَئِكَ وَاللهِ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ عِندَ اللهِ قَدْرًا، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ

بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آهِ آهِ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ! انصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ثلاثة» قِسْمةٌ صحيحةٌ، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأُمور الإلهيّة: إمّا عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، وإمّا شارع في ذلك، فهو بعد في السّفر إلى الله يطلبه بالتّعلّم والاستفادة من العالم، وإمّا لا ذا ولاذاك ، وهو العامّيّ السّاقط الّذي لا يعبأ الله به. وصَدَق عليه السلام في أنّهم هَمَج رَعاع أتباع كلّ ناعق، ألاتراهم ينتقلون من التّقليد لشخص إلى تقليد الآخر، لأدنى خَيالٍ وأضعف وَهْمٍ!

ثمّ شرع عليه السلام في ذكر العلم وتفضيله على المال، فقال: «العلم يحرسك، وأنت تحرس المال»، وهذا أحد وجوه التّفضيل.

ثمّ ابتدأ فذكر وجهًا ثانيًا، فقال: المال يَنقُص بالإنفاق منه، والعلم لا يَنقُص بالإنفاق، بل يَزْكو، وذلك لأنّ إفاضة العلم على التّلامذة تفيد المعلّم زيادة استعداد، وتقرّر في نفسه تلك العلوم الّتي أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخًا.

فأمّا قوله: «وصَنيع المال يزول بزواله»، فتحته سرّ دقيق حكميّ، وذلك لأنّ المال إنّما يظهر أثره ونفعه في الأُمور الجسمانيّة، والملاذّ الشّهوانيّة، كالنّساء والخيل والأبنيّة والمأكل والمشرب والملابس ونحو ذلك، وهذه الآثار كلُّها تزول بزوال المال أو بزوال رَبّ المال؛ ألا ترى أنّه إذا زال المالُ اضطُرّ صاحبه إلى بَيْع الأبنية والخيل والإماء، ورفض تلك العادة من المآكل الشّهيّة والملابس البهيّة!

وكذلك إذا زال رَبُّ المال بالموت، فإنّه تزول آثار المال عنده: فإنّه لا يبقى بعد الموت آكلًا شاربًا لابسًا، وأمّا آثار العلم فلا يمكن أن تزول أبدًا والإنسان في الدّنيا، ولا بعد خروجه عن الدّنيا، أمّا في الدّنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يعود جاهلًا به، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يلزمها من اللّوازم بعد حصولها محال، فإذًا قد

صَدَق قوله عليه السلام في الفرق بين المال والعلم: «إنّ صَنيع المال يزول بزواله» . أي وصنيع العلم لا يزول ولا يحتاج إلى أن يقول: «بزواله»، لأنّ تقدير الكلام: وصنيع المال يزول، لأنّ المال يزول، وأمّا بعد خروج الإنسان من الدّنيا فإنّ صَنيع العلم لا يزول، وذلك لأنّ صَنيع العلم في النّفس النّاطقة اللّذة العقليّة الدّائمة لدوام سببها، وهو حصولُ العلم في جوهر النّفس الّذي هو معشوق النّفس مع انتفاء ما يشغلها عن التّمتّع به، والتّلذّذ بمصاحبته، والّذي كان يشغلها عنه في الدّنيا استغراقُها في تدبير البدن، وما تورده عليها الحواسّ من الأُمور الخارجيّة، ولا ريب أنّ العاشق إذا خَلا بمعشوقه، وانتفت عنه أسباب الكَدَر، كان في لذّة عظيمة، فهذا هو سرّ قوله: «وصنيع المال يزول بزواله».

**فإن قلت:** ما معنى قوله عليه السلام: «معرفة العلم دِين يُدان به»، وهل هذا إلّا بمنزلة قولك: معرفةُ المعرفةِ أو عِلْمُ العِلْمِ! وهذا كلام مضطرب.

**قلت:** تقديرُه معرفةُ فَضْل العلم أو شَرَف العلم، أو وجوب العلم دِينٌ يُدان به، أي المعرفة بذلك من أمر الدِّين، أي ركن من أركان الدِّين واجبٌ مفروض.

ثمّ شرح عليه السلام حال العلم الّذي ذكر أنّ معرفة وجوبه أو شرفه دِينٌ يُدان به، فقال: «العلم يَكْسِب الإنسانَ الطّاعة في حياته»، أي مَن كان عالما كان لله تعالى مُطيعًا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] .

ثمّ قال: «وجميل الأُحدوثة بعد وفاته»، أي الذّكر الجميل بعد موته.

ثمّ شرع في تفضيل العلم على المال من وجهٍ آخَر، فقال: «العلم حاكم، والمال محكومٌ عليه»، وذلك لِعِلْمك أنّ مَصْلحَتَك في إنفاق هذا المال تنفقه، ولعلمك بأنّ المصلحة في إمساكه تمسكه، فالعِلم بالمصلحة، داعٍ وبالمضرّة صارفٌ، وهما الأمران لحاكمان بالحركات والتّصرّفات إقدامًا، وإحجامًا، ولا يكون القادر قادرًا مختارًا إلّا باعتبارهما، وليسا إلّا عبارةً عن العِلم أو ما يجري مَجْرَى العلم من الاعتقاد والظّنّ،

---

١ ـ فاطر/ ٢٨ .

فإذَن قد بانَ وظهر أنّ العلم من حيث هو عِلْمٌ حاكم، وأنّ المال ليس بحاكمٍ، بل محكوم عليه.

**ثمّ قال** عليه السلام: «هَلَك خُزّان المال وهم أحياء» ،وذلك لأنّ المال المخزون لا فَرْق بينه وبين الصّخرة المدفونة تحت الأرض، فخازنه هالِكٌ لا محالة، لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه، ولم يَصْرِفْه في الوجوه الّتي ندب الله تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المعنويّ، وهو أعظم من الهلاك الحسّيّ.

**ثمّ قال:** «والعلماء باقون ما بقي الدّهر»، هذا الكلام له ظاهر وباطن؛ فظاهره قوله: «أعيانُهم مفقودةٌ، وأمثالهم في القلوب موجودةٌ»، أي آثارهم وما دَوّنوه من العُلوم، فكأنّهم موجودون، وباطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مجازًا، على قول مَن قال ببقاء الأنفس، وأمثالهم في القلوب كنايةٌ ولُغزٌ، ومعناه ذواتهم في حَظيرة القُدُس، والمشاركة بينها وبين القلوب ظاهرة، لأنّ الأمر العامّ الّذي يشملها هو الشّرف، فكما أنّ تلك أشرف عالمها، كذا القلبُ أشرف عالمه، فاستُعير لفظُ أحدهما وعُبّر به عن الآخر.

قوله عليه السلام: «ها إنّ هاهنا لَعِلْمًا جمًّا، وأشار بيده إلى صدره»، هذا عندي إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرف الّذي لايصل إليه إلّا الواحد الفَذّ من العالم ممّن لله تعالى فيه سِرٌّ، وله به اتّصالٌ.

**ثمّ قال:** «لوأصبتُ له حَمَلة!» ومَن الّذي يُطِيق حَمْله! بل مَن الّذي يُطِيق فَهْمه فَضْلًا عن حَمْلِه!

**ثمّ قال:** «بلى أُصيب». ثمّ قسم الّذي يصيبهم خمسة أقسام:

**أحدُهم:** أهل الرّياء والسُّمْعة، الّذين يُظْهِرون الدِّين والعلم ومقصودُهم الدّنيا، فيَجْعلون النّاموس الدِّينيّ شَبَكة لاقتناص الدّنيا.

**وثانيها:** قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِي بصيرةٍ في الأُمور الإلهيّة الغامضة، فيخاف من إفشاء السّرّ إليهم أن تَنقدِح في قلوبهم شُبْهة بأدنَى خاطر، فإنّ مقام المعرفة مَقامٌ خَطِر صَعْبٌ لا يَثبُت تحته إلّا الأفراد من الرّجال، الّذين أُيِّدوا

بالتّوفيق والعصمة.

**وثالثها:** رجلٌ صاحبُ لذّات وطَرب مُشْتهِر بقضاء الشّهوة، فليس من رجال هذا الباب.

**ورابعها:** رجلٌ عُرِفَ بجَمْع المال وادّخاره، لايُنفقه في شَهَواته ولا في غير شَهَواته، فحُكْمه حُكْم القسم الثّالث.

**ثمّ قال** عليه السلام: «كذلك يموت العلم بموت حامِليه»، أي إذا مِتُّ مات العلم الّذي في صَدْري، لأنّي لم أجد أحدًا أدفعُه إليه، وأُوَرِّثه إيّاه.

ثمّ استدرك فقال: «اللّهمّ بلى، لاتخلوالأرض مِن قائمٍ لِلّهِ بحجّة » كَيْلا يخلو الزّمان ممّن هو مُهَيْمِنٌ لله تعالى على عباده، ومُسَيْطِرٌ عليهم، وهذا يكاد يكونُ تصريحًا بمذهب الإماميّة، إلّا أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الّذين وَرَدتْ الأخبارُ النّبويّة عنهم أنّهم في الأرض سائحون، فمنهم مَن يُعْرَف ، ومنهم مَن لايُعْرَف، وأنّهم لا يموتون حتّى يُودِعُوا السّرّ، وهو العِرْفان عند قومٍ آخرين يقومون مقامهم.

ثمّ استنزَر عددُهم، فقال: «وكم ذا !» أي كم ذا القَبيل! وكم ذا الفَريق!

**ثمّ قال:** «وأين أُولئك!» استَبْهَم مكانهم ومحلّهم.

**ثمّ قال:** «هم الأقلّون عَدَدًا، الأعْظمون قَدْرًا» .

ثمّ ذكر أنّ العِلم هَجَم بهم على حقيقة الأمر، وانكَشَف لهم المستور المُغطّى، وباشَروا راحَة اليقين وبَرْد القَلْب وثَلْج العلم، واسْتَلانوا ما شَقّ على المُتْرَفين من النّاس، ووعر عليهم نحو التّوحّد ورَفْض الشّهَوات وخُشونة العيشة.

**قال:** «وأنِسوا بما استَوْحَشَ منه الجاهلون»، يعني العُزْلةَ ومجانَبةَ النّاس، وطُول الصَّمْت، وملازَمةَ الخَلْوة، ونحو ذلك ممّا هو شعار القوم.

**قال:** «وصَحِبوا الدّنيا بأرواح أبدانها مُعلّقةٌ بالمحلّ الأعلى»، هذا ممّا يقوله أصحاب الحكمة مِن تعلّق النّفوس المجرّدة بمبادئها من العقول المفارقة، فمَن كان

أزكى كان تعلّقُه بها أتمّ.

**ثمّ قال:** «أُولئك خُلَفاء الله في أرضه، والدُّعاة إلى دينه»، لا شبهة أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمّى خليفة الله في أرضه، وهو المعنى بقوله سبحانه للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وبقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[2].

**ثمّ قال:** «آهٍ آهٍ شوقًا إلى رؤيتهم؟»، هو عليه السلام أحقّ النّاس بأن تَشتاق إلى رؤيتهم، لأنّ الجنسيّة عِلّة الضّمّ ، والشّيء يشتاق إلى ما هو من سِنخه وسُوسَتِه وطبيعته ، ولمّا كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدهم، لا جَرَم. اشتاقت نفسه الشّريفة إلى مشاهدة أبناء جنسه، وإن كان كلّ واحدٍ من النّاس دون طبقته.

**ثمّ قال لكُمَيل:** «انصرف إذا شئت»، وهذه الكلمة من محاسن الآداب، ومن لطائف الكَلِم، لأنّه لم يقتصر على أن قال: «انصرف» كَيْلا يكون أمرًا وحُكْمًا بالانصراف لا محالة، فيكون فيه نوع علوّ عليه، فاتّبع ذلك بقوله: «إذا شئت» ليخرجه من ذَلّ الحكم وقَهْر الأمر إلى عزّة المشيئة والاختيار. (١٨ : ٣٤٦ ـ ٣٥٢)

**(الحكمة: ٢٠١) الأصل: كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ.**

**الشّرح:** هذا الكلام تحته سِرٌّ عظيمٌ، ورمزٌ إلى معنًى شريف غامض، ومنه أخذ مُثْبِتو النّفس النّاطقة الحجّة على قولهم، ومحصول ذلك أنّ القُوَى الجسمانيّة يُكِلها ويُتعِبُها تَكرارُ أفاعيلها عليها ، كقوّة البصر يُتعِبها تكرار إدراك المرئيّات، حتّى ربّما أذهبها وأبطلها أصلًا، وكذلك قوّة السّمع يُتعبها تكرار الأصوات عليها، وكذلك غيرها

---

١ ـ البقرة / ٣٠ .

٢ ـ الأنعام / ١٦٥ .

من القُوَى الجسمانيّة، ولكنّا وجدنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك[١]، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرت عليه المعقولات ازدادت قوّته العقليّة سعةً وانبساطًا واستعدادًا لإدراك أُمور أُخرى غير ما أدركتْه من قبل، حتّى كان تكرار المعقولات عليها يَشْحذها[٢] ويَصْقلها، فهي إذَن مخالفة في هذا الحكم للقُوَى الجسمانيّة، فليست منها، لأنّها لوكانت منها لكان حُكْمها حُكْم واحدٍ من أخواتها، وإذا لم تكن جسمانيّة فهي مجرّدة، وهي الّتي نسمّيها بالنّفس النّاطقة. (١٩ : ٢٥)

**(الحكمة: ٢٨٠) وقَالَ عليه السلام: لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شَكًّا، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وَإِذَا تَيَقَّنتُمْ فَأَقْدِمُوا.**

**الشّرح:** هذا نهيٌ للعلماء عن تَرْك العمل، يقول: لا تجعلوا عِلْمَكم كالجهل، فإنّ الجاهل قد يقول: جَهِلتُ فلم أعمَل، وأنتم فلا عُذْر لكم، لأنّكم قد علمتم وانكَشَف لكم سِرّ الأمر، فوجب عليكم أن تعملوا، ولا تجعلوا عِلْمَكم جهلًا، فإنّ مَن عَلِم المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه، ثمّ لم يأتِه كان سفيهًا. (١ : ١٦٤)

**(الحكمة: ٢٨٧) الأصل: لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ.**

**الشّرح:** هذا مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣]. أي ليس العَمَى عَمَى العين، بل عَمَى القلب.

كذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: ليست الرّؤية مع العيون، وإنّما الرّؤية الحقيقيّة مع العقول.

---

١ ـ أ: «هذا».

٢ ـ يشحذها: يحدّها.

٣ ـ الحجّ / ٤٦.

وقد ذهب أكابر الحكماء إلى أنّ اليقينيّات هي المعقولات لا المحسوسات، قالوا: لأنّ حُكْمَ الحسّ في مَظِنّة الغلط، وطال ما كَذَب الحسّ، واعتقدنا بطريقه اعتقادات باطلة، كما نرى الكبير صغيرًا، والصّغير كبيرًا، والمتحرّك ساكنًا، والسّاكن متحرّكًا، فأمّا العقل فإذا كان المعقول به بديهيًّا أو مستندًا إلى مقدّمات بديهيّة، فإنّه لايقَع فيه غَلَط أصلًا. (١٩ : ١٧٣)

**(الحكمة: ٢٩٠) الأصل: قَطَعَ الْعِلْمُ عُذْرَالْمُتَعَلِّلِينَ.**

**الشّرح:** هذا أيضًا قريب ممّا تقدّم، يقول: قَطَعَ العلمُ عُذر الّذين يُعلِّلون أنفسهم بالباطل، ويقولون: إنّ الرّبّ كريم رحيم، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفسنا بالعبادة، كما قال الشّاعر [الوافر]:

قَدِمتُ على الكريم بغيرزادٍ ... من الأعمال ذا ذَنبٍ عظيمِ

وسُوء الظّنّ أن تَعتَدّ زادًا ... إذا كانَ القَدومُ على الكريمِ

وهذا هو التّعليل بالباطل، فإنّ الله تعالى وإن كان كريمًا رحيمًا عفوًّا غفورًا، إلّا أنّه صادقُ القول، وقد توعّد العُصاةَ وقال: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَلَفِي جَحِيمٍ *يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ *وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾[١]، وقال: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٢]، ويكفي في رحمته وعفوه وكَرَمه أن يغفر للتّائب أو لمن ثوابُه أكثر ممّا يستحقّه من العقاب، فالقول بالوعيد معلوم بأدلّة السّمع المتظاهرة المتناصرة الّتي قد أطنَب أصحابُنا في تعدادها وإيضاحها، وإذا كان الشّيء معلومًا، فقد قَطَعَ العلم به عُذر أصحاب التّعلّل والتّمنّي، ووجب العمل بالمعلوم ورفض ما يخالفه. (١٩ : ١٧٦)

---

١ ـ الانفطار / ١٤ ـ ١٦.

٢ ـ ق / ٢٨ ـ ٢٩.

**(الحكمة: ٢٩٤) الأصل: إِذَا أَرْذَلَ اللهُ عَبْدًا حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ.**

**الشّرح: ... وكان يقال:** مِن علامة بُغض الله تعالى للعَبْد أن يُبَغِّض إليه العِلْمَ.

وقال الشّاعر [الوافر]:

شَكَوْتُ إلى وَكيعٍ سُوء حِفْظي ... فأرْشَدَني إلى تَرْك المعاصِي

وقال لأنّ حِفْظَ العلم فَضْلٌ ... وفَضْلُ الله لا يؤتيه عاصِي

وقال رجلٌ لحكيم: ما خير الأشياء لي؟ قال: أن تكون عالمًا، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون مُتْريًا، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون شاريًا، قال: فإن لم أكن؟ قال: فأن تكون ميّتًا.

أخذ هذا المعنى بعض المحدّثين، فقال [المتقارب]:

إذا فاتَك العِلْمُ جُدْ بالوَرَى ... وإن فاتَك المال سُدّ بالقراعِ

فإن فاتَ هذا وهذا وذاكَ ... فمُتْ فحياتُك شرّ المتاعِ

وقال أيضًا في المعنى بعينه [المتقارب]:

ولولا الحجا والقِرا والقراع ... لما فَضَل الآخِرَ الأوّلَا

ثلاثٌ متى يخْلُ منها الفَتى ... يكن كالبَهيمة أو أرْذَلَا

**(١٩: ١٨٢)**

**(الحكمة: ٤٦٣) الأصل: مَنهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنيَا.**

**الشّرح: ...** فأمّا طالب العلم العاشق له، فإنّه لا يَشْبَع منه أبدًا، وكلّما استكثَر منه زادَ عِشْقُه له، وتَهالُكُه عليه.

مات أبو عثمان الجاحظ والكتاب على صَدْره.

وكان شيخنا أبو عليّ ﷺ في النَّزْع وهو يملي على ابنه أبي هاشم مسائل في علم الكلام.

وكان القاضي أحمدُ بن أبي دُواد يأخذ الكتابَ في خُفّه وهو راكب، فإذا جلس في دار الخليفة اشتغل بالنّظر فيه إلى أن يَجلِس الخليفة، ويدخل إليه.

وقيل: ما فارق ابن أبي دُواد الكتاب قطّ إلّا في الخَلَاء. وأعرف أنا في زماننا مَن مَكَث نحو خمسِ سنين لايَنامُ إلّا وقتَ السَّحَر صَيْفًا وشِتاءً مُكِبًّا على كتابٍ صَنَّفه، وكانت وِسادته الّتي يَنامُ عليها الكتاب. (٢٠ : ١٧٤)

**(الحكمة: ٤٤٤) الأصل: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.**

**الشّرح:** هذه من ألفاظه الشّريفة الّتي لا نظير لها، وقد تقدّم ذِكْرُها وذِكْر ما يناسبها.

**وكان يقال:** مَن جَهِل شيئًا عاداه.

وقال الشّاعر[البسيط]:

جهلتَ أمرًا فأبدَيْتَ النَّكيرَ له والجاهِلُونَ لأهْلِ العِلْمِ أعداءُ

**وقيل لأفلاطون:** لِمَ يُبْغض الجاهلُ العالمَ، ولا يُبغِضُ العالمُ الجاهلَ؟ فقال: لأنّ الجاهل يستشعر النّقص في نفسه، ويظنّ أنّ العالمَ يحتقره، ويَزْدَريه فيُبْغِضه، والعالم لا نَقْص عنده ولا يظنّ أنّ الجاهل يحتقره، فليس عنده سبب لبغض الجاهل.

(٢٠ : ٨٦)

**(الحكمة: ٤٨٣) وَقَالَ عليه السلام: مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَن يَتَعَلَّمُوا، حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَن يُعَلِّمُوا.**

**الشّرح:** تعليم العِلْم فَرْضٌ كفايةٌ، وفي الخبر المرفوع: «مَن عَلِم عِلْمًا وكَتَمه ألجَمَه اللهُ يوم القيامة بلِجامٍ من نارٍ».

وروى مُعاذُ بن جَبَل عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «تعلّموا العِلْمَ، فإنّ تعلُّمه خشيةُ الله، ودِراسَتَه تسبيحٌ، والبَحْث عنه جهادٌ، وطَلَبه عبادةٌ، وتعليمه صَدَقةٌ، وبَذْله لأهله قُرْبةٌ، لأنّه مَعالم الحلال والحرام، وبيانُ سبيلِ الجنّة، والمؤنِس في الوحشة، والمحدِّث

في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصّاحب في الغُربة، والدّليل على السَّرّاء، والمُعين على الضَّرّاء، والزَّيْن عند الإخلاء، والسّلاح على الأعداء».

ورُئِيَ واصلِ بن عطاء يكتب من صبيّ حديثًا، فقيل له: مِثْلُك يكتب مِن هذا! فقال: أما إنّي أحفَظُ له منه، ولكنّي أردت أن أُذيقه كأس الرّياسة، ليدعَوه ذلك إلى الازدياد من العلم.

وقال الخليل: العلوم أقفال، والسّؤالات مفاتيحها.

وقال بعضهم: كان أهل العلم يضنّون بعلمهم عن أهل الدّنيا فيرغبون فيه ويبذلون لهم دنياهم، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدّنيا فزهدوا فيه وضنّوا عنهم بدنياهم.

وقال بعضهم: ابْذُل عِلْمَك لمن يطلبه، وادْعُ إليه مَن لا يطلبه، وإلّا كان مَثَلك كمن أُهديتْ له فاكهة، فلم يَطْعَمها ولم يُطْعِمْها حتّى فسدت. (٢٠: ٢٤٧ ـ ٢٤٨)

**(الحكمة: ٤١٢) الأصل: مَا اسْتَوْدَعَ اللهُ امْرَأً عَقْلًا إِلَّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْمًا مَا.**

**الشّرح:** لابدّ أن يكون للبارئ تعالى في إيداع العَقْل قَلْبَ زيد مثلًا غَرَضٌ، ولا غَرَضَ إلّا أن يستدلّ به على ما فيه نجاتُه وخلاصُه، وذلك هو التّكليف، فإن قصّر في النّظر وجَهل وأخطأ الصّواب فلا بدّ أن يُنقذه عقلُه من وَرْطةٍ من وَرَطات الدّنيا، وليس يخلو أحدٌ عن ذلك أصلًا، لأنّ كلّ عاقل لا بدّ أن يتخلّص من مضرّة سبيلُها أن تُنَال بإعمال فكرته وعقله في الخلاص منها، فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّينيّ، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة، أو يُنقذ مِن بعض مَهالك الدّنيا وآفاتها، وعلى كلّ حال فقد صحّ قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعة، ورُوِيتْ: «إلّا استنفذَه به يومًا مَا».

وعنه صلى الله عليه وآله: «العقل نُورٌ في القلب يُفرّق به بين الحقّ والباطل».

وعن أنس، قال: سُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرّجل يكون حَسَنَ العقل كثيرَ

الذّنوب، فقال: ما مِن بَشَرٍ إلّا وله ذنوب وخَطايَا يَقْتَرِفها، فمن كانت سجيّتُه العقل، وغَريزته اليقين، لم تضرّه ذنوبه. قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: كلّما أخطأ لم يَلْبَثْ أن يَتدارَكَ ذلك بتوبةٍ وندامةٍ على ما فرط منه، فيمحو ذنوبه، ويبقى له فَضْل يُدْخَل به الجنّة.

## [نُكَت في مدح العقل وما قيل فيه:]

وقد تقدّم من قولنا في العقل وما ذُكر فيه ما فيه كفاية، ونحن نذكرها هنا شيئًا آخر:

**كان يقال:** العاقل يُرَوِّي ثمّ يَرْوِي ويَخْبُر ثمّ يُخْبِر.

وقال عبد الله بن المعتزّ: ما أبْيَنَ وجوهَ الخير والشّرّ في مرآة العقل!

لقمان: يا بنيّ ، شاوِرْ مَن جَرّب الأُمور، فإنّه يُعْطيكَ مِن رَأيه ما قام عليه بالغَلاء، وتأخذه أنتَ بالمجّان.

أردشير بن بابك: أربعةٌ تحتاج إلى أربعةٍ: الحَسَب إلى الأدب، والسّرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودّة، والعقل إلى التّجربة.

الإسكندر: لا تحتقر الرّأي الجزيل من الحقير، فإنّ الدُّرّة لا يُستهان بها لهوان غائِصها .

مَسْلَمة بن عبد الملك: ما ابتدأتُ أمرًا قطُّ بحَزْمٍ فرجعتُ على نفسي بلائِمةٍ، وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أضعتُ الحَزْم فسُرِرْت وإن كانت العاقبة لي.

وَصَف رجلٌ عَضُد الدّولة بن بُوَيه، فقال: لو رأيتَه لرأيتَ رجلًا له وَجْهٌ فيه ألْفُ عَين، وفَمٌ فيه ألْفُ لسانٍ، وصَدْرٌ فيه ألْفُ قَلْبٍ.

أثنَى قومٌ من الصّحابة على رجل عند رسول الله ﷺ بالصّلاة والعبادة وخِصال الخير حتّى بالَغوا، فقال ﷺ: كيف عَقْلُه؟ قالوا: يا رسول الله نخبرك باجتهاده في العبادة وضُروب الخَير، وتسأل عن عَقْله! فقال: إنّ الأحمق ليصيبُ بحُمْقه أعظم ممّا يصيبُه الفاجرُ بفُجوره، وإنّما ترتفع العِباد غَدًا في دَرَجاتهم، ويَنالُون من الزُّلْفى من ربّهم على قَدْر عقولهم.

الرَّيحانيّ: العقل مَلِكٌ، والخِصال رعيّته، فإذا ضَعُف عن القيام عليها، وَصَل الخَلَل إليها. وسمع هذا الكلام أعرابيّ، فقال: هذا كلامٌ يَقْطُر عَسَلُه.

قال مَعْنُ بن زائدة: ما رأيتُ قَفَا رجل إلّا عرفتُ عقله، قيل: فإن رأيتَ وَجْهَه؟ قال: ذا كتاب يُقْرأ.

بعض الفلاسفة: عقل الغَريزة مُسلمٌ إلى عَقْل التّجربة.

بعضهم: كلّ شيء إذا كَثُر رَخُص إلّا العقل، فإنّه إذا كَثُر غَلَا.

قالوا في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾[1]، أي مَن كان عاقلًا.

ومن كلامهم: العاقل بخشونة العَيْش مع العُقَلاء آنَس منه بلِين العَيْش مع السُّفَهاء.

أعرابيّ: لوصُوِّر العقل أظْلَمَتْ معه الشّمس، ولو صُوِّر الحُمْق لأضاء معه اللّيل.

قيل لحكيم: متى عَقَلْتَ؟ قال: حين وُلِدْتُ، فأنكروا ذلك، فقال: أمّا أنا فقد بكيتُ حين جُعْت، وطلبتُ الثَّدْيَ حين احتجْتُ، وسَكَتُّ حين أُعطِيت، يريد أنّ مَن عَرَف مقادِيرَ حاجته فهو عاقل.

المأمون: إذا أنكرتَ مِن عَقْلِك شيئًا فاقدَحْه بعاقلٍ.

بُزُرْجُمِهْر: العاقل الحازم إذا أشْكَل عليه الرّأيُ بمنزلة مَن أضلّ لؤلؤةً فجَمع ما حولَ مسقطها من التُّراب، ثمّ التَمَسها حتّى وَجَدها، وكذلك العاقل يجمع وجوه الرّأي في الأمر المُشكِل، ثمّ يَضْرِب بعضَها في بعض حتّى يستخلص الرّأي الأصوب.

كان يقال: هجينٌ عاقلٌ خيرٌ من هِجان جاهِل.

كان بعضهم إذا استُشير قال لمشاوِره: انظُرْني حتّى أصقُلَ عقلي بنَوْمة.

إذا نزلت المقادير، نزلت التّدابير. مَن نَظَر في المَغَابّ، ظَفر بالمحابّ. مَن استدّت عَزائمه اشتدّت دَعائمه. الرّأي السّديد، أَجْدى مِن الأيد الشّديد. بعضهم [الطّويل]:

وما ألف مَظْرُور السِّنان مشدّد يُعارِض يَوْم الرَّوع رأيًا مسدَّدَا

---

١ ـ يس / ٧٠.

أبو الطّيّب [الكامل]:

الرّأيُ قبلَ شَجاعةِ الشّجعانِ هو أوّلٌ وَهْيَ المحلّ الثّاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ بَلَغَتْ من العَلياء كلّ مكانِ
ولربّما طَعَنَ الفَتى أقرانَهُ بالرّأي قبل تَطاعُن الأقرانِ
لولا العقولُ لكان أدنَى ضَيْغَمٍ أدنَى إلى شَرَفٍ مِنَ الإنسانِ
ولَما تَفاضَلَت النّفوسُ ودَبَّرَتْ أيدي الكُماةِ عَواليَ المُرّانِ

ذكر المأمون وَلَد عليّ عليه السلام، فقال: خُصّوا بتدبير الآخرة، وحُرِموا تدبير الدّنيا.

**كان يقال:** إذا كان الهَوَى مقهورًا تحت يد العَقْل، والعَقْل مُسلّط عليه، صُرِفتْ مَساوِئ صاحبه إلى المحاسن، فعُدّت بلادتُه حِلْمًا، وحِدّته ذَكاءً، وحَذَره بلاغةً، وعِيُّه صَمْتًا، وجُبْنه حَذَرًا، وإسرافه جُودًا.

وذكر هذا الكلام عند بعضهم، فقال: هذه خِصّيصة الحَظّ نقلها مرتّب هذا الكلام إلى العقل.

سمع محمّد بن يَزْداد ـ كاتبُ المأمون ـ قولَ الشّاعر[الطّويل]:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عَزيمةٍ فإنّ فسادَ الرّأي أن تتردّدا

فأضاف إليه [الطّويل]:

وإن كنتَ ذا عَزْمٍ فأنفِذه عاجلًا فإنّ فساد العَزْم أن يتفنّدَا

## الفصل الثّاني: [في الحكمة]

(الخطبة: ١٣٣) ... وَاعْلَمُوا! أَنَّهُ لَيْسَ مِن شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنهُ وَيَمَلُّهُ، إِلَّا الْحَيَاةَ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ ...

الشّرح: ... فأمّا قوله عليه السلام: «وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة»، إلى قوله: «وفيها الغِنَى كلّه والسّلامة»، ففصل آخر غير ملتئم بما قبله، وهو إشارة إلى كلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله رواه لهم، ثمّ حضّهم على التّمسّك به، والانتفاع بمواعظه، وقال: إنّه بمنزلة الحكمة الّتي هي حياة القلوب، ونور الأبصار، وسَمْع الآذان الصّمّ، وريّ الأكباد الحَرَّى، وفيها الغِنَى كلّه، والسّلامة، والحكمة المشبّه كلام الرّسول صلى الله عليه وآله بها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[2]، وفي قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3]، وهي عبارة عن المعرفة بالله تعالى، وبما في مبدعاته من الأحكام الدّالّة على علمه، كتركيب الأفلاك، ووضع العناصر مواضعها، ولطائف صنعة الإنسان وغيره من الحيوان، وكيفيّة إنشاء النّبات والمعادن، وما في العالَم من القُوَى المختلفة، والتّأثيرات المتنوّعة، الرّاجع ذلك كلُّه إلى حكمة الصّانع وقدرته وعلمه، تبارك اسمه! (٨: ٢٩٣ ـ ٢٩٤)

(الخطبة: ١٨٣) ... قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، فَهِيَ عِندَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِن بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِن خَلَائِفِ أَنبِيَائِهِ.

---

١ ـ البقرة / ٢٦٩.

٢ ـ لقمان / ١٢.

٣ ـ مريم / ١٢.

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جُنّتها»، الجُنّة: ما يستتر به من السّلاح كالدّرع ونحوها، ولبس جُنّة الحكمة قمع النّفس عن المشتهيات، وقطع علائق النّفس عن المحسوسات، فإنّ ذلك مانع للنّفس عن أن يصيبها سهام الهوى، كما تمنع الدّرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرّماية. ثمّ عاد إلى صفة هذا الشّخص، فقال: «وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها»، أي شدّة الحرص والهمّة.

ثمّ قال: «والمعرفة بها»، أي والمعرفة بشَرَفِها ونفاستها.

ثمّ قال: «والتّفرّغ لها»، لأنّ الذّهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد، وإنّما يدرك الحكمة بتخلية السّرّ من كلّ ما مرّ سواها.

قال:«فهي عند نفسه ضالّته الّتي يطلبها»، هذا مثل قوله عليه السلام: «الحكمة ضالّة المؤمن»، ومن كلام الحكماء: لا يمنّعك من الانتفاع بالحكمة حقارة مَن وجدتها عنده، كما لا يمنعك خُبْث تراب المَعْدِن من التقاط الذّهب. (١٠: ٩٦ ـ ٩٧)

**(الحكمة: ٧٧) الأصل: خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ.**

قَالَ الرّضيّ رحمه الله: وقد قال عليّ عليه السلام في مثل ذلك: الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ ولَو مِن أَهْلِ النِّفَاقِ.

**الشّرح:** خَطَب الحجّاج فقال: إنّ الله أمَرَنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدّنيا، فلَيْتَنا كُفِينا مؤونة الآخرة، وأُمِرْنا بطلب الدّنيا !

فسمعها الحسن، فقال: هذه ضالّة المؤمن خَرَجتْ مِن قَلْب المنافق.

وكان سُفيان الثّوريّ يُعجِبه كلام أبي حمزة الخارجيّ، ويقول: ضالّة المؤمن على لسان المنافق. تَقْوَى الله أكْرَمُ سَريرة، وأفضَلُ ذخيرة، منها ثقةُ الواثق، وعليها مِقَة الوامق. لِيَعْمَل كلّ امرئٍ في مكان نفسه وهو رَخِيُّ اللَّبَب، طَويلُ السَّبَب، ليَعرَف مَمدّ يَدِه وموضعَ قَدَمِه، وليَحْذَر الزَّلَل، والعِلَل المانعةَ من العمل. رَحِم الله عبدًا آثَرَ

التَّقوَى، واستَشْعَر شِعارها، واجتَنى ثمارها، باعَ دارَ البقاء بدارِ الآباد، الدَنيا كروضة يونق مَرْعاها، وتُعْجِب مَن رآها، تَمُجّ عُروقُها الثّرى، وتنطف فروعُها بالنَّدَى، حتّى إذا بلغ العُشْب إناه، وانتهى الزِّبْرِج مُنتهاه، ضَعُف العمود، وذوى العُود، وتولىَ من الزّمان ما لا يعود، فحتّت الرِّياحُ الوَرَق، وفرّقتْ ما كان اتّسق، فأصبحتَ هَشيمًا، وأمْست رَميمًا. (١٨ : ٢٢٩)

**(الحكمة: ٨٩) وقَالَ عليه السلام: إنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَة.**

**الشّرح:** لوقال: إنّها تَمَلّ كما تَمَلّ الأبدان، فأحمِضُوا[1] كما نقل عن غيره لحُمِل ذلك على أنّه أراد نَقْلَها إلى الفُكاهات والأخبار والأشعار، ولكنّه لم يقل ذلك، ولكن قال: «فابْتَغوا لها طَرائِفَ الحكمة»، فوجب أن يُحْمَل كلامه عليه السلام على أنّه أراد أنّ القلوب تَمَلّ من الأنظار العقليّة، في البراهين الكلاميّة على التّوحيد والعدل، فابتغوا لها عند مَلالِها طرائف الحكمة، أي الأمثال الحكميّة الرّاجعة إلى الحكمة الخلقيّة ــ كما نحن ذاكِرُوه في كثير من فصول هذا الباب ــ مثل مدح الصّبر، والشّجاعة، والزُّهْد والعِفّة ، وذمّ الغضب والشّهوة، والهَوَى، وما يَرْجِع إلى سياسة الإنسان نفسه، وولده، ومنزله، وصديقه، وسلطانه ونحو ذلك، فإنّ هذا علمٌ آخر وفنّ آخر، لاتحتاج القلوب فيه إلى فِكْرٍ واستنباطٍ، فتَتْعَب وتَكِلّ بترادُف النّظر والتّأمّل عليها، وفيه أيضًا لذّةٌ عظيمةٌ للنّفس.

وقد جاء في إجمام النّفس كثيرٌ.

قال بعضهم: رَوِّحوا القلوب برَواتِع الذّكر.

وعن سَلْمان الفارسيّ: أنا أحتسب نَوْمَتي كما أحتسب قَوْمَتي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنّ نفسي راحِلتي، إن كلّفتُها فوق طاقتِها انقطعتْ بي.

---

١ ـ يقال : أحمض القوم إحماضًا ؛ إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث و الكلام ، كما يقال : فكّه و منفكّه .

وقال بعضهم: رَوِّحوا الأذهان، كما تروِّحوا الأبدان.

وقال أردشيرُ بن بابك: إنّ للآذان مَجّة، وللقلوب مَلّة ، ففَرِّقوا بين الحكمتين [١] بلَهْوٍ يَكُن ذلك اسْتِجْمامًا. (١٨ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧)

**(الحكمة: ١٩٣) وَقَالَ عليه السلام: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ.**

**الشّرح:** هذا قد تكرّر، وتكرّر منّا ذِكْرُما قيل في إجمام النّفس، والتّنفيس عنها من كَرَب الجِدّ بروح الإمماض [٢]، وفسّرنا معنى قوله عليه السلام: «فابتغوا لها طَرائِفَ الحكمة»، وقلنا : المراد ألّا يجعل الإنسان وقته كلّه مصروفًا إلى الأنظار العقليّة في البراهين الكلاميّة والحكميّة، بل ينقلها من ذلك أحيانًا إلى النّظر في الحكمة الخُلُقيّة، فإنّها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النّفس والخاطر.

فأمّا القول في الدُّعابة؛ فقد ذكرناه أيضًا فيما تقدّم، وأوضحنا أنّ كثيرًا من أعيان الحُكَماء والعُلَماء كانوا ذوي دُعابة مُقْتصدة لا مُسْرِفة، فإنّ الإسراف فيها يُخرج صاحبَه إلى الخلاعة، ولقد أحسن مَن قال [الطّويل]:

أفِدْ طَبْعَك المكدودَ بالجِدّ راحةً ... يجمّ وعَلِّله بشيءٍ من المَزْحِ

ولكن إذا أعطَيْته ذاك فَلْيَكُن ... بمقدارِ ما يُعطى الطّعامُ من المِلْحِ

(١٩ : ١٦)

**(الحكمة: ٢٧١) الأصل: إِنَّ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَابًا كَانَ دَوَاءً، وَإِذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً.**

---

١ ـ د : «الحكمين» .

٢ ـ الإمماض : التّنقّل من الجدال المزح .

**الشّرح:** كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحُسن عقيدة النّاس فيه نحو كلام الحُكَماء وكلام الفُضَلاء والعُلَماء من النّاس إذا كان صوابًا كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً، لأنّ النّاس يحذّون حَذْو المتكلّم به، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنّواهي، فإذا كان حقًّا أفلحوا، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ، وكانوا كالدَّواء المُبرِئ للسُّقم، وإذا كان ذلك الكلام خطأً واتّبعوه خَسِروا ولم يُفْلِحوا، فكان بمنزلة الدّاء والمَرَض. (١٩ : ١٥٣)

## الفصل الثّالث: [في العمل]

**(الخطبة: ١٧٧) ... الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالْاِسْتَقَامَةَ الْاِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ!**

**الشّرح:** ... أمرهم بلزوم العمل، ثمّ أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبرّ عنها بالنّهاية، وهي آخر أحوال المكلّف الّتي يفارق الدّنيا عليها، إمّا مؤمنًا أو كافرًا، أو فاسقًا، والفعل المقدّر هاهنا: راعوا وأحسنوا وأصلحوا، ونحو ذلك. ثمّ أمرهم بالاستقامة وأن يلزموها، وهي أداء الفرائض. ثمّ أمرهم بالصّبر عليها وملازمته، وبملازمة الورع ... .

**(١٠: ٢٤ ــ ٢٥)**

**(الخطبة:٢٢٥)...فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوبَةُ تَنفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ... .**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «والعمل ينفع»، أي اعملوا في دار التّكليف، فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع ... .

**(١٣ : ٦)**

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِن كَثِيرٍ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «التّاجر مخاطر» هذا حقّ، لأنّه يتعجّل بإخراج الثّمن ولا يعلم: هل يعود أم لا ! وهذا الكلام ليس على ظاهره، بل له باطن، وهو أنّ مَن مزج الأعمال الصّالحة بالأعمال السّيّئة، مثل قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[1]، فإنّه مخاطر، لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السّيّئات تحبط أعماله الصّالحة، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصّالحة يُكفّر تلك السّيّئات، والمراد أنّه لا يجوز للمكلّف أن يفعل إلّا الطّاعة أو المباح.

قوله: «ربّ يسير أنمى من كثير»، قد جاء في الأثر: «قد يجعل الله من القليل الكثير، ويجعل من الكثير البركة». وقال الفَرَزْدق [الطّويل]:

---

١ ــ التّوبة / ١٠٢ .

فإنّ تميمًا قبل أن يَلِدَ الحصَى أقام زمانًا وهو في النّاس واحِدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ: رأينا بالبَصْرة أخوَيْن، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله ـ وكان أكثر من مائتَي ألف درهم ـ ولم يعط الآخر شيئًا، وكان يتّجر في الزّيت، ويكتسب منه ما يصرفه في نفقة عياله، ثمّ رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موت الأخوَيْن من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم. (١٦: ١٠٣ ـ ١٠٤)

**(كتابه عليه السلام: ٦٩) ... وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَيُكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَى مِنهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنهُ صَاحِبُهُ أَنكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنهُ.**

**الشّرح:** ... ومنها قوله: «واحذَرْ كلّ عَمَلٍ يرضاه صاحبه ...»، وهذه الوصايا الثّلاث متقاربةٌ في المعنى، ويشملها معنى قول الشّاعر[الكامل]:

لا تَنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثلَه عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عَظيمُ

وقال الله تعالى حاكيًا عن نبيّ من أنبيائه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[1].

ومن كلام الجُنَيد الصّوفيّ: ليَكُن عَمَلُك من وراء سترك، كعَمَلك من وراء الزّجاج الصّافي.

وفي المثَل وهو منسوب إلى عليّ عليه السلام: «إيّاك وما يُعتذَر منه». (١٨: ٤٤ ـ ٤٥)

**(الحكمة: ١١٧) الأصل: شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ.**

---

١ ـ هود / ٨٨ .

**الشّرح**: أخذ هذا المعنى بعض الشُّعراء، فقال [البسيط]:

تفْنَى اللّذَاذَةُ ممّن نال بُغْيَتَهُ مِن الحرام ويَبْقَى الإثمُ والعَارُ
تُبْقِي عواقبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها لَا خَيرَ في لذّةٍ من بعدها النّارُ

(١٨ : ٣١٠)

**(الحكمة: ١٢٢) الأصل: مَن قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ.**

**الشّرح**: هذا مخصوص بأصحاب اليقين، والاعتقاد الصّحيح، فإنّهم الّذين إذا قصّروا في العمل ابتلوا بالهمّ، فأمّا غيرهم من المُسْرِفين على أنفسهم وذوي النّقص في اليقين والاعتقاد، فإنّه لا هَمّ يَعْرُوهم وإن قَصّروا في العمل، وهذه الكلمة قد جرّبناها من أنفسنا فوجدنا مِصداقَها واضحًا، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضة الظّهر مَثَلًا حتّى تَغيبَ الشّمس وإن كان أخَلّ بها لعُذْرٍ وَجَد ثِقْلًا في نفسه وكَسَلًا وقِلّةَ نَشاط، وكأنّه مشكولٌ بشِكالٍ أومقيَّدٌ بقيدٍ، حتّى يقضي تلك الفريضة، فكأنّما أُنشِطَ من عِقال. (١٨ : ٣١٦)

**(الحكمة : ٣٤٤) الأصل: الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ.**

**الشّرح**: مَن خَلا مِن العَمَل فقد أخَلّ بالواجبات، ومَن أخَلّ بالواجبات فقد فَسَق، والله تعالى لا يَقْبَل دُعاء الفاسق.

وشَبَّهه عليه السلام بالرّامي بلا وَتَر، فإنّ سَهْمَه لا يَنفذ. (١٩ : ٢٥٢)

**(الحكمة: ٣٧٢) الأصل: الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَن عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِن أَجَابَ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنهُ.**

**الشّرح**: لا خَيرَ في علمٍ بلا عَمَل، والعِلْم بغير العمل حُجّةٌ على صاحبه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يشعر بأنّه لا عالِمَ إلّا وهو عامل، ومرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان، ولا رَيْبَ أنّ العارف لابدّ أن يكون عاملًا.

ثمّ استأنف، فقال: «العلم يَهْتف بالعمل» أي يُنادِيه، وهذه اللّفظة استعارة.

قال: «فإن أجابَه وإلّا ارتحل»، أي إن كان الإنسان عالمـا بالأُمور الدِينيّة، ثمّ لم يَعْمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه، ولم يَمُت إلّا وهو معدود في زُمْرة الجاهلين، ويمكن أن يفسّر على أنّه أراد بقوله: «ارتحل»: ارتحَلَتْ ثَمَرتُه ونتيجتُه، وهي الثّواب ، فإنّ الله تعالى لايُثيب المكلّف على عِلْمه بالشّرائع إذا لم يعمل بها، لأنّ إخلالَه بالعمل يُحبِط ما يستحقّه من ثواب العلم لوقَدَّرنا أنّه استحقّ على العلم ثوابًا، وأَتَى به على الشّرائط الّتي معها يستحقّ الثّواب. (١٩ : ٢٨٤)

**(الحكمة: ٤٢٩) الأصل: مَن أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَن عَمِلَ لِدِينِهِ، كَفَاهُ اللهُ أَمْرَدُنيَاهُ، وَمَن أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.**

**الشّرح:** لا رَيْب أنّ الأعمال الظّاهرة تَبَعٌ للأعمال الباطنة، فمَن صَلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس، وذلك لأنّ القلب أميرٌ مُسَلَّطٌ على الجوارح، والرّعيّة تَتْبَع أميرَها.

ولا رَيْب أنّ مَن عَمِل لدينه كفاه الله أمر دنياه، وقد شهد بذلك الكتاب العزيز في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ﴾[1].

ولهذا أيضًا علّة ظاهرة، وذاك أنّ مَن عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنّه لايخفى حالُه في أكثر الأمر عن النّاس، ولا شبهة أنّ النّاس إذا حَسُنتْ عقيدتُهم في إنسان وعَلِموا مَتانَة دينه بَوّبوا له إلى الدّنيا أبوابًا لا يحتاج أن يتكلّفها، ولايَتْعَب فيها، فيأتيه رزقُه من غير كُلْفةٍ ولاكَدٍّ، ولا ريب أنّ مَن أحْسَنَ فيما بينه وبين الله أحسَنَ الله ما بينه وبين النّاس، وذلك لأنّ القلوب بالضّرورة تميل إليه وتحبّه، وذلك لأنّه إذا كان مُحسنًا بينه وبين النّاس عَفَّ عن أموال النّاس ودِمائِهم وأعراضِهم، وترك الدّخول فيما لا يَعنيه ، ولا شبهة أنّ مَن كان بهذه الصّفة فإنّه يحسن ما بَينَه وبين النّاس. (٢٠ : ٦٨)

---

١ ــ الطّلاق / ٢ و ٣ .

## الفصل الرّابع: [أقوال في التّجربة]

**(كتابه ﷺ: ٣١)...وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُمَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «العقل حفظ التّجارب»، من هذا أخذ المتكلّمون قولهم: العقل نوعان: غريزيّ، ومكتسب، فالغريزيّ العلوم البديهيّة، والمكتسب ما أفادته التّجربة وحفظته النّفس.

و...قوله: «خيرما جرّبت ما وعظك»، مثل هذا قول أفلاطون: إذا لم تعظك التّجربة فلم تجرّب، بل أنت ساذج كما كنت ... . (١٦ : ١٠٢)

**(الحكمة: ٨٣) الأصل: رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن جَلَدِ الْغُلَامِ.**

**وَيُرْوَى: «مِن مَشْهَدِ الْغُلَامِ».**

**الشّرح:** إنّما قال كذلك، لأنّ الشّيخ كثير التّجربة، فيبلغ من العدوّ برأيه ما لا يبلغ بشجاعته الغُلام الحَدَث غير المجرّب، لأنّه قد يغرّر بنفسه فيُهلِك ويُهْلِك أصحابه، ولا رَيْب أنّ الرّأي مقدّم على الشّجاعة، ولذلك قال أبو الطّيّب [الكامل]:

الرّأيُ قبلَ شَجاعةِ الشُّجْعانِ هو أوّلٌ وَهْيَ المحلّ الثّاني
فإذا هما اجتَمَعا لنفسٍ مِرّةٍ بلغتْ من العَلْيَاء كلّ مكانِ
ولرُبّما طَعن الفتى أقرانه بالرّأي قبلَ تطاعُن الأقرانِ
لولا العقولُ لكانَ أدنَى ضَيغمٍ أدنَى إلى شَرَفٍ من الإنسانِ
ولَما تَفَاضلتِ الرّجالُ ودَبّرتْ أيدِي الكُماة عَوالِيَ المُرّانِ

ومن وصايا أبرَويز إلى ابنه شِيروَيه: لا تستعمل على جَيْشك غلامًا غمرًا تَرِفًا، قد كَثُر إعجابه بنفسه، وقلّت تجاربه في غيره، ولا هَرِمًا كبيرًا مُدبِرًا قد أخذ الدّهر من عَقله، كما أخذتِ السِّنُّ من جِسْمه، وعليك بالكُهول ذَوِي الرّأي!

وقال لَقيط بن يَعْمَر الأياديّ في هذا المعنى [البسيط]:

وقَلِّدوا أمرَكُم للهِ دَرُّكُمُ رحْبَ الذِّراع بأمر الحَربِ مُضطَلِعَا

لا مُتْرَفًــا إن رَخــاءُ العــيشِ ولَا إذا عَــضّ مكــروهٌ بــه خَشَــعَا
ما زال يحلُب هذا الدّهرُ أشْطُرَه يكــون متَّبِعًــا طــورًا ومُتَّبَعًــا
حتّى استمرّ على شَزْرٍ مَريرته مستحكم الرّأي لا قَحْمٌ[1] ولَا ضَرَعَا

(١٨ : ٢٣٧ ـ ٢٣٨)

**(الحكمة :٢٠٧) ... وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَة ....**

**الشّرح:** ... وكذلك القول في التّجربة؛ وقولهم: مَن حارَبَ المجرِّب حَلّت به النّدامة، وإنّ مَن أضاع التّجربة فقد أضاع عَقْله ورأيه .... (١٩ : ٣٢)

**(الحكمة :٢١٣) الأصل: فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ.**

**الشّرح:** معناه: لاتُعْلَم أخلاق الإنسان إلّا بالتّجربة، واختلاف الأحوال عليه. وقديمًا قيل [الهزج]:

تَرَى الفِتْيان كالنَّخْلِ وما يُدْريك ما الدَّخْلُ

وقال الشّاعر[البسيط]:

لا تحمَدنّ امْرأ حتّى تُجَرِّبَهُ ولاتَذُمّنّه إلّا بتجريبِ

**وقالوا:** التّجربة محكّ، وقالوا: مَثَل الإنسان مَثَل البطّيخة، ظاهرها مُونق، وقد يكون في باطنها العَيْب والدّود، وقد يكون طعمها حامِضًا وتَفِهًا.

وقالوا للرّجل المجرّب يمدحونه: قد آلَ وائل عليه. وقال الشّاعر يمدح [البسيط]:

ما زالَ يحلُبُ هذا الدَّهْرُ أشطُرَهُ يكــون متَّبِعًــا طــورًا ومتَّبَعًــا
حتّى استمرّت على شَزْر مَريرته مستحكم الرّأي لا قَحْمًا ولا ضَرَعَا

(١٩ : ٣٨)

---

١ ـ في ديوانه : لا قَحمًا.

**(الحكمة: ٤٤٠) الأصل: أُخْبُرْ تَقْلَهْ.**

قال الرّضيّ رحمه الله: ومن النّاس مَن يروي هذا للرّسول صلى الله عليه وآله، وممّا يُقوّي أنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثَعلب قال: حدّثنا ابن الأعرابيّ، قال: قال المأمون: لولا أنّ عليًّا عليه السلام قال: أُخبر تَقْلَهْ، لقلتُ: إِقْلَهْ تَخْبُرْ.

**الشّرح:** المعنى: اختَبِر النّاس وجَرِّبهم تُبْغِضهم، فإنّ التّجربة تكشف لك مَساوِيهم وسُوء أخلاقهم، فضَرَب مَثَلًا لمن يظنّ به الخيرُوليس هناك، فأمّا قول المأمون: لولا أنّ عليًّا قاله لقلت: إِقْلَهْ تَخْبُر، فليس المراد حقيقة القِلَى، وهو البُغض، بل المراد الهَجْروالقطيعة، يقول: قاطِعْ أخاك مجرِّبًا له هل يَبْقَى على عَهْدِك أم يَنقُضه ويحوّله عنك.

ومِن كلام عُتْبةَ بن أبي سُفْيان: طيرّوا الدّم في وجوه الشّباب، فإن حَلُموا وأحْسَنوا الجواب فهم هم، وإلّا فلا تَطْمَعوا فيهم، يقول: أغْضِبوهم، لأنّ الغضبان يَحْمرّ وجهه، فإن ثَبَتوا لذلك الكلام المُغْضِب وحَلُموا وأجابوا جوابَ الحليم العاقل، فهم ممّن يُعْقَد عليه الخِنصِر ويُرْجَى فلاحُه، وإن سَفِهُوا وشَتَموا ولم يَثْبُتوا لذلك الكلام فلا رَجاء لفلاحهم.

ومن المعنى الأوّل قول أبي العَلاء [البسيط]:

جرّبتُ دهري وأهلِيه فما تَركتْ ... لِيَ التّجاربُ في وُدِّ امرئٍ غَرَضَا[1]

وقال آخر[الطّويل]:

وكنتُ أرى أنّ التّجارِبَ عُدّةٌ ... فخانَتْ ثِقاتُ النّاس حتّى التّجاربُ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفربن أبي طالب [الطّويل]:

رأيتُ فُضَيلًا كان شيئًا ملفَّقًا ... فأبرَزَه التّمحيصُ حتّى بدَا لِيَا[2]

آخر[الطّويل]:

---

١ ـ سقط الزّند: ٦٥٦ .

٢ ـ الأغاني ١٢ : ٢١٤ ، و روايته : «رأيت قصيًّا» .

عَتَبْتُ على سَلْمٍ فلمّا فقَدْتُه وجَرَّبْتُ أقوامًا رجَعْتُ إلى سَلْمِ

مِثلُه [الوافر]:

ذَمَمْتُـك أوّلًا حـتّى إذا مَـا بَلَوْتُ سِواكَ عاد الذّمّ حَمْدَا
ولم أحمدك من خَيرٍ ولكن وَجَدتُ سِواكَ شَرًّا منك جِدًّا
فعُدْتُ إليك مضطرًّا ذليلًا لإنّي لم أجـدْ مِـن ذاك بُـدًّا
كمجهودٍ تحامَى أكلَ مَيْتٍ فلمّـا اضـطرّعـادَ إليـه شَـدًّا

الّذي يتعلّق به غَرَضُنا من الأبيات هو البيت الأوّل، وذكرنا سائرها لحُسْنِها.

(٢٠ : ٨٠ ـ ٨١)

## الفصل الخامس: [في الهمّة وكِبرها]

**(الحكمة: ٤٤) الأصل: قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم الكلام في كلّ هذه السَّيَم والخصال، ثمّ نقول هاهنا: إنّ كِبَر الهمّة خُلق مختصّ بالإنسان فقط، وأما سائر الحيوانات فليس يُوجد فيها ذلك، وإنّما يتجرّأ كلّ نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه، وعلوّ الهمّة حالٌ متوسّطة محمودة بين حالتَين طَرَفَي رذيلتَين، وهما النّدح، وتسمية الحكماء التّفتُّح ـ وصِغَر الهمّة ـ وتسمية النّاس الدّناءة، فالتّفتّح تأهل الإنسان لما لايستحقّه، وصِغَر الهمّة تركه لما يستحقّه لضعفٍ في نفسه، فهذان مَذْمومان، والعدالة وهي الوَسَط بينهما محمودة، وهي علوّ الهمّة، وينبغي أن يعلم أنّ المتفتّح جاهلٌ أحمق، وصغيرُ الهمّة ليس بجاهلٍ ولاأحمقٍ، ولكنّه دنيءٌ ضعيف قاصر، وإذا أردت التّحقيق، فالكبير الهمّة مَن لايرضى بالهِمَم الحيوانيّة، ولايقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه؛ بل يجتهد في معرفة صانع العالَم ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشّرعيّة ليكون من خُلَفاء الله وأوليائه في الدّنيا، ومجاوريه في الآخرة، ولذلك قيل: مَن عَظُمَت همّتُه لم يرضَ بقَيْنة مستردّة، وحياةٍ مستعارة، فإن أمكنك أن تقتني قنية مؤبّدة، وحياة مخلّدة، فافْعل غير مكترث بقلّة مَن يَصْحَبك ويعينك على ذلك، فإنّه كما قيل: إذا عَظُم المطلوب قَلّ المُساعد، وكما قيل [الكامل]:

*طُرُق العلاء قليلة الإيناس*

وأمّا الكلام في الصّدق والمروءة والشّجاعة والأنفة والعفّة والغيرة، فقد تقدّم كثيرٌ منه ، وسيأتي ما هو أكثر فيما بعد، إن شاء الله تعالى. (١٨: ١٧٥ ـ ١٧٦)

## الفصل السّادس: [في العبادة]

**(الخطبة: ٨٢) ... فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنهُ كُنهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِن نَفْسِهِ، وَاسْتَحِقُّوا مِنهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَالْحَذَرِ مِن هَوْلِ مَعَادِهِ.**

**الشّرح:** قوله عليه السلام: «فاتّقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له» نصب «جهة» بفعل مقدّر، تقديره: «واقصدوا جهة ما خلقكم له» يعني العبادة، لأنّه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾[1]. فحذف الفعل، واستغنى عنه بقوله: «فاتّقوا الله»، لأنّ التّقوى ملازمة لقصد المكلّف العبادة فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره. **(٦: ٢٥٦ ـ ٢٥٧)**

**(الحكمة: ٢٣) الأصل: مَن أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.**

**الشّرح:** هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريضٌ على العبادة، وقد تقدّم أمثالُه، وسيأتي له نظائرُ كثيرة، وهو مِثْل قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة بنتَ محمّد، إنّي لا أُغْني عنكِ من الله شيئًا، يا عبّاس بن عبد المطّلب، إنّي لا أُغْني عنك من الله شيئًا»، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقٰكُمْ﴾[2]. **(١٨ : ١٣٤)**

**(الحكمة: ٩٣) الأصل: وَسَمِعَ عليه السلام رَجُلًا مِنَ الْخَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ، فَقَالَ: نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ، خَيْرٌ مِن صَلَاةٍ عَلَى شَكٍّ.**

**الشّرح:** هذا نهيٌ عن التّعرّض للعبادة مع الجَهْل بالمعبود، كما يَصْنع اليوم كثيرٌ من النّاس، ويظنّون أنّهم خير النّاس، والعُقَلاء الألبّاء من النّاس يضحكون منهم، ويستهزئون بهم ... .

---

١ ـ الذّاريات / ٥٦ .

٢ ـ الحجرات / ١٣ .

يقول عليه السلام: تَرْكُ التّنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصليّة، خيرٌ من الاشتغال بالنّوافل وأوْراد الصّلاة مع عدم العلم، وهو المعنيُّ بقوله: «في شكّ»، فإذا كان عدمُ التّنفّل خيرًا من التّنفّل مع الشّكّ فهو مع الجَهْل المحض، وهو الاعتقاد الفاسد أوْلى بأن يكون. (١٨ : ٢٥٣)

**(الحكمة: ١٤١) الأصل: كَمْ مِن صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِن صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ، وَكَمْ مِن قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِن قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُوَالْعَنَاءُ، حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَ إِفْطَارُهُمْ.**

**الشّرح:** الأكياس ـ هاهنا ـ العلماء العارفون، وذلك لأنّ عباداتهم تقع مطابقةً لعقائدهم الصّحيحة، فتكون فروعًا راجعةً إلى أصلٍ ثابتٍ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى، لأنّهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجّهةً إليه فلم تكن مقبولةً، ولذلك فَسَدَتْ عبادة النّصارى واليهود. وفيهم وَرَد قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ* تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾[1]. (١٨ : ٣٤٤)

**(الحكمة: ٢٣٤): إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَ إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَ إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ.**

**الشّرح:** هذا مقامٌ جليلٌ تتقاصر عنه قُوَى أكثر البشر، ... إنّ العبادة لرجاء الثّواب تجارةٌ ومعاوضةٌ، وإنّ العبادة لخوف العقاب لَمَنزِلَةُ مَن يَستجدي لسلطانٍ قاهرٍ يخاف سَطْوَته.

وهذا معنى قوله: «عبادة العبيد»، أي خوف السَّوْط والعصا، وتلك ليس عبادةً نافعة، وهي كمن يَعْتذِر إلى إنسانٍ خَوْفَ أذاه ونِقْمته، لا لأنّ ما يَعْتذِر منه قبيح لا ينبغي له فِعْلُه. فأمّا العبادة لله تعالى شكرًا لأنعُمه فهي عبادةٌ نافعة، لأنّ العبادة

---

١ ـ الغاشية : ٣ و ٤ .

شُكْرٌ مخصوصٌ، فإذا أوقَعَها على هذا الوجه فقد أوْقَعها الموقعَ الّذي وُضِعَتْ عليه.

فأمّا أصحابنا المتكلّمون؛ فيقولون: ينبغي أن يَفْعَل الإنسان الواجبَ لِوَجْهِ وجوبه، ويترك القبيح لِوَجْه قُبْحه، وربّما قالوا: يُفْعَل الواجب لأنّه واجب، ويُتْرَك القبيح لأنّه قبيح، والكلام في هذا الباب مشروح مبسوط في الكُتُب الكلاميّة.

(١٩ : ٦٨)

**(الحكمة: ٤٥٠) الأصل: قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ، خَيْرٌ مِن كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.**

**الشّرح:** هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصّلاة، قال: قليلٌ من النّوافل يدوم المرء عليه خيرٌ له مِن كثير منها يملّه ويَتْرُكه.

والجيّد النّادر في هذا قول رسول الله ﷺ: «إنّ هذا الدّين مَتينٌ، فأوْغِلْ فيه برِفْقٍ، فإنّ المنبتَّ لا أرضًا قَطَع، ولا ظَهْرًا أبْقَى».

**وكان يقال:** كلّ كثيرٍ مملولٌ.

**وقالوا:** كلّ كثيرٍ عدوّ للطّبيعة. وقال الشّاعر[البسيط]:

إنّي كَثُرتُ عليه في زيارتِه ... فملّ والشّيءُ مملولٌ إذا كَثُرا

ورابَني منه أنّي لا أزالُ أرَى ... في طَرْفِه قِصَرا عنّي إذا نَظَرا

(٢٠ : ٩٤)

## الفصل السّابع: [في الرّزق]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَاعْلَمْ! يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِن أَنتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ ... .**

**الشّرح:** ... قد مضى لنا كلام شافٍ في الرّزق.

وروى أبو حيّان، قال: رفع الواقديّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غَلَبة الدّين عليه، وكثرة العيال، وقلّة الصّبر، فوقّع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلّتان: السّخاء والحياء، فأمّا السّخاء فهو الّذي أطلق ما في يديك، وأمّا الحياء فهو بلغ بك إلى ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنّا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك، وأنت كنت حدّثتني وأنت على قضاء الرّشيد عن محمّد بن إسحاق، عن الزُّهريّ، عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزّبير: «يا زبير، إنّ مفاتيح الرّزق بإزاء العرش، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قَدْر نَفَقاتهم، فمَن كثّر كُثّر له، ومَن قلّل قُلّل له».

قال الواقديّ: وكنت أُنسيتُ هذا الحديث، وكانت مذاكرته إيّاي به أحبّ من صلته.

واعلم! أنّ هذا الفصل يشتمل على نُكَت كثيرة حكميّة:

منها: قوله: «الرّزق رزقان: رزقٌ تطلبه، ورزقٌ يطلبك» وهذا حقّ، لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف، فتارةً يأتيه الرّزق بغير اكتساب ولاتكلّف حركة، ولاتجشّم سَعْي، وتارةً يكون الأمر بالعكس.

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قُوائم فرسه في الصَّحْراء في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نَقْب وسيع، فأمرهم بحَفْره، فوجدوا فيه أموالًا عظيمةً، وذخائر لابن ياقوت، ثمّ استلقى يومًا آخر على ظهره في داره بشيراز الّتي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حيّة في السّقف، فأمر غلمانه بالصّعود إليها وقتلها، فهربت منهم، ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب

وتستخرج وتقتل، فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثيابًا له ولأهله، فقيل: هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدِّين والخير، إلّا أنّه أصمّ لا يسمع شيئًا أصلًا، فأمر بإحضاره، فأُحضِر وعنده رُغب وهلَع، فلمّا أدخله إليه كلّمه، وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثّياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه، وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيّ. فتعجّب عماد الدّولة وأمر بإحضار الصّناديق، فوجدها كلّها ذهبًا وحَلْيًا وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت.

أمّا الرّزق الّذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جدًّا لا يحصى ... .

(١٦: ١١٤ ـ ١١٥)

## الفصل الثّامن: [في الذّكر]

(الخطبة: ١٨٦) [في وصف المتّقين] ... يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا، حَذِرًا لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ ... .

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ويصبح وهَمّه الذّكر»، هذه أيضًا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1].

قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربّي. ففزعوا منه، فقال: إذا ذكرتُه ذكَرني، وتلا الآية، فسكتوا.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2].

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾[3].

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[4].

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[5].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[6].

وقال في ذمّ المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[7].

وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[8].

وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1].

---

١ ـ البقرة: ١٥٢.

٢ ـ الأحزاب: ٤١.

٣ ـ البقرة: ١٩٨.

٤ ـ البقرة: ٢٠٠.

٥ ـ النّساء: ١٠٣.

٦ ـ آل عمران: ١٩١.

٧ ـ النّساء: ١٤٢.

٨ ـ الأعراف: ٢٠٥.

وقال النّبيّ ﷺ: «ذاكِرُ اللهِ في الغافلين كالشّجرة الخضراء في وسط الهشيم».

وقال ﷺ: «مَن أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة، فليُكْثِر مِن ذِكْر الله».

وسُئِل عليه السلام: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموت ولسانُك رطبٌ بذِكْر الله».

وقال ﷺ، حكايةً عن الله تعالى: «إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرتُه في نفسي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأ خيرٍ من ملئه، وإذا تقرّب منّي شِبرًا تقرّبتُ منه ذراعًا، وإذا تقرّب منيّ ذراعًا تقرّبت منه باعًا، وإذا مَشَى إليّ هرولتُ إليه».

وقال ﷺ: «ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله تعالى إلّا حفَّت بهم الملائكة، وغشيَتْهم الرّحمة، وذكرهم الله فيمن عنده». (١٠ : ١٥٣ ـ ١٥٤)

---

١ ـ العنكبوت : ٤٥ .

## الفصل التّاسع: [في الاستغفار والتّوبة]

**(الحكمة: ٤٤) الأصل: سَيِّئَةٌ تَسُوؤُكَ خَيْرٌ عِندَ اللهِ مِن حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ.**

**الشّرح:** هذا حقّ، لأنّ الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التّوبة كَفّرَتْ توبته معصيته، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب، وحصل له ثواب التّوبة، وأمّا مَن فعل واجبًا واستحقّ به ثوابًا ثمّ خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه، والتّيه على النّاس بعبادته واجتهاده، فإنّه يكون قد أحبط ثواب عبادته بما شَفَعها من القبيح الّذي أتاه، وهو العُجْب والتّيه والإدلال على الله تعالى، فيعود لا مُثابًا ولا مُعاقبًا، لأنّه يتكافأ الاستحقاقان. ولا رَيْب أنّ مَن حصل له ثواب التّوبة وسَقط عنه عقاب المعصية، خيرٌ ممّن خرج من الأمرَين كَفافًا[1] لا عليه ولا له. (١٨: ١٧٤)

**(الحكمة: ٨٤) الأصل: عَجِبْتُ لِمَن يَقْنَطُ وَمَعَهُ الْاِسْتِغْفَارُ.**

**الشّرح:** قالوا: الاستغفار حَوارسُ الذّنوب.

**وقال بعضهم:** العبد بين ذَنب ونِعْمة لا يُصْلحهما إلّا الشّكر والاستغفار.

**وقال الرّبيع بن خثعم**[2]: «لا يقولنّ أحدُكم أستغفر الله وأتوب إليه»، فيكون ذَنبًا وكذبًا إن لم يفعل، ولكن ليَقُلْ: اللّهمّ اغْفرلي وتُبْ عليّ.

**وقال الفُضَيل:** الاستغفار بلا إقلاع[3] توبةُ الكذّابين.

**وقيل:** مَن قدّم الاستغفار على النّدم، كان مستهزئًا بالله وهو لا يعلم.

(١٨: ٢٣٩)

---

١ ـ الكفاف من الشّيء، مثله.

٢ ـ كذا في أ، و في ب: «خثيم».

٣ ـ الإقلاع: ترك الذّنوب.

(الحكمة: ٨٥) وَحَكَى عَنهُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ كَانَ عليه السلام: كَانَ فِي الأَرْضِ أَمَانَانِ مِن عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا، فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، أَمَّا الأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، وأَمَّا الأَمَانُ الْبَاقِي فَالاِسْتِغْفَارُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

قال الرّضيّ رحمه الله: وهذا مِن محاسِنِ الاستخراج، ولَطائِفِ الاستنباط.

**الشّرح:** قال قومٌ من المفسّرين: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، في موضع الحال، والمراد نفي الاستغفار عنهم أي لوكانوا ممّن يستغفرون لما عذّبهم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2]، فكأنّه قال: لكنّهم لا يستغفرون فلا انتفاءَ للعذاب عنهم.

وقال قوم: معناه: وما كان الله معذّبهم وفيهم مَن يستغفروهم المسلمون بين أظهُرِهم ممّن تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله من المستضعفين. ثمّ قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾[3]، أي ولأيّ سَبَبٍ لا يعذّبهم الله مع وجود ما يَقْتضِي العذاب، وهو صَدّهم المسلمين والرّسول عن البيت في عام الحُدَيْبِيَة! .... (١٨: ٢٤٠ ـ ٢٤١)

(الحكمة: ١٣١) الأصل: مَن أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعًا: مَن أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ، وَمَن أُعْطِيَ التَّوبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَن أُعْطِيَ الاِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَن أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ.

قال الرّضيّ رحمه الله تعالى: وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال في الدّعاء:

---

١ ـ الأنفال: ٣٣.

٢ ـ هود: ١١٧.

٣ ـ الأنفال: ٣٤.

﴿اُدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]. وقال في الاستغفار: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوٓءًا اَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِاللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.[٢] وقال في الشّكر: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَاَزِيدَنَّكُمْ﴾.[٣]، وقال في التّوبة: ﴿اِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَاُولٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٤].

**الشّرح:** في بعض الرّوايات أنّ ما نسب إلى الرّضيّ رحمه الله من استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سبق القول في كلّ واحدة من هذه الأربع مستقصًى. (١٨: ٣٣١)

**(الحكمة: ١٧٢) الأصل: تَرْكُ الذَّنبِ اَهْوَنُ مِن طَلَبِ التَّوبَةِ.**

**الشّرح:** هذا حقّ، لأنّ ترك الذّنب هو الإحجام عنه، وهذا سَهْلٌ على مَن يَعرِف أثر الذّنب على ماذا يكون، وهو أسهل من أن يواقع الإنسان الذّنب، ثمّ يطلب التّوبة، فقد لا يخلص داعيه إليها، ثمّ لو خَلَصَ فكيف له بحصوله على شروطها، وهي أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح، لا لخوف العقاب، ولا لرجاء الثّواب، ثمّ لا يكفيه أن يتوب من الزّنا وحده، ولا من شُرب الخمر وحده، بل لا تصحّ توبتُه حتّى تكون عامّة شاملة لكلّ القبائح فيندم على ما قال ويودّ أنّه لم يفعل، ويعزم على ألّا يعاود معصية أصلًا، وإن نَقَضَ التّوبةَ عادتْ عليه الآثام القديمة والعقاب المستحقّ ولا الّذي كان سَقَطَ بالتّوبة على رأي كثير من أرباب علم الكلام، ولا رَيْب أنّ ترك الذّنب من الابتداء أسهل من طَلَب توبةٍ هذه صفتها.

وهذا الكلام جارٍ مجرى المَثَل يُضرَب لمن يَشرع في أمرٍ يخاطر فيه، ويرجو أن

---

١ ـ غافر: ٦٠.

٢ ـ النّساء: ١١٠.

٣ ـ إبراهيم: ٧.

٤ ـ النّساء: ١٧.

يتخلّص منه فيما بعد بوجهٍ من الوجوه. (١٨ : ٣٩٦)

**(الحكمة: ٣٠٥) الأصل: مَا أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ، حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ اللهَ الْعَافِيَةَ.**

**الشّرح:** هذا فَتْحٌ لِباب التّوبة وتطريق إلى طريقها، وتعليم للنّهضة إليها والاهتمام بها، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الّذي لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغي للإنسان ألّا يهتمّ به، أي لا ينقطع رجاؤه عن العَفْو وتأميله الغُفْران، وذلك بأن يقوم إلى الصّلاة عاجلًا، ويستغفرالله، ويندم ويعزم على ترك المعاودة، ويسأل الله العافية من الذّنوب والعصمة من المعاصي، والعَوْن على الطّاعة، فإنّه إذا فعل ذلك بنيّةٍ صحيحةٍ واستوفى شرائط التّوبة سقط عنه عقاب ذلك الذّنب.

وفي هذا الكلام تحذيرٌ عظيمٌ من مواقعة الذّنوب، لأنّه إذا كان هذا هو محصول الكلام، فكأنّه قد قال: الحَذَر الحَذَر من الموت المفاجئ قبل التّوبة، ولا رَيْب أنّ الإنسان ليس على ثقةٍ من الموت المفاجئ قبل التّوبة، إنّه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً، فالإنسان إذا كان عاقلًا بصيرًا يتوقّى الذّنوب والمعاصي غاية التّوقّي. (١٩ :٢٠٥)

## الفصل العاشر: [في التّقوى]

**(الخطبة: ١٥٨) ... اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «التّقوى دار حصن عزيز» معناه دار حَصانة عزيزة، فأقام الاسم مقام المصدر، وكذلك في الفجور. ويحرز مَن لجأ إليه: يحفظ من اعتصم به.

وحمة الخطايا: سمّها، وتقطع الحُمَة، كما تقول: قطعت سَرَيان السّمّ في بدن الملسوع بالبادزهرات والتّرياقات، فكأنّه جعل سمّ الخطايا ساريًا في الأبدان، والتّقوى تقطع سَرَيانه.

قوله: «وباليقين تدرك الغاية القُصْوى» وذلك لأنّ أقصى ـ درجات العرفان الكشف، وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين. (٩ : ٢١٣ ـ ٢١٤)

**(الخطبة: ١٨٤) ... وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِن خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ... .**

**الشّرح:** ... وقد تقدّم لنا كلام بالغ في التّقوى وماهيّتها وتأكيد وُصاة الخالق سبحانه والرّسول عليه الصّلاة والسّلام بها.

## [نبذ وأقاويل في التّقوى]

روى المبرّد في «الكامل» أنّ رجلًا قال لعمربن الخطّاب: اتّقِ الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل: أتألِتُ على أمير المؤمنين! أي أتَنتَقِصه[1] !، فقال عمر: دَعْهُ، فلا خير فيهم إذا لم يقولُوها، ولا خير فينا إذا لم تُقَلْ لنا.

---

١ ـ وانظر: النّهاية لابن الأثير ١ : ٣٨ .

وكتب أبو العتاهيَة إلى سهل بن صالح[1] ــ وكان مقيمًا بمكّة ــ: أمّا بعد، فأنا أُوصيك بتقوى الله الّذي لا غَناء بك عن تقاته، وأتقدّم إليك عن الله، ونذكّرك مكر الله فيما دبّت به إليك ساعات اللّيل والنّهار، فلا تخدَعَنّ عن دينك، فإنّ ساعاتك وأوقاتك إن ظفرت بذلك منك، وجدتَ الله فيك أسرعَ مكرًا، وأنفذ فيك أمرًا، ووجدت ما مكرت به في غير ذات الله غير رادٍّ عنك يدَ الله، ولا مانع لك من أمر الله؛ ولعمري لقد ملأت عينك الفكر، واضطربت في سمعك أصوات العِبَر، ورأيت آثار نِعَم الله نسختْها آثارُ نِقَمِه حين استهزئ بأمره، وجُوهِر بمعاندته، ألا إنّ في حُكْم الله أنّه من أكرمه الله، فاستهان بأمره، أهانه الله والسّعيد مَن وُعِظ بغيره، لا وعظك الله في نفسك! وجعل عِظَتك في غيرك، ولا جعل الدّنيا عليك حسرةً وندامةً، برحمته!.

ومن كلام رسول الله ﷺ: «لا كَرَمَ كالتّقوى، ولا مال أعْوَد من العقل، ولا وحدة أوحش من العُجْب، ولا عقل كالتّدبير، ولا قرين كحُسْن الخُلُق، ولا ميراث كالأدب، ولا فائدة كالتّوفيق، ولا تجارة كالعمل الصّالح، ولا ربح كثواب الله، ولا وَرَع كالوقوف عند الشّبهة، ولا زهد كالزّهد في الحرام، ولا علم كالتّفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصّبر، ولا حَسَبَ كالتّواضع، ولا شَرَفَ كالعلم، ولا مظاهرة أوْفَقَ من المشورة، فاحْفظ الرّأس وما حَوَى، والبطن وما وَعَى، واذْكر الموت وطول البِلَى». (١٠: ١٢١ ــ ١٢٢)

(الخطبة: ١١٣) ... أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ وَمَعَاذٌ مُنجِحٌ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُوَاعٍ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرَّيَّ بِالظَّمَإِ،

---

١ ــ د: «صاعد».

**وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ فَلَاحَظُوا الْأَجَلَ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ أخذ في الوُصاة بالتّقوى، وقال: «إنّها الزّاد في الدّنيا الّذي يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ» ... .

ثمّ وصفهما ـ أعني الزّاد والمعاذ ـ فقال: «زاد مُبْلِغ»، أي يبلغك المقصد والغاية الّتي تسافر إليها، ومَعاذ مُنجِح، أي يصادف عنده النّجاح ... والتّقوى: خشية الله سبحانه ومراقبته في السّر والعلن، والخشية أصل الطّاعات، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَىكُمْ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]. (٧ : ٢٥٤ ـ ٢٥٥)

**(الخطبة: ١٨٨) ... أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ ذكر أنّ التّقوى قوام الطّاعات الّتي تقوم بها، وزمام العبادات لأنّها تمسِك وتحصّن، كزمام النّاقة المانع لها من الخَبَط ... . (١٠ : ١٧٤)

**(الخطبة: ٢٢٥) الأصل: ومن خطبة له عليه السلام: فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِن كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِن كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ ... .**

**الشّرح:** عِتْقٌ من كلّ مَلَكة، هو مثل قوله عليه السلام: «التّوبة تجبُّ ما قبلها»، أي كلّ ذنب مُوبِق يملك الشّيطان فاعله ويستحوذ عليه، فإنّ تقوى الله تعتِق منه، وتكفّر

---

١ ـ الحجرات / ١٣ .

٢ ـ الطّلاق / ٢ .

عقابه، ومثله قوله:«ونجاةٌ من كلّ هَلَكة» .... (١٣ : ٦)

(الحكمة: ٢٣٧) ... أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللهِ حَقَّكُمْ، وَأَن تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ، مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةٌ نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنكُمْ، وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَن قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا!

أُولَئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1] فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِن كُلِّ سَلَفٍ خَلَفًا، وَمِن كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا.

أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَن أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَن أَطَاعَهَا.

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنيَا نُزَّاهًا، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهًا. وَلَا تَضَعُوا مَن رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَن رَفَعَتْهُ الدُّنيَا ....

الشّرح: ... قوله: «فإنّها حقّ الله عليكم، والموجبة على الله حقّكم» يريد أنّها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجب على الله أن يجازيكم عنها بالثّواب، وهذا تصريحٌ بمذهب المعتزلة في العَدْل، وأنّ من الأشياء ما يجب على الله تعالى من باب الحكمة.

قوله: «وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله»، يريد: أوصيكم بأن تستعينوا بالله على التّقوى بأن تدعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها، ويوفّقكم لها

---

١ ـ سبأ: ١٣.

وييسّرها ويقوّي دواعيكم إلى القيام بها، وأوصيكم أن تستعينوا بالتّقوى على لقاء الله ومحاكمته وحسابه، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[1]، فالسّعيد مَنِ استعان على ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتّقوى في دار التّكليف، فإنّها نِعْم المَعونة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[2].

قوله: «ومُستودَعها حافظ»، يعني الله سبحانه، لأنّه مستودع الأعمال، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[3]، وليس ما قاله الرّاونديّ من أنّه أراد بالمستودع قلب الإنسان بشيء.

قوله: «لم تبرح عارضةً نفسها»، كلام فصيح لطيف، يقول: إنّ التّقوى لم تزل عارضةً نفسها على مَن سلف من القرون، فقَبِلها القليل منهم، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحًا على قوم، فرغب فيها مَن رغب، وزَهِدَ مَن زهد، وعلى الحقيقة ليست هي العارضة نفسها، ولكنّ المكلّفين ممكّنون من فعلها ومرغّبون فيها، فصارت كالعارضة ... .

قوله عليه السلام: «إذا أعاد الله ما بدا»، يعني أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك، فلم يبق في الوجود مَن له تصرُّف في شيء غيره، كما قال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4]. وقيل في الأخبار والحديث: إنّ الله تعالى يجمع الذّهب والفضّة كلّ ما كان منه في الدّنيا، فيجعله أمثال الجبال، ثمّ يقول: هذا فتنة بني آدم، ثمّ يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاويَ لجباه المجرمين.

«وسأل عمّا أسدى»، أي سأل أرباب الثّروة عمّا أسدى إليهم من النّعم فيمَ

---

١ ـ الجاثية: ٢٨.

٢ ـ البقرة: ١٩٧.

٣ ـ الكهف / ٣٠.

٤ ـ غافر / ١٦.

صرفوها؟ وفيمَ أنفقوها؟.

قال عليه السلام: «فما أقلّ مَن قبلها»، يعني ما أقلّ مَن قَبِل التّقوى العارضة نفسها على النّاس ... .

قوله: «وأشعروا بها قلوبكم»، يجوز أن يريد: اجعلوها شعارًا لقلوبكم، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه، ويجوز أن يريد: اجعلوها علامةً يعرف بها القلب التّقيّ من القلب المذنب كالشّعار في الحرب يعرف به قوم من قوم، ويجوز أن يريد: أخرِجوا قلوبكم بها من أشعار البدن، أي طهّروا القلوب بها، وصفُّوها من دنس الذّنوب، كما يصفّى البدن بالفصاد من غَلبة الدّم الفاسد، ويجوز أن يريد: الإشعار بمعنى الإعلام ...

واعتبروا بمن أضاع التّقوى فهلك شقيًّا، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التّقوى، أي لا تكونوا أنتم لهم معتبرًا بشقاوتكم وسعادتهم.

ثمّ قال: وصونوا التّقوى عن أن تمازجها المعاصي، وتصوّنوا أنتم بها عن الدّناءة وما ينافي العدالة ... . (١٣: ١١٩ ـ ١٢٠)

**(الحكمة: ٩١) الأصل: وسُئِلَ عَنِ الْخَيْرِ، مَا هُوَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ الْخَيْرُ أَن يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلَكِنِ الْخَيْرُ أَن يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَن يَعْظُمَ حِلْمُكَ وَأَن تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإِن أَحْسَنتَ حَمِدْتَ اللهَ، وَإِن أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ، وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ، وَلَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُقبلُ!**

**الشّرح:** قد قال الشّاعر لهذا المعنى [البسيط]:

ليس السّعيد الّذي دُنياه تُسعِدُه بل السّعيد الّذي ينجومن النّارِ

قوله عليه السلام: «ولا يَقِلُّ عَمَلٌ مع التّقوى»، أي مع اجتناب الكبائر، لأنّه لوكان مُوقِعًا لكبيرة لما تُقبّل منه عمل أصلًا على قول أصحابنا، فوجب أن يكون المراد بالتّقوى

اجتناب الكبائر، فأمّا مذهب المُرجئة؛ فإنّهم يحملون التّقوى هاهنا على الإسلام، لأنّ المسلم عندهم تتقبّل أعماله، وإن كان مُواقعًا للكبائر.

**فإن قلت:** فهل يجوز حمل لفظة «التّقوى» على حقيقتها، وهي الخوف؟

**قلت:** لا. أمّا على مذهبنا فلأنّ مَن يخافُ الله ويواقع الكبائر لا تتقبّل أعماله، وأمّا مذهب المرجئة؛ فلأنّ مَن يخاف الله مِن مخالفي ملّة الإسلام لا تتقبّل أعماله، فثبت أنّه لا يجوز حمل التّقوى هاهنا على الخوف.

**فإن قلت:** مَن هو مخالفٌ لملّة الإسلام لا يخافُ الله لأنّه لا يعرفه؟

**قلت:** لا نسلّم، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصفاته، كما نعرفه نحن، ويجحدالنّبوّة لشُبْهةٍ وقعت له فيها، فلا يلزم من جَحْد النّبوّة عدمُ معرفة الله تعالى.

**(١٨ : ٢٥٠ ـ ٢٥١)**

**(الحكمة:٢٣٩) وقَالَ عليه السلام: اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وَ إِن قَلَّ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سِتْرًا وَ إِن رَقَّ.**

**الشّرح:** يقال في المَثَل: ما لايُدْرَك كلُّه لَايُتْرَك كلّه.

فالواجب على مَن عَسُرتْ عليه التّقوى بأجمعها أن يتّقي الله في البعض، وأن يجعل بينه وبينه سترًا وإن كان رقيقًا.

**وفي أمثال العامّة:** اجْعل بينك وبين الله رَوْزَنة[1]، والرَّوْزَنة لفظة صحيحة مُعَرَّبة، أي لاتجعل ما بينك وبينه مَسْدودًا مظلمًا بالكلّيّة. **(١٩ : ٧٥)**

---

١ ـ في اللّسان : «الرّوزنة : الكوّة » ، وفي «المحكم» : الخَرْق في أعلى السّقف . وعن التّهذيب : يقال للكوّة النّافذة الرّوزن ، قال : وأحسبه مُعْرَبًا .

**(الحكمة:٤١٥) الأصل: التُّقَى رَئِيسُ الْأَخْلَاقِ.**

**الشّرح:** يعني رئيس الأخلاق الدّينيّة، لأنّ الأخلاق الحميدة كالجود والشّجاعة والحلم والعفّة وغير ذلك، لوقَدّرنا انتفاء التّكاليف العقليّة والشّرعيّة، لم يكن التُّقَى رئيسًا لها، وإنّما رئاسة التُّقى لها مع ثُبوت التّكليف، لاسيّما الشّرعيّ.

والتّقى في الشّرع: هو الوَرَع والخوف من الله، وإذا حصل حَصَلت الطّاعات كلّها، وانتفت القبائح كلّها، فصار الإنسان معصومًا، وتلك طبقة عالية، وهي أشرف من جميع الطّبقات الّتي يمدح بها الإنسان، نحو قولنا: جواد أوشُجاع أونحوهما، لأنّها طبقة ينتقل الإنسان منها إلى الجنّة ودار الثّواب الدّائم، وهذه مزيّةٌ عظيمةٌ يَفْضُل بها على سائر طبقات الأخلاق. (٢٠ : ٤٧)

## [في الوَرَع]

**(الحكمة: ٤) الأصل: الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.**

**الشّرح:** ... قوله: «والورعُ جُنّة»، كان يقال: لا عصمة كعصمة الوَرَع والعبادة. أمّا الورع فيعصمك من المعاصي، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك، فإنّ عدوّك لو رآك قائمًا تصلّي، وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهَابك.

وقال رجل من بني هلال لبنيه: يا بَنيّ أظهروا النُّسُك فإنّ النّاس إن رأوا من أحدٍ منكم بُخلًا، قالوا: مُقْتَصِدٌ لا يحبّ الإسراف، وإن رأوا عِيًّا، قالوا: مُتوَقٍّ يكره الكلام، وإن رأوا جُبْنًا، قالوا: متحرّج يكره الإقدام على الشّبهات. (١٨ : ٩١ ـ ٩٢)

**(الحكمة: ١٠٩) ... وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ.**

**الشّرح:** ... وأمّا الوقوف عند الشّبهات فهو حقيقةُ الوَرَع، ولا ريب أنّ مَن يزهد في الحرام أفضل ممّن يزهد في المباحات كالمآكل اللّذيذة، والملابس النّاعمة... .

(١٨ : ٢٧٧)

**(الحكمة:٣٧٧) الأصل: لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ ....**

الشّرح: كلّ هذه المعاني قد سبق القول فيها مرارًا شتّى، نأتي كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم، وإنّما يكرّرها أمير المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين، كما يكرّر الله سبحانه في القرآن المواعظ والزّواجر... . (١٩: ٣٠١)

## الفصل الحادي عشر: [في التّوكّل]

**(الحكمة: ٣١٦) وقَالَ عليه السلام: لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنهُ بِمَا فِي يَدِهِ.**

**الشّرح:** هذا كلام في التّوكّل. وقد سبق القول فيه[1].

وقال بعض العلماء: لايشغلُك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العمل، فتضيّع أمرَ آخرتك، ولاتنال من الدُّنيا إلّا ما كَتَب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ في جود[2] العبد: الرّزق عن غير طلب، دلالة على أنّ الرّزق مأمور بطلب العبد.

وقال بعضهم: متى رضيتَ بالله وكيلًا، وجدتَ إلى كلّ خير سبيلًا[3].

**(١٩ : ٢١٦)**

**(الحكمة: ٣٥٨) الأصل: قَالَ عليه السلام لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لَا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، فَإِن يَكُن أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُضَيِّعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِن يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللهِ، فَمَا هَمُّكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللهِ!**

**الشّرح:** ... وهو أمر، بالتّفويض والتّوكّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله، فإنّ الله تعالى أعلم بالمصلحة، وأرأف بالإنسان من أبيه وأُمّه؛ ثمّ إن كان الوَلَد في علم الله تعالى وليًّا من أولياء الله سبحانه، فإنّ الله تعالى لا يضيّعه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَحَسْبُهُ﴾[4].

وكلّ وليّ لِلّه فهو متوكّل عليه لا محالَة، وإن كان عدوًّا لِلّه لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره، لأنّ أعداءَ الله تجب مُقاطعتهم، ويَحرُم تولّيهم، فعلى كلّ حال

---

١ ـ سيجيء ذيل عنوان «بيان أحوال العارفين». (م)

٢ ـ في ب: «وجود» تحريف.

٣ ـ زاد بعدها في أ: «واضحًا»

٤ ـ الطّلاق: ٣.

لا ينبغي للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موته.

**واعلم!** أنّ هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين، لا كلامُ أهل هذه الطّبقات الّتي نَعرِفها، فإنّ هذه الطّبقات تقصُرأقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام.

ويعجبني قولُ الشّاعر[المتقارب]:

أيـا جـامعَ المـالِ وَفَّرتَـهُ لغيـرك إذْ لم تكـن خالـدَا
فـإن قلـتَ: أجمعُـه للبَنِـين فقـد يَسـبِق الوَلـدُ الوالـدَا
وإن قلت أخشـى صروف فكن مِن تصارِيفه واحدَا

(١٩ : ٢٦٨)

## الفصل الثّاني عشر: [في الرّضا]

(الخطبة: ١٦١) الأصل: أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُوبِحِلْمٍ ... .

الشّرح: ... قوله: «ورضاه أمانٌ ورحمةٌ»، لأنّ مَن فاز بدرجة الرّضا فقد أمن وحصلت له الرّحمة، لأنّ الرّضا رحمةٌ وزيادةٌ ... . (٩ : ٢٢٣)

(كتابه عليه السلام: ٢٧) ... وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنتَ مَحْقُوقٌ أَن تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَن تُنَافِحَ عَن دِينِكَ، وَلَوْلَمْ يَكُن لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَاتُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِن خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفًا مِن غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ ... .

الشّرح: ... قال: «ولاتسخط الله برضَا أحدٍ من خلقه، فإنّ في الله خَلَفًا من غيره، وليس من الله خَلَف في غيره»، أخذه الحسن البصريّ، فقال لعمربن هُبَيرة أمير العراق: إنّ الله مانِعُك مُن يزيدَ، ولم يَمنعْك يزيدُ من الله يعني يزيدَ بن عبدالملك ... .

ومثل قوله: «ولاتسخط الله برِضَا أحدٍ من خلقه»، ما رواه المبرّد في «الكامل» عن عائشة، قالت: مَن أرضَى الله بإسخاط النّاس كفاه الله ما بينه وبين النّاس، ومن أرضَى النّاس بإسخاط الله وَكَله الله إلى النّاس.

ومثل هذا ما رواه المبرّد أيضًا، قال: لما وُلّي الحسن بن زيد بن الحسن المدينة، قال لابن هَرْمة: إنّي لست كمَن باع لك دِينَه رجاء مَدْحِك، أو خوفَ ذَمّك، فقد رزقني[1] الله عَزَّوجَلَّ بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله المادِح، وجنّبني المقابح، وإنّ مِن حقّه عليّ ألّا أُغضِيَ على تقصيرفي حقّ الله. وأنا أقسم بالله لئن أتيتُ بك سكرانَ لأضربنّك حدًّا للخمر، وحدًّا للسُّكْر، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بي، فليكن تركك لها لله عَزَّوجَلَّ تُعَن[2]

---

١ ـ الكامل : «قد أفادني الله بولادة نبيّه المادح» .

٢ ـ كذا في أ ، والكامل ، وفي ب : «تعزّ» .

عليه، ولاتدعها للنّاس فَتُوكَل إليهم، فقال ابن هَرْمة [الوافر][1]:

نهاني ابنُ الرّسولِ عَنِ المُدامِ وأدّبـــني بـــآدابِ الكـــرامِ
وقال ليَ اصطبِرْ عنها ودَعْها لخـــوف الله لا خـــوفِ الأنـــامِ
وكيف تَصبُرِي عنها وحُبّي لهـا حُـبٌّ تمكّـن في عِظـامِي
أرَى طِيبَ الحلالِ عَلَيّ خُبْثًا وطِيب النّفسِ في خُبثِ الحرامِ[2]

(١٥: ١٦٧ ـ ١٦٩)

**(الحكمة: ٤) الأصل: الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.**

**الشّرح: ... الفصل الخامس:** قوله: «ونِعْم القَرين الرِّضا» قد سبق منّا قولٌ مقنعٌ في الرّضا [3] وقال أبو عمرو بن العَلاء: دفعت إلى أرض مُجْدِبة بها نَفَرٌ من الأعراب، فقلتُ لبعضهم: ما أرضكم هذه؟ قال: كما ترى، لا زرْع ولا ضَرْع . قلتُ: فكيف تعيشون؟ قالوا: نحترش[4] الضِّباب، ونصيد الدّوابّ: قلتُ: فكيف صبركم على ذلك؟ قالوا: يا هذا، سلْ خالقَ الخَلْق، هل سويت؟ فقال: بل رضيتُ.

**وكان يقال:** مَن سَخِط القضاء طاحَ، ومَن رضى به استراح.

**وكان يقال:** عليك بالرِّضا، ولو قُلِّبْتَ على جَمْرِ الغَضا.

وفي الخبر المرفوع أنّه ﷺ، قال عن الله تعالى: «مَن لم يَرْض بقضائي، فليتّخذ

---

١ ـ الكامل: «فنهض ابن هَرْمة وهو يقول» .

٢ ـ الكامل ١: ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

٣ ـ سيجيء ذيل عنوان «بيان أحوال العارفين» . (م)

٤ ـ في «اللّسان» : «حرش الضّبّ يحرشه حرشًا ، واحترشه وتحرش وتحرش به : أتى قفا جحره فقعقع بعصاه عليه وأتلج طرفها في حجره ، فإذا سمع الصّوت حسبه دابّة تريد أن تدخل عليه ، فجاء يزحل على رِجْليه وعجزه مُقاتلًا، ويضرب بذَنبه، فناهَزَه الرّجل فأخذ بذنبه، فضبّب عليه ـ أي شدّ القبض ـ فلم يقدر أن يفيصه، أي يفلت منه» .

ربًّا سوائي». (١٨ : ٩٢)

**(الحكمة: ٧) الأصل: مَن رَضِيَ عَن نَفْسِهِ كَثُرَالسَّاخِطُ عَلَيْهِ ...**

**الشّرح:** هذه فصول ثلاثة:

**الفصل الأوّل:** قوله: «مَن رضي عن نفسه كَثُر السّاخط عليه». قال بعض الفُضَلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدّعي التّميّز على النّاس بالعلم: عليك بقوم تروقهم بزبرجك، وتروعهم بزُخرفك، فإنّك لا تعدَم عزًّا، ولا تفقد غمرًا، لا يبلغ مسبارُهما غَوْرَك، ولا تستغرق أقدارُهما طَوْرَك.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

أرَى كلّ إنسانٍ يَرَى عَيْبَ غيرِهِ ... ويَعْمَى عن العيب الّذي هو فيهِ

وما خيرُ مَن تخفَى عليه عُيوبُهُ ... ويَبْدولـه العيبُ الّـذي بأخيـهِ

**وقال بعضهم:** دخلتُ على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنّفه، فقلت: ما هذا؟ قال: كتاب عملتُه مدخَلًا إلى التّورية، فقلت: إنّ النّاس ينكرون هذا، فلو قطعت الوقت بغيره[1]! قال: النّاس جُهّال، قلت: وأنت ضدّهم؟ قال: نعم، قلت: فينبغي أن يكون ضدُّهم جاهلًا عندهم، قال: كذاك هو! قلت: فقد بقيتَ أنت جاهلًا بإجماع النّاس، والنّاس جُهّال بقولك وَحْدَك. ومثل هذا المعنى قول الشّاعر[الطّويل]:

إذا كنتَ تَقْضي أنّ عَقْلك كاملٌ ... وأنّ بـني حَـوّاء غيـرَك جاهِـلُ

وأنّ مفيضَ العلم صَـدْرُك كلّهُ ... فمن ذا الّذي يدري بأنّك عاقِلُ!

(١٨: ١٠٠ ـ ١٠١)

**(الحكمة: ١٤٨) الأصل: الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ.**

---

١ ـ في د: «بغيرهذا».

**الشّرح:** لا فَرْقَ بين الرّضا بالفعل وبين المشاركة فيه، ألَا تَرَى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحًا استحقّ الرّاضي به الذّمّ كما يستحقّه الفاعل له! والرّضا يفسَّر على وَجْهَين: الإرادة، وترك الاعتراض، فإن كان الإرادة؛ فلا رَيْب أنّه يَستحِقّ الذّمّ، لأنّ مُرِيد القَبيح فاعلٌ للقبيح، وإن كان تَرْك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض، فلا رَيْب أنّه يستحقّ الذّمّ أيضًا، لأنّ تارك النّهي عن المنكر مع ارتفاع الموانع يستحقّ الذّمّ.

فأمّا قوله عليه السلام: «وعلى كلّ داخل في باطل إثمان»، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يفعله حقيقة، فلا شُبهة في أنّه يأثم من جهتَين:

**إحداهما:** من حيث إنّه أراد القبيح.

**والأُخرى:** من حيث إنّه فَعَله. وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا: إنّ عِقابَ المراد هو عِقابُ الإرادة.

وإن أراد أنّ الرّاضي بالقبيح فقط يستحقّ إثمين: أحدهما: لأنّه رَضِيَ به. والآخر: لأنّه كالفاعل. فليس الأمر على ذلك، لأنّه ليس بفاعل للقبيح حقيقةً ليستحقّ الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعليّة جميعًا، فوجب إذَنْ أن يُحمَل كلامه عليه السلام على الوجه الأوّل. (١٨ : ٣٦٢)

**(الحكمة: ٣٥٥) الأصل: مَن نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَن عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَن رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَن عَلَى مَا فَاتَهُ ... .**

**الشّرح:** كلّ هذه الفصول ... وهي عشرة:

أوّلها: مَن نظر في عيب نفسه اشتَغل عن عيب غيره، كان يقال: أصلح نفسك أوّلًا، ثمّ أصلح غيرك.

وثانيها: مَن رَضِي برزق الله لم يحزن على ما فاته، كان يقال: الحزن على المنافع الدّنيويّة سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضا بالقضاء ... . (١٩: ٢٦٤)

## الفصل الثّالث عشر: [في الشّكر]

(الخطبة: ١٥٨) الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي جَعَلَ الحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِن فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ... .

الشّرح: ... «وسببًا للمزيد»، لأنّه تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، والحمد هاهنا هو الشّكر، ومعنى جعله الحمدَ دليلًا على عظمته وآلائه أنّه إذا كان سببًا للمزيد، فقد دلّ ذلك على عظمة الصّانع وآلائه، أمّا دلالته على عظمته؛ فلأنّه دالٌّ على أنّ قدرته لا تتناهى أبدًا، بل كلّما ازداد الشّكر ازدادت النّعمة. (٩ : ٢١١)

(الخطبة: ١٨٣) ... الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّبًا، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا ... .

الشّرح: ... ثمّ بالغ في الحمد حمدًا يكون لحقّه قضاء، ولشُكْره أداء، وذلك لأنّ الحمد والشّكر (ولو بلغ) أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضيًا لحقّ الله تعالى، ولا مؤدّيًا لشُكْره، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة.

ثمّ قال: «وإلى ثوابه مقرّبًا، ولحُسْن مزيده موجبًا»، وذلك لأنّ الشّكر يوجب الثّواب والمزيد، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، أي أثبكم، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. (١٠: ٨٠ ـ ٨١)

(الخطبة: ١٨٦) [في وصف المتّقين] ... يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا، حَذِرًا لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ... .

---

١ ـ إبراهيم / ٧ .

٢ ـ البقرة / ١٥٢ .

**الشّرح:** ... قوله: «ويمسي وهمّه الشّكر»، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين، وقد أثنى الله تعالى على الشّكر والشّاكرين في كتابه في مواضع كثيرة، نحو قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي اَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَاتَكْفُرُونِ﴾[١]، فقرن الشّكر بالذّكر.

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ اِن شَكَرْتُمْ وَاٰمَنتُمْ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيَ اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٣].

ولعلوّ مرتبة الشّكر طَعَن إبليس في بني آدم، فقال: ﴿وَلَاتَجِدُ اَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٤]، وقد صدّقه الله تعالى في هذا القول، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٥].

وقال بعض أصحاب المعاني: قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشّكر ولم يستثنِ، فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَاَزِيدَنَّكُمْ﴾[٦].

واستثنى في خمسة أمور: وهي الإغناء، والإجابة، والرّزق، والمغفرة، والتّوبة.

فقال: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ اِنْ شَاءَ﴾[٧].

وقال: ﴿بَلْ اِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ اِلَيْهِ اِنْ شَاءَ﴾[٨].

وقال: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[٩].

وقال: ﴿وَيَغْفِرُمَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١٠].

---

١ـ البقرة / ١٥٢.

٢ ـ النّساء / ١٤٧.

٣ـ آل عمران / ١٤٤.

٤ ـ الأعراف / ١٧.

٥ ـ سبأ / ١٣.

٦ـ ابراهيم / ٧.

٧ ـ التّوبة / ٢٨.

٨ ـ الأنعام / ٤١.

٩ ـ الشّورى / ١٩.

١٠ ـ النّساء / ٤٨.

وقال: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاء﴾[١].

وقال بعضهم: كيف لا يكون الشّكر مقامًا جليلًا، وهو خُلُق من أخلاق الرّبوبيّة، قال تعالى في صفة نفسه: ﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٢].

وقد جعل الله تعالى الشّكر مفتاح كلام أهل الجنّة، فقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[٣]، وجعله خاتمة كلامهم أيضًا، فقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤].

وقيل للنّبيّ ﷺ: قد غَفَر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فلمَ تقوم اللّيل، وتُتْعِبُ نفسَك؟ قال: أفلا أكونُ عبدًا شكورًا! (١٠: ١٥١ ـ ١٥٢)

**(الحكمة: ١٤) الأصل: إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ، فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ.**

الشّرح: قد سَبَق القول في الشّكر، ونحن نذكرها هاهنا زيادةً على ذلك.

قال بعضهم: ما شيّبتني السّنون، بل شكري مَن أحتاج أن أشكره.

وقالوا: العَفاف زينة الفقر، والشّكر زينة الغِنَى.

وقالوا: مِن سعادة المرء أن يضع معروفه عند مَن يَشْكُرُه.

ومِن جيّد ما قيل في الشّكر قول أبي نواس [الكامل]:

قد قلتُ للعبّاس مُعْتذرًا ... من ضَعْف شُكْرِيه ومُعْتَرَفًا

أنت امرؤٌ حَمّلتَني نعمًا ... أوْهَتْ قوى شُكري فقد ضعفَا

فإليك منّي اليوم مَعْذرةٌ ... جاءتك بالتّصريح مُنكشفًا

---

١ ـ التّوبة / ١٥.

٢ ـ التّغابن / ١٧.

٣ ـ الزمر / ٧٤.

٤ ـ يونس / ١٠.

لاتُسْـــدِيَنّ إليّ عارفـــة حـتّى أقـوم بشُـكْرمـا سَـلفَا

وقال البُحْتريّ [الطّويل]:

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهدًا فلا نِلْتُ نُعْمَى بعدها تُوجِبُ الشُّكْرا

وقال أيضًا [الطّويل]:

سأجهد في شُكري لِنُعماك إنّني أرى الكُفْرللنّعماء ضَرْبًا من الكفرِ

وقال ابن أبي طاهر[الطّويل]:

شـكرتُ عليًّـا بـرَّهُ وبـلاءه فقصّربي شُكْري وإنّي لجاهدُ

وما أنا من شُكْري عليًّا بواحدٍ ولكنّه في الفَضْلِ والجُودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستيّ [الخفيف]:

لاتظـنّنّ بي وبِـرُّكَ حَـيٌّ أنّ شُكْري وشُكْرغيري مَواتُ

أنا أرضٌ وراحتاك سحابٌ والأيادي وَبْلٌ وشُكْري نَباتُ

وقال أيضًا [الطّويل]:

وحرّ لما أوليتُ شكريَ ساجدًا ومثلُ الّذي أوليتُ يعبُدهُ الشُّكْرُ

البُحْتُريّ [الطّويل]:

أراك بعين المكتسي وَرَقَ الغِنَى بآلائك اللّاتي يُعدِّدُها الشُّكْرُ

ويُعجِبُني فَقْري إليك ولم يكن لَيُعجِبُـني لـولا محبّتُـك الفَقْـرُ

آخر[الطّويل]:

بـدأتَ بمعـروفٍ وثنّيـت بالرّضـا وثلّثت بالحُسْنى وربّعت بالكَرَمْ

وباشرتَ أمري واعتنيتَ بحاجتي وأخّرت لا عَنّي وقدّمت لي نَعَمْ

وصدّقت لي ظنّي وأنجزتَ موعدي وطبتَ به نفسًا ولم تَتْبَعِ النَّدَمْ

فـإن نحـن كافأنـا بشُـكْرٍفواجـب وإن نحـن قصّرنا فما الودّ متّهَمْ

(١٨ : ١١٦ ـ ١١٧)

(الحكمة: ٦٦) الأصل: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

الشّرح: ... وأمّا كَوْن الشّكر زينة الغِنَى، فقد تقدّم من القول ما هو كافٍ. وكان يقال: العلم بغير عمل قَوْلٌ باطلٌ، والنّعمة بغير شُكرٍ جِيدٌ عاطِلٌ. (١٨ : ٢١٤)

(الحكمة: ١٤٦) الأصل: وقَالَ عليه السلام لِرَجُلٍ سَأَلَهُ أَن يَعِظَهُ:

لَا تَكُن مِمَّن يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيَرْجُو التَّوبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، ويَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِن أُعْطِيَ مِنهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِن مُنِعَ مِنهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَن شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ... .

الشّرح: ... ثمّ قال: يعجز عن شكر ما كان أنعم به عليه، ليس يعني العجزَ الحقيقيّ، بل المراد تَرْك الشّكر، فسمّى ترك الشّكر عجزًا. ويجوز أن يُحمَل على حقيقته، أي أنّ الشّكر على ما أُولي من النِّعَم لا تنتهي قُدرتَه إليه، أي نِعَم الله عليه أجلّ وأعظم من أن يقام بواجب شكرها. (١٨ : ٣٥٨)

(الحكمة: ٢٠٠) وقَالَ عليه السلام: لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَن لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَن لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنهُ، وَقَدْ يُدْرِكُ مِن شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

الشّرح: قد أخذتُ أنا هذا المعنى فقلتُ من جملةِ قصيدةٍ لي حِكْميّة [البسيط]:

لا تُسْدِيَنّ إلى ذي اللّؤم مَكْرُمةً ... فإنّه سَبَخٌ لا يُنبت الشَّجَرَا

فإن زَرَعْتَ فمحفوظٌ بمَضْيَعةٍ ... وأكْلُ زَرْعِك شُكْرُ الغَيْر إن كَفَرَا

وقد سبق منّا كلام طويلٌ في الشّكر[1]

ورأى العبّاس بنُ المأمون يومًا بحضرة المعتصِم خاتمًا في يد إبراهيم بن المهديّ،

---

١ ـ سيجيء ذيل بيان أحوال العارفين. (م)

فاستحسنه، فقال له: ما فَصُّ هذا الخاتم ، ومِن أين حصّلته؟ فقال إبراهيم: هذا خاتمٌ رهنتُه في دولةِ أبيك، وافتَكَكْتُه في دولةِ أميرالمؤمنين، فقال العبّاس: فإن لم تشكر أبي على حَقْنِه دَمَك، فأنت لاتشكر أميرالمؤمنين على فَكّه خاتمك.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

لَعَمْرُك ما المعروفُ في غيرِ أهلهِ ... وفي أهله إلّا كبَعْض الوَدائِعِ

فمُسْتودَعٌ ضَاع الّذي كان عندَهُ ... ومُسْتَودَعٌ ما عنده غير ضائِعِ

وما النّاس في شكر الصّنيعة عندهمْ ... وفي كُفْرها إلّا كبَعْض المزارِعِ

فمزرَعةٌ طابَتْ وأضْعِفَ نَبْتُها ... ومَزْرَعةٌ أكدَت على كلِّ

(١٩ : ٢٤)

**(الحكمة :٢٤٣) الأصل: احْذَرُوا نِفَارَالنِّعَمِ، فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ.**

**الشّرح:** هذا أمرٌ بالشُّكْر على النّعمة وترك المعاصيَ، فإنّ المعاصيَ تُزِيل النِّعَم كما قيل [المتقارب]:

إذا كُنتَ في نِعْمةٍ فارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزِيل النِّعَم

**وقال بعض السَّلَف:** كُفْران النّعمة بَوار، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها، فاستَدْعِ شارِدَها بالشّكر، واسْتَدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار، ولاتحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم تَرْجُ لِلّه وَقارًا.

**وقال أبوعِصْمة:** شَهِدتُ سُفيان وفُضَيْلًا[١] فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النِّعَم، يقولان : أنعم الله سبحانَه علينا بكذا، وفَعَل بنا كذا.

**وقال الحسن**[٢]: إذا استوى يَوْماك فأنتَ ناقصٌ، قيل له: كيف ذاك؟ قال: إن

---

١ ـ هوفضيل بن عِياض .

٢ ـ هوالحسن البصريّ .

زادَك اللهُ اليَوْمَ نِعَمًا، فعليك أن تزداد غدًا له شُكْرًا.

**وكان يقال:** الشُّكر جُنَّة[١] من الزّوال، وأمَنةٌ من الانتقال.

**وكان يقال:** إذا كانت النّعمة وَسيمةً فاجْعَل الشّكرَ لها تَميمة[٢]. (١٩ : ٨٠)

**(الحكمة: ٣٤٧) الأصل: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الغِنَى.**

الشّرح: ... وقد سبق أيضًا القول في الشّكر عند النّعمة ووجوبه، وأنّه سببٌ لاستدامتها، وأنّ الإخلال به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالها، وذكرنا في هذا الباب أُمورًا مستحسنةً، فلتراجع. (١٩: ٢٥٥)

**(الحكمة: ٤٤١) الأصل: مَا كَانَ اللهُ لِيَفْتَحَ عَلى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ، وَيُغْلِقَ عَنهُ بَابَ الزِّيَادَةِ، وَلَا لِيَفْتَحَ عَلى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ، وَيُغْلِقَ عَنهُ بَابَ الْإِجَابَةِ، وَلَا لِيَفْتَحَ عَلَيْهِ بَابَ التَّوْبَةِ، وَيُغْلِقَ عَنهُ بَابَ الْمَغْفِرَةِ.**

الشّرح: قد تقدّم القول في الشّكر واقتضائه الزّيادة واقتضاء الدّعاء الإجابة. والتّوبة: المغفرة، على وجه الاستقصاء في الجميع. (٢: ٨٢)

---

١ ـ جُنَّة: وقاية.

٢ ـ التّميمة: العوذة.

## الفصل الرّابع عشر: [في الحوائج وقضائها]

**(الحكمة: ٦٤) الأصل: فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِن طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا.**

**الشّرح:** قد سَبَق هذا المعنى، وذكرنا كثيرًا ممّا قيل فيه[1].

**وكان يقال:** لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثةٍ: إلى عبدٍ يقول: الأمر إلى غيري، وإلى رجل حديثِ الغِنَى، وإلى تاجرٍ هِمّته أن يستَرْبِحَ في كلّ عشرين دينارًا حبّة واحدة. (١٨: ٢١١)

**(الحكمة: ٩٧) الأصل: لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ: بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ.**

**الشّرح:** ... وقد جاء في الحديث المرفوع: «استعِينوا على حاجاتكم بالكِتْمان، فإنّ كلّ ذي نعمةٍ محسود».

وقال خالد بن صَفْوان: لا تطلُبوا الحوائجَ في غير حِينها، ولا تطلُبوها إلى غير أهلها، ولا تطلبوا ما لستم له بأهلٍ فتكونوا للمَنع خُلَقاء.

**وكان يقال:** لكلّ شيءٍ أُسٌّ، وأُسُّ الحاجة تعجيلٌ أرْوَحُ من التّأخير.

وقال رجلٌ لمحمّد ابن الحَنَفيّة: جئتُك في حُوَيجة، قال: فاطْلب لها رُجَيْلًا!

وقال شَبيب بن شَبّة بن عِقال: أمران لا يجتمعان إلّا وجب النُّجْح، وهما العاقل لا يَسأَل إلّا ما يجوز، والعاقل لا يرُدُّ سائلَه عمّا يمكن.

**وكان يقال:** مَنِ اسْتَعظَم حاجةَ أخيه إليه بعد قضائها امتنانًا بها فقد استَصْغَر نفسه.

وقال أبو تمّام في المَطَل[2] [الوافر]:

وكان المَطْلُ في بَدْءٍ وعَوْدٍ ... دُخانًا للصّنيعة وَهْيَ نارُ

---

١ـ بحثنا في كلام الشّارح قبل هذا وما رأينا كلامًا مبسوطًا في الحوائج وقضائها. (م)

٢ ـ ديوانه ٢: ١٥٩، بشرح التّبريزيّ.

نَسيبَ البُخل مُذْ كانا وإلّا يَكُن نَسَبٌ فبينهما جِوارُ
لذلك قيل: بعضُ المَنع أدنى إلى جُودٍ، وبعض الجُودِ عارُ

(١٨: ٢٥٨ ـ ٢٥٩)

## الفصل الخامس عشر: [في العدل والإنصاف]

(الخطبة: ١٥) الأصل: وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَن ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ.

الشّرح: ... وتفسير هذا الكلام: أنّ الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أُموره في العدل فهي في الجور أضيق عليه، لأنّ الجائر في مظنّة أن يمنع ويصدّ عن جوره.
(١: ٢٧٠)

(الخطبة: ٢٠٩) ... ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِن حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ.

وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِن تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ.

## [فصل: فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء في وجوب الطّاعة لأُولي الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ: «السّمع والطّاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصيةٍ، فإذا أُمِر بها فلا سَمْعَ ولا طاعة».

---

١ ـ النّساء / ٥٩ .

وعنه ﷺ: «إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ أسودَ مجدَع فاسمعوا له وأطيعوا».

ومن كلام عليّ عليه السلام: «إنّ الله جعل الطّاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفَجَرة».

بعث سعد بن أبي وَقّاص جَريرَ بنَ عبد الله البَجَليّ من العراق إلى عمر بن الخطّاب بالمدينة، فقال له عمر: كيف تركتَ النّاس؟ قال: تركتهم كقِداح الجُعْبة، منها الأعصل[1] الطّائش، ومنها القائم الرّائش. قال: فكيف سَعْدٌ لهم؟ قال: هو ثِقَافها الّذي يقيم أوَدَها ويغمز عَصَلها[2]. قال: فكيف طاعتهم؟ قال: يصلّون الصّلاة لأوقاتها، ويؤدّون الطّاعة إلى وُلاتها. قال: الله أكبر! إذا أُقيمت الصّلاة، أُدِّيت الزّكاة وإذا كانت الطّاعة كانت الجماعة.

ومن كلام أبَرْويز المَلِك: أطِعْ مَن فوقك يُطعك مَن دونك.

ومن كلام الحكماء: قلوب الرّعيّة خزائن واليها، فما أودعه فيها وَجَده.

وكان يقال: صنفان متباغضان متنافيان: السّلطان والرّعيّة؛ وهما مع ذلك متلازمان، إن صَلَح أحدهما صلح الآخر، وإن فسد فسد الآخر.

وكان يقال: محلّ المَلِك من رعيته محلّ الرّوح من الجسد، ومحلّ الرّعيّة منه محلّ الجسد من الرّوح، فالرّوح تألَم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن، وليس كلّ واحدٍ من الأعضاء يألم بألم غيره، وفساد الرّوح فساد جميع البدن، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر البدن صحيح.

كان يقال: ظلم الرّعيّة استجلاب البليّة.

وكان يقال: العَجَب ممّن استفسد رعيّته، وهو يعلم أنّ عزّه بطاعتهم.

وكان يقال: موت المَلِك الجائر خِصْبٌ شاملٌ.

وكان يقال: لا قَحْطَ أشدّ من جَوْر السّلطان.

وكان يقال: قد تعامَل الرّعيّة المشمئزّة بالرّفق؛ فتزول أحقادها، ويذلّ قيادها، وقد

---

١ ـ السّهم الأعصل: القليل الرّيش.

٢ ـ العصل: الاعوجاج والميل.

تعامَل بالخُرَق فتكاشف بما غيبت وتقدّم على ما عيبت، حتّى يعود نفاقها شِقاقًا، ورذاذها سيلًا بُعاقًا[١]، ثمّ إن غَلَبت وقهرت فهو الدّمار، وإن غُلِبت وقُهِرت لم يكن بغِلَبها افتخار، ولم يدرَك بقهرها ثار.

**وكان يقال:** الرّعيّة وإن كانت ثمارًا مجتناة، وذخائر مقتناة، وسُيوفًا منتضاة، وأحراسًا مرتضاة، فإنّ لها نِفارًا كنِفار الوحوش، وطغيانًا كطغيان السّيول، ومتى قَدَرَتْ أن تقول قَدَرَتْ على أن تصول.

**وكان يقال:** أيدي الرّعيّة تبع ألسنتها، فلن يملك الملك ألسنتها حتّى يملك جسومها، ولن يملك جسومها حتّى يملك قلوبَها فتحبّه، ولن تحبّه حتّى يعدل عليها في أحكامه عدلًا يتساوى فيه الخاصّة والعامّة؛ وحتّى يخفّف عنها المؤَن والكُلَف، وحتّى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها؛ وهذه الثّالثة تحقدعلى الملك العِلْية من الرّعيّة وتطمع السّفلة في الرّتب السّنيّة.

**وكان يقال:** الرّعيّة ثلاثة أصناف:

١ــ صِنف فُضَلاء مُرتاضون بحكم الرّياسة والسّياسة، يعلمون فَضيلة المَلِك وعظيم غَنائه، ويَرِثُون له مِن ثقل أعبائه، فهؤلاء يحصِّل الملك مودّاتهم بالبِشْرِ عند اللّقاء، ويلقّى أحاديثهم بحسن الإصغاء.

٢ـ وصِنف فيهم خير وشرّ ظاهران، فصلاحهم يكتَسب من معاملتهم بالتّرغيب والتّرهيب.

٣ـ وصِنف من السَّفَلة الرّعاع أتباع لكلّ داعٍ؛ لايمتحَنون في أقوالهم وأعمالهم بنقْد، ولا يرجعون في الموالاة إلى عقد.

**وكان يقال:** ترك المعاقبة للسَّفَلة على صِغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم، ألا ترى أوّل نُشُوز المرأة كلمة سوءٍ تبها، وأوّل حِران الدّابّة

---

١ ـ السّيل البُعاق: المتصبّب بشدّة.

حَيْدة سوعدت عليها.

**ويقال**: إنّ عثمان قال يومًا لجُلَسائه، وهو محصور في الفتنة: وَدِدْتُ أنّ رجلًا صَدوقًا أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء! فقام إليه فتًى، فقال: إنّي أُخبرك تطأطأتَ لهم فركبوك وما جرّأهم على ظلمك إلّا إفراط حلمك. قال: صدقت، فهل تعلم ما يُشبّ نيران الفِتن؟ قال: نعم، سألت عن ذلك شيخًا من تَنُوخ كان باقعة، قد نقّب في الأرض وعلم علمًا جمًّا، فقال: الفتنة يُثيرها أمران: أَثَرَة تُضْغِنُ على الملك الخاصّة، وحِلْم يُجرّئ عليه العامّة. قال: فهل سألته عمّا يخمِدها؟ قال: نعم، زعم أنّ الّذي يخمدها في ابتدائها استقالة العَثْرة وتعميم الخاصّة بالأثرة، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصّبر. قال عثمان: صدقت؛ وإنّي لصابر حتّى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

**ويقال**: إنّ يَزْدَجرد بن بهرام سأل حكيمًا: ما صلاح المُلْك؟ قال: الرِّفق بالرّعيّة، وأخذ الحقّ منها بغير عنف، والتّودّد إليها بالعدل، وأمن السُّبُل وإنصاف المظلوم. قال: فما صلاح الملك؟ قال: وُزَراؤه؛ إذا صَلَحوا صَلَح. قال: فما الّذي يُثير الفِتن؟ قال: ضغائن يظهرها جرأة عامّةٍ، واستخفاف خاصّة، وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق مُوسِر، وأمن مُعْسر، وغفلة مرزوق، ويَقْظة محروم. قال: وما يسكِنُها؟ قال: أخذ العدّة لما يخاف، وإيثار الجدّ حين يلتذّ الهزل، والعمل بالحزم، وادّراع الصّبر والرّضا بالقضاء.

**وكان يقال**: خير الملوك مَن أشرَب قلوب رعيّته محبّته، كما أشعرها هيبَتَه، ولن يُنال ذلك منها حتّى تظفر منه بخمسة أشياء: إكرام شريفها، ورحمة ضعيفها، وإغاثة لهيفها، وكفّ عُدْوان عدوّها، وتأمين سُبُل رَواحها وغُدوّها، فمتى أعدمها شيئًا من ذلك فقد أحقدها[1] بقدر ما أفقدها.

**وكان يقال**: الأسباب الّتي تجرّ الهلك إلى المُلْك ثلاثة:

---

١ ـ يقال: أحقده، أي صيّره حاقدًا.

**أحدها**: من جهة المَلِك، وهو أن تتأمّر شهواتُه على عقله، فتَستَهويه نَشَوات الشّهوات فلا تَسنَح له لذّة إلّا اقتنصها، ولا راحة إلّا افترصها.

**والثّاني**: من جهة الوُزَراء، وهو تحاسدهم المقتضي تعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حقّ إلّا كُويد وعُورض وعُوند.

**والثّالث**: من جهة الجُند المؤهّلين لحراسة الملك والدّين، وتوهين المعاندين، وهو نُكولهم عن الجلاد، وتضجيعهم في المناصحة والجهاد، وهم صنفان: صِنفٌ وسّع الملك عليهم فأبطرهم الإترافَ، وضنّوا بنفوسهم عن التّعريض للإتلاف، وصِنف قَدَر عليهم الأرزاق، فاضطغنوا الأحقاد[1] واستشعروا النّفاق. (١١: ٩٣ ـ ٩٧)

## [الآثار الواردة في العدل والإنصاف]

**(الخطبة: ٢٠٩) ... وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّين، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ ... .**

**الشّرح**: ... قوله عليه السلام: «أو أجحف الوالي برعيّته»، قد جاء من نظائره الكثير جدًّا ، وقد ذكرنا فيما تقدّم نُكَتًا حَسَنة في مدح العدل والإنصاف، وذمّ الظّلم والإجحاف.

**وقال النّبيّ** صلى الله عليه وآله: «زيّن الله السّماء بثلاثة: الشّمس والقمر والكواكب، وزيّن الأرض بثلاثة: العلماء والمطر والسّلطان العادل».

**وكان يقال**: إذا لم يعمّر المَلِك مُلْكه بإنصاف الرّعيّة خرب مُلْكه بعصيان الرّعيّة.

وقيل لأنوشروان: أيّ الجُنَن أوقى؟ قال: الدّين، قيل: فأيّ العُدَد أقوى؟

---

١ ـ اضطغنوا الأحقاد: انطووا عليها.

قال: العدل.

وقّع جعفربن يحيى إلى عامل من عُمّاله: كَثُر شاكّوك، وقَلّ حامدوك، فإمّا عدلتَ، وإمّا اعتزلتَ.

وجد في خزانة بعض الأكاسرة سَفَط، ففتح، فوجد فيه حَبّ الرُّمّان، كلّ حَبّة كالنّواة الكبيرة من نوى المِشْمِش، وفي السَّفَط رُقْعة فيها: هذا حَبّ رُمّان عملنا في خراجِه بالعدل.

خطب الإسكندر جُنده، فقال لهم بالرّوميّة كلامًا تفسيره: يا عباد الله، إنّما إلهكم الله الّذي في السّماء، الّذي نَصَرَنا بعد حين، الّذي يسقيكم الغَيْث عند الحاجة، وإليه مَفْزعكم عند الكرب. والله لا يبلغني أنّ الله أحبّ شيئًا إلّا أحببتُه وغملتُ به إلى يوم أجَلي، ولا يبلغني أنّه أبغض شيئًا إلّا أبغضتُه وهجرته إلى يوم أجَلي. وقد أُنبئتُ أنّ الله يحبّ العدل في عباده ويُبْغِض الجور، فويل للظّالم مِن سَوْطِي وسَيْفي! ومَن ظهر منه العدل من عُمّالي فليتّكئ في مجلسي. كيف شاء، وليتمنّ عليّ ما شاء، فلن تخطئه أُمْنيّتُه، والله المجازي كلًّا بعمله.

قال رجل لسليمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم: يا أمير المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]!، قال: ما خطبك؟ قال: وكيلُك اغتصبني ضَيْعتي وضمّها إلى ضَيْعتك الفلانيّة، قال: فإنّ ضَيْعتي لك، وضيعتك مردودة إليك، ثمّ كتب إلى الوكيل بذلك، وبصَرْفه عن عمله.

ورُقِيَ إلى كَسرى قُباذ أنّ في بطانة الملك قومًا قد فسدت نيّاتهم وخَبُثَت ضمائرهم، لأنّ أحكام الملك جَرَت على بعضهم لبعضهم، فوقّع في الجواب: أنا أملك الأجساد لا النّيّات وأحكم بالعدل لا بالهوى، وافْحص عن الأعمال لا عن السّرائر.

وتظلّم أهل الكوفة إلى المأمون مِن واليهم، فقال: ما علمت في عُمّالي أعْدَلَ ولا أقْوَمَ بأمر الرّعيّة، ولا أعْوَد عليهم بالرِّفْق منه، فقال له منهم واحد: فلا أحدَ أوْلى

---

١ ـ الأعراف/ ٤٤.

منك يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف، وإذا كان بهذه الصّفة فمِن عَدْل أمير المؤمنين أن يُولّيَه بلدًا بلدًا، حتّى يلحق أهل كلّ بَلَدٍ من عَدْله، مثلُ ما لحقنا منه، ويأخذو بقِسْطهم منه، كما أخذ منه سواهم، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك وعزله.

كتب عَدِيّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد؛ فإنّ قبَلنا قومًا لا يؤدّون الخراج إلّا أن يمسَّهم نَصَبٌ من العذاب، فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك. فكتب: أمّا بعد؛ فالعَجَبُ لك كلّ العَجَب! تكتب إليّ تستأذنني في عذاب البشر، كأنّ إذني لك جُنَّة من عذاب الله، أو كأنّ رضاي ينجّيك من سَخَط الله! فمن أعطاك ما عليه عفوًا فخذ منه، ومَن أبى فاستحلِفْه، وكِلْه إلى الله، فلأن يلقَوُا الله بجرائمهم أحبّ إليّ من أن ألقاه بعذابهم.

فُضَيل بن عِياض: ما ينبغي أن تتكلّم بفيك كلّه، أتدري مَن كان يتكلّم بفيه كلّه! عمر بن الخطّاب كان يعدل في رعيّته، ويجور على نفسه، ويطعمهم الطّيّب، ويأكل الغليظ، ويكسوهم اللّينّ، ويلبس الخشن، ويعطيهم الحقّ ويزيدهم، ويمنع ولده وأهله، أعطى رجلًا عطاءه أربعة آلاف درهم، ثمّ زاده ألفًا، فقيل له: ألا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا ؟ فقال : إنّ هذا ثبَت أبوه يوم أُحُد، وإنّ عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت.

**وكان يقال:** لا يكونُ العُمْران إلّا حيث يعدل السّلطان.

**وكان يقال:** العدل حِصْنٌ وَثيق في رأس نِيق،[1] لا يحطّمه سيلٌ، ولا يهدمه منجنيق.

وقّع المأمون إلى عامل كثر التّظلّم منه، أنصفْ مَن وَلِيت أمرهم وإلّا أنصَفهم منك مَن وَلِيَ أمرك.

بعض السَّلَف: العدل ميزان الله، والجور مكيال الشّيطان. (١١ : ٩٧ ـ ١٠٠)

---

١ ـ النَيق : أرفع موضع في الجبل .

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... أَنصِفِ اللهَ وَأَنصِفِ النَّاسَ مِن نَفْسِكَ، وَمِن خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَن لَكَ فِيهِ هَوًى مِن رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَن ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَن خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلهِ حَرْبًا حَتَّى يَنزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِن إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُن أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ ....

**الشّرح:** قال له: أنصف الله، أي قُم له بما فَرَض عليك من العبادة والواجبات العقليّة والسّمعيّة.

ثمّ قال: وأنصِف النّاس من نفسك ومن وَلَدِك وخاصّة أهلك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك، فمتى لم تفعل ذلك كنت ظالمًا.

ثمّ نهاه عن الظّلم، وأكّد الوِصاية عليه في ذلك.

ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهاد في رضا العامّة، فإنّه لا مبالاة بسُخط خاصّة الأمير مع رضا العامّة، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة، وذلك مثل أن يكون في البلد عشرةٌ أوعشرون من أغنيائه، وذوي الثّروة من أهله، يلازمون الوالي ويخدمونه ويسامرونه، وقد صار كالصّديق لهم، فإنّ هؤلاء ومَن ضارَعَهم من حواشي الوالي وأرباب الشّفاعات والقُرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئًا عند تنكّر العامّة له، وكذاك لا يضرّ سُخط هؤلاء إذا رضيت العامّة، وذلك لأنّ هؤلاء عنهم غِنًى، ولهم بدل، والعامّة لاغنًى عنهم ولا بدل منهم، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب، فلا يقاومه أحد، وليس الخاصّة كذلك.

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعمَ ما قال ـ: ليس شيءٌ أقلّ نفعًا، ولا أكثر ضررًا على الوالي من

خواصّه أيّام الولاية، لأنّهم يُثقِلون عليه بالحاجات، والمسائل والشّفاعات ، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضوه حتّى لو لقوه في الطّريق لم يسلّموا عليه. (١٧ : ٣٥ ـ ٣٦)

**(كتابه عليه السلام: ٥٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قُطْبَةَ صاحب جند حُلْوان:**
**أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُن أَمْرُ النَّاسِ عِندَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ قال له: فإنّه ليس في الجور عِوَضٌ من العدل، وهذا أيضًا حقّ، وفي العدل كلّ العِوَض من الجور. (١٧ : ١٤٦)

**(الحكمة: ٣٢) الأصل: كُن سَمْحًا، وَلَاتَكُن مُبَذِّرًا، وَكُن مُقَدِّرًا، ولَاتَكُن مُقَتِّرًا.**

**الشّرح:** كلّ كلام جاء في هذا فهو مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[1]. ونحو قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[2]. (١٨ : ١٥٠)

**(الحكمة: ٦٨) الأصل: لَا يُرَى الْجَاهِلُ إِلَّا مُفْرِطًا أَوْ مُفَرِّطًا.**

**الشّرح:** العدالة: هي الخُلُق المتوسّط، وهو محمود بين مَذْمُومَين، فالشّجاعة محفوفة بالتّهوّر والجُبن والذّكاء بالغَباوة والجربزة[3]، والجود بالسُّحّ والتّبذير، والحلم بالجماديّة والاستشاطة، وعلى هذا كلّ ضدَّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط، وهو المسمّى بالعدالة، فلذلك لا يُرَى الجاهل إلّا مُفْرِطًا أومُفَرِّطًا، كصاحب الغَيْرة، فهو إمّا أن يُفرِط فيها، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا من مُوجب، بل بالوَهْم

---

١ ـ الإسراء/ ٢٩ .

٢ ـ الإسراء / ٢٧ .

٣ ـ الجربزة : الخبّ والمكر.

وبالخيال وبالوَسْواس، وإمّا أن يُفَرِّط فلا يَبْحَث عن حال نسائِه ولا يُبَالى ما صَنَعْن، وكِلَا الأمرَيْن مذموم، والمحمودُ الاعتدال.

**ومن كلام بعض الحكماء**[1]: إذا صحّ العقل الْتَحَم[2] بالأدب كالتحام[3] الطّعام بالجسد الصّحيح، وإذا مرض العقل نَبا عنه ما يَستَمع من الأدب، كما يَقِيءُ المَعْمود ما أكل من الطّعام، فلوآثر الجاهلُ أن يتعلّم شيئًا من الأدبُ لتَحوّل ذلك الأدبُ جهلًا، كما يتحوّل ما خالَطَ جوفَ المريض من طِيب الطّعام داءً. (١٨ : ٢١٦)

**(الحكمة: ٢٢٨) الأصل: في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾**[4]**، الْعَدْلُ: الْإِنصَافُ، وَالْإِحْسَانُ: التَّفَضُّلُ.**

**الشّرح**: هذا تفسيرٌ صحيحٌ اتّفق عليه المفسّرون كافّة، وإنّما دخل النّدب تحت الأمر، لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه، وليس كالمباح الّذي لا صفة له زائدة على حُسْنه ... .

[ثمّ ذكر قول الزّمخشريّ في العدل ونقدها، كما تقدّم في الباب الثّالث «المسائل الكلاميّة» من هذا الكتاب]. (١٩ : ٥٨)

**(الحكمة: ٤٤٣) وسُئِلَ عليه السلام: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، الْعَدْلُ أَوِ الْجُودُ؟ فَقَالَ عليه السلام: الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِن جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ**

---

١ ـ أ: «و من كلام الحكماء».

٢ ـ أ: «التأم».

٣ ـ أ: «كالتأم».

٤ ـ النحل / ٩٠.

عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.

**الشّرح:** هذا كلامٌ شريفٌ جليل القَدْر، فضَّل عليه السلام العَدْل بأمرَين:

**أحدهما:** أنّ العدل وَضْعُ الأُمور مواضعها، وهكذا العَدالة في الاصطلاح الحُكْميّ، لأنّها المرتبة المتوسّطة بين طَرَفَي الإفراط والتّفريط، والجود يخرج الأمر عن موضعه، والمراد بالجود هاهنا هو الجود العُرْفيّ، وهو بَذْل المُقْتَنَيات للغير، لا الجود الحقيقيّ، لأنّ الجود الحقيقيّ ليس يخرج الأمر من جهته، نحو جود الباري تعالى.

**والوجه الثّاني:** أنّ العدل سائسٌ عامّ في جميع الأُمور الدِّينيّة والدّنيويّة، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود، وأمّا الجود فأمرٌ عارضٌ خاصٌّ، ليس عموم نفعه، كعموم نفع العدل. (٢٠ : ٨٥)

## الفصل السّادس عشر: [في الأدب[1]]

**(الحكمة: ٥) وقَالَ عليه السلام: الْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ.**

**الشّرح:**... وكان يقال: عليكم بالأدب، فإنّه صاحبٌ في السَّفَر، ومؤنسٌ في الوحدة، وجمالٌ في المحفِل، وسببٌ إلى طلب الحاجة.

وكان عبد الملك أديبًا فاضلًا، ولا يجالس إلّا أديبًا.

وروى الهَيْثم بن عَديّ عن مِسْعربن كدام، قال: حدّثني سعيد بن خالد الجَدَليّ، قال: لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصْعب دعا النّاس يعرضهم على فرائضهم، فحضرنا بين يديه، فقال: مَنِ القوم؟ قلنا: جَديلةُ، فقال: جَديلةُ عَدْوان؟ قلنا: نعم، فأنشد [الهزج]:

عَذِيرَ الحَيّ من عَدْوا ... نَ كانوا حَيّة الأرضِ[2]

بغى بعضُهمُ بعضًا ... فلم يَرْعَوا على بعضِ

ومنهم كانتِ السّادا ... تُ والموفُون بالقَرْضِ

ومنهم حَكَمٌ يقضِي ... فلا يُنقَضُ ما يقضي

ومنهم مَن يجيز النّا ... س بالسّنة والفرضِ

ثمّ أقبل على رجلٍ منّا وَسيم جَسيم قدّمناه أمامنا، فقال: أيّكم يقول هذا الشّعر؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: يقوله ذوالإصبع، فتركني وأقبل على ذلك الرّجل الجَسيم، فقال: ما كان اسم ذي الإصبع؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: اسمه حُرْثان، فتركني وأقبل عليه، فقال له: ولِمَ سمّي ذا الإصبع؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: نهشتْه حَيّة في إصبعه، فأقبل عليه وتركني، فقال: مِن أيّكم كان؟ فقال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: من بني تاج الّذين يقول الشّاعر فيهم [الطّويل]:

---

١ ـ سيجيء في ذيل عنوان «بيان أحوال العارفين» كلام بالتّفصيل حول الأدب. (م)

٢ ـ يقال للرّجل الصّعب المنيع: حيّة الأرض.

فأمّا بنو تاج فلا تذكرنّهم ولا تَتْبَعَنْ عَيْناك مَن كان هالكَا

فأقبل على الجَسيم، فقال: كم عطاؤك؟ قال: سبعمائة درهم، فأقبل عليّ، وقال: وكم عطاؤك أنت؟ قلت: أربعمائة، فقال: يا أبا الزّعيزعة، حطّ مِن عطاء هذا ثلاثمائة، وزدها في عطاء هذا، فرحت وعطائي سبعمائة وعطاؤه أربعمائة.

وأنشد مُنشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم [الكامل]:

أَظَلومُ أنّ مُصابكم رَجُلًا أهدى السّلام تحيّةً ظُلْمُ[1]

فقال شخص: رجل هو خبر «إنّ»، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: مَن بقي من علماء النّحويّين؟ قالوا: أبو عثمان المازنيّ بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سُرّ مَن رأى بعد إزاحه علّته، قال أبو عثمان: فأُشخصت، فلمّا أُدخلت عليه، قال: ممّن الرّجل؟ قلت: مِن مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: مِن مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟ يريد: «ما اسمك» لأنّ لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميمًا، فقلت: مكر أي «بكر»، فضحك وقال: اجلس، واطمئنّ، فجلست فسألني عن البيت، فأنشدته منصوبًا، فقال: فأين خبر إنّ؟ فقلت: «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أنّ البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إنّ» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلمّا كرّرت القول عليه فهم، وقال: قبّح الله مَن لا أدب له، ثمّ قال: ألك ولدٌ؟ قلت: بنيّة، قال: فما قالت لكَ حين ودّعتَها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى [المتقارب]:

تقولُ ابنتي حين جَدّ الرّحيلُ أرانا سواءً ومَن قد يَتِمْ[2]

أبانا فلا رِمْتَ مِن عندنا فإنّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

---

١ ـ نسبه ابن خَلّكان والحَريريّ في (دُرّة الغَوّاص :٤٣) إلى العرجيّ ، ونسبه البغداديّ في (الخزانة ١ : ٣١٧) إلى الحارث بن خالد المخزوميّ .

٢ ـ ديوانه : ٣٣ .

أبانـــا إذا أضـــمرتك الـــبلا د نُجَفَى وتُقطع منّا الرَّحِمْ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير [الوافر]:

ثِقِي بالله ليس له شريكٌ ومِن عند الخليفة بالنّجاحِ[1]

فقال: ثق بالنّجاح إن شاء الله تعالى، ثمّ أمر لي بألف دينار وكِسوة، وردّني إلى البصرة.[2] (١٨ : ٩٤ ـ ٩٦)

**(الحكمة: ٥١) الأصل: لَا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلَا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ.**

**الشّرح:** ... فأمّا قوله عليه السلام: «ولا ميراث كالأدب» فإنّي قرأتُ في حِكَم الفُرس عن بُزُرجمِهر: ما وَرَّثَت الآباء أبناءَها شيئًا أفضل من الأدب، لأنّها إذا ورّثتها الأدب اكتسب بالأدب المال، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل، وقَعَدَتْ صِفرًا من المال والأدب.

**قال بعض الحُكَماء:** مَن أدّب ولدَه صغيرًا، سُرَّ به كبيرًا.

**وكان يقال:** مَن أدّب ولده أرغم حاسِدَه.

**وكان يقال:** ثلاثةٌ لا غُربةَ معهنّ: مجانبة الرّيَب، وحُسن الأدب، وكَفُّ الأذَى.

**وكان يقال:** عليكم بالأدب، فإنّه صاحبٌ في السَّفَر، ومؤنسٌ في الوَحْدة، وجمالٌ في المحفل، وسببٌ إلى طلب الحاجة.

**وقال بُزُرْجمهر:** مَن كَثُر أدبه كَثُر شَرَفه، وإن كان قبل وَضيعًا، وبَعُد صِيته وإن كان خاملًا، وساد وإن كان غريبًا، وكَثُرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقلًّا.

وقال بعض الملوك لبعض وُزرائه: ما خيرُ ما يُرزقه العبد؟ قال: عقلٌ يعيش به،

---

١ ـ ديوانه: ٣٦.

٢ ـ الخبر في «الطّبقات» للزّبيديّ: ٩٣ ـ ٩٤.

قال: فإن عَدِمَه، قال: أدبٌ يتحلّى به، قال: فإن عَدِمَه، قال: مالٌ يَستتِر به، قال: فإن عَدِمَه، قال: صاعقةٌ تُحرقه، فتُريح منه العباد والبلاد.

**وقيل لبعض الحُكَماء:** متى يكون العلم شرًّا من عَدمه؟ قال: إذا كَثُر الأدب ونَقَصَت القريحة. يعني بالقريحة العقل ... . (١٨: ١٨٧ ـ ١٨٨)

**(الحكمة: ٧١) وقَالَ عليه السلام: مَن نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَعَلَيْه أن يَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُن تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِن مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ.**

**الشّرح:** الفروع تابعة للأُصول، فإذا كان الأصل معوجًا استحال أن يكون الفرعُ مستقيمًا، كما قال صاحب المثَل [الطّويل]:

*وهل يستقيم الظِّلّ والعُود أعوج*

فمن نَصَب نفسه للنّاس إمامًا، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلّمه الناس، كان مِثل مَن نَصَب نفسه ليُعلّم النّاس الصّياغة، والنّجارة، وهو لا يحسن أن يصوغ خاتمًا، ولا ينجُر لوحًا، وهذا نوع من السَّفَه، بل هو السَّفَهُ كلُّه. ثمّ قال عليه السلام: وينبغي أن يكون تأديبُه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه، وذلك لأنّ الفعل أدلّ على حال الإنسان من القول.

ثمّ قال: «ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم النّاس ومؤدّبهم». وهذا حقّ، لأنّ مَن علّم نفسه محاسنَ الأخلاق أعظمُ قَدْرًا ممّن تعاطى تعليم النّاس ذلك وهو غير عامل بشيءٍ منه، فأمّا مَن علّم نفسه وعلّم النّاس فهو أفضل وأجلّ ممّن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهَةَ فِي ذلك. (١٨ : ٢٢٠)

**(الحكمة: ١٠٩) ... وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ ... .**

**الشّرح:** ... وأمّا الأدب؛ فقالت الحكماء: ما وَرَّثتِ الآباءُ أبناءَها كالأدب.

(١٨ : ٢٧٧)

## الفصل السّابع عشر: [في التّواضع وهضم النّفس]

**(الخطبة: ١٠٢) ... وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إِن شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِن غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَأَعْلَامُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ، وَلَا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ ....**

**الشّرح:** ... واعلم! أنّه قد جاء في التّواضع وهَضْم النّفس شيء كثير، ومن ذلك الحديث المرفوع: «مَن تواضع لِلّه رفعه الله، ومَن تكبّر على الله وضعه».

**ويقال:** إنّ الله تعالى قال لموسى: إنّما كلّمتك لأنّ في أخلاقك خُلُقًا أحبّه الله، وهو التّواضع.

ورأى محمّد بن واسع ابنه يمشي الخُيَلاء، فناداه، فقال: ويلَك! أتمشي هذه المِشية، وأبوك أبوك، وأمّك أُمّك! أمّا أُمّك فأمَة، ابتعتُها بمائتي درهم، وأمّا أبوك فلا كثّر الله في النّاس مثله.

ومثل قوله عليه السلام: «كلّ مؤمن نُوَمة إن شهد لم يُعْرَف وإن غاب لم يُفْتَقَد»، قولرسول الله صلى الله عليه وآله: «رُبّ أشعثَ أغبر ذي طِمْرَين لايُؤْبه له، لوأقسم على الله لأبرّ قسمه».

وقال عمر لابنه عبد الله: «التمس الرِّفْعة بالتّواضع والشّرف بالدِّين، والعفو من الله بالعفو عن النّاس، وإيّاك والخُيَلاء، فتضَع من نفسك، ولا تحقّرنّ أحدًا، فإنّك لا تدري لعلّ مَن تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك.

وقال الأحنف: عجبتُ لمن جرى في مجرى البول مرّتَين، من فَرْجَين، كيف يتكبّر!

وقد جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا: «إنّ الله يحبّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الّذين إذا غابوا لم يُفْتَقدوا، وإذا حضروا لم يُعْرَفوا، قلوبهم مصابيح الهُدَى، يخرجون من كلّ غبراء مُظْلمة». (٧ : ١١١)

**(الخطبة: ١٨٦) ... فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ ....**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ومشيهم التّواضع»، تقديره: وصِفةُ مشيهم التّواضع،

فحذف المضاف، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[١].

والأصل في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[٢]. (١٠ : ١٤١)

(الخطبة: ٢٣٨) ... أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا الْهُجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآلَائِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اِعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ ....

الشّرح: ... وقد كان أمَرَ في الفصل الأوّل بالتّواضع لله، ونهى هاهنا عن التّواضع للرّؤساء، وقد جاء في الخبر المرفوع: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء! وأحسن منه تكبرّ الفقراء على الأغنياء».

الّذين تكبرّوا عن حَسَبهم، أي جهلوا أنفسهم، ولم يفكّروا في أصلهم من النُّطف المستقذَرة من الطّين المنتن، قال الشّاعر [السّريع]:

ما بالُ مَن أوّلُه نُطْفَةٌ وجيفةٌ آخرُهُ يَفْخَرُ

يصبح لا يملكُ تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذَرُ

(١٣ : ١٤٩)

(الحكمة: ٣٦) الأصل: وَقَالَ عليه السلام وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ دَهَاقِينُ الْأَنْبَارِ، فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ:

---

١ ـ لقمان/ ١٩.

٢ ـ الإسراء / ٣٧.

مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا، فَقَالَ: وَاللهِ مَا يَنتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُّونَ عَلَى أَنفُسِكُمْ فِي دُنيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي أُخْرَاكُمْ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ.

الشّرح: ... وقال: إنّكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تَعَب الأبدان. وتَشْقَوْن به في آخرتكم: تخضعون للوُلاة، كما زعمتم أنّه خُلُقٌ وعادةٌ لكم، خضوعًا تطلُبون به الدّنيا والمنافع العاجلة فيها، وكلّ خضوع وتذلّل لغير الله فهو معصية.

ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة، والرّبح المُبين دَعَةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النّار. (١٨ : ١٥٦)

(الحكمة:٢٢٠) الأصل: بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ، وَبِالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ الْمُوَاصِلُونَ، وَبِالْإِفْضَالِ تَعْظُمُ الْأَقْدَارُ، وَبِالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ ... .

الشّرح: ... والتّواضع طريقٌ إلى تمام النّعمة ... . (١٩ : ٤٨)

(الحكمة: ٢٢٤) الأصل: ... وَمَن أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ ... .

الشّرح : ... والتّواضع للأغنياء تعظيمًا لغناهم أو رجاءَ شيءٍ ممّا في أيديهم فِسْقٌ. (١٩ : ٥٢)

(الحكمة :٤١١) الأصل: مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَبًا لِمَا عِندَ اللهِ، وَأَحْسَنُ مِنهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ، اتِّكَالًا عَلَى اللهِ.

قد تقدّم شرح مثل هذه الكلمة مرارًا. وقال الشّاعر [المتقارب]:

قَنَعتُ فأعتقتُ نفسي ولن ... أملّـك ذا ثَـروةٍ رِقَّهَـا

ونَزّهتُها عن سؤال الرّجالِ ... ومِنّـة مَـن لا يَـرى حَقّهَـا

وإنّ القناعـة كَنـزُ اللّبيـب ... إذا ارتَتقـتْ فتَقَـتْ رتقَهَـا

سيَبعثُ رِزْقُ الشِّفاهِ الغِراثِ[1] و خمْصِ البطون الّذي شَقّهَا
فما فارقَتْ مُهجةٌ جِسْمَها لَعَمْرُك أو وُفِّيَتْ رِزْقهَا
مواعيدُ ربّك مصدوقةٌ إذا غَيرُها فَقَدتْ صِدقَهَا

(٢٠ : ٣٩)

١. الغراث : الجياع .

## الفصل الثّامن عشر: [في الحياء وما قيل فيه]

**(الحكمة: ١٠٩) ... وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، وَلَا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ ....**

**الشّرح:** .. والحياء مُخّ الإيمان .... (١٨ : ٢٧٧)

**(الحكمة: ٢١٩) الأصل: مَن كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوبَهُ لَمْ يَرَالنَّاسُ عَيْبَهُ.**

**الشّرح :** وقد سبق منّا قول كثير في الحياء[١].

**وكان يقال:** الحياء تمام الكَرَم، والحِلْم تمام العقل.

**وقال بعض الحكماء:** الحياء انقباض النّفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان، لأنّه لا يوجد في الفَرَس ولا في الغَنَم والبَقَر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، فهو كالضّحك الّذي يختصّ به نوع الإنسان، وأوّل ما يَظْهَر من قوّة الفهم في الصّبيان الحياء، وقد جَعَله الله تعالى في الإنسان ليرتدع به عمّا تَنزع إليه نفسه من القبيح، فلا يكون كالبَهيمة، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبن وعفّة، ولذلك لا يكون المُستحِي فاسقًا، ولا الفاسق مُستحِيًا، لتنافي اجتماع العفّة والفِسْق، وقلّما يكون الشّجاع مُستحِيًا والمستحِي شجاعًا، لتنافي اجتماع الجُبن والشّجاعة، ولعزّة وجودِ ذلك ما يجمع الشُّعَراء بين المدح بالشّجاعة والمدح بالحياء، نحو قول القائل [الكامل]:

يَجري الحَياءُ الغَضُّ من قَسَمَاتِهِمْ  في حينَ يَجرِي من أكفّهِمُ الدَّمُ[٢]

وقال آخر [الطّويل]:

كريمٌ يَغُضّ الطَّرْفَ فَضْلُ حَيائِهِ  ويَدْنو وأطرَافُ الرِّماحِ دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مَدْحٌ للصِّبيان دون المشايخ، ومتى قصد به ترك القبيح فهو مَدْحٌ لكلّ أحدٍ، وبالاعتبار الأوّل قيل: الحياء بالأفاضل قبيح، وبالاعتبار الثّاني وَرَد أنّ الله ليستحي من ذي شَيْبة في الإسلام أن يعذّبه، أي يترك تعذيبه

---

١ ـ سيجئ ذيل بيان أحوال العارفين(م)

٢ ـ البيت للشّريف الرّضيّ، انظر ديوانه٢: ٣٤٣.

ويستقبح لكَرَمه ذلك.

فأمّا الخجل فحيرة تَلْحَق النّفس لفَرْط الحياء، ويُحمَد في النّساء والصِّبيان ويُذَمّ بالاتّفاق في الرّجال.

فأمّا القِحَة فمذمومة بكلّ لسان، إذ هي انسلاخ من الإنسانيّة، وحقيقتُها لجاجُ النّفس في تعاطي القبيح، واشتقاقها من حافِرٍ وقَاح، أي صُلْب.

ولهذه المناسبة قال الشّاعر [الكامل]:

يا ليت لي مِن جِلْدِ وَجْهك رُقْعةً فأعدَّ منها حافِرًا للأشْهَبِ

وما أصدق قول الشّاعر [البسيط]:

صَلابةُ الوَجْه لم تغلبْ على أحدٍ إلّا تكامَل فيه الشّرّ واجتمعَا

فأمّا كيف يُكْتَسب الحياء، فمن حقّ الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسه أنّه يراه، فإنّ الإنسان يستحي ممّن يَكبُر في نفسه أن يطّلع على عَيْبه، ولذلك لا يستحي من الحيوان غير النّاطق، ولا من الأطفال الّذين لا يميّزون، ويستحي من العالِم أكثر ممّا يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر ممّا يستحي من الواحد، والّذين يستحي الإنسان منهم ثلاثة: البشر، ونفسه، والله تعالى، أمّا البشر؛ فهم أكثر من يستحي منه الإنسان في غالب النّاس، ثمّ نفسه، ثمّ خالقه، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره.

**واعلم!** أنّ مَنِ استَحْيَا من النّاس ولم يستحي من نفسه، فنفسه عنده أخسّ من غيره، ومَنِ استحيَا منهما ولم يستحي من الله تعالى، فليس عارفًا، لأنّه لو كان عارفًا بالله لما استحيَا من المخلوق دون الخالق، ألا تَرَى أنّ الإنسان لا بدّ أن يستحيَ من الّذي يعظمه ويعلم أنّه يراه أو يستمع بخبره فيُبكِّته، ومَن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه! وكيف يعلم أنّه يطّلع عليه! وفي قول رسول الله ﷺ: «استَحْيوا مِن الله حقّ الحياء»، أمرٌ في ضمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه

وحَثّ عليها، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ﴾[١]، تنبيهًا على أنّ العبد إذا علم أنّ ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذّنب.

وسُئِل الجُنَيد رحمه الله عمّا يتولّد منه الحياء من الله تعالى، فقال: أن يَرَى العبدُ آلاءَ الله سبحانه ونِعَمه عليه، ويَرَى تقصيره في شُكْره.

**فإن قال قائل:** فما معنى قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن لا حَياء له فلا إيمان له»؟

**قيل له:** لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العقل في الإنسان، وأمّا الإيمان فهو آخر المراتب، ومُحالٌ حُصول المرتبة الآخِرة لمن لم تحصل له المرتبة الأُولى، فالواجب إذن أنّ مَن لا حياء له فلا إيمان له.

**وقال** عليه السلام: «الحياء شُعْبةٌ من الإيمان».

**وقال:** «الإيمان عُرْيان، ولباسُه التّقوى، وزينته الحَياء». (١٩ : ٤٥ ـ ٤٧)

---

١ ـ العلق / ١٤ .

## الفصل التّاسع عشر: [في الغَيْرة][1]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَإِيَّاكَ والتَّغايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ.**

### [بعض ما قيل في الغَيْرة من الشِّعر]

**الشّرح:** ... فأمّا قوله عليه السلام: «إيّاك والتّغاير في غير موضع غَيْرةٍ»، فقد قيل هذا المعنى، قال بعض المحدّثين [السّريع]:

يا أيّها الغائرمَهْ لاتُغَرْ ... إلّا لِما تُدْركه بالبَصَرْ

ما أنت في ذلك إلّا كمَن ... بيّته الدّبّ لرَمْيِ الحَجَرْ

وكان مسكين الدّارميّ أحد مَن يَستهجن الغيرة، ويستقبح وقوعَها في غير محلّها، فمن شعره في هذا المعنى [السّريع]:

ما أحسنَ الغيرةَ في حينها ... وأقبحَ الغيرةَ في غير حين[2]!

مَن لم يزل متّهمًا عِرسَه ... مُناصبًا فيها لرجم الظّنون

يوشك أن يغْرِيَها بالّذي ... يخاف، أو ينصبها للعيون

حَسْبُك من تحصينها ضمّها ... منك إلى خِيم كريم ودين

لاتَظْهَرَنَّ يومًا على عورة ... فيتبع المقرونُ حَبْلَ القرين

وقال أيضًا [المتقارب]:

ألا أيّها الغائر المُستشيط ... عَلامَ تَغارُ إذ لم تُغَرْ[3] !

فما خيرُ عِرْس إذا خِفْتَها ... وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرْ!

تَغارُ مِنَ النّاسِ أن ينظروا ... وهل يفتنُ الصّالحات النَّظَرْ!

---

١ ـ سيجيء في ذيل عنوان «بيان أحوال العارفين» كلام مفصّل في الغيرة. (م)

٢ ـ أمالي المرتضى ١: ٤٧٦.

٣ ـ نفس المرجع ١: ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

فإنّي سأخلِي لها بيتَها ... فتحفظَ لي نَفْسَها أوتَذَرْ
إذا الله لم يعطِه وُدَّها ... فلن يعطيَ الوُدّ سَوْطٌ مُمَرّ
ومَن ذا يُراعي له عِرْسَه ... إذا ضمّه والرِّكاب السَّفَرْ

وقال أيضًا [الطّويل]:

ولستُ امْرأ لا أبرحُ الدّهر قاعدًا ... إلى جنب عِرْسي لا أفارقها شِبْرَا[1]
ولا مقسمًا لا أبرح الدّهر بيتها ... لأجعله قبل الممات لها قَبْرَا
ولا حاملًا ظنّيّ ولا قَوْلَ قائلٍ ... على غَيْرَةٍ حتّى أحيط به خُبْرَا
وهَبْني امْرأ راعيتُ ما دُمْتُ شاهدًا ... فكيف إذا ما سِرْتُ من بيتها شهرَا!
إذا هي لم تُحْصَن لما في فنائها ... فليس بمنجيها بنائي لها قَصْرَا

(١٦ : ١٢٧ ـ ١٢٨)

**(الحكمة :١١٩) الأصل: غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ.**

**الشّرح:** المرجع في هذا إلى العقل والتّماسك، فلمّا كان الرّجل أعقل وأشدّ تماسُكًا كانت غَيرَته في موضعها، وكانت واجبةً عليه، لأنّ النّهي عن المنكر واجب، وفعل الواجبات من الإيمان، وأمّا المرأة فلمّا كانت أنقص عقلًا وأقلّ صبرًا كانت غَيْرَتها على الوَهْم الباطل والخيال غير المحقّق، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها، وسمّاها عليه السلام كُفْرًا لمشاركتها الكفر في القُبْح فأجرى عليها اسمَه.

وأيضًا فإنّ المرأة قد تؤدّي بها الغَيْرةُ إلى ما يكون كفرًا على الحقيقة كالسِّحر، فقد ورد في الحديث المرفوع أنّه كُفْر، وقد يُفضي بها الضَّجَر والقَلَق إلى أن تَتَسخّط وتَشْتُم وتتلفّظ بألفاظ تكون كُفْرًا لا محالة. (١٨ : ٣١٢)

---

١ ـ أمالي المرتضى ١ : ٤٧٦ . وروايته : «ولأنّي امرؤ» .

## الفصل العشرون: [في المروءة]

**(الخطبة: ١٧٧) ... ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ ... .**

**الشّرح:** ... وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خصال، فإنّها من المروءة: أن يحفظ دِينه، ويصونَ عِرْضَه، ويَصِلَ رَحِمَه، ويحمِيَ جارَه، ويرعَى حقوقَ إخوانه، ويخزُن عن البَذَاء[1] لسانه. (١٠: ٢٩)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... يَا بُنَيَّ! اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَاتَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَن تُظْلَمَ، وَأَحْسِن كَمَا تُحِبُّ أَن يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِن نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِن غَيْرِكَ ... .**

**الشّرح:** ... وقوله: «واستقبح من نفسك»، سُئِل الأحنف عن المروءة، فقال: أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ... . (١٦ : ٨٤)

**(كتابه عليه السلام: ٣٣) وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنهُ، وَلَاتَكُن عِندَ النَّعْمَاءِ بَطِرًا، وَلَاعِندَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا.**

**الشّرح:** ... قوله: «وإيّاك وما يُعْتَذر منه» من الكلمات الشّريفة الجليلة الموقع، وقد رُوِيت مرفوعة، وكان يقال: ما شيء أشدّ على الإنسان من حمل المروءة، والمروءة: ألّا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يعتذر منه عند حضوره.

قوله: «ولاتكن عند النّعماء بَطِرًا، ولاعند البأساء فَشِلًا»، معنًى مستعمل، قال الشّاعر[الطّويل]:

فلستُ بمفراح إذا الدّهرُ سرَّني ولا جازعٌ من صَرْفِهِ المتقلِّبِ

---

١ ـ البذاء: السّفه والفحش في المنطق.

ولاأتمنّى الشَّرَّ والشَّرُّ تاركي ولكن مَتى أحمَل على الشَّرّ أركبِ

(١٦ : ١٣٩)

## [نبذ ممّا قيل في المروءة]

**(الحكمة: ٢٠) الأصل: أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللهِ يَرْفَعُهُ.**

**الشّرح:** قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة، ذكر ذلك ابن قُتَيبة في «عيون الأخبار»، وأحسَن ما قيل في المروءة قولهُم: اللّذة تركُ المروءة، والمروءة تركُ اللّذة.

وفي الحديث أنّ رجلًا قام إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألستُ أفضلَ قومي! فقال: إن كان لك عَقْل فلك فَضْل، وإن كان لك خُلُق فلك مُروءة، وإن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك تُقًى فلك دِين.

وسُئِل الحسن عن المُروءة، فقال: جاء في الحديث المرفوع: «إنّ الله تعالى يحبّ معاليَ الأُمورِ ويَكْرَه سَفْسافَها».

**وكان يقال:** من مُروءة الرّجل جلوسُه بباب داره.

وقال الحسن: لا دِين إلّا بمروءة.

وقيل لابن هُبَيرة: ما المروءة؟ فقال: إصلاحُ المال، والرَّزانةُ في المجلس، والغَدَاء والعَشاء بالفِناء.

وجاء أيضًا في الحديث المرفوع: «حَسَب الرّجُل مالُه، وكَرَمُه دِينُه، ومُروءته خُلُقه».

**وكان يقال:** ليس من المروءة كثرةُ الالتفات في الطّريق.

**ويقال:** سُرْعة المَشْي تذهب بمُروءة الرّجُل.

وقال معاوية لعمرو: ما ألذّ الأشياء؟ قال: مُرْفِثْيانَ قريش أن يقوموا، فلمّا قاموا قال: إسقاطُ المروءة.

وكان عُرْوة بنُ الزُّبَير يقول لبَنِيه: يا بَنِيّ العَبوا، فإنّ المروءة لاتكون إلّا بعد اللَّعِب.

وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العِفّة والحِرْفة، تَعفّ عمّا حرّم الله، وتحترف فيما أحلّ الله.

وقال محمّد بن عمران التّيميّ: لا أشدّ من المروءة، وهي ألّا تعمل في السّرّ شيئًا تَستحيي منه في العلانيّة.

وسُئِل النّظّام عن المُروءة، فأنشد بيت زُهَير[الكامل]:

السِّتْرُ دون الفاحشاتِ ولا يَلقاكَ دون الخيرِ من سِتْرِ

وقال عمر: تعلّموا العربيّة، فإنّها تزيد في المروءة، وتعلّموا النَّسَب فرُبّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد وصلت به.

وقال ميمون بن مِهْران: أوّلُ المروءة طَلاقةُ الوجه، والثّاني التّودّد إلى النّاس، والثّالث قضاء الحوائج.

وقال مَسْلَمة بن عبد الملك: مُروءتان ظاهرتان: الرِّياش والفصاحة.

**وكان يقال:** تُعْرَف مُروءةُ الرّجل بكثرة دُيونه.

**وكان يقال:** العقل يأمُرُك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل.

لامَ معاوية يزيد ابنه على سَماع الغِناء وحُبّ القِيان، وقال له: أسقطتَ مُروءتك، فقال يزيد: أتكلّم بلساني كلمةً؟ قال: نعم، وبلسان أبي سفيان بن حَرْب وهِند بنت عُتْبة مع لسانك، قال: والله لقد حدّثني عمروبن العاص ـ واستشهد على ذلك ابنه عبد الله، بصدقه ـ أنّ أبا سفيان كان يَخْلَع على المُغَنّي الفاضل والمضاعف من ثيابه، ولقد حدّثني أنّ جاريَتَيْ عبد الله بن جُدْعان غنّتاه يومًا فأطرَبتاه، فجعل يخلع عليهما أثوابه ثوبًا ثوبًا حتّى تجرّد تجرُّد العَير، ولقد كان هو وعفّان بن أبي العاص ربّما حَمَلا جاريةَ العاص بن وائل على أعناقهما، فمرّا بها على الأبطح وجِلّة قريش ينظرون إليهما، مرّة على ظَهْر أبيك، ومرّة على ظَهْرعفّان، فما الّذي تنكرمنّي! فقال معاوية: اسكُتْ لَحاكَ الله! والله ما أحدٌ ألحَقَ بأبيك هذا إلّا ليَغُرّك ويَفْضَحك، وإن كان أبو سفيان ما علمت لَثَقيلُ الحِلْم، يَقْظان الرّأي، عازِبُ الهَوَى، طويلُ الأناة، بعيد

القَعْر، وما سوّدته قريش إلّا لفضله. (١٨: ١٢٨ ـ ١٣٠)

**(الحكمة: ٤٤) الأصل: قَدْرُالرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.**

الشّرح: ... وأمّا الكلام في الصّدق والمروءة والشّجاعة والأنفة والعفّة والغيرة، فقد تقدّم كثير منه، وسيأتي ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى. (١٨ : ١٧٦)

## الفصل الحادي والعشرون: [في الفضل والكَرَم والإحسان]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَلِن لِمَن غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «خُذْ على عدوّك بالفضل، فإنّه أحد الظّفرين»، هذا معنى مليح، ومنه قول ابن هانئ في المعزّ [الكامل]:

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقمًا وفي ... أعناقهم من جوده أعباءُ[1]

لولا انبعاث السّيف وهو مسلّطٌ ... في قتلهم قتَلَتْهم النَّعماءُ

وكنت كاتبًا بديوان الخلافة، والوزير حينئذٍ نصير الدّين أبو الأزهر أحمد بن النّاقد رحمه الله، فوصل إلى حضرة الدّيوان في سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة محمّد بن محمّد أمير البحرين على البرّ، ثمّ وصل بعده الهرمزيّ صاحب هُرمز في دجلة بالمراكب البحريّة ـ وهرمز هذه فُرضة في البحر نحو عُمان ـ وامتلأت بغداد من عرب محمّد بن محمّد وأصحاب الهرمزيّ ـ وكانت تلك الأيّام أيّامًا غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على النّاس من عطاياه ـ والوفود تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه، فكتبت يوم دخول الهرمزيّ إلى الوزير أبياتًا سنحتْ على البديهة، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها [الكامل]:

يا أحمد بنَ محمّدٍ أنت الّذي ... عَلِقتْ يداه بأنفَس الأعلاقِ

ما أمّلَتْ بغدادُ قبلك أن ترى ... أبدًا مُلوكَ البحر في الأسواقِ

وَلهوا عليها غَيرةً وتنافسوا ... شَغَفًا بها كتنافس العُشّاقِ

وغدتْ صِلاتك في رقاب سَراتِهِمْ ... ونداك كالأطواق في الأعناقِ

بسديد رأيك أصْلِحتْ جمحَاتُهمْ ... وتألّفوا من بعد طول شِقاقِ

لله همّة ماجدٍ لم تعتلق ... بسَحِيل آراءٍ ولا أحذاقِ[2]

---

١ ـ ديوانه: ٥، (المطبعة الأميريّة) ١٢٧٤.

٢ ـ السّحيل والأحذاق: الحبال الضّعيفة.

جَلبَ السّلاهِب مَن أراك وبعدها جَلبَ المراكب من جزيرة واقِ
هذا العَداء هو العداء فعدّ عن قول ابن حُجْر في لأْ وعناقِ
وأظنّه والظّنّ علم أنّه سيجيئنا بممالك الآفاقِ
إمّا أسيرُ صَنيعةٍ في جِيدِه بالجود غُلّ أو أسيرُ وثاقِ
لا زال في ظلّ الخليفة ما له فانٍ وسودَدُه المعظّم باقِ

(١٦: ١٠٨ ـ ١١٠)

**(الحكمة: ٢٤) الأصل: مِن كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ: إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ.**

**الشّرح:** قد جاء في هذا المعنى آثار كثيرة، وأخبار جميلة. كان العتّابيّ قد أمْلَقَ، فجاء فوَقَف بباب المأمون يسترزق الله على يديه، فوافى يَحيَى بن أكْثَم، فعرض له العتّابيّ، فقال له: إن رأيتَ أيّها القاضي أن تُعلم أمير المؤمنين مكاني فافْعل، فقال: لست بحاجب، قال: قد علمتُ، ولكنّك ذو فضل، وذو الفَضْل مِعْوان، فقال: سلكتَ بي غيرَ طريقي، قال: إنّ الله أتحَفَك منه بجاهٍ ونعمةٍ، وهو مقبل عليك بالزّيادة إن شكرتَ، وبالتّغيير إن كفَرت، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك، لأنّي أدعوك إلى ما فيه ازدياد نعمتك، وأنت تأبى عليّ، ولكلّ شيء زكاة، وزكاه الجاه رِفْد المستعين. فدخل يحيى فأخبر المأمون به، فأحضره وحادثه ولاطفه ووصله. (١٨: ١٣٥)

**(الحكمة: ٦٠) الأصل: إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنهَا، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا، وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئِ.**

**الشّرح:** ... وقوله: «والفضل مع ذلك للبادئ»، يقال في الكَرَم والحثّ على فعل الخير.

وروى المدائنيّ، قال: قَدم على أسد بن عبد الله القُشَيريّ بخراسان رجل، فدخل

مع النّاس، فقال: أصلح الله الأمير! إنّ لي عندك يدًا، قال: وما يَدُك؟ قال: أخذتُ بركابك يومَ كذا. قال: صَدَقْتَ؛ حاجَتَك. قال: تولّيني أبيوَرْد. قال: لِمَ؟ قال: لأكسب مائة ألف درهم. قال: فإنّا قد أمَرْنا لك بها السّاعة، فنكون قد بلّغناك ما تحبّ، وأقرَرْنا صاحبنا على عمله. قال: أصلح الله الأمير! إنّك لم تَقْضِ ذِمامي. قال: ولِمَ؛ وقد أعطيتُك ما أمّلت؟ قال: فأين الإمارة؟ وأين حبّ الأمر والنّهي! قال: قد ولّيتُك أبيوَرْد، وسَوّغتُ لك ما أمَرتُ لك به، وأعفيتُك من المحاسبة إن صرفتُك عنها. قال: ولمَ تَصْرِفُني عنها ولا يكون الصّرف إلّا مِن عَجْزٍ أو خيانةٍ، وأنا بريء منهما؟ قال: اذْهب فأنت أميرها ما دامت لنا خراسان. فلم يزل أميرًا على أبيوَرْد حتّى عُزِل أسد.

**قال المدائنيّ:** وجاء رجل إلى نصر بن سَيّار يذكر قرابةً، قال: وما قرابتك؟ قال: ولّدتْني وإيّاك فلانة! قال نصر: قرابة عَوْرة. قال: إنّ العَوْرة كالشَّنّ البالي، يَرقَعه أهله فينتفعون به. قال: حاجَتَك. قال: مائة ناقة لاقِح، ومائة نَعْجَة رُبَّى ـ أي معها أولادها ـ قال: أمّا النِّعاج فخذها، وأما النُّوق فنأمرلك بأثمانها.

وروى الشّعبيّ، قال: حضرتُ مجلس زياد وحَضَرَه رجلٌ، فقال: أيّها الأمير، إنّ لي حُرْمةً أفأذكرها؟ قال: هاتِها. قال: رأيتك بالطّائف وأنت غُلَيِّم ذو ذُؤابة، وقد أحاطت بك جماعةٌ من الغِلْمان، وأنت تَركُض هذا مرّةً برِجْلِك، وتَنطَح هذا مرّة برأسك، وتكدم مرّةً بأنيابك، فكانوا مرّةً ينثالون عليك، وهذه حالهُم، ومرّةً يَنِدّون عنك وأنت تَتْبَعُهم، حتّى كائَروك واُستقوَوْا عليك، فجئتُ حتّى أخرجتُك من بينهم وأنت سَليم وكلّهم جريح. قال: صدقت، أنت ذاك الرّجل؟ قال: أنا ذاك. قال: حاجَتَك. قال: الغِنَى عن الطّلب. قال: يا غلام، أعْطِه كلّ صفراء وبيضاء عندك. فنظر فإذا قيمة كلّ ما يملك ذلك اليوم من الذَّهَب والفضّة أربعة وخمسون ألف درهم. فأخذها وانصرف، فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت زيادًا وهو غلام بذلك الحال؟ قال: إي والله، لقد رأيتُه وقد اكتنَفَه صبيّان صغيران كأنّهما من سِخالِ المَعِز، فلولا أنّي أدركتُه لظننت أنّهما يأتيان على نفسه.

وجاء رجل إلى معاوية وهو في مجلس العامّة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ لي حُرمةً،

قال: وما هي؟ قال: دنوتُ من ركابك يوم صِفّين، وقد قربت فرسُك لتفرّ، وأهل العراق قد رأوا الفتح والظّفر، فقلتُ لك: والله لوكانت هندُ بنت عُتْبَةَ مكانك ما فرّت ولااختارت إلّا أن تموت كريمةً أو تعيش حميدةً، أين تفرّ وقد قلّدتك العربُ أزِمّة أُمورها، وأعطَتْك قِيادَ أعِنّتها! فقلت لي: اخفض صوتك لا أُمّ لك! ثمّ تماسَكْتَ وثُبْتَ وثابَتْ إليك حماتك، وتمثّلتَ حينئذٍ بشعرٍ أحفظ منه [الوافر]:

وقَولي كلّما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحْمَدي أو تَسْتَرِيحي

فقال معاوية: صدقتَ، ودِدتُ أنّك الآن أيضًا خَفَضْتَ من صوتك. يا غلام، أعْطِه خمسين ألف درهم، فلوكنتَ أحسنتَ في الأدب لأحسَنّا لك في الزّيادة.

(١٨ : ٢٠١ ـ ٢٠٣)

**(الحكمة: ٢١٨) الأصل: مِن أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ.**

**الشّرح:** كان يقال: التّغافل من السّؤدُد.

وقال أبو تمّام [الكامل]:

ليس الغَبِي بسَيِّدٍ في قومِهِ لكنّ سيّد قومِه المتغابي[1]

وقال طاهربن الحسين بن مصعَب [الطّويل]:

ويكفيك من قومٍ شواهدُ أمْرِهِمْ فخُذْ صَفْوَهمْ قبل امتحان الضّمائرِ

فإنّ امتحانَ القومِ يُوحش منهمُ وما لَكَ إلّا ما ترى في الظّواهِرِ

وإنّك إن كشفتَ لم تَرَ مخلِصًا وأبدى لك التّجريبُ خبثَ السّرائرِ

وكان يقال: بعض التّغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومِنَ الكَرَم أن تَصْفَح عن التّوبيخ، وأن تلتمس سترَهَتْك الكريم. (١٩ : ٤٤)

---

١ ـ ديوانه ١ : ٩٣ .

**(الحكمة: ٢٤٤) وَقَالَ عليه السلام: الْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ.**

**الشّرح:** مثل هذا المعنى قول أبي تمّام لابن الجَهْم [الكامل]:

إلّا يَكُن نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقامَ الوالِدِ

أو يختَلِفْ ماءُ الوصال فماؤنا ... عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

ومن قصيدة لي في بعض أغراضي [أحذ الكامل]:

ووشائج الآداب عاطفة الـ ... فُضَلاء فوق وَشائج النَّسَبِ

(١٩ : ٨١)

**(الحكمة: ٤٤٢) الأصل: أَوْلَى النَّاسِ بِالْكَرَمِ مَن عَرَّقَتْ فيهِ الْكِرَامُ.**

**الشّرح:** ... وقال المبرّد: أنشدني أبو محلّم السّعديّ [الكامل]:

إنّا سألنا قَومَنا فخيارُهم ... مَن كان أفضلُهم أبوهُ الأفضلُ

أعطى الّذي أعطَى أبوه قبلَه ... وتَبخّلتْ أبناءُ مَن يتبخّلُ

قال: وأنشدني أيضًا في المعنى [البسيط]:

لَطَلْحَةُ بن خُثَيْمٍ حين تسألُهُ ... أندى وأكرمُ مِن فِند بن هَطّالِ

وبيتُ طلحة في عِزٍّ ومَكْرُمةٍ ... وبيت فِندٍ إلى رِبْقٍ وأحمالِ

ألَا فتى من بني ذُبيان يَحمِلني ... وليس يحملني إلّا ابنُ حَمّال

فقلتُ طلحة أوْلَى من عَمَدتُ له ... وجئتُ أمشي إليه مَشْيَ مُختالِ

مُستيقنًا أن حَبْلي سوف يُعْلِقُهُ ... في رأسِ ذَيّالة أو رأسِ ذَيّالِ

وقال آخر [الكامل]:

عند الملوك مَضَرّةٌ ومنافعُ ... وأرَى البرامِكَ لاتضرّوتَنفَعُ

إنّ العُروقَ إذا استسَرّ بها الثّرى ... أثرى النّبات بها وطاب المزرَعُ

وإذ جهلتَ من امرئ أعراقَه وقديمَه فانظر إلى ما يَصْنَعُ

وقال آخر [الكامل]:

إنّ السَّريَّ إذا سَرَى فبنفسه وابنُ السَّرِيّ إذا سَرَى أسراهما

وقال البحتري [الكامل]:

وأرى النّجابة لايكون تمامُها لنَجيبِ قومٍ ليس بابن نجيب

(٢٠ : ٨٣ ـ ٨٤)

**(الحكمة: ١٦٠) الأصل: عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنعَامِ عَلَيْهِ.**

**الشّرح:** الأصل في هذا قول الله تعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**[1].

وروى المبرّد في «الكامل»، عن ابن عائشة، عن رجل من أهل الشّام، قال: دخلتُ المدينة، فرأيتُ رجلًا راكبًا على بَغْلةٍ لم أرَ أحسَنَ وَجْهًا ولاثَوْبًا ولاسَمْتًا ولادابّة منه، فمال قلبي إليه، فسألت عنه، فقيل: هذا الحسنُ بن الحسن بن عليّ، فامتلأ قلبي له بُغْضًا، وحسدتُ عليًّا أن يكون له ابن مثله، فصرتُ إليه وقلتُ له: أنت ابن أبي طالب؟ فقال: أنا ابن ابنه. قلت: فبِك وبأبيك! فلمّا انقضى كلامي، قال: أحسَبك غريبًا؟ قلت: أجَل، قال: فَهَلْ بنا، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلناك، أوإلى مالٍ واسَيْناك، أوإلى حاجةٍ عاونّاك. فانصرفت عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إليّ منه[2].

وقال محمّود الوَرّاق [أحذ الكامل]:

إنّي شكرتُ لظالمي ظُلْمِي وغَفَرْتُ ذاك له على عِلْمِ

---

١ ـ فصّلت / ٣٤.

٢ ـ الكامل ٢ : ٥ ـ ٦.

ورأيتُــه أهــدَى إليّ يَــدًا لمــا أبــانَ بجهلِـهِ حِلْمِـي
رجَعَتْ إساءتُهُ عليه وإحـ ـساني فعَادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ
وغـدَوْتُ ذا أجْـرٍ ومَحْمَـدَةٍ وغَدًا بكسب الظُّلْم والإثمِ
فكأنّمـا الإحسـانُ كـان لـه وأنا المُسِيءُ إليه في الحُكْمِ
مــا زالَ يَظْلِمُــني وأرحَمُــهُ حتّى بكيتُ له من الظّلْمِ

**قال المبرّد:** أخذ هذا المعنى مِن قول رجل من قريش، قال له رجل منهم: إنّي مَرَرْتُ بآل فلان وهم يَشْتُمُونك شَتْمًا رَحِمْتك منه، قال: أفسَمِعْتَني أقول إلّا خيرًا! قال: لا. قال: إيّاهم فارْحم[1].

وقال رجلٌ لأبي بكر: لأَشْتُمَنَّك شَتْمًا يَدْخُل معك قَبرَك، فقال: معك والله يَدْخُل، لَا معي. (١٨: ٣٧٨ ـ ٣٧٩)

**(الحكمة: ١٧٩) الأصل: أُزْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ.**

**الشّرح:** قد قال ابن هانئ المغربيّ في هذا المعنى [الكامل]:

لولا انبعاثُ السّيف وهو مُسلّطٌ في قَتْلـهِمْ قَتَلَـتْهُمُ النَّـعْماءُ

فأفصح به أبو العَتاهيّة في قوله [الوافر]:

إذا جازيتَ بالإحسان قومًا زجرتَ المذنبين عن الذّنوبِ
فما لَكَ والتّناوُل من بعيدٍ ويمكنك التّناوُل من قريبِ

(١٨ : ٤١٠)

١ ـ الكامل ٢ : ٤ ـ ٥ .

## الفصل الثّاني والعشرون: [في الجُود والبُخْل]

**(الحكمة: ٣) الأصل: الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنقَصَةٌ، وَالْفَقْرُيُخرِسُ الْفَطِنَ عَن حاجَتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.**

**الشّرح:** هذه ثلاثة فصول:

**الفصل الأوّل في البُخْل**، و قد تقدّم لنا كلامٌ مُقْنِعٌ في ذلك.

ومن كلام بعض الحكماء في ذلك: ما أقلّ مَن يحمده الطّالب، وتستقلّ به العشائر، ويرضى عنه السّائل، وما زالت أُمّ الكرمَ نَزُورًا وأُمّ اللّوم ذَلولًا. وأكثر الواجدين مَن لا يجود، وأكثر الأجواد مَن لا يَجِد.

وما أحسن قول القائل: كفى حُزنًا أنّ الجَواد مُقتَّر عليه، ولا معروف عند بخيل.

**وكان يقال:** البُخْل مَهانة، والجُود مَهابة.

ومِن أحسن ما نُقِل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مَسْعدة كاتبه مات في سنة سبع عشرة ومائتين، وخَلّف تَرِكة جليلة، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكُتّاب ليحصروا مبلغها، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة ومعه الكُتّاب، فقال: ما رأيتم؟ فقال المعتصم معظّمًا لما رآه: وجدنا عينًا، وصامتًا، وضياعًا، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار، ومدّ صوته، فقال المأمون: إنّا لله! والله ما كنتُ أرضاها لتابعٍ من أتباعه ليوفّر هذا على مخلّفيه! فخجل المعتصم حتّى ظهر خجلُه للحاضرين ... . (١٨ : ٨٧ ـ ٨٨)

**(الحكمة: ٥٠) الأصل: السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَإذا كَانَ عَن مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ.**

**الشّرح:** يعجبني في هذا المعنى قول ابن حَيُّوس [الكامل]:

إنّي دعوتُ نَدَى الكِرامِ فلم يُجِبْ ... فلأشْكُرنّ نَدًى أجَابَ وما دُعِي

ومِن العَجائِبِ والعَجائبُ جَمَّةٌ ... شُكْرٌ بَطِيءٌ عن نَدَى المتسرّعِ

وقال آخَر [الكامل]:

ما اعتاضَ باذِلُ وَجْهِه بسُؤالِهِ عِوَضًا ولونَال الغِنَى بسُؤالِ
وإذا النَّوالُ إلى السُّؤالِ قَرَنتَهُ رَجَحَ السُّؤالُ وخَفَّ كُلّ نَوالِ

(١٨ : ١٨٤)

**(الحكمة: ٦٥) الأصل: لَا تَسْتَحِ مِن إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنهُ.**

**الشّرح:** هذا نوعٌ من الحَثّ على الإفضال والجُود لطيف، وقد استُعْمِل كثيرًا في الهديّة والاعتذار لقلّتها، وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ في مدح السّخاء والجُود[1].

**وكان يقال:** أفْضِلْ على مَن شئتَ تَكُن أميرَه، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تَكُن أسيرَه، واسْتَغْنِ عمّن شئتَ تَكُن نَظيرَه.

وسُئِل أرِسْطو: هل مِن جُودٍ يستطاع أن يُتناول به كلّ أحدٍ؟ قال: نعم، أن تنويَ الخيرَ لكلّ أحدٍ. (١٨ :٢١٢)

**(الحكمة: ١٣٤) الأصل: مَن أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ.**

**الشّرح:** هذا حقّ، لأنّ مَن لم يُوقِن بالخَلَف ويتخوّف الفَقْر يَضِنّ بالعطيّة، ويعلم أنّه إذا أعطَى ثمّ أعطَى استَنفَدَ مالَه، واحتاج إلى النّاس لانقطاع مادّته، وأمّا مَن يُوقِن بالخَلَف، فإنّه يَعلَم أنّ الجُود شَرَفٌ لصاحبه، وأنّ الجَواد ممدوح عند النّاس، فقد وَجَد الدّاعي إلى السّماح ـ ولاصارف له عنه ـ لأنّه يعلم أنّ مادّته دائمةٌ غيرُ منقطعة، فالصّارف الّذي يخافُه من قدّمنا ذكَره مفقودٌ في حقّه، فلا جَرَم أنّه يجود بالعطيّة! (١٨: ٣٣٦)

---

١ ـ ذكر المؤلّف هذه الأقوال في فصل «بيان أحوال العارفين» ، فأدرجناها في هذا الباب . ( م )

**(الحكمة: ٢٠٧) الأصل: الْجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ ...**

**الشّرح:** مثل قوله: «الجود حارس الأعراض» قولهم: كلّ عيب فالكَرَم يغطّيه. (١٩: ٣١)

## [أقوال مأثورة في الجُود والبُخْل]

**(الحكمة: ٣٨٤) الأصل: الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في البُخل والشُّحّ. ونحن نذكرهاهنا زيادات أُخرى.

**قال بعض الحُكَماء:** السّخاء هيئةٌ للإنسان، داعيةٌ إلى بَذْل المُقتنيات، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحْصُل، وذلك خُلقُ، ويقابله الشُّحّ، وأمّا الجود، فهو بَذْل المُقتنى، ويقابله البُخْل، هذا هو الأصل، وإن كان كلّ واحدٍ منهما قد يُستَعْمل في موضع الآخر، والّذي يدلّ على صحّة هذا الفرق أنّهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشُّحّ على بناء الأفعال الغريزيّة، فقالوا: شَحيح وسخيّ، فبنَوْه على «فَعيل» كما قالوا: حليم وسفيه وعَفِيف، وقالوا: جائد وباخل، فبنَوْهما على «فاعل» كضارِب وقاتِل، فأمّا قولهم: بخيل، فمصروف عن لفظ «فاعل» للمبالغة، كقولهم في راحم رحيم، ويدلّ أيضًا على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنّهم لم يَصِفوا البارئ سبحانه به، فيقولوا سخيّ، فأمّا الشّحّ فقد عظّم أمره وخوّف منه، ولهذا قال عليه السلام: «ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحّ مُطاع، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه»، فخصّ المطاع تنبيهًا على أنّ وجود الشّحّ في النّفس فقط ليس ممّا يستحقّ به ذمّ، لأنّه ليس من فعله، وإنّما يُذَمّ بالانقياد له، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾[1]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[2].

---

١ ـ التّغابن/ ١٦ .

٢ ـ النّساء / ١٢٨ .

وقال عليه السلام: لايجتمع شحٌّ وإيمانٌ في قلبٍ أبدًا.

فأمّا الجُود؛ فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم، ولهذا قيل: كفى بالجُود مَدْحًا أنّ اسمَه مطلقًا لايقع إلّا في حَمْد، وكفى بالبُخل ذمًّا أنّ اسمَه مطلقًا لايقع [إلّا] في ذمّ.

وقيل لحكيم: أيّ أفعال البشر أشبه بأفعال الباري سبحانه؟ فقال: الجُود.

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «الجُود شجرةٌ من أشجار الجنّة، مَن أخَذَ بغُصْنٍ من أغصانها أدّاه إلى الجنّة، والبُخل شجرةٌ من أشجار النّار مَن أخَذَ بغُصْنٍ من أغصانها أدّاه إلى النّار».

ومِن شَرَف الجُود أنّ الله سبحانه قَرَن ذِكْره بالإيمان، ووَصَف أهلَه بالفَلاح، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَيْن، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وحقٌّ للجُود بأن يُقرَنَ بالإيمان، فلا شيء أخصّ به وأشدّ مجانسةً له منه، فإنّ مِن صفة المؤمن انشراح الصّدْر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[3]، وهذا من صفات الجَواد والبَخيل، لأنّ الجَواد واسع الصّدر، مُنشَرح مُستبشِر للإنفاق والبَذْل، والبَخيل قَنُوط ضيّق الصّدر، حَرِج القلب مُمسِك. وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «وأيّ داءٍ أدْوَأ من البُخل».

والبُخل على ثلاثة أضْرُب: بخل الإنسان بمالِه على نفسه، وبخله بماله على غيره، وبخله بمال غيره على نفسه أوعلى غيره. وأفْحُشُها بخله بمالِ غيره على نفسه، وأهْوَنها ـ وإن كان لا هيّنَ فيها ـ بخْلُه بمالِه على غيره.

---

١ ـ البقرة / ٣ ـ ٥.

٢ ـ الحشر / ٩

٣ ـ الأنعام / ١٢٥.

**وقال** عليه السلام: «اللّهمّ اجْعَلْ لمُنفِق خَلَفًا، ولمُمْسِك تَلَفًا».

**وقال:** «إنّ الله عَزَّوجَلَّ يُنزِل المعونة على قَدْر المؤونة».

**وقال أيضًا:** «مَن وَسَّعَ وُسِّع عليه».

**وقالت الفلاسفة:** الجُود على أقسام: فمنها الجُود الأعظم، وهو الجود الإلهيّ، وهو الفيض العامّ المطلق، وإنّما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتها، وإلّا فالفيض في نفسه عامّ غير خاصّ. وبعده جُود المُلوك، وهو الجود بجزءٍ من المال على مَن تدعوهم الدّواعي والأغراض إلى الجُود عليه. ويَتلوه جُود السّوقة، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشّرب والمعاشرين، والإحسان إلى الأقارب.

**قالوا:** واسم الجُود مجاز إلّا الجُود الإلهيّ العامّ، فإنّه عارٍ عن الغَرَض والدّاعي، وأمّا مَن يُعطي لغَرَضٍ وداعٍ، نحو أن يحبّ الثّناء والمحْمَدة، فإنّه مُستعيض وتاجر يُعْطِي شيئًا، ليأخذ شيئًا. قالوا قول أبي نُؤاس [الطّويل]:

فتًى يَشتري حُسْنَ الثّناءِ بمالِهِ ويَعْلَمُ أنّ الدّائراتِ تَدُورُ

ليس بغايةٍ في الوصف بالجُود التّامّ، بل هو وصف بتجارةٍ محمودةٍ، وأحسن منه قول ابن الرّوميّ [المنسرح]:

وتاجر البرّ لا يزال له رِبْحان في كلّ مَتْجَرٍ تَجَرَهْ

أجرٌ وحمدٌ وإنّما طلب أجر ولكن كلاهما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار [الخفيف]:

ليس يُعطيكَ للرّجاءِ ولا الخَوْ فِ ولكن يَلَذّ طَعْمَ العطاءِ

ونحن قد ذكرنا ما في هذا الموضع من البَحْث العقليّ في كُتُبنا العقليّة.

(١٩ : ٣١٦ ـ ٣١٨)

**(كتابه عليه السلام:٥٣) ... فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.**

**الشّرح:** قوله عليه السلام: «فإنّ البُخْل والجُبن والحِرْص غرائز شتّى يجمعها سوء الظّنّ بالله»، كلامٌ شريفٌ عالٍ على كلام الحُكَماء. يقول: إنّ بينها قدرًا مشتركًا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة، وذلك القَدْر المشترك هو سوء الظّنّ بالله، لأنّ الجبان يقول في نفسه: إن أَقْدَمْتُ قُتِلتُ. والبخيل يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ. والحريص يقول: إن لم أجِدَّ وأجتهد وأدأب فاتني ما أروم ... وكلّ هذه الأُمور ترجع إلى سوء الظّنّ بالله، ولوأحسن الظّنّ الإنسان بالله وكان يقينه صادقًا لعَلِم أنّ الأجل مُقدَّر، وأنّ الرّزق مُقدَّر، وأنّ الغِنَى والفَقْر مقدَّران، وأنّه لايكون من ذلك إلّا ما قضى الله تعالى كونه. (١٧ : ٤١)

## الفصل الثّالث والعشرون: [في الصّدقة]

(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَاعْلَمْ! أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنًى بِكَ فِيهِ عَن حُسْنِ الْاِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِن أَهْلِ الْفَاقَةِ مَن يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِن تَزْوِيدِهِ وَأَنتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ ....

**الشّرح:** أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصّدقة والمعروف، فقال: «إنّ بين يديك طريقًا بعيد المسافة، شديد المشقّة، ومَن سَلَكَ طريقًا فلا غِنًى له عن أن يرتاد لنفسه، ويتزوّد من الزّاد قَدْر ما يبلغه الغاية، وأن يكون خفيف الظَّهْر في سَفَره ذلك. فإيّاك أن تحمل من المال ما يثقلك، ويكون وبالًا عليك، وإذا وجدتَ من الفقراء والمساكين مَن يحمل ذلك الثّقل عنك، فيوافيك به غدًا وقت الحاجة فحمله إيّاه، فلعلّك تطلب مالك فلاتجده».

جاء في الحديث المرفوع: «خمسٌ مَن أتى الله بهنّ، أو بواحدةٍ منهنّ أوجب له الجنّة: مَن سَقى هامةً صاديةً، أو أطعم كبدًا هافيةً، أوكَسَا جلدةً عاريةً، أو حمل قدمًا حافيةً، أو أعتق رَقَبةً عانيةً».

قيل لحاتم الأصمّ: لوقرأتَ لنا شيئًا من القرآن! قال: نعم، فاندفع، فقرأ: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]. يكنزون، فقالوا: أيّها الشّيخ ما هكذا أُنزِل! قال: صدقتم، ولكنّ هكذا أنتم! (١٦ : ٨٦)

---

١ ـ البقرة / ١ ـ ٣.

**(الحكمة :٧) وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ.**

**الشّرح: ... الفصل الثّاني:** «الصّدقة دواء مُنجح»، قد جاء في الصّدقة فضل كثير، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدّم[1]، وفي الحديث المرفوع: «تاجِروا الله بالصّدقة تربحوا».

**وقيل:** الصّدقة صَدَاق الجنّة.

وقيل للشِّبليّ: ما يجب في مائتَي درهم؟ فقال: أمّا من جهة الشَّرع فخمسة دراهم، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ.

وروى أبو هُرَيرة عن النّبيّ ﷺ أنّه سُئِل، فقيل: أيّ الصّدقة أفضل؟ فقال: «أن تعطي وأنت صحيح شحيح، تأمُل البَقاء، وتخشى الفقر، ولاتمهِل حتّى إذا بَلَغَتِ الحُلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا».

ومثل قوله عليه السلام: «الصَّدَقة دواء مُنجح»، قول النّبيّ ﷺ: «داووا مَرْضاكم بالصّدقة». (١٨ : ١٠١)

**(الحكمة: ١٣٣) الأصل: اسْتَنزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ.**

**الشّرح: ...** جاء في الحديث المرفوع، وقيل: إنّه موقوفٌ على عثمان: «تاجِروا الله بالصَّدَقة تربَحُوا».

**وكان يقال:** الصَّدَقة صَداق الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «ما أحسن عبدٌ الصَّدَقَة إلّا أحسن الله الخلافة على مخلّفيه».

وعنه ﷺ: «ما مِن مُسلم يَكْسُومُسلِمًا ثَوْبًا إلّا كان في حفظ الله ما دام منه

---

١ ـ أدرجناها في المجلّد الأوّل من هذا الكتاب في الباب الخامس: «المسائل الفقهيّة». (م)

رُقْعة».

وقال عمربن عبد العزيز: الصّلاة تُبلِّغك نصف الطّريق، والصَّوْم يُبلِّغك باب المَلِك، والصَّدَقة تُدْخِلُك عليه. (١٨ : ٣٣٥)

**(الحكمة: ١٤٢) الأصل: سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم الكلام في الصّدقة والزّكاة والدّعاء، فلا معنى لإعادة القول في ذلك. (١٨ : ٣٤٥)

**(الحكمة: ٢٥٥) الأصل: إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في الصَّدَقة.

**وقالت الحكماء:** أفضل العِبادات الصَّدَقة، لأنّ نَفْعها يتعدّى، ونفع الصّلاة والصَّوْم لا يتعدّى.

وجاء في الأثر أنّ عليًّا عليه السلام عمل ليهوديّ في سَقْي نخْلٍ له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدٍّ من شَعير، فخبزه قُرْصًا، فلمّا همّ أن يفطر عليه، أتاه سائلٌ يستطعم، فدَفَعَه إليه وبات طاويًا، وتاجر الله تعالى بتلك الصَّدَقة، فعدّ النّاس هذه الفِعْلة من أعظم السّخاء، وعدّوها أيضًا من أعظم العبادة.

وقال بعض شُعراء الشّيعة يذكر إعادة الشّمس عليه، وأحسن فيما قال [الخفيف]:

جَادَ بالقُرْصِ والطَّوَى مِلْءُ جَنبَيْـ ـه ، وعَافَ الطَّعامَ وَهْوَ سَغُوبُ[1]

---

١ ـ السَغوب : الجائع .

فأعـادَ القُـرْص المُنيـر عليـه الـ قُـرْص والمُقْـرِض الكِـرامِ كَسُـوبُ[1]

(١٩ : ١٠١)

**(الحكمة: ٣١٠) الأصل: إِنَّ الْمِسْكِينَ رَسُولُ اللهِ، فَمَن مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللهَ، وَمَن أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللهَ.**

**الشّرح:** هذا حَضٌّ على الصَّدَقة، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقْنِع فيها.

وفي الحديث المرفوع: «اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تمـرةٍ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيّبة».

وقال ﷺ: «لوصَدَق السّائل لما أفلح مَن ردّه».

وقال أيضًا: «مَن ردّ سائلًا خائبًا لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيّام».

وكان ﷺ لا يَكِلُ خِصْلتَين إلى غيره: كان يصنع طَهُوره[2] باللّيل ويخمره، وكان يناول المسكين بيده. (١٩ : ٢١٠)

**(الحكمة: ٣٣٤) الأصل: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَن ذَلِكَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في الصَّدَقة وفَضْلها وما جاء فيها.

وقد ورد في الأخبار الصّحيحة أنّ أبا ذَرّ قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظِلّ الكعبة، فلمّا رآني قال: هم الأخسرون ورَبِّ الكعبة! فقلت مَن هم؟ قال: هم الأكثرون أموالًا، إلّا مَن قال: هكذا وهكذا مِن بين يديه ومِن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقليلٌ ما هُمْ، ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غَنَم لا يؤدّي زكاتَها إلّا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسْمَنَه، تَنطَحُه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلّما نَفِدَتْ أُخراها عادَتْ عليه أُولاها حتّى يقضي الله بين النّاس. (١٩ : ٢٤٠)

---

١ ـ في د: «والقرض للكرام»، وهو وجه أيضًا.

٢ ـ الطَّهور: الماء الّذي يتطهّر به. ويخمره: يستره.

## الفصل الرّابع والعشرون: [في الفقر والغِنَى]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِندَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِندَ الْغِنَى ....**

**الشّرح:** ... قوله: «ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى»! هذا من قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

ومن الشّعر الحِكَميّ في هذا الباب قول الشّاعر[الكامل المرفّل]:

خُلُقان لا أرضَاهما لِفَتًى ... تيه الغِنَى ومذلّة الفقرِ

فإذا غَنيتَ فلا تكن بَطِرًا ... وإذا افتقرتَ فتِهْ على الدَّهرِ

(١٦ : ١١٥ ـ ١١٦)

**(الحكمة: ٣) الأصل: الْبُخْلُ عَارٌ وَالْجُبْنُ مَنقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَن حَاجَتِهِ، وَالْمُقِلّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.**

**الشّرح:** ... الفصل الثّالث في الفقر. وقد تقدّم القول فيه أيضًا[2].

ومثل قوله: «الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته»، قولُ الشّاعر[الطّويل]:

سأعْمِلُ نَصَّ العِيس حتّى يَكُفّني ... غِنَى المالِ يومًا أو غِنَى الحَدَثَانِ

فَلَلْمَوْتُ خيرٌ مِن حياةٍ يُرَى لها ... على الحرّ بالإقلالِ وسْمُ هَوانِ

متى يتكلّمْ يُلْغَ حُكْمُ كلامه ... وإن لم يَقُلْ قالوا عَديم بيانِ

كأنّ الغِنَى عن أهله بُورك الغِنَى ... بغير لسان ناطق بلسانِ

(١٨ : ٨٨)

---

١ ـ يونس / ٢٢ ـ ٢٣ .

٢ ـ سيجيء ذيل عنوان «بيان أحوال العارفين» . ( م )

**(الحكمة :٥٣) وقَالَ عليه السلام: الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قول مُقْنع في الفَقْر والغنى ومدحهما وذمّهما على عادتنا في ذِكْر الشّيء ونقيضه، ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك.

قال رجلٌ لبُقْراط[1]: ما أشدّ فَقْرَك أيّها الحكيم؟ قال: لو عرفتَ راحةَ الفقر لشَغَلك التّوجّع لنفسك عن التّوجّع لي، الفَقْر مَلِك ليس عليه محاسَبَة.

**وكان يقال:** أضعف النّاس مَن لا يحتمل الغنى.

**وقيل للكِنديّ:** فلانٌ غنيّ، فقال: أنا أعلم أنّ له مالًا، ولكنّي لا أعلم أغنيّ هو أم لا؟ لأنّني لا أدري كيف يعمل في ماله!

**قيل لابن عمر:** توفّي زيد بن ثابت وترك مائتَي ألف درهم، قال: هو تركها لكنّها لم تتركه.

**وقالوا:** حَسْبُك مِن شَرَف الفقر أنّك لا تَرَى أحدًا يعصى الله ليفتقر، أخذه الشّاعر فقال [السّريع]:

يا عائِبَ الفقرِ ألَا تَزْدَجِرْ ... عَيبُ الغِنَى أكبرُ لو تَعْتَبِرْ

إنّك تَعصِي اللهَ تَبْغِي الغِنَى ... وليس تَعْصِي الله كي تَفْتَقِرْ

**وكان يقال:** الحلال يَقْطُر، والحرام يَسِيل.

**وقال بعض الحُكماء:** ألا تَرَوْنَ ذا الغِنَى ما أدْوَمَ نَصَبه، وأقلّ راحَتَه، وأخسّ مِن ماله حظّه، وأشدّ من الأيّام حَذَره، وأغْرَى الدّهر بنقصه وثَلْمه! ثمّ هو بين سلطانٍ يرعاه، وحقوقٍ تسترعيه، وأكفاءٍ ينافسونه، ووَلَدٍ يودّون موتَه، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البَغْي، ومن ذوي الحقوق الذّمّ، ومن الوَلَد المَلالَة وتمنّي الفَقْد، لا كذي البُلْغة قَنع فدامَ له السّرور، ورَفَضَ الدّنيا فسَلِم من الحَسَد، ورَضِي بالكَفافِ فكُفِيَ الحقوق. (١٨ : ١٩٠ ـ ١٩١)

---

١ ـ أ: «سقراط».

**(الحكمة: ٦٦) الأصل: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.**

**الشّرح:** من الأبيات المشهورة [مجزوء الكامل]:

فإذا افتقرتَ فلا تَكُن متخشِّعًا وتجمَّلِ

ومن أمثالهم المشهورة: «تجوعُ الحُرّة ولا تأكل بثَدْيَيْها»[1].

وأنشد الأصمعيّ لبعضهم [السّريع]:

أقْسِمُ باللهِ لَمَصّ النَّوَى وشربُ ماءِ القُلُبِ المالِحَهْ

أحسنُ بالإنسان مِن ذُلِّهِ ومِن سُؤالِ الأوجُهِ الكالِحَهْ

فاسْتَغْنِ باللهِ تَكُن ذا غِنًى مُغْتَبِطًا بالصَّفقةِ الرّابِحَهْ

طُوبَى لمن تُصْبح مِيزانُهُ يومَ يُلاقِي رَبَّهُ راجِحَهْ

**وقال بعضهم:** وقفتُ على كَنِيفٍ وفي أسفله كنّاف، وهو ينشد [الطّويل]:

أكْرِمُ نفسي عن أمور كثيرة ألا أنّ إكرام النّفوس من العَقْلِ

وأبخلُ بالفَضْلِ المبينِ على الأُولى رأيتُهُم لايكرمونَ ذَوِي الفَضْلِ

وما شانَني كَنس الكَنِيفِ وإنّما يَشينُ الفَتى أن يجتديَ نائلَ النَّذْلِ[2]

وأقْبَحُ ممّا بي وُقوفي مؤمِّلًا نَوالَ فَتًى مِثْلي، وأيّ فَتًى مثلي!

وأمّا كون الشّكر زينة الغنى، فقد تقدّم من القول ما هو كافٍ.

**وكان يقال:** العِلْم بغير عَمَلٍ قولٌ باطلٌ، والنّعمة بغير شكر جِيدٌ عاطلٌ.

(١٨ : ٢١٣ ـ ٢١٤)

---

١ ـ الميدانيّ ١ : ٨١ ، قال : أي لاتكون ظئرًا وإن آذاها الجوع . ويروى : «و لاتأكل ثدييها » قال : وأوّل مَنْ قال ذلك الحارث بن سليل الأسديّ في خبر معروف ذكره هناك .

٢ ـ النّذل : المحتقر من النّاس في جميع أحواله .

(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِن صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِن إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِن مَنطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ!

الشّرح: ... قوله: «الحِرفة مع العفّة خير من الغِنَى مع الفجور» ... وذلك لأنّ ألم الحرفة مع العفّة ومشقّتها إنّما هي في أيّام قليلة وهي أيّام العمر، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور، ففي مثل تلك الأيام يكون، ولكن يستعقب عذابًا طويلًا، فالحال الأُولى خيرٌ لا محالة. وأيضًا في الدّنيا خير أيضًا للذِّكر الجميل فيها، والذّكر القبيح في الثّانية، وللمحافظة على المروءة في الأُولى وسقوط المروءة في الثّانية. (١٦ : ٩٨)

(الحكمة: ٢٧٥) الأصل: النَّاسُ فِي الدُّنيَا عَامِلَانِ: عَامِلٌ فِي الدُّنيَا لِلدُّنيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنيَاهُ عَن آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَن يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنفَعَةِ غَيْرِهِ ... .

الشّرح: معنى قوله: «ويأمنه على نفسه»، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيرًا، لأنّه يعيش عيش الفقراء وإن كان ذا مالٍ، لكنّه يدّخر المال لولده فيفني عمره في منفعة غيره. ويجوز أن يكون معناه أنّه لكثرة ماله قد أمن الفقر على نفسه ما دام حيًّا، ولكنّه لا يأمن الفقر على ولده، لأنّه لا يَثِقُ من ولده بحُسن الاكتساب كما وثق من نفسه، فلا يزال في الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولده الّذي يخاف عليه الفقر بعد موته. فأمّا العامل في الدّنيا لما بعدها، فهم أصحاب العبادة، يأتيهم رزقهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ، وقد حصلت لهم الآخرة، فقد حصل لهم الحظّان جميعًا. (١٩ : ١٧٥)

(الحكمة: ٣٤٧) الأصل: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الغِنَى.

الشّرح: قد سبق القول في أنّ الأجمل بالفقير أن يكون عفيفًا، وألّا يكون جَشِعًا

حَريصًا، ولا جادًّا في الطّلب متهالكًا، وإنّه ينبغي أنّه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناء الوقت، فإنّ التِّيه في مثل ذلك المقام لا بأس به، ليبعد جدًّا عن مَظِنّة الحِرْص والطّمع.

وقد سبق أيضًا القولُ في الشّكر عند النّعمة ووجوبه، وإنّه سبب لاستدامتها، وإنّ الإخلالَ به داعيةٌ إلى زوالها وانتقالها، وذكرنا في هذا الباب أُمورًا مستحسنَة، فلتراجَع، وقال عبد الصّمد بن المعذَّل في العَفاف [المتقارب]:

سأقنِي العَفافَ وأرضَى الكَفاف ... وليس غِنى النّفسِ حوزُ الجَزيلِ
ولا أتصدَّى لسُكْرِ الجَواد ... ولا أستَعدّ لذمّ البَخيلِ
وأعْلَم أنّ بناتِ الرّجاء ... تُحِلّ العَزيزَ مَحَلّ الذّليلِ
وأن ليسَ مُستغنيًا بالكثير ... مَن ليس مُستغنيًا بالقَليلِ

(١٩ : ٢٥٥)

**(الحكمة: ٣٦١) الأصل: وَبَنَى رَجُلٌ مِن عُمَّالِهِ بِنَاءً فَخْمًا، فَقَالَ عليه السلام: أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ رُؤُوسَهَا، إِنَّ الْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ الْغِنَى.**

**الشّرح:** قد رُوِيتْ هذه الكلمة عن عمر رضي الله عنه ذكر ذلك ابن قُتَيبة في «عيون الأخبار».

ورُوي عنه أيضًا: لي على كلّ خائن أمينان: الماءُ والطِّين.

قال يحيى بن خالد لابنه جعفر حين اختَطّ دارَه ببغداد ليبنيَها: هي قميصك، فإن شئت فوسِّعْه، وإن شئت فضَيِّقْه.

ورآه وهو يجصِّص حيطان دارِه المبنيّة بالآجُرّ، فقال له: إنّك تغطِّي الذَّهَب بالفضّة، فقال جعفر: ليس في كلّ مكان يكون الذّهب خيرًا من الفضّة، ولكن هل تَرَى عيبًا؟ قال: نعم، مخالَطَتُها دُورَ السُّوقة.

وقيل ليزيد بن المهلّب: ألا يَبْني الأمير دارًا؟ فقال: منزلي دار الإمارة

أو الحبس. وكان يقال، في الدّار: لتَكُن أوّل ما يُبْتاع وآخر ما تُبَاع.

ومرّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبني دارًا، فقال: مَن ذا الّذي يقيم كفيلًا.

وقالوا: كلّ ما يخرُج بخروجك، ويَرْجع برُجوعك، كالدّار والنّخل ونحوهما فهو كفيل. (١٩ : ٢٧١)

## [الأقوال الحكيمة في الفقروالغنى]

**(الحكمة: ٣٢٥) الأصل: وقَالَ عليه السلام لا بْنِهِ محمَّدِ ابنِ الحَنَفِيَّةِ: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ.**

**الشّرح:** هذا موضع قد اختلف النّاس فيه كثيرًا، ففضّل قومٌ الغِنَى، وفضّل قومٌ الفَقْر.فقال أصحاب الغنى: قد وصف الله تعالى المال، فسمّاه خيرًا، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيرِعَن ذِكْرِرَبِّي﴾[١].

وقال ممتنًّا على عباده، واعدًا لهم بالإنعام والإحسان: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[٢]. وقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾[٣].

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «المال الحَسَب، إنّ أحساب أهل الدّنيا هذا المال».

وقال عليه السلام: «نِعْم العَوْن على تقوى الله المال».

قالوا:ولا ريب أنّ الأعمال الجليلة العظيمة الثّواب لايتهيّأ حصولها إلّا بالمال، كالحجّ والوقوف والصّدقات والزّكوات والجهاد.

---

١ ـ ص / ٣٢ .

٢ ـ نوح / ١٢ .

٣ ـ المدّثّر/ ١٢ .

وقد جاء في الخبر: «خير المال سِكة مَأبورة[١] أو مُهرة مأمورة».

**وقالت الحُكَماء:** المال يَرْفع صاحبه وإن كان وَضيع النَسب، قليل الأدب، وينصره وإن كان جبانًا، ويبسط لسانه وإن كان عَيِيًّا، به تُوصَل الأرحام، وتُصانُ الأعراض، وتظهر المروءة، وتتمّ الرّياسة، ويعمر العالم، وتُبْلَغ الأغراض، وتُدْرك المطالب، وتُنال المآرب، يصلك إذا قطعك النّاس، وينصرك إذا خذلوك، ويستعبد لك الأحرار. ولولا المال لما بان كرمُ الكريم، ولاظَهر لؤم اللّئيم، ولاشُكِر جواد، ولاذُمّ بخيل، ولاصِين حريم، ولاأدرك نعيم.

وقال الشّاعر[الكامل]:

المال أنفعُ للفَتى من عِلْمِه ... والفقر أقْتَلُ للفَتى من جَهْلِهِ

ما ضَرّ مَن رفع الدّراهم قَدْره ... جَهْلٌ يناطُ إلى دَناءةِ أصلهِ

وقال آخر[الوافر]:

دَعَوْتُ أخي فولّى مُشْمئزًّا ... ولَبّى دِرْهمِي لما دَعَوْتُ

وقال آخر[الطّويل]:

ولم أرَ أوْفَى ذِمّةً من دراهِمي ... وأصدقَ عَهْدًا في الأمورِ العظائِمِ

فكم خانَني خلّ وثقتُ بعَهْدِهِ ... وكان صديقًا لي زمانَ الدّراهِمِ

وقال آخر[الطّويل]:

أبو الأصفرِ المنقوشِ أنفَعُ للفَتَى ... مِنَ الأصلِ والعِلْمِ الخَطيرِ المقدّمِ

وما مَدَحَ العِلمَ امرؤٌ ظفرتْ بهِ ... يَداهُ ولكن كلّ مُقْوٍ ومعدِمِ

وقال الشّاعر[الطّويل]:

ولم أرَ بعد الدّينِ خيرًا مِنَ الغِنَى ... ولم أرَ بعد الكُفْرِ شرًّا مِنَ الفَقْرِ

وقال العتّابيّ: النّاس لصاحب المال ألزم من الشّعاع للشّمس، وهو عندهم أرفع

---

١ ـ السّكة: الطّريقة؛ والمأبورة: الملقحة. وانظر: نهاية ابن الأثير١: ١٠.

من السّماء، وأعْذَب من الماء، وأحْلَى من الشّهد، وأزكى من الوَرْد، خطؤه صواب، وسيّئته حَسَنة، وقوله مقبول، يُغْشَى مجلسه، ولا يُمَلّ حديثه، والمفلس عندهم أكْذب من لمَعَان السّراب، ومن رؤيا الكِظّة، ومن مرآه اللَّقوة، ومن سحاب تَمُّوز، لا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلَّم عليه إذا قَدِم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصّلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السّائل المبرم.

وقال بعض الشُّعَراء الظُّرفاء، وأحسن كلّ الإحسان مع خلاعته [الوافر]:

أصونُ دراهمي وأذُبّ عنها ... لعِلْمي أنّها سيفي وتُرْسي
وأذْخرُها وأجمعها بجهدي ... ويأخذ وارثي منها وعُرْسي
فيأكلها ويشربُها هنيئًا ... على النّغماتِ من نَقْرٍ وجَسّ
ويقعد فوقَ قبري بعد موتي ... ولا يتصدّقَنْ عنّي بفلسِ
أحبّ إليّ من قصدي عظيمًا ... كبيرًا أصلهُ من عبدِ شمسِ
أمدّ إليهِ كفّي مستميحًا ... وأصبحُ عَبْدَ خِدْمَتهِ وأمسِي
ويتركني أجرُّ الرّجلَ منّي ... وقد صارتْ كنفسِ الكَلْبِ نفسي

وقال أصحاب الفقر: الغِنَى سببُ الطُّغيانِ، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا اِنَّ الْاِنْسَانَ لَيَطْغٰى*اَنْ رَاٰهُ اسْتَغْنٰى﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَاِذَا اَنعَمْنَا عَلَى الْاِنسَانِ اَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ﴾[2].

وكان يقال: الغِنَى يُورث البَطَر، وغِنى النّفس خيرٌ من غِنى المال.

وقال محمود البَقّال [السّريع]:

---

١ ـ العلق / ٦ ـ ٧ .

٢ ـ الإسراء / ٨٣ .

الفَقْرُ خيرٌ فاتّسعْ واقتصدْ إنّ من العِضَمَةِ ألّا تجِدْ
كَمْ واجدٍ أطلَقَ وجدانَهُ عنانَهُ في بعض ما لم يُرِدْ
ومُدْمِنٍ للخَمْرِ غادٍ على سماع عُودٍ وغناءَ غَرِدْ
لولم يجِدْ خمرًا ولا مُسمعًا يردُّ بالماءِ غليلَ الكَبِدْ
كمْ من يدٍ للفَقْرِ عند امرِئٍ طأطأ منه الفَقْرُ حتّى اقْتَصَدْ

**وكان يقال:** الفقر شعار الصّالحين، والفقر لباس الأنبياء.

ولذلك قال البُحتُريّ [الكامل]:

فَقْرٌ كفَقْرِ الأنبياءِ وغربةٌ وصبابةٌ ليسَ البلاءُ بواحدِ[1]

**وكان يقال:** الفَقر مُخِفّ، والغِنَى مُثْقِل.

وفي الخبر: نجا المخفّون.

وما أحسن قول أبي العتاهيّة [الطّويل]:

ألم تَرَ أنّ الفَقْرَ يُرجَى له الغِنَى وأنّ الغنَى يُخْشَى عليه من الفَقْرِ

وقد ذمّ الله تعالى المال، فقال: ﴿اَنَّمَا اَمْوَالُكُمْ وَاَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2].

**وكان يقال:** المال ملول المال، ميّال المال غادٍ ورائح، طَبْع المال كطَبْع الصّبيّ، لا يوقف على وقت رضاه، ولا وقت سخطه. المال لا ينفعك حتّى يفارقك.

وإلى هذا المعنى نظر القائل [الطّويل]:

وصاحبِ صِدْقٍ ليس ينفع قُرْبُهُ ولا ودُّه حتّى تفارقهُ عمدًا

يعني الدّينار.

وما أحْسَنَ ما قاله الأوّل [الطّويل]:

وقد يُهْلِكُ الإنسانَ حُسْنُ رِياشِهِ كما يُذْبَح الطّاوسُ من أجْلِ رِيشِهِ

---

١ ـ ديوانه ١ : ١٦٨ .

٢ ـ الأنفال / ٢٨ .

وقال آخر[الطّويل]:

رُوَيْدكَ إنّ المالَ يُهْلِك رَبَّهُ إذا جمّ واستعلى وسُدَّ طَريقُهُ
ومَن جاوزَ الماءَ الغَزيرَ فَحَجُّهُ وسدَّ طريقَ الماء فَهْوَ غَريقُهُ

(١٩ : ٢٢٧ ـ ٢٣١)

**(الحكمة: ١٦٥) الأصل: اَلْفَقْرُ المَوْتُ الْاَكْبَرُ.**

**الشّرح:** في الحديث المرفوع: «أشقى الأشقياء مَن جمع عليه فقر الدّنيا وعذاب الآخرة».

وأتى بُزُرْجمهر فقيرٌ جاهلٌ، فقال: بئسما اجتمع على هذا البائس: فَقْرٌ يُنقِص دنياه، وجَهْلٌ يُفْسِد آخرته. شاعر[الخفيف]:

خلق المال واليسار لقومٍ وأراني خُلِقْتُ للإملاقِ
أنا فيما أرى بقيّةَ قومٍ خُلِقوا بعد قسمة الأرزاق

أخذ السّيواسيّ هذا المعنى، فقال في قصيدته الطّويلة المعروفة بالسّاسانيّة [الخفيف]:

ليت شعري لما بدا يقسم الأرْ زاقَ في أيّ مطبقٍ كنتُ

قرئ على أحد جانبي دينار[السّريع]:

قرنتُ بالنّجحِ وبي كلّ ما يُرادُ مِن ممتنعٍ يُوجدُ

وعلى الجانب الآخر[السّريع]:

وكلّ مَن كنتُ له آلفًا فالإنسُ والجنُّ له أعْبَدُ

وقال أبو الدّرداء: مَن حَفِظ ماله فقد حَفِظ الأكثر من دِينه وعِرْضِه.

بعضهم [الكامل]:

وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ فاحْمِلْ صُعوبتَهُ على الدِّينارِ

تـردّده كـالظّهرِ الـذّلولِ فإنّـهُ حَجَـرُيَلـينُ قـوّة الأحجـارِ

ومن دعاء السَّلَف: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من ذُلّ الفقر وبَطَر الغِنَى.

(١٨ : ٣٨٦ ـ ٣٨٧)

**(الحكمة:٤٦٠) وقال عليه السلام: الْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللهِ تَعَالى.**

**الشّرح:** أي لايُعَدّ الغَنِيّ غنيًّا في الحقيقة إلّامَن حَصَل له ثواب الآخرة الّذي لاينقطع أبدًا، ولايُعَدّ الفقير فقيرًا إلّا مَن لم يحصل له ذلك، فإنّه لا يزال شقيًّا معذّبًا، وذاك هو الفقر بالحقيقة.

فأمّا غِنَى الدّنيا وفَقْرها فأمران عَرَضيّان، زوالهما سريع، وانقضاؤهما وشيك.

وإطلاق هاتين اللّفظتَين على مسمّاهما الدّنيويّ على سبيل المجاز عند أرباب الطّريقة، أعني العارفين. (٢٠ : ١٥٢)

**(الحكمة: ٤٣٢) الأصل: وقال عليه السلام: لَا يَنبَغِي لِلْعَبْدِ أَن يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ وَالْغِنَى، بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافًى إِذْ سَقِمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إِذِ افْتَقَرَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذا المعنى. وقال الشّاعر[البسيط]:

وبينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتَبِطٌ إذ صارَ في اللّحْدِ تَسْفِيهِ الأعاصيرُ

وقال آخر[الرّمل]:

لايغرّنك عِشاءٌ ساكنٌ قد يُوافي بالمَنيّاتِ السَّحَرْ

وقال عُبيد الله بن طاهر[الخفيف]:

وإذا ما أعارَكَ الدّهرُ شيئًا فهو لابدّ آخِذٌ ما أعارَا

آخر[الطّويل]:

يَغُرُّ الفَتى مَرّ اللّيالي سَليمةً وهُنّ به عمّا قليلٍ عَواثِرُ

وقال آخر[المتقارب]:

ورُبَّ غَـــنِيٍّ عظـــيمِ الثّـــرا ءِ أمسَـــى مُقِـلّا عـديمًا فقيـرَا
وكَمْ باتَ مِن مُتْرَفٍ في القصور فعُوِّضَ في الصّبحِ عنها القُبورَا

(٢٠ : ٧١)

## الفصل الخامس والعشرون: [في الاقتصاد]

**(الخطبة:١٨٦) ... فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ ... .**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «وملبسهم الاقتصاد»، أي ليس بالثّمين جدًّا، ولا بالحقير جدًّا، كالخِرَق الّتي تُؤْخَذُ من عَلَى المزابل، ولكنّه أمرٌ بين أمرَين، وكان عليه السلام يلبس الكرابيس ـ وهو الخام الغليظ ـ وكذلك كان عمر رضي الله عنه. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس اللَّيّنَ تارةً، والخشن أُخرى. (١٠ : ١٤١)

**(الحكمة: ١٣٦) وقَالَ عليه السلام: مَا عَالَ امْرُؤٌ اقْتَصَدَ.**

وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع في مدح الاقتصاد. وقال أبو العلاء [الطّويل]:

وإن كنتَ تَهوَى العيشَ فابْغِ تَوسُّطًا ... فعند التَّناهي يَقصُرُ المتطاوِلُ

تُـوَقِّي البُـدورُ الـنّقصَ وَهْـيَ أهِلّـةٌ ... ويُدرِكُها النّقصانُ وَهْيَ كواملُ

وهذا الشِّعر وإن كان في الاقتصاد في المراتب والولايات، إلّا أنّه مدحٌ للاقتصاد في الجملة، فهو من هذا الباب.

وسمع بعض الفضلاء قول الحكماء: التّدبير نصف العيش. فقال: بل العيش كلّه. (١٨ : ٣٣٨)

## الفصل السّادس والعشرون

## [نُبُذٌ من كلام الحكماء في مدح القناعة وذمّ الطّمع]

**(الخطبة :٤٥) ... وَالدُّنيَا دَارُ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنهَا الْجَلَاءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، قَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ؛ فَارْتَحِلُوا مِنهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ.**

**الشّرح:** [قال بعد ذكر الفصل الأوّل في الموازنة والسّجع من علم البيان:]

فأمّا الفصل الثّاني؛ فيشتمل على التّحذير من الدّنيا، وعلى الأمر بالقناعة، والرّضا بالكفاف، فأمّا التّحذير من الدّنيا، فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا، وأمّا القناعة فقد ورد فيها شيء كثير.

قال رسول الله ﷺ لأخوَين من الأنصار: «لا تيأسا من رَوْح الله ما تَهَزْهَزَتْ رؤسكما، فإنّ أحدكم يولد لا قِشْر عليه، ثمّ يكسوه الله ويرزقه».

**وعنه ﷺ:** ويعزى إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «القناعة كنزٌ لا ينفد».

**وما يقال:** إنّه من كلام لقمان الحكيم: «كفى بالقناعة عزًّا وبطيب النّفس نعيمًا».

**ومن كلام عيسى** عليه السلام: اتّخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكُلُوا من بَقْل البرّيّة، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدّنيا بسلام. لَعَمْري لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم، أفتخافون الضّيعة إذا انقطعتم إليه!

وفي بعض الكُتُب الإلهيّة القديمة: يقول الله تعالى: يابن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي هَزْلًا، وأنت تتفتّق بمعصيتي سِمنًا!.

قال أبو وائل: ذهبت أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسيّ، فجلسنا عنده، فقال: لولا أنّ رسول الله ﷺ نهى عن التّكلّف لتكلّفت لكم، ثمّ جاء بخبز وملْح ساذج لا أبزار عليه، فقال صاحبي: لوكان لنا في ملحنا هذا سَعْتر[1]! فبعث سلمان بِمِطْهَرته،

---

١ ـ السّعتر: نبات طيّب الرّائحة، حريف، زهره أبيض إلى الغبرة .

فرهنها على سعتر، فلمّا أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الّذي قنّعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لوقَنَعْتَ بما رزقك لم تكن مِظْهَرتي مرهونة!

عباد بن منصور؛ لقد كان بالبصرة مَن هو أفقه من عمرو بن عُبَيد وأفصح، ولكنّه كان أصبرهم عن الدِّينار والدّرهم، فسادَ أهل البصرة.

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عُبَيد: لِمَ لاتأخذ منّي؟ فقال: لايأخذ أحدٌ من أحدٍ إلّاذلّ له، وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله.

كان معاش عمرو بن عبيد من دار وَرِثَها، كان يأخذ أُجرتها في كلّ شهر دينارًا واحدًا فيتبلّغ به.

الخليل بن أحمد: كان النّاس يكتسبون الرّغائب بعلمه، وهو بين أخصاص البَصْرة لايلتفت إلى الدّنيا ولايطلبها.

وهب بن منبّه: أرْمَلْتُ مرّة حتّى كدت أقْنَط، فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبه لوزة، فقال: افْضُضْ، ففضضتها، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر: لا ينبغي لمن عَقَل عن الله أمره، وعرف لله عدله، أن يستبطئ الله في رزقه، فقنعت وصبرت، ثمّ أعطاني الله فأكثر.

قيل للحسن عليه السلام: إنّ أبا ذرّ كان يقول: الفقر أحبّ إليّ من الغنَى، والسَّقَم أحبّ إليّ من الصّحّة، فقال: رحم الله أبا ذرّ، أمّا أنا فأقول: مَنِ اتّكل إلى حُسْن الاختيار من الله لم يتمنّ أنّه في غير الحال الّتي اختارها الله له، لَعمري يا بن آدم، الطّير لا تأكل رَغَدًا، ولا تخبأ لغَدٍ، وأنت تأكل رغدًا، وتخبأ لغَدٍ، فالطّير أحسن ظنًّا منك بالله عَزَّوَجَلَّ.

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَداء عن مَسْلَمة، حتّى برَّح به الجوع، ثمّ دعا بسَويق فسقاه، فلمّا فَرَغ منه لم يقدر على الأكل، فقال: يا مَسلمة، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت، فعلامَ التّهافت في النّار!

عبد الواحد بن زيد: ما أحسب شيئًا من الأعمال يتقدّم الصّبر إلّا الرّضا والقناعة، ولاأعلم درجة أرفع من الرّضا، وهو رأس المحبّة.

قال ابن شُبرُمة في محمّد بن واسع: لوأنّ إنسانًا اكتفى بالتّراب لا كتفى به.

يقال: من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل لعبادي المتسخّطين لرزقي، إيّاكم أن أغضب فأبسُط عليكم الدّنيا.

كان لبعض الملوك نديم، فسكر، ففاتَتْه الصّلاة، فجاءت جارية له بجَمْرة نار، فوضعتها على رِجْله، فانتبه مذعورًا، فقالت: إنّك لم تصبر على نار الدّنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة! فترك الدّنيا وانقطع إلى العبادة، وقعد يبيع البقل، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَينة، فإذا تحت رأسه لَبِنة، وليس تحت جنبه حصير، فقالا له: إنّا رَوَيْنا أنّه لم يَدَع أحدٌ شيئًا لله إلّا عَوّضه خيرًا منه، فما عوّضك؟ قال: القناعة والرّضا بما أنا فيه.

أصابت داود الطّائيّ ضائقة شديدة، فجاء حمّاد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تَرَكة أبيه، فقال داود: هي لَعَمْري من مال رجل ما أُقدِم عليه أحدًا في زهده وورعه وطيب كسبه، ولوكنت قابلًا من أحدٍ شيئًا لقبلتها إعظامًا للميّت، وإيجابًا للحيّ، ولكنّي أحبّ أن أعيش في عزّ القناعة.

سُفيان الثّوريّ: ما أكلتُ طعام أحدٍ قطّ إلّا هُنت عليه.

مِسْعَر بن كِدام: مَن صَبر على الخلّ والبَقْل لم يُستعبَد.

فُضَيل: أصل الزّهد الرّضا بما رزقك الله، ألا تراه كيف يصنع بعبده ما تصنع الوالدة الشّفيقة بولدها! تطعِمه مَرّة خبيصًا[1]، ومرّة صبرًا، تريد بذلك ما هو أصلح له.

المسيح عليه السلام: أنا الّذي كببتُ الدّنيا على وجهها، وقدّرتُها بقدرها، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرَب، وسادي الحَجَر، وفراشي المَدَر، وسراجي القمر.

أمير المؤمنين عليه السلام أكل تمر دَقَل[2]، ثمّ شرب عليه ماء، ومسح بطنه، وقال: من أدخلته بطنه النّار، فأبعده الله، ثمّ أنشد [الطّويل]:

---

١ ـ الخبيص: التّمر المعمول من السّمن و العسل.

٢ ـ الدّقل: أردأ التّمر.

فإنّك إن أعطيتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجك نالَا مُنتَهى الذَمّ أجمَعَا[1]

في الحديث الصّحيح المرفوع: «إنّ رُوح القُدُس نَفَثَ في رُوعي أنّه لن تموت نفسٌ حتّى تستكمل رزقها، فأجملوا في الطّلب».

من كلام الحكماء: مَن ظَفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم.

الحسن: الحريص الرّاغب، والقانع الزّاهد، كلاهما مستوفٍ أجَلَه، مستكملٌ أكْلَه، غير مُزداد ولا مُنتقَص ممّا قُدِّر له، فعلامَ التّقحّم في النّار!

ابن مسعود، رفعه: «إنّه ليس أحدٌ بأكيس من أحدٍ، قد كُتِب النّصيب والأجل، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل، والنّاس يجرُون منهما إلى منتهى معلوم».

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السّماء تغدو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن زعمتم أنّكم أوسع بطونًا من الطّير، فهذه الوُحوش من البقر والحُمُر، لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها.

سُوَيد بن غفلة: كان إذا قيل له: قد وَلِي فلان، يقول: حسبي كِسْرتي ومِلْحي.

وَفَدَ عروة بن أُذَينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلّته، فقال له: ألست القائل [البسيط]:

لقد عَلِمتُ وما الإسراف من خُلُقِي أنّ الّذي هُوَ رِزْقِي سوف يأتيني

أسعَى لـه فيعنِّيني تَطَلّبُهُ ولوقَعَدتُ أتاني لا يُعنِّيني

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشّام تطلب الرّزق! ثمّ اشتغل عنه، فخرج وقعد على ناقته ونَصّها راجعًا إلى الحجاز، فذكره هشام في اللّيل، فسأل عنه، فقيل: إنّه رجع إلى الحجاز، فتذمّر وندم، وقال: رجل قال حِكْمة، ووفد عَلَيّ مستجديًا، فجبهته، ورددتُه! ثمّ وجّه إليه بألفي درهم، فجاء الرّسول وهو بالمدينة، فدفعها إليه، فقال له: قُلْ لأمير المؤمنين، كيف رأيت! سعيت فأكْدَيت، وقعدت في منزلي فأتاني رزقي.

عمر بن الخطّاب: تعلّم أنّ الطّمع فقر، وأنّ اليأس غِنَى، ومَن يَئِس من شيء

---

١ ـ البيت لحاتم الطّائيّ، ديوانه: ١٧ (طبع بيروت).

استغنى عنه.

أُهْدِي لرسول الله ﷺ طائران، فأكل أحدهما عشيّة، فلمّا أصبح طلب غداء، فأتته بعض أزواجه بالطّائر الآخر، فقال: «ألم أنهك أن ترفعي شيئًا لغدٍ، فإنّ مَن خَلَق الغَدَ خلق رزقه».

وفي الحديث المرفوع: «قد أفلح مَن رُزِقَ كفافًا وقنعه الله بما آتاه».

من حكمة سليمان عليه السلام: قد جَرّبنا لين العيش وشدّته، فوجدنا أهنأه أدناه.

وهب، في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾[1]، قال: القناعة.

بعض حكماء الشّعراء[2] [الوافر]:

فلا تَجزَعْ إذا أعْسَرْتَ يومًا ... فقد أيْسَرْتَ في الدّهرِ الطّويلِ

ولا تَظنُنْ بربّكَ ظنّ سَوْءٍ ... فإنّ اللهَ أولَى بالجميلِ

وإنّ العُسْرَ يتبعه يَسارٌ ... وقيل اللهِ أصدَقُ كلّ قِيلِ

ولَو أنّ العقولَ تجرُّ رزقًا ... لكان المالُ عند ذوي العقولِ

عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «إن أردتِ اللّحوقَ بي فيكفيك من الدّنيا زاد الرّاكب، ولا تخلقي ثوبًا حتّى ترقّعيه، وإيّاك ومجالسة الأغنياء».

يقال: إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ بمفاتيح خزائن الدّنيا، فقال: «لا حاجة لي فيها، بل جَوْعتان وشَبْعة».

وُجِد مكتوبًا على صخرة عادِيّة[3]: يا بن آدم، لستَ ببالغ أمَلَك، ولا سابق أجَلَك ولا مغلوب على رزقك، ولا مرزوق ما ليس لك، فعلامَ تقتل نفسك!

الحسين بن الضّحّاك [أحذ الكامل]:

---

١ ـ النّحل / ٩٧.

٢ ـ من الأبيات المنسوبة لأمير المؤمنين عليه السّلام، انظر: ديوان الإمام عليّ بن أبي طالب، للدّكتور يوسف فرحات، طبعة دار الكتاب العربيّ، ص ٨٨، الصّبر على الفقر.

٣ ـ عادِيّة، أي قديمة؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة.

يا رَوْحُ مَن عَظُمَتْ قَنَاعتُهُ حَسَمَ المطامِعَ مِن غَدٍ وغَدِ
مَن لم يكن لِلّهِ مُتَّهِمًا لم يُمْسِ محتاجًا إلى أحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أتدري لم رزقتُ الأحمق؟ قال: لا، قال: ليعلم العاقل أنّ طلب الرّزق ليس بالاحتيال.

قَنَط[1] يوسف بن يعقوب عليه السلام في الجُبّ لجوعٍ اعتراه، فأوحى إليه: انظر إلى حائط البئر، فنظر، فانفرج الحائط عن ذَرّة على صخرة، معها طعامها، فقيل له: أتراني لا أغْفُلُ عن هذه الذّرّة، وأغفلُ عنك، وأنت نبيّ ابن نبيّ!

دخل عليّ عليه السلام المسجد، وقال لرجل: أمْسِكْ عَلَيّ بغلتي، فخلع لجامها، وذهب به، فخرج عليّ عليه السلام بعد ما قضى صلاته، وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فوجد البغلة عُطْلًا، فدفع إلى أحد غلمانه الدّرهمَين، ليشتري بهما لجامًا، فصادف الغلام اللّجام المسروق في السُّوق، قد باعه الرّجل بدرهمَين، فأخذه بالدّرهمَين وعاد إلى مولاه، فقال عليّ عليه السلام: «إنّ العبد ليُحْرِم نفسه الرّزق الحلال بترك الصّبر، ولا يزاد على ما قُدِّر له».

سليمان بن المهاجر البَجَليّ [الطّويل]:

كَسَوْتُ جميلَ الصّبر وَجْهِي فَصَانَهُ بهِ الله عن غِشْيانِ كلّ بخيلِ
فلم يَتَبَذّلني البخيل ولم أقمْ على بابهِ يومًا مقامَ ذليلِ
وإنّ قليلًا يَسترُ الوَجْهَ أن يُرَى إلى النّاس مبذولًا لَغيرُ قليلِ

وقف بعض الملوك على سقراط وهو في المشرفة، فقال له: سَلْ حاجتك، قال: حاجتي أن تُزيل عنّي ظلّك، فقد منعتني الرّفق بالشّمس، فأحضر له ذَهَبًا وكسوة ديباج، فقال: إنّه لا حاجة بسقراط إلى حجارة الأرض ولُعاب الدّود، إنّما حاجتُه إلى أمر يصحبه حيثما توجّه.

---

١ ـ قنط قنوطًا: أي يئس.

صلّى معروف الكَرخيّ خلف إمام، فلمّا انفتل سأل ذلك الإمام معروفًا: من أين تأكل؟ قال: اصْبر عليّ حتّى أُعيدَ ما صلّيته خلفك. قال: لأنّ مَن شكّ في الرّزق شكّ في الرّازق، قال الشّاعر[الطّويل]:

ولاتهلكنّ النّفسَ وَجْدًا وحَسْرةً ... على الشّيء أسْدَاه لغيرك[1] قادِرُهْ

ولَاتَيْأسِن من صالحٍ أن تنالهُ ... وإن كان نصًّا بين أيدٍ تُبادِرُهْ

فإنّك لاتعطي امْرأ حظّ نفسهِ ... ولاتمنعَ الشّقَّ الّذي الغيث ناصِرُهْ

قال عمربن الخطّاب لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: قد مللتُ النّاسَ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبَيَّ، فقال: إن سَرَّكَ اللّحوق بهما فقَصِّر أمَلَك، وكُلْ دون الشِّبَع، واخْصِف النّعل[2]، وكُن كميش[3] الإزار، مرقوع القميص، تلحق بهما.

وقال بعض شُعَراء العَجَم [الطّويل]:

غَلَا السِّعْرُ في بغداد من بعد رُخْصِهِ ... وإنّي في الحالَين باللهِ واثقُ

فلستُ أخاف الضّيقَ واللهُ واسعٌ ... غِنَاهُ، ولاالحرمانَ واللهُ رازقُ

قيل لعليّ عليه السلام: لوسُدّ على رجلٍ باب بيت وتُرِك فيه، مِن أين كان يأتيه رزقه؟ قال: من حيث كان يأتيه أجَلُه.

قال بعض الشّعراء [الهزج]:

صَبرْتُ النّفسَ لا أجْـ ... ـزَعُ مِن حادثةِ الدّهرِ

رأيتُ الرّزق لايكسـ ... ـب بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ

ولا بالسّلفِ الأمثـ ... ـلِ أهلِ الفضلِ والذّكرِ

---

١ ـ أ: «سداه لغيرك»؛ أي أعطاه.

٢ ـ خصف النّعل: خرزها بالمخصف.

٣ ـ يقال: كمش إزاره؛ إذ قصّره و شمّره.

ولا بالسُمر[١] اللّدنِ ولا بالخُذُمِ البُتْرِ
ولا بالعقل والدِّين ولا الجاهِ ولا القَدْرِ
ولا يدرك بالطَيشِ ولا الجهلِ ولا الهَذْرِ
ولكن قسَمٌ تجري بما ندري ولا ندري

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العشاء، فلم يجد عندهم ما يتعشّى به، ولا وَجَدَ دُهْنًا للسّراج وهُمْ في الظّلمة، فجلس ليلة يبكي من الفرح، ويقول: بأيّ يدٍ قد كانت منّي، بأيّ طاعةٍ تنعم عليَّ بأن أُترَك على مثل هذه الحال!

لقي هَرِم بن حَيّان أُوَيسًا القَرَنيّ، فقال: السّلام عليك يا أُويس بن عامر! فقال: وعليك السّلام يا هَرِم بن حيّان، فقال هَرِم: أما إنّي عَرَفْتُك بالصِّفة، فكيف عرفتَني؟ قال: إنّ أرواح المؤمنين لتشامّ كما تشامّ الخيل، فيعرف بعضها بعضًا. قال أوصني، قال: عليك بسيف البحر، قال: فمن أين المعاش؟ قال: أُفّ لك! خالَطتِ الشّكّ الموعظة، أتفرّ إلى الله بدينك وتتّهمه في رزقك!

منصور الفقيه [المجتثّ]:

الموتُ أسهَلُ عندي بين القَنَا والأسِنّهْ
والخيلُ تجري سِراعًا مقطّعاتِ الأعِنّهْ
مِن أن يكون لِنَذْلٍ عَلَيّ فَضْلٌ وَمِنّهْ

أعرابيّ [الوافر]

أتيأسُ أن يُقارِنَكَ النّجاحُ فأينَ اللهُ والقَدَرُ المتاحُ[٢]

قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «إيّاك والطّمع، فإنّه فقرٌ حاضرٌ، وعليك

---

١ ـ السّمر: جمع أسمر؛ وهو الرّمح. اللّدن: اللّين؛ والخذم: جمع الخاذم؛ أي القاطع.

٢ ـ المتاح: المهيّأ.

باليأس ممّا في أيدِ النّاس».

حكيم: أحسن الأحوال حالٌ يَغْبِطُك بها مَن دونك، ولا يحقرك لها مَن فوقك.

أبو العلاء المعرّيّ [الطّويل]:

فإن كنتَ تَهْوَى العيشَ فَابْغِ توسُّطًا ... فعند التّناهي يَقْصُر المتطاوِلُ

تـوقَّ البـدورُ الـنّقصَ وَهْـيَ أهلّـةٌ ... ويُدركِها النُّقصان، وَهْيَ كوامِلُ

خالد بن صفوان: كُن أحسن ما تكون في الظّاهر حالًا، أقلّ ما تكون في الباطن مآلًا، فإنّ الكريم مَن كَرُمَتْ عند الحاجة خَلّته[1]، واللّئيم مَن لَؤُمَت عند الفاقة طعمته.

شعر [الطّويل]:

وكَمْ مَلِكٍ جانبتُهُ مِن كراهةٍ ... لإغلاقِ بابٍ أو لتشديدِ حاجبِ

ولي في غِنَى نفسي مُرادٌ ومذهبٌ ... إذا أبهمَتْ دُوني وجوهُ المذاهبِ

بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالمدعو إلى الوليمة، إن أتتْه صحفة تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها. (٣ : ١٥٤ ـ ١٦٤)

**(الخطبة: ١٢٨)... أَنَا كَابُّ الدُّنيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا....**

**الشّرح:** ... وقوله: «أنا كابّ الدّنيا لوجهها»، مثل الكلمات المحكيّة عن عيسى عليه السلام: أنا الّذي كببتُ الدّنيا على وجهها، ليس لي زوجة تموت، ولا بَيْتٌ يخرب، وسادِي الحَجَر، وفِراشي المَدَر، وسراجي القمر. (٨ : ١٢٦)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَاعْلَمْ! يَا بُنَيَّ أَنَّ مَن كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِن كَانَ وَاقِفًا، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِن كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا.**

**وَاعْلَمْ يَقِينًا! أَنَّكَ لَن تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَن تَعْدُو أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَن كَانَ**

---

١ ـ الخلّة: الحاجة.

قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ ....

**الشّرح**: ... قوله: «فخفض في الطّلب» من قول رسول الله ﷺ: «إنّ روح القُدُس نفث في رُوعي أنّه لن تموت نفسٌ حتّى تستكمل رِزقُها، فأجْمِلوا في الطّلب».

وقال الشّاعر[الكامل]:

ما اعتاضَ باذلُ وَجْهِهِ بسُؤالِهِ عِوَضًا ولونَالَ الغِنَى بسُؤالِ
وإذا النّوال إلى السّؤالِ قَرنتَه رجَحَ السُّؤالُ وخَفَّ كلّ نوالِ

وقال آخر[البسيط]:

رددتُ رونقَ وَجْهي عن صَحيفتِهِ ردّ الصّقالِ بهاءَ الصّارمِ الخَذِمِ
وما أبالي وخيرُالقولِ أصدَقهُ حَقَنتَ لي ماء وجهي أم حَقَنتَ دَمِي

وقال آخر[الطّويل]:

وإنّي لأختار الزّهيدَ على الغِنَى وأجزأ بالمالِ القَراحِ عَنِ المحضِ
وأدّرِع الإملاق صَبرًا وقد أرَى مكانَ الغِنَى كي لا أهينَ له عِرْضِي

وقال أبو محمّد اليزيديّ في المأمون [الكامل]:

أبقى لنا اللهُ الإمامَ وزادَهُ شَرَفًا إلى الشَّرَفِ الّذي أعطاهُ
واللهُ أكرَمنا بأنّا معشرٌ عُتَقاء من نِعَم العِبَاد سِواهُ

وقال آخر[البسيط]:

كيفَ النّهوضُ بما أوْلَيْتَ من حَسَنٍ أم كيف أشكرُ ما طوّقْت مِن نِعَمِ!
مَلّكْتَني ماء وجهٍ كاد يَسْكُبُهُ ذلّ السّؤالِ ولم تفجعْ بهِ هِمَمِي

وقال آخر[الكامل]:

لا تحرصنّ على الحُطامِ فإنّما يأتيكَ رِزْقُكَ حِينَ يؤذَنُ فيهِ
سَبَقَ القضاءُ بقدرِهِ وزمَانِه وبأنّهُ يأتيكَ أو يأتيهِ

**وكان يقال:** ما استغنى أحدٌ بالله إلّا افتقر النّاس إليه.

وقال رجلٌ في مجلس فيه قومٌ من أهل العلم: لا أدري ما يحمل مَن يُوقِنُ بالقَدَر على الحِرْص على طلب الرّزق! فقال له أحد الحاضرين: يحمله القَدَر، فسكت.

**أقول:** لوكنتُ حاضرًا لقُلْتُ: لوحمله القَدَر لما نهاه العُقَلاء عن الحِرْص، ولما مَدَحوه على العفّة والقناعة فإن عاد وقال: وأُولئك ألجأهم القَدَر إلى المدح والذّمّ والأمر والنّهي، فقد جعل نفسه وغيره من النّاس، بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات الّتي يحرّكها غيرها ومَن بلغ إلى هذا الحدّ لا يكلّم.

وقال الشّاعر[الوافر]:

أراكَ تَزيدُكَ الأيّامُ حِرْصًا ... على الدّنيا كأنّكَ لاتموتُ

فهل لكَ غايةٌ إن صِرْتَ يومًا ... إليها، قلتَ حسبي قد رضيتُ!

أبو العتاهيّة [الخفيف]:

أيّ عيش يكون أطْيَبُ من عَيـ ... ـشٍ كفافٍ قُوتٍ بقدرِ البلاغِ

قمرتْنيَ الأيّام عَقْلي ومالي ... وشبابي وصحّتي وفَراغي

وأوصى بعض الأُدباء ابنَه، فكتب إليه [الرّجز]:

كُن حَسَنَ الظّنّ بربٍّ خَلَقَكْ ... بُنَيّ وأحمِدْهُ على ما رَزَقَكْ

واعلم بأنّ الحِرْصَ يطفي رونَقَكْ ... فجانِبِ الحِرْصَ وحَسِّنْ خُلُقَكْ

واصْدُقْ وصادِقْ أبدًا مَن صَدَقَكْ ... دارِ مُعادِيكَ ومُقْ مَن وَمقَكْ

واجْعَلْ لأعدائكَ حزمًا مَلَقَكْ ... وجنّبن حَشْو الكلامِ مَنطِقَكْ

هذى وَصاة والدٍ قد عَشَقَكْ ... وصاةُ مَن يُقْلِقهُ ما أقْلَقَكْ

*أرشدك الله لها ووفّقكْ*

أبو العتاهيّة [الكامل]:

أجَلُ الغِنَى ممّا يُؤمَّلُ أسرعُ ... وأراك تجمَعُ دائمًا لاتَشْبَعُ

قل لي لمن أصبحتَ تجمعُ دائبًا أ لِبَعْلِ عِرْسِك لا أبا لكَ تَجْمَعُ!

وأوصى زياد ابنَه عُبَيد الله عند موته، فقال: لا تدنّسن عِرْضَك، ولا تبذلنّ وجهك، ولا تخلقن جدّتك بالطّلب إلى مَن إن ردّك كان ردّه عليك عيبًا، وإن قضى حاجتك جَعَلَها عليك مَنًّا، واحتَمِل الفقر بالتّنزّه عمّا في أيدي النّاس، والْزَم القناعة بما قُسِم لك، فإنّ سوء عمل الفقير يَضَعُ الشّريف، ويخْمِل الذِّكْر، ويوجب الحِرْمان.
(١٦: ٩٤ ـ ٩٦)

**(الحكمة: ٥٤): اَلْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنفَدُ.**

**الشّرح:** قد ذكرنا نُكَتًا جليلةَ المَوْقع في القناعة فيما تقدّم؛ ونذكر هاهنا زيادة على ذلك.

فمن كلام الحكماء: قاوِم الفقرَ بالقناعة، وقاهِرِ الغِنَى بالتّعفّف، وطاوِلْ عَناءَ الحاسد بحُسْن الصُّنع، وغالِبِ الموتَ بالذِّكر الجميل.

وكان يقال: النّاسُ رجلانِ واجِدٌ لا يكتفي، وطالبٌ لا يجد، أخذه الشّاعر فقال[الطّويل]:

وما النّاس إلّا واجدٌ غيرَ قانعٍ بأرزاقهِ أو طالبٌ غيرَ واجِدِ

قال رجل لبُقْراط[1]، ورآه يأكل العُشْب: لو خدمتَ المَلِك لم تحتج إلى أن تأكل الحَشيش، فقال له: وأنت إن أكلتَ الحشيش لم تحتج أن تخدم المَلِك! (١٨ : ١٩٢)

**(الحكمة:٢٢٥): الأصل: كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكًا، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيمًا.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذين، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق.

وكان يقال: يستحقّ الإنسانيّة مَن حَسُن خُلُقه، ويكاد السّيّئُ الخُلُق يعدّ

---

١ ـ أ، ب: «سقراط».

مِن السِّباع.

وقال بعض الحكماء: حدّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية. والزّهد: الاقتصار على الزَّهيد. أي القليل، وهما متقاربان، وفي الأغلب إنّما الزّهد هو رَفْض الأُمور الدّنيويّة مع القدرة عليها. وأمّا القناعة فهي إلزام النّفس الصّبر، عن المشتَهَيات الّتي لا يقدر عليها، وكلّ زُهْدٍ حَصَل عن قناعة فهو تزهّد، وليس بزُهْدٍ، وكذلك قال بعض الصّوفيّة: القناعة أوّل الزّهد، تنبيهًا على أنّ الإنسان يحتاج أوّلًا إلى قَدْع نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسْهُل عليه تعاطي الزّهد، والقناعة الّتي هي الغِنَى بالحقيقة، لأنّ النّاس كلّهم فُقَراء من وجهَين:

**أحدهما:** لافتقارهم إلى الله تعالى، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]

**والثّاني:** لكثرة حاجاتهم فأغناهم لا محالة أقلّهم حاجة، ومَن سدّ مَفاقِره بالمُقْتَنَيات فما في انسدادها مطمَع، وهو كمن يَرقَع الخَرْق بالخَرْق، ومَن يسدّها بالاستغناء عنها بقدر وُسْعه والاقتصار على تناول ضروريّاته فهو الغنيّ المقرّب من الله سبحانه، كما أشار إليه في قصّة طالوت: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[2]، قال أصحاب المعاني والباطن: هذا إشارة إلى الدّنيا. (١٩ : ٥٤)

**(الحكمة: ٢٢٦) الأصل: وسُئِلَ عليه السلام عَن الله عزّوجلّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾[3]، فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ.**

**الشّرح:** لا ريب أنّ الحياة الطّيّبة هي حياة الغِنَى، وقد بيّنّا أنّ الغَنِيَّ هو القَنُوع،

---

١ ـ فاطر / ١٥ .

٢ ـ البقرة / ٢٤٩ .

٣ ـ النّحل / ٩٧ .

لأنّه إذا كان الغِنَى عدم الحاجة فأغنَى النّاس أقلّهم حاجةً إلى النّاس، ولذلك كان الله تعالى أغْنَى الأغنياء، لأنّه لا حاجة به إلى شيء، وعلى هذا دلّ النّبيُّ بقوله ﷺ: «ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس».

وقال الشّاعر[المتقارب]:

فَمن أشْرِبَ اليأسَ كان الغَنِيَّ ومَن أشْرِبَ الحِرْصَ كان الفَقيرَا

وقال الشّاعر[الطّويل]:

غِنَى النَّفْسِ ما يَكفيكَ مِن سَدِّ خَلّةٍ فإن زادَ شيئًا عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرَا

وقال بعض الحكماء: المخيّربين أن يستغنيَ عن الدّنيا وبين أن يستغنيَ بالدّنيا كالمخيّربين أن يكون مالكًا أو مملوكًا.

ولهذا قال عليه السلام: «تَعِسَ عَبْدُ الدّينار والدّرهم، تَعِسَ فلا انتَعَش، وشيكَ فلا انتقش»[1].

وقيل لحكيم: لِمَ لا تَغْتَمّ؟ قال: لأنّي لم أتّخذ ما، يَغُمّني فَقْدُه.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

فَمَن سَرَّه ألّا يرى ما يَسُوءُه فلا يتّخِذْ شيئًا يخاف له فَقْدَا

وقال أصحاب هذا الشّأن: القَناعة من وجهٍ صبرٌ، وَمِن وَجْهٍ جُودٌ، لأنّ الجود ضَرْبان: جودٌ بما في يدك منتزعًا، وجودٌ عمّا في يدِ غيرك متورّعًا، وذلك أشرفهما، ولا يحصل الزّهد في الحقيقة إلّا لمن يعرف الدّنيا ما هي، ويعرف عيوبَها وآفاتها، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها، ولابدّ في ذلك من العلم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُوحَظٍّ عَظِيمٍ* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقّٰهَا

---

١ ـ ب : «شبك» تحريف ، قال ابن الأثير: أي إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها، و به سُمّي المنقاش الّذي ينقش به » .

﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[١].

ولأنّ الزّاهد في الدّنيا راغب في الآخرة وهو يبيعها بها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

والكَيّس لا يبيع عينًا بأثر، إلّا إذا عَرَفَهما وعَرَف فضل ما يَبتاعُ على ما يَبيع.

(١٩ : ٥٥ ـ ٥٦)

(الحكمة: ٢٧٩) قَالَ عليه السلام: اعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينًا! أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ ـ وَإِن عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ ـ أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أَن يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَالْعَارِفُ لِهَذَا الْعَامِلُ بِهِ، أَعْظَمُ النَّاسِ رَحْمَةً فِي مَنفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ الشَّاكُّ فِيهِ، أَعْظَمُ النَّاسِ شُغْلًا فِي مَضَرَّةٍ.

وَرُبَّ مُنعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى، وَرُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى. فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِن عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِندَ مُنتَهَى رِزْقِكَ.

الشّرح: قد تقدّم القول في الحرص والجشع وذمّهما وذمّ الكادح في طلب الرّزق، ومدح القناعة والاقتصار، ونذكر هنا طَرَفًا آخر من ذلك.

قال بعض الحكماء: وجدتُ أطول النّاس غمًّا الحَسود، وأهنأهم عَيْشًا القَنُوع، وأصبرهم على الأذى الحريص، وأخفضهم عَيْشًا أرفضهم للدّنيا، وأعظمهم ندامةً العالم المُفرِط.

وقال عمر: الطّمع فقر، واليأس غِنًى، ومَن يئس ممّا عند النّاس استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى؟ قال: قلّة تمنّيك، ورضاك بما يَكْفيك. ولذلك قيل:

---

١ ـ القصص / ٧٩ ـ ٨٠.

٢ ـ التّوبة / ١١١.

العيش ساعات تمرّ، وخُطوب تَكُرّ.

وقال الشّاعر[مجزوء الكامل]:

اقْنَعْ بعَيْشِكَ تَرْضَهُ ... واتْرُكْ هواكَ وأنتَ حُرُّ

فلرُبّ حَتْفٍ فَوقَهُ ... ذَهَبٌ ويـاقوتٌ ودُرُّ

وقال آخر[البسيط]:

إلى متى أنا في حِلٍّ وتَرحالِ ... من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ

ونازحُ الدّارِ لا أنفَكُّ مُغْتَرِبًا ... عن الأحبّةِ لايدرونَ ما حالي

بمشرقِ الأرضِ طَوْرًا ثمّ مغربها ... لايخطر الموتُ مِن حِرْصٍ على

ولو قَنِعْتُ أتاني الرّزقُ في دَعَةٍ ... إنّ القُنُوع الغِنَى لا كثرةُ المالِ

وجاء في الخبر المرفوع: «أجملوا في الطّلب، فإنّه ليس لعبدٍ إلّا ما كُتِب له، ولن يخرج عبدٌ من الدّنيا حتّى يأتيه ما كُتِب له في الدّنيا وهي راغمة». (١٩ : ١٦٢ ـ ١٦٣)

**(الحكمة: ٢٩٥) الأصل: كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَانَ خَارِجًا مِن سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتًا. فَإِن قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا، فَإِن جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَابٍ وَصِلُّ وَادٍ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِيًا، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا، عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا عِندَ بُرْئِهِ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ، وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى أَن يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنهُ عَلَى أَن يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ، نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى، فَخَالَفَهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ فَالْزَمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا، فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِن تَرْكِ الْكَثِيرِ.**

**الشّرح**: قد اختلف النّاس في المعنى بهذا الكلام، ومن هو هذا الأخ المشار إليه؟ فقال قوم: هو رسول الله ﷺ، واستبعده قوم لقوله: «وكان ضعيفًا مستضعفًا»، فإنّ النّبيّ ﷺ لا يقال في صفاته مثل هذه الكلمة، وإن أمكن تأويلها على لين كلامه وسماحة أخلاقه إلّا أنّها غير لائقة به عليه السلام.

وقال قوم: هو أبو ذَرّ الغِفاريّ، واستبعده قوم لقوله: «فإن جاء الجدّ فهو ليث عادٍ، وصِلّ وادٍ»، فإنّ أبا ذرّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة، والمعروفين بالبَسالة.

وقال قوم: هو المِقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود، وكان من شيعة عليّ عليه السلام المخلِصين، وكان شجاعًا مجاهدًا حسن الطّريقة، وقد ورد في فضله حديث صحيح مرفوع.

وقال قوم: إنّه ليس بإشارة إلى أخ معيّن، ولكنّه كلامٌ خارجٌ مخرَج المثَل، وعادة العرب جارية بمثل ذلك، مثل قولهم في الشِّعر: فقلت لصاحبي. ويا صاحبي. وهذا عندي أقوى الوجوه.

## [نبذ من الأقوال الحكميّة في مدح القناعة وقلّة الأكل]

وقد مضى القول في صِغَر الدّنيا في عين أهل التّحقيق، فأمّا سلطان البطن ومَدح الإنسان بأنّه لا يكثر من الأكل إذا وجد أكلًا، ولا يشتهي من الأكل ما لا يجده، فقد قال النّاس فيه فأكثروا. قال أعشى باهلة يرثي المنتشر بن وَهْب [البسيط]:

طاوِي المَصيرِ على العَزّاءِ مُنصَلِتٌ ... بالقومِ ليلةَ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

تَكفيهِ فِلْذةُ لحمٍ إن ألَمَّ بها ... مِنَ الشِّواءِ ويَروِي شُرْبَهُ الغَمَرُ

ولا يُباري لِمَا في القِدْر يَرْقُبُهُ ... ولا تَراهُ أمامَ القومِ يفتقِرُ

لا يَغْمِزُ السّاقَ مِن أينٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وقال السَّنْفَريّ [الطّويل]:

وأطْوِي على الخُمصِ الحَوايا كما انطَوَتْ خُيوطةُ ماريَ تُغارُ وتُفْتَلُ
وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزّادِ لم أكنْ بأعجلِهم إذ أجشَعُ القوم أعجَلُ
وما ذاك إلّا بَسْطةٌ عن تفضُّلٍ عَلَيهم وكان الأفضلَ المتفضَّلُ

وقال بعضهم لابنه: يا بُنيّ عَوِّد نفسك الأثَرَة، ومجاهَدةَ الهوى والشّهوة، ولاتَنهَش نَهْشَ السِباع، ولاتَقْضِم قَضْمَ البراذين، ولاتُدمِن الأكلَ إدمان النِّعاج، ولاتَلقَمْ لُقَمَ الجِمال، إنّ الله جعلك إنسانًا، فلا تجعل نفسك بَهيمةً ولاسَبُعًا، واحْذَرْ سُرعة الكِظّة، وداء البِطْنة، فقد قال الحكيم: إذا كنت بَطِنًا فعُدّ نفسك من الزَّمْنَى[1].
وقال الأعشى [الخفيف]:

... والبِطْـ ـنَةُ يومًا تُسفِّه الأحْلامَا

واعلم! أنّ الشِّبَع داعيةُ البَشَم، والبَشَم داعية السَّقَم، والسَّقَم داعية الموت، ومَن مات هذه الميتة، فقد مات موتةً لئيمةً، وهو مع هذا قاتلُ نفسه، وقاتِلُ نفسه ألْوَم مِن قاتِلِ غيره.

يا بُنيّ، والله ما أدّى حقّ السّجود والرّكوع ذو كِظّةٍ، ولا خشع لله ذو بِطْنةٍ، والصّوم مصحّة، ولربمّا طالت أعمارُ الهِنْد، وصحّت أبدانُ العرب، ولله دَرُّ الحارث بن كَلَدة حيث زعم أنّ الدّواء هو الأزْم، وأنّ الدّاء إدخال الطّعام في أثر الطّعام،

يا بُنيّ، لم صَفَتْ أذهان الأعراب، وصحّت أذهان الرُّهْبان مع طول الإقامة في الصّوامع، حتّى لم تعرف وجع المفاصل، ولاالأورام، إلّا لقلّة الرّزء، ووقاحة الأكْل، وكيف لاترغب في تدبير يجمع لك بين صحّة البدن وذكاء الذّهن وصلاح المعاد والقرب وعَيْش الملائكة.

يا بُنيّ، لم صار الضّبّ أطول شيء ذَماءً إلّا لأنّه يتبلّغ بالنّسيم. ولم زَعَم رسول الله ﷺ أنّ الصّوم وِجاء إلّا ليجعله حجابًا دون الشّهوات! فافْهم تأديب الله ورسوله،

---

١ ـ الزَّمنى: المرضى عن كبر وهرم.

فإنّهما لا يَقْصدان إلّا مثلك.

يا بُنيّ، إنّي قد بلغتُ تسعين عامًا ما نَقَص لي سِنّ، ولا انتَشَر لي عَصَب، ولا عرفتُ دِنينَ أنف، ولا سَيَلان عَيْن، ولا تقطير بَوْل، ما لذلك علّة إلّا التّخفيف من الزّاد، فإن كنتَ تحبّ الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تريدُ الموت فلا يبعد الله إلّا مَن ظَلَم.

وكان يقال: البِطْنة تذهِب الفِطْنة.

وقال عمرو بن العاص لأصحابه يوم حَكَم الحَكَمان: أكْثِروا لأبي موسى من الطّعام الطّيّب فوالله ما بُطِنَ قومٌ قطّ إلّا فَقَدوا عقولهم أو بعضها، وما مضى عزمُ رجلٍ بات بَطينًا.

وكان يقال: أقْلِل طعامًا تحمَد مَنامًا.

ودعا عبد الملك بن مروان رجلًا إلى الغداء، فقال: ما فيّ فضْل؛ فقال: إنّي أُحبّ الرّجل يأكل حتّى لا يكون فيه فضل. فقال: يا أمير المؤمنين، عندي مُسْتَزاد، ولكنّي أكره أن أصير إلى الحال الّتي استقبحها أمير المؤمنين.

وكان يقال: مسكينٌ ابن آدم، أسيرُ الجُوع، صَريع الشَّبَع.

وسأل عبد الملك أبا الزُّعَيرعة، فقال: هل أُتخِمتَ قطّ؟ قال: لا ، قال: وكيف؟ قال: لأنّا إذا طَبَخْنا أنضَجْنا، وإذا مَضَغْنا دقّقنا، ولا نُكِظّ المعدة ولا نُخْليها.

وكان يقال: من المُروءة أن يترك الإنسان الطّعام وهو بعد يشتهيه. وقال الشّاعر [الطّويل]:

فإنّ قِرابَ البطن يَكفيكَ مَلؤُهُ ويَكفيكَ سَوْءاتِ الأمورِ اجتنابُها

وقال عبد الرّحمان ابن أخي الأصمعيّ: كان عمّي يقول لي: لا تخرج يا بُنيّ من منزلك حتّى تأخذ حِلْمك، يعني تتغدّى، فإذا أخذت حِلْمَك فلا تزدد إليه حِلْمًا، فإنّ الكثرة تئول إلى قلّة. وفي الحديث المرفوع: ما ملأ ابن آدم وعاءً شَرًّا من بَطْن، بحَسْب الرّجل من طعمه ما أقام صُلْبه، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلُث طعام، وثُلُث شراب،

وثُلُث نَفَس.

وروى حُذَيفة عن النّبيّ ﷺ: «مَن قَلّ طعمُه، صَحّ بطنُه، وصفا قلبُه، ومَن كَثُر طعمُه، سَقُم بطنُه وقسا قلبُه»، وعنه ﷺ: «لاتُميتوا القلوب بكثرة الطّعام والشّراب، فإنّ القلب يموت بهما، كالزّرع يموت إذا أكثر عليه الماء».

وروى عَوْن بن أبي جُحَيفة عن أبيه قال: أكلتُ يومًا ثَريدًا ولحمًا سمينًا، ثمّ أتيتُ رسول الله وأنا أتجشّأ، فقال: احبِس جَشَأك أبا جُحَيفة، إنّ أكثركم شِبَعًا في الدّنيا أكثركم جوعًا في الآخرة، قال: فما أكل أبو جُحَيفة بعدها مِلْء بطنه إلى أن قبضه الله. وأكل عليّ عليه السلام قليلًا مِن تمرٍ دَقَل، وشرب عليه ماء، وأمَرّيده على بطنه، وقال: مَن أدخله بطنه النّار فأبعده الله، ثمّ تمثّل [الطّويل]:

فإنّك مَهْما تُعْطِ بطنَك سُؤْلَهُ وفَرْجَك نالا مُنتَهى الذّمّ أجمَعَا

وكان عليه السلام يفطر في رمضان الّذي قُتِل فيه عند الحسن ليلةً، وعند الحسين ليلةً، وعند عبد الله بن جعفر ليلةً، لا يزيد على اللّقمتَين أو الثّلاث، فيقال له، فيقول: إنّما هي ليالٍ قلائل، حتّى يأتي أمر الله وأنا خميص البطن، فضربه ابن مُلْجَم لعنه الله، تلك اللّيلة.

وقال الحسن: لقد أدركتُ أقوامًا ما يأكل أحدهم إلّا في ناحية بَطْنِه، ما شَبِع رجلٌ منهم من طعام حتّى فارق الدّنيا، كان يأكل، فإذا قارب الشِّبَع أمسك. وأنشد المبرّد [الطّويل]:

فإنّ امتلاء البَطْن في حَسَب الفَتَى قليلُ الغناء وهو في الجسم صالح

وقال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل، لا تُكْثِروا الأكل، فإنّه مَن أكثر مِن الأكل أكثر من النّوم، ومَن أكثر النّوم أقلّ الصّلاة، ومن أقلّ الصّلاة كُتِب من الغافلين.

وقيل ليوسف عليه السلام: ما لك لاتشبع وفي يديك خزائن مصر؟ قال: إنّي إذا شَبِعتُ نَسيتُ الجائعين. وقال الشّاعر [البسيط]:

وأكلةٍ أوْقعتْ في الهُلْكِ صاحِبَها كحَبّةِ القَمْح دَقّتْ عُنقَ عُصْفورِ

لَكِسْرةٌ بجَرِيشِ المِلْحِ آكلُها ألذّ من تمرةٍ تُحشَى بزُنبورِ

ووُصِف لسابورَ ذي الأكتاف رجلٌ مِن اضطَخر للقضاء، فاستقدمه، فدعاه إلى الطّعام، فأخذ المَلِك دَجاجةً من بين يديه فنصَّفَها، وجعل نصفها بين يدي ذلك الرّجل، فأتَى عليه قبل أن يفرغ المَلِك من أكْل النّصف الآخر، فصَرَفه إلى بلده، وقال: إنّ سَلَفنا كانوا يقولون: مَن شَرِهٍ إلى طعام المَلِك كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه.

قيل لسُمَيرة بن حبيب: إنّ ابنك أكل طعامًا فأُتخم، وكاد يموت، فقال: والله لومات منه ما صلّيت عليه.

أنس يرفعه: إنّ مِن السَّرَف أن تأكل كلّ ما اشتهيت.

دخل عمر على عاصم ابنه وهو يأكل لحمًا، فقال: ما هذا؟ قال: قَرِمْنا إليه؟ قال: أوكُلّما قَرِمْت إلى اللّحم أكَلْته! كفى بالمرء شَرَهًا أن يأكل كلّ ما يشتهي.

أبو سعيد يرفعه: استعينوا بالله من الرُّغب. قالوا: هو الشَّرَه، ويقال: الرُّغب شُؤْم.

أنس يرفعه: أصل كلّ داء البردة. قالوا: هي التُّخَمَة.

وقال أبو دُرَيد: العرب تُعيّر بكثرة الأكل، وأنشد [الرّجز]:

لستُ بأكّالٍ كأكلِ العَبْدِ ولا بنوّامٍ كنومِ الفَهْدِ

وقال الشّاعر[الطّويل]:

إذا لم أزُرْ إلّا لآكُلَ أكْلةً فلا رَفعتْ كَفّي إليّ طعامِي

فما أكلةٌ إن نِلْتُها بغنيمةٍ ولا جَوْعة إن جُعْتُها بغَرامِ

ابن عبّاس: كان رسول الله ﷺ يبيت طاويًا ليالي ما له ولأهله عَشاء، وكان عامّة طعامه الشّعير.

وقالت عائشة: والّذي بعث محمّدًا بالحقّ ما كان لنا مُنخُل، ولاأكل رسول الله ﷺ خُبْزًا مَنخُولًا منذ بعثه الله إلى أن قُبِض. قالوا: فكيف كنتم تأكلون دقيق الشّعير؟ قالت: كنّا نقول: أُفٍّ أُفٍّ.

أنس: ما أكل رسول الله ﷺ رَغيفًا مُحَوَّرًا إلى أن لَقِي ربّه عَزَّوجَلَّ.

أبو هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيّام متوالية من خُبز حِنطة حتّى فارق الدّنيا.

وروى مَسروق، قال: دخلتُ على عائشة وهي تبكي، فقلت: ما يبكيكِ؟ قالت: ما أشاء أن أبكي إلّا بَكَيْتُ، مات رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز البُرّ في يوم مرّتَين، ثمّ انهارَت علينا الدّنيا. حاتم الطّائيّ [الطّويل]:

وإنّي لأستحيي صِحابَيَ أن يَرَوْا ... مكانَ يَدِي من جانبِ الزّادِ أقْرَعَا
أقصِّرُ كَفِّي أن تنالَ أكُفَّهُمْ ... إذا نحن أهْوَيْنا وحاجاتنا معَا
أبِيتُ خَمِيصَ البطنِ مُضْطَمِرَ الحَشَا ... حياءً أخاف الضَّيْمَ أن أتَضَلّعَا
فإنّكَ إن أعطيتَ نفسكَ سُؤْلها ... وفَرْجكَ نالا مُنتَهى الذّمِّ أجمعَا

فأمّا قوله عليه السلام: «كان لا يتشهّى، ما لا يجد»؛ فإنّه قد نهى أن يتشهّى الإنسان ما لا يجد، وقالوا: إنّه دليل على سقوط المروءة.

وقال الأحنف: جنّبوا مجالسنا ذكر تشهّي الأطعمة وحديث النّكاح.

وقال الجاحظ: جلَسنا في دارٍ فجعلنا نتشهّى الأطعمة، فقال واحد: وأنا أشتهي سِكْباجًا كثيرة الزّعفران. وقال آخر: أنا أشتهي طَبَاهجة ناشِفة، وقال آخر: أنا أشتهي هَريسة كثيرة الدّارصينيّ، وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئر الدّار، فضربَتِ الحائط، وقالت: أنا حامل، فأعطوني مِلْء هذه الغَضَارة من طبيخكم، فقال ثُمامة: جارتُنا تشمّ رائحة الأمانيّ. (١٩ : ١٨٤ ـ ١٩٠)

**(الخطبة: ٢١٥) الأصل: ومن كلام له عليه السلام يحثّ فيه أصحابه على الجهاد:**

**وَاللهُ مُسْتأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمارٍ مَمْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «واطْوُوا فضولَ الخواصر»، نَهيٌ عن كثرة الأكل، لأنّ الكثير الأكل لا يطوي فضول خواصره لامتلائها، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوي

بعضها. قال الشّاعر[الوافر]:

كُلوا في بعض بَطْنِكُمُ وعفُّوا فإنّ زمانكمْ زَمَنٌ خميصُ

وقال أعشى بأهله [البسيط]:

طاوِي المَصيرِ على العزّاءِ مُنصَلتٌ بالقومِ ليلة لا ماءٌ ولاشَجَرُ[1]

وقال السّنفَرى [الطّويل]:

وأطْوِي على الخُمْص الحَوايَا كما انطوتْ خُيوطَةُ ماريّ تُغارُ وتفتَلُ[2]

(١١ : ١٤٢ ـ ١٤٣)

**(الحكمة: ٤٠٣): قال عليه السلام: كُلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كَافٍ.**

**الشّرح:** هذا من باب القناعة، وإنّ مَن اقتصر على شيء، وقَنَعتْ به نفسُه فقد كفاه، وقام مقام الفضول الّتي يرغب فيها المـترَفون، وقد تقدّم القول في ذلك .

(١٩ : ٣٦١)

**(الحكمة: ٤٨٠) وقَالَ عليه السلام: الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنفَدُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذا المعنى، وقد تكرّرت هذه اللّفظة بذاتها في كلامه عليه السلام.

ومِن جيّد القول في القناعة؛ قول الغَزّيّ [الرّمل]:

أنا كالثُّعْبانِ جِلْدِي مَلْبَسي لستُ محتاجًا إلى ثَوْبِ الجمالِ

فالخُمول العِزّ واليأس الغِنَى والقُنوعُ المُلْك، هذا ما بدا لي

---

١ ـ الكامل للمبرّد ٤ : ٦٥ ، قال في شرحه : «طاوي المصير»، يقال لواحد المصران: مصير. والعزّاء: الأمر الشّديد، يقال: سيف منصلت وصلت؛ إذا جرّد من غمده .

٢ ـ من لاميته ؛ و هي في نوادر القالي : ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

وقال أيضًا [البسيط]:

لاتعجبنّ لمن يهوَى ويَصعَد في دنياه فالخَلْقُ في أرجوحةِ القَدَرِ
واقْنَعْ بما قلّ فالأوشالُ صافيةٌ ولجّةُ البحرِ لاتخلومن الكَدَرِ

(٢٠ : ٢٤٤)

## الفصل السّابع والعشرون: [في العَفْو والحِلْم]

**(كتابه عليه السلام: ٢٣) الأصل: ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصيّة لما ضربه ابن ملجَم لعنه الله:**

**وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ!**

**أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾** [1].

الشّرح: ... ثمّ ذكر أنّه إن بقي ولم يمت من هذه الضّربة فهو وليّ دمه إن شاء عَفَا، وإن شاء اقتصّ، وإن لم يَبْق فالفناء الموعد الّذي لا بدّ منه.

ثمّ عاد فقال: وإن أعف، والتّقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلّمين. والمعنى منه مفهوم، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضّربة أولا أسلم، فإن سلمتُ منها فأنا وليّ دمي، إن شئتُ عفوتُ فلم أقتصّ، وإن شئت اقتصصتُ، ولا يعني بالقصاص هاهنا القتل، بل ضربةً بضربةٍ، فإن سَرَتْ إلى النّفس كانت السّراية مُهْدَرة كقطع اليد.

ثمّ أومأ إلى أنّه إن سلم عَفَا بقوله: «إنّ العفو لي إن عفوت قربة».

ثمّ عُدنا إلى القسم الثّاني من القسمَين الأوّلين، وهو أنّه عليه السلام لا يسلم من هذه، فولاية الدّم إلى الوَرَثة، إن شاؤوا اقتصّوا وإن شاؤوا عَفَوْا.

ثمّ أومأ إلى أنّ العفو منهم أحسن، بقوله: «وهو لكم حسنة»، بل أمرهم أمرًا صريحًا بالعفو، فقال: فاعفوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ [2]. وهذا لفظ الكتاب العزيز، وينبغي أن يكون أمره بالعفو في هذا الكلام محمولًا على النّدب.

(١٥ : ١٤٤ ـ ١٤٥)

---

١ ـ النّور/ ٢٢ .

٢ ـ النّور/٢٢ .

(الحكمة ١١): إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ، فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

الشّرح: قد أخذتُ أنا هذا المعنى، فقلتُ في قطعةٍ لي [البسيط]:

إنّ الأمـانيّ أكسـابُ الجهـولِ فـلا ... تقنعْ بها وارْكبِ الأهوالَ والخَطَرا

واجعلْ من العقلِ جهلًا واطّرِح نَظَرًا ... في الموبقـاتِ ولا تستَشْعِرِ الحَـذَرا

وإن قـدرتَ عـلى الأعـداءِ مُنتصِـرًا ... فاشكرْ بعفوكَ عن أعدائكَ الظَّفَرا

وقد تقدّم لنا كلام طويل في الحِلْم والصّفح والعفو.

ونحن نذكرهاهنا زيادة على ذلك: شَجَربين أبي مسلم وبين صاحب مَرْو كلامٌ أرْبَى فيه صاحب مَرْو عليه، وأغلظ له في القول، فاحتمله أبو مسلم، وندم صاحب مَرْو، وقام بين يدي أبي مسلم معتذرًا، وكان قال له في جملة ما قال يا لَقِيط! فقال أبو مسلم: مَهْ! لسان سبقَ، ووهم أخطأ، والغضب شيطان، وأنا جَرَأْتُك عليّ باحتمالك قديمًا، فإن كنت للذّنب معتذرًا، فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوبًا فالعفو يَسَعُك. فقال صاحب مَرْو: أيّها الأمير، إنّ عظَم ذنبي يمنعني من الهُدوء، فقال أبو مسلم: يا عجبًا! أقابلك بإحسان، وأنت مسيء، ثمّ أقابلك بإساءة وأنت محسن! فقال: الآن وثقت بعفوك.

وأذنب بعض كُتّاب المأمون ذنبًا، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه، فقال: يا هذا، قِفْ مَكانَك، فإنّما هو عُذْر أو يمين، فقد وهبتهما لك، وقد تكرّر منك ذلك، فلا تزال تسيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتّى يكون العفو هو الّذي يصلحك!

**وكان يقال:** أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام.

**وكان يقال:** ظَفَر الكريم عفو، وعفو[1] اللّئيم عقوبة.

**وكان يقال:** رُبّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع.

---

١ ـ من د: «وظفر».

**وكان يقال:** ما عفا عن الذَّنب مَن قَرَع به.

ومن الحلم الّذي يتضمّن كِبرًا مستحسنًا، ما روي أنّ مُصْعب بن الزّبير لمـا ولي العراق عرض النّاس ليدفع إليهم أرزاقهم، فنادى مناديه: أين عمروبن جُرْموز؟ فقيل له: أيّها الأمير، إنّه أبعد في الأرض، قال: أَوَ ظنّ الأحمق أنّي أقتله بأبي عبد الله! قولوا له: فليظهر آمنًا، وليأخذ عطاءه مسلَّمًا.

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال الرّجل: ويلي عليه! والله ما منعه من جوابي إلّا هواني عنده!

وقال لَقيط بن زُرارة [الطّويل]:

فقل لبني سَعْدٍ وما لي وما لكم ... ترقّون منّي ما استطعتمْ وأعتقُ
أغرُّكم أنّي بأحْسنِ شيمةٍ ... بصيروأنّي بالفواحشِ أخرقُ!
وأنّكَ قد سابيتَني فقهرتني ... هنيئًا مَريئًا أنتَ بالفُحْشِ أحذقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهديّ لمـا ظفر به: إنّي قد شاورت في أمرك، فأُشير عليَّ بقتلك، إلّا أنّي وجدتُ قَدْرَك فوق ذَنبك، فكرهتُ قتلكَ للازم حُرْمتك. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنّ المشير أشار بما تقتضيه السّياسة، وتوجيه العادة، إلّا أنّك أبيت أن تطلب النّصر إلّا من حيث عُوِّدته من العفو، فإن قتلتَ فلك نُظَراء، وإن عَفَوْتَ فلا نظير لك. قال: قد عفوت، فاذهب آمنًا.

ضلّ الأعشى في طريقه، فأصبح بأبيات علقمة بن عُلَاثة، فقال قائده، وقد نظر إلى قباب الأدم: وا سوء صباحاه يا أبا بصير! هذه والله أبيات علقمة، فخرج فِتْيان الحيّ، فقبضوا على الأعشى، فأتوا به علقمه فمثَّل بين يديه، فقال: الحمد لله الّذي أظفرني بك من غير ذمّة ولا عَقْد، قال الأعشى: أو تدري لمَ ذلك جُعِلت فِداك! قال: نعم، لأنتقم اليوم منك بتقوالك عليَّ الباطل مع إحساني إليك، قال: لا والله، ولكن أظفرك الله بي ليبلُوَ قَدْر حِلْمك فيّ. فأطرق علقمة، فاندفع الأعشى، فقال [المتقارب]:

أعلَقَـمُ قـد صَـيَّرتْنِي الأمـورُ إليك وما كان بي مَنكَصُ
كسـاكُمْ عُلاثـة أثوابَـهُ ووَرَّثكُم حِلْمَهُ الأحوصُ
فهب لي نفسي فَدَتْكَ النّفوسُ فلا زِلْتَ تَنمِي ولاتَنقُصُ

فقال: قد فعلت، أما والله لوقلتَ فيّ بعض ما قلتَه في عامربن عمر، لأغنيتك طول حياتك، ولوقلتَ في عامربعض ما قلتَه فيّ ما أذاقك بَرْد الحياة.

قال معاوية لخالد بن مَعْمر السَّدوسيّ: على ماذا أحببتَ عليًّا؟ قال: على ثلاث: حِلْمه إذا غضب، وصِدْقه إذا قال، ووفاؤه إذا وعد. (١٨ : ١٠٩ ـ ١١١)

**(الحكمة: ٥٠): أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قولٌ مُقْنع في العَفْو والحِلْم.

وقال الأحنف: ما شيء أشدّ اتّصالًا بشيءٍ من الحِلْم بالعِزّ.

**وقالت الحكماء:** ينبغي للإنسان إذا عاقَبَ مَن يستحقّ العقوبة، ألّا يكون سَبُعًا في انتقامه، وألّا يُعاقِب حتّى يزول سلطانُ غَضَبه، لئلّا يَقْدَم على ما لايجوز، ولذلك جَرَتْ سُنّة السّلطان بحَبْس المجرم حتّى يَنظُرفي جُرْمه ويُعيدَ النّظرفيه.

وأُتِي الإسكندر بمُذْنِبٍ فصَفَح عنه: فقال له بعض جُلَسائه: لوكنتُ إيّاك أيّها المَلِك لَقَتَلْتُه، قال: فإذا لم تكن إيّاي ولاكنتُ إيّاك لم يُقْتَل. وانتهى إليه أنّ بعض أصحابه يَعيبه، فقيل له: أيّها المَلك، لو نَهَكْتَه عقوبةً! فقال: يكون حينئذٍ أبْسَطَ لسانًا وعُذْرًا في اجتنابي.

**وقالت الحكماء أيضًا:** لذّة العَفْو أطْيَبُ من لذّة التّشفّي والانتقام، لأنّ لذّة العفو يَشْفَعها حميدُ العاقبة، ولذّة الانتقام يَلْحَقها ألَمُ النَّدَم. وقالوا: العقوبة ألأَمُ حالات ذي القدرة وأدناها، وهي طَرَفٌ من الجَزَع، ومَن رَضِي إلّا يكون بَيْنَه وبين الظّالم إلّا سِتْرٌ رَقيقٌ فليَنتَصِف. (١٨ : ١٨٣)

**(الحكمة: ٢٠٧) الأصل: الْجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ، وَالْعَفْو زَكَاةُ الظَّفَرِ... .**

الشّرح: ... فأمّا «والعفو زكاة الظَّفَر»؛ فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زكاة، وزكاة الجاه رِفْدُ المُسْتَعِين، وزكاة الظّفر العفو. (١٩ : ٣١)

## الفصل الثّامن والعشرون: [في حُسن الخُلق ومدحه]

فأمّا سُوء الخُلق؛ فلم يكن من سجاياه، فقد قال النّبيّ ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البُخل وسوء الخُلق». وقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وقيل لرسول الله ﷺ: ما الشّؤم؟ فقال: سُوء الخُلق.

وصحب جابر رجلًا في طريق مكّة، فآذاه سوء خُلقه، فقال جابر: إنّي لأرحمه، نحن، نفارقه ويبقى معه سوء خُلقه!

وقيل لعبد الله بن جعفر: كيف تجاور بني زُهْرة وفي أخلاقهم زَعارة[3]؟ قال: لا يكون لي قِبَلهم شيء إلّا تركتُه، ولا يطلبون منّي شيئًا إلّا أعطيتهم.

وفي الحديث المرفوع أنّه ﷺ قال: «ألا أُنبّئكم بشرّ النّاس»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «مَن نزل وحده، ومنع رِفْده، وضرب عبده»، ثمّ قال: «ألا أُنبّئكم بشرٍّ من ذلك»؟ قالوا: بلى، قال: «مَن لم يُقِل عَثرة، ولا يقبل معذرة».

وقال إبراهيم بن عبّاس الصّوليّ: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الخُلق كلّها لرجّحت، قوله: «إنّكم لن تَسَعُوا[4] النّاس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم».

وفي الخبر المرفوع: «حُسن الخلق زمامٌ من رحمة الله في أنف صاحبه، والزّمام بيد المَلَك، والمَلَك يجرّه إلى الخير، والخير يجرّه إلى الجنّة؛ وسوء الخلق زمامٌ من عذاب الله في أنف صاحبه، والزّمام بيد الشّيطان، والشّيطان يجرّه إلى الشّرّ، والشّرّ يجرّه إلى النّار».

وروى الحسن بن عليّ عليه السلام عن النّبيّ ﷺ: «إنّ الرّجل يدرك بحسن خُلقه درجة الصّائم القائم، وإنّه ليُكتب جبّارًا ولا يملك إلّا أهله».

---

١ ـ القلم / ٤.

٢ ـ آل عمران / ١٥٩.

٣ ـ الزّعارة، وتُشدَّد الرّاء: شراسة الخُلق.

٤ ـ في الأُصول: «لن تشبعوا» ولفظ الحديث في «الجامع الصّغير» ١: ١٧٥: «إنّكم لا تسعون النّاس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخُلق».

وروى أبو موسى الأشعريّ، قال: بينا رسول الله ﷺ يمشي وامرأةٌ بين يديه، فقلت: الطّريق لرسول الله ﷺ! فقالت: «الطريق معرَض، إن شاء أخذ يمينًا وإن شاء أخذ شمالًا. فقال ﷺ: «دَعَوها فإنّها جبّارة»[1].

وقال بعض السَّلَف: الحسَن الخُلق ذو قرابة عند الأجانب، والسّيّئ الخُلق أجنبيّ عند أهله.

ومن كلام الأحنف: ألا أُخبركم بالمحمَدة بلا مذمّة: الخُلق السّجيح، والكفّ عن القبيح. ألا أُخبرُكم بأدوأ الدّاء؟ الخُلق الدّنيّ واللّسان البذيّ».

وفي الحديث المرفوع: «أوّل ما يوضع في الميزان الخُلق الحسن».

وجاء مرفوعًا أيضًا: «المؤمن هينّ لينّ كالجمل الأنِف، إن قِيدَ انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ».

وجاء مرفوعًا أيضًا: «ألا أُخبرُكم بأحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطّئون أكنافًا، الّذين يألفون ويُؤلفون. ألا أُخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجالس يوم القيامة؟: الثّرثارون المتفيهقون».

أبو رَجاء العُطارديّ: مَن سرّه أن يكون مؤمنًا حقًّا، فليكن أذلّ من قَعُود، كلّ مَن مرّ به ادّعاه.

فُضَيل بن عِياض: لأن يصحبني فاجر حَسَنُ الخُلق، أحبّ إليّ من أن يصحبني عابد سيّئ الخُلق، لأنّ الفاسق إذا حسن خُلقه خفّ على النّاس وأحبّوه، والعابد إذا ساء خُلقه، ثقل على النّاس ومَقَتُوه.

دخل فَرْقد ومحمّد بن واسع على رجل يعودانه، فجرى ذكر العنف والرِّفق، فروى فرقد عن رسول الله ﷺ أنّه قيل له: على مَن حُرِّمَتِ النّار يا رسول الله؟ قال: «على الهينّ اللّيّن السّهل القريب». فلم يجد محمّد بن واسع بياضًا يكتب ذلك فيه، فكتبه على ساقه.

---

١ ـ جبّارة، أي مستكبرة عاتية. وانظر: النّهاية ١: ١٤٢.

عبد الله بن الدّارانيّ: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قَسوة القلب.

عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم بابَ رِفقٍ». وعنها، عنه ﷺ: «مَن أُعطي حظّه من الرِّفق أُعطي حظّه من خير الدّنيا والآخرة».

جرير بن عبد الله البَجَليّ رفعه: «إنّ الله لَيعطي على الرّفق ما لا يعطي على الخُرق، فإذا أحبّ الله عبدًا أعطاه الرِّفق». وكان يقال: «ما دخل الرّفق في شيء إلّا زانه».

أبو عَوْن الأنصاريّ: ما تكلّم الإنسان بكلمة عنيفة إلّا وإلى جانبها كلمة ألْيَن منها تجري مجراها.

سُئِلت عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقه القرآن: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

وسُئِل ابن المبارك عن حُسن الخُلق، فقال: بَسْط الوجه، وكفّ الأذى، وبذل النَّدى.

ابن عبّاس: إنّ الخُلق الحَسَن يُذِيب الخطايا كما تُذيب الشّمس الجَليد، وإنّ الخُلق السّيّئ يُفسِد العمل، كما يُفسِد الخَلّ العسل.

عليّ عليه السلام: ما من شيء في الميزان أثقل من خُلق حَسَن.

وعنه عليه السلام: عنوان صحيفة المؤمن حُسْنُ خُلقه.

وعنه عليه السلام مرفوعًا: عليكم بحُسْنِ الخُلق، فإنّه في الجَنّة، وإيّاكم وسوء الخُلق، فإنّه في النّار.

قال المنصور لأخيه أبي العبّاس في بني حسن لما أزمعوا الخروج عليه: آنسهم يا أمير المؤمنين بالإحسان، فإن استوحشوا فالشّرّ يصلح ما يعجز عنه الخير، ولا تَدَعْ محمّدًا يمرَح في أعنّة العقوق. فقال أبو العبّاس: يا أبا جعفر، إنّه مَن شدّد نفّر،

---

١ ـ الأعراف / ١٩٩.

ومَن لان ألَف، والتّغافل مِن سجايا الكرام. (٦ : ٣٣٧ ـ ٣٤٠)

**(الحكمة:٢١٠) الأصل: مَن لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ.**

**الشّرح:** تكاد هذه الكلمة أن تكون إيماءً إلى قوله تعالى:﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[١]، ومعنى هذه الكلمة أنّ مَن حَسُن خُلقه، ولانَتْ كلمته، كَثُر محبّوه وأعوانه وأتباعه.

ونحوه قوله: «مَن لانَتْ كلمته وجبت محبّته». وقال تعالى: ﴿وَلَوكُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢]، وأصل هذه الكلمة مطابق للقواعد الحِكَميّة، أعنى الشّجرة ذات الأغصان حقيقة، وذلك لأنّ النّبات كالحيوان في القُوَى النّفسانيّة، أعنى الغاذية والمنمّية، وما يخدم الغاذية من القوَى الأربع، وهي الجاذبة، والماسكة، والدّافعة، والهاضمة، فإذا كان اليَبَس غالبًا على شجرة كانت أغصانها أخفّ، وكان عُودها أدقّ، وإذا كانت الرّطوبة غالبة كانت أغصانها أكثر، وعُودها أغلظ، وذلك لاقتضاء اليَبَس الذّبول، واقتضاء الرّطوبة الغِلظ والعبالة والضّخامة، ألاترى أنّ الإنسان الّذي غلب اليَبَس على مزاجه، لايزال مَهْلُوسًا[٣] نحيفًا، والّذي غلبت الرّطوبة عليه لايزال ضخمًا عَبْلًا. (١٩ : ٣٥)

**(الحكمة: ٢٢٥): كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكًا وَبِحُسْنِ الْخُلقِ نَعيمًا.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذَين، وهما القناعة وحُسن الخُلُق.

**وكان يقال:** يستحقّ الإنسانيّة من حُسن خُلُقه، ويكاد السّيّئ الخُلق يُعَدّ من السِّباع ... . (١٩ : ٥٤)

---

١ ـ الأعراف / ٥٨ .

٢ ـ آل عمران /١٥٩ .

٣ ـ رجل مهلوس : هلسه الدّاء و خامره .

## الفصل التّاسع والعشرون: [في حُسن الظّنّ وسوئه]

**(كتابه عليه السلام: ٢٧) ... وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَن يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِن رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا للهِ.**

**الشّرح:** ... ثمّ أمره عليه السلام بأن يجمع بين حُسن الظّنّ بالله وبين الخوف منه، وهذا مقام جليل لا يَصِل إليه إلّا كلّ ضامرٍ مهزول، وقد تقدّم كلامنا فيه.

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: لو أنزل الله عَزَّوَجَلَّ كتابًا أنّه مُعذِّب رجلًا واحدًا لرجوتُ أن أكونه، وأنّه راحم رجلًا واحدًا لرجوت أن أكونه، أو أنّه معذّبي لا محاله ما ازددتُ إلّا اجتهادًا لئلّا أرجع إلى نفسي بلائمة. (١٥ : ١٦٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِندَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِندَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِندَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِندَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِندَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِندَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ ....**

**الشّرح:** ... قوله: «احمِلْ نفسك من أخيك»، إلى قوله: «أو تفعله بغير أهله» ... والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يَصِله، وإذا جفاه أن يبرّه، وإذا بخل عليه أن يجود عليه، إلى آخر الوصاة.

ثمّ قال له: «لا تفعل ذلك مع غير أهله»، قال الشّاعر[الطّويل]:

وإنّ الّذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني أمّي لَمختلفُ جدّا[1]

فإن أكلوا لحمي وفَرْتُ لحومهمْ ... وإن هَدَموا مجْدِي بنيتُ لهمْ مَجْدَا

وإن زجروا طيرًا بنحسٍ تمرّبي ... زجرتُ لهم طيرًا تمرّبهم سَعْدَا

ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهمُ ... وليسَ رئيس القومِ مَن يحمِلُ الحِقْدَا

---

١ ـ للمقنَّع الكنديّ، ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقيّ ٣ : ١١٧٩.

وقال الشّاعر[الكامل]:

إنّي وإن كان ابنُ عمّي كاشِحًا ... لَمقاذفٌ من خَلْفِهِ ووِرائِهِ[١]

ومُفيدُه نصري وإن كان امْرَأ ... مُتزحْزِحًا في أرضِهِ وسمائِهِ

وأكونُ وَالِيَ سرّه وأصُونُه ... حتّى يحقّ عليَّ وقتُ أدائِهِ

وإذا الحوادثُ أجْحفتْ بسَوَامِهِ ... قُرِنَتْ صَحِيحَتُنا إلى جَرْبائِهِ

وإذا دعا باسمي ليركَبَ مَركبًا ... صَعْبًا قَعَدتُ له على سيسائِهِ[٢]

وإذا أجنّ فِلَيقَةً في خِدْرِهِ ... لم أظْلِعْ مِمّا وراءَ خِبائِهِ[٣]

وإذا ارتدى ثوبًا جميلًا لم أقلْ ... يا لَيتَ أنّ عليَّ فضلَ ردائِهِ!

(١٦ : ١٠٦ ـ ١٠٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَاتُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ.**

**الشّرح:** ... قوله: «مَن ظنّ بك خيرًا فصدِّق ظنّه»، كثيرمن أرباب الهِمَم يفعلون هذا، يقال لمن قد شدّ طَرَفًا من العلم: هذا عالِم، هذا فاضل، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتّى يصيرعالما فاضلًا حقيقة، وكذلك يقول النّاس: هذا كثيرالعبادة، هذا كثيرالزّهد، لمن قد شرع في شيء من ذلك، فتحمله أقوال النّاس على الالتزام بالزّهد والعبادة. (١٦ : ١١٠)

---

١ ـ لعروبة المدنيّ . الأغاني ٢٠ - ١٦٨ ؛ وطبقات الزّبيديّ : ٥٧ .

٢ ـ السّيساء في الأصل : منتظم فقار الظّهر.

٣ ـ الفِلَيقة : القليل من الشّعر. والخدر : السّتر.

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَلَاتُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُشَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سُوء الظّنّ بالله»، كلام شريف عالٍ على كلام الحكماء، يقول: إنّ بينها قدرًا مشتركًا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة، وذلك القدر المشترك هو سُوء الظّنّ بالله، لأنّ الجَبان يقول في نفسه: إن أقدمتُ قُتِلتُ، والبخيل يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ، والحريص يقول: إن لم أجدّ وأجتهد وأدأب فاتني ما أروم، وكلّ هذه الأُمور ترجع إلى سوء الظّنّ بالله، ولو أحسن الظّنّ الإنسان بالله وكان يقينه صادقًا لعلم أنّ الأجل مقدّر، وأنّ الرّزق مُقدّر، وأنّ الغنى والفقر مُقدّران، وأنّه لايكون من ذلك إلّا ما قضى الله تعالى كونه. (١٧ : ٤١)

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَاعْلَمْ! أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِن إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُن مِنكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌيَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنكَ نَصَبًا طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَن حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَن حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِندَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَن سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَن سَاءَ بَلَاؤُكَ عِندَهُ.

**الشّرح:** خلاصة صدر هذا الفصل، أنّ مَن أحسن إليك حَسُن ظنّه فيك، ومَن أساء إليك استَوحش منك، وذلك لأنّك إذا أحسنتَ إلى أنسانٍ وتكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اعتقادُك أنّه قد أحبّك، ثمّ يتبع ذلك الاعتقاد أمر آخر، وهو أنّك تحبّه، لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبّه، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه، وبالعكس من ذلك إذا أسأتَ إلى زيد، لأنّك إذا أسأت إليه وتكرّرت الإساءة تبع ذلك اعتقادك أنّه قد أبغضك، ثمّ يتبع ذلك الاعتقاد أمر آخر، وهو أن

تُبغضه أنت، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واستوحشت، وساء ظنّك به.

قال المنصور للرّبيع: سَلْني لنفسك: قال يا أمير المؤمنين، ملأتَ يدي فلم يبق عندي موضع للمسألة، قال: فسَلْني لولدك، قال أسالك أن تحبّه، فقال المنصور: يا ربيع، إنّ الحبّ لا يسأل، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب، قال: يا أمير المؤمنين، وإنّما أسألك أن تزيد مِن إحسانك، فإذا تكرّر أحبّك، وإذا أحببتَه أحببتَه. فاستحسن المنصور ذلك، ثمّ نهاه عن نقض السُّنَن الصّالحة الّتي قد عمل بها مَن قبله مِن صالحي الأُمّة، فيكون الوِزْر عليه بما نَقَض، والأجر لأُولئك بما أسّسوا، ثمّ أمره بمطارحة العلماء والحكماء في مصالح عمله، فإنّ المشورة بَرَكة ، ومَنِ استشار فقد أضاف عقلًا إلى عقله. وممّا جاء في معنى الأوّل:

قال رجلٌ لإياس بن معاوية: مَن أحبّ النّاس إليك؟ قال: الّذين يُعطُوني، قال: ثمّ مَن؟ قال: الّذين أُعطيهم.

وقال رجلٌ لهشام بن عبد الملك: إنّ الله جعل العطاء محبّة، والمنع مَبغَضة، فأعِنّي على حبّك، ولاتعنّي في بُغْضك. (١٧ : ٤٧ ـ ٤٨)

**(الحكمة: ١١٠): الأصل: إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلَاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنهُ حَوبَةٌ، فَقَدْ ظَلَمَ، وَإِذَا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ.**

**الشّرح:** يريد أنّه يتعيّن على العاقل سوء الظّنّ حيث الزّمان فاسد، ولاينبغي له سوء الظّنّ حيث الزّمان صالح، وقد جاء في الخبر المرفوع النّهي عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظَنّ السَّوء، وذلك محمول على المسلم الّذي لم تظهر منه حَوْبة، كما أشار إليه عليّ عليه السلام. .... .

والخبر هو ما رواه جابر، قال: نظر، رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال: «مرحبًا بكِ من بيتٍ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك! والله إنّ المؤمن أعظم حرمةً منك عند الله عَزَّ

وَجَلَّ، لأنّ الله حَرَّم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: دَمَه وماله وأن يظنّ به ظَنَ السَّوْء».

ومن كلام عمر: ضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتّى يجيء ما يغلبك منه، ولاتظنّنّ بكلمة خرجت من في أخيك المسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير مَحْمِلًا، ومَن عَرَّض نفسه للتُّهَم فلا يلومنّ مَن أساء به الظّنّ. شاعر[السّريع]:

أسأتُ إذ أحسنتُ ظنّيَّ بكم والحَزمُ سُوءُ الظّنِ بالنّاسِ

قيل لعالِم: مَن أسوأ النّاس حالًا؟ قال: مَن لايثق بأحدٍ لسُوء ظنّه، ولايثق به أحدٌ لسوء فعله. شاعر[الطّويل]:

وقد كان حُسْن الظّنِ بعضَ مَذاهِبي فأدّبني هذا الزّمانُ وأهلُهُ

قيل لصُوفيّ: ما صِناعتك؟ قال: حُسْن الظّنّ بالله، وسُوء الظّن بالنّاس.

وكان يقال: ما أحسن حُسْن الظّنّ إلّا أنّ فيه العجز، وما أقبح سُوء الظّنّ إلّا أنّ فيه الحزم. ابن المعتزّ[المتقارب]:

تَفقَّدْ مَساقِطَ لَحْظِ المُريب فإنّ العيونَ وجوهُ القُلوبِ

وطالِعْ بَوادِرَهُ في الكلام فإنّك تجني ثمارَ العُيوبِ

(١٨ : ٢٧٨ ـ ٢٧٩)

**(الحكمة: ١٦١): وقَالَ عليه السلام: مَن وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَن أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ.**

**الشّرح:** رأى بعض الصّحابة رسول الله صلى الله عليه وآله واقفًا في دَرْبٍ من دُروب المدينة ومعه امرأةٌ فَسلّم عليه، فرّد عليه، فلمّا جاوزه ناداه، فقال: هذه زوجتي فلانة، قال: يا رسول الله، أوَ فيك يُظَنّ! فقال: «إنّ الشّيطان يجري من ابن آدم مجرَى الدّم».

وجاء في الحديث المرفوع: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لايَريبُك».

وقال أيضًا: «لايكمل إيمان عبدٍ حتّى يترك ما لا بأس به».

وقد أخذ هذا المعنى شاعر، فقال [الكامل]:

وزعمتَ أنّك لا تَلوطَ فَقُلْ لنا هـذا المُقَرْطَـقُ واقفًـا مـا يَصْـنَع

شَهِدتْ مَلاحتُهُ عليكَ بريبةٍ وعلى المُريبِ شواهدٌ لا تُدْفَع

(١٨ : ٣٨٠)

**(الحكمة: ٢٤٥) الأصل: مَن ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.**

**الشّرح:** هذا قد تقدّم في وصيّته عليه السلام لوَلَدِه الحسن عليه السلام.

ومن كلام بعضهم: إنّي لاستحي أن يأتيني الرّجل يحمَرُّ وجهه تارةً من الخَجَل، أو يصفرّ أُخرى من خوف الرّدّ قد ظَنّ بي الخير وبات عليه وغَدَا على أن أردّه خائبًا.

(١٩ : ٨٢)

**(الحكمة: ٣١٥) وقَالَ عليه السلام: اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.**

**الشّرح:** كان يقال: ظنّ المؤمن كَهانة. وهو أثرٌ جاء عن بعض السَّلَف.

قال أوس بن حجر[المنسرح][1]:

الألمعيّ[2] الّذي يظُنُّ بكَ الـ ـظَّنَّ كأن قد رأى وقد سَمِعَا

وقال أبو الطّيّب [الطّويل][3]:

ذكيٌّ تَظَنّـيهِ طَليعـةُ عَيْـنِهِ يَرَى قَلْبُه في يَومِهِ مَا يَرى غَدَا[4]

(١٩ : ٢١٥)

---

١ ـ ديوانه : ٥٣ .

٢ ـ الألمعيّ : الحديد اللّسان و القلب ؛ قال في «الكامل» : و قد أبانه بقوله «الّذي يظنّ بك الظّنّ» .

٣ ـ ديوانه ١ : ٢٨٢ .

٤ ـ و الطّليعة : الّذي يطلع القوم على العدوّ ، فإذا جاءهم العدوّ أنذرهم .

**(الحكمة: ٣٦٦) وقَالَ عليه السلام: لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِن أَحَدٍ سُوءًا، وَأَنتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا.**

**الشّرح:** هذه الكلمة يرويها كثير من النّاس لعمر بن الخطّاب، ويرويها بعضهم لأمير المؤمنين عليه السلام. وكان ثُمامة يحدّث بسؤْدُدِ يحيى بن خالد وابنه جعفر. ويقول: إنّ الرّشيد نَكَب عليّ بن عيسى. ابن ماهان، وألزمه مائة ألف دينار أدّى منها خمسين ألفًا، ويلحّ بالباقي، فأقسم الرّشيد إن لم يؤدّ المال في بقيّة هذا اليوم وإلّا قتَله. وكان عليّ بن عيسى عدوًّا للبرامكة مكاشفًا، فلمّا علم أنّه مقتول سأل أن يمكّن من السّعي إلى النّاس يَستنجِدهم، ففُسِح له في ذلك، فمضى ومعه وكيلُ الرّشيد وأعوانه إلى باب يحيى وجعفر، فأشْبلا[1] عليه، وصحّحا من صُلْب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم عليّ بن عيسى. واستخلصاه، فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما: أنّ عليّ بن عيسى قال في آخر نهار ذلك اليوم متمثّلًا [الوافر]:

فما بُقْيًا علَيَّ تركْتُماني ولكن خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ[2]

فقال يحيى للنّاقل إليه ذلك: يا هذا، إنّ المرعوب ليسبق لسانه إلى ما لم يخطر بقَلْبه.

وقال جعفر: ومِن أين لنا أنّه تمثّل بذلك وعَنَانا، ولعلّه أراد أمرًا آخر فكان ثُمامة يقول: ما في الأرض أسود من رجل يتأوّل كلام عدوّه فيه ويحمله على أحسن محامله. وقال الشّاعر [الطّويل]:

إذا ما أتَتْ من صاحِبٍ لكَ زَلّةٌ فكُن أنتَ مُحتالًا لزَلّتِهِ عُذْرَا[3]

(١٩: ٢٧٧ ـ ٢٧٨)

---

١ ـ أشبلا: عطفا.

٢ ـ اللّسان (صرد)؛ ونسبه إلى اللّعين المنقريّ يخاطب جريرًا والفرزدق. وصرد السّهم: نفذ حدّه.

٣ ـ لسالم بن وابصة، من كلمة له في «أمالي القالي» ٢: ٢٢٤.

## الفصل الثّلاثون: [في حُسن المعاشرة]

**(الحكمة: ١٠) الأصل: خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِن عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.**

**الشّرح:** ... وقد ورد في الأمر بإحسان العشرة مع النّاس الكثير الواسع، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فيما تقدّم.

وفي الخبر المرفوع: «إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه، وحُسن الخُلق، وحُسن الجوار، فكأنّما وسعتموهم بالمال».

وقال أبو الدّرداء: إنّا لنهَشّ في وجوه أقوام، وإنّ قلوبنا لتَقليهم.

وقال محمّد بن الفضل الهاشميّ لأبيه: لمَ تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أُخبِئ نارًا، وأقدح عن ودّ.

وقال المهاجر بن عبد الله [الطّويل]:

وإنّي لأقصي المرءَ من غير بغضةٍ ... وأدني أخا البغضاء منّي على عَمْدِ

ليُحْدِث وُدًّا بعد بغضاءَ أو أرَى ... له مصرعًا يُردِي به اللهُ مَن يُرْدِي

وقال عِقال بن شبّة التّميميّ: كنتُ رِدْف أبي، فلقيه جَرير بن الخَطَفَى على بَغْلَة، فحيّاه أبي وألطفه، فلمّا مضى قلت له: أبَعْدَ أن قال لنا ما قال؟ يا بنيّ أفأوسع جرحي!

وقال محمّد ابن الحنفيّة عليه السلام: قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه.

وقال الحسن عليه السلام: حُسن السّؤال نصف العلم، ومداراة النّاس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة.

ومدح ابن شهاب شاعرًا فأعطاه، وقال: إنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشّرّ.

وقال الشّاعر [الطويل]:

وأنزَلَني طولُ النَّوَى دارَ غُربةٍ ... متى شئتُ لاقيتُ امرَأ لا أشاكلُهْ

أخا ثقةٍ حتّى يقال سجيّة ... ولوكان ذا عَقْلٍ لكنتُ أعاقلُهْ

وفي الحديث المرفوع: «للمسلم على المسلم ستّ: يسلّم عليه إذا لقيَه، ويجيبه إذا

دعاه، ويُشَمّته إذا عطس، ويعودُه إذا مرض، ويحبّ له ما يحبّ لنفسه، ويشيّع جنازته إذا مات».

ووقف عليه السلام على عجوز، فجعل يسألها ويتحفّاها، وقال: «إنّ حُسن العهد من الإيمان، إنّها كانت تأتينا أيّام خديجة». (١٨ : ١٠٧ ـ ١٠٨)

## الفصل الحادي والثّلاثون: [في الصّديق والصّداقة والإخوان]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... قَارِن أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُن مِنهُمْ، وَبَايِن أَهْلَ الشَّرِّ تَبِن عَنهُم ...**

**الشّرح:** ... قوله: « قارِن أهل الخير تكن معهم، وبايِن أهل الشّرّ تَبن عنهم»، كان يقال: حاجِبُك وجهُك، وكاتِبُك لسانك، وجَليسُك كلُّك.

وقال الشّاعر[الطويل]:

عَنِ المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرينهِ فكلّ قَرينٍ بالمقارنِ مُقْتَدِ

(١٦ : ٩٩)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ ... وَإِيَّاكَ أَن تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَن تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ... وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِن نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْمًا مَا ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «لا خير في مُعين مُهين، ولا في صديق ظنين»، مثل الكلمة الأولى قولهم [الرّجز]:

إذا تكفَّيتَ بغيرِ كاف وَجَدتَه للهَمِّ غيرَ شافِ

ومن الكلمة الثّانية أخذ الشّاعر قوله [الطّويل]:

فإنّ مِنَ الإخوانِ مَن شَحَطَ النَّوَى به وَهْوَ راعٍ للوصالِ أمينُ

ومنهمْ صديقُ العينِ أمّا لقاؤُه فحُلْو وأمّا غيبُهُ فظنينُ

... وقوله: «لاتتّخذنّ عدوصَديقك صَديقًا فتُعادِي صَديقَك»، قد قال النّاس في هذا المعنى فأكثروا، قال بعضهم [الوافر]:

إذا صافَى صديقُكَ مَن تعادِي فقد عاداكَ وانقَطَعَ الكلامُ

وقال آخر[الطّويل]:

صَديقُ صَديقي داخلٌ في صِداقتي وخَصْمُ صديقي ليسَ لي بصديقِ

وقال آخر[الطّويل]:

تَوَدَّ عدوّي ثمّ تَزْعُمُ أنّني صَديقُكَ إنّ الرّأي عنكَ لَعازِبُ

... قوله: «إن أردتَ قطيعةَ أخيك فاستَبْقِ له من نفسك بقيّةً يرجع إليها إن بَدَا ذلك له يومًا»، هذا مِثل قولهم: «أحْبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»، وما كان يقال: إذا هويت فلا تكن غاليًا، وإذا تركت فلا تكن قاليًا. (١٦ :١٠٥ و١٠٧ و١١٠)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَلَاتُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَن أَضَعْتَ حَقَّهُ، وَلَايكُن أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ ، وَلَاتَرْغَبَنَّ فِيمَن زَهِدَ عَنكَ، وَلَايَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَاتَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ... مَن تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَن صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى، رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِن قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِن بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَن لَمْ يَكُن لَهُ حَبِيبٌ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «ولاتضيعنّ حقّ أخيك اتّكالًا على ما بينك وبينه، فإنّه ليس لك بأخ مَن أضعت حقّه»، من هذا النّحو قول الشّاعر[الطّويل]:

إذا خُنتم بالغَيْبِ عهدي فما لكمْ تُـدِلّونَ إدلالَ المقيمِ عـلى العَهْـدِ

صِلُوا وافْعَلوا فِعْلَ المدِلِّ بوَصْلِهِ وإلّا فصدّوا وافْعَلوا فِعْلَ ذي الصّدِّ

وكان يقال: إضاعة الحقوق، داعية العقوق ... .

قوله: «لا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صِلَته، ولاتكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان». هذا أمر له بأن يصل مَن قطعه، وأن يحسن إلى مَن أساء إليه.

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرّشيد بكتب قد كتبها محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق عليه السلام إلى أهل الكَرْخ وغيرهم من أعمال أصفهان يدعوهم فيها إلى

نفسه، فأحضرها بين يديه، ودفعها إليه، وقال له: أتعرف هذه؟ فأطرق خجلًا، فقال له: أنت آمِن، وقد وهبتُ هذا الذّنب لعليّ وفاطمة عليهما السلام، فقُمْ إلى منزلك، وتخيّر ما شئت من الذّنوب، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو ... .

ومنها قوله: «الصّاحب مناسب»، كان يقال: الصّديق نسيب الرّوح، والأخ نسيب البدن. قال أبو الطّيّب [الكامل]:

ما الخِلّ إلّا مَن أودَّ بقلبهِ وأرَى بطَرفٍ لا يَرَى بِسَوائِهِ

ومنها قوله: «الصّديق من صدق غيبه»، من هاهنا أخذ أبو نؤاس قوله في المنهوكة [المجزوء الرّجز]:

هل لك والهَلّ خَبرْ فيمن إذا غبتَ حضرْ
أو ما لَكَ اليوم أثَرْ فإن رأى خيرًا شَكَرْ
أو كان تقصير عَذَرْ

ومنها قوله: «الهَوَى شريك العَمَى»، هذا مِثل قولهم: «حبّك الشّيء يعمي ويُصِمّ»، قال الشّاعر [الطّويل]:

وَعَيْنُ الرّضا عن كلِّ عَيْبٍ كليلةٌ كما أنّ عينَ السُّخْطِ تُبْدي المَساوِيَا

ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب، وقريب، أبعد من بعيد»، هذا معنى مطروق، قال الشّاعر [الوافر]:

لَعَمْرُكَ ما يضرّ البُعْدُ يومًا إذا دَنَتِ القلوبُ مِنَ القُلوبِ

وقال الأحوص [الكامل]:

إنّي لَأمنحكِ الصُّدودَ وإنّني قسمًا إليكَ مع الصُّدودِ لأمْيَلُ

وقال البحتريّ [الطّويل]:

ونازحةٍ والدّارُ منها قريبةٌ وما قُرْبُ ثاوٍ في التّرابِ مُغيَّبُ!

ومنها قوله: «والغريب مَن لم يكن له حبيب»، يريد بالحبيب هاهنا المحبّ لا المحبوب، قال الشّاعر:

أسرَةُ المرءِ والِدَاهُ وفيما بين جنبيهما الحياةُ تَطِيبُ
وإذا ولّيا عَنِ المرء يومًا فهو في النّاسِ أجنبيٌّ غَرِيبُ

(١٦ :١١٠ و١١٧ ـ ١١٨)

**(الحكمة: ١٢) الأصل: أَعْجَزُ النَّاسِ مَن عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنهُ مَن ضَيَّعَ مَن ظَفِرَ بِهِ مِنهُمْ.**

**الشّرح**: قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيّات فيما تقدّم.

وفي الحديث المرفوع أنّ النّبيّ ﷺ بكى لما قُتِل جعفر بمُؤْتة وقال: «المرء كثير بأخيه».

وقال جعفر بن محمّد عليه السلام: لكلّ شيء حِلْيَةٌ وحِلْية الرّجل أودّاؤه.

وأنشد ابن الأعرابيّ [الطّويل]:

لَعَمْرُك ما مالُ الفَتَى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوانَ الصّفاءِ الذّخائرُ

وكان أبو أيّوب السِّخْتيانيّ يقول: إذا بلغني موت أخ كان لي، فكأنّما سقط عضو منّي.

**وكان يقال**: الإخوان ثلاث طبقات: طبقةٌ كالغذاء لايَسْتغنَى عنه، وطبقةٌ كالدّواء يُحتاج إليه عند المرض، وطبقةٌ كالدّاء لا يُحتاج إليه أبدًا.

**وكان يقال**: صاحبك كرُقْعة في قَميصِك، فانظر بما ترقع قميصك!

وكان يونس بن عبيد يقول: اثنان ما في الأرض أقلّ منهما، ولايزدادانِ إلّا قلّة: دِرْهمٌ يُوضع في حقٍّ، وأخٌ يُسْكَن إليه في الله.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

أخاكَ أخاكَ إنّ مَن لا أخًا له كساعٍ إلى الهيجَا بغيرِ سِلاحِ
وإنّ ابنَ عمِّ المرءِ فاعْلمْ جَناحُهُ وهلْ ينهضُ البازِي بغيرِ جَناحِ؟

وقال آخر [الوافر]:

ولن تنفكّ تُحسَد أو تُعادَى فأكثِرْ ما اسْتَطَعْتَ من الصّديقِ
وبُغْضك للتّقيّ أقلّ ضَرًّا وأسْلَمُ من مودّةِ ذي الفسوقِ

وأوصى بعضهم ابنه، فقال: يا بُنيّ، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال، فاصْحَب مَن إذا صحبتَه زانك، وإذا خدمتَه صانك، وإذا عرضت لك مُؤْنة أعانك، وإن قلتَ صدّق قولك، وإن صُلْتَ شَدّ صَوْلك، وإن مددتَ يدك لأمرٍ مدّها، وإن بَدَتْ لك[1] عَوْرة سَدّها، وإن رأى منك حسنة عَدّها، وإن سألتَه أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك، مَن لا تأتيك منه البوائق، ولا تحتار[2] عليك منه الطّرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.

ومن الشّعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام [الرّجز]:

إنّ أخاكَ الحقّ مَن كان مَعَكْ ومَن يضرَّ نفسَهُ لِينفَعَكْ
ومَن إذا رَيْبَ الزّمانِ صَدَعَكْ شتّت فيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

ومن الشّعر المنسوب إليه عليه السلام أيضًا [الطّويل]:

أخوك الّذي إن أجرضَتْك ملمّةٌ مِنَ الدّهْر لم يبرح لها الدّهْر واجمًا
وليس أخوك بالّذي إن تشعَّبَتْ عليكَ أمورٌ ظَلّ يلحَاكَ لائمًا

**وقال بعض الحُكَماء:** ينبغي للإنسان أن يوكّل بنفسه كالئين: أحدهما: يكلؤه مِن أمامه، والآخر: يكلؤه مِن وَرائه، وهما: عقله الصّحيح، وأخوه النّصيح. فإنّ عقله وإنْ صَحّ فلن يبصّره مِن عَيْبه إلّا بمقدار ما يرى الرّجل من وجهه في المرآة، ويخفى عليه ما خلفه، وأمّا أخوه النّصيح فيبصّره ما خَلْفه وما أمامه أيضًا.

وكَتَبَ ظَريفٌ إلى صديق له: إنّي غير محمود على الانقياد إليك، لأنّي صادقتك من جَوْهر نفسي، والنّفس يتبع بعضها بعضًا.

---

١ ـ أ: «عنك».

٢ ـ في د: «و لاتختلف».

وفي الحديث المرفوع: «إذا أحبّ أحدكم أخاه، فليعلَمه».

**وقال الأحنف:** خير الإخوان مَن إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ وُدًّا، وإن احتجتَ إليه لم يَنقُصْك.

وقال أعشى بأهله يرثي المنتشر بن وهب [البسيط]:

إمّا سَلَكْتَ سبيلًا كُنتَ سالكها ... فاذْهَب فلا يَبْعَدنك اللهُ منتشرُ

مَن ليس في خَيْرِهِ شَرٌّ يُنكّدهُ ... على الصّديق ولا في صَفْوِهِ كَدَرُ

وقال آخر يرثي صديقًا له [المتقارب]:

أخٌ طالمـا سَـرّني ذِكْـرُه ... وأصبحتُ أشجى لدى ذِكْرِهِ

وقد كُنتُ أغدو إلى قَصْرِهِ ... فأصْـبَحْتُ أغـدو إلى قبـرِهِ

وكُنـتُ أراني غَنيًّـا بِـهِ ... عَنِ النّاسِ لو مُدَّ في عُمرِهِ

إذا جِئْتُـهُ طالبًـا حاجـةً ... فـأمرِي يجـوزُ عـلى أمْـرِهِ

رأى بعض الحكماء مصطحبيْن لا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: صديقان. قال: فما بال أحدهما غنيًّا والآخر فقيرًا! (١٨ : ١١٢ ـ ١١٤)

**(الحكمة: ١٥) الأصل: مَن ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ.**

**الشّرح:** إنّ الإنسان قد ينصره مَن لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب من النّاس، وقد وجدنا ذلك في حقّ رسول الله ﷺ، ضيّعه أهله ورَهْطه من قريش وخذلوه، وتمالؤوا عليه، فقام بنصره الأوس والخزرج، وهم أبعد النّاس نسبًا منه، لأنّه مِن عَدْنان وهم مِن قَحْطان، وكلّ واحدٍ من الفريقَين لا يحبّ الآخر حتّى تحبّ الأرض الدّم. وقامت ربيعة بنَصْر عليّ عليه السلام في صفّين، وهم أعداء مُضَر الّذين هم أهله ورَهْطه، وقامت اليمن بنَصْر معاوية في صفّين، وهم أعداء مُضَر، وقامت الخُراسانيّة وهم عَجَم بنَصْر الدّولة العبّاسيّة، وهي دولة العرب. وإذا تأمّلت السِّيَر وجدت هذا كثيرًا شائعًا. (١٨ : ١١٨)

**(الحكمة: ١٣٠) وقَالَ عليه السلام: لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ: فِي نَكْبَتِهِ وَغَيْبَتِهِ وَوَفَاتِهِ.**

**الشّرح**: قد تقدّم لنا كلامٌ في الصّديق والصّداقة، وأمّا النّكبة وحفظ الصّديق فيها، فإنّه يقال: في الحُبوس[1] مقابر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء.

وأمّا الغيبة؛ فإنّه قد قال الشّاعر[أحذ الكامل]:

وإذا الفَتَى حَسُنَتْ مَودّتُهُ في القُرْبِ ضاعَفَها على البُعْدِ

وأمّا الموت؛ فقد قال الشّاعر[الطّويل]:

وإنّي لأستحيِيهِ والتُّربُ بيننا كما كنتُ أستحيِيهِ وَهُوَ يرَانِي

ومن كلام عليّ عليه السلام: الصّديق مَن صَدَق في غيبته.

قيل لحكيم: مَن أبعد النّاس سَفَرًا؟ قال: مَن سَافَر في ابتغاء الأخ الصّالح.

أبو العلاء المَعَرّيّ [البسيط]:

أزَرَتْ بكمْ يا ذوي الألبابِ أربعةٌ يتركن أحلامَكم نَهْبَ الجهالاتِ

ودُّ الصَّديقِ، وعِلْمُ الكيمياءِ كامُ النّجومِ، وتفسيرُ

قيل للنّوريّ: دُلّني على جَليس أجلس إليه، قال: تلك ضالّة لا توجد.

(١٨ : ٣٣٠)

**(الحكمة: ٢١٤) الأصل: حَسَدُ الصَّدِيقِ مِن سُقْمِ الْمَوَدَّةِ.**

**الشّرح**: إذا حَسَدك صديقُك على نعمةٍ أُعطيتَها لم تكن صداقته صحيحةً، فإنّ الصّديق حقًّا مَن يجري مَجْرَى نفسك، والإنسان لم يحسد نفسه.

وقيل لحكيم: ما الصّديق؟ فقال: إنسانٌ هو أنت، إلّا إنّه غيرك.

وأخذ هذا المعنى أبو الطّيّب، فقال [الكامل]:

---

١ ـ د: «الحبس».

مَا الخِلّ إلّا مَن أوَدُّ بقَلْبِهِ وأرَى بطرفٍ لايَرَى بسَوَائِهِ[1]

ومن أدعية الحُكَماء: اللّهمّ اكْفني بَوائق الثِّقات، واحْفَظني من كَيْد الأصدقاء.

وقال الشّاعر[مجزوء الكامل]:

احْـذَرْ عَـدوَّكَ مَـرَّةً واحْذَرْ صَديقكَ ألْفَ مرّهْ

فلربّمـا انقلـبَ الصّديـ ـقُ فكان أعْرَفَ بالمضرّهْ

وقال آخر[مجزوء الكامل]:

احْـذَرْ مـودّة مـاذقٍ شاب المرارةَ بالحلاوهْ[2]

يحصي الذّنوبَ عليكَ أيـ ـيّام الصّداقةِ للعداوهْ

وذكر خالدُ بن صَفْوان شَبيبَ بن شيبة، فقال: ذاك رجل ليس له صَديقٌ في السّرّ ولاعدوّ في العلانية.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

إذا كان دَوَّامًا أخوكَ مصارمًا موجَّهةً في كلّ أوْبٍ رَكائِبُهْ

فخلِّ لهُ ظَهْرَ الطّريقِ ولا تَكُن مَطيّةَ رَحّالٍ كثيرٍ مذاهبُهْ

(١٩ : ٣٩ ـ ٤٠)

**(الحكمة: ٣٠١) الأصل: أَصْدِقَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ؛ فَأَصْدِقَاؤُكَ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ؛ وَأَعْدَاؤُكَ: عَدُوُّكَ، وعَدُوّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذا المعنى.

والأصل في هذا أنّ صديقَك جارٍ مجرَى نفسك، فاحْكم عليه بما تحكُم به على

---

١ ـ ديوانه ١ : ٤ .

٢ ـ الماذق : الّذي يخلط الودّ بغيره .

نفسك، وعدوّك ضدّك، فاحكم عليه بما تحكُم به على الضّدّ، فكما أنّ مَن عاداك عدوّ لك، وكذلك مَن عادى صديقك عدوّ لك، وكذلك مَن صادَقَ صديقك، فكأنّما صادَقَ نفسك، فكان صديقًا لك أيضًا، وأمّا عدوّ عدوّك فضدّ ضدّك، وضدّ ضدّك ملائمٌ لك، لأنّك أنت ضدّ لذلك الضّدّ، فقد اشتركتما في ضدّيّة ذلك الشّخص، فكنتما متناسبين. وأمّا مَن صادَقَ عدوّك فقد ماثَلَ ضدّك، فكان ضدًّا لك أيضًا، ومثل ذلك بَياضٌ مخصوص يُعادِي سوادًا مخصوصًا ويضادّه.

وهناك بَياض ثانٍ هو مثل البياض الأوّل وصديقه، وهناك بَياضٌ ثالث مثل البَياض الثّاني، فيكون أيضًا مثل البَياض الأوّل وصديقه، وهناك بياض رابع تأخذه باعتبار ضدًّا للسّواد المخصوص المفروض، فإنّه يكون مماثلًا وصديقًا للبَياض الأوّل، لأنّه عدوعدوّه، ثمّ نفرض سوادًا ثانيًا مضادًّا للبياض الثّاني، فهو عدوللبَياض الأوّل، لأنّه عدوّ صديقه، ثمّ نَفْرِض سوادًا ثالثًا هو مماثل السّواد المخصوص المفروض، فإنّه يكون ضدًّا للبَياض المفروض المخصوص، لأنّه مثل ضدّه، وإن مثّلت ذلك بالحروف كان أظهر وأكشف. (١٩ : ٢٠٠ ـ ٢٠١)

**(الحكمة: ٣١٤) الأصل: مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ، وَالْقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى الْمَوَدَّةِ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ.**

**الشّرح**: كان يقال: الحُبّ يتوارث، والبُغْض يتوارث.

وقال الشّاعر[البسيط]:

أبْقَى الضَّغائنَ آباءٌ لنا سَلَفُوا فلن تَبيدَ وللآباءِ أبناءُ

ولاخير في القرابة من دون مودّة.

وقد قال القائل لما قيل له: أيّهما أحبّ إليك، أخوك أم صديقك؟ فقال: إنّما أُحِبُّ أخي إذا كان صديقًا.

فالقُرْبى محتاجة إلى المودّة، والمودّة مُستغنِيةٌ عن القُرْبى. (١٩ : ٢١٤)

**(الحكمة: ١٣٨) الأصل: التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ.**

الشّرح: دخل حبيب بن شَوْذَب على جعفربن سليمان بالبَصْرة، فقال: نِعْمَ المرءُ حبيب ابن شوذب! حَسَن التّودّد وطيب الثّناء، يكره الزّيارة المتّصلة والقِعْدةَ المنسِية. وكان يقال: التّودّد ظاهرٌ حَسَن، والمعامَلة بين النّاس على الظّاهر، فأمّا البواطن فإلى عالِم الخفيّات.

وكان يقال: قَلَّ مَن تودّد إلّا صار محبوبًا، والمحبوب مستورُ العيوب. (١٨ : ٣٤٠)

## الفصل الثّاني والثّلاثون: [في الشّفاعة]

**(الحكمة:٦١) الأصل: الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ.**

**الشّرح:** جاء في الحديث مرفوعًا: «اشفَعوا إليَّ تُؤجَروا، ويقضي اللهُ على لسان نبيّه ما شاء».

وقال المأمونُ لإبراهيم بن المهديّ لما عفا عنه: إنّ أعظم يدًا عندك مِن عَفْوي عنك إنّي لم أُجرِّعك مَرارةَ امتنان الشّافعين.

ومِن كلام قابوسَ بن وَشْمكير: بِزَنْدِ الشّفيعِ تُورَى نارُ النّجاح، ومِن كفّ المُفيضُ ينتظر فَوزُ القِداح.

**قال المبرّد:** أتاني رجل يَسْتَشْفِع بي في حاجةٍ، فأنشدني لنفسه [البسيط]:

إنّي قصدتُكَ لا أدْلي بمعرفةٍ ... ولا بقُرْبي، ولكن قد فَشَتْ نِعَمُكْ

فبتُّ حَيْرانَ مَكْروبًا يؤرّقُني ... ذُلّ الغَريبِ ويُغشِيني الكَرَى كَرَمُكْ

ولو هَمَمْتَ بغيرِ العُرْفِ ما عَلِقَتْ ... بهِ يَداكَ ولاانقادَتْ لهُ شِيَمُكْ

ما زِلتُ أنكَبُ حتّى زُلْزِلَتْ قَدَمي ... فاحْتَلْ لتَثْبيتها لا زُلْزِلَتْ قَدَمُكْ

قال: فشفعتُ له وقُمْتُ بأمره حتّى بلغتُ له ما أحبّ.

**بُزُرْجُمِهر:** مَن لم يستغنِ بنفسه عن شفيعِه ووسائِلِه وَهَتْ قُوَى أسبابه، وكان إلى الحِرْمان أقربَ منه إلى بلوغ المراد.

**ومثله:** مَن لم يرغب أودّاؤه في اجتنابه لم يَحْظَ بمدح شُفَعائه.

**ومثله:** إذا زرتُ الملوكَ فإنّ حَسْبي شفيعًا عندهم أن يعرفوني.

كلّم الأحنفُ مُصْعب بن الزّبير في قومٍ حَبَسهم، فقال: أصْلَحَ اللهُ الأميرا إن كان هؤلاء حُبِسوا في باطلٍ فالحقّ يُخْرِجهم، وإن كانوا حُبِسوا في حقٍّ فالعَفْو يَسَعُهم، فأمَر بإخراجهم. آخر[الطّويل]:

إذا أنتَ لم تَعْطِفكَ إلّا شفاعةٌ ... فلا خَيرَ في وُدٍّ يكون بشافِعِ

خرج العَطاء في أيّام المنصور، وأقام الشُّقْرانيّ ـ مِن وَلَد شُقْرانَ مولى رسول الله ﷺ ـ ببابه أيّامًا لا يصل إليه عطاؤه، فخرج جعفر بن محمّد من عند المنصور، فقام

الشُّقرانيّ إليه فذكر له حاجَته، فرحّب به، ثمّ دخل ثانيًا إلى المنصور، وخرج عطاءُ الشُّقرانيّ في كُمّه فَصَبَه في كُمّه، ثمّ قال: يا شُقران، إنّ الحَسَن من كلّ أحدٍ حَسَنٌ، وإنّه منك أحْسَن لمكانك منّا، وإنّ القبيح من كلّ أحدٍ قبيحٌ، وهو منك أقبح لمكانك منّا. فاسْتَحْسَن النّاسُ ما قاله، وذلك لأنّ الشُّقرانيّ كان صاحب شراب. قالوا: فانظر كيف أحسن السّعيّ في استنجاز طلبته، وكيف رحّب به وأكرمه مع معرفته بحاله، وكيف وَعَظَه ونهاه عن المُنكَر على وجه التّعريض! قال الزّمخشريّ: وما هو إلّا من أخلاق الأنبياء.

كَتَبَ سعيد بن حُمَيد شفاعةً لرجلٍ: كتابي هذا كتابُ مُعْتنٍ بمن كُتِب له، واثقٍ بمن كُتِب إليه، ولن يضيَع حامِلُه بين الثّقة والعناية إن شاء الله. أبو الطّيّب [الطّويل]:

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فَنَفْسُهُ إلى نفسِهِ فيها شَفيعٌ مُشَفَّعُ

كان المنصور مُعْجَبًا بمحادثة محمّد بن جعفر بن عُبَيد الله بن العبّاس، وكان النّاس لِعِظَمِ قَدْرِه عند المنصور يَفْزَعون إليه في الشّفاعات وقضاء الحاجات، فثَقُل ذلك على المنصور فحَجَبه مدّةً، ثمّ تتبّعَتْه نفسُه، فحادَثَ الرّبيع فيه، وقال: إنّه لا صَبر لي عنه، لكنّي قد ذكرتُ شفاعاته، فقال الرّبيع: أنا أشترط ألّا يعود. فكلّمه الرّبيع، فقال: نعم. فمكث أيّامًا لا يشفع، ثمّ وقف له قومٌ من قريش وغيرهم برِقاع وهو يريد دار المنصور، فسألوه أن يأخُذَ رِقاعَهم، فقَصّ عليهم القصّة، فضَرَعوا إليه وسألوه، فقال: أمّا إذ أبَيْتم قبول العُذْر فإنّي لا أقبضها منكم، ولكن هَلُمّوا فاجْعَلوها في كُمّي، فقذفوها في كُمّه، ودخل على المنصور وهو في الخَضْراء يُشْرِف على مدينة السّلام وما حولها بين البَساتين والضِّياع، فقال له: أما تَرَى إلى حُسْنها! قال: بلى يا أمير المؤمنين، فبارَكَ الله لك فيما آتاك، وهنّأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك! فما بَنَت العربُ في دولة الإسلام، ولا العَجَم في سالفِ الأيّام، أحْصَنَ ولا أحْسَنَ من مدينتك، ولكن سمّجَتْها في عيني خَصْلةٌ، قال: ما هي؟ قال: ليس لي فيها ضَيْعة، فضَحَك وقال: نحسّنها في عَيْنِكَ، ثلاثُ ضِياع قد أقطعْتُكها، فقال: أنت والله يا أمير

المؤمنين شريفُ الموارِد، كريمُ المصادِر، فجعل الله باقِيَ عمرك أكثر مِن ماضِيه، وجَعَلَتِ الرِّقاعُ تَبْدُر من كُمّيه في أثناء كلامِه وخطابه للمنصور، وهو يلتفت إليها ويقول: ارجِعْن خاسئات، ثمّ يعود إلى حديثه، فقال المنصور: ما هذه بحقّي عليك؟ ألا أعلمَتْني خبرَها! فأعلَمه فضَحِك فقال: أبَيْتَ يا بن معلِّم الخيرِ إلّا كَرَمًا! ثمّ تمثّل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب [السّريع]:

لَسْنا وإن أحسابنا كَمُلتْ ... يومًا على الأحسابِ نَتّكِلُ

نَبْني كما كانت أوائلنا ... تَبْني ونَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا

ثمّ أخذها وتصفّحها ووقّع فيها كلّها بما طلب أصحابها. قال محمّد بن جعفر: فخرجتُ من عنده وقد رَبِحْت وأربحتُ.

قال المبرّد لعبد الله بن يحيى بن خاقان: أنا أشفع إليك أصْلَحَك اللهُ في أمر فلان، فقال له: قد سمعتُ وأطعتُ، وسأفعل في أمره كذا، فما كان من نقصٍ فعليّ، وما كان من زيادة فله، قال المبرّد: أنت أطال الله بقاءك، كما قال زُهَير [الوافر]:

وجارٍ سارَ معتمدًا إلينا ... أجاءَتْهُ المخافةُ والرّجاءُ

ضمنّا مالَه فغَدَا سَليمًا ... علينا نَقْصُهُ ولهُ النَّماءُ

وقال دِعْبِل [الطّويل]:

وإنّ امْرَأً أسْدَى إليَّ بشافعٍ ... إليهِ ويَرْجُو الشّكرَ مِنّيَ لَأَحْمَقُ

شَفيعُك فاشكرْ في الحوائج إنّه ... يَصُونُك عن مكروهِها وَهْوَ يَخلُقُ

آخر [الطّويل]:

مَضَى زَمني والنّاسُ يستشفعونَ بي ... فهل لي إلى ليلى الغَداة شفيعُ!

آخر [الطّويل]:

ونُبِّئْتُ لَيلى أرسلتْ بشفاعةٍ ... إليّ، فهلّا نفسُ لَيلى شفيعُها!

أأكرَمُ من ليلَى عليّ فتبتغي ... بِهِ الجاهَ، أم كنتُ امْرَأ لا أطيعُها!

آخر[الطّويل]:

ومَن يَكُنِ الفضل بن يحيى بن خالد شفيعًا لهُ عند الخليفةِ يَنجَحُ

آخر[الكامل]:

وإذا امرؤٌ أسْدَى إليكَ صنيعةً مِن جاهِهِ، فكأنّها من مالِهِ

وهذا مثل قول الآخر[مجزوء الكامل]:

وعطاء غيرَك إن بَذَلـ ـتَ عنايةً فيه عطاؤُكْ

ابن الرّوميّ [الطّويل]:

يَنامُ الّذي استسْعاكَ في الأمرِ إنّه إذا أيْقَظَ المَلْهوف مثلك نامَا

كَفَى العَوْدُ منك البَدْءَ في كلِّ مَوْقفٍ وجُرِّدْتَ للجُلّى فكنتَ حُسامَا

فما لك تَنبُو في يدي عَن ضرِيبتي ولم أوتَ مِن هَزٍّ وكنت كهامَا!

(١٨ : ٢٠٤ ـ ٢٠٨)

## الفصل الثّالث والثّلاثون: [في الحزم والتّفريط]

**(الحكمة: ١٨٣) الأصل: ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ.**

**الشّرح:** قد سبق من الكلام في الحزم والتّفريط ما فيه كفاية[1].

**وكان يقال:** الحَزْم مَلَكةٌ يوجبها كثرة التّجارب، وأصله قوّة العقل، فإنّ العاقل خائف أبدًا، والأحمق لا يخاف، وإن خاف كان قليل الخوف، ومَن خاف أمرًا توقّاه، فهذا هو الحزم.

وكان أبو الأسود الدُّئليّ من عُقَلاء الرّجال وذَوي الحَزْم والرّأي، وحكى أبو العبّاس المبرّد قال: قال زياد لأبي الأسود ـ وقد أسنّ ـ: لولا ضَعْفُك لاستعملناك على بعض أعمالنا، فقال: للصِّراع يريدني الأمير! قال زياد: إنّ للعمل مئونة، ولا أراك إلّا تضعف عنه، فقال أبو الأسود [الكامل]:

زَعَمَ الأميرُ أبو المغيرة أنّني ... شيخٌ كبيرٌ قد دَنَوْتُ مِنَ البِلَى
صَدَق الأميرُ لقد كَبِرْتُ وإنّما ... نالَ المكارمَ مَن يدبّ على العَصَا
يا با المغيرة رُبَّ أمرٍ مُبْهَمٍ ... فرّجتُهُ بالحَزْمِ منّي والدِّهَا

**وكان يقال:** مِن الحزم والتّوقّي ترك الإفراط في التّوقّي.

لمّا نزل بمعاوية الموت وقدم عليه يزيد ابنه فرآه مسكتًا لا يتكلّم، بكى وأنشد [المنسرح]:

لوفاتَ شيءٌ يُرَى لَفاتَ أبو ... حَيّان لا عاجزٌ ولا وَكِلُ
الحُوَّل القُلّب الأريب ولا ... تَدْفَع يومَ المنيّةِ الحِيَلُ

(١٨ : ٤١٤)

---

١ ـ بحثنا في كلام الشّارح قبل هذا، و ما رأينا كلامًا مبسوطًا في الحزم و التّفريط. (م)

## الفصل الرّابع والثّلاثون: [في حُسن الثّناء وطيب الأُحدوثة]

**(الخطبة: ٢٣) ... وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ، يُورِثُهُ غيرُهُ.**

**الشّرح:** ... ثمّ إنّه عليه السلام ذكر أنّ لسان الصّدق يجعله الله للمرء في النّاس خير له من المال يورّثه غيره. ولسان الصّدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه: ﴿واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1].

وقد ورد في هذا المعنى من النّثر والنّظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنة هِرَم: ما الّذي أعطى أبوك زُهَيرًا؟ قالت: أعطاه ما لا يفنى، وثيابًا تبلى. قال: لكنّ ما أعطاكم زُهَير لا يبليه الدّهر، ولا يفنيه الزّمان.

ومن شعر الحماسة أيضًا [الطّويل]:

إذا أنتَ أعطيتَ الغِنَي ثمّ لم تَجِد ... بفضل الغنى ألفيتَ ما لك حامدُ

وقلّ غناءٌ عنكَ مالٌ جمَعتهُ ... إذا كان ميراثًا ووراك لَاحِدُ

وقال يزيد بن المهلّب: المال والحياة أحبّ شيء إلى الإنسان، والثّناء الحسن أحبّ إليّ منهما، ولو أنّي أعطيتُ ما لم يعطه أحدٌ لأحببت أن يكون لي أُذُن أسمع بها ما يقال في غدًا وقدمتّ كريمًا.

وحكى أبو عُثمان الجاحظ عن إبراهيم السّنديّ، قال: قلت في أيّام ولايتي الكوفة لرجلٍ من وجوهها، كان لا يجفّ لبده ولا يستريح قلمه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج النّاس، وإدخال السّرور على قلوبهم، والمرافق على ضُعَفائهم، وكان عَفيف الطّعمة: خبرّني عمّا هوّن عليك النَّصَب، وقوّاك على التَّعَب؟ فقال: قد والله سمعتُ غناء الأطيار بالأسحار على أغصان الأشجار، وسمعت خفق الأوتار، وتجاوب العُود والمِزمار، فما طربتُ من صوتٍ قطّ، طربي مِن ثناء حسن، على رجل محسن، فقلت: لله أبوك! فلقد ملئت كَرَمًا.

---

١ ـ الشّعراء / ٨٤.

وقال حاتم [الطّويل]:

أماويُّ إن يُصبِح صدايَ بقَفْرةٍ مِنَ الأرضِ لا ماءٌ لديَّ ولا خَمرُ
تَري أنّ ما أنفقتُ لم يَكُ ضرّني وأنّ يدي ممّا بخلتُ بهِ صفرُ
أماوِيُّ ما يُغنِي الثّراءُ عَنِ الْفَتَى إذا حشرجتْ يومًا وضاقَ بها الصّدْرُ

بعض المحدّثين: مَنِ اشترى بماله حُسن الثّناء ما غبن. من أفقره سماحتُه فذلك الفقر الغنى.

ومن أمثال الفرس: كلّ ما يُؤكل ينتن، وكلّ ما يُوهب يأرج.

وقال أبو الطّيّب: ذكر الفتى عمره الثّاني، وحاجته ما فاته، وفضول العيش أشغال.
(١ : ٣٢٨ ـ ٣٢٩)

**(الحكمة :٤٧١) الأصل: رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.**

**الشّرح:** طالما فُتِن النّاس بثناء النّاس عليهم، فيقصِر العالِم في اكتساب العلم اتّكالًا على ثَناء النّاس عليه، ويقصِر العابد في العبادة اتّكالًا على ثَناء النّاس عليه، ويقول كلّ واحدٍ منهما: إنّما أردتُ ما اشتَهَرْتُ به للصِّيت، وقد حَصَل، فلماذا أتكلّف الزّيادة، وأعاني التّعب! وأيضًا فإنّ ثَناء النّاس على الإنسان يقتضي اعتراء العُجْب له، وإعجاب المرء بنفسه مُهْلِك.

واعلم! أنّ الرّضيّ رحمه الله، قَطَعَ كتاب نهج البلاغة على هذا الفصل، وهكذا وجدت النّسخة بخطّه وقال: «هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتَزَع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: حامدين لله سبحانه على ما مَنّ به من توفيقنا لضِمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بَعُد من أقطاره، مقرّرين العزم كما شرطنا أوّلًا على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ بابٍ من الأبواب، لتكون لاقتناص الشّارد، واستلحاق الوارد ، وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض، ويقع إلينا بعد الشّذوذ، وما توفيقنا إلّا بالله، عليه توكّلنا، وهو حسبنا ونِعْم الوَكيل، نِعْم المولى ونِعْم النّصير.

ثمّ وجدنا نُسَخًا كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام، قيل: إنّها وُجِدَتْ في نسخة كتبتْ في حياة الرَضيّ رحمه الله، وقُرِئت عليه فأمضاها، وأذِن في إلحاقها بالكتاب ونحن نذكرها. (٢٠ : ١٨٠)

## الفصل الخامس والثّلاثون: [في المدح والثّناء]

(الخطبة :٢١٠) ... وَإِنَّ مِن أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِندَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ وَقَدْ كَرِهْتُ أَن يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، وَلَو كُنتُ أُحِبُّ أَن يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انحِطَاطًا لِلّهِ سُبْحَانَهُ عَن تَنَاوُلِ مَا هُو أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِن أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِن إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِندَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَن يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَن يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ ... .

**الشّرح:** ... ومنها: قوله عليه السلام: «قد كرهتُ أن تظنّوا بي حُبّ الإطراء واستماع الثّناء»، قد رُوي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «احثُوا في وجوه المدّاحين التّراب».

**وقال عمر:** المدح هو الذّبح.

**وكان يقال:** إذا سمعتَ الرّجل يقول فيك مِن الخير ما ليس فيك، فلا تأمن أن يقول فيك مِن الشّرّ ما ليس فيك.

**ويقال:** إنّ في بعض الكُتُب المُنزَّلة القديمة: عَجَبًا لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! ولمن قيل فيه الشّرّ وليس فيه كيف يغضب! وأعجب من ذلك مَن أحبّ نفسه على اليقين وأبغض النّاس على الظّنّ.

**وكان يقال:** لا يغلبنّ جَهْلُ غيرك بك عِلْمَك بنفسك.

وقال رجل لعبد الملك: إنّي أُريدُ أن أُسِرّ إليك يا أمير المؤمنين شيئًا، فقال لمن حَوْلَه: إذا شئتم فانهضوا! فتقدّم الرّجل يريد الكلام، فقال له عبد الملك: قِفْ، لا تمدحْني، فإنّي أعلم بنفسي منك، ولا تكذبْني، فإنّه لا رأي لمكذوبٍ، ولا تَغْتَبْ

عندي أحدًا، فإنّي أكره الغيبة، قال: أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف؟ قال: إذا شئت.

وناظر المأمون محمّد بن القاسم النُّوشَجانيّ في مسألة كلاميّة، فجعل النُّوشَجانيّ يخضع في الكلام ويستخذِي له، فقال: يا محمّد أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة لي عليك، وقد ساءني منك ذلك، ولوشئت أن أُفسّر الأُمور بعزّة الخلافة، وهيبة الرّياسة لصُدِّقت وإن كنت كاذبًا، وعُدِّلت وإن كنت جائرًا، وصُوِّبت وإن كنت مخطئًا، ولكنّي لا أقنع إلّا بإقامة الحجّة وإزالة الشّبهة؛ وإنّ أنقص الملوك عقلًا وأسخفهم رأيًا مَن رَضِيَ بقولهم «صدق الأمير».

وقال عبد الله بن المقفّع في «اليتيمة»: إيّاك إذا كنت واليًا أن يكون مِن شأنك حُبّ المدح والتّزكية، وأن يعرف النّاس ذلك منك فتكون ثلمة من الثُّلَم يقتحمون عليك منها ، وبابًا يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها، ويسخرون منك لها. واعلم! أنّ قابل المدح كمادِح نفسه، وأنّ المرء جَديرٌ أن يكون حُبّه المدح هو الّذي يحمله على ردّه، فإنّ الرّادّ له ممدوح، والقابل له مَعِيب.

وقال معاوية لرجل: مَن سيّد قومك؟ قال: أنا. قال: لوكنتَ كذلك لم تقله.

وقال الحسن: ذمُّ الرّجلِ نفسَه في العلانية مدحٌ لها في السِّرّ.

**كان يقال:** مَن أظهر عيب نفسه فقد زكّاها ... .

**ومنها:** أن يقال ما معنى قوله عليه السلام «وربّما استحلى النّاس الثّناء بعد البلاء...» إلى قوله: «لا بدّ من إمضائها»، فنقول: إنّ معناه أنّ بعض مَن يكره الإطراء والثّناء قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار، كما قال مِرْدَاس بن أديّة لزياد: إنّما الثّناء بعد البلاء، وإنّما يثني بعد أن يبتلى، فقال: لو فرضنا أنّ ذلك سائغ وجائز وغير قبيح، لم يجز لكم أن تثنوا عليّ في وجهي ولا جاز لي أن أسمَعه منكم، لأنّه قد بقيتْ عليّ بقيّة لم أفرغ من أدائها، وفرائض لم أمضها بعد، ولابدّ لي من إمضائها، وإذا لم يتمّ البلاء الّذي قد فرضنا أنّ الثّناء يحسن بعده، لم يحسن الثّناء.

ومعنى قوله: «لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم» أي لاعترافي بين يدي الله

وبمحضرمنكم أنّ عَلَيّ حقوقًا في إيالتكم، ورياستي عليكم، لم أقم بها بعد، وأرجو من الله القيام بها.

ومنها: أن يقال ما معنى قوله: «فلا تخالطوني بالمصانعة»؟، فنقول: إنّ معناه لا تصانعوني بالمدح والإطراء عن عمل الحقّ، كما يصانع به كثيرمن الولاة الّذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثّناء، فيغمضون عن اعتماد كثيرٍمن الحقّ مكافأة لما صُونعوا به من التّقريظ والتّزكية والنّفاق. (١١: ١٠٣ ـ ١٠٧)

**(الخطبة: ١٤٢) الأصل: ومن كلام له عليه السلام: وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِندَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنعِمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَعَن ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ! ... .**

**الشّرح:** هذا الكلام يتضمّن ذمّ مَن يخرج ماله إلى الفتيان والأقران والشّعراء ونحوهم، ويبتغي به المدح والسّمعة، ويعدل عن إخراجه في وجوه البرّ وابتغاء الثّواب، قال عليه السلام: ليس له من الحظّ إلّا محمدة اللّئام وثناء الأشرار، وقولهم: ما أجود يده! أي ما أسمحه! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله، يعني الصّدقات وما يجرى مجراها من صِلَة الرَّحِم والضّيافة وفكّ الأسيروالعاني، وهو الأسيربعينه، وإنّما اختلف اللّفظ. (٩ : ٧٤)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.**

**الشّرح:** ... قال: «ثمّ رُضْهُمْ على ألّا يُطْرُوكَ»، أي عودهم ألّا يمدحوك في وجهك، ولا يبجّحوك بباطل: لا يجعلوك ممّن يبجَح، أي يفخربباطل لم يفعله، كما يُبَجِّح أصحاب الأُمراء الأُمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولاأسمحَ، ولا حَمَى هذا الثّغرَ أميرأشدّ بأسًا منكم! ونحو ذلك، وقد جاء في الخبر: « احْثُوا في وجوه

المدّاحين التّراب».

وقال عبد الملك لمن قام يسارّه: ما تريد! أتريد أن تمدَحَني وتَصِفني، أنا أعلم بنفسي منك.

وقام خالد بن عبد الله القَسْريّ إلى عمر بن عبد العزيز يوم بَيْعته، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن كانت الخلافة زائِنَته فقد زيّنتَها، ومَن كانت شرَفته فقد شرّفتها، فإنّك لكما قال القائل [الخفيف]:

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهكَ زَيْنَا

فقال عمر بن عبد العزيز: لقد أُعْطِي صاحبُكم هذا مِقْوَلًا، وحُرِم مَعْقولًا. وأمره أن يجلس.

ولما عَقَد معاوية البَيْعة لابنه يزيد، قام النّاس يخطبون، فقال معاوية لعمرو بن سعيد الأشدق: قُمْ فاخْطب يا أبا أُميّة، فقام، فقال: أمّا بعد، فإنّ يزيد ابن أمير المؤمنين أمَلٌ تأملونه، وأجَلٌ تأمَنونه، إن افتقرتم إلى حِلْمه وَسِعَكم، وإن احتَجْتُم إلى رأيه أرشَدَكم، وإن اجتَدَيتم ذاتَ يده أغناكم وشَمِلكم، جِذْعٌ قارحٌ، سُوبِق فَسَبق، ومُوجِد فمُجِد، وقُورِع فَقَرع، وهو خَلَف أمير المؤمنين، ولا خَلَف منه، فقال معاوية: أوْسَعْتَ يا أبا أُميّة فاجْلس، فإنّما أردنا بعض هذا.

وأثنى رجلٌ على عليّ عليه السلام في وجهه ثناء أوسع فيه ـ وكان عنده متّهمًا ـ فقال له: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك.

وقال ابن عبّاس لعُتْبة بن أبي سُفْيان وقد أثنى عليه فأكثر: رُوَيْدًا، فقد أمْهَيْتَ يا أبا الوليد، يعني بالغتَ، يقال: أمْهَى حافِرُ البِئْر، إذا اسْتَقْصى حَفْرَها ... .

(١٧ : ٤٥ ـ ٤٦)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِن أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِن**

إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

**الشّرح:** ومنها قوله: «وحُبّ الإطراء»، نَاظَر المأمون محمّد بن القاسم النُوشَجانيّ المتكلّم، فجعل يصدقه ويُطْرِيه ويستحسن قوله، فقال المأمون: يا محمّد، أراك تنقاد إلى ما تظنّ أنّه يسرّني قبل وجوب الحجّة لي عليك، وتُطْرِيني بما لستُ أحبّ أن أُطْرَى به، وتستخذِي لي في المقام الّذي ينبغي أن تكون فيه مقاومًا لي، ومحتجًّا عليّ، ولو شئت أن أقسِر الأُمور بفَضْل بيان، وطُولِ لسان، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة، وأُبْهة الرّياسة لصُدِّقتُ وإن كنت كاذبًا، وعَدلتُ وإن كنت جائرًا، وصُوِّبتُ وإن كنتُ مخطئًا، لكنّي لا أرضَى إلّا بغَلَبة الحجّة، ودفع الشّبهة، وإنّ أنقَصَ الملوك عقلًا، وأسخفهم رأيًا، مَن رَضيَ بقولهم: صَدَق الأمير.

وأثنى رجلٌ على رجل، فقال: الحمد لله الّذي سَتَرني عنك.

وكان بعض الصّالحين يقول: إذا أطراه إنسان ليسألك الله عن حُسْن ظنّك.

(١٧ : ١١٤ ـ ١١٥)

**(الحكمة: ٣٦) الأصل: وَقَالَ عليه السلام وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ دَهَاقِينُ الْأَنْبَارِ، فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ:**

**مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا، فَقَالَ: وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي أُخْرَاكُمْ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ.**

الشّرح: ... وقال: إنّكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تَعَب الأبدان. وتَشْقَوْن به في آخرتكم: تخضعون للوُلاة، كما زعمتم أنّه خُلُقٌ وعادةٌ لكم، خضوعًا تطلبون به الدّنيا والمنافع العاجلة فيها، وكلّ خضوع وتذلّل لغير الله فهو معصية.

ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة، والرّبح المبين دَعَةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النّار. (١٨ : ١٥٦)

**(الحكمة: ٨٠) الأصل: وَقَالَ عليه السلام لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَهُ مُتَّهِمًا: أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ.**

**الشّرح:** قد سَبَق منّا قولٌ مُقْنِع في كراهيّة مدح الإنسان في وجهه.

وكان عمر جالسًا وعنده الدِّرّة، إذ أقبل الجارُود العَبْدِيّ، فقال رجل: هذا الجارود سيّد ربيعة، فسمعها عمر ومَن حَوْله، وسمعها الجارود، فلمّا دنا منه خَفَقَه بالدِّرّة، فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ما لي ولك! أما لقد سمعتها، قال: وما سمعتها فمه! قال: ليخالطنّ قلبك منها شيء، وأنا أحبّ أن أطأطئ منك.

**وقالت الحكماء:** إنّه يَحْدُث للممدوح في وجهه أمران مُهْلِكان: **أحدهما** الإعجاب بنفسه. **والثّاني** إذا أثنى عليه بالدِّين أو العلم فَتَر وقَلّ اجتهادُه، ورَضِي عن نفسه، ونَقَصَ تَشْميرُه وجِدُّه في طلب العلم والدِّين، فإنّه إنّما يتشمّر مَن رأى نفسَه مُقصِّرًا، فأمّا مَن أُطلِقت الألسن بالثّناء عليه، فإنّه يظنّ أنّه قد وصل وأدرك، فيقلّ اجتهاده، ويتّكل على ما قد حصل له عند النّاس، ولهذا قال النّبيّ صلى الله عليه وآله لمن مدح إنسانًا كاد يسمعه: «وَيحك! قطعتَ عُنُق صاحبك، لو سمعها لما أفْلَح».

فأمّا قوله عليه السلام له: «وفوق ما في نفسك»، فإنّه إنّما أراد أن يُنبّهه على أنّه قد عرف أنّه كان يقَعَ فيه، وينحرف عنه، وإنّما أراد تعريفه ذلك لما رآه من المصلحة، إمّا لظنّه أنّه يقلع عمّا كان يذمّه به، أو ليُعْلِمَه بتعريفه أنّه قد عرف ذلك، أو ليخوّفه ويَزْجُرَه، أو لغير ذلك. (١٨: ٢٣٣ ـ ٢٣٤)

**(الحكمة: ٣٥٣) الأصل: الثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الْاِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْاِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ.**

**الشّرح:** كانوا يَكْرَهون أن يُثنيَ الشّاعرُ في شعره على الممدوح الثّناء المُفْرط، ويقولون: خير المدح ما قارَبَ فيه الشّاعر واقتَصَد، وهذا هو المذهب الصّحيح، وإن كان قومٌ يقولون: إنّ خير الشّعر المنظوم في المدح ما كان أشدّ مُغالاةً وأكثر تبجيلًا

وتعظيمًا ووصفًا ونعتًا.

وينبغي أن يكون قوله ﷺ محمولًا على الثّناء في وجه الإنسان، لأنّه هو الموصوف بالملَق إذا أفرَط، فأمّا مَن يُثني بظَهر الغَيب فلا يُوصَف ثناؤه بالملَق، سواء كان مُقتَصِدًا أو مُسرِفًا.

وقوله ﷺ: «والتّقصير عن الاستحقاق عِيٌّ أو حسد» لا مَزيد عليه في الحُسن، لأنّه إذا قَصّر به عن استحقاقه كان المانع: إمّا من جانب المثني فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه، أو مع تعلّق به. فالأوّل هو العِيّ والحصر، والثّاني هو الحسد والمنافسة. (١٩ : ٢٦٢)

**(الحكمة: ٩٦) الأصل: وَقَالَ ﷺ وَمَدَحَهُ قَوْمٌ فِي وَجْهِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِن نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في كراهيّة مَدح الإنسان في وجهه.

وفي الحديث المرفوع: «إذا مَدَحتَ أخاك في وَجْهه، فكأنّما أمرَرتَ على حَلْقِه موسى وَمِيضه».

وقال أيضًا لرجل مَدَح رجلًا في وجهه: «عَقَرْتَ الرّجل عَقَرَكَ الله».

وقال أيضًا: «لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْفٍ مرهَفٍ كان خيرًا له من أن يُثْنيَ عليه في وجهه».

ومن كلام عمر: المَدْح هو الذّبح. قالوا: لأنّ المذبوح ينقطع عن الحركة والأعمال، وكذلك الممدوح يَفتُر عن العمل.

ويقول: قد حَصَل في القلوب والنّفوس ما استغنَى به عن الحركة والجدّ.

ومن أمثال الفلّاحين: إذا طار لك صيتٌ بين الحَصّادة، فاكْسِر مِنجَلَك.

وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير: ما سمعت من ثناء أحدٍ عليّ، أو مدحه أحدٍ لي،

إلّا وتصاغرتُ إلى نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحدٌ سَمِع ثناءَ أحدٍ عليه إلّا وتراءى له شيطان، ولكنّ المؤمن يراجع.

فلمّا ذُكِر كلامهما لابن المبارك، قال: صَدَقا، أمّا قول زياد فتلك قلوب العوامّ، وأمّا قول مُطرِّف فتلك قلوب الخواصّ. (١٨ : ٢٥٦ ـ ٢٥٧)

## الفصل السّادس والثّلاثون:

## [الأخبار والآيات الواردة في مدح الوفاء وذمّ الغدر]

**(الخطبة: ٤١) أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنهُ، وَمَا يَغْدِرُمَنِ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ، وَلَقَدْ أَصْبَحْنا فِي زَمَانٍ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَكَيْسًا، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ ... .**

**الشّرح:**...أراد المضاءُ أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبد الله [١].

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمّد بن قَحْطبة مولى باهلة وكان قد وُلِّيَ لأبي جعفر المنصور بعض أعمالٍ بفارس، فقال له: هل عندك مال؟ قال: لا. قال: آلله؟ قال: آلله. قال: خلّوا سبيله. فخرج ابن قَحْطبة، وهو يقول بالفارسيّة، ليس هذا من رجال أبي جعفر.

وقال لعبد الحميد بن لاحق: بلغني أنّ عندك مالًا للظّلمة، يعني آل أبي أيُّوب المورياني كاتب المنصور، فقال: ما لهم عندي مالٌ، قال: تُقْسِم بالله؟ قال: نعم. فقال: إن ظهرَلهم عندك مالٌ لأعدّنّك كذابًا [٢].

وأرسل إلى طلحة الغدريّ وكان للمنصور عنده مال: بلغنا، أنّ عندك مالًا فأتنا به، فقال: أجل، إنّ عندي مالًا، فإن أخذتَه منّي أغرمَنيه أبو جعفر، فأضرب عنه.

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النّوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدّنيا بسبيلٍ، وإنّما يطلبونها ليقيموا عمود الدّين بالإمرة

---

١ ـ هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، دخل البصرة على عهد أبي جعفر المنصور ، ودعا النّاس إلى أخيه محمّد بن عبد الله، فبايعه كثيرون من أهلها ، ثمّ استولى على الأهواز وواسط ، ولم يزل بها حتّى أتاه نعي أخيه محمّد قبل فطرسنة١٤٥ بثلاثة أيّام، فأرسل إليه أبو جعفرقائده عيسى بن موسى، فخرج إبراهيم لملاقاته، والتقيا عند باخمرى ، وكانت العاقبة لعيسى، وقُتِل إبراهيم لخمس ليالٍ بَقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ ، والمُضاء أحد رجاله . مقاتل الطّالبيّين: ٣١٥ وما بعدها ، وتاريخ الطّبريّ (حوادث سنة ١٤٥) .

٢ ـ مقاتل الطّالبيّين : ٣٣٣ .

فيها، فلم يستقم لهم، والدّنيا إلى أهلها أميَل.

ومن الأخبار النّبويّة المرفوعة في ذمّ الغَدْر: «ذمّة المسلمين واحدة، فإن أجارت عليهم أُمّة منهم، فلا تخْفِروا جوارها، فإنّ لكلّ غادرٍ لِواء يُعْرَف به يوم القيامة»[1]. وروى أبو هُرَيرة، قال: مرّ رسول الله ﷺ برَجُل يبيع طعامًا فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأمر أبا هريرة أن يُدخِل فيه يده، فأدخلها فإذا هو مبلول، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا مَن غشّ».

قال بعض الملوك لرسولٍ وَرَد إليه من مَلِكٍ آخر: أطّلعْني على سرّ صاحبك، فقال: أيّها المَلِك، إنّا لانستحسن الغَدْر، وإنّه لوحُوِّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عِوَض من قُبْحه، ولكان سماجة اسمه، وبشاعة ذكره، ناهِيَين عنه.

مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانةً أن يكون أمينًا للخونة.

وقّع جعفر بن يحيى على ظَهْر كتابٍ كتبه عليّ بن عيسى بن ماهان إلى الرّشيد، يسعى[2] فيه بالبرامكة، فدفعه الرّشيد إلى جعفر، يمنّ به عليه، وقال: أجِبْه عنه، فكتب في ظاهره: حبّبَ اللهُ إليك الوفاء يا أخي فقد أبغضتَه، وبغّض إليك الغَدَر فقد أحببتَه، إنّي نظرت إلى الأشياء حتّى أجد لك فيها مشبّهًا فلم أجد، فرجعت إليك، فشبّهتك بك، ولقد بلغ من حسن ظنّك بالأيّام أن أمّلْت السّلامة مع البغي، وليس هذا من عاداتها. والسّلام.

كان العهد في عيسى بن موسى بن محمّد بعد المنصور بكتاب كتبه السّفّاح، فلمّا طالت أيّام المنصور، سامه أن يخْلِع نفسه من العهد، ويقدّم محمّدًا المهديّ عليه، فكتب إليه عيسى [الطّويل]:

بَدَتْ لي أمارات من الغَدْر شِمْتُها ... أرى ما بدا منها سيُمْطركم دَمَا

وما يعلم العالي متى هبطاتُه ... وإن سار في ريح الغُرور مُسَلّمَا

---

١ ـ نقله السّيوطيّ في «الجامع الصّغير» ٢ : ٣٠ عن الحاكم، مع اختلاف في الرّواية.

٢ ـ السّعي هنا: الوشاية.

أبو هُرَيرة يرفعه: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الجُوع فبئس الضّجيع، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة!

وعنه مرفوعًا: المكر والخديعة والخيانة في النّار.

قال مروان بن محمّد لعبد الحميد الكاتب، عند زوال أمره: أرى أن تصير إلى هؤلاء، فلعلّك أن تنفعني في مخلفي. فقال: وكيف لي بعلم النّاس جميعًا أنّ هذا عن رأيك! إنّهم ليقولون كلّهم: إنّي غَدَرتُ بك، ثمّ أنشد [الوافر]:

وغَدْري ظاهرٌ لا شكّ فيه لمبصره وعذري بالمغَيَّب

فلمّا ظفر به عبد الله بن عليّ، قطع يديه ورِجْليه، ثمّ ضرب عنقه.

كان يقال: لا يغدر غادر إلّا لصِغَر همّته عن الوفاء، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم.

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غَدْر، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى.

**قلت:** هذا إنّما يريد به إذا كان بينهما عَهْد ومُشارطة، فغدر أحد الفريقَين، وخاس بشرطه، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضًا ولا يفي به. ومن شعر الحماسة، واسم الشّاعر العارق الطّائيّ[1]:

مَن مبلغٌ عمرَو بنَ هندٍ رسالةً إذا استحقَبتْها العِيسُ جاءتْ مِنَ البُعْدِ

أيوعدُني الرّمْلُ بيني وبينَهُ تبيَّن رُوَيدًا ما أمامَةُ مِن هِندِ!

---

١ ـ واسمه أيضًا قيس بن جروة الطّائيّ، والأبيات في ديوان الحماسة بشرح المرزوق ٣: ١٤٦٦، ١٤٦٧. قال الشّارح: كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفضًا، فمرّبطيئ. وكانوا في ذمّته بكتاب عقد اكتتبه لهم، وعهد أحكمه معهم، فقال زُرارة بن عدس له: أبيت اللّعن! أصبَ من هذا الحيّ شيئًا. قال: ويلك! إنّ لهم عقدًا لا يجوز لنا تخطّيه. فأخذ زُرارة يُهَوِّن أمر العهد عليه، ويحسن الإيقاع بهم، فلم يزل يفتل له في الذّروة والغارب معه لشيء كان في نفسه على طيّء، حتّى أصاب أذوادًا ونساء، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعصّب بها رأسه فيها بالغدر الّذي كان منه، فوقعت الأبيات إلى عمرو بن هند، فتوعّد عارقًا وحلف أنّه يقتله، فاتّصلت مقالته بعارق، فقال هذه الأبيات.

ومِن أجَأ حولي رِعانٌ كأنّها قنابلُ خَيلٍ من كُمَيتٍ ومِن وَرْدِ
غَدَرْتَ بأمرٍ كنتُ أنتَ اجْتَرَرْتَنَا إليه، وبئسَ الشِّيمةُ الغَدْرُ بالعَهْدِ

قال أبو بكر الصّدّيق: ثلاثٌ مَن كُنّ فيه كنّ عليه: البغي والنّكث والمكر، قال سبحانه: ﴿يَا ءَ يُّهَا النَّاسُ اِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلٰى اَنفُسِكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿فَمَن نَكَثَ فَاِنَّمَا يَنكُثُ عَلٰى نَفْسِهِ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ اِلَّا بِاَهْلِهِ﴾[3]. (٢ : ٣١٢ ـ ٣١٧)

**(الحكمة: ٢٥٦) الأصل: الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ.**

**الشّرح:** معناه أنّه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يَغْدِر ولا يَفي بأقواله وإيمانه وعُهوده، لم يجز الوَفاء له، ووجب أن ينقض عُهوده ولا يُوقَف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاء عند الله تعالى، بل هو كالغَدْر في قُبْحه، والغَدْر بمن هذه حاله ليس بقبيح، بل هو في الحسن كالوفاء لمن يستحقّ الوفاء عند الله تعالى. (١٩ : ١٠٢)

---

١ ـ يونس / ٢٣ .

٢ ـ الفتح / ١٠ .

٣ ـ فاطر / ٤٣ .

## الفصل السّابع والثّلاثون:

## [نبذ من الأقوال الحكيمة في الوَعْد والمَطْل]

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَإِيَّاكَ وَالمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوالتَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِن فِعْلِكَ، أَوْ أَن تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ المَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِندَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ اَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ... .**

**الشّرح:** ... **ومنها:** نهيه إيّاه عن خُلْف الوَعْد، قد مدح الله نبيًّا من الأنبياء وهو إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام بصِدْق الوعد.[1]

**وكان يقال:** وَعْد الكريم نَقْد وتَعْجيل، ووَعْدُ اللّئيم مَطْل وتَعْطيل.

وكتب بعض الكُتّاب: وحقّ لمن أزهر بقول، أن يُثمِر بفِعْل.

وقال أبو مُقاتل الضَّرير: قلتُ لأعرابيّ: قد أكثر النّاس في المواعيد، فما قولك فيها؟ فقال: بئس الشّيء الوَعْد، مَشْغلة للقلب الفارغ، متْعَبة للبدن الخافض، خيره غائب، وشرّه حاضر.

وفي الحديث المرفوع: «عِدَة المؤمن كأخذٍ باليد». فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «إنّه يوجب المَقْت»، واستَشْهَدَ عليه بالآية. (١٧ : ١١٥)

**(الحكمة: ٣٤١) الأصل: المَسْؤُولُ حُرٌّ حَتَّى يَعِدَ.**

**الشّرح:** قد سبق القول في الوَعْد والمَطْل. ونحن نذكرها هنا نُكَتًا أُخرى:

في الحديث المرفوع: «مَن وَعَدَ وَعْدًا فكأنّما عَهِدَ عَهْدًا».

**وكان يقال:** الوَعْدُ دَيْنُ الكِرام، والمَطْلُ دَيْنُ اللِّئام.

**وكان يقال:** الوَعدُ شَبَكةٌ من شِبَاكِ الأحرارِ يتصيّدون بها المحامدَ.

---

١ ـ كذا، وفي أنّ إسماعيل صادق الوعد غير إسماعيل بن إبراهيم خليل الرّحمان أو هو نفسه فيه اختلاف راجع تفسير آية: ٥٤ من سورة مريم.

وقال بعضهم: الوَعْدُ مَرَضُ المعروفِ، والإنجاز بُرْؤه.

وقال يحيى بن خالد: الوَعْدُ سِحابٌ، والإنجاز مَطَرُه.

وفي الحديث المرفوع: «عِدَةُ المؤمنِ عطيّة».

وعنه عليه السلام: «لاتُواعِد أخاك مَوْعدًا لتُخْلِفَه».

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بَنِيّ، كونوا أُسدًا في الأقوال، نُجَازًا في الأفعال، ولا تَعِدُوا إلّا وتُنجزوا، فإنّ الحُرّ يَثِقُ بوَعْدِ الكريم، وربّما أدّان عليه.

وكان جعفر بن يحيى يكره الوَعْد ويقول: الوَعْد من العاجز، فأمّا القادر فالنّقد.

وفي الحديث المرفوع: «مَطْلُ الغَنِيّ ظُلْمٌ».

وقال ابن الفَضْل [الكامل]:

أثْرَوْا ولم يَقْضُوا دُيونَ غَريمِهِمْ واللّؤمُ كلّ اللّؤمِ مَطْلُ المُوسِرِ

وقال الآخر [الوافر]:

إذا أتَتِ العَطيّةُ بَعْدَ مَطْلٍ فلا كانتْ وإن كانتْ سَنِيّهْ

وكان يقال: المَطْل يَسُدّ على صاحبه باب العُذْر، ويوجب عليه الأحسن والأكثر.

والتّعجيل يُحَسِّن سَيِّئَه، ويَبْسُط عُذْره في التّقليل.

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بُنيّ لا تمَطّلُوا مَعْروفكم، فإنّ كثير العَطاء بعد المَطْل قليل، وعجّلوا فإنّ عُذْركم مقبول مع التّعجيل.

ومن كلام الحسن بن سَهْل: المَطْل يُذْهِب رَوْنَق البِرّ، ويكدّر صَفْو المعروف، ويُحْبِط أجر الصَّدَقة، ويَعْقِل اللّسان عن الشّكر.

وللتّعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة، ولذّة وإن صَغُرت الصّنيعة، وربّما عَرَض ما يمنع الإنجاز مِن تَعذُّر الإمكان، وتغيّر الزّمان، فبادر المُكْنَة، وعاجِل القُدْرة، وانتهز الفُرْصة. وقال الشّاعر [الوافر]:

تُحِيلُ على الفراغِ قَضاء شُغْلي وأنتَ إذا فَرَغْتَ تكونُ مِثْلي

فلا أدْعَى بحادِمِك المُرَجَّى ولا تُدْعَى بسيّدنا الأجلِّ

وقال آخر[السّريع]:

لوعَلِم الماطِل أنّ المِطالَ فَقْدٌ به يذهب طَعْم النَّوالْ
وإنّ أعْـلَى البِـرّمـا نَالَـه طالبُهُ نَقْدًا عَقيبَ السّؤالْ
عَجَّـلَ للسّـائلِ معروفَـهُ مهنّأ مِن طُولِ قِيلٍ وقَالْ

(١٩ : ٢٤٨ ـ ٢٤٩)

## الفصل الثّامن والثّلاثون:

## [في السّرّ والأمر بكتمانه، و إفشائه]

(الخطبة: ١٠٢) ... وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إِن شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِن غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، وَأَعْلَامُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ، وَلَا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

**الشّرح:** ... وأمّا إفشاء السّرّ وإذاعته، فقد وَرَدَ فيه أيضًا ما يكثر، ولولم يرد فيه إلّا قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ *هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1]، لكَفَى.

وفي الحديث المرفوع: «مَن أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها مِن نار جهنّم». قيل في تفسيره: هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعًا بسعايته.

الجُنَيد: سَتْر ما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننتَ.

عبد الرحمن بن عوف: مَن سمع بفاحشةٍ فأفشاها، فهو كالّذي أتاها.

قال رجل لعمرو بن عبيد: إنّ عليًّا الأسواريّ لم يزل منذ اليوم يذكرك بسوءٍ ويقول: الضّال، فقال عمرو: يا هذا، ما رعيتَ حقّ مجالسة الرّجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا وفّيتني حقّي حين أبلغتني عن أخي ما أكرهه. اعْلم! أنّ الموت يعمّنا، وَالبَعْث يحشرنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

**وكان يقال:** مَن نَمّ إليك نَمّ عليك.

وقالوا في السُّعاة: يكفيك أنّ الصّدق محمود إلّا منهم، وإنّ أصدقهم أخبثهم.

وَشَى واشٍ برجل إلى الإسكندر، فقال له: أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه، على أن أقبل منه ما قال فيك؟ قال: لا. قال: فكفّ عن السّرّ يكفّ عنك.

قال رجل لفيلسوف: عابَكَ فلانٌ بكذا. قال: لقيتَني لِقحتَك بما لم يلقني به لحيائه.

---

١ ـ القلم/١٠ ـ ١١.

عاب مُصْعَب بن الزّبير الأحنف عن شيء بلغه عنه، فأنكره، فقال: أخْبَرَني بذلك الثّقة، فقال: كلّا أيّها الأمير إنّ الثّقة لا يَنِمّ!.

عرض بعضُ عُمّال الفضل بن سَهْل عليه رقعةَ ساعٍ في طيّ كتابٍ كتبه إليه، فوقّع الفضل: قبول السّعاية شرّ من السّعاية، لأنّ السّعاية دلالة، والقبول إجازه، وليس مَن دَلّ على قبيح كمَن أجازه وعمل به، فاطْرُد هذا السّاعيَ عن عملك، واقْصِه عن بابك، فإنّه لو لم يكن في سعايته كاذبًا لكان في صِدْقه لئيمًا، إذ لم يَرْعَ الحرمة، ولم يَسْتر العَوْرة، والسّلام.

صالح بن عبد القدّوس [الرّمل]:

مَن يخبِّرْكَ بشَتْمٍ عن أخٍ ... فَهُوَ الشّاتمُ، لا مَن شَتَمَكْ
ذاك شيءٌ لم يُواجِهْكَ بهِ ... إنّما اللّوْمُ على مَن أعْلَمَكْ
كيف لم يَنْصُرْكَ إن كان أخًا ... ذا حفاظٍ عند مَن قد ظَلَمَكْ!

طُرَيح بن إسماعيل الثّقفي [البسيط]:

إن يَعْلمُوا الخيرَ يخفُوهُ وإن عَلِمُوا ... شَرًّا أذاعوا، وإن لم يعلموا كَذَبوا

(٧ : ١١١ ـ ١١٣)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِن صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِن إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِن مَنطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ ... .**

الشّرح: ... قوله: «المرء أحفظ لسرّه» أي الأولى ألّا تبوح بسرّك إلى أحدٍ، فأنت أحفظ له من غيرك، فإن أذَعْتَه فانتشِرْ فلا تَلُم إلّا نفسك، لأنّك كنتَ عاجزًا عن حفظ سرّ نفسك، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيّ أعجز، قال الشّاعر[الطّويل]:

إذا ضَاقَ صَدْرُ المرء عن حِفْظِ سِرّهِ ... فصَدْرُ الّذي يَستودعُ السِّرّ أضْيَقُ

(١٦ : ٩٩)

**(الحكمة: ٦) الأصل: صَدْرُالْعَاقِلِ صُندُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالْاِحْتِمَالُ قَبْرُالْعُيُوبِ ....**

**الشّرح:** هذه فصول ثلاثة: الفصل الأوّل: قوله: «صدر العاقل صُندُوق سرّه»، قد ذكرنا فيما تقدّم طَرَفًا صالحًا في كتمان السّرّ.

**وكان يقال:** لا تُنكِح خاطبَ سِرّك.

قال معاوية للنّجّار العذريّ: ابْغِ لي محدّثًا. قال: معي يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، أستريح منك إليه، ومنه إليك، وأجعله كتومًا، فإنّ الرّجل إذا اتّخذ جَليسًا ألقى إليه عُجَره وبُجَره.

وقال بعض الأعراب: لاتضع سِرّك عند مَن لا سِرّ له عندك.

وقالوا: إذا كان سِرّ المَلِك عند اثنين دخلتَ على المَلِك الشُّبْهة، واتّسعت على الرّجلَين المعاذير، فإن عاقبهما عند شِياعه، عاقب اثنين بذَنبٍ واحدٍ، وإن اتّهمهما اتّهم بَريئًا بجناية مجرم، وإن عَفَا عنهما كان العَفو عن أحدهما ولاذَنب له، وعن الآخر ولاحجّة عليه .... (١٨ : ٩٧ ـ ٩٨)

**(الحكمة: ٢٦) الأصل: مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ.**

**الشّرح:** قال زُهَير بن أبي سَلْمى [الطّويل]:

ومَهْمَا تَكُن عند امْرِئٍ مِن خَليقةٍ وإن خالهَا تَخْفَى على النّاس تُعْلَمِ

وقال آخر [الطّويل]:

تخبّرنِيَ العَيْنانِ ما القَلْبُ كاتمٌ وما جَنَّ بالبَغْضاء والنّظرِ الشَّزْرِ

وقال آخر [الوافر]:

وفي عَيْنَيكَ تَرْجمَةٌ أراها تَدُلّ على الضَّغائنِ والحُقُودِ

وأخلاقٌ عَهِدْتُ اللّيْنَ فيها غَدَتْ وكأنّها زُبَرُ الحديدِ

وقد عاهَدْتَنِي بخلافِ هذا وقال الله: ﴿اَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

**وكان يقال:** العين والوَجْه واللّسان أصحاب أخبار على القلب. وقالوا: القلوب كالمرايا المتقابلة، إذا ارتسَمَتْ في إحداهنّ صورةٌ ظَهَرتْ في الأُخرى. (١٨ : ١٣٧)

**(الحكمة: ٤٥): الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الأَسْرَارِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في كِتْمان السّرّ وإذاعته.

وقال الحُكَماء: السّرّ ضَرْبان:

**أحدهما:** ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستكتَم، وذلك إمّا لفظًا، كقول القائل: اكْتُم ما أقوله لك، وإمّا حالًا وهو أن يجهر بالقول حال انفراد صاحبه، أو يخفّض صوته حيث يخاطبه، أو يُخْفِيه عن مجَالِسِيه، ولهذا قيل: إذا حدّثك إنسانٌ والتَفَتَّ إليه فهو أمانة.

**والضّرب الثّاني،** نوعان:

**أحدهما:** أن يكون حديثًا في نفسك تستقبح إشاعته.

**والثّاني :** أن يكون أمرًا تريد أن تفعله.

وإلى الأوّل أشار النّبيّ ﷺ بقوله: «مَن أتى منكم شيئًا من هذه القاذُورات فَلْيَستَتِر بسَتْر الله عَزَّ وجَلَّ». وإلى الثّاني أشار مَن قال: «مِنَ الوَهَن والضّعف إعلانُ الأمر قبل إحكامه». وكتمان الضّرب الأوّل من الوفاء، وهو مخصوص بعوامّ النّاس، وكتمان الضّرب الثّاني من المروءة والحَزْم، والنّوع الثّاني من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السّياسات.

**قالوا:** وإذاعة السّرّ من قلّة الصّبر، وضِيق الصّدر، ويوصف به ضَعَفة الرّجال والنّساء والصّبيان. والسّبب في أنّه يَصْعُب كتمان السّرّ أنّ للإنسان قوّتَين: إحداهما آخِذةٌ، والأُخرى مُعْطِيَةٌ، وكلّ واحدة منهما تتشوّق إلى فِعْلِها الخاصّ بها، ولولا أنّ

الله تعالى وَكَل المُعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار مَن لم تُزَوِّد، فعَلَى الإنسان أن يمسك هذة القوّة ولا يطلِقها إلّا حيث يجب إطلاقها، فإنّها إن لم تُزَمّ وتُخطَم، تقحّمتْ بصاحبها في كلّ مَهْلَكةٍ. (١٨ : ١٧٧ ـ ١٧٨)

**(الحكمة: ١٦٤) الأصل: مَن كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في السّرّ والأمر بكتمانه، ونذكر هاهنا أشياء أُخَر.

من أمثالهم: مَقْتل الرّجل بين لَحْيَيْه.

دنا رجلٌ من آخر فسارّه، فقال: إنّ مِن حقّ السّرّ التّداني. كان مالك بن مِسْمَع: إذا سارّه إنسانٌ قال له: أظهره، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتومًا.

حكيمٌ يُوصي ابنه: يا بُنَيّ، كُن جَوادًا بالمال في موضع الحقّ، ضَنينًا بالأسرار عن جميع الخَلْق، فإنّ أحمد جُود المرء الإنفاق في وجه البرّ.

ومن كلامهم: سِرُّك مِن دَمَك، فإذا تكلّمتَ به فقد أرَقْتَه. وقال الشّاعر[المتقارب]:

فلا تُفْشِ سِرّك إلّا إليكَ ... فإنّ لكلّ نَصيحٍ نَصيحَا

ألم تَرَ أنّ غُواةَ الرّجا ... ل لا يتركونَ أديمًا صحيحَا!

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوْعِيةُ الأسرار والشِّفاه أقفالها، والألسن مفاتِيحُها فليحفظ كلّ امرئٍ مفتاح سِرّه.

وقال بعض الحكماء: مَن أفْشَى سِرّه كَتُر عليه المتآمرون.

أسرّ رجل إلى صديق سِرًّا، ثمّ قال له: أفهمتَ؟ قال له: بل جهلتُ، قال: أحفظت؟ قال: بل نسيتُ.

وقيل لرجل: كيف كتمانك السّرّ؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر.

أنشد الأصمعيّ قول الشّاعر[الطّويل]:

إذا جاوزَ الاثنينِ سِرٌّ فإنّه ... بنَثٍّ وتكثيرِ الوُشاةِ قَمِينَ

فقال: والله ما أراد بالاثنَين إلّا الشَّفَتَين. (١٨ : ٣٨٤ ـ ٣٨٥)

## الفصل التّاسع والثّلاثون: [في مدح الصّبر وانتظار الفَرَج]

**(الخطبة: ٢٣) أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِن زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً ... .**

**الشّرح:** واعلم! أنّه عليه السّلام بعد أن نهى عن الحسد أمر بالصّبر وانتظار الفرج من الله، إمّا بموتٍ مَريحٍ، أوبظفرٍ بالمطلوب. والصّبر من المقامات الشّريفة، وقد ورد فيه آثار كثيرة:

روى عبد الله بن مسعود عن النّبيّ ﷺ: إنّ الصّبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كلّه.

وقالت عائشة: لوكان الصّبر رجلًا لكان كريمًا.

**وقال عليّ** عليه السلام: الصّبر إمّا صبر على المصيبة، أو على الطّاعة، أو عن المعصية، وهذا القسم الثّالث أعلى درجة من القسمين الأوّلين.

**وعنه** عليه السلام: الحياء زينة، والتّقوى كرم، وخير المراكب مَرْكب الصّبر.

**وعنه** عليه السلام: القناعة سيف لاينبو، والصّبر مَطيّة لاتكبو، وأفضل العدّة الصّبر على الشّدّة.

**قال الحسن** عليه السلام: جرّبنا وجرّب المجرّبون، فلم نَرَ شيئًا أنفع وجدانًا، ولاأضرّ فقدانًا من الصّبر، تداوى به الأُمور، ولايداوى هو بغيره.

وقال سعيد بن حُمَيد الكاتب [مجزوء الكامل][1]:

لاتَعْتِبنّ على النّوائِبْ ... فالدَّهْرُ يُرْغِمُ كلّ عاتِبْ

وَاصْبرْ عَلَى حَدَثَانِهِ ... إنّ الأُمورَ لها عَواقِبْ

كم نِعْمَةٍ مَطْوِيّةٍ ... لكَ بينَ أثناءِ النّوائِبْ

ومَسَرَّةٍ قد أقبلَتْ ... مِن حَيْثُ تَنتَظِرُ المصائِبْ

---

١ ـ البيتان الثّالث والرابع في شرح المختار من شعر بشّار ٣١٤، من غيرنسبة.

ومن كلامهم: الصّبر مُرّ، لا يتجرّعه إلّا حُرّ.

قال أعرابيّ: كن حلو الصّبر عند مرارة النّازلة.

وقال كسرى لبُزُرْجمهر: ما علامة الظّفر بالأُمور المطلوبة المستصعبة؟ قال: ملازمة الطّلب، والمحافظة على الصّبر، وكتمان السّرّ.

وقال الأحنف برفيق: لستُ حليمًا، إنّما أنا صبور، فأفادني الصّبر صِفَتي بالحلم.

وسُئِل عليّ عليه السلام: أيّ شيء أقرب إلى الكفر؟ قال: ذوفاقة لا صبر له.

**ومن كلامه** عليه السلام: الصّبر يُناضِل الحَدَثان، والجزع من أعوان الزّمان.

وقال أعشى هَمْدان [الكامل]:

إن نِلْتُ لم أفْرَحْ بشيءٍ نِلْتُهُ ... وإذا سُبِقْتُ بهِ فلا أتلهّفُ

ومتى تُصِبْكَ مِنَ الحوادثِ نكْبَةٌ ... فاصْبِرْ فكلّ غَيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ

والأمر يذكر بالأمر، وهذا البيت هو الّذي قاله له الحجّاج يوم قتله، ذكر ذلك أبو بكر محمّد بن القاسم بن بشّار الأنباريّ في «الأمالي»، قال: لمّا أُتِيَ الحجّاجُ بأعشى همدان أسيرًا، وقد كان خرج مع ابن الأشعث، قال له: يا بن اللّخْناء! أنت القائل لعدوّ الرّحمن يعني عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث [مجزوء الكامل]:

يا بن الأشجّ قريع كِنْـ ... ـدة لا أبالي فيكَ عتْبَا

أنت الرّئيس ابن الرّئيس ... وأنت أعلى النّاسِ كَعْبَا

نبّئتُ حجّاجَ بن يُو ... سُفَ خَرّمِن زَلَقٍ فَتَبّا

فانهَضْ هُدِيتَ لعلّهُ ... يجْلُو بك الرّحمنُ كَرْبَا

وابعثْ عطيّةَ في الحُرو ... ب يكبّهنَّ عليهِ كَبّا

ثمّ قال: عبد الرحمن خَرّ من زَلَقٍ فَتَبّ، وخَسِر وانكبّ، وما لقيَ ما أحبّ. ورفع بها صوته، واهتزّ مَنكِباه، ودرّ ودَجاه، واحمرّت عيناه، ولم يبق في المجلس إلّا مَن هابَه، فقال: أيّها الأمير، وأنا القائل [الطّويل]:

أبى الله إلّا أن يُتَمِّم نُورَهُ ... ويُطْفِئَ نارَ الكافرين فَتخْمُدَا

ويُنـــزِلُ ذُلّا بـــالعراقِ وأهلِـــهِ كما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكّدَا
وما لبثَ الحجّاجُ أن سَلّ سَيْفَهُ علينـا، فَـوَلّى جَـمْعُنَا وتبـدَّدَا

فالتفت الحجّاج إلى مَنْ حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيّها الأمير، ومحَا بآخِرِ قوله أوّله، فليَسَعْه حِلْمُك. فقال: لا ها الله! إنّه لم يُرِدْ ما ظننتم، وإنّما أراد تحريضَ أصحابه، ثمّ قال له: ويلك! ألست القائل [الكامل]:

إن نِلْـتُ لم أفْـرَحْ بشـيء نِلْتُـهُ وإذا سُـبِقْتُ بـهِ فـلا أتَلَهّـفُ
ومتى تُصِبْكَ من الحوادثِ نَكْبَةٌ فاصْبِرْ، فكلّ غَيَابَةٍ تَتكَشّفُ

أما والله لَـتُظْلمَنّ عليك غَيابَةٌ لاتنكشف أبدًا، ألست القائل في عبد الرّحمن [الكامل]:

وإذا سـألتَ المجـدَ أيـنَ محلّـهُ فالمجْـدُ بـين محمّـدٍ وسـعيدِ
بـين الأشـجّ وبـين قـيس نـازِلٌ بَـخْ بَـخْ لوالـده وللمولـودِ[1]

والله لا ينجح بعدها أبدًا. يا حرسيّ اضرب عُنُقَه.

وممّا جاء في الصّبر؛ قيل للأحنف: إنّك شيخ ضعيف، وإنّ الصّيام يهدّك. فقال: إنّي أعدّه لشرّيوم طويل، وإنّ الصّبر على طاعة الله أهون من الصّبر على عذاب الله.

ومن كلامه: مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات. ربّ غيظٍ قد تجرّعتُه مخافةً ما هو أشدّ منه.

يونس بن عبيد: لوأُمِرنا بالجزع لصبرنا.

ابن السّمّاك: المصيبة واحدة، فإن جزع صاحبها منها صارت اثنتَين. يعني: فَقْد المصاب، وفَقْد الثّواب.

الحارث بن أسد المحاسبيّ: لكلّ شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصّبر.

---

١ ـ ديوان الأعشيَين: ٣٢٣.

جابر بن عبد الله: سُئِل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «الصَبر والسَماحة».

وقال العَتّابيّ [أحذ الكامل] :

اصْـــبر إذا بَـــدَهَتْكَ نائِبَـــةٌ ما عال مُنقَطِعٌ إلَى الصَّبرِ

الصّبر أوْلَى مـا اعتَصَـمْتَ بِـهِ ولَنِعْمَ حَشْو جوانِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام عليّ عليه السلام: الصّبر مفتاح الظّفر، والتّوكل على الله رسول الفَرَج.

ومن كلامه عليه السلام: انتظار الفَرَج بالصّبر عبادة.

أكثَم بن صَيْفيّ: الصّبر على جُرَع الحِمَام أعذب من جَنَا النَّدَم.

ومن كلام بعض الزُّهّاد: واصْبر على عَمَلٍ لا غَناء بك عن ثوابه، واصْبر عن عَمَلٍ لا صبر على عقابك به.

وكتب ابنُ العَميد: أقرأُ في الصّبر سُوَرًا، ولاأقرأُ في الجزع آيةً. وأحفظُ في التّماسك والتّجلّد قصائد، ولاأحفظ في التّهافت قافية. وقال الشّاعر[الطّويل]:

ويـومٍ كيـومِ البَعْـثِ مـا فيـه حـاكِمٌ وَلَاعاصِـــمٌ إلّا قَنًـــا ودُرُوعُ

حَبَسْتُ بهِ نفسي على مَوْقِفِ الرَّدَى حِفاظًـا وأطـرافُ الرِّمـاحِ شُـرُوعُ

ومَا يَسْـتَوى عِندَ المُلِمّات إن عَرَتْ صَـبورٌ عـلى مَكروهِهـا وجَـزُوعُ

أبو حيّة النُّمَيريّ [البسيط]:

إنّي رأيتُ وفي الأيّامِ تجربةٌ للصّـبرِ عاقبـةٌ محمـودةُ الأثَـرِ[1]

وقَلّ مَن جَدَّ في أمْرٍ يُحاوِلُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلّا فاز بالظَّفَرِ

ووصف الحسن البصريّ عليًّا عليه السلام، فقال: كان لايجْهَلُ، وإن جُهِلَ عليه حَلُمَ. ولايَظْلِمُ، وإن ظُلِمَ غَفَر. ولايَبْخَلُ، وإن بَخِلَتِ الدّنيا عليه صَبَر.

عبد العزيز بن زُرارة الكِلابيّ [البسيط]:

قَـدْ عِشْـتُ في الـدّهرِ أطـوارًا عـلى طُـرُقٍ شَتَّى فقاسَيْتُ منه الحُلْو والبَشَعَا

---

١ ـ المقدسيّ : ٤٣ ، من غير نسبة .

كُــلّا بَلَــوْتُ فَــلَا النَّعْمــاءُ تُبْطِــرني وَلَا تَخَشَّـعْتُ مِـن لَأْوَائِهـا جَزَعَـا
لَا يمــلأ الأمــرَ صــدري قبــلَ مَوْقِعِــهِ ولا يضـيقُ بـه صَـدْرِي إذا وَقَعَـا

ومن كلام بعضهم: مَن تبصّر تصبّر. الصّبر يفسح الفُرَج، ويفتح المرتَتج. المحنة إذا تُلُقِّيت بالرّضا والصّبر كانت نعمةً دائمةً، والنّعمة إذا خَلَت من الشُّكر كانت مِحْنَةً لازمةً.

قيل لأبي مسلم صاحب الدّولة: بِمَ أصبتَ ما أصبتَ؟ قال: ارْتَدَيْتُ بالصّبر، واتّزرتُ بالكتمان، وحالفتُ الحزم، وخالفتُ الهَوَى، ولم أجعل العدوَّ صديقًا، ولا الصّديقَ عدوًّا.

منصور النَّمَريّ في الرّشيد [الطّويل]:

ولـيسَ لأعبـاءِ الأمـورِ إذا عَـرَتْ بِمُكتَـرِثٍ لكـن لهـنّ صَـبُورُ
يُرَى ساكن الأطراف باسِطَ وَجْهِهِ يُرِيكَ الهُوَيْنَى والأمور تَطيرُ

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أُوصيكم بخمس، لو ضربتم إليهنّ آباطَ الإبل كانت لذلك أهلًا: لا يرجُوَنَّ أحدكم إلّا ربّه، ولا يخافَنّ إلّا ذنبه، ولا يستحيينّ إذا سُئِل عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحي إذا جهل أمرًا أن يتعلّمه. وعليكم بالصّبر، فإنّ الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد، فكما لا خَيرَ في جَسَدٍ لا رأس له، لا خَيرَ في إيمانٍ لا صَبرَ معه.

وعنه عليه السلام: لا يعدم الصّبور الظّفر وإن طال به الزّمان.

نهشل بن حريّ [الطّويل]:

ويومٍ كأنّ المصطلينَ بحَرّهِ وإن لم يكن جـمْرًا قيامٌ على جَمْرِ
صَبَرْنَا له حتّى تجلّى وإنّما تُفَـرَّج أيّـام الكَرِيهَـة بالصّـبر

عليّ عليه السلام: اطرَحْ عنك وارداتِ الهموم بعزائم الصّبر وحُسن اليقين.

وعنه عليه السلام: وإن كنت جازعًا على ما تَفَلَّتَ من يديك، فاجْزع على كلّ ما لم يصل إليك!

وفي كتابه عليه السلام الّذي كتبه إلى عقيل أخيه: ولا تحسبنّ ابن أُمّك ـ ولو أسلمه النّاس ـ متضرّعًا متخشّعًا، ولا مُقِرًّا للضّيم واهنًا، ولا سَلِسَ الزّمام للقائد، ولا وطيء الظّهر للرّاكب، ولكنّه كما قال أخوبني سليم [الطّويل]:

فإن تَسْأليني كيفَ أنتَ فإنّني صَبورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صَلِيبُ
يَعِزّ عليَّ أن تُرَى بي كآبةٌ فَيَشْمَتَ عادٍ أو يُساء حَبيبُ

(١ : ٣١٩ ـ ٣٢٥)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَأُمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُن مِن أَهْلِهِ، وَأَنكِرِ الْمُنكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِن مَن فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّين، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ!**

**الشّرح:** ... قوله: «فنِعْم التّصبّر» قد تقدّم منّا كلامٌ شافٍ في الصّبر. (١٦ : ٦٥)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... اطْرَحْ عَنكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ ...**

**الشّرح:** ... قوله: «اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصّبر وكرم العزاء»[1]، هذا كلام شريف فصيح عظيم النّفع والفائدة، وقد أخذ عبد الله بن الزّبير بعض هذه الألفاظ فقال في خطبته لمـا ورد عليه الخبر بقَتْل مُصْعب أخيه: «لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزَننا وسرّنا، جاءنا خبر قتل مُصْعب، فأمّا سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة، وكان لنا إن شاء الله خيرة، وأمّا الحزن فلَوْعة يجدها الحميم عند فراق حميمه، ثمّ يرعوي بعدها ذوالرّأي إلى حسن الصّبر وكرم العزاء». (١٦ : ١١٧)

---

١ ـ بلفظ الرّواية الثّانية.

**(الحكمة: ٤) الأصل: الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.**

**الشّرح:** ... [بعد ذكر الفصل الأوّل في العجز، ثمّ قال:]

الفصل الثّاني: في الصّبر والشّجاعة: قد تقدّم قولنا في الصّبر.

وكان يقال: الصّبر مُرّ، لا يتجرّعه إلّا حُرّ.

وكان يقال: إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعمارًا وآجالًا كأعمار النّاس وآجالهم، فاصبروا لزمان السّوء حتّى يفني عمره، ويأتي أجله.

**وكان يقال:** إذا تضيّقتك نازلة فاقْرِها الصّبر عليها. وأكرم مثواها لديك بالتّوكّل والاحتساب لترحّل عنك، وقد أبقتْ عليك أكثر ممّا سَلَبَتْ منك، ولا تنسها عند رخائك، فإنّ تذكّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السّوء عن فعلك، وينفي القساوة عن قلبك ويوزعك حمد الله وتقواه. (١٨ : ٩٠ ـ ٩١)

**(الحكمة: ٢٧) الأصل: اِمْشِ بِدَأْبِكَ مَا مَشَى بِكَ.**

**الشّرح:** يقول: مهما وجدتَ سبيلًا إلى الصّبر على أمرٍ من الأُمور الّتي قد دفعت إليها، وفيها مشقّة عليك، وضررٌ لاحِقٌ بك، فاصْبر ولا تلتمس طريقًا إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنف، ومُراغَمة الوقت، ومعاناة الأَقْضية والأَقدار، ومثال ذلك من يَعرِض له مَرَض ما يمكنه أن يحتمله ويدافع الوقت، فإنّه يجب عليه ألّا يَطرَح جانبَه إلى الأرض، ويَخلُد إلى النّوم على الفراش، ليعالج ذلك المرض قوّةً وقهرًا، فربّما أفضى به مقاهرة ذلك المرض الصّغير بالأدوية إلى أن يصير كبيرًا مُعضِلًا. (١٨ : ١٣٨)

**(الحكمة: ٥٢) الأصل: الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ.**

**الشّرح:** النّوع الأوّل أشقّ من النّوع الثّاني، لأنّ الأوّل صبر على مضرّة نازلة،

والثّاني صبرٌ على محبوب متوقّع لم يحصل، وقد تقدّم لنا قول طويل في الصّبر.

سُئِل بُزُرْجمهر في بليّته[1] عن حاله، فقال: هوّن عليّ ما أنا فيه، فكري في أربعة أشياء:

أوّلها: أنّي قلتُ: القضاء والقَدَر لابدّ من جريانهما.

والثّاني: أنّي قلتُ: إن لم أصبر فما أصنع!

والثّالث: أنّي قلتُ: قد كان يجوز أن تكون المِحْنة أشدَّ من هذه!

والرّابع: أنّي قلتُ: لعلّ الفَرَج قريب!

وقال أنوشروان: جميع أمر الدّنيا منقسم إلى ضربَين لا ثالث لهما: أمّا ما في دفعه حيلة فالاضطراب دواؤه، وأمّا ما لا حيلة فيه فالصّبر شفاؤه. (١٨ : ١٨٩)

**(الحكمة: ٧٩) الأصل: ... وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ، وَلَا خَيْرَ فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ.**

الشّرح: ... وأمّا الصّبر؛ فقد سبق فيه كلامٌ مُقْنِعٌ، وسيأتي فيما بعد جملة من ذلك. (١٨ : ٢٣٢)

**(الحكمة: ١٤٠) الأصل: يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ.**

الشّرح: قد مضى لنا كلامٌ شافٍ في الصّبر، وكان الحسن يقول في قِصَصه: الحمد لله الّذي كلّفنا ما لو كلّفنا غيره لَصِرْنا فيه إلى معصيته، وآجَرَنا على ما لا بدّ لنا منه، يقول: كلّفنا الصّبر، ولو كلّفنا الجزع لم يمكنّا أن نقيم عليه، وآجَرَنا على الصّبر ولابدّ لنا من الرّجوع إليه.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، كان يقول عند التّعزية: عليكم بالصّبر، فإنّ به يأخذ

---

١ ـ د : «بلواه» .

الحازم، ويعود إليه الجازع. وقال أبو خِراش الهُذَليّ يذكر أخاه عُروة [الطّويل]:

تقـول أراهُ بعـد عُـروةَ لاهِيًـا وذلكَ رُزءٌ لوعَلِمتِ جليلُ

فلا تحسبي أنّي تناسيتُ عهدَهُ ولكنّ صبري يا أمَيمُ جميلُ

وقال عمروبن مَعْديكَرِب [مجزوء الكامل]:

كمْ مِنْ أَخٍ لي صالحٍ بوَّأتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا

ألبَسْتُهُ أكفانَهُ وخُلِقت يومَ خُلِقتُ جَلْدَا

**وكان يقال:** من حَدَّثَ نفسه بالبقاء، ولم يُوَطِّنها على المصائب، فهو عاجز الرّأي. وكان يقال: كفى باليأس مُعزِّيًا، وبانقطاع الطّمع زاجرًا! وقال السّاعر[الطّويل]:

أيا عَمْرُو لَمْ أصبر ولي فيك حيلةٌ ولكن دعاني اليأس منكَ إلى الصّبرِ

تصبّرتُ مغلوبًا وإنّي لَموجعٌ كما صبر القُطّان في البَلَدَ القَفْرِ

(١٨ : ٣٤٢ ـ ٣٤٣)

**(الحكمة: ١٥٠) الأصل: لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ، وَإِن طَالَ بِهِ الزَّمَانُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم كلامنا في الصّبر.

وقالت الحكماء: الصّبر ضربان: جسميّ ونفسيّ، فالجسميّ تحمُّل المشاقّ بقدر القوّة البدنيّة، وليس ذلك بفضيلة تامّة، ولذلك قال السّاعر[الكامل]:

والصّبرُ بالأرواحِ يُعرَفُ فضلُهُ صَبرُ المُلُوكِ وليسَ بالأجْسامِ

وهذا النّوع إمّا في الفعل كالمشي ورَفْع الحجر، أو في رَفْع الانفعال كالصّبر على المرض واحتمال الضّرب المُفْظِع.

**وأمّا النّفسيّ**؛ ففيه تتعلّق الفضيلة، وهو ضربان: صبرٌ عن مُشتَهَى، ويقال له: عِفّة، وصبر على تحمُّل مكروه أو محبوب. وتختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان في نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصّبر، ويضادّه الجَزَع والهَلَع والحُزن. وإن كان في

احتمال الغِنَى سُمِّي ضبط النّفس، ويضادّه البَطَر والأَشَر والرَفغ. وإن كان في محاربة سمّي شجاعةً، ويضادّه الجُبن. وإن كان في إمساك النّفس عن قضاءِ وَطَر الغضب سُمِّي حلمًا، ويضادّه التّذمّر والاستشاطة. وإن كان في نائبة مضجرة سُمِّي سعة صدر، ويضادّه الضّجر وضيق العَطَن والتّبرّم. وإن كان في إمساك كلام في الضّمير سُمِّيَ كتمان السّرّ، ويضادّه الإفشاء. وإن كان عن فضول العيش سُمِّي قناعةً وزهدًا، ويضادّه الحرص والشَّرَه.

فهذه كلّها أنواع الصّبر، ولكنّ اللّفظ العُرْفيّ واقع على الصّبر الجسمانيّ، وعلى ما يكون في نزول المصائب، وتنفرد باقي الأنواع بأسماء تخصّها. (١٨ : ٣٦٦)

**(الحكمة: ١٨٤) الأصل: مَن لَمْ يُنجِهِ الصَّبْرُ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قول شافٍ في الصّبر والجزع.

وكان يقال: ما أحسن الصّبر لولا أنّ النّفقة عليه من العمر! أخذه شاعر فقال [الطّويل]:

وَإِنّي لَأَدري أنّ في الصّبر راحةً ولكنّ إنفاقي على الصّبر مِنْ عُمْرِي

وقال ابن أبي العلاء يستبطئ بعض الرّؤساء [الطّويل]:

فإن قيل لي صبرًا فلا صبر للّذي غدا بيد الأيّام تقتله صبرَا

وإن قيل لي عُذرًا فواللهِ ما أرَى لمن مَلَكَ الدُّنيا إذا لم يَجِدْ عُذرَا

**فإن قلت:** أيّ فائدة في قوله عليه السلام: «مَن لم ينجه الصّبر أهلكه الجزع»؟ وهل هذا إلّا كقول مَن قال: «من لم يجد ما يأكل ضرّه[1] الجوع»؟.

**قلت:** لو كانت الجهة واحدة، لكان الكلام عبثًا، إلّا أنّ الجهة مختلفة، لأنّ معنى كلامه عليه السلام: مَن لم يخلصه الصّبر من هُموم الدّنيا وغُمومها هلك مع الله تعالى في

---

١ ـ في د: «أهلكه».

الآخرة بما يستبدله مِن الصّبر بالجزع، وذلك لأنّه إذا لم يصبر فلا شكّ أنّه يجزع، وكلّ جازع آثم والإثم مهلكة، فلمّا اختلفت الجهة وكانت تارةً للدّنيا وتارةً للآخرة، لم يكن الكلام عبثًا، بل كان مفيدًا. (١٨ : ٤١٥)

**(الحكمة: ٢٠٢) الأصل: أَوَّلُ عِوَضِ الْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم من أقوالنا في الحلم ما في بعضِه كفاية.

وفي الحِكَم القديمة: لاتَشِن حُسْن الظَّفَر بقُبْح الانتقام.

**وكان يقال:** اعْفُ عمّن أبطأ عن الذّنب، وأسرِع إلى النّدم.

**وكان يقال:** شاور الأناة والتّثبُّت، وذاكِر الحفيظة[1] عند هَيجانها ما في عواقب العقوبة من النّدم، وخاصِمْها بما يؤدّى إليه الحلم من الاغتباط.

**وكان يقال:** ينبغي للحازم أن يقدّم على عذابه وصَفْحِه تعريف المُذْنِب بما جناه، وإلّا نسب حلمُه إلى الغَفْلة وكلال حدّ الفطنة.

وقالت الأنصار للنّبيّ ﷺ يوم فتح مكّة: إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا. يُغْرُونه بقريش، فقال: «إنّما سُمّيتُ محمّدًا لأُحْمَد». (١٩ : ٢٦)

**(الحكمة: ٢٠٣): الأصل: إِنْ لَمْ تَكُن حَلِيمًا فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَن يَكُونَ مِنْهُمْ.**

**الشّرح:** التّحلّم: تكلّف الحلم. والّذي قاله عليه السلام صحيح في مناهج الحكمة، وذلك لأنّ من تشبّه بقوم وتكلّف التّخلّق بأخلاقهم، والتّأدّب بآدابهم، واستمرّ على ذلك ومَرَن عليه الزّمان الطّويل، اكتسب رياضةً قويّةً، ومَلَكةً تامّةً، وصار ذلك التّكلّف

---

١ ـ الحفيظة: الحميّة والغضب.

كالطّبع له، وانتقل عن الخُلق الأوّل، ألا ترى أنّ الأعرابيّ الجِلْف الجافي إذا دخل المُدُن والقُرَى وخالط أهلها وطال مكثه فيهم انتقل عن خُلق الأعراب الّذي نشأ عليه، وتلطّف طَبْعُه، وصار شبيهًا بساكني المُدُن، وكالأجنبيّ عن ساكني الوَبَر، وهذا قد وجدناه في حيوانات أُخرى غيرِ البشر، كالبازي والصّقر والفَهْد الّتي تُرَاضُ حتّى تذلّ وتأنس وتترك طبعها القديم، بل قد شاهدناه في الأسد، وهو أبعد الحيوان من الأُنس.

وذكر ابن الصّابي أنّ عَضُد الدّولة بن بُوَيه كانت له أُسود يَصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يدركه فيذكّيه، وهذا من العجائب الطّريفة. (١٩ : ٢٧)

**(الحكمة: ٢٩٨): وقَالَ عليه السلام عِنْدَ وُقُوفِهِ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله سَاعَةَ دُفِنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ، وَإِنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ.**

**الشّرح:** قد أخذت هذا المعنى الشُّعراء، فقال بعضهم [الكامل]:

أمسَتْ بجَفْني للدُّموعِ كُلُومُ حَزنًا عليكَ وفي الخُدودِ رُسومُ[1]

والصّبر يُحْمَدُ في المواطنِ كلّها إلّا عليكَ فإنّهُ مَذمُومُ

وقال أبو تمام [الطّويل]:

وقد كان يُدْعَى لابِسُ الصّبر حازمًا فقد صارَ يُدْعَى حازمًا حينَ يَجزَعُ[2]

وقال أبو الطّيّب [الكامل]:

أجِدُ الجَفاءَ على سِواكَ مُروءَةً والصّبرَ إلّا في نَواكِ جميلَا[3]

---

١ـ الكامل : ٢ : ٤١ ، ونسبهما إلى محمّد بن عبد الله العتبيّ .

٢ ـ ديوانه ٣٣٣ (بشرح الخياط) ، التبيان ١ : ٢٤٦ .

٣ ـ ديوانه ٣ : ٢٣٣ .

وقال أبو تمام أيضًا [الكامل]:

الصّبر أجمل غير أنّ تلذّذًا ... في الحبّ أولى أن يكونَ جميلَا[1]

وقالت خنساء أخت عمرو بن الشّريد [الوافر]:

ألا يا صَخْرُ إن أبكَيتَ عَيني ... لقد أضحَكْتَني دَهْرًا طَويلَا

بَكَيتُكَ في نساءٍ مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقّ مَنْ أبْدَى العَويلَا

دفعتُ بك الجليلَ وأنتَ حَيٌّ ... فَمَن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجَلِيلَا!

إذا قَبُحَ البكاءُ على قَتيلٍ ... رأيتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلَا[2]

ومثلُ قوله عليه السلام: «وإنّه بعدك لقليل»، يعنى المصاب، أي لا مبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك، قول بعضهم [المنسرح]:

قد قُلتُ للموتِ حِينَ نازَلَهُ ... والموتُ مِقدامةٌ على البُهَمِ

اذْهَبْ بمَن شئتَ إذ ظفرتَ بهِ ... ما بعد يَحْيَى للموتِ مِنْ ألمِ

وقال السّمَرْدَل اليَرْبوعيّ يرثي أخاه [الطّويل]:

إذا ما أتَى يومٌ من الدّهرِ بيننا ... فَحيَّاكَ عنّا شَرْقُهُ وأصائِلُهْ[3]

أبَى الصّبرُ أنّ العينَ بعدك لم تَزَلْ ... يُحالِف جَفْنَيْها قذًى ما تُزايِلُهْ

وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلك مَن بَكَى ... فأنتَ على مَن مات بعدكَ شاغِلُهْ

أعَيْنَيَّ إذ أبكاكُما الدّهر فابْكِيا ... لمن نَصْرُهُ قد بانَ عنّا ونائِلُهْ

وكنتُ به أغشَى القِتَالَ فَعَزّني ... عليه مِنَ المقدارِ مَن لا أقاتِلُهْ

لعَمْرُكَ إنّ الموتَ مِنّا لَمُولَعٌ ... بمَن كان يُرجى نَفعُهُ وفواضِلُهْ

---

١ ـ ديوانه: ٢٤٢. (بشرح الخياط)

٢ ـ ديوانها: ٢٢٥.

٣ ـ أمالي اليزيديّ: ٣٢ ـ ٣٣.

قوله: *فأنتَ على من ماتَ بعدَكَ شاغِلُهْ*

هو المعنى الّذي نحن فيه، وذكرنا سائر الأبيات لأنّها فائقة بعيدة النّظير.

وقال آخر يَرثي رجلًا اسمه جارية [الطّويل]:

أجـارِيَ مـا أزدادُ إلّا صَـبابةً ... عليـكَ ومـا تـزدادُ إلّا تنائيَـا

أجارِيَ لونفسٌ فَدَتْ نفسَ ميّتٍ ... فـديتُكَ مسرورًا بنفسـي ومـاليَـا

وقـد كنـتُ أرجـوأن أراكَ حقيقـةً ... فحـالَ قضـاءُ الله دُونَ قضـائيَا

ألَا فليَمُـتْ مَـن شـاءَ بعـدكَ إنّمـا ... عليكَ مِنَ الأقْدارِ كان حِذاريَا

ومن الشّعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام، ويقال: إنّه قاله يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله [مجزوء الكامل]:

كنتَ السّوادَ لناظِري ... فَبَكَى عليكَ النّاظرُ

مَن شاءَ بعدكَ فَلْيَمُتْ ... فعليكَ كنتُ أحاذِرُ

ومن شعر الحماسة [الطّويل]:

سأبكيكَ ما فاضَتْ دُموعي فإن تَغِضْ ... فحَسْبُك مِنّي ما تُجِنُّ الجَوانحُ

كأن لم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولم تَقُمْ ... على أحَدٍ إلّا عليكَ النّوائحُ

لَئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المراثي بوصِفها ... لقد حَسُنَتْ مِن قَبلُ فيكَ المدائحُ

فما أنا مِن رُزْءٍ وإن جَلّ جازِعٌ ... ولا بسُرورٍ بعد مَوتِكَ فارِحُ

(١٩ : ١٩٥ ـ ١٩٧)

**(الحكمة: ٤٢٣): وقال عليه السلام: الحِلْمُ عَشِيرَةٌ.**

**الشّرح:** كان يقال: الحلم جنودٌ مجنّدة لا أرزاق لها.

وقال عليه السلام: وجدتُ الاحتمالَ أنصر لي من الرّجال. وقال الشّاعر [الطّويل]:

ولِلْكَفِّ عـن شَـتْمِ اللّئيمِ تكرُّمًـا ... أضَـرُّ لـهُ مِـن شَـتْمِهِ حِـين يُشـتَمُ

وكان يقال: مَن غَرَسَ شجرة الحلم، اجتنى ثمرة السِّلْم.
وقد تقدّم من القول في الحلم ما فيه كفاية. (٢٠ : ٦١)

**(الحكمة: ٤٣٠): الأصل: الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.**

**الشّرح:** لمـا جعل الله الحلم غطاءً، والعقل حُسامًا، أمره أن يستر خَلَل خُلقه بذلك الغطاء، وأن يقاتل هواه بذلك الحُسام، وقد سبق القول في الحلم والعقل.
(٢٠ : ٦٩)

## الفصل الأربعون:

## [أقوال مأثورة في مدح الأناة وذمّ العجلة]

(الخطبة: ٩٩) اَلحَمْدُ لِلّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَن تَخَلَّفَ عَنهَا زَهَقَ، وَمَن لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ. فَإِذَا أَنتُمْ أَلْنتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ... .

**الشّرح:** ... ومن أمثالهم: «يريك الهُوَيْنَى والأُمور تطير»، يُضرَب لمن ظاهِرُه الأناة وباطنه إبرام الأُمور وتنفيذها والحاضرون لايشعرون، ويقولون لمن هو كذلك: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1].

ووقّع ذو الرّياستين إلى عامل له: إنّ أسرع النّار التهابًا أسرعها خمودًا، فتأنّ في أمرك. ويقال: إنّ آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته، فقال: كلُّ عملٍ تريدون أن تعملوه فتوقَّفُوا فيه ساعة، فإنّي لو توقّفت لم يصبني ما أصابني.

بعض الأعراب يوصي ولده: إيّاكم والعَجَلة، فإن أبي كان يكنيها: أُمّ النّدم.

**وكان يقال:** مَن وَرَد عَجِلًا صدر خَجِلًا.

وقال ابن هانئ المغربيّ [الطّويل]:

وكلّ أناةٍ في المواطنِ سُؤدُدٌ ... ولاكأناةٍ مِن قديرٍ مُحَكِّمِ

ومن يتبيّن أنّ للصّفحِ موضِعًا ... مِنَ السّيفِ يَصْفَحْ عن كثيرٍ ويَحلُمِ

وما الرّأي إلّا بعد طُولِ تَثبُّتٍ ... ولاالحزم إلّا بعد طُولِ تَلَوُّمِ

وقوله عليه السلام: «بطيء القيام، سريع إذا قام» فيه شَبَهٌ من قول الشَّنفَرَى [المديد]:

مُسبِلٌ في الحَيِّ أحْوَى رِفَلّ ... وإذا يَغْزُو فَسِمْعٌ أزَلّ

---

١ ـ النّمل / ٨٨ .

ومن أمثالهم في مدح الأناة وذمّ العجلة: أخطأ مستعجل أوكاد، وأصاب متثبّت أوكاد. ومنها [البسيط]:

*وقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ*[1]

ومنها: رُبّ عَجَلة تهب رَيْثًا.

وقال البُحْتُرى [الطّويل]:

حَليمٌ إذا القومُ استخفَّتْ حُلُومُهم وقُورٌ إذا ما حادِثَ الدّهر أجْلَبا

قال الأحنف لرجل سبّه فأفرط: يا هذا إنّك منذ اليوم تحدو بجملٍ ثِقال. وقال الشّاعر[الكامل] :

أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رَجَاحَةً وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهلُ

(٧ : ٨٦ ـ ٨٧)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَ إيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِالتَّسَاقُطَ فِيهَا عِندَ إمْكَانِهَا، أَوِاللَّجَاجَةَ فِيهَا إذَا تَنَكَّرَتْ ....**

**الشّرح:** ... ومنها: نهيه عن العَجَلة، وكان يقال: أصاب متثبّت أوكاد، وأخطأ عَجِل أوكاد. وفي المثل: «رُبّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثًا»، وذمّها الله تعالى، فقال: **﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾**[2]. (١٧ : ١١٥)

**(الحكمة: ٣٤) الأصل: مَن أَسْرَعَ إلى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.**

**الشّرح:** هذا المعنى كثيرٌ واسع، ولنقتصرْ هاهنا فيه على حكاية ذَكَرها المبرّد

---

١ ـ صدره : * قَدْ يُدرِكُ المتأنِّي بَعضَ حَاجَتِهِ *

٢ ـ الأنبياء / ٣٧ .

في «الكامل».

## [في مجلس قُتَيبة بن مسلم الباهليّ]

قال: لمـّا فَتَح قُتَيبةُ بن مسلم سَمَرْقَندَ أفضى[1] إلى أثاثٍ لم يُرَ مِثْله[2]، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مثلها، فأراد أن يُريَ النّاس عظيمَ ما أنعم الله به عليه، ويعرّفهم أقدار القوم الّذين ظهر عليهم، فأمر بدارٍ ففُرِشت وفي صحنها قدور يُرتقَى إليها بالسّلالم، فإذا الحُضَين بن المُنذِر بن الحارث بن وَعْلة الرّقاشيّ قد أقبل والنّاس جلوس على مراتبهم. والحُضين شيخٌ كبير، فلمّا رآه عبد الله ابن مسلم قال لأخيه قُتَيبة: ائْذَن لي في معاتَبته، قال: لا تردّه لأنّه خبيثُ الجواب، فأبى عبدُ الله إلّا أن يأذن له ـ وكان عبد الله يضعَّف، وقد كان تسوّر حائطًا إلى امرأةٍ قبل ذلك ـ فأقبل على الحُضَين، فقال: أمِنَ الباب دخلتَ يا أبا ساسان؟ قال: أجَلْ، أسَنَّ عمُك عن تَسوُّر الحِيطان. قال: أرأيتَ هذه القُدور؟ قال: هي أعظم من ألّا تُرَى، قال: ما أحسب بكربن وائل رأى مِثْلها، قال: أجل، ولاغَيلان، ولوكان رآها سُمِّي شَبْعان، ولم يسمَّ غَيْلان. قال له عبدُ الله: يا أبا ساسان، أتعرف الّذي يقول [الطّويل]:

عُزِلْنا وأمّرْنا وبكرُبنُ وائل تجُرّ خُصاها تَبتغي مَن تحالِفُهْ[3]

قال: أجَل أعرفه، وأعرف الّذي يقول [الوافر]:

بِأدْنَى العَزْمِ قادَ بني قُشَيرٍ ومَن كانتْ لهُ أسْرَى كِلابِ

وخَيْبة مَن يخيبُ على غَنِيّ وباهلة بن يَعْصُر والرِّكابِ

يريد: يا خيبةَ من يخيب. قال: أفتعرف الّذي يقول [الطّويل]:

كأنّ فِقاحَ الأزْدِ حولَ ابن مِسمعٍ إذا عَرِقتْ أفواهُ بكربنِ وائلِ

قال: نعم، أعرفه وأعرف الّذي يقول [الطّويل]:

---

١ ـ أفضى: أي اتّسع وصار عريضًا.

٢ ـ الكامل: «مثلها».

٣ ـ هوحارثة بن بدر ـ رغبة الآمل.

قومٌ قُتَيبة أمّهم وأبوهمُ لولا قُتيبةُ أصْبَحوا في مَجْهلِ

قال: أمّا الشّعر فأراك تَرْويه، فهل تَقْرأ من القرآن شيئًا؟ قال: أقرأ منه الأكثر الأطيب: ﴿هَلْ اَتٰى عَلَى الْاِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[1]، فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أنّ امرأة الحُضَين حِملتْ إليه وهي حُبلى من غيره.

قال: فما تحرّك الشّيخ عن هيئته الأُولى، ثمّ قال على رسْله، وما يكون تلد غلامًا على فراشي، فيقال: فلانُ ابنُ الحُضَين كما يقال: عبد الله بن مسلم. فأقبل قتيبة على عبد الله، وقال: لا يبعد الله غيرك ... . (١٨ : ١٥٢ ـ ١٥٤)

**(الحكمة: ٤٦٦) الأصل: اَلْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنتِجُهُمَا عُلُوّ الْهِمَّةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مرارًا. وقال ابن هانئ [الطّويل]:

وكلّ أناةٍ في المواطنِ سُؤْدُدٌ ولاكأناةٍ مِن تدبّر محكَمِ[2]

ومَن يتبينْ أنّ للسَّيفِ مَوضِعًا مِنَ الصَّفْح يَصْفَح عن كثيرٍ ويَحلُمِ

وقال أرباب المعاني: علّمنا الله تعالى فضيلة الأناة بما حكاه عن سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ اَصَدَقْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[3].

**وكان يقال:** الأناة حِصْن السّلامة، والعَجَلة مفتاح النّدامة.

**وكان يقال:** التّأنّي مع الخَيْبة خير من التّهوّر مع النّجاح. وقال الشّاعر [الكامل]:

الرّفقُ يُمنٌ والأناةُ سَعادةٌ فتَأنَّ في أمْرٍ تُلاقِ نجاحَا

وقال مَن كره الأناة وذَمّها: لوكانت الأناة محمودةً والعَجَلة مذمومةً، لما قال موسى

---

١ ـ الإنسان/١.

٢ ـ ديوانه: ١٢٣، وفي د: «من قدير محكم».

٣ ـ النمل / ٢٧.

لربّه: ﴿وَعَجِلْتُ اِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾[١]. وأنشدوا [البسيط]:

عَيبُ الأناةِ وإن سَرَّتْ عَواقِبُها أن لا خُلودَ وأن ليسَ الفَتَى حَجَرا

وقال آخر[الكامل]:

كم مِن مُضيّع فرصةٍ قد أمكَنَتْ لغَدٍ وليسَ لَهُ غَدٌ بمُواتِي

حتّى إذا فاتتْ وفاتَ طِلابُها ذهبتْ عليها نفسهُ حَسَراتِ

(٢٠ : ١٧٧ ـ ١٧٨)

١ ـ طه / ٨٤ .

## الفصل الحادي والأربعون:
## [في سعة الصّدر وما ورد في ذلك من الحكايات]

**(الحكمة: ١٧٨) وقَالَ عليه السلام: آلَةُ الرِّئَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ.**

**الشّرح:** الرّئيس محتاج إلى أُمور، منها: الجود، ومنها: الشّجاعة، ومنها، وهو الأهمّ: سعة الصّدر، فإنّه لاتتمّ الرّئاسة إلّا بذلك. وكان معاوية واسعَ الصّدر كثير الاحتمال وبذلك بلغ ما بلغ.

ونحن نذكر من سعة الصّدر حكايتَين دالّتَين على عِظَم محلّه في الرّئاسة، وإن كان مذمومًا في باب الدّين، وما أحسنَ قولَ الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيب ذكر أبي بكر وعمر، فقال: كانا والله خيرًا منه، وكان أسود منهما.

الحكاية الأُولى: وَفَدَ أهل الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده، وفي أهل الكوفة هانئ بن عُروة ـ المراديّ ـ وكان سيّدًا في قومه ـ فقال يومًا في مسجد دِمَشق والنّاس حوله: العَجَب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بَيْعة يزيد، وحالُه حالُه، وما ذاك والله بكائنٍ. وكان في القوم غلامٌ من قريش جالسًا، فتحمّل الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعت هانئًا يقولها؟ قال: نعم. قال: فاخْرُج فأتِ حَلْقته، فإذا خفّ النّاس عنه فقل له: أيّها الشّيخ، قد وصلتْ كلمتُك إلى معاوية، ولستَ في زمن أبي بكر وعمر، ولا أحبّ أن تتكلّم بهذا الكلام فإنّهم بنو أُمَيّة، وقد عرفتَ جُرأتهم وإقدامهم، ولم يدْعني إلى هذا القول لك إلّا النّصيحة والإشفاق عليك، فانظر ما يقول، فأتني به.

فأقبل الفَتى إلى مجلس هانئ، فلمّا خفّ من عنده دنا منه فقصّ عليه الكلام وأخرجه مخرج النّصيحة له، فقال هانئ: والله يا بن أخي ما بلغت نصيحتُك كلّ ما أسمع، وإنّ هذا الكلام لكلام معاوية، أعرفه! فقال الفَتَى: وما أنا ومعاوية! والله ما يعرفني. قال: فلا عليك، إذا لقيتَه فقل له: يقول لك هانئ: والله ما إلى ذلك من سبيل. انهض يابن أخي راشدًا! فقام الفتَى فدخل على معاوية، فأعلَمَه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثمّ قال معاوية بعد أيّام للوفد: ارفعوا حواجكم وهائئ فيهم، فعرض عليه كتابه فيه ذكر حوائجه، فقال: يا هائئ، ما أراك صنعتَ شيئًا، زِدْ؛ فقام هائئ فلم يدع حاجةً عرضتْ له إلّا وذكَرها، ثمّ عَرَضَ عليه الكتاب، فقال: أراك قصّرتَ فيما طلبتَ، زِدْ، فقام هائئ فلم يدع حاجةً لقومه ولا لأهل مصره إلّا ذكَرها، ثمّ عرض عليه الكتاب، فقال: ما صنعت شيئًا، زِدْ، فقال: يا أمير المؤمنين، حاجةٌ بَقِيَتْ، قال: ما هي؟ قال: أن أتولّى أخْذَ البَيْعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق، قال: افعل، فما زلتَ لمثل ذلك أهلًا، فلمّا قدم هائئ العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شُعْبة وهو الوالي بالعراق يومئذٍ.

وأمّا الحكاية الثّانية: كان مالٌ حُمِل من اليمن إلى معاوية، فلمّا مرّ بالمدينة وَثَبَ عليه الحسين بن عليّ عليه السلام، فأخذه وقَسَمَه في أهل بيته ومواليه، وكتب إلى معاوية: من الحسين بن عليّ إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد، فإنّ عِيرًا مرّت بنا من اليمن تحمل مالًا وحُلَلًا وعنبرًا وطيبًا إليك لتودِعها خزائن دِمَشق وتَعُلّ بها بعد النَّهلِ بني أبيك، وإنّي احتجتُ إليها فأخذتها. والسّلام.

فكتب إليه معاوية: من عند عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن عليّ عليه السلام: سلامٌ عليك، أمّا بعد، فإنّ كتابك ورد عليّ تذكر أنّ عيرًا مرّت بك من اليمن تحمل مالًا وحُلَلًا وعنبرًا وطيبًا إليّ لأودِعها خزائنَ دمشق، وتَعُلُّ بها بعد النَّهَل بني أبي، وإنّي احتجتُ إليها فأخذتها ولم تكن جديرًا بأخذها إذ نسبتها إليّ، لأنّ الوالي أحقّ بالمال، ثمّ عليه المخرج منه، وايمُ الله لو تركت ذلك حتّى صار إليّ، لم أبخَسْك حظّك منه، ولكنّي قد ظننت يابن أخي أنّ في رأسك نَزْوةً وبودّي أن يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك، وأتجاوز عن ذلك، ولكنّي والله أتخوّف أن تبتلي بمن لا يُنظِرك فُواق ناقةٍ، وكتب في أسفل كتابه [الرّمل]:

يا حسينُ بنَ عليٍّ ليسَ ما ... جئتَ بالسّائغِ يومًا في العِلَلْ

أخذُكَ المالَ ولم تُؤمَر بهِ ... إنّ هذا من حسينٍ لعَجَلْ

قد أجزْ ناها ولم نَغْضَبْ لها ... واحتمَلْنا من حسين ما فَعلْ
يا حسينُ بنَ عليٍّ ذا الأمَلْ ... لك بعدي وَثْبةٌ لاتُحتمَلْ
وبودّي أنّني شاهدُها ... فأليها منكَ بالخُلْقِ الأجَلْ
إنّني أرْهَب أن تَصلَى بمَن ... عنده قد سَبَقَ السّيفُ. العَذَلْ

وهذه سعةُ صدرٍ وفراسةٌ صادقةٌ. (١٨ : ٤٠٧ ـ ٤٠٩)

## الفصل الثّاني والأربعون: [في الفرصة و إضاعتها]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً ...**

**الشّرح:** ... قوله: «بادر الفرصة قبل أن تكون غُصّة»، حضر عبيد الله بن زياد عند هانئ ابن عُرْوة عائدًا، وقد كمن له مسلم بن عَقيل، وأمره أن يقتله إذا جلس واستقرّ، فلمّا جلس جعل مسلم يُؤامِر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تُطِعْه، وجعل هانئ ينشد كأنّه يترنّم بالشّعر[البسيط]:

*ما الانتظار بسَلْمَى لا تحيّيها*

ويكرّر ذلك، فأوجس عبيد الله خيفةً ونهض، فعاد إلى قصر الإمارة، وفات مسلمًا منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة، حتّى صار أمره إلى ما صار.(١٦: ١٠٢ ـ ١٠٣)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ....**

**الشّرح: ... ومنها:** قوله: «ليس كلّ عورة تظهر، ولا كلّ فرصة تُصاب»، يقول: قد تكون عورة العدوّ مستترة عنك فلا تظهر، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها.

**وقال بعض الحُكَماء:** الفُرْصة نوعان: فُرْصة مِن عدوّك، وفُرْصة في غير عدوّك، فالفرصة من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك، وإن فاتتك ضرّتك وفي غير عدوّك ما إذا أخطاك نفعه لم يصلْ إليك ضرّه. (١٦ : ١١٩)

**(الحكمة: ٢١) الأصل: قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ.**

**الشّرح:** في المثَل: مَن أقْدَم لم يَندَم، وقال الشّاعر[مجزوء الرّمل]:

ليس للحاجات إلّا مَن لَهُ وَجْهٌ وفاحُ
ولسانٌ طِرْمِذيٌّ[1] وغُدُوّ ورَواحُ

---

١ ـ طرمذيّ : يتمدّح بما ليس فيه .

فَعَلَيْهِ السَّعْيُ فيها وعلى اللهِ النّجاحُ

**وكان يقال:** الفرصة ما إذا حاولْتَه فأخطأَك نفعُه، لم يصل إليك ضرّه.

ومن كلام ابن المقفّع: انتَهِزِ الفرصةَ في إحراز المآثر، واغْتَنِمِ الإمكان باصطناع الخير، ولاتنتظر ما تُعامل فتُجازِي عنه بمثله، فإنّك إن عُوملتَ بمكروهٍ واشتغلت برَصد المكافأة عنه قَصّر العُمر بك عن اكتساب فائدة، واقتناء مَنقَبة، وتصرّمَتْ أيّامُك بين تعدٍّ عليك، وانتظار للظَّفَر بإدراك الثّأر من خَصْمك، ولاعيشةَ في الحياة أكثر من ذلك. كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافدًا قالت له: إيّاك والهَيْبة، فإنّها خيبة، ولاتَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه. (١٨ : ١٣١)

**(الحكمة: ١١٤) الأصل: إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ.**

**الشّرح:** في المثَل: انتهزوا الفُرَص، فإنّها تمرّ مَرّ السّحاب.

وقال الشّاعر[المتقارب]:

وإن أمكنتْ فرصةٌ في العدوّ فلا يَكُ همّك إلّا بها

فإن تَكُ لم تأتِ مِن بابها أتاكَ عدوُّكَ مِن بابها

وإيّاكَ مِن نَدمٍ بعدَها وتأميل أخرى، وأنّى بها

(١٨ : ٢٨٣)

**(الحكمة: ٣٦٩) الأصل: مِنَ الْخَرَقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ، وَالْأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذين المعنَيَيْن.

ومن كلام ابن المعتزّ: إهمال الفُرصة حتّى تَفوتَ عجز، والعَجَلة قبل التّمكّن خُرْق.

وقد جعل أمير المؤمنين عليه السلام كِلتا الحالتَين خُرْقًا، وهو صحيح، لأنّ الخُرْق الحُمْق، وقلّة العقل، وكلتا الحالتَين دليلٌ على الحُمْق والنّقص. (١٩ : ٢٨١)

## الفصل الثّالث والأربعون: [في المشورة]

**(الخطبة: ٢١٠) ... فَلَا تَكُفُّوا عَن مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَن أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ... .**

**الشّرح:** ... ومنها قوله عليه السلام: «ولا تكفّوا عن قولٍ بحقٍّ أو مشورةٍ بعَدلٍ».

قد ورد في المشورة شيءٌ كثيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1].

**وكان يقال:** إذا استَشَرتَ إنسانًا صار عَقْله لك.

وقال أعرابيّ: ما غُبِنت قطّ حتّى يُغبن قومِي. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئًا حتّى أشاورَهم.

**وكان يقال:** مَن أعطى الاستشارة لم يمنَع الصّواب، ومَن أعطى الاستخارة لم يمنَع الخيرة، ومَن أعطى التّوبة لم يمنع القبول، ومَن أعطى الشّكر لم يمنَع المزيد.

وفي «آداب» ابن المقفّع: لا يُقْذَفنّ في رُوعك أنّك إذا استشرتَ الرّجال ظهر منك للنّاس حاجتك إلى رأي غيرك، فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنّك لاتريد الرّأي للفخر؛ ولكنّ للانتفاع به، ولو أنّك أردتَه للذِّكر لكان أحسن الذِّكر عند العُقَلاء أن يقال: إنّه لاينفرد برأيه دون ذوي الرّأي من إخوانه. (١١ : ١٠٦ ـ ١٠٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنصَحُ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «ربّما نصح غير النّاصح، وغشّ المُستنصَح»، كان المغيرة بن شعبة يبغض عليًّا عليه السلام منذ أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله، وتأكّدت بِغْضته إلى أيّام أبي بكر وعثمان وعمر، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشّام مدّة يسيرة، فإذا خطب له بالشّام وتوطّأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما، وصرفه فلم يقبل، وكان ذلك نصيحة مِن عدوّ كاشِح.

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزّبير وهما بمكّة في الخروج عنها، وقصد العراق

---

١ ـ آل عمران / ١٥٩ .

ظانًّا أنّه ينصحه فغشّه، وقال له: لا تقُمْ بمكّة، فليس بها مَن يبايعك، ولكن دونك العراق، فإنّهم متى رأوْك لم يعدلُوا بك أحدًا، فخرج إلى العراق، حتّى كان من أمره ما كان. (١٦ : ١٠٢)

**(الحكمة: ٥١) الأصل: لَا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلَافَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ.**

**الشّرح:** ... فأمّا القول في المشورة؛ فقد تقدّم، وربمّا ذكرنا منه نُبذًا فيما بعد. (١٨ : ١٨٨)

**(الحكمة: ١٠٩) ... وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ.**

**الشّرح:** ... والمشورة من الحَزْم، فإنّ عقل غيرك تستضيفُه إلى عَقْلك.

ومن كلام بعض الحُكَماء: إذا استشارك عدوّك في الأمر فامْحَضه النّصيحة في الرّأي، فإنّه إن عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه في مُناوأتك، وأفضت عداوته إلى المودّة، وإن خالفَكَ واستضرّ عرف قَدْر أمانتك بنُصْحه، وبَلغت مُناك في مَكروهه. (١٨ : ٢٧٧)

**(الحكمة: ١٦٣) الأصل: مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنِ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ في المشورة مَدْحًا وذمًّا.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشميّ يَذُمُّها، ويقول: ما استَشَرْتُ واحدًا قَطّ إلّا تكبَّر عليَّ وتصاغرتُ له، ودخلتْه العِزّة ودخَلَتْني الذّلّة، فإيّاك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهبُ، واشتبَهَتْ عليك المسائل، وأدّاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح.

وكان عبدُ الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب، ويقول: ما حَكّ جِلْدك مثل

ظُفرِك، ولأن أُخطِئ مع الاستبداد ألْفَ خطأ أحبّ إليّ من أن أستشير وأُرَى بعين النّقص والحاجة.

**وكان يقال:** الاستشارة إذاعة السّرّ، ومخاطرةٌ بالأمر الّذي ترومُه بالمشاورة، فربّ مُستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك. وأمّا المادحون للمشورة؛ فكثيرٌ جدًّا.

**وقالوا:** خاطر مَن استبدّ برأيه.

**وقالوا:** المشورة راحةٌ لك، وتَعِبٌ على غيرك.

**وقالوا:** مَن أكثر من المشورة لم يعدم عند الصّواب مادحًا، وعند الخطأ عاذرًا.

**وقالوا:** المستشير على طَرَف النّجاح، والاستشارة من عزم الأُمور.

**وقالوا:** المشورة لِقاحُ العقول، ورائِدُ الصّواب.

ومن ألفاظهم البديعة: ثمرة رأي المشير أحلَى من الأَرْي المشور[1]. وقال بَشّار [الطّويل]:

إذا بلغ الرّأيُ النّصيحةَ فاسْتَعِن ... بعَزْمٍ نصيحٍ أو مشورةِ حازِمِ

ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غَضاضةً ... فإنّ الخوافي عُدَّةٌ للقوادِمِ

(١٨ : ٣٨٢ ـ ٣٨٣)

---

١ ـ الأَرْي : العسل. والمشور: المستخرج . شرت العسل : استخرجته .

## الفصل الرّابع والأربعون: [في الجَدّ والسّعادة]

**(الحكمة: ٤٨) ... عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ.**

**الشّرح:** قد قال النّاس في الجَدّ فأكثروا، وإلى الآن لم يتحقّق معناه.

ومن كلام بعضهم: إذا أقبل البَخْت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد، وإذا أدْبَرَ البَخْت أُسْعِرَ الهاونُ في الشّمس.

**ومن كلام الحكماء:** إنّ السّعادة لتَلْحظ الحَجَر فيُدْعَى رَبًّا.

**وقال أبو حيّان:** نوادر ابن الجَصّاص الدّالّة على تغفّله وبَلَهِه كثيرة جدًّا، قد صنّف فيها الكُتُب. مِن جُمْلتها أنّه سمع إنسانًا يُنشد نَسيبًا فيه ذِكْر هِند، فأنكر ذلك، وقال: لا تذكروا حماةَ النّبيّ ﷺ إلّا بخيرٍ، وأشياء عجيبة أظْرَف من هذا. وكانت سعادتُه تُضْرَب بها الأمْثال، وكثرة أمواله الّتي لم يجْتَمِع لقارون مثلها.

**قال أبو حَيّان:** فكان النّاس يَعْجَبون من ذلك، حتّى أنّ جماعةً من شيوخ بغداد كانوا يقولون: إنّ ابن الجَصّاص أعْقَلُ النّاس، وأحْزَم النّاس وإنّه هو الّذي ألْجَم الحال بين المُعْتَضِد وبين خُمَارَوَيْه بن أحمد بن طُولون، وسَفَر بينهما سِفارةً عجيبة، وبَلَغ من الجِهَتَين أحسن مَبْلَغ، وخَطَبَ قَطْرَ النَّدَى بنت خُمَارَويه للمعتضد، وجهّزها من مصرَ على أجمَلِ وَجْهٍ وأعلى ترتيبٍ، ولكنّه كان يقصد أن يتغافَل ويَتجاهَل ويُظْهِر البَلَه والنّقص، يَستبق بذلك مالَه، ويحرس به نِعْمَته، ويدفع عنه عين الكمال، وحَسَد الأعداء.

**قال أبو حيّان:** قلت لأبي غَسّان البصريّ: أظنّ ما قاله هؤلاء صحيحًا، فإنّ المعتضد مع حَزْمه وعَقْله وكماله وإصابةِ رأيه ما اختاره للسّفارة والصّلح إلّا والمرجوّ منه فيما يأتيه ويستقبله من أيّامه نظيرما قد شُوهِد منه فيما مضى من زمانه، وهل كان يجوز أن يصلح أمرٌ قد تَفاقَم فساده وتَعاظَم واشتدّ برسالة أحمق، وسَفارة أخْرَق. فقال أبو غسّان: إنّ الجَدّ يَنسَخ حال الأخرق، ويَسْتُر عَيْبَ الأحمق، ويذُبّ عن عِرْض المتلطّخ، ويقرّب الصّواب بمنطقه، والصّحّة برأيه، والنّجاح بسَعْيه، والجِدّ يستخدم العقلاء لصاحبه، ويَسْتَعمل آراءهم وأفكارهم في مطالبه، وابن الجَصّاص

على ما قيل وروى وحَدَّث وحَكى، ولكنّ جَدَه كفاه غائلة الحُمق، وحَماه عواقب الخُرق ولو عرفت خَبْط العاقل وتعسّفه وسوء تأتّيه وانقطاعه إذا فارقه الجِدّ، لعَلِمْت أنّ الجاهل قد يصيب بجَهْله ما لا يصيب العالِم بعلمه مع حِرْمانه.

**قال أبو حَيّان:** فقلت له: فما الجَدّ ؟ وما هذا المعنى الّذي علّقتَ عليه هذه الأحكام[1] كلّها؟ فقال: ليس لي عنه عبارة معيّنة، ولكنّ لي به عِلْمٌ شافٍ، استفَدْته بالاعتبار والتّجربة والسّماع العريض من الصّغير والكبير، ولهذا[2] سمع من امرأةٍ من الأعراب تُرْقِص ابنًا لها فتقول له: رزقك الله جَدًّا يخدمك عليه ذَوُو العقول، ولا رَزَقك عقلًا تخدم به ذَوِي الجُدُود. (١٨ : ١٨١ ـ ١٨٢)

**(الحكمة: ٢٢٧) الأصل: شَارِكُوا الَّذِين قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِم الرِّزْقُ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحَظِّ.**

الشّرح: قد تقدّم القول في الحظّ والبَخْت.

وكان يقال: الحظّ يُعْدِي كما يُعْدِي الجَرَب، وهذا يُطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ مخالطة المجدود ليست كمخالطة غير المجدود[3]، فإنّ الأُولى تقتضي الاشتراك في الحظّ والسّعادة، والثّانية تقتضي الاشتراك في الشّقاء والحرمان.

والقول في الحظّ وسيع جدًّا.

وقال بعضهم: البَخْت على صورة رَجُلٍ أعمى أصمّ أخرس، وبين يديه جواهرُ وحجارة، وهو يَرْمي بكِلتَا يديه.

وكان مالك بن أنس فقيه المدينة، وأخذ الفقه عن اللّيث بن سعد، وكانوا يزدحمون عليه واللّيث جالس لا يلتفتون إليه، فقيل للّيث: إنّ مالكًا إنّما أخذ عنك فما

---

١ ـ د: «الأحوال».

٢ ـ أ: «وقد سمع».

٣ ـ عبارة د: «ليست كمخالطة المحدود»، وبها يستقيم المعنى أيضًا.

لك خاملًا وهو أنبَهُ النّاس ذِكْرًا! فقال: دانِقُ بخْتٍ خيرٌ من جمَلٍ بُخْتيّ حُمِّل عِلْمًا.

وقال الرّضيّ [الوافر]:

أسِيغُ الغيظَ مِن نُوَبِ اللّيالي ... وما يحْفِلْنَ بالحَنَقِ المَغِيظِ[1]

وأرجو الرِّزْق مِن خَرْقٍ دَقيقٍ ... يُسَدُّ بسِلْك حرمانٍ غَليظِ[2]

وأرْجِعُ ليسَ في كفّيَّ منْهُ ... سِوَى عَضّ اليدَيْنِ على الحُظُوظِ

(١٩ : ٥٧)

---

١ ـ ديوانه ١ : ٤٥٣ .

٢ ـ في الدّيوان : «مِن خرت» ، والخرت : الثّقب .

## الفصل الخامس والأربعون:

## [في التّقدير والتّدبير]

**(الحكمة: ١٧) الأصل: تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ.**

**الشّرح:** إذا تأمّلتَ أحوال العالَم وجدتَ صِدْق هذه الكلمة ظاهرًا، ولوشئنا أن نذكر الكثير من ذلك لذكرنا ما يحتاج في تقييده بالكتابة إلى مثل حَجْم كتابنا هذا، ولكنّا نذكر لمحًا ونُكَتًا وأطرافًا ودُرَرًا من القول.

فَرَش مروان بن محمّد ـ وقد لَقِيَ عبد الله بن عليّ ـ أنطاعًا وبَسَط عليها المال، وقال: مَن جاءني برأسٍ فله مائةُ درهم، فعَجزت الحَفَظة والحُرّاس عن حمايته، واشتغلتْ طائفةٌ من الجُند بِنَهْبه، وتهافَتَ الجيش عليه لينتهِبوه، فغَشيَهم عبدُ الله ابن عليّ بعساكره، فقَتَل منهم ما لايُحْصَى، وهُزِم الباقون.

وكَسَرَ إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن جيش أبي جعفر المنصور بباخَمَرَى، وأمَرَ أصحابه باتّباعهم، فحال بينهم وبين أصحاب أبي جعفر ماءُ ضَحْضاح، فكره إبراهيم وجيشه خوض ذلك الماء، وكان واسعًا، فأمر صاحبَ لوائه أن يتعرّج باللّواء على مسنّاةٍ[١] كانت على ذلك الماء يابسة، فسَلَكها صاحبُ اللّواء وهي تقضى بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليَبَس، فلمّا رأى عسكر أبي جعفر أنّ لواء القوم قد تراجَعَ القَهْقَرى ظنّوهم منهزمين، فعطفوا عليهم، فقَتَلوا منهم مَقْتلةً عظيمةً، وجاء سَهْم غربٍ[٢]، فأصابَ إبراهيمَ فقَتَله.

وقد دبّرتْ من قبل قريش في حماية العِير بأن نَفَرتْ على الصَّعْب والذَّلُول لِتدفَع رسول الله ﷺ عن اللَّطيمة[٣]، فكان هلاكُها في تدبيرها.

وكُسِرت الأنصار يوم أُحد بأن أخرَجت النّبيّ ﷺ عن المدينة ظنًّا منها أنّ الظّفر والنّصرة كانت بذلك، وكان سبب عَطَبها وظَفر قريشٍ بها، ولو أقامت بين جُدْران

---

١ ـ المسنّاة: ضفيرة تُبنى للسّيل لتردّ الماء.

٢ ـ سهم غرب: لا يدري راميه.

٣ ـ اللّطيمة: قافلة تحمل العطور.

المدينة لم تَظْفر قريش منها بشيء.

ودَبَّر أبو مسلم الدّولةَ الهاشميّة، وقام بها حتّى كان حَتْفُه في تدبيره.

وكذلك جَرَى لأبي عبد الله المحتسِب مع عبد الله المهديّ بالمغرب.

ودبّر أبو القاسم بن المسلمة رئيسُ الرّؤساء في إخراج البَساسِيريّ عن العراق حتّى كان هلاكُه على يَدِه، وكذلك أيضًا انعكس عليه تدبيره في إزاله الدّولة البُوَيْهيّة من الدّولة السّلجوقيّة ظنًّا منه أنّه يَدْفَع الشّرّ بغير الشّرّ، فدفع الشّرّ بما هو شرّ منه.

وأمثالُ هذا ونظائره أكثرُ من أن تُحصى. (١٨ : ١٢٠ ـ ١٢١)

**(الحكمة: ١٠٩) الأصل: لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا كَرَمَ كَالتَّقْوَى ....**

الشّرح: ... ولا رَيْب أنّ التّدبير هو أفضل العقل، لأنّ العيش كلّه في التّدبير. (١٨ :٢٧٦)

**(الحكمة: ٤٦٥) الأصل: يَغْلِبُ الْمِقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ الْآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ.**

قال الرّضيّ: وقد مضى هذا المعنى فيما تقدّم، بروايةٍ تخالف هذه الألفاظ.

الشّرح: قد تقدّم هذا المعنى، وهو كثير جدًّا، ومِن جيّده قول الشّاعر[الطّويل]:

لعَمْرُكَ ما لَامَ ابنُ أخطبَ نَفْسَهُ ... ولكنّهُ مَن يخْذُل الله يخذلِ

لجاهدَ حتّى تَبْلُغَ النّفس عُذْرَها ... وقَلْقَل يبغي العِزَّ كُلّ مُقَلْقَلِ

وقال أبو تمام [الطّويل]:

ورَكْبٍ كأطرافِ الأسِنّةِ عَرَّسُوا ... على مِثْلِها واللّيلُ تَسْطوغَياهِبُهْ[1]

لِأمرٍ عليهم أن تَتِمَّ صُدورُهُ ... وليسَ عليهِمْ أن تَتِمَّ عَواقِبُهْ

---

١ ـ ديوانه ١ : ٢٢٩ .

وقال آخر[الطَويل]:

فإن يَبنِ حِيطانًا عليهِ فإنّما أولئكَ عُقَالَاتُهُ لا مَعاقِلُهْ

(٢٠ : ١٧٦)

## الفصل السّادس والأربعون:
## [في فضل الصّمت والاقتصار في المنطق]

**(الخطبة: ١٨٦) ... فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ ... ،**

**الشّرح:** ... واعلم! أنّ القول في خطر الكلام، وفضل الصّمت وفضل الاقتصار في المنطق وسيع جدًّا، وقد ذكرنا منه طرَفًا فيما تقدّم، ونذكر الآن منه طرَفًا آخر.

قال النّبيّ ﷺ: «مَن صَمَتَ نجا». وقال أيضًا: «الصُّمت حُكْم، وقليل فاعله».

وقال له ﷺ بعض أصحابه: أخبرني عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحدًا بعدك، فقال: «قل: آمنتُ بالله ثمّ استقم» قال فما أتّقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه.

وقال له عليه السلام عُقْبة بن عامر: يارسول الله، ما النّجاة؟ قال: «امْلِكْ عليك لسانك[1]، وابْكِ على خطيئتك، وليسعُك بيتُك».

وروى سهل بن سعد السّاعديّ، عنه ﷺ: «مَن يتوكّل لي بما بين لَحْيَيْه ورِجْلَيه أتوكّل له بالجنّة».

وقال: «مَن وُقِيَ شرّ قَبْقَبِه[2] وذَبْذَبِه[3] ولَقْلَقِه[4] فقد وقى».

وروى سعيد بن جبير مرفوعًا: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلّها تشكو اللّسان، تقول: أي بني آدم، اتّق الله فينا، فإنّك إن استقمتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوججنا».

وقد رُوي أنّ عمر رأى أبا بكر ويمدّ لسانه، فقال: ما تصنع؟ قال: هذا الّذي أوردني

---

١ ـ أملك عليك لسانك: أي لاتحرّكه إلّا بما يكون لك لا عليك .

٢ ـ القبقب: البطن ، من القبقبة ، وهي صوت يسمع من البطن ، فكأنّها حكاية ذلك الصّوت . النّهاية لابن الأثير : ٢٢٥ .

٣ ـ ذبذبه، أي ذكره . وانظر: النّهاية لابن الأثير٢ : ٤٣ .

٤ ـ اللّقلق: اللّسان . النّهاية لابن الأثير٤ : ٦٤ ، قال : ومنه حديث عمر: «ما لم يكن نقع ولا لقلقة» ، أراد الصّياح والجلبة عند الموت، وكأنّها حكاية الأصوات الكثيرة .

الموارد، إنّ رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء في الجسد إلّا يشكو إلى الله تعالى اللّسان على حدته».

وسُمِعَ ابنُ مسعود يُلَبِّيّ على الصّفا، ويقول: يا لسانُ، قلْ خيرًا تَغْنَم، أو اصمت تَسْلَم من قبل أن تَندَم، فقيل له: يا أبا عبد الرّحمن أهذا شيء سمعتَه، أم تقوله مِن تِلْقاء نفسك؟ قال: بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أكثر خطايا ابن آدم من لسانه».

وروى الحسن مرفوعًا: «رحم الله عبدًا تكلّم فغَنِم، أو سكت فسَلِم».

وقالت التّلامذة لعيسى عليه السلام: دلّنا على عَمَلٍ ندخل به الجنّة، قال: لا تنطقوا أبدًا. قالوا: لا نستطيع ذلك، قال: فلا تنطقوا إلّا بخير.

وقال النّبيّ ﷺ: «إنّ الله عند لسان كلّ قائل، فاتّقَى الله امرؤ عَلِم ما يقول».

**وكان يقال:** لا شيء أحقّ بطولِ سِجْنٍ من لسان.

**وكان يقال:** لسانك سَبُع، إن أطلقتَه أكَلك.

في حكمة آل داود: حَقيقٌ على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه، حافظًا للسانه، مُقْبِلًا على شأنه.

**وكان يقال:** مَن عَلِم أنّ كلامه من عمله، أقلّ كلامه فيما لاينفعه.

وقال محمّد بن واسع: حِفْظ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدّينار والدّرهم.

اجتمع أربعة حكماء: من الرّوم، والفرس، والهند، والصّين، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلتُ، ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إذا تكلّمتُ بالكلمة ملكتْني، ولم أملكها، وإذا لم أتكلّم ملكتُها ولم تملكني. وقال الآخر: عجبتُ للمتكلّم، إن رجعتْ عليه كلمته ضَرَتْه، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرّابع: أنا على ردّ ما لم أقل، أقدر منّي على ردّ ما قلتُ. (١٠ : ١٣٦ ـ ١٤١)

## [ذكر الآثار الواردة في آفات اللّسان]

واعلم! أنّ آفات اللّسان كثيرة:

فمنها: الكلام فيما لا يعنيك، وهو أهون آفات اللّسان، ومع ذلك فهو عيبٌ، قال النّبيّ ﷺ: «مِن حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وروي أنّه عليه السلام مرّ بشهيد يوم أُحُد، فقال أصحابه: هنيئًا له الجنّة! قال: وما يدريكم لعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه!

وقال ابن عبّاس: خمسٌ هي أحسن وأنفع من حُمْرِ النَّعم: لا تتكلّم فيما لا يعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوِزْر. ولا تتكلّم فيما يعنيك حتّى تجد له موضعًا، فرُبّ متكلّم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء. ولا تُمَار حليمًا ولا سفيهًا، فإنّ الحليم يَقْليك، والسّفيه يُؤْذيك، واذكر أخاك إذا تغيّبَ عنك بما تحبّ أن يذكرك به، واعْفه عمّا تحبّ أن يُعْفيَك عنه. واعْمل عمل رجلٍ يرى أنّه مجازًى بالإحسان، مأخوذ بالجرائم.

ومنها: فضولُ الكلام وكثرته، وترك الاقتصار، وكان يقال: فضول المنطق وزيادته نقص في العقل، وهما ضدّان متنافيان، كلّما زاد أحدهما نقص الآخر.

وقال عبد الله بن مسعود: إيّاكم وفضول الكلام، حَسْبُ امرئٍ ما بلغ به حاجتَه. وكان يقال: مَن كَثُر كلامه كَثُر سَقَطُه.

وقال الحسن: فضول الكلام كفضول المال، كلاهما مُهْلِك.

ومنها: الخوض في الباطل، والحديث فيما لا يحلّ، كحديث النّساء ومجالس الخمر، ومقامات الفُسّاق. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[1].

ومنها: المراء[2] والجِدال، قال عليه السلام: «دَعِ المِراء وإن كنتَ محقًّا».

---

١ ـ المدّثّر/ ٤٥ .

٢ ـ المراء ، وفعله ماری یماري: كثرة المنازعة واللّجاجة في القول .

وقال مالك بن أنس: المِراءُ يقسّي القلب، ويورّث الضّغائن.

وقال سُفيان الثّوريّ: لوخالفتُ أخي في رُمّانة، فقال: حُلْوة، وقلت: حامضة، لَسُعِيَ بي إلى السّلطان.

**وكان يقال:** صافِ مَن شئتَ، ثمّ أغضبه بالجدال والمِراء، فليرمينّك بداهيةٍ تمنعك العيش.

وقيل لميمون بن مِهران: ما لك لا تفارق أخًا لك عن قِلى؟ قال: لأنّي لا أُشارِيه، ولا أُماريه.

**ومنها:** التّقعّر في الكلام بالتّشدّد، والتّكلّف في الألفاظ، قال النّبيّ ﷺ: «أبغضكم إليّ، وأبعدكم منّي مجالس يوم القيامة الثّرثارون[1] المُتَفيْهقون[2] المتشدّقون[3]».

وقال عليه السلام: «هلك المتنطّعون ...»، ثلاث مرّات، والتّنطّع: هو التّعمّق والاستقصاء.

وقال عمر: إنّ شقاشق الكلام من شقاشق الشّيطان.

**ومنها:** الفُحْش والسّبّ والبَذاء[4]، قال النّبيّ ﷺ: «إيّاكم والفحش، فإنّ الله لا يحبّ الفُحْش، ولا يرضى الفُحْش».

وقال عليه السلام: «ليس المؤمن بالطّعّان، ولا باللّعّان، ولا بالسّبّاب، ولا البذيء».

وقال عليه السلام: «لوكان الفُحْش رجلًا لكان رجل سوء».

**ومنها:** المزاح الخارج عن قانون الشّريعة.

---

١ ـ الثّرثارون: الّذين يكثرون الكلام تكلّفًا وتجاوزًا، وخروجًا عن الحقّ، وأصله من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عين ثرثارة.

٢ ـ المتفيقهون، أصله من قولهم: «فهق الغدير يفهق»، إذا امتلأ ماء، فلم يكن فيه موضع مزيد.

٣ ـ المتشدّقون: المتوسّعون في الكلام من غير احتياط واحتراز في اللّسان: وقيل: «أراد بالمتشدّق المستهزئ بالنّاس، يلوي شدقه بهم وعليهم».

٤ ـ البَذاء، بالفتح: السّفه والفحش في المنطق.

وكان يقال: مَن مزح استُخِفَّ به.

وكان يقال: المزاح فحل لا يُنتج إلّا الشّرّ.

ومنها: الوعد الكاذب، وقد قال النّبيّ ﷺ: العِدَة دَيْن، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[2].

ومنها: الكذب في القول واليمين، والأمر فيهما مشهور.

ومنها: الغيبة، وقد تقدّم القول فيها. (١٠ : ١٣٨ ـ ١٤١)

## [في المراء]

(الحكمة: ٣٦٨) الأصل: مَن ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ.

الشّرح: قد تقدّم من القول في المِراء ما فيه كفاية، وحدّ المراء الجدال المتّصل لايقصد به الحقّ.

وقيل لميمون بن مِهْران: ما لك لاتُفارِقُ أخًا لك عن قِلًى؟ قال: لأنّي لا أُشاريه ولا أُماريه.

وكان يقال: ما ضَلّ قوم بعد إذ هَداهم اللهُ [تعالى] إلّا بالمِراء والإصرار في الجِدال على نصرة الباطل.

وقال سُفيان الثَّوْريّ: إذا رأيتم الرّجل لجوجًا مُماريًا مُعْجبًا بنفسه فقد تمّت خسارته. (١٩ : ٢٨٠)

---

١ ـ مريم / ٥٤.

٢ ـ المائدة / ١.

(الخطبة: ٢٢٨) ومن كلام له عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ ... .

الشّرح: ... والمعنى: إنّ اللّسان آلةٌ للإنسان، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام، لم يكن اللّسان ناطقًا، وإذا دعاه داعٍ الى الكلام نطق اللّسان بما في ضمير صاحبه ...

## [ذكر من ارتجّ عليهم أو حَصِروا عند الكلام]

واعلم! أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعةٍ اقتضت أن يقوله، وذلك أنّه أمر ابن أُخته جَعْدة بن هُبيرة المخزوميّ أن يخطب النّاس يومًا، فصعد المنبر، فحصر ولم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين عليه السلام، فتسنّم ذرْوة المنبر، وخطب خطبة طويلة، ذكر الرّضيّ رحمه الله منها هذه الكلمات، وروى شيخنا أبو عثمان في كتاب «البيان والتّبيين» أنّ عثمان صعد المنبر، فارتجّ عليه، فقال: «إنّ أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب، وستأتيكم الخطبة على وجهها»[1]. ثمّ نزل.

قال أبو عثمان: وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: صعد ابن لعديّ[2] بن أرطاة المنبر، فلمّا رأى النّاس حَصِر، فقال: «الحمد لله الّذي يُطعم هؤلاء ويسقيهم».

وصَعِد رَوْح بن حاتم المنبر، فلمّا رأى النّاس قد رشقوه[3] بأبصارهم، وصرفوا أسماعهم نحوه، قال: «نكّسوا رؤوسكم، وغضّوا أبصاركم، فإنّ أوّل مَرْكَب صَعْبٌ، فإذا يسّر الله عَزَّوجَلَّ فَتْحَ قُفْل تيسّر[4]». ثمّ نزل.

---

١ ـ البيان و التّبيين ٢ : ٢٥٠ .

٢ ـ كذا في «الأُصول» ; وفي «البيان والتّبيين» : صعد عديّ بن أرطاة .

٣ ـ البيان : «شفنوا أبصارهم» والشّفن : أن يرفع المرء طرفه ناظرًا إلى الشّيء كالمتعجّب له .

٤ ـ البيان و التّبيين ٢ : ٢٤٩ .

وخطب مُصْعَب بن حَيّان أخو مُقاتل بن حَيّان خطبة نكاح فحَصِر، فقال: «لقّنوا مَوْتاكم لا إله إلّا الله»، فقالت أُمّ الجارية: عجّل الله موتك، ألهذا دعوناك[1]!

وخطب مروان بن الحكم فحَصِر، فقال: «اللّهمّ إنّا نحمدك ونستعينك، ولانشرك بك».

ولما حَصِر عبد الله بن عامر بن كُرَيز على المنبر بالبصرة ـ وكان خطيبًا ـ شقّ عليه ذلك، فقال له زياد بن أبيه، وكان خليفته: أيّها الأمير لاتجزع، فلو أقمت على المنبر عامّة مَن ترى أصابهم أكثر ممّا أصابك، فلمّا كانت الجمعة تأخّر عبد الله بن عامر، وقال زياد للنّاس: إنّ الأمير اليوم موعوك، فقيل لرجل من وجوه أُمراء القبائل: قُمْ فاصْعَد المنبر، فلمّا صعد حَصِر، فقال: الحمد لله الّذي يرزق هؤلاء، وبقي ساكتًا، فأنزلوه، وأصعدوا آخر من الوجوه، فلمّا استوى قائمًا قابل بوجهه النّاس، فوقعت عينه على صَلعة[2] رجل، فقال: أيّها النّاس، إنّ هذا الأصلع قد منعني الكلام، اللّهمّ فالْعَن هذه الصّلعة. فأنزلوه.

وقالوا لوازع اليشكريّ: قُمْ إلى المنبر فتكلّم، فلمّا صعد ورأى النّاس، قال: أيّها النّاس إنّي كنت اليوم كارهًا لحضور الجمعة، ولكنّ امرأتي حملتني على إتيانها، وأنا أشهدكم أنّها طالق ثلاثًا، فأنزلوه، فقال زياد لعبد الله بن عامر: كيف رأيت؟ قم الآن فاخطب النّاس[3].

وقال سهل بن هارون دخل قُطْرُب النّحويّ على المخلوع، فقال: يا أمير المؤمنين كانت عِدْتك أرفع من جائزتك ـ وهو يتبسّم ـ فاغتاظ الفضل [بن الرّبيع]، فقلت له: إنّ هذا من الحَصَر والضّعف، وليس من الجَلَد والقوّة، أمَا تراه يفتل أصابعه ويَرْشح

---

١ ـ نفس المصدر ٢ : ٢٥٠ .

٢ ـ الصّلعة : موضع الصّلع .

٣ ـ البيان و التّبيين ٢ : ٢٥١ .

جبينه[١]!

ودخل معبد بن طوق العنبريّ على بعض الأُمراء، فتكلّم وهو قائم فأحسن، فلمّا جلس تَلَهْيَع[٢] في كلامه، فقال له: ما أظرفك قائمًا، وأموقك[٣] قاعدًا! قال: إنّي إذا قُمْت جَدَدْت، وإذا قعدت هَزُلت، فقال: ما أحسن ما خرجت منها.

وكان عمروبن الأهتم المنقريّ، والزِّبرقان بن بَدْر عند رسول الله ﷺ، فسأل عليه السلام عمرًا عن الزِّبرقان، فقال: يا رسول الله: إنّه لمانعٌ لحَوْزته، مطاعٌ في أدانيه. فقال الزّبرقان: حسدني يا رسولَ الله. فقال عمرو: يا رسول الله، إنّه لزمِر المروءة، ضيّق العطن، لئيم الخال. فنظر رسول الله ﷺ إلى وجه عمرو، فقال: يا رسول الله: رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمتُ، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمتُ، وما كذبتُ في الأُولى، ولقد صدقتُ في الأُخرى. فقال عليه السلام: إنّ من البيان لسِحْرًا.

وقال خالد بن صَفْوان: ما الإنسان لولا اللّسان إلّا صورة ممثّلة أو بهيمة مهملة.

وقال ابن أبي الزّناد: كنتُ كاتبًا لعمربن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرّحمن بن زيد بن الخطّاب في المظالم، فيراجعه، فكتب إليه: إنّه يخيّل إليّ أنّي لوكتبت إليك أن تعطي رجلًا شاة لكتبت إليّ: أضأنا أم معزًا؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إليّ: أذكرًا أم أُنثى! وإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إليّ: صغيرًا أم كبيرًا، فإذا كتبت إليك في مظلمة، فلا تراجعني والسّلام[٤].

وأخذ المنصور هذا، فكتب إلى مسلم بن قُتَيبة عامله بالبصرة يأمره بهَدْم دُور مَن خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعَقْر نخلهم، فكتب إليه: بأيّهما أبدأ [بالدُّور أم بالنّخل] يا أمير المؤمنين؟ فكتب إليه: لوقلت لك بالنّخل لكتبت إليّ بماذا أبدأ

---

١ ـ البيان والتّبيين ١ : ٣٤٦ .

٢ ـ تَلَهْيَع : أفرط ، وفي «البيان» : «تتعتع» .

٣ ـ اللّسان : «أموتك» .

٤ ـ البيان والتّبيين ٢ : ٢٨٠ .

بالشّهريز أم بالبرْنيّ[١]؟ وعزله، وولّي محمّد بن سليمان[٢].

وخطب عبد الله بن عامر مرّة، فأُرتجّ عليه، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى، فقال: لا أجمع عليكم عيًّا ولؤمًا: مَن أخذ شاة من السُّوق فهي له وثمنها عليّ.

وخطب السّفّاح أوّل يوم صعد فيه المنبر، فارتجّ عليه، فقام عمّه داود بن عليّ، فقال: أيّها النّاس، إنّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدّم قوله فيكم فعله، ولَأثر الأفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله علمًا فيكم، وابن عمّ رسول الله ﷺ خليفةً عليكم.

قال الشّاعر[الطّويل]:

وما خيرُ مَن لاينفع الدّهر عيشهُ ... وإن ماتَ لم يحزُنْ عليهِ أقاربُهْ

كَهامٌ على الأقصى كليلٌ لسانُه ... وفي بَشَر الأدنى حديدٌ مخالبُهْ

وقال أُحَيْحة بن الجُلاح [مجزوء الكامل]:

والصّمتُ أجملُ بالفَتَى ... ما لم يكن عِيٌّ يشينُهْ

والقولُ ذوخَطَلٍ إذا ... ما لم يكن لبٌّ يزينُهْ

(١٣ : ١٣ ـ ١٧)

## [فصل في مدح قلّة الكلام وذمّ كثرته]

**(الخطبة: ٩٩) الأصل: اَلحَمْدُ لِلّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَن تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَن تَخَلَّفَ عَنهَا زَهَقَ، وَمَن**

---

١ ـ الشّهريز: ضربٌ من التّمر، والبرنيّ ضربٌ من التّمر أيضًا أصفر مدوّر، و هو أجود التّمر.

٢ ـ البيان و التّبيين ٢ : ٢٨٣ .

لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ ... .

**الشّرح:** ... فأمّا قوله عليه السلام: «مَكيث الكلام»، فإنّ قلّة الكلام من صفات المدح، وكثرته من صفات الذّمّ. قالت جارية ابن السّمّاك له: ما أحسن كلامك لولا أنّك تكثر ترداده! فقال: أُردِّدُه حتّى يفهمَه مَن لم يفهمه. قالت: فإلى أن يفهمه مَن لم يفهمه قد مَلّه مَن فهمه.

بعث عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفةً حمراء، وكتب إليه: أمّا بعد، فقد بعثت إليك بقطيفةٍ حمراء، حمراء، حمراء. فكتب إليه الوليد: أمّا بعد، فقد وصلت القطيفة، وأنت يا عمّ أحمق، أحمق، أحمق.

وقال المعتضِد لأحمد بن الطّيّب السّرخسيّ: طُولُ لِسانِكَ دليلٌ على قصر عقلك.

قيل للعتّابيّ: ما البلاغة؟ قال: كلّ مَن أفهمَك حاجته من غير إعادة ولا خَلْسة ولا استعانة، فهو بليغ. قيل له: ما الاستعانة؟ قال: ألا ترى الرّجل إذا حدّث قال: يا هناه، واستمعْ إليّ، وافْهم، وألستَ تَفْهم؟..هذا كلّه عَيّ وفساد.

دخل على المأمون جماعة من بني العبّاس، فاستنطقهم فوجدهم لُكَنًا مع يسارٍ وهيئةٍ، ومَن تكلّم منهم أكثر وهذر، فكانت حاله أفحش من حال السّاكتين، فقال: ما أبين الخَلّة في هؤلاء! لا خَلّة الأيدى، بل خلّة الألسنة والأحلام.

وسُئِل عليّ عليه السلام عن اللّسان، فقال: معيارٌ أطاشه الجهل، وأرجحه العقل.

سمع خالد بن صفوان مِكْثارًا يتكلّم، فقال له: يا هذا، ليست البلاغة بخفّة اللّسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنّها إصابة المعنى، والقصد إلى الحجّة.

قال أبو سفيان بن حَرْب لعبد الله بن الزِّبَعرَى: ما لك لا تُسْهِب في شعرك؟ قال: حسبك من الشّعر غرّة لائحة، أو وَصمة فاضحة.

وفي خطبة كتاب «البيان والتّبيين»، لشيخنا أبي عثمان: «ونعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذَر، كما نعوذ بك من العيّ والحصر». قال أُحيحة بن الجُلَاح [مجزوء الكامل]:

والصّمت أجمل بالفَتَى ما لم يكن عِيٌّ يَشِينُهُ

والقـول ذو خَطَـلٍ إذا ما لم يَكُن لُـبٌّ يعينُهُ

وقال الشّاعر يرثي رجلًا [الوافر]:

لَقَدْ وارَى المقابرُ من شُرَيْكٍ كثيـرَ تَحَلّـمٍ وقليـلَ عـابِ

صموتا في المجالس غيرعَيٍّ جديرًا حِينَ ينطق بالصّوابِ

وكـان رسـول الله ﷺ يكـره التّشـادُق والإطالـة والهـذر، وقـال: إيّـاك والتّشـادق، وقال ﷺ: «أبغضُكم إليّ الثّرثارون المتفيهقون».

وروى عمروبن عبيد رحمه الله تعالى عن النّبيّ ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء بكّاؤون قليلوا الكلام». رجل بكيء على «فعيل».

قال: وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرّجل على عَقْله.

وقيل للخليل، وقد اجتمع بابن المقفّع: كيف رأيتَه؟ فقال: لسانه أرجح من عَقْله. وقيل لا بن المقفّع: كيف رأيتَ الخليل؟ قال: عقله أرجح من لسانه. فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصونًا مُكرَّمًا، وقُتِل ابن المقفّع تلك القتلة.

وسأل حَفْصُ بن سالم عمرَوبن عبيد عن البلاغة؟ فقال: ما بلّغك الجنّة، وباعَدك عن النّار، وبصّرك مواقع رُشْدك، وعواقب غَيّك. قال: ليس عن هذا أسأل، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سَقَطات الكلام، ولا يخافون من فتنة السّكوت، وسَقَطات الصّمت.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكان عمروبن عبيد رحمه الله تعالى، لا يكاد يتكلّم، فإن تكلّم لم يكد يطيل، وكان يقول: لا خير في المتكلّم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا أطال المتكلّم الكلام عرضت له أسباب التّكلّف، ولا خير في شيءٍ يأتيك بالتّكلّف.

وقال بعض الشّعراء [الكامل]:

وإذا خطبتَ على الرّجال فلا تكنْ خَطِلَ الكلامِ تقولُهُ مختالَا

واعلـمْ بـأنّ مِـنَ السّـكوتِ إبانـةً ومِنَ التّكلّفِ ما يكون خبالَا

**وكان يقال:** لسانُ العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه، فإن هَمّ بالكلام تكلّم به.

وقال سعد بن أبي وَقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم، وقد كان غضب عليه، فكلّموه في الرّضا عنه: هذا الّذي أغضبني عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قومٌ يأكلون الدّنيا بألسنتهم كما تَلْحسُ الأرض البقرُ بألسنتها».

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى: قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللّسان، قصير الرّأى، فأجِد الحزّ، وطبقّ المفصل، ولاتلقَه برأيك كلّه.

**وكان يقال:** لوكان الكلام من فضّةٍ لكان السّكوت من ذَهَبٍ.

**وكان يقال:** مقتل الرّجل بين فكّيه، وقيل: بين لحييه.

**وكان يقال:** ما شيء بأحقّ بسجنٍ من لسان.

وقالوا: اللّسان سَبُع عَقُور.

وأخذ أبو بكر بطرف لسانه، وقال: هذا الّذي أوردني الموارد.

لمـا أنكح ضِرار بن عمرو ابنته من معبد بن زُرارة، أوصاها حين أخرجها إليه، فقال: أمسِكي عليك الفَضْلَين. قالت: وما هما؟ قال: فضل الغُلْمة، وفضل الكلام.

وسُئِل أعرابيّ كان يجالس الشّعبيّ عن طول صَمْته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقال النّبيّ ﷺ: «وهل يكبّ النّاس في النّار على مناخرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم»[1]!

وتكلّم رجل في مجلس النّبيّ ﷺ، فخطِل في كلامه، فقال عليه السلام: «ما أُعطِيَ العبد شرًّا من ذلاقة لسان».

قال عمر بن عبد العزيز يوم بُويع بالخلافة لخالد بن عبد الله القَسْريّ، وقد أنشده متمثّلًا [الخفيف]:

---

١ ـ النّهاية لابن الأثير١ : ٢٣٣ ، قال في شرحه : أي ما يقتطعونه من الكلام الّذي لا خيرفيه، واحدتها حَصيدة ، تشبيهًا بما يحصد من الزّرع ، وتشبيهًا باللّسان وما يقتطعه بحدّ المنجل الّذي يحصد به .

وإذا الدّرُّ زانَ حُسْنَ نُحورٍ كان للدُّرِّ حسن نحرِكِ زَيْنَا

إنّ صاحبكم أُعطيَ مَقُولًا. وحُرِم معقولًا.

وقيل لإياس بن عمر: ادْعُ لنا. فقال: اللّهمّ ارحمْنا وعافنا وارْزقنا. فقالوا: زِدْنا يا أبا الرّحمن، فقال: أعوذ بالله من الإسهاب.

وكان القُباع ــ وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ ــ مِسْهابًا، سريع الحديث كثيره، فقال فيه أبو الأسود الدُّئليّ [الوافر]:

أميرَ المؤمنينَ جُزِيتَ خيرًا أرِحْنا مِن قُبَاع بَنِي المغيرهْ

بلونــاهُ ولمنــاه فأعْيَــا علينا مـا يمـرّلنـا مريـرَهْ

على أنّ الفَتَى نِكحٌ أكولٌ ومِسْهابٌ، مَذاهِبُهُ كثيرهْ

وقال أبو العتاهيّة [مجزوء الكامل]:

كــلّ امــرئٍ في نفسِــهِ أعْلَى وأشْرَفُ مِن قرِينِهْ

والصَّــمْتُ أجمَــلُ بــالفَتَى مِن مَنطقٍ في غَيرِ حِينِهْ

وقال الشّاعر[الطّويل]:

وإيّاكَ إيّاكَ المِراء فإنّهُ إلى الشّرِّ دَعّاءٌ وللشّرِّ جالبُ

وكان يقال: العَجَلة قَيْد الكلام.

أطال خطيب بين يدي الإسكندر، فزبَره، قال: ليس حُسْن الخطبة على حَسَب طاقة الخاطب، ولكنّ على حَسَب طاقة السّامع.

محمّد الباقر عليه السلام: إنّي لأكره أن يكون مقدار لسان الرّجل فاضلًا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلًا على مقدار عقله.

أطال ربيعة الرّأي الكلام، وعنده أعرابيّ، فلمّا فرغ من كلامه، قال للأعرابيّ: ما تعدّون العيّ والفهاهة فيكم؟ قال: ما كنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم!

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: إذا تمّ العقل نقص الكلام.

واصل بن عطاء: لأن يقولَ الله لي يوم القيامة: هلّا قلت: أحَبّ إليّ من أن تقول

لي: لمَ قلت؟ لأنّي إذا قلتُ طالبني بالبرهان، وإذا سكتُّ لم يطالبني بشيءٍ.

نزل النّعمان بن المنذر برابية، فقال له رجل من أصحابه: أبيت اللّعن! لو ذُبِح رجلٌ على رأس هذه الرّابية، إلى أين كان يبلغ دَمُه؟ فقال النّعمان: المذبوح والله أنت، ولأنظرنّ إلى أين يبلغ دَمُك! فذبحه. فقال رجل: رُبّ كلمة تقول: دَعْني.

أعرابيّ: رُبّ منطقٍ صَدَع جمْعًا، ورُبّ سكوت شَعَب صدعًا.

قالت امرأة لبَعْلها: ما لكَ إذا خرجتَ تطلّقت وتحدّثت، وإذا دخلتَ قعدت وسكتَّ؟ قال: لأنّي أدِقّ عن جليلِكِ، وتجلّينَ عن دقيقي.

النّخعيّ: كانوا يتعلّمون السّكوت كما يتعلّمون الكلام.

عليّ بن هشام [الطّويل]:

لعمرُكَ إنّ الحلمَ زَيْنٌ لأهلِهِ ... وما الحلمُ إلّا عادةٌ وتحلّمُ

إذا لم يكن صَمتُ الفَتَى مِن بلادةٍ ... وعيٍّ، فإنّ الصّمتَ أهْدَى وأسلَمُ

وُهَيب بن الورد: إنّ الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصّمت، والعاشرة العزلة عن النّاس.

مكث الرّبيع بن خُثَيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتِل الحسين عليه السلام، فسمعت منه كلمةً واحدةً، قال لما بلغه ذلك: أوَ قد فعلوها! ثمّ قال: اللّهمّ فاطر السّماوات والأرض، عالِم الغيب والشّهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. ثمّ عاد إلى السّكوت حتّى مات.

الفضل بن العبّاس بن عُتْبة بن أبي لهب [الكامل]:

زعمَ ابنُ سَلْمَى أنّ حلمي ضَرَّ بي ... ما ضَرَّ قبلي أهلَهَ الحِلْمُ

إنّا أناسٌ من سجيّتهمْ ... صِدْقُ الحديثِ ورأيُهُمْ حَتْمُ

لَبِسُوا الحياءَ فإن نظرتَ حَسِبْتَهُمْ ... سَقِموا ولم يَمْسَسْهُمُ سُقْمُ

إنّي وجدتُ العُدْمَ أكبرُهُ ... عُدْمُ العقولِ وذلك العُدْمُ

والمرءُ أكثرُ عَيبِهِ ضَرَرًا ... خَطَلُ اللّسانِ وصَمْتُهُ حُكْمُ

جاء في الحديث المرفوع عن النّبيّ ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتًا فادْنوا منه، فإنّه يلقَّى الحكمة».

سفيان بن عُيَينة: مَن حُرِم العلم فليَصْمُت، فإن حُرِمَهما، فالموت خيرله.

وكان يقال: إذا طلبتَ صلاح قلبك، فاستعن عليه بحفظ لسانك.(٧ : ٨٦ ـ ٩٣)

**(الخطبة: ١٨٦) [من علامات المتّقين] ... إِن صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِن ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِن بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنتَقِمُ لَه ... .**

الشّرح: ... قوله: «إن صمت لم يغمّه صمته»، أي لا يحزن لفوات الكلام، لأنّه يَرى الصَّمْت مغنمًا لا مغرمًا ... . (١٠ : ١٦٠)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِن صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِن إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِن مَنطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَن أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَن تَفَكَّرَ أَبْصَرَ... .**

الشّرح: هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حِكميّة:

أوّلها: قوله: «تلافيك ما فَرَط من صَمْتك أيسَر من إدراكك ما فات من منطقك»، وهذا مثل قولهم: أنت قادرٌ على أن تجعل صَمْتك كلامًا، ولستَ بقادرٍ على أن تجعل كلامك صَمْتًا، وهذا حقّ، لأنّ الكلام يسمع وينقل فلا يستطاع إعادته صَمْتًا، والصّمت عدم الكلام، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدّله بالكلام، وليس الصَّمْت بمنقولٍ ولا مسموع، فيتعذّر استدراكه ... .

وسابعها: قوله: «مَن أكثر أهجر»، يقال: أهجر الرّجل، إذا أفحش في المنطق السّوء

والخنا، قال السَّمَاخ [الطويل]:

كماجدةِ الأعراقِ قال ابنُ ضرَّةٍ عليها كلامًا جارَ فيهِ وأهْجَرَا[1]

وهذا مثل قولهم: مَن كَثُر كلامه كَثُر سَقَطه.

وقالوا أيضًا: قلّما سَلِم مِكْثار، أوأمِنَ مِن عِثار. (١٦ : ٩٧ ـ ٩٩)

## [في حفظ اللّسان]

(الخطبة: ١٧٧) ... ثُمَّ إيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللهِ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِن وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِن وَرَاءِ لِسَانِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَن يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِن كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِن كَانَ شَرًّا وَارَاهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمْ أَن يَلْقَى اللهَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِن دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِن أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ ... .

الشّرح: ... قال: «وليخزُن الرّجل لسانه»، أي ليحبسْه؛ فإنّ اللّسان يجمح بصاحبه فيلقيه في الهلكة.

ثمّ ذكر أنّه لا يرى التّقوى نافعة إلّا مع حبس اللّسان، قال: فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه، وشرح ذلك وبيّنه.

فإن قلت: المسموع المعروف: «لسان العاقل من وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»، كيف نقله إلى المؤمن والمنافق؟

---

١ ـ ديوانه : ٢٨ ، وروايته : «بمجدة الأعراق» . و ابن ضرّتها : ابن زوجها .

**قلت:** لأنّه قلّ أن يكون المنافق إلّا أحمق، وقلّ أن يكون العاقل إلّا مؤمنًا، فلأ كثريّة ذلك استعمل لفظ «المؤمن» وأراد العاقل، ولفظ «المنافق» وأراد الأحمق.

ثمّ روى الخبر المذكور عن النّبيّ ﷺ وهو مشهور. ثمّ أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الرّاحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللّسان من أعراضهم، وقد قال النّبيّ ﷺ: «إنّما المسلِم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده»، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم... .

**وكان يقال:** ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خصال، فإنّها من المروءة: أن يحفظ دِينه ويصون عِرْضه، ويَصِل رَحِمَه، ويحمِيَ جارَه، ويرعَى حقوق إخوانه، ويخزُن عن البَذاء[1] لسانه.

وفي الخبر المرفوع: «مَن كُفِي شرّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه، ولَقْلَقِه، دخل الجنّة». فالقبقب: البطن، والذّبذب: الفَرْج، واللّقلق: اللّسان.

وقال بعض الحكماء: مَن علم أنّ لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من اعتمالها، واستقبح تحريكها، كما يُستقبَح تحريك رأسه أو منكِبه دائمًا. (١٠: ٢٨ ـ ٢٩)

**(الحكمة: ٢) الأصل: أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَن كَشَفَ عَن ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَن أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.**

**الشّرح:** ... قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ في ذلك، وكان يقال: حفظ اللّسان راحة الإنسان. وكان يقال: رُبّ كلمةٍ سفكت دَمًا، وأورثت نَدَمًا.

وفي الأمثال العامّيّة، قال اللّسان للرّأس: كيف أنت؟ قال: بخير لوتركتني.

وفي وصيّة المهلّب لولده، يا بَنيّ تباذلوا تحابُّوا، فإن بني الأعيان يختلفون فكيف

---

١ ـ البذاء: السّفه و الفحش في المنطق.

ببني العَلّات، إنّ البَرَينسَأ في الأجل ويزيد في العدد، وإنّ القطيعة تُورِث القلّة وتعقب النّار بعد الذّلّة، اتّقوا زلّة اللّسان، فإنّ الرّجل تَزِلّ رجله فينتعش، ويزلّ لسانه فيهلك. وعليكم في الحرب بالمَكيدة، فإنّها أبلغ من النَّجْدة، وإنّ القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظفر الرّجل ذو الكَيْد والحَزْم سعد، وإن ظُفِر به لم يقولوا: فَرَط.

وقال الشّاعر في هذا المعنى [الطّويل]:

يموتُ الفَتَى مِنْ عثرةٍ بلسانِهِ وليس يموتُ المرءُ مِنْ عَثرةِ الرِّجْلِ

(١٨ : ٨٥ ـ ٨٦)

**(الحكمة: ٥٨) الأصل: اللِّسَانُ سَبُعٌ إِن خُلِّيَ عَنهُ عَقَرَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا كلام طويل في هذا المعنى.

**وكان يقال:** إن كان في الكلام دَرَك، ففي الصّمت عافية.

**وقالت الحكماء:** النّطق أشرف ما خُصّ به الإنسان، لأنّه صورته المعقولة الّتي باين بها سائر الحيوانات، ولذلك قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[١]، ولم يقل: «وعلّمه» بالواو، لأنّه سبحانه جعل قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ تفسيرًا لقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾، لا عطفًا عليه، تنبيهًا على أنّ خلقه له، وتخصيصه بالبيان الّذي لو توهّم مرتفِعًا لارتفعت إنسانيّته، ولذلك قيل: ما الإنسان لولا اللّسان إلّا بهيمةٌ مُهْملةٌ، أو صورة ممثّلةٌ.

وقال الشّاعر [الطّويل]:

لسانُ الفَتى نِصفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلّا صورةُ اللّحمِ والدَّمِ[٢]

قالوا: والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مذمومٌ، وهو من صفات الجمادات، فضلًا عن الحيوانات، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من العلماء في مدح الصّمت محمول

---

١ ـ الرّحمن / ٣ ـ ٤ .

٢ ـ يُنسَب لزُهَير، من معلّقته بشرح الزّوزنيّ : ٩٤ .

على مَن يسيء الكلام، فيقع منه جنايات عظيمة في أُمور الدِّين والدّنيا، كما رُوي في الخبر: «إنّ الإنسان إذا أصبح، قالت أعضاؤه للسانه: اتّق الله فينا، فإنّك إن استَقَمْتَ نجوْنا، وإن زُغْت هلكنا». فأمّا إذا اعتبر النّطق والصّمت بذاتيهما فقط، فمُحالٌ أن يقال في الصّمت فضلٌ، فضلًا عن أن يخايَرَ ويقايس بينه وبين الكلام.

(١٨ : ١٩٦ ـ ١٩٧)

**(الحكمة: ١٤٤) الأصل: الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.**

**الشّرح:** قد تكرّر هذا المعنى مرارًا، فأمّا هذه اللّفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدّلالة على المعنى، وهي من ألفاظه عليه السلام المعدودة.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

وكائن تَرَى مِن صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ زيادتُهُ أو نقصُهُ في التّكلّمِ

لِسانُ الفَتَى نِصفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللّحمِ والدَّمِ[1]

وتكلّم عبد الملك بن عُمَير وأعرابيّ حاضر، فقيل له:كيف ترى هذا؟ فقال: لوكان كلامٌ يؤتَدَم به لكان هذا الكلام ممّا يؤتَدَم به.

وتكلّم جماعةٌ من الخُطَباء عند مَسْلَمة بن عبد الملك، فأسْهَبوا في القول، ولم يصنعوا شيئًا، ثمّ أفرغ النّطق رجل من أُخَرياتهم، فجعل لايخرج من فنّ إلّا إلى أحسن منه، فقال مَسْلَمة: ما شبّهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء إلّا بسحابةٍ لبدتْ عجاجةً.

وسمع رجلٌ مُنشدًا ينشد [الطّويل]:

وكان أخِلّائي يقولونَ مرحبًا فلمّا رأوْني مُقْتِرًا ماتَ مَرْحَبُ

فقال: أخطأ الشّاعر، إنّ مرحبًا لم يَمُت، وإنّما قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام!

---

١ ـ يُنسب لزُهَير، من معلّقته: ٩٤ بشرح الزّوزني .

وقال رجلٌ لأعرابيّ: كيف أهلُك؟ قال: صلبًا إن شاء الله.

وكان مَسْلَمة بن عبد الملك يعرض الجند، فقال لرجل: ما اسمك؟ فقال: «عبدِ» الله، وخفض. فقال ابنُ مَن؟ فقال: ابنُ «عبدَ» الله، وفتح. فأمر بضربه، فجعل يقول: «سبحانُ» الله، ويَضُمّ، فقال مسلمة: ويحكم! دَعوه، فإنّه مجبولٌ على اللّحن والخطأ، لوكان تاركًا للّحن في وقتٍ لَتَرَكه وهو تحت السِّياط. (١٨ : ٣٥٣ ـ ٣٥٤)

**(الحكمة: ٢٢٠) الأصل: بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ، وَبِالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ الْمُوَاصِلُونَ ...**

**الشّرح:** قال يحيى بن خالد: ما رأيتُ أحدًا قطّ صامتًا إلّا هِبْتُه حتّى يتكلّم، فإمّا أن تزداد تلك الهيبة أوتنقص ... . (١٩ : ٤٨)

**(الحكمة: ٣٢٦) وقَالَ عليه السلام لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَن مَسْأَلَةٍ: سَلْ تَفَقُّهًا وَلَاتَسْأَلْ تَعَنُّتًا، فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ.**

**الشّرح:** قد ورد نهي كثيرعن السّؤال على طريق الإعنات.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: مِن حقّ العالِم ألّاتكثرعليه بالسّؤال، ولاتُعنته في الجواب، ولاتضع له غامضات المسائل، ولاتلحّ عليه إذا كسل، ولاتأخذ بثوبه إذا نهض، ولاتُفْشِ له سرًّا، ولاتغتابنّ عنده أحدًا، ولاتنقلنّ إليه حديثًا، ولاتطلبنّ عثرته، وإن زلّ قبلت مَعْذرتَه، وعليك أن تُوقّره وتُعظّمه لله مادام حافظًا أمر الله، ولاتجلس أمامه، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته.

وقال ابن سيرين لسائل سأله: سَلْ أخاك إبليس، إنّك لن تسأل وأنت طالب رشد.

وقالوا: اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن تُعْنِت كما نعوذ بك أن تُعْنَت، ونستكفيك أن تَفْضَح، كما نستكفيك أن نُفْضَح.

وقالوا: إذا آنس المعلِّم من التّلميذ سؤال التّعنّت حَرُم عليه تعليمه. (١٩ : ٢٣٢)

**(الحكمة: ٣٨٧) وقَالَ عليه السلام: الْكَلَامُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُن لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في مدح الصّمت وذمّ الكلام الكثير.

**وكان يقال:** لا خير في الحياة إلّا لصَمُوت واعٍ، أو ناطق مُحسن.

وقيل لحذيفة: قد أطلتَ سجن لسانك! فقال: لأنّه غير مأمون [إذا أُطْلِق][1].

ومن أمثال العرب: رُبّ كلمةٍ تقول: دَعْني.

وقالوا: أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله، فنزل يومًا وهو يتصيّد على تَلْعةٍ، ونزل أصحابه حوله، فأفاضوا في حديث كثير، فقال ذلك الإنسان: أترى لو أنّ رجلًا ذبح على رأس هذه التَّلْعة هل كان يسيل دَمُه إلى أوّل الغائط؟ فقال المَلِك: هَلُمّوا فاذْبَحوه لننظر، فذَبحوه، فقال المَلِك: ربّ كلمةٍ تقولُ: دَعْني.

وقال أكثم بن صَيْفيّ: مِن إكرام الرّجل نفسه ألّا يتكلّم بكلّ ما يعلم.

وتذاكر قومٌ من العرب، وفيهم رجلٌ باهليٌّ ساكت، فقيل له: بحقّ ما سُمّيتم خُرْس العرب[2]، فقال: أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره، وسمعَه لنفسه! (١٩ : ٣٢٢)

**(الحكمة: ٣٩٨) الأصل: تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.**

**الشّرح:** هذه إحدى كلماته عليه السلام الّتي لا قيمةَ لها، ولا يُقدَّر قَدرُها، والمعنى قد تداوله النّاس، قال [الطّويل]:

---

١ ـ من أ، د.

٢ ـ كذا في أ، وبعدها في ب: «فقالوا له: لِمَ لا تتكلّم؟ فقال: أما علمتم ....».

وكائِن تَرى مِن صَامِتٍ لكَ مُعْجِبٍ زيادتُـهُ أو نقصُـهُ في الـتَّكلَمِ[١]
لِسانُ الفَتَى نِصفٌ ونِصفٌ فُؤادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلّا صورةُ اللَحمِ والدَمِ

وكان يحيى بن خالد يقول: ما جلس إليَّ أحدٌ قطّ إلّا هِبْتُه حتّى يتكلّم، فإذا تكلّم إمّا أن تزداد الهيبة أوتنقص. (١٩ : ٣٤٠)

**(الحكمة: ٤٠٢) الأصل: رُبَّ قَوْلٍ أَنفَذُ مِن صَوْلٍ.**

**الشّرح:** قد قيل هذا المعنى كثيرًا، فمنه قولهم [البسيط]:

*والقول يَنفذُ ما لاتنفذُ الإبَرُ*

ومن ذلك: القول لا تملكه إذا نَمَا، كالسّهم لا تملكه إذا رمى، وقال الشّاعر [المتقارب]:

وقافيةٍ مِثلِ حَدِّ السِّنا نِ تَبقى ويَذهَبُ مَن قالها
تخيّرتُهـا ثُمّ أرسـلتُها ولم يطقِ النّاسُ إرسالها

وقال محمود الوَرّاق [الهزج]:

أتاني منك ما ليسَ عـلى مكروهِـهِ صَـبرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ وكم يُغْضِي الفَتَى الحُرُّ
وأدّبتُـك بـالهَجْرِ فمـا أدَّبَـكَ الهَجْـرُ
ولا ردَّكَ عمّـا كـا نَ منك الصَّفحُ والبِرُّ
فلمّا اضطرّني المكرو هُ واشـتدَّ بيَ الأمْـرُ
تَناولتُكَ مِن شِعري بمـا لـيسَ لـهُ قَـدْرُ
فحرَّكْتَ جَنَاحَ الضُّرْ رِ لمـّا مَسّـكَ الضّـرُّ

١ ـ ينسبان لزُهَير، من معلّقته بشرح الزّوزنيّ : ٩٤ ، وينسبان أيضًا للأحنف بن قيس . ( وانظر: سرح العيون : ١١٢ )

إذا لم يصلح الخيرُ امـ ـرءًا أصـلَحَهُ الشّـرُّ

وقال الرّضيّ رحمه الله [الطّويل]:

سأمضغُ بالأقوالِ أعراضَ قومِكم وللقَولِ أنيابٌ لَدَيَّ حِدادُ[1]

يـرَى للقـوافي والسّـماءُ جَليَّـةً عَلَـيكُم بُـروقٌ جمّـةٌ ورِعـادُ

وقال أيضًا [الطّويل]:

كَعَمْتُ لِسانِي أن يقولَ وإن يَقُلْ فَقُلْ في الجِرازِ العَضْبِ إن فارَقَ الغِمْدا[2]

وإنّ بُـرُودًا للمَخـازِي مُعَـدَّةً فمَـن شـاءَ مِـن ذا الحَـيّ أسـحَبتُهُ بُـرْدًا

قَلائِدُ في الأعناقِ بالعارِ لا تَهِي عـلى مَـرِّ أيّـامِ الزّمـانِ ولا تَصْـدا

إذا صَلْصَلَتْ بَينَ القَنَا قضّتِ القَنَا وإن زَفَـرَتْ في السَّـرْدِ قَطّعـتِ السَّـرْدَا

(١٩ : ٣٥٩ ـ ٣٦٠)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَاتَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَن طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِندَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِن رُكُوبِ الْأَهْوَالِ ....**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ودَعِ القول فيما لاتعرف» مِن قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمروبن العاص: «يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حُثالةٍ من النّاس، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار النّاس هكذا ! » ـ وشبّك بين أصابعه ـ قال عبد الله: فقلت: مُرْني يا رسول الله. فقال: «خُذْ ما تعرف، ودَعْ ما لاتعرف، وعليك بخُوَيصة نفسك».

قوله: «والخطاب فيما لم تكلّف» مِن قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مِن حُسن إسلام المرء

---

١ ـ ديوانه : ٣١٢ .

٢ ـ ديوانه : ٣٠٩ ؛ كَعَمتُ : شَدَدْتُ . والجِراز العَضْب : السّيف القاطع .

تركه ما لايعنيه».

وقال معاوية في عبد الملك بن مروان، وهو حينئذٍ غلام: إنّ لهذا الغُلام لهمّة، وإنّه مع ذلك تاركٌ لثلاث آخذٌ بثلاث: تارك مساءة الصّديق جدًّا وهزلًا، تاركٌ ما لايعنيه، تاركٌ ما لايعتذر منه، آخذٌ بأحسن الحديث إذا حُدّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدّث، وبأهون الأمرَين إذا خُولِف.

قوله عليه السلام: «وأمسِك عن طريقٍ إذا خِفْتَ ضَلالته»، مأخوذ من قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «دَعْ ما يَريبك إلى ما لايريبك»، وفي خبر آخر: «إذا رابك أمرٌ فَدَعْه».(١٦ : ٦٣ ـ ٦٤)

## الفصل السّابع والأربعون:
## [في مواساة الأهل وصِلَة الرَّحِم]

**(الخطبة: ٢٣) ... أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَن يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِن أَمْسَكَهُ وَلَا يَنقُصُهُ إِن أَهْلَكَهُ، وَمَن يَقْبِضْ يَدَهُ عَن عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنهُ عَنهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنهُمْ عَنهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ إنّه عليه السلام بعد أن قرّظ الثّناء والذّكر الجميل، وفضّله على المال، أمر بمواساة الأهل، وصِلَة الرَّحِم وإن قلّ ما يواسَى به، فقال: «ألَا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة...» إلى آخر الفصل، وقد قال النّاس في هذا المعنى فأكثروا.

فمن ذلك قول زُهَير[الطّويل]:

ومَن يكُ ذا فضلٍ، فيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ  عَلَى قَومِهِ يُسْتَغْنَ عَنهُ ويُذْمَمِ[1]

وقال عُثمان: إنّ عمر كان يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله، وأنا أعطيتهم ابتغاء وجه الله ، ولن تروا مثل عمر.

أبو هُرَيرة مرفوعًا: «الرَّحِم مشتقّة من الرّحمن، والرّحمن اسم من أسماء الله العُظْمى، قال الله لها: من وصلك وصلتُه، ومن قطعك قطعتُه».

وفي الحديث المشهور: «صلة الرَّحِم تزيد في العمر».

وقال طَرَفة يهجو إنسانًا بأنّه يَصِل الأباعد ويقطع الأقارب [الطّويل]:

وأنتَ على الأدنَى شمالٌ عَرِيّةٌ  شآمِيَةٌ تزوي الوجوهَ بلَيلُ

وأنتَ على الأقصَى صَبًا غيرُ قُرَّةٍ  وقد آبَ منها مَزْرَعٌ ومَسيلُ

ومن شعر الحماسة [الطّويل]:

لَهُمْ جُلّ مالي إن تَتابَعَ لي غِنًى  وإن قَلّ مالي لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا

ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهُمُ  وليسَ رَئيسُ القومِ مَن يحمِلُ الحِقْدَا

(١ : ٣٢٩ ـ ٣٣٠)

---

١ ـ ديوانه : ٣٠ ( من مجموعة خمسة دواوين ) .

(الخطبة: ١٠٩) الأصل: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلاَمِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الْصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ وَمَنسَأَةٌ فِي الأَجَلِ ... .

الشّرح: ذكر عليه السلام ثمانية أشياء، كلّ منها واجبٌ ...

وثامنها: صِلَة الرَّحِم وهي واجبة، وقَطيعة الرَّحِم محرَّمة، قال: فإنّها مَثْراة في المال، أي تُثْريه وتكثره. ومَنسأة في الأجل، أي تنسَؤُه وتؤخّره ... .. (٧ : ٢٢٣)

(الحكمة: ٢٤٩) الأصل: فَرَضَ اللهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيرًا مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلَاةَ تَنزِيهًا عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيبًا لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنكَرِ رَدْعًا لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنمَاةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ ... .

الشّرح: ... وفُرِضَت صِلَة الرَّحِم مَنماة للعدد، قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «صِلَة الرَّحِم تَزيد في العمر وتُنَمّي العدد». (١٩ : ٨٨)

## الفصل الثّامن والأربعون:

## [فصل في الآثار الواردة في حقوق الجار]

**(كتابه عليه السلام: ٤٧) ... أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَن بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه وآله يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِن عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ.**

**اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا تُضَيِّعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.**

**وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ أوصى بالجيران، واللّفظ الّذي ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعًا في رواية عبد الله بن عمر لما ذبح شاة، فقال: أهْدَيتُم لجارنا اليهوديّ؟ فإنّي سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه».

وفي الحديث أنّه صلى الله عليه وآله قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ جاره».

وعنه عليه السلام: «جارُ السّوء في دار المقامة قاصمة الظَّهْر».

وعنه عليه السلام: مِن جهد البلاءِ جارُ سُوء معكَ في دار مُقامة إن رأى حسنةً دفنَها، وإن رأى سيّئة أذاعها وأفشاها.

**ومن أدعيتهم:** اللّهمّ إنّي أعوذ بك من مالٍ يكون علَيّ فتنة، ومن وَلَدٍ يكون علَيّ كَلّا، ومِن حَليلةٍ تقرّب الشَّيب، ومِن جارٍ تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى خيرًا دفنه، وإن سمع شرًّا طار به.

ابن مسعود يرفعه: «والّذي نفسي بيده لا يُسلِم العبد حتّى يَسْلم قلبُه ولسانه ويأمن جارُه بوائقَه»، قالوا: ما بوائقه؟ قال: «غَشْمه وظلمه».

لقمان: يا بنيّ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أرَ شيئًا أثقلَ من جار السّوء. وأنشدوا [الوافر]:

أَلَا مَن يشتري دارًا برُخْصٍ  كراهةَ بَعْضِ جيرتِها تُباعُ

وقال الأصمعيّ: جاورَ أهلُ الشّامِ الرّومَ، فأخذوا عنهم خصلتَين: اللّؤمَ وقلّةَ الغَيْرة،

وجاورَ أهلُ البَصْرة الخَزَر، فأخذوا عنهم خصلتَين: الزِّنا وقِلّة الوفاء، وجاورَ أهلُ الكوفةِ السَّوادَ، فأخذوا عنهم خصلتَين: السَّخاء والغَيْرة.

**وكان يقال:** مَن تطاول على جارِه، حُرِم بركة داره.

**وكان يقال:** مَن آذى جاره ورّثه الله دارَه.

باع أبو الجهم العدويّ داره، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلمّا أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدّار فأعطني ثمن الجِوار، قال: أيّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحدٌ جوارًا قطّ! فقال: رُدّ عليّ داري، وخذ مالك، لا أدَع جوار رجل إن قعدتُ سأل عنّي، وإن رآني رحّب بي، وإن غبْت عنه حفِظني، وإن شهدت عنده قرّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتْني نائبة فرّج عنّي. فبلغ ذلك سعيدًا، فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك.

الحسن: ليس حُسْنُ الجوار كفُّ الأذى، لكنّ حسنَ الجوار الصَّبْر على الأذى. جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخَلّة[1]، وقالت: أنا جارتك، قال: كم بيني وبينك؟ قالت: سبع أدوُر، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطاها إيّاها، وقال: كدنا نَهلِك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلحه، وحماه ممّن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات وداه لأهله، فجاوره أبو دواد الإياديّ؛ فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جارًا قالت: جار كجار أبي دُواد، قال قيس بن زهير[الوافر]:

أطوِّفُ ما أطوِّف ثُمَّ آوِي إلى جارٍ كجارِ أبي دُؤادِ[2]

ثمّ تعلّم منه أبو دواد، وكان يفعل لجاره فِعل كعبٍ به.

---

١ ـ الخلّة: الحاجة.

٢ ـ المضاف والمنسوب ١: ١٠٠.

وقال مسكين الدّارميّ [أحذ الكامل]:

مـا ضـرّ جـارًا لي أجـاورُهُ ألّا يكـون لِبابـهِ سـتْرُ[1]
أعْمَى إذا ما إذا جارتي خَرَجَتْ حـتّى يـواريَ جـارتي الخِـدْرُ
نـاري ونـارُ الجـار واحـدةٌ وإليـهِ قـبلي يُنـزَلِ القِـدْرُ[2]

استعرض أبو مسلم صاحب الدّولة فرسًا مِحْضيرًا[3]، فقال لأصحابه: لماذا يصلح هذا؟ فذكروا سباق الخيل، وصَيْد الحُمر والنّعام، واتّباع الفارّ من الحرب، فقال: لم تصنعوا شيئًا يصلح للفرار من الجار السُّوء.

سأل سليمانُ عليَّ بن خالد بن صفوان عن ابنيه: محمّد وسليمان وكانا جارَيْه، فقال: كيف إحمادُك جوارَهما؟ فتمثّل بقول يزيد بن مفرّغ الحميريّ [الطّويل]:

سَقَى اللهُ دارًا لي وأرضًا تَرَكتُها إلى جنبِ دارَي مَعْقِلِ بن يَسَارِ
أبو مالِكٍ جارٌ لها وابنُ مَرثدٍ فيـا لـك جـاري ذِلّـةٍ وصَـغارِ

وفي الحديث المرفوع أيضًا من روايه جابر: «الجيران ثلاثة: فجارٌ له حقّ، وجار له حقّان، وجارٌ له ثلاثة حقوق؛ وصاحب الحقّ الواحد جارٌ مشرك لا رَحِم له، فحقّه حقّ الجوار، وصاحب الحقّيْن جار مسلم لا رَحِم له، وصاحب الثّلاثة جار مسلم ذو رَحِم، وأدْنَى حقّ الجوار ألّا تؤذيَ جارَك بقُتار قِدْرِك، إلّا أن تقتدح له منها». قلت: تقتدح: تغترف. والمِقْدحة: المِغْرفة.

---

١ ـ الأوّلان في أمالي المرتضى١: ٤٣ ـ ٤٤.

٢ ـ موضعه في أمالي المرتضى:

ويَصَمُّ عمّا كانَ بينهما سمعي ومَا بي غَيْرَةٌ وَقْرُ

٢ ـ فرس محضير؛ أي شديد الحضر؛ وهو العدو.

**وكان يقال:** الجيران خمسة: الجار الضّارّ السّيّء الجوار، والجار الدّمِث الحسن الجوار، والجار اليربُوعيّ المنافق، والجار البرَاقشيّ المتلوّن في أفعاله، والجار الحسدليّ الّذي عينه تراك وقلبه يرعاك.

وروى أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ يقول: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من جار السّوء في دار المقامة، فإنّ دار البادية تتحوّل. (١٧ : ٨ ـ ١١)

**(الخطبة: ١٨٦) [من صفات المتّقين] ... يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَن يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ ....**

الشّرح: ... قوله: «ولا يُضارّ بالجار»، في الحديث المرفوع: «أوصاني ربّي بالجار حتّى ظننتُ أن يورثه». (١٠ : ١٦٠)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ.**

الشّرح: ... ومنها قوله: «سَلْ عن الرّفيق، قبل الطّريق، وعن الجار، قبل الدّار». وقد روي هذا الكلام مرفوعًا، وفي المَثَل: «جار السّوء كَلْب هارش، وأفعى ناهش» (١٦ : ١٢١)

## الفصل التّاسع والأربعون: [في الأمانة والخيانة]

(الخطبة: ١٩٢) ... وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَصِبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1]، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيُصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ....

ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَن لَيْسَ مِن أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ؛ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ؛ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنهَا. وَلَوِامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوعَرْضٍ أَوقُوَّةٍ أَوعِزٍّ لَامْتَنَعْنَ، وَلَكِن أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَن هُو أَضْعَفُ مِنهُنَّ، وَهُوالْإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ثمّ أداء الأمانة» هي العَقْد الّذي يلزم الوفاء به، وأصحّ ما قيل في تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة المحمل، لأنّ حاملها معرَّض لخطر عظيم، فهي بالغة من الثِّقل وصعوبة المحمل ما لوأنّها عرضت على السّماوات والأرض والجبال لامتنعت مِن حمْلِها، فأمّا الإنسان؛ فإنّه حمَلها وألزم القيام بها.

وليس المراد بقولنا: إنّها عرضت على السّماوات والأرض أي لوعرضت عليها وهي جمادات، بل المراد تعظيم شأن الأمانة، كما تقول: هذا الكلام لا يحمله الجبال، وقوله [الرّجز]:

*امتلأَ الحوضُ وقالَ قَطْني*

وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3]. ومذهب العرب في هذا الباب وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع. (١٠ : ٢٠٢)

---

١ ـ طه / ١٣٢.

٢ ـ الأحزاب/٧٢.

٣ ـ فصلت/١١.

(كتابه عليه السلام: ٤٠) الأصل: ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عُمّاله:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنكَ أَمْرٌ، إِن كُنتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الأَرْضَ فأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ! أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِن حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

**الشّرح:** والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة في المال، وإلى إخراب الضِّياع.

وفي حكمة أبرويزَ أنّه قال لخازن بيت المال: إنّي لا أحتملك على خيانة درهم، ولا أحمدك على حفظ عشرة آلاف ألف درهم، لأنّك إنّما تحقِن بذلك دمك، وتعمُر به أمانتك، وإنّك إن خُنتَ قليلًا خنتَ كثيرًا فاحترس من خصلتَين: من النّقصان فيما تأخذ، ومن الزّيادة فيما تعطي، واعلم! أنّي لم أجعلك على ذخائر الملك، وعمارة المملكة، والعدّة على العدوّ، إلّا وأنت أمينٌ عندي من الموضع الّذي هي فيه، ومن خواتمها الّتي هي عليها، فحقّق ظنّي في اختياري إيّاك أحقّق ظنّك في رجائك لي، ولا تتعوّض بخير شرًّا، ولا برفعةٍ ضعة، ولا بسلامةٍ ندامة، ولا بأمانةٍ خيانة.

وفي الحديث المرفوع: «مَن وَلِيَ لنا عملًا فليتزوّج، وليتّخذ مَسْكَنًا ومركبًا وخادمًا، فمَن اتّخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادلًا غالًا سارقًا».

وقال عمر في وصيّته لابن مسعود: إيّاك والهديّة، وليست بحرام، ولكنّي أخاف عليك الدّالّة.

وأهدى رجلٌ لعمرَ فخِذَ جَزور فقَبِله، ثمّ ارتفع إليه بعد أيّام مع خصم له، فجعل في أثناء الكلام يقول: يا أمير المؤمنين، أفصِل القضاء بيني وبينه كما يُفصَل فخِذُ الجَزور. فقَضَى عمر عليه، ثمّ قام فخطب النّاس، وحرّم الهدايا على الوُلاة والقُضاة.

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سراجًا من شَبَهٍ، وأهدى آخر إليه بغلًا، ثمّ اتّفقت لهما خصومة في أمر فترافعا إليه، فجعل صاحب السّراج يقول: إنّ أمري أضوأ من السّراج، فلمّا أكثر قال المغيرة: ويحك، إنّ البَغْل يَرْمح السّراج فيَكسره.

ومرّ عمر ببناءٍ يُبنَى بآجُرٍّ وجِصٍّ لبعض عُمّاله، فقال: أبت الدّراهمُ إلّا أن تُخرِج أعناقها. ورُوي هذا الكلام عن عليّ عليه السلام، وكان عمر يقول: على كلّ عامل أمينان: الماء والطّين.

ولما قدم أبو هريرة من البحرين، قال له عمر: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، أسَرَقتَ مالَ الله تعالى؟ قال أبو هريرة: لستُ بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكنّي عدوّ مَن عاداهما، ولم أسرق مالَ الله. فضربه بجريدةٍ على رأسه، ثمّ ثناه بالدِّرّة، وأغرمَه عشرة آلاف درهم، ثمّ أحضره، فقال: يا أبا هريرة، مِن أين لك عشرة آلاف درهم؟ قال: خَيْلي تناسَلَتْ، وعطائي تلاحَقَ، وسهامي تتابعت. قال عمر: كلّا والله. ثمّ تركه أيّامًا، ثمّ قال له: ألَا تعمل؟ قال: لا. قال: قد عمل مَنْ هو خيرٌ منك يا أبا هريرة، قال: مَنْ هو؟ قال: يوسف الصّدّيق. فقال أبو هريرة: إنّ يوسف عَمِل لمن لم يضرب رأسه وظَهْره، ولا شَتَمَ عِرْضَه، ولا نزع ماله، لا والله لا أعمل لك أبدًا.

وكان زياد إذا ولّى رجلًا قال له: خُذْ عَهْدَك، وسِرْ إلى عَمَلِك، واعلم! أنّك محاسب رأس سنتك، وأنّك ستصير إلى أربع خصال، فاختر لنفسك: إنّا إن وجدناك أمينًا ضعيفًا استبدلْنا بك لضَعْفك، وسلّمتُك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائنًا قويًّا استعنّا بقوّتك، وأحسنّا أدبَك على خيانتك، وأوجَعْنا ظهرك وأثقَلْنا غُرْمَك، وإن جمعت علينا الجُرْمَين، جمعنا عليك المضرّتَين، وإن وجدناك أمينًا قويًّا زدنا رزقك، ورفعنا ذِكْرك، وكثّرنا مالك، وأوطأْنا الرّجال عَقِبك.

ووصف أعرابيّ عاملًا خائنًا، فقال: النّاس يأكلون أماناتهم لُقَمًا، وهو يحسوها حَسْوًا.

قال أنس بن أبي إياس الدُّئِلِيّ[1] لحارثة بن بدر الغُدَانيّ وقد ولي سُرَق، ويقال: إنّها لأبي الأسود [الطّويل][2]:

---

١ ـ في الكامل: «أنس بن أبي أنيس».

٢ ـ ممّن نسبها إلى الأسود، ياقوت في «معجم البلدان» ٥: ٧٣.

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَلِيتَ ولايةً فكُن جُرَذًا فيها تَخُونُ وتَسرِقُ
ولا تحقِرَن يا حارِ شيئًا أصِبتَهُ فَحظُّكَ مِن مُلكِ العراقَينِ سُرَّقُ[1]
وباهِ تميمًا بالغِنَى إنّ للغِنى لسانًا به المرء الهيوبةُ يَنطقُ
فإنّ جميعَ النّاسِ إمّا مُكذِّبٌ يَقولُ بما تَهوَى وإمّا مُصدِّقُ
يقولونَ أقوالًا ولا يَتْبِعونها وإن قيل: هاتوا حَقِّقُوا لم يُحقِّقُوا

فيقال: إنّها بلغت حارثة بن بدر فقال: أصاب الله به الرّشاد، فلم يَعدُ بإشارته ما في نفسي! (١٦ : ١٦٤ ـ ١٦٦)

(كتابه عليه السلام: ٤١) ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عُمّاله: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُن فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنكَ فِي نَفسِي، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوُّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتِكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ ... .

الشّرح: أشركْتُك في أمانتي: جعلتُك شريكًا فيما قمتُ فيه من الأمر، وائتمنني الله عليه من سياسة الأُمّة، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعالى التّكليف أمانةً في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾[2].

فأمّا قوله: «وأداء الأمانة إليّ» فأمرٌ آخر، ومراده بالأمانة الثّانية ما يتعارفه النّاس من قولهم: فلان ذوأمانة، أي لا يخون فيما أسند إليه. (١٦ : ١٦٨)

---

١ ـ سُرَّق: إحدى كُوَرِ الأهواز.

٢ ـ الأحزاب/٧٢.

## الفصل الخمسون:

## [ذِكْرُ الحِجاب وما ورد فيه من الخبر والشِّعر]

(كتابه ﷺ: ٥٣) ... وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا، فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَن رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ، والِاحْتِجَابُ مِنهُمْ يَقْطَعُ عَنهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِندَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِن وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَو فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ. أَو مُبْتَلًى بِالْمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَن مَسْأَلَتِكَ، إِذَا أَيِسُوا مِن بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِن شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَو طَلَبِ إِنصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ. ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

**الشّرح:** نهاه عن الاحتجاب، فإنّه مظنّة انطواء الأُمور عنه، وإذا رُفع الحِجاب دخل عليه كلّ أحدٍ فعَرَف الأخبار، ولم يخْفَ عليه شيء من أحوال عَمَله.

**ثمّ قال:** لم تحتجب، فإنّ أكثر النّاس يحتجبون كيلا يُطْلَب منهم الرّفد! وأنت فإن كنتَ جَوادًا سَمْحًا لم يكن لك إلى الحِجاب داعٍ، وإن كنت مُمْسِكًا فسيعلم النّاس ذلك منك، فلا يسألك أحدٌ شيئًا.

**ثمّ قال:** عَلَى أنّ أكثر ما يسأل منك ما لا مؤونة عليه في ماله، كردّ ظُلَامة أو إنصاف من خَصْم.

والقول في الحجاب كثير:

حَضَر باب عمر جماعةٌ من الأشراف، منهم: سُهَيل بن عمرو وعُيَينة بن حِصْن والأقرع بن حابس، فحُجِبوا، ثمّ خرج الآذِن فنادى: أيْنَ عمّار؟ أيْنَ سلمان؟ أيْنَ

صُهَيب؟ فأدخلهم، فتمعّرت[1] وجوهُ القوم، فقال سُهَيل بن عمرو: لِمَ تتمعّر وجوهكم! دُعوا ودُعِينا فأسرَعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم لأنتمَ غدًا لهم أحسد.

واستأذن أبو سُفْيان على عثمان فحجَبه، فقيل له: حَجَبك! فقال: لا عدمتُ من أهلي مَن إذا شاء حَجَبني.

وحَجَب معاويةُ أبا الدّرداء؟ فقيل لأبي الدّرداء: حَجَبَك معاوية! فقال: مَن يَغْش أبوابَ الملوك يُهَن ويُكْرَم، ومَن صادَفَ بابًا مُغْلَقًا عليه وجد إلى جانبه بابًا مفتوحًا، إن سأل أُعطِيَ، وإن دعا أُجِيب، وإن يكن معاوية قد احتجب فرَبُّ معاوية لم يحتجب.

وقال أبَرْويز لحاجبه: لا تَضَعنّ شريفًا بصعوبة حجاب، ولا ترفعنّ وَضيعًا بسهولته، ضَعِ الرّجال مواضع أخطارهم، فَمَن كان قديمًا شرفه ثمّ ازدرعه[2]. ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل، وحسِّن رأيه الآخر، ومَن كان له شَرَف متقدّم ولم يَصُن ذلك حياطةً له، ولم يزدرعه تثمير المُغارَسة، فأُلحِق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابقُ شَرَفِهم، وألحق به في خاصّته ما ألحق بنفسه، ولا تأذن له إلّا دَبريًّا وإلّا سرارًا، ولا تلحقه بطبقة الأوّلين. وإذا وَرَد كتابُ عاملٍ من عُمّالي فلا تحبسه عنّي طرفةَ عين إلّا أن أكون على حالٍ لا تستطيع الوصولَ إليّ فيها، وإذا أتاك مَن يدّعي النّصيحة لنا فلتكتبها سرًّا، ثمّ أدخله بعد أن تستأذن له، حتّى إذا كان منّي بحيث أراه فادْفع إليّ كتابه، فإن أحمدت قبلت، وإن كرهت رفضت. وإن أتاك عالمٌ مشتهرٌ بالعلم والفَضْل يستأذن، فأْذَن له، فإنّ العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه، ولا تحجُبنّ عنّي أحدًا من أفناء النّاس، إذا أخذتُ مجلسي مجلس العامّة، فإنّ الملك لا يُحْجَب إلّا عن ثلاثٍ: عيٍّ يكره أن يُطّلع عليه منه، أو بخل يكره أن يُدْخل عليه

---

١ ـ تمعّرت وجوههم: تغيرت غيظًا وحنقًا.

٢ ـ ازدرعه: أثبته.

مَن يسأله، أو ريبةٌ هو مُصِرّ عليها فيشفق من إبدائها ووقوف النّاس عليها ولابدّ أن يحيطوا بها علمًا وإن اجتهد في سَتْرها. وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمّود الوَرّاق، فقال [الطّويل]:

إذا اعتصَمَ الوالي بإغلاقِ بابِهِ ... ورَدَّ ذوي الحاجاتِ دُونَ حِجابِهِ
ظننت بهِ إحدَى ثلاثَ وربَّما ... رَجَمْتُ بظنٍّ واقعٍ بصَوَابِهِ
أقولُ بهِ مَسُّ مِنَ العيّ ظاهِرٌ ... فـي إذْنِهِ للنّاسِ إظهارُما بِهِ
فإن لم يكن عيُّ اللّسانِ فغالبٌ ... مِنَ البُخْلِ يَحمِي مالَهُ عن طِلابِهِ
وإن لم يكن لاذا ولاذا فريبَةٌ ... يُكتِّمها مستورةٌ بثيابِهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الكِلابيّ على باب معاوية سنةً في شملة مِن صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذِنَ له وقرّبه وأدناه، ولَطُف محلّه عنده حتّى ولّاه مصر، فكان يقال: استأذن أقوام لعبد العزيز بن زُرارة، ثمّ صار يستأذن لهم، وقال في ذلك [الوافر]:

دخلتُ على معاويةَ بن حَرْبٍ ... ولكنْ بَعدَ يأسٍ مِن دخولِ
وما نِلْتُ الدّخولَ عَلَيهِ حتّى ... حَلَلْتُ محلّةَ الرّجُلِ الذّليلِ
وأغْضَيتُ الجفونَ على قذَاها ... ولمْ أنظُرْ إلى قالٍ وقِيلِ
وأدركتُ الّذي أمّلت منه ... وحِرْمانُ المُنَى زادُ العَجُولِ

ويقال: إنّه قال له لما دخل عليه أمير المؤمنين: دخلتُ إليك بالأمل، واحتملت جفْوَتك بالصّبر، ورأيت ببابك أقوامًا قَدَّمَهم الحظّ وآخرينَ أخَّرَهم الحِرْمان، فليس ينبغي للمقدّم أن يأمن عواقب الأيّام، ولا للمؤخّر أن يَيْأَس مِن عطف الزّمان.

وأوّل المعرفة الاختبار، فابلُ واختبر إن رأيت. وكان يقال: لم يلزم باب السّلطان أحدٌ فصَبر على ذلّ الحجّاب، وكلام البوّاب، وألَق الأُنُف، وحمل الضَّيْم، وأدام الملازمة، إلّا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها.

قال عبد الملك لحاجبه: إنّك عينٌ أنظرُ بها، وجُنّة أستلئم بها، وقد ولّيتك ما وراء

بابي، فماذا تراك صانعًا برعيّتي؟ قال: أنظر إليهم بعينك، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك، وأضَعُهم في إبطائهم عن بابك، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم، وأُرَتّبهم حيث وضعهم ترتيبك، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغك عنهم. قال: لقد وفّيت بما عليك، ولكن إن صدّقت ذلك بفعلك.

وقال دِعْبل وقد حُجِب عن باب مالك بن طَوْق [المتقارب]:

لَعَمْري لئنْ حَجَبَتْني العَبيدُ ... لما حَجَبَتْ دونَكَ القافيهْ

سأرمي بها من وراء الحِجا ... بِ شَنعاءَ تأتيكَ بالدّاهيهْ

تُصِمُّ السّميعَ، وتعمِي البصير ... ويُسْألُ مِن مِثْلِها العافيهْ

وقال آخر[الطّويل]:

سأتركُ هذا البابَ ما دامَ إذنُهُ ... على ما أرَى حتّى يلينَ قليلَا

فما خابَ مَن لمْ يأتِهِ مترفّعًا ... ولا فازَ مَن قَدْ رامَ فيه دُخولَا

إذا لمْ نَجِدْ للإذنِ عندكَ موضعًا ... وَجَدْنا إلى تَرْكِ المَجِيء سبيلَا

وكتب أبو العتاهيّة إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه [الطّويل]:

وإن عدتُ بعد اليوم إنّي لَظالمٌ ... سأصرفُ وجهي حَيْثُ تُبغِي المكارمُ

متى يفْلحُ الغادي إليكَ لحاجةٍ ... ونصفُكَ محجوبٌ ونصفكَ نائمُ!

يعني ليله ونهاره.

استأذن رجلان على معاوية، فأذن لأحدهما ـ وكان أشرف منزلةً من الآخر ـ ثمّ أذن للآخر فدخل، فجلس فوق الأوّل، فقال معاوية: إنّ الله قد ألزَمَنا تأديبكم كما ألزَمَنا رعايتكم، وإنّا لم نأذن له قبلك، ونحن نريد أن يكون مجلسُه دونَك، فقُمْ لا أقام الله لك وزنًا.

وقال بشّار[الكامل]:

تأبَى خلائقُ خالدٍ وفَعَالُهُ ... إلّا تجنُّبَ كلِّ أمرٍ عائبِ

وإذا أتينا البابَ وقتَ غَدائِهِ أذِنَ الغَداءُ لنا بِرَغْمِ الحاجِبِ

وقال آخر يهجو [الخفيف]:

يا أميرًا على جَريبٍ من الأرْ ضِ لَهُ تسعةٌ من الحجَّابِ
قاعد في الخراب يحْجُبُ عَنّا ما سَمِعْنا بحاجبٍ في خرابِ

وكتب بعضهم إلى جعفر بن محمّد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب [الطّويل]:

أبا جعفر إنّ الولايةَ أن تكن منبّلة قوسًا فأنت لها نَبْلُ
فلا تَرتفِعْ عنّا لأمرٍ وَلِيتَهُ كما لَمْ يُصغِّرْ عندنا شأنَكَ العَزْلُ

ومِن جيّد ما مُدِح به بِشْر بن مروان قول القائل [الطّويل]:

بعيدُ مَرادِ الطّرفِ ما ردّ طَرْفهُ حِذارَ الغَواشي بابُ دارٍ ولا سِترُ
ولو شاءَ بِشْرٌ كان من دونِ بابِهِ طماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ حُمْرُ[1]
ولكنّ بِشْرًا يَسْتر البابَ للّتي يكون له في غِبّها الحَمدُ والأجرُ

وقال بشّار [الطّويل]:

خليليَّ مِن كَعبٍ أعينَا أخاكما على دَهْرِهِ إنّ الكريمَ يعينُ
ولا تَبْخَلا بُخلَ ابنِ قرعَة إنّهُ مَخافةَ أن يُرجَى نَداهُ حَزينُ
إذا جئتَهُ للعُرْف أغلقَ بابَهُ فلمْ تَلْقَهُ إلّا وأنتَ كَمِينُ
فقل لأبي يَحْيَى متى تُدْرَكُ العُلَا وفي كلِّ معروفٍ عليكَ يمِينُ!

وقال إبراهيم بن هَرْمَة [الكامل]:

هَشٌّ إذا نَزَل الوفودُ ببابه سهلُ الحجاب مؤدّب الخدّامِ[2]

---

١ ـ طماطم: الأعاجم.

٢ ـ المحاسن والمساوئ ١: ٢٦٤.

وإذا رأيتَ صديقَهُ وشقيقَهُ لم تـــدرِ أيّهمـــا ذوي الأرحـــامِ

وقال آخر[الطّويل]:

وإنّي لأستحيي الكريمَ إذا أتَى على طمعٍ عند اللّئيمِ يُطالبُهْ

وأرثِي لَهُ مِن مجلسٍ عِندَ بابِهِ كمرثِيَتي للطِّرفِ والعِلْجِ راكبُهْ

وقال عبد الله بن محمّد بن عُيَينة [الوافر]:

أتيتُـكَ زائـرًا لقضـاءِ حـقٍّ فحالَ السّترُ دونَكَ والحجابُ

ورأيي مذهب عن كلّ نـاءٍ يجانبِـهِ إذا عَـزّ الـذّهابُ

ولستُ بساقطٍ في قِدْرِ قومٍ وإن كرهـوا كما يَقَـع الذّبابُ

وقال آخر[السّريع]:

ما ضاقَتِ الأرضُ على راغبٍ تطلّـب الـرّزْقَ ولا راهـبِ

بل ضاقَتِ الأرضُ على شاعرٍ أصبح يشكو جَفْوةَ الحاجبِ

قـد شَـتَمَ الحاجـبَ في شـعره وإنّمـا يَقْصِـدُ للصّـاحبِ

(١٧ : ٩١ ـ ٩٦)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مَنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ.**

الشّرح: ... قوله: «واكْفُف عليهنّ من أبصارهنّ» مِن هاهنا زائدة، وهو مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة مِن في الموجب، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه، فيعنى به: فاكْفُف عليهنّ بعض أبصارهنّ.

ثمّ ذكر فائدة الحجاب، ونهاه أن يُدْخِل عليهنّ مَن لا يُوثَق به، وقال: إنّ

خروجهنّ أهون من ذلك، وذلك لأنّ مَن تلك صفته يتمكّن من الخلوة مالا يتمكّن منه مَن يراهنّ في الطّرقات.

ثمّ قال: «إن استطعتَ ألّا يعرفنَ غيرك فافْعَل». كان لبعضهم بنت حسناء، فحجّ بها، وكان يعصبُ عينيها، ويكشف للنّاس وجهها، فقيل له في ذلك، فقال: إنّما الحَذَر مِن رؤيتها النّاس، لا مِن رؤية النّاس لها. (١٦ : ١٢٤)

## الفصل الحادي والخمسون:
## [نبذ وحكايات حول العِفّة]

**(الحكمة: ٤٧٩) الأصل: وقال عليه السلام: مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِمَّن قَدَرَ فَعَفَّ، لَكَادَ الْعَفِيفُ أَن يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في العِفّة[1]، وهي ضروب: عِفّة اليد، وعِفّة اللّسان، وعِفّة الفَرْج، وهي العُظْمَى. وقد جاء في الحديث المرفوع: «مَن عَشِقَ فكَتَمَ وعَفَّ وصَبرَ فماتَ، ماتَ شهيدًا ودخل الجنّة».

وفي حكمة سُلَيمان بن داود: أنّ الغالبَ لِهَواهُ أشدّ من الّذي يَفْتَح المدينة وحده.

نَزَل خارجيّ على بعض إخوانه منهم مُسْتَتِرًا من الحَجّاج، فشَخَص المنزول عليه لبعضِ حاجاته، وقال لزَوْجته: يا ظَمياءُ، أُوصيكِ بضَيْفي هذا خيرًا، وكانت مِن أحسن النّاس، فلمّا عاد بعد شهر، قال لها: كيف كان ضَيْفُكِ؟ قالت: ما أشْغَلَه بالعَمَى عن كلّ شيء، وكان الضّيف أطبَقَ جَفْنَيه فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجها. وقال الشّاعر[الخفيف]:

إن أكُن طامِحَ اللِّحاظِ فإنّي ... والّذي يَملِكُ القلوبَ عَفيفُ

خرجت امرأةٌ من صالحاتِ نساء قُرَيش إلى بابها لتغلِقَه، ورأسُها مكشوف، فرآها رجلٌ أجنبيّ، فرجعت وحلقتْ شَعْرها، وكانت من أحسن النّساء شَعْرًا، فقيل لها في ذلك، قالت: ما كنتُ لأَدَعَ على رأسي شَعْرًا رآه مَن ليس لي بمَحْرَم.

كان ابن سيرين يقول: ما غَشيتُ امرأةً قطّ في يَقَظةٍ ولانَوْم غيرَ أُمّ عبد الله، وإنّي لأرَى المرأة في المنام، وأعلم أنّها لا تحلّ لي فأصرف بَصَري عنها.

وقال بعضهم [الطّويل]:

وإنّي لعفّ عن فُكاهَةِ جارتي ... وإنّي لمَشنوءٌ إليّ اغتيابُها
إذا غاب عنها بَعْلُها لَمْ أكُن لها ... صَديقًا ولَمْ تَأنَس إليّ كِلابُها

---

١ ـ بحثنا في كلام الشّارح قبل هذا وما رأينا كلامًا مبسوطًا في العِفّة. (م)

ولَمْ أكُ طَلاّبـا أحاديـثَ سِـرِّها ولا عالِـما من أيِّ حَوْكَ ثِيابُها

دخلتْ بُثَينةُ على عبد الملك بن مروان، فقال: ما أرَى فيك يا بُثَينة شيئًا ممّا كان يَلْهَج به جميل! فقالت: إنّه كان يَرْنُو إليَّ بعَيْنين ليستَا في رأسك يا أمير المؤمنين. قال: فكيف صادفتِه في عفّته؟ قالت: كما وصف نفسه إذ قال [المنسرح]:

لا والّذي تَسْجُدُ الجِباهُ لهُ ما لي بما ضَمَّ ثَوبَها خَبَرُ[1]

ولا بفِيها ولا هَمَمْتُ بِهِ ما كان إلّا الحديثُ والنَّظَرُ

**وقال أبو سهل السّاعديّ:** دخلتُ على جميل في مرضِ مَوْته، فقال: يا أبا سهل، رجلٌ يَلْقَى الله ولم يَسْفِكْ دَمًا حرامًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت فاحشةً، أترجو له الجنّة؟ قلت: إي والله، فمَن هو؟ قال: إنّي لأرجو أن أكون أنا ذلك. فذَكَرْتُ له بُثَينة، فقال: إنّ لَفِي آخر يوم من أيّام الدّنيا، وأوّل يوم من أيّام الآخرة، لا نَالَتْني شفاعة محمّد إن كُنتُ حدّثتُ نفسِي بريبةٍ معها أو مع غيرها قطّ.

قال الشّاعر[أحذ الكامل]:

قالتْ وقُلْتُ تَرَفَّقِي فصِلِي حَبْلَ امْرئٍ بوِصَالكُمْ صَبِ

صادِقِ إذا بَعْلي فقلتُ لها الغدر شيءٌ ليس مِن شَعْبي

ثِنتانِ لا أصْبُو لوَصْلِهما عرْسُ الصّديقِ وجارَةُ الجَنبِ

أمّا الصّديقُ فلستُ خائِنَهُ والجَارُ أوصاني بِهِ ربّي

**يقال:** إنّ امرأةً ذات جمالٍ دَعَتْ عبد الله بن عبد المطّلب إلى نفسها لما كانت تَرَى على وَجْهه من النّور، فأبَى وقال [الرّجز]:

أمّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ والحِلّ لا حِلّ فأسْتَبينَهُ

فكيفَ بالأمرِ الّذي تَبْغَينهُ يَحْمِي الكريم عِرْضَهُ ودِينَهُ

---

١ ـ ديوانه: ٨٩ ـ ٩٠.

راوَدَ تَوْبة بن الحميِّر لَيْلَى الأخيليّة مرّة عن نفسها، فاشمأزّت منه، وقالت [الطّويل]:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليسَ إليها ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لاينبغي أن نخونهُ ... وأنتَ لأخرى صاحبٌ وخَليلُ

ابن مَيّادة [الطّويل]:

موانِعُ لا يُعطينَ حَبّةَ خَرْدَلٍ ... وهُنَّ دَوَانٍ في الحديثِ أوانِسُ
ويَكْرَهنَ أن يَسْمَعْنَ في اللّهْوِ ريبةً ... كما كَرِهتْ صوتَ اللِّجامِ الشّوامِسُ

آخر [الكامل]:

بيضٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظِباءِ مكّةَ صيدُهنّ حَرامُ
يحسبنَ من لينِ الكلامِ زَوانيًا ... ويَصُدّهنّ عَنِ الخَنَا الإسلامُ

في الحديث المرفوع: «لاتكوننّ حَديد النّظر إلى ما ليس لك، فإنّه لايَزْنى فَرْجُك ما حَفِظْتَ عَيْنَيْك، وإن استطعتَ ألّاتنظُرإلى ثوب المرأة الّتي لا تحلّ لك فافعل، ولن تستطيع ذلك إلّا بإذن الله».

كان ابن المولى الشّاعر المدنيّ موصوفًا بالعفّة وطِيب الإزار، فأنشد عبد الملك شعرًا له من جملته [الطّويل]:

وأبكي فلا لَيْلَى بَكَتْ من صَبابةٍ ... لِبَاكٍ ولالَيْلَى لذي البَذْلِ تَبْذُلُ
وأخنعُ بالعُتبَى إذا كنتُ مُذْنبًا ... وإن أذنبتْ كنتُ الّذي أتَصَلّلُ

فقال عبد الملك: مَن ليلى هذه؟ إن كانت حُرّةً لأُزَوّجنّكها، وإن كانت أَمَةً لأشترينّها لك بالغة ما بلغتْ، فقال: كلّا يا أمير المؤمنين، ما كنتُ لأُصَعِّر وَجْه حُرٍّ أبدًا في حُرّته ولا في أَمَتِه، وما ليلى الّتي أَنِستْ بها إلّا قَوْسى هذه سمّيتها ليلى، لأنّ الشّاعر لا بدّ له من النّسيب.

ابن الملوّح المجنون [الطّويل]:

كأنّ على أنيابها الخمر مجّةُ بماء النَّدَى من آخِرِ اللّيلِ غابِقُ[١]
وما ذُقْتُهُ إلّا بعَيْني تفرُّسًا كما شِيم من أعلى السَّحابةِ بارِقُ

هذا مثل بيت الحماسة [الطّويل]:

بأعذبَ مِن فيها وما ذُقْتُ طَعْمَهُ ولكنّني فيما تَرَى العَينُ فارِسُ[٢]

شاعر [المنسرح]:

ما إن دَعَاني الهَوَى لفاحِشَةٍ إلّا نهاني الحَياءُ والكَرَمُ
ولاإلى مَحْرَمٍ مَدَدْتُ يَدي ولامَشَتْ بي لريبةٍ قَدَمُ

العبّاس بن الأحنف [البسيط]:

أتأذنونَ لصَبٍّ في زيارَتِكُمْ فعندكمْ شَهَواتُ السَّمْعِ والبَصَرِ[٣]
لايُضْمِرُ السُّوءَ إن طالَ الجُلوسُ بهِ عَفُّ الضّميرِ ولكن فاسِقُ النَّظَرِ

قال بعضهم: رأيتُ امرأةً مستقبلة البيت في المَوْسم، وهي في غاية الضُّرّ والنّحافة، رافعةً يديها تدعو، فقلت لها: هل لكِ من حاجةٍ؟ قالت: حاجتي أن تُنادِيَ في الموقف بقولي [الطّويل]:

تزوَّدَ كلّ النّاسِ زادًا وما لِيَ زادٌ والسّلامُ على

ففعلت، وإذا أنا بفَتى مَنهوك، فقال: أنا الزّاد، فمضيتُ به إليها، فما زادوا على النّظر والبكاء، ثمّ قالت له: انصرف مُصاحَبًا، فقلتُ: ما علمت أنّ التقاءكما يقتصرفيه على هذا. فقالتْ: أمْسِكْ يا فتى، أما علمت أنّ ركوب العار ودُخول النّار شديد.

قال بعضهم [البسيط]:

كم قد ظَفِرْتُ بِمَنْ أهْوَى فيمْنَعُني مِنهُ الحَياءُ وخَوْفُ اللهِ والحَذَرُ

---

١ ـ ديوانه: ٢٠٣.

٢ ـ لأبي صخيرة البولاني، ديوان الحماسة ٣: ١٢٨١ ـ بشرح المرزوقيّ.

٣ ـ ديوانه: ١٤٧.

وكم خَلَوْتُ بمَن أهْوَى فيُقْنِعُني ... منه الفُكاهةُ والتّحديثُ والنَّظَرُ
أهْوَى المِلَاحَ وأهْوَى أن أجالِسهُمْ ... وليسَ لي في حَرامٍ منهمُ وَطَرُ
كذلك الحُبّ لا إتيان مَعْصيةٍ ... لا خير في لذّةٍ من بعدها سَقَرُ

قال محمّد بن عبد الله بن طاهر لبَنيه: اعْشقُوا تَظرُفوا، وعِفُّوا تَشرُفوا.

وَصَف أعرابيّ امرأة طَرقَها، فقال: ما زالَ القَمَرُ يُرينِيها فلمّا غاب أرْتنيه. فقيل: فما كان بينكما؟ قال: ما أقْرَبَ ما أحلّ الله ممّا حرّم، إشارة في غير باس، ودنوّ من غير مَساس، ولا وجع أشدّ من الذّنوب.

كثيرّ عَزّة [الطّويل]:

وإنّي لَأرْضَى منك يا عَزّ بالّذي ... لو أبْصَرَهُ الواشي لَقَرّتْ بَلَابلُهْ
بِلَا وبألّا أستطيع وبالمُنَى ... وبالوَعْدِ حتّى يَسْأمَ الوَعْدَ آمِلُهْ
وبالنّظرةِ العَجْلَى وبالحَوْلِ يَنقَضي ... أواخِرُهُ لا نَلْتَقي وأوائِلُهْ

وقال بعض الظُّرَفاء: كان أربابُ الهَوَى يسرّون فيما مَضَى، ويقنَعون بأن يَمْضُغ أحدهم لبانًا قد مَضَغَتْه محبوبتُه، أو يَسْتاك بسِواكها، ويَرَوْن ذاك عظيمًا، واليوم يَطْلُب أحدهم الخَلْوة وإرْخاء السُّتور، كأنّه قد أشهد على نِكاحها أبا سعيد وأبا هُرَيرة. وقال أحمد بنُ أبي عُثمان الكاتب [الطّويل]:

وإنّي ليُرضِيني المُرورُ ببابها ... واقْنَعُ منها بالوَعيدِ وبالزَّجْرِ

قال يوسف بن الماجِشون: أنْشَدْتُ محمّد بن المُنكَدر قول وَضّاح اليَمَن [الطّويل]:

إذا قلتُ هاتِي نَوّليني تبسّمتْ ... وقالت مَعاذَ اللهِ مِن فِعْلِ ما حَرُمْ
فما نَوّلتْ حتّى تضرّعْتُ حَوْلها ... وعَرّفْتُها ما رَخّصَ اللهُ في اللّمَمْ

فضحك، وقال: إن كان وَضّاحٌ لفَقِيهًا في نفسه.

قال آخر [الطّويل]:

فقالـــتْ بحـــقِ اللهِ إلّا أتَيْتَنَـــا إذا كان لَوْنُ اللّيلِ لَوْنُ الطَّيالِسِ
فجئتُ وما في القومِ يَقَظانُ غيرُها وقد نـامَ عنها كلّ والٍ وحـارِسِ
فبِتْنـــا مَبِيتًـــا طيّبًـــا نســـتلذّهُ جميعًا ولَمْ أمـدُدْ لها كَفَّ لامِسِ

مَرَّتْ امرأة حَسْناء بقَوْم من بني نُمَير مجتمعين في نادٍ لهم، فرَمقُوها بأبصارهم، وقال قائل منهم: ما أكمَلَها لولا أنّها رَسْحاء[1]! فالتَفَتَتْ إليهم، وقالت: والله يا بني نُمَير، ما أطعتم الله ولا الشّاعر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ اَبْصَارِهِمْ﴾[2].

وقال الشّاعر[الوافر]:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ من نُمَيرٍ فـلا كَعْبًـا بلغـتَ ولا كِـلابَـا

فأخجلَتْهم.

وقال أبو صَخر الهُذَليّ من شعر الحماسة [أحذ الكامل]:

وللَيلـــة منهـــا تَعُـــود لنـــا مـــن غيـــرمـــا رَفَـــثٍ ولا إثْـمِ
أشْهَى إلى نفسي ولو برحَتْ ممّا ملكتُ ومن بـني سَـهْمِ

آخر[الطّويل]:

وما نِلْتُ منها مَحرَمًا غير أنّني أقبّـلُ بَسّـامًا مِـنَ الثّغر أفلَجَـا
وألـثمُ فَاهًـا آخـذًا بقرونِهـا وأترُك حاجاتِ النّفوس تحرُّجَا

وأعَفُّ من هذا الشّعر قول عبد بني الحَسْحاس على فِسْقه [الطّويل]:

لعَمْرُ أبيها ما صَبَوْتُ ولا صَبَتْ إليَّ وإنّي مـن صِـبًا لحَلِـيمُ
سِـوَى قُبْلَـةٍ أستغفرُ الله ذَنبَهـا سأطْعِمُ مِسكينًا لها وأصُومُ

وقال آخر[الطّويل]:

---

١ ـ الرّسحاء: القبيحة.

٢ ـ النّور: ٣٠.

ومجدُولـةٍ جَـدْلَ العَنـاقِ كأنّمـا سَنَا البرْقِ في داجِي الظَّلامِ ابتسامُها
ضربتُ لها الميعادَ ليستْ بكَنّةٍ ولا جَـارةٍ يُخشَـى عـلَيّ ذِمامُهـا
فلمّا التقَيْنَا قالتِ الحُكْمُ فاحتَكِمْ سِوَى خلّـةٍ هَيْهَـاتَ مِنـكَ مرَامُهـا
فقلـتُ مَعـاذَ اللهِ أن أركـبَ الّـتي تَبيـدُ ويَـبْقَى في المَعـادِ أثامُهـا

قوله: «ليست بكَنّة... ولا جارةٍ يُخشَى عليّ ذِمامُها»، مأخوذٌ من قول قيس بن الخَطِيم [الطّويل]:

ومثلـكِ قـد أحبَبْـتُ ليسـت ولا جَارةٍ ولا حَليلة صاحبِ

وهذا الشّاعر قد زاد عليه بقوله: «ولا حليلة صاحب».

وأنشد ابن مَندُوَيه لبعضهم [الخفيف]:

أنا زانِي اللّسانِ والطَّرْفِ إلّا أنّ قلبي يَعافُ ذاكَ ويأبَى
لا يَـراني الإلـه أشـرب إلّا كلّ ما حَلّ شُرْبُه لي وطابَا

آخر [البسيط]:

نَلْهُو بهُنَّ كذا من غَيرِ فاحشةٍ لَهْوَ الصِّيامِ بتُفّاحِ البَساتِينِ

بشّار بن بُرْد [البسيط]:

قـالوا حَـرامٌ تَلاقينـا فقلـتُ لهـمْ ما في التزامٍ ولا في قُبْلَةٍ حَرَجُ
مَن رَاقَبَ النّاسَ لَـمْ يَظْفَرْ بحاجتِهِ وفازَ بالطّيّباتِ الفاتِكُ اللّهِجُ

البيت الآخر مثل قول القائل [البسيط]:

مَن راقَبَ النّاسَ ماتَ هَمًّا وفـازَ باللّـذّةِ الجَسُـورُ

أبو الطّيّب المتنبّي [الكامل]:

وتَرَى الفتوّةَ والمروّةَ والأبُـو وَةَ في كـلِّ مَليحـةٍ ضَـرّاتِها
هُنّ الثّلاثُ المانِعاتي لذّتي في خَلْوَتي لا الخوفُ مِن تَبِعاتِها
إنّي على شَغَفي بما في خَمْرِها لَأعِـفُّ عمّـا في سَـراويلاتِها

كان الصّاحب ﷺ يَستهجِن قوله: «عمّا في سَراويلاتها»، ويقول: إنّ كثيرًا من العُهر أحسن من هذه العِفّة، ومعنى البيت الأوّل أنّ هذه الخِلالَ الثّلاث تراهنّ المِلاحُ ضَرائرَهنّ لأنّهنّ يَمْنَعنه عن الخَلْوَة بالمِلاح والتّمتّع بهنّ. ثمّ قال: إنّ هذه الخِلال هي الّتي تمنَعه لا الخَوْفُ من تَبعاتها، وقال قومٌ: هذا تَهاونٌ بالدّين، ونوعٌ من الإلحاد.

وعندي أنّ هذا مذهب للشُّعَراء معروف، لا يُريدون به التّهاون بالدّين، بل المبالغة في وَصْف سِجاياهم وأخلاقهم بالطّهارة، وأنّهم يتركون القبيح لأنّه قبيح، لا لورود الشّرع به، وخوف العقاب منه، ويمكن أيضًا أن يريد بتَبِعاتها تَبِعات الدّنيا، أي لا أخاف من قوم هذه المحبوبة الّتي أنِسْتُ بها، ولا أُشْفِق من حَرْبهم وكَيْدِهم، فأمّا عفّة اليد وعفّة اللّسان فهما بابٌ آخَر، وقد ذكرنا طرفًا صالحًا من ذلك في الأجزاء المتقدّمة عند ذكرنا الوَرَع.

وفي الحديث المرفوع: «لا يَبْلُغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يترك ما لا بأس به حذارما به البأس».

وقال أبو بكر في مَرَض موته: إنّا مُنذ وَلِينا أمر المسلمين لم نأخُذْ لهم دِرْهمًا ولا دينارًا، وأكَلْنا من جَرِيش الطّعام، ولَبِسْنا من خَشِن الثِّياب، وليس عندنا من فَيْء المسلمين إلّا هذا النّاضح، وهذا العَبْد الحَبَشيّ، وهذه القطيفة، فإذا قُبِضْتُ فادْفَعوا ذلك إلى عمر، ليجعله في بيت مال المسلمين. فلمّا مات حُمِل ذلك إلى عمر، فبَكَى كثيرًا، ثمّ قال: رحم الله أبا بكر، لقد أتْعَبَ مَن بعده!

**قال سُليمان بن داود:** يا بني إسرائيل، أُوصيكم بأمرَيْن أفْلَحَ مَن فَعَلَهما: لا تدخلوا أجوافكم إلّا الطّيّب، ولا تخرجوا من أفواهكم إلّا الطّيّب.

**وقال بعض الحكماء:** إذا شِئْتَ أن تَعْرِف ربّك معرفةً يقينيّةً، فاجْعَلْ بينك وبين المحارم حائطًا من حَديدٍ، فسوف يَفْتَح عليك أبواب معرفته.

وممّا يُحْكَى من وَرَع حَسّان بن أبي سِنان أنّ غلامًا له كَتَب إليه من الأهواز: أنّ

قَصَبَ السُكّر أصابَتْه السَنَة آفة فابتَعْ ما قَدَرْتَ عليه من السُكّر، فإنّك تجد له رِبحًا كثيرًا فيما بعد. فابتاع، وطُلِبَ منه ما ابتاعه بعد قليل برِبح ثلاثين ألف درهم، فاستقالَ البَيْع من صاحبه، وقال: إنّه لم يَعْلم ما كُنتُ أعلَمُ حين اشتريتُه منه، فقال البائع: قد علمتُ الآن مِقدار الرِبح، وقد طَيّبتُه لك وأحْلَلْتُك، فلم يطمئنّ قلبه، وما زال حتّى ردّه عليه.

**يقال:** إنّ غَنَم الغارة اختلَطَتْ بغَنَم أهل الكوفة، فتورّع أبو حَنيفة أن يأكل اللّحمَ، وسأل كَمْ تَعيش الشّاة؟ قالوا: سبع سنين، فترك أكْلَ لَحِم الغَنَم سبع سِنين.

**ويقال:** إنّ المنصور حمل إليه بَدْرة فرَمَى بها إلى زاوية البيت، فلمّا مات جاء بها ابنه حمّاد بن أبي حنيفة إلى أبي الحسن بن أبي قحطبة، وقال: إنّ أبي أوصاني أن أردّ هذه عليك، وقال: إنّها كانت عندي كالوَديعة، فاصْرِفْها فيما أمرك الله به، فقال أبو الحسن: رحم الله أبا حَنيفة! لقد شَحّ بدِينه إذ سَخَتْ به نفوسُ أقوام.

**وقال سُفيان الثَّوريّ:** انظُر دِرْهمك من أين هو، وصَلّ في الصّفّ الأخير.

جابر، سمعت النّبيّ ﷺ يقول لكَعْب بن عُجْرة: «لا يَدْخُل الجنّة لَحْمٌ نَبَتَ من السُحْت ، النّار أوْلى به».

الحسن: لووجدتُ رَغيفًا من حَلالٍ لأحْرَقتُه ثمّ سَحَقْتُه ثمّ جعلتُه ذَرُورًا، ثمّ داوَيْتُ به المَرْضَى.

عائشة، قالت: يا رسول الله، مَنِ المؤمن؟ قال: مَن إذا أصبح نَظَر إلى رَغيفَيْه كيف يَكْتَسِبهما، قالت: يا رسول الله، أمَا إنّهم لو كُلِّفوا ذلك لتكلّفوه، فقال لها: إنّهم قد كُلِّفوه، ولكنّهم يَعْسِفون الدّنيا عَسْفًا.

حُذَيفة بن اليَمان، يرفعه: إنّ قومًا يجيئون يومَ القيامة ولهم مِن الحَسَنات كأمثال الجِبال، فيَجْعَلها الله هَباءً مَنثورًا، ثمّ يُؤمَر بهم إلى النّار، فقيل: خَلِّهم لنا يا رسول الله، قال: إنّهم كانوا يُصلُّون ويَصُومون ويأخذون أهْبَة من اللّيل، ولكنّهم كانوا إذا عُرِض عليهم الحرام وَثَبُوا عليه. (٢٠ : ٢٣٣ ـ ٢٤٣)

## الفصل الثّاني والخمسون: [في البِشْر والبَشاشة]

**(الحكمة: ٦) الأصل: صَدْرُ الْعَاقِلِ صُندُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالْاِحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.**

**الشّرح: ... [قال بعد ذكر الفصل الأوّل في «كتمان السّرّ»:]**

**الفصل الثّاني:** قوله: «البشاشة حِبالة المودّة»، قد قلنا في البِشْر والبشاشة فيما سبق قولًا مُقْنعًا[1].

**وكان يقال:** البِشْر دالّ على السّخاء من ممدوحك، وعلى الوُدّ من صديقك دلالة النَّوْر على الثَّمَر[2].

**وكان يقال:** ثلاث تُبين لك الوُدّ في صَدْر أخيك: تلقاه ببِشْرِك، وتبدؤه بالسّلام، وتوسّع له في المجلس. وقال الشّاعر[الكامل] :

لاتدخلنّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فلَخيرُ دَهْرِكَ أن ترى مسؤولا
لاتجبهن بالرّدّ وَجْهَ مؤمّلٍ ... قد رام غيرك أن يُرَى مأمولَا
تلقَى الكريم فتستدلّ ببِشْرِهِ ... وتَرَى العَبُوسَ على اللّئيمِ دليلَا
واعلمْ بأنّكَ عن قليلٍ صائرٌ ... خَبرًا فكُن خَبرًا يروقُ جميلَا

وقال البُحْتريّ [الكامل]:

لو أنّ كفّكَ لَمْ تَجُدْ لمؤمّلٍ ... لَكَفاهُ عاجِلُ بِشْرِكَ المتهلّلِ
ولَوَانّ مجْدَكَ لَمْ يكن متقادمًا ... أغناكَ آخرُ سُودَدٍ عنْ أوّلِ
أدركتُ ما فاتَ الكَهُولَ مِنَ الحِجَى ... مِن عُنفوانِ شَبابكَ المستقبلِ
فإذا أمرتَ فما يقالُ لكَ ائتِدْ ... وإذا حكمتَ فما يقالُ لكَ: اعْدِلِ

(١٨ : ٩٨)

---

١ ـ بحثنا في كلام الشّارح قبل هذا وما رأينا كلامًا مبسوطًا في البِشر والبشاشة. (م)

٢ ـ في «د» دلالة النّور على القمر.

**(الحكمة: ٣٣٩) وقَالَ عليه السلام فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِ: بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْسًا، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ ... .**

**الشّرح:** هذه صفات العارفين، وقد تقدّم كثير من القول في ذلك[1].

**وكان يقال:** البِشْر عُنوان النّجاح، والأمر الّذي يختصّ به العارف أن يكون بِشْرُه في وجهه وهو حَزين، وحُزْنه في قلبه، وإلّا فالبِشْر قد يوجد في كثير من النّاس ... .

(١٩ : ٢٤٥)

١ ـ سنذكرها في الفصل السّابع والخمسون: في الزّهد والآثار والأخبار الواردة فيها . (م)

## الفصل الثّالث والخمسون: [في ما ورد في الطِّيب من الآثار]

**(الحكمة: ٣٩٩) الأصل: نِعْمَ الطِّيبُ المِسْكُ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ، عَطِرٌ رِيحُهُ.**

**الشّرح:** كان النّبيّ ﷺ كثير التّطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب.

وجاء الخبر الصّحيح عنه: «حُبِّبَ إليّ مِن دُنياكم ثلاث: الطِّيب، والنّساء، وقُرّة عيني في الصّلاة».

وقد رُوِيت لفظةُ أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة. ونحوها: «لا تَرُدُّوا الطِّيب، فإنّه طيّب الرّيح، خَفيفُ المحْمِل».

سَرقَ أعرابيّ نافجَة مِسك، فقيل له: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾[1]، قال: إذَن أحمِلها طيّبة الرّيح، خَفيفة المحمِل.

وفي الحديث المرفوع: إنّه عليه السلام بايع قومًا كان بيَدِ رجل منهم رَدْع[2] خَلوق، فبايعه بأطراف أصابعه، وقال: «خيرُ طِيبِ الرِّجال ما ظَهَر ريحُه وخَفي لَوْنُه، وخيرُ طِيبِ النّساء ما ظَهَرَ لَوْنُه وخفي ريحُه».

وعنه عليه السلام في صفة أهل الجَنّة: «ومَجامِرهم الأُلُوّة»[3]، وهي العُودُ الهِنديّ.

ورَوَى سَهْل بن سعد عنه عليه السلام: «أنّ في الجَنّة لَمَراغًا من مِسك مِثْل مَراغِ دوابّكم هذه».

ورُوِي عنه عليه السلام أيضًا في صفة الكوثر: «جالُه المِسك ـ أي جانبُه ـ ورَضْراضه التُّوم، وحَصباؤه اللُّؤلؤ»[4].

**وقالت عائشة:** كأنّي أنظر إلى وَبيص[5] المِسك في مَفارِق رسول الله ﷺ وهو مُحْرِم.

---

١ ـ آل عمران / ١٦١.

٢ ـ ردع الزّعفران: لطخه.

٣ ـ نهاية ابن الأثير ٤: ٧٠.

٤ ـ التوم: الدُّرّ. وهي من «د».

٥ ـ الوبيص: البريق.

وكان ابن عمر يَسْتجمِر بعُودٍ غير مُطَرَّى ويجعل معه الكافور، ويقول: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يَصْنَع.

ورَوَى أنس بن مالك قال: دَخَل علينا رسول الله ﷺ، فقال: عندنا والوقتُ صَيف، فعَرِق، فجاءت أُمّي بقارُورةٍ فجَعَلَتْ تَسلُت عَرَقه، فاستيقَظ وقال: يا أُمّ سُلَيم، ما تصنعين؟ قالت: هذا عَرَقك نَجْعَله في طيبنا، فإنّه من أطيب الطّيب، ونرجو به بَرَكة صِبْياننا، فقال: أصَبْت.

ومن كلام عمر: لوكنتُ تاجرًا ما اخترتُ غير العِطْر، إن فاتَني رِبْحُه لم يَفُتْني رِيحُه.

ناوَل المتوكّل أحمدَ بن أبي فَنَن فأْرة مِسْك، فأنشده [الطّويل]:

لئن كان هذا طِيبنا وَهْوَ طَيِّبٌ لقد طيّبَتْهُ مِن يَدَيْكَ الأناملُ

قالوا: سُمِّيَت الغالية غاليةً، لأنّ عبد الله بن جعفر أهْدَى لمعاوية قارُورةً منها، فسأله، كم أنفَقَ عليها، فذكر مالًا، فقال: هذه غاليةٌ، فسُمِّيت غالية.

شمّ مالكُ بن أسماء بن خارجة الفَزارِيّ من أُخْته هِند بنت أسماء رِيحَ غالية، وكانت تحت الحَجّاج، فقال: علِّميني طِيبك، قالت: لا أفعل، أتريد أن تعلِّمَه جَواريك، هو لك عندي ما أردتَه، ثمّ ضحكتْ وقالت: واللهِ ما تعلّمته إلّا مِن شِعرك حيث قلتَ [الخفيف]:

أطْيَبُ الطِّيبِ طِيبُ أمِّ أبانٍ فـأرُ مِسْـكٍ بعنبـرٍ مَسْـحوقِ

خَلَطَتْـهُ بعُودِهـا وبِبـانٍ فَهْوَ أحْوَى على اليَدَيْنِ شَريقِ

ورَوَى أبو قِلابة، قال: كان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عَرَف مَن في الطّريق أنّه قد مرّ، من طِيب رِيحِه.

ورَوَى الحسنُ بن زَيْد عن أبيه، قال: رأيتُ ابن عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنّها الرُّبّ.

أوْلَمَ المتوكّل في طُهْربَنيه، فلمّا كَثُر اللّعب قال ليحيى بن أكْثَم: انصَرِف أيّها القاضي، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّهم يريدون أن يَخْلِطوا، قال: أحْوَج ما يكونون إلى قاضٍ إذا

خَلَطوا، فاستَظْرَفه وأمَرَ أن تُغَلَّف لحيتُه، ففعل، فقال يحيى: إنّا لله، ضاعتِ الغالية، كانت هذه تكفيني دَهْرًا لو دُفِعَتْ إليّ، فأمر له بزَوْرَق لطيفٍ مِن ذَهَبٍ مملوءٍ من غالية ودُرْج بَخُور، فأخَذَهما وانصرف.

ورَوَى عِكْرِمة أنّ ابن عبّاس كان يَطلِي جَسَده بالمِسْك، فإذا مرّ بالطّريق قال النّاس: أمَرَّ ابن عبّاس أم المِسْك؟

**وقال أبو الضُّحى:** رأيتُ على رأس ابن الزُّبَير من المِسْك ما لو كان لي لكان رأس مالي.

لمـا بَنى عُمَر بن عبد العزيز على فاطمةَ بنت عبد الملك أَسْرَج في مَسارِجه تلك اللّيلة الغالية إلى أن طَلَعت الشّمس.

كانت لابن عُمَر بُنْدُقة من مِسْك يَبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها[1].

كان عمر بن عبد العزيز في إمارته المدينة يجعل المِسْك بين قَدَمَيْه ونَعْلِه، فقال فيه الشّاعر يمدحه [الطّويل]:

له نَعَلٌ لا تَطَّبي الكَلْبَ ريحُها[2] وإن وُضِعتْ في مجلسِ القومِ شُمَّتِ

سمع عُمَر قول سُحَيم عبدِ بني الحَسْحاس [الطّويل]:

وهبّت شَمالٌ آخرَ اللّيلِ قَرّةٌ ولاثَـوْبَ إلّا دِرْعُهـا ورِدائيَـا

فما زال بُرْدي طيّبا من ثِيابها مَدى الحَوْلِ حتّى أنهَجَ البُرْدُ باليا

فقال له: ويحك! إنّك مقتول، فلم تَمْضِ عليه أيّام حتّى قُتِل.

**قال الشّعبيّ:** الرّائحة الطّيّبة تزيد في العقل.

كان عبد الله بن زيد يتخلّق بالخَلُوق، ثمّ يجلس في المجلس.

وكانوا يستحبّون إذا قاموا من اللّيل أن يمسحوا مَقاديمَ لِحَاهم بالطّيب.

---

١ ـ يبوكها بين راحتيه: أي يقلبها.

٢ ـ يطبي: يستميل. والبيت الكثير، انظر: خزانة الأدب ٤: ١٤٧.

واشترى تميم الدّاريّ حُلّة بثمانمائة دِرْهم، وهيّأ طِيبًا، فكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبس حُلّته، وقام في المحراب.

**وقال أنس:** يا جميلة، هيّئي لنا طِيبًا أمسح به يدي، فإنّ ابن أُمّ ثابت إذا جاء قبّل يدي، يعني ثابتًا البُنانيّ.

**وقال سَلم بن قُتَيبة:** لقد شممتُ من فلانٍ رائحة أطْيَب من مَشْطة العَروس الحَسْناء في أَنف العاشق الشَّبِق.

**ومن كلام بعض الصّالحين:** الفاسق رِجْس ولو تَضَمَّخَ بالغالية.

عرَضتْ مدنيّة لكُثَيِّر فقالت له: أنت القائل [الطّويل]:

فما رَوْضةٌ بالحُزْنِ طيّبةُ الثَّرى يَمُجُّ النَّدَى جَنْباتُها وعَرارُها

بأطْيَبَ مِن أردانِ عَزّةَ مَوْهِنًا وقد أوقَدتْ بالمَنْدَلِ الرّطْبِ نارُها

لوكانت هذه الصّفة لزَنجيّة تجتلي الحُلّة لطابت، هلّا قلت كما قال سيّدك[1] امرؤ القيس [الطّويل]:

أ لَمْ تَرَياني كلّما جِئتُ طارِقًا وَجَدتُ بها طِيبًا وإن لَمْ تطَيَّبِ

**وقال الزّمخشريّ:** إنّ النّوى المُنقَع بالمدينة ينتاب أشرافها المواضعَ الّتي يكون فيها التماسًا لطِيب رِيحه، وإذا وَجَدوا رِيحه بالعراق هَرَبوا منها لخُبْثها، قال: ومَنِ اختلف في طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبَنَّة[2] عجيبة، ولذلك سُمِّيتْ طَيْبة، والزّنجيّة بها تجعل في رأسها شيئًا من بلحٍ وما لا قيمة له، فتجد له خُمْرةً لا يعدلها بيتُ عَروس من ذوات الأقدار.

**قال:** ولو دخلت كلّ غالية وعطر قصبةَ الأهواز وقَصبةَ أنطاكيّة لوجدتها قد تغيّرتْ وفسدتْ في مدّة يسيرة.

---

١ ـ في د: «سيّد الشّعراء».

٢ ـ البنّة: الرّائحة مطلقًا.

أراد الرّشيد المُقام في أنطاكيّة، فقال له شيخ منها: إنّها ليست من بلادِك، فإنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيرّ فيها حتّى لا ينتفع منه بشيء، والسّلاح يَصْدأ فيها.

سِيراف من بلاد فارس، لها فغْمة طيّبة.

فأرة المِسْك دُوَيْبَّة شبيهة بالخِشْف[1] تكون في ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها، فإذا صادها الصّائد عَصَب سُرّتها بعِصاب شديد وهي مدلّاة، فيجتمع فيها دَمُها، ثمّ يذبحها، وما أكثرَ مَن يأكلها، ثمّ يأخذ السُّرّة فيَدفِنها في الشَّعْر حتّى يستحيل الدّمُ المحتقِن فيها مِسْكًا ذكيًّا بعد أن كان لايرام نَتْنًا، وقد يُوجد في البيوت جُرْذان سُودٌ يقال لها: فَأْر المِسْك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها.

وذكر شيخنا أبو عُثمان الجاحِظ، قال: سألتُ، بعض أصحابنا المعتزلة عن شأن المِسْك، فقال: لو لا أنّ رسول الله ﷺ تطيّب بالمِسْك لما تطيّبتُ به، لأنّه دم، فأمّا الزَّباد، فليس ممّا يَقْرُب ثيابي، فقلتُ له: قد يرتضع الجَدْي من لبن خِنزيرة فلا يحرُم لَحْمُه، لأنّ ذلك اللّبن استحال لَحْمًا، وخرج من تلك الطّبيعة، وعن تلك الصّورة، وعن ذلك الاسم، وكذا لحم الجلّالة، فالمِسْك غير الدّم، والخلّ غير الخَمْر، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينه، وإنّما يَحْرُم للأعراض والعِلَل، فلا تقزز[2] منه عند ذكرك الدّم، فليس به بأس.

**قال الزّمخشريّ**: والزّبادة هِرّة. ويقال للزَّيْلَع، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يا زَيْلَع، الزّبادة ماتت، فيَغضَب.

**وقال ابن جَزْلة الطّبيب في «المنهاج»**[3]: الزّباد طِيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنَّور يقال: إنّه وَسَخ في رَحِمها.

**وقال الزّمخشريّ**: العنبر يأتي طُفاوةً على الماء لا يدري أحدٌ مَعْدنه، يقذفه البحر

---

١ ـ الخِشْف: ولد الظّبي.

٢ ـ تقزّز منه: تباعد.

٣ ـ كتاب المنهاج لابن جزلة الطّبيب؛ منه نسخة مخطوطة بدار الكُتُب رقم ١٠٧ ـ طبّ.

إلى البرّ فلا يأكل منه شيء إلّا مات، ولا ينقُرُه طائرٌ إلّا بقي مِنقارُه فيه، ولا يقع عليه إلّا نَصلَتْ أظفارُه، والبحريّون والعَطّارون ربّما وجدوا فيه المِنقار والظّفر.

قال: والبال، وهو سَمَكة طولها خمسون ذِراعًا، يؤكل منه اليَسير فيموت.

قال: وسمعت ناسًا من أهل مكّة يقولون: هو ضَفْع[1] ثور في بحر الهِند. وقيل: هو من زَبَد بحر سَرَنديب، وأجوَدُه الأشهب، ثمّ الأزرق، وأدْوَنُه الأسود.

وفي حديث ابن عبّاس: ليس في العنبر زكاة، إنّما هو شيء يَدْسُرُه البحر، أي يَدْفَعه.

فأمّا صاحب «المنهاج في الطّبّ»، فقال: العنبر من عين في البحر، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال، والأسود أردأ أصنافه، وكثيرًا ما يوجد في أجوافِ السَّمَك الّتي تأكله وتموت. وتوجد فيه سُهُوكة.

وقال في المِسْك: إنّه سُرّة دابّة كالظّبي، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسي كقَرنين. جاء في الحديث المرفوع: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله وليخرجنَ إذا خَرَجْنَ تَفِلَات»، أي غير متطيّبات[2].

وفي الحديث أيضًا: «إذا شَهِدَتْ إحداكنّ العِشاء فلا تمسّ طِيبًا»، والمراد من ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال.

قال الشّاعر [المنسرح]:

والمِسْكَ بينا تراه ممتَهنًا ... بفهْرِ عَطّارِه وساحقِهِ

حتّى تراه في عارِضَيْ مَلِكٍ ... أو موضَع التّاجِ من مَفارِقِهِ

الصَّنَوبَريّ في استهداء المِسْك [البسيط]:

المِسْكُ أشبَهُ شيءٍ بالشّبابِ فهَبْ ... بعضَ الشّبابِ لبعضِ العُصْبةِ الشّيبِ

يقال: أنّ رجلًا وَجَد قِرْطاسًا فيه اسم الله تعالى، فرفعه، وكان عنده دينار، فاشترى

---

١ ـ ضَفع الثّور: نَجْوُه.

٢ ـ المنهاج، الورقة: ١٧٤.

به مِسكًا، فطَيّبه، فرأى في المنام قائلًا يقول له: كما طيّبت اسمي لأطيبنّ ذكرك.

قال خالدُ بن صَفوان ليزيد بن المهلّب: ما رأيتُ صداً المغفر، ولا عَبَق العَنبر بأحد أليقَ منه بك. فقال: حاجتك. قال: ابنُ أخ لي في حَبْسك. فقال: يسبقك إلى المنزل. شاعر[الطّويل]:

كأنّ دُخانَ النَّدِّ ما بين جَمْرِهِ بقايا ضبابٍ في رِياضٍ شقيقِ

قالوا: خير العُود المَنْدَليّ، وهو منسوبٌ إلى مَندَل: قريةٌ من قُرَى الهند، وأجْوَدُه أصْلَبه، وامتحان رَطْبه أن ينطَبع فيه نقش الخاتم، واليابس تُفْصِح عنه النّار، ومن خاصيّة المَندليّ أنّ رائحته تثبت في الثّوب أُسبوعًا، وإنّه لا يقمل مادامت فيه.

قال «صاحب المِنهاج»[1]: العُود عروقُ أشجارٍ تُقْلع وتُدْفن في الأرض حتّى تتعفّن، منها الخشبيّة والقشريّة، ويبقى العُود الخالص، وأجْوَدُه المَندليّ، ويجلب من وَسَط بلاد الهِند، ثمّ العُود الهنديّ، وهو يفضل على المَندَليّ بأنّه لا يولّد القَمْل، وهو أعبق بالثّياب.

قال: وأفضل العُود أرْسَبُه في الماء، والطّافي رديء.

قال أبو العبّاس الأعمى [الخفيف]:

ليت شَعْري مِن أين رائحة المِسْـ ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أنسِي
حـين غابـتْ بنوأميّـة عنـهُ والبَهاليل من بني عبد شمسِ
خُطَبـاءٌ عـلى المنـابرِ فُرْسـا نٌ على الخَيْلِ قالةٌ غير خُرْسِ
بحُلـومٍ مثـل الجبـال رزانٍ ووجـوهٍ مثـل الـدّنانيرِ مُلْـسِ

المسيّب بن عَلَس[2] [المتقارب]:

تَبيتُ الملوكُ على عَتْبِها وشَيْبانُ إن غَضِبَتْ تُعْتَبُ

---

١ ـ المنهاج، الورقة: ١٧٤.

٢ ـ ديوان الأعشين: ٣٥٠.

وكالسَّهدِ بالرّاح ألفاظُهُمْ وأخلاقُهم منهما أعْذَبُ
وكالمِسْكِ تُرْبُ مَقاماتِهِمْ وتُرْبُ قُبورِهُمُ أطْيَبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف، فقال [المتقارب]:

وأنتِ إذا ما وطِئْتِ الثَّرا بَ كان تُرابُكِ للنّاسِ طِيبا

وهجا بعضُ الشُّعَراء العُمّال في أيّام عمر، ووقع عليهم، فقال في بعض شعره [الطّويل]:

نَؤُوبُ إذا آبوا ونَغزُو إذا غَزَوْا فأنّى لهم وَفْرٌ ولَسْنَا ذَوي وَفْرِ
إذا التّاجرُ الدّاريّ جاء بفَأرةٍ من المِسْكِ راحَتْ في مَفارقهم تَجْرِي

فقبض عمر على العُمّال وصادَرَهم.

قالوا في الكافور: إنّه ماءٌ في شجر مكفور فيه يَغْرزونه بالحديد، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشّجر ضَرَبه الهواء فانعقد، كالصّموغ الجامدة على الأشجار.

وقال «صاحب المنهاج»[1]: هو أصناف: منها الفَنصوريّ[2]، والرّباحيّ[3]، والأزاد، والإسْفَرك[4] الأزرق، وهو المختلط بخشبه، وقيل: إنّ شجرته عظيمة تُظلّ أكثر من مائة فارس، وهي بحريّة، وخشب الكافور أبيض إلى الحُمْرة خفيف، والرّباحيّ يوجد في بدن شجرته قِطَع كالثّلج، فإذا شققتَ الشّجرة تناثر منها الكافور.

النّدّ: هو الغالية، وهو العُود المطرّى بالمِسْك والعَنبر ودُهْن البَان، ومن النّاس مَن لا يضيف إليه دُهْن البَان، ويجعل عِوَضه الكافور، ومنهم مَن لا يضيف إليه الكافور أيضًا، ومن النّاس مَن يركّب الغالية من المِسْك والعَنبر والكافور ودُهْن النّيلوفر.

**قال الأصمعيّ:** قلتُ لأبي المهديّة الأعرابيّ: كيف تقول: ليس الطِّيب إلّا المِسْك؟

---

١ ـ المنهاج: ورقة ١٧٧.

٢ ـ فنصور: جزيرة سرنديب. انظر: المفردات لابن البيطار ج ٤: ٤٢، طبع بولاق.

٣ ـ نسبة إلى ملك اسمه رباح. انظر: نهاية الأرب ج ١١: ٢٩٤.

٤ ـ كذا في قانون ابن سينا و شرح الأدويّة المفردة للكازرونيّ و نهاية الأرب ج ١١: ٢٩٤.

فلم يحفل الإعرابيّ، وذهب إلى مذهب آخر، فقال: فأين أنت عن العَنبر؟ فقلت: كيف تقول: ليس الطِّيب إلّا المِسْك والعَنبر؟ قال: فأين أنت عن البَان؟ قلت: فكيف تقول: ليس الطِّيب إلّا المِسْك والعَنبر والبَان؟ قال: فأين أنت عن ادّهان بحجر؟ يعني اليمامة. قلت: فكيف تقول ليس الطِّيب إلّا المِسْك والعَنبر والبَان وادّهان بحجر؟ قال: فأين أنت عن فأرة الإبل صادرةً؟ فرأيتُ أنّي قد أكثرت عليه، فتركتُه، قال: وفأرة الإبل رِيحها حين تصدر عن الماء وقد أكلت العُشْب الطَّيِّب.

وفي فَأْرة الإبل يقول الشّاعر[البسيط]:

كأنّ فَأرةَ مِسْكٍ في مباءَتها إذا بدا من ضِياءِ الصُّبحِ تَنتشِرُ

كان لأبي أيّوب المَرْزبانيّ وزير المنصور دُهْن طيّبٌ يدّهن به إذا ركب إلى المنصور، فلمّا رأى النّاس غلبته على المنصور وطاعته له فيما يريده، حتّى أنّه ربّما كان يستحضره ليوقع به، فإذا رآه تبسّم إليه وطابت نفسه، قالوا: دُهْن أبي أيُّوب من عَمل السَّحَرة، وضربوا به المَثَل، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان: معه دُهْنُ أبي أيُّوب.

أعرابيّ: فيها مَدَرٌ كَفّ ومَسْمّ أنف.

وقال عُيَينة بن أسماء بن خارجة الفزاريّ [البسيط]:

لو كنتُ أحملُ خَمْرًا حينَ زُرْتُكمُ لم ينكر الكَلْبُ أنّي صاحبُ الدّارِ

لكن أتيتُ وريحُ المِسْكِ يقدُمني والعَنبرُ الوَرْدُ مشبوبًا على النّارِ

فأنكرَ الكَلْبُ رِيحي حين خالَطَني وكانَ يألف رِيحَ الزِّقِّ والقارِ

**قال الأصمعيّ:** ذُكِرَ لأبي أيُّوب هؤلاء الّذين يتقشّفون، فقال: ما علمتُ أنّ القَذَر والذَّفر من الدِّين.

رِيحُ الكَلْب مَثَل في النَّتن، قال الشّاعر[مجزوء الرّمل]:

ريحُها رِيح كِلابٍ هارشتْ في يومِ ظلّ

وقال آخر [المنسرح]:

يزدادُ لؤمًا على المديحِ كما يزدادُ نَتن الكِلابِ في المَطرِ

وقالت امرأةُ امرئ القيس له وكان مُفَرَّكًا عند النّساء: إذا عَرقْتَ عَرقْتَ بريح كَلْب. قال: صدقتِ، إنّ أهلي أرضعوني مرّة بلَبن كَلْبة.

قال سَلَمة بن عيّاش، يقول لجعفربن سُلَيمان [الطّويل]:

فما شَمَّ أنفي رِيحُ كَفٍّ رأيتها مِن النّاسِ إلّا رِيح كفِّكَ أطيبُ

فأمرله بألف دينار ومائة مثقال من المِسْك ومائة مثقال من العَنبر.

وجَّه عمرُ إلى مَلِك الرُّوم بَريدًا، فاشترت أُمّ كلثوم امرأة عمر طِيبًا بدَنانيروجعلته في قارورتَين وأهْدَتْهما إلى امرأة مَلِك الرُّوم، فرجع البريد إليها ومعه مِلْء القارورتين جواهر، فدخل عليها عمر، وقد صَبّت الجواهر في حجْرها، فقال: من أين لكِ هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه، وقال: هذا للمسلمين. قالت: كيف وهو عِوَض هَديّتي! قال: بيني وبينك أبوك، فقال عليّ عليه السلام: لك منه بقيمة دينارك، والباقي للمسلمين جملةً، لأنّ بَريد المسلمين حَمَله.

قيل لخديجة بنت الرّشيد: رُسُل العبّاس بن محمّد على الباب، معهم زِنبيل يحمله رجلان. فقالت: تراه بعث إليّ باقلّاءً؟ فكشف الزّنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مِسْحاة من ذَهَب، وإذا برُقْعةٍ: هذه جرّة أُصيبتْ هي وأُخْتها في خزائن بني أُميّة، فأمّا أُختها فغلب عليها الخلفاء، وأمّا هذه فلم أرَ أحدًا أحقّ بها منك.

(١٩ : ٣٤١ ـ ٣٥١)

## الفصل الرّابع والخمسون: [في الشّيب والخضاب]

**(الحكمة: ١٨) وسُئِلَ عليه السلام عَن قَوْلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله: غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلَاتَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ، فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا قَالَ صلى الله عليه وآله ذَلِكَ، وَالدِّين قُلٌّ، فَأَمَّا الْآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ.**

**الشّرح:** اليهود لا تخضب، وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله أمر أصحابه بالخِضاب ليكونوا في مَرْأى العين شَبابًا فيَجْبن المشركون عنهم حال الحَرْب، فإنّ الشَّيخ مَظِنّة الضَّعْف.

قال عليّ عليه السلام: «كان ذلك والإسلام قُلّ»، أي قليل، وأمّا الآن وقد اتّسع نِطاقه وضَرَب بجرانه فقد سَقط ذلك الأمر وصار الخِضاب مُباحًا غير مندوب.

**فأمّا القول في الخضاب؛** فقد رَوَى قومٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بدا شَيْبٌ يسيرٌ في لحيته، فغيّره بالخِضاب، خَضَب بالحِنّاء والكَتَم، وقال قومٌ: لم يَشِبْ أصلًا.

ورُوي أنّ عائشة قالت: ما كان الله ليَشِينه بالشَّيب، فقيل: أو شَينٌ هو يا أُمّ المؤمنين! قالت: كلّكم يكرهه. وأمّا أبو بكر، فصحّ الخبر عنه بذلك، وكذلك أمير المؤمنين، وقيل: إنّه لم يخضب.

وقُتِل الحسين عليه السلام يوم الطَّفّ وهو مخضوب.

وفي الحديث المرفوع رواه عُقْبة بن عامر: «عليكم بالحِنّاء، فإنّه خِضاب الإسلام، إنّه يصفي البَصَر ويذهب بالصُّداع، ويزيد في البَاه، وإيّاكم والسّواد، فإنّه من سَوّد، سَوّد الله وجهه يوم القيامة».

وعنه صلى الله عليه وآله: «عليكم بالخِضاب، فإنّه أهْيَبُ لعدوّكم وأعْجَبُ إلى نسائكم».

ويقال في أبواب الكناية للمُخْتَضِب، هو يسوّد وجهه النّذير، لأنّ النّذير الشّيب، قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[1]: إنّه الشّيب.

وكان عبد الرّحمان بن الأسود أبيض الرّأس واللِّحية، فأصبح ذات يوم وقد

---

١ ـ فاطر/ ٣٧.

حمّرهما، وقال: إنّ عائشة أرسلتْ إليّ البارحة جاريتها فأقسمتْ عليّ لأُغيرنّ، وقالت: إنّ أبا بكر كان يَصْبغ.

ورَوَى قيس بن أبي حازم، قال: كان أبو بكر يخرُج إلينا وكأنّ لحيته ضِرامُ عَرْفَج.

وعن أبي عامر الأنصاريّ: رأيت أبا بكر يغيرّ بالحِنّاء والكَتَم، ورأيت عمر لا يغيرّ شيئًا من شَيْبه، وقال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن شَابَ شَيْبةً في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة، ولا أُحبّ أن أُغيرّ نوري».

وكان أنس بن مالك يخْضِب ويُنشِد [الطّويل]:

نُسوِّدُ أعلاها وتأبَى أصولُها ... وليس إلى رَدِّ الشّبابِ سبيلُ

ورُوي أنّ عبد المطّلب وَفَد على سيف بن ذي يَزَن، فقال له: لوخَضِبْتَ! فلمّا عاد إلى مكّة خضب، فقالتْ له امرأته نُتَيْلة أُمّ العبّاس وضِرار: ما أحسن هذا الخِضاب لودام! فقال [الطّويل]:

فلو دامَ لي هذا الخِضابُ حمدته ... وكان بَدِيلًا من خليلٍ قَدِ انصَرَمْ

تمتّعتُ منه والحياة قصيرةٌ ... ولابدّ من موتٍ نُتَيلة أو هَرَمْ

وموتٍ جَهيزٍ عاجلٍ لا سَوَى لَهُ ... أحبّ إلينا من مَقالِكُمُ حَكَمْ

قال: يعنى أنّه صار شيخًا، فصار حَكَمًا بين النّاس، من قوله [المنسرح]:

لا تَغْبِط المرءَ أن يقالَ لَهُ ... أضْحَى فلانٌ لِسِنّهِ حَكَما

وقال أسماءُ بن خارجة لجاريته: اخْضِبيني، فقالت: حتّى متى أُرقّعك! فقال [البسيط]:

عيّرْتِني خَلَقًا أبليتِ جِدّتَهُ ... وهل رأيتِ جَديدًا لم يَعُدْ خَلَقَا!

وأمّا مَن يَروي أنّ عليًّا عليه السلام ما خَضَب، فيحتجّ بقوله، وقد قيل له: لوغيرّتَ شَيْبك يا أمير المؤمنين؟ فقال: الخِضاب زينة ونحن في مصيبة. يعني برسول الله ﷺ.

وسُئل الحسن عليه السلام عن الخِضاب، فقال: هو جَزَع قبيح.

وقال محمّود الوَرّاق [مجزوء الكامل]:

يا خاضبَ الشَّيب الّذي في كلِّ ثالثةٍ يَعُودُ
إنّ الخِضابَ إذا مَضى فكأنّهُ شَيبٌ جَديدُ
فدَعِ المشيبَ وما يُريدُ فَلَنْ تَعودَ كما تُريدُ

وقد رَوَى قومٌ عن النّبيّ ﷺ كراهيّة الخِضاب، وأنّه قال: لواستَقْبَلتم الشّيب بالتّواضع لكان خيرًا لكم. قال الشّاعر[الكامل]:

وصَبغتُ ما صَبَغَ الزّمانُ فَلَمْ يَدُمْ صبْغي ودامتْ صبْغةُ الأيّامِ

وقال آخر[الكامل]:

يأيّها الرّجل المغيّر شَيْبَهُ كيما تُعدّ بِهِ مِنَ الشّبّانِ
اقْصِر فلو سوّدتَ كلّ حمامةٍ بيضاءَ ما عُدَّتْ مِن الغِرْبانِ

ويقولون في ديوان عَرْض الجَيْش ببَغْدادَ لمن يَخْضِب إذا ذَكَروا حِليته: مُسْتعار، وهي كنايةٌ لطيفة. وأنا أستحسن قول البُحْتريّ: «خَضَبتُ بالمقراض»، كناية عن قَصّ الشَّعْرالأبيض، فجعل ذلك خِضابه عِوَضًا عن الصّبغ، والأبيات هذه [الخفيف]:

لابسٌ من شبيبةٍ أم ناضِ وملـيحٌ من شيبةٍ أم راضِ[1]
وإذا ما امتعَضْتُ من وَلَع الشّيـ ـبِ برأسي لم يَثْنِ ذاك امتِعاضِي
ليس يَرضى عَنِ الزّمانِ امرؤ فيه إلّا عن غَفْلَةٍ أو تَغاضِي
والبواقي مِن اللّيالي وإن خا لَفَنَ شيئًا شَبيهةٌ بالمواضِي
وأبَتْ تَرْكِي الغُديّاتِ والآ صالِ حتّى خَضَبتُ بالمِقراضِ
ودواءُ المَشيبِ كالبَخْصِ في عيـ ـني فقُلْ فيهِ في العيونِ المِراضِ
طال حُزْني على الشّباب ومابَيْـ ـيَضَ من لَوْن صِبْغِه الفَضْفاضِ

---

١ ـ ديوانه ٢ : ٧٢ ، من قصيدة يمدح فيها ابن الفيّاض .

فَهَـــل الحادثـــاتُ يـــابن عُوَيـــفٍ تاركـــاتي ولُـــبْسَ هـــذا البَيـــاضِ!

(١٨ : ١٢٣ ـ ١٢٦)

## [مختارات ممّا قيل من الشّعر في الشَّيب والخِضاب]

**(الحكمة: ٤٨١) وقِيلَ لَهُ عليه السلام: لَوغَيَّرْتَ شَيْبَكَ يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ عليه السلام: الْخِضَابُ زِينَةٌ، وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا في الخِضاب قولٌ كافٍ، وأنا أستملح قول الصّابي فيه [الطّويل]:

خِضـــابٌ تقاسَمْنَـــاهُ بيـــني وبينهـــا ولكـــنّ شـــأني فيـــهِ خـــالَفَ شـــانَها

فيـــا قُبْحَـــهُ إذْ حَـــلّ مـــنّي بمَفْـــرِقي ويـــا حُسْـــنهُ إذْ حَـــلّ منهـــا بَنانَهـــا

وسُـحْقًا لَـهُ عـن لِمّـتي حِـينَ شـانَها وأهـلًا بِـهِ في كَفِّهـا حيـثُ زانَهـا

وقال أبو تمـام [الخفيف]:

لَعِـبَ الشَّـيبُ بالمَفـارقِ بَـلْ جَـدْ دَ فـــأبكَى تَمُـــاضِرًا ولَعُوبَـــا[1]

خَضَـبَتْ خَـدَّها إلى لؤلـؤِ العِقْـ ـدِ دمًـا أن رأتْ شَـواتي خَضـيبا[2]

كـلّ داءٍ يُرجَـى الـدّواءُ لَـهُ إل لا الفَظِيعَـــينِ مَيْتَـــةً ومَشـــيبَا

يـا نَسـيبَ الثّغـامِ ذَنبُـكَ أبْـقَى حَسَـناتي عِنـدَ الحِسـانِ ذُنوبَـا[3]

ولَـئِن عِـبنَ مـا رأَيْـنَ لقـد أنْـ ـكَرْنَ مُسْتنكَـرًا وعِـبْنَ مَعيبَـا

لـو رأى اللهُ أنّ في الشّـيبِ فَضْـلًا جاوَرَتْـهُ الأبْـرارُ في الخُلْـدِ شـيبَا

---

١ ـ ديوانه ١ : ١٦٦ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .

٢ ـ الشَّواة : جلدة الرّأس .

٣ ـ الثّغام : نبت أبيض يشبه الشّيب .

وقال [الوافر]:

فإن يكن المَشيبُ طَغَى علينا وأوْدَى بالبَشاشـةِ والشَّـبابِ
فـإنّي لسـتُ أدفعُـه بشـيءٍ يكون عليهِ أثْقَلَ من خِضابِ
أردتُ بـأنّ ذاكَ وذا عـذابٌ فسلّطتُ العذابَ على العذابِ

ابنُ الرّوميّ [مخلّع البسيط]:

لمْ أخْضِبِ الشَّيبَ للغَواني أبْغِي بِهِ عندهم وِدادَا
لكن خِضابي على شَبابٍ لبستُ من بَعْده حِدادَا

ومن مختار ما جاء من الشّعر في الشّيب وإن لم يكن فيه ذِكْر الخِضاب قول أبي تمام [الكامل]:

نَسَجَ المَشيبُ لَهُ لفاعًا مُغْدِقًا يَقَقًا فقَنَّعَ مِذْرَوَيْهِ ونَصَّفَا
نَظَرُ الزّمانِ إليهِ قطعُ دُونَهُ نَظَرُ الشَّقيقِ تَحسُّرا وتَلهُّفَا
ما اسْوَدَّ حتّى أبْيَضَّ كالكَرمِ الّذي لَمْ يَبْدُ حتّى جيء كَيْما يُقْطفَا
لمّا تَفوَّقَتِ الخُطوبُ سَوادَها ببَياضِها عَبثَتْ به فَتفوّقَا
ما كان يخْطُرُ قبلَ ذا في فِكْرِهِ للبَدْرِ قبلَ تمامِهِ أن يَكْسِفَا

وقال أيضًا [الطّويل]:

غَدَا الهَمُّ مختطًّا بفَوْدَيّ خِطّةً طريقُ الرَّدَى منها إلى الموتِ مَهْيَعُ[1]
هُوَ الزَّورُ يُجْفَى، والمُعاشَرُ يُجْتَوَى وذُو الإلْفِ يُقْلَى، والجديدُ يُرَقَّعُ
له مَنظَرٌ في العَين أبْيَضُ ناصِعٌ ولكنّهُ في القلبِ أسْوَدُ أسْفَعُ
ونحنُ نُرَجّيهِ على الكُرْهِ والرِّضَا وأنفُ الفَتَى من وَجْهِهِ وَهْوَ أجْدَعُ

وقال أيضًا [الخفيف]:

---

١ ـ ديوانه ٢ : ٣٢٤ .

شُعلةٌ في المَفارقِ استَوْدَعَتْني ... في صميم الأحشاء ثُكْلًا صَميما
تَستثيرُ الهمومُ ما اكتنَّ منها ... صُعُدًا وَهْيَ تَستثيرُ الهُمومَا
غُـرّةٌ مُـرّةٌ أَلَا إنَّمَـا كُنْـ ... ـتُ أغَـرًا أيّـامَ كُنتُ بَهيمَـا
دِقّةٌ في الحياةِ تُدعَى جَلالًا ... مِثْلمَـا سُمّـيَ اللّـدِيغُ سَـليمَا
حَلّمتْـني زعَمـتُم وأراني ... قبلَ هذا التَّحليمِ كُنتُ حَليمَا

وقال الصّابي، وذكر الخِضاب [الطّويل]:

خَضبتُ مَشِيبي للتّعلّق بالصِّبا ... وأوهَمْـتُ مَـن أهـواهُ أنّي لَمْ أشِـبْ
فلمّا ادّعى منيّ العِذارُ شَبيبةً ... إذا صَلَعِي قد صاحَ من فَوقهِ كَذَبْ
فكَم طُرّة طارَتْ ودانَتْ ذوائبٌ ... وكم وَجْنة حالَتْ وماء بها نَضَبْ
شَواهدُ بالتّزويرِ يَحْوينَ رَبَّها ... فهِجْرانُـهُ عِنـدَ الأحِبّـةِ قَـدْ وَجَـبْ

البُحْتريّ [البسيط]:

بـانَ الشَّـبابُ فـلا عَـينٌ ولا أثَـرُ ... إلّا بقيّـة بُـرْدٍ مِنْـهُ أسمـالِ
قَدْ كِدْتُ أخْرِجهُ عن مُنتهَى عَدَدِي ... يأسًا وأسْقِطُهُ إذ فاتَ مِن بالي
سُـوءُ العَواقِـبِ يـأسٌ قبلَـهُ أمَـلٌ ... وأعْضَلُ الدّاء نكْسٌ بعد إبْلالِ
والمـرءُ طاعـةُ أيّـامٍ تُنَقِّلُـهُ ... تَنقُّلَ الظِّلِّ مِن حالٍ إلى حالِ

(٢٠ : ٢٣٠ ـ ٢٣٢)

## الفصل الخامس والخمسون: [في الابتلاء]

**(الخطبة: ١٣٢) الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى، اَلْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّة، اَلْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ ...**

**الشّرح:** ... وأمّا قوله: «وابتلى» فالابتلاء إنزال مضرّة بالإنسان على سبيل الاختبار، كالمرض والفقر والمصيبة، وقد يكون الابتلاء بمعنى الاختبار في الخير؛ إلّا أنّه أكثر ما يستعمل في الشّرّ. (٨ : ٢٦٨)

**(الحكمة: ١٢٢) الأصل: مَن قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ.**

**الشّرح:** هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين والاعتقاد الصّحيح، فإنّهم الّذين إذا قَصّروا في العمل ابتُلوا بالهَمّ، فأمّا غيرهم من المُسْرِفين على أنفسهم وذوي النّقص في اليقين والاعتقاد، فإنّه لا هَمّ يَعْرُوهم وإن قصّروا في العمل، وهذه الكلمة قد جَرَّبْناها من أنفسِنا فوَجَدْنا مِصْداقَها واضحًا، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخلّ بفريضة الظّهر مَثَلًا حتّى تغيب الشّمس وإن كان أخلَ بها لعُذْرٍ وَجَدَ ثِقْلًا في نفسه وكَسَلًا وقلّة نشاط، وكأنّه مشكول بشِكال أو مقيّد بقَيْدٍ، حتّى يقضيَ تلك الفريضة، فكأنّما أُنشِطَ من عِقال. (١٨ : ٣١٦)

**(الحكمة: ١٢٣):لَا حَاجَةَ لِلّهِ فِيمَن لَيْسَ لِلّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ.**

**الشّرح:** قد جاء في الخبر المرفوع: «إذا أحبّ الله عبدًا ابتلاه في ماله أو في نفسه».

وجاء في الحديث المرفوع: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمْرَض، ومِن مالٍ لا يُصاب».

ورَوَى عبد الله بن أنَس عنه ﷺ أنّه قال: «أيَكم يحبّ أن يصحّ فلا يَسْقَم؟»، قالوا: كلّنا يا رسول الله. قال: «أتحبّون أن تكونوا كالحُمُر الصّائلة، ألَا تحبّون أن تكونوا أصحابَ بلايا وأصحابَ كفّارات! والّذي بعثني بالحقّ إنّ الرّجل لتكون له الدّرجة في الجَنّة، فلا يبلغها بشيءٍ من عمله فيَبْتَليه الله ليُبَلِّغه الله درجةً لا يبلغها بعمله».

وفي الحديث أيضًا: « ما مِن مُسلمٍ يمرض مرضًا إلّا حَتّ الله به خطاياه كما تحُتّ الشّجرة ورقها».

ورَوَى أبو عثمان النَّهْدِيّ، قال: دخل رجل أعرابيّ على رسول الله ﷺ ذو جُسْمانٍ عظيمٍ، فقال له: متى عَهْدُك بالحُمَّى؟ قال: ما أعرفها، قال: بالصُّداع؟ قال: ما أدري ما هو؟ قال: فأصِبْتَ بمالِك؟ قال: لا. قال: فرُزِئْتَ بوَلَدك؟ قال: لا. فقال عليه السلام: «إنّ الله ليَكْره العِفْريت النِّفْريت الّذي لايُرْزَأ في وَلَده ولايُصاب في ماله».

وجاء في بعض الآثار: «أشدّ النّاس حسابًا الصّحيح الفارغ».

وفي حديث حُذَيفة رضي الله عنه: إنّ أقَرّ يوم لعيني ليَوْمُ لا أجد فيه طعامًا، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله ليَتعاهَد عبدَه المؤمن بالبلاء كما يَتعاهَد الوالد وَلَدَه بالطّعام، وإنّ الله يَحْمي عبدَه المؤمن كما يَحْمي أحدكم المريض من الطّعام».

وفي الحديث المرفوع أيضًا: «إذا أحبّ الله عبدًا ابتلاه، فإذا أحبّه الحُبَّ البالغَ اقتَناه». قالوا: وما اقتناؤه؟ قال: ألّا يترك له مالًا ولا ولدًا».

مرّ موسى عليه السلام برجلٍ كان يعرفه مُطيعًا لله قد مَزَّقَتْ السّباعُ لَحْمَه وأضلاعه، وكَبِدُه ملقاةٌ، فوَقَف متعجّبًا، فقال: أي ربِّ، عبدُك المطيع لك ابتليَته بما أرَى، فأوْحَى الله إليه: إنّه سألني درجةً لم يَبْلُغها بعمله، فجعلتُ له بما ترى سبيلًا إلى تلك الدّرجة.

وجاء في الحديث: «إنّ زكريّا لم يَزَل يَرَى وَلَده يحيى مغمومًا باكيًا مشغولًا بنفسه، فقال: يا ربِّ، طلبتُ منك ولدًا أنتفِع به فرزقتَنِيه لا نَفْعَ لي فيه. فقال له: إنّك طلبتَه وليًّا، والوليّ لايكون إلّا هكذا، مِسْقامًا فقيرًا مهمومًا.

وقال سُفيان الثّوريّ: كانوا لايعدّون الفقيهَ فقيهًا مَن لايَعُدّ البلاء نعمةً والرّخاء مُصيبةً.

جابر بن عبد الله يرفعه: «يودّ أهل العافية يوم القيامة أنّ لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يَرَوْن من ثواب أهل البلاء». (١٨ : ٣١٧ ـ ٣١٨)

## الفصل السّادس والخمسون: [في المعافاة]

**(الخطبة: ٩٨) الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِن أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ ... .**

الشّرح: ... ولقد ظَرُف وأبدع ﷺ في قوله: «ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»، وذلك أنّ للأديان سُقْمًا وطبًّا وشفاء، كما أنّ للأبدان سُقْمًا وطبًّا وشفاء، قال محمود الورّاق [الكامل]:

وإذا مَرِضتَ من الذّنوبِ فداوِها ... بالذِّكرِ إنّ الذِّكرَ خيرُ دَواءِ

والسُّقْمُ في الأبدانِ ليسَ بضائرٍ ... والسُّقْمُ في الأديان شرُّ بَلاءِ

وقيل لأعرابيّ: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: الجَنّة. قيل: أفلا ندعولك طبيبًا؟ قال: الطّبيب أمرضني.

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْريّة العابدة رجلًا يقول: ما أشدّ العَمَى على مَن كان بصيرًا! فقالت: عَبْدَ اللهِ! غَفَلْتَ عن مرض الذّنوب، واهتممت بمرض الأجساد، عَمَى القلوب عن الله أشدّ مِن عَمى العين عن الدّنيا، وَدِدْتُ أنّ الله وهب لي كُنه محبّته، ولم يُبق منّي جارحة إلّا تَبَلها[1].

قيل لحسّان بن أبي سنان في مرضه: ما مرضك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطبّاء. قيل: وما هو؟ قال: مرض الذّنوب. فقيل: كيف تجدُك الآن؟ قال: بخير إن نجوتُ من النّار. قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة طويلة بعيدة ما بين الطّرفَين أُحييها بذِكر الله.

ابن شُبرُمة: عجبتُ ممّن يحتمِي من الطّعام مخافة الدّاء، كيف لا يحتمي من الذّنوب مخافة النّار! (٧ : ٨١ ـ ٨٢)

---

١ ـ تبلها: أسقمها.

## الفصل السّابع والخمسون:

## [في مجاهدة النّفوس وما ورد في ذلك من الآثار]

(الخطبة: ٢١٤) الأصل: قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشّرح: يصف العارف يقول: «قد أحيا قلبه» بمعرفة الحقّ سبحانه، «وأمات نفسه» بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنيّة بالجوع والعطش والسّهر والصّبر على مشاقّ السّفر والسّياحة. «حتّى دقّ جليله» أي حتّى نحل بدنه الكثيف. «ولطف غليظه» تلطّفت أخلاقه وصفت نفسه، فإن كَدر النّفس في الأكثر إنّما يكون من كدر الجسد، والبطنة ـ كما قيل ـ تذهب الفطنة.

ويقول أرباب هذه الطّريقة: مَن لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطّريقة شَمّة.

وقال عثمان المغربيّ الصّوفيّ: مَن ظنّ أنّه يفتح عليه شيء من هذه الطّريقة، أو يكشف له عن سرّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة فهو غالط.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: مَن لم يكن في بدايته قُومة، لم يكن في نهايته جُلَسة.

ومن كلامهم: الحركة بركة، حركات الظّواهر توجب بركات السّرائر.

ومن كلامهم: مَن زيّن ظاهرَه بالمجاهدة، حسّن الله سرائره بالمشاهدة.

وقال الحسن الفرازينيّ: هذا الأمر على ثلاثة أشياء: ألّا تأكل إلّا عند الفاقة، ولا تنام إلّا عند الغلبة، ولا تتكلّم إلّا عند الضّرورة.

وقال إبراهيم بن أدهم: لن ينال الرّجل درجة الصّالحين حتّى يغلق عن نفسه باب النّعمة ويفتح عليها باب الشّدّة.

ومن كلامهم: مَن كَرُمَتْ عليه نفسه هانَ عليه دِينه.

وقال أبو عليّ الرّوذباريّ: إذا قال الصّوفيّ بعد خمسة أيّام: أنا جائع، فألزموه السُّوق ومُروه بالكسب.

وقال حبيب بن أوس أبو تمّام وهو يقصد غير ما نحن فيه، ولكنّه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه [الوافر]:

خُذِي عَبراتِ عَينكِ عن زَمَاعي ... وصوني ما أزَلتِ مِنَ القِناعِ
أقلّي قد أضاقَ بُكاكِ ذَرْعِي ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذِراعي
أآلِفَةَ النّحيبِ كمِ افتراقٍ ... أظلّ فكان داعِيَةَ اجتِماعِ!
فليستْ فَرحةُ الأوْباتِ إلّا ... لموقوفٍ على تَرَحِ الوَداعِ
تَعَجَّبُ أن رَأتَ جسمي نحيلًا ... كأنّ المجدَ يُدرَكُ بالصِّراعِ!
أخو النّكَباتِ مَن يأوِي إذا ما ... أطَفنَ بهِ إلى خُلُقٍ وساعِ
يَثيرُ عجاجةً في كلّ فَجّ ... يَهيمُ بهِ عَدِيُّ بْنُ الرِّقاعِ
أبَنَّ مع السِّباعِ الماءَ حتَّى ... لَخَالتهُ السِّباعُ مِنَ السِّباعِ

وقال أيضًا [الكامل]:

فاطْلُبْ هُدُوءًا بالتّقلقلِ واسْتَبِرْ ... بالعيس مِن تحتِ السُّهادِ هُجُودَا
مَا إن تَرَى الأحسابَ بيضًا وُضَّحًا ... إلّا بحيثُ تَرَى المَنايا سُودَا

وجاء في الحديث: أنّ فاطمة جاءت إلى رسول الله ﷺ بكِسْرة خُبْز، فقال: ما هذه؟ قالت: قُرص خبزتُه فلم تطِبْ نفسي حتّى أتيتُك منه بهذه الكِسْرة. فأكلها، وقال: «أمَا إنّها لأوّل طعام دخل فَمِ أبيك منذ ثلاث».

**وكان يقال:** ينابيع الحكمة من الجوع، وكسر عادية النّفس بالمجاهدة.

وقال يحيى بن مُعاذ: لوأنّ الجوع يُبَاع في السُّوق لما كان ينبغي لطُلّاب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشترُوا غيرَه.

وقال سهل بن عبد الله: لما خَلَق اللهُ الدّنيا جَعَل في السَّبَع المعصيةَ والجهلَ،

وجَعَل في الجوع الطّاعةَ والحكمةَ.

وقال يحيى بن مُعاذ: الجوع للمريدين رياضةٌ، وللتّائبين تجربةٌ، وللزُّهّاد سياسةٌ، وللعارفين تَكْرِمةٌ.

وقال أبو سلمان الدّارانيّ: مفتاح الدّنيا الشِّبَع ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال بعضهم: أدب الجوع ألّا ينقصَ من عادتك إلّا مثل أُذُن السِّنَّوْر، هكذا على التّدريج حتّى تصل إلى ما تريد.

**ويقال:** إنّ أبا تُراب النّخشبيّ خرج من البصرة إلى مكّة، فوصل إليها على أكلتَين: أكلةٍ بالبِّبَاج، وأكلة بذات عِرْق.

قالوا: وكان سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ إذا جاع قويَ، وإذا أكل ضَعُف.

وكان منهم مَن يأكل كلّ أربعين يومًا أكْلة واحدة، ومنهم مَن يأكل كلّ ثمانين يومًا أكْلة واحدة.

قالوا: واشتَهى أبو الخير العَسْقلانيّ السّمك سِنين كثيرة، ثمّ تهيّأ له أكلُه من وجه حلالٍ، فلمّا مدّ يده ليأكل أصابت إصبعه شوْكة من شوْك السّمك، فقام وترك الأكل، وقال: يا ربّ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال، فكيف بمن مدّ يده بشهوة إلى الحرام؟

وفي الكتاب العزيز: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1]، فالجملة الأُولى هي التّقوى، والثّانية هي المجاهدة.

وقال النّبيّ ﷺ: «أخوف ما أخاف على أُمّتي اتّباع الهوى وطُول الأَمَل، أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأَمَل فيُنسِي الآخرة».

وسُئِل بعض الصّوفيّة عن المجاهدة، فقال: ذَبْح النّفس بسيوف المخالفة.

وقال: مَن نجمتْ طوارقُ نفسه، أفلت سَوارق أنسه.

---

١ ـ النّازعات / ٤٠ ـ ٤١.

وقال إبراهيم بن شيبان: ما بتُّ تحت سقفٍ ولا في موضع عليه غَلَق[١] أربعين سنة، وكنت أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة[٢] عدس فلم يتّفق، ثمّ حُمِلَتْ إليّ وأنا بالشّام غَضَارة[٣] فيها عدسيّة، فتناولت منها وخرجت، فرأيت قوارير معلّقة فيها شبه أُنموذجات، فظننتها خَلًّا، فقال بعض النّاس: أتنظر إلى هذه وتظنّها خَلًّا! وإنّما هي خمر، وهي أُنموذجات هذه الدّنان ـ لدنان هناك ـ فقلت: قد لَزِمَني فرض الإنكار، فدخلت حانوت ذلك الخمّار لأكسِرَ الدّنَان والجِرار، فحملت إلى ابن طُولون، فأمر بضربي مائتي خَشَبة، وطرحي[٤] في السِّجن، فبقيت مدّة حتّى دخل أبو عبد الله الوبانيّ المغربيّ أُستاذ ذلك البلد، فعَلِم أنّي محبوس، فشفع فيّ، فأُخرجت إليه، فلمّا وقع بصرُه عليّ قال: أيّ شيء فعلتَ؟ فقلت: شبعة عدس ومائتي خشبة، فقال: لقد نجوتَ مجّانًا.

وقال إبراهيم الخوّاص: كنتُ في جبل، فرأيتُ رُمّانًا فاشتهيته، فدنوت فأخذت منه واحدةً، فشققتها فوجدتها حامِضَة، فمضيت وتركت الرُّمّان، فرأيت رجلًا مطروحًا قد اجتمع عليه الزّنابير، فسلّمت عليه، فردّ عليّ باسمي، فقلت: كيف عرفتَني؟ قال: مَن عَرَف الله لم يَخْفَ عليه شيء. فقلت له: أرى لك حالًا مع الله، فلو سألته أن يحميك ويقيك من أذى هذه الزّنابير! فقال: وأرى لك حالًا مع الله، فلو سألتَه أن يقيك من شهوة الرُّمّان، فإنّ لذع الرُّمّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولذع الزّنابير يجد الإنسان ألمه في الدّنيا. فتركته ومضيت على وجهي.

وقال يوسف بن أسباط: لا يمحو الشَّهَوات من القلب إلّا خوفٌ مزعج أو شَوْق مُقْلِق.

---

١ ـ الغلق هنا: الباب.

٢ ـ الشّبعة من الطّعام: قدر ما يشبع به.

٣ ـ الغضارة: القصعة الكبيرة.

٤ ـ كذا في أ، و في ب: «و طرحني».

وقال الخوّاص: مَن تَرَكَ شهوة فلم يجد عِوَضها في قلبه فهو كاذب في تركها.

وقال أبو عليّ الرّباطيّ: صحبت عبد الله المَرْوزيّ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحَبه بلا زاد؛ فلمّا صحبتُه، قال لي: أيُّما أحبّ إليك؟ تكون أنت الأمير أم أنا؟ قلت: بل أنت. فقال: وعليك الطّاعة؟ قلت: نعم. فأخذ مِخْلاةً ووضع فيها زادًا، وحملها على ظَهْره، فكنت إذا قلت له: أعطني حتّى أحملها، قال الأمير: أنا وعليك الطّاعة، قال: فأخذَنا المَطَرُ ليلة، فوقف إلى الصّباح على رأسي وعليه كساء يمنع عنّي المطر، فكنت أقول في نفسي يا ليتني متّ ولم أقل له: أنت الأمير! ثمّ قال لي: إذا صحبت إنسانًا فاصحبه كما رأيتني صحبتك.

أبو الطّيّب المتنبّي [الطّويل]:

ذريني أنالُ ما لا ينالُ مِنَ العُلَى فَصَعب العُلَى في الصَّعْبِ والسَّهْلُ في السّهلِ

تريدينَ إدراكَ المعالي رخيصةً ولابدّ دون الشَّهْد من إبَرِ النَّحلِ

وله أيضًا [الخفيف]:

وإذا كانتِ النّفوسُ كِبَارًا تعبتْ في مُرادِها الأجسامُ[٣]

ومن أمثال العامّة: مَن لم يَغْلِ دماغُه في الصّيف لم تَغْلِ قِدْرُه في الشّتاء.

مَن لم يركَب الأخطار لم ينل الأوطار.

إدراك السُّول وبُلوغ المأمول، بالصّبر على الجوع وفَقْدِ الهُجوع وسَيَلانِ الدُّموع.

**واعلم!** أنّ تقليل المأكول لا رَيْب في أنّه نافع للنّفس والأخلاق، والتّجربة قد دلّت عليه، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكل يغلبه النّوم والكَسِل وبلادة الحواسّ وتتبخّر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة فتتصاعد إلى الدِّماغ فتفسد القُوَى النّفسانيّة.

وأيضًا، فإنّ كثرة المأكل تُزيل الرِّقّة، وتورث القَساوة والسَّبعيّة، والقياس أيضًا

---

١ ـ ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

٢ ـ في الدّيوان : «تريدين لقيان المعالي» .

٣ ـ ديوانه ٣ : ٣٤٥ .

يقتضي ذلك، لأنّ كثرة المزاوَلات سبب لحصول المَلَكات، فالنّفس إذا توفّرت على تدبير الغِذَاء وتصريفه، كان ذلك شغلًا شاغلًا لها، وعائقًا عظيمًا عن أنصبابها إلى الجهة الرّوحانيّة العالية، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغِذَاء إلى حدٍّ يوجب جُوعًا قليلًا، فإنّ الجوع المُفْرِط يورث ضعف الأعضاء الرّئيسة واضطرابها، واختلال قُواها، وذلك يقتضي تشويش النّفس واضطراب الفكر، واختلال العقل، ولذلك تعرض الأخلاط السّوداويّة لمن أفرط عليه الجوع، فإذَن لابدّ من إصلاح أمر الغِذاء، بأن يكون قليل الكمّيّة كثير الكيفيّة، فتؤثّر قلّة كميّته في أنّه لا يشغل النّفس بتدبير الهَضْم عن التّوجّه إلى الجهة العالية الرّوحانيّة، وتُؤثِر كثرة كيفيّته في تدارُك الخَلَل الحاصل له من قلّة الكمّيّة، ويجب أن يكون الغِذَاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرّئيسة، لأنّها هي المهمّة من أعضاء البَدَن، وما دامت باقيةً على كمال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء. (١١ : ١٢٧ ـ ١٣٣)

## [فصل في الرّياضة النّفسيّة وأقسامها]

**واعلم!** أنّ الرّياضة والجوع هي أمر يحتاج إليه المريد الّذي هو بعد في طريق السّلوك إلى الله. وينقسم طالبو هذا الأمر الجليل الشّاقّ إلى أقسام أربعة:

**أحدها:** الّذين مارَسُوا العلوم الإلهيّة وأجهدوا أنفسهم في طلبها والوصول إلى كُنهها بالنّظر الدّقيق في الزّمان الطّويل، فهو لا يحصل لهم شوق شديد، وميلٌ عظيم إلى الجهة العالية الشّريفة، فيحملهم حبّ الكمال على الرّياضة.

**وثانيها:** الأنفُس الّتي هي بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الرّوحانيّة من غير ممارسة عِلْم ولا دِرْبة بنظر وبحث، وقد رأينا مثلَهم كثيرًا وشاهدنا قومًا من العامّة متى سَنَح لهم سانح مشوق، مثل صوت مطرب، أو إنشاد بيت يقع في النّفس، أو سماع كلمةٍ توافق أمرًا في بواطنهم، فإنّه يستولي عليهم الوجد ويشتدّ الحنين، وتغشّاهم غواشٍ لطيفة روحانيّة، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيّات.

**وثالثها:** نفوس حَصَل لها الأمران معًا: الاستعداد الأصليّ، والاشتغال بالعلوم النّظريّة الإلهيّة.

**ورابعها:** النّفوس الّتي لا استعداد لها في الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهيّة، ولكنّهم[1] قومٌ سمعوا كمال هذه الطّريقة، وأنّ السّعادة الإنسانيّة ليست إلّا بالوصول إليها، فمالت نحوها، وحصل لها اعتقاد فيها.

فهذه أقسام المريدين؛ والرّياضة الّتي تليق بكلّ واحدٍ من هذه الأقسام غير الرّياضة اللاّئقة بالقسم الآخر.

ونحتاجُ قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين:

**أحدهما:** أنّ النَّفَحاتِ الإلهيّة دائمة مُستمرّة، وأنّه كلّ مَن توصّل إليها وصل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2]، وقال النّبيّ ﷺ: «إنّ لربّكم في أيّام عصركم نَفَحاتٍ، ألا فتعرّضوا لنَفَحاته».

**وثانيهما:** أنّ النّفوسَ البشريّة في الأكثر مختلفةٌ بالنّوع، فقد تكون بعض النّفوس مستعدّة غاية الاستعداد لهذا المطلب، وربّما لم تكن ألبتّة مستعدّة له، وبين هذين الطّرفين أوساط مختلفة بالضّعف والقوّة.

وإذا تقرّر ذلك، فاعلم! أنّ القسمين الأوّلَين لما اختلفا فيما ذكرناه لا جَرَم اختلفا في الكَسْب والمُكْتَسب.

أمّا الكسب؛ فإنّ صاحب العلم الأُولى به في الأكثر العُزْلة والانقطاع عن الخَلْق، لأنّه قد حصلت له الهداية والرّشاد، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ما هو حاصل. وأمّا صاحب الفطرة الأصليّة من غير عِلْمٍ، فإنّه لا يليق به العُزْلة، لأنّه يحتاج إلى المعلّم والمرشد، فإنّه ليس يكفي الفطرة الأصليّة في الوصول إلى المعالم الإلهيّة والحقائق الرّبّانيّة، ولا بدّ من موقفٍ ومُرْشِدٍ في مبدأ الحال. هذا هو القول

---

١ ـ أ: «وكان».

٢ ـ العنكبوت / ٦٩.

في الكَسْب بالنّظر إليهما.

وأمّا المكتَسب؛ فإنّ صاحب العلم إذا اشتغل بالرّياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كمّيّة وأقلّ كيفيّة ممّا لصاحب الفطرة المجرّدة، أمّا كثرة الكمّيّة فلأنّ قوّته النّظريّة تُعِينه على ذلك، وأمّا قلّة الكيفيّة فلأنّ القوّة النّفسانيّة تتوزّع على تلك الكثرة، وكلّما كانت الكثرة أكثر؛ كان توزّع القوّة إلى أقسام أكثر، وكان كلّ واحدٍ منها أضعف ممّا لوكانت الأقسام أقلّ عددًا. وإذا عرفتَ ذلك عرفت أنّ الأمر في جانب صاحب الفِطْرة الأصليّة بالعكس من ذلك، وهو أنّ مشاهداته ومكاشفاته تكون أقلّ كمّيّة وأكثر كيفيّة.

وأمّا الاستعداد الثّالث؛ وهو النّفس الّتي قد جمعت الفِطْرة الأصليّة والعلوم الإلهيّة النّظريّة بالنّظر، فهي النّفس الشّريفة الجليلة الكاملة.

وهذه الأقسام الثّلاثة مُشتركة في أنّ رياضتَها القلبيّة يجب أن تكون زائدةً في الكَمّ والكَيف على رياضتها البدنيّة، لأنّ الغرض الأصليّ هو رياضة القلب وطهارة النّفس، وإنّما شرعت الرّياضات البدنيّة والعبادات الجسمانيّة لتكون طريقًا إلى تلك الرّياضة الباطنة، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرّياضة البدنيّة عبثًا، لأنّ الوسيلة بعد حصول المتوسّل إليه فضلةٌ مستغنًى عنها، بل ربّما كانت عائقةً عن المقصود. نعم، لا بدّ من المحافظة على الفرائض خاصّة، لئلّا تعتاد النّفس الكَسل، وربّما أفضى ذلك إلى خللٍ في الرّياضة النّفسانيّة؛ ولهذا حُكِي عن كثيرمن كُبراء القوم قلّة الاشتغال بنوافل العبادات.

**وأمّا القسم الرّابع**؛ وهو النّفس الّتي خَلَت عن الوصفَين معًا، فهذه النّفس لا يجب ألّاتكون رياضتها في مبدأ الحال إلّا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور في كُتُب الحكمة الخلقيّة، فإذا لانَت ومَرَنت، واستعدّت للنَّفَحات الإلهيّة حصل لها ذوق ما، فأوجب ذلك الذّوْق شوقًا، فأقبلت بكلّيّتها على مطلوبها. (١١ : ١٣٤ ـ ١٣٦)

## [فصل في أنّ الجوع يؤثّر في صفاء النّفس]

**واعلم!** أنّ السّبب الطّبيعيّ في كون الجوع مؤثّرًا في صفاء النّفس، أنّ البَلْغَم الغالب على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة، وإبطاء الفَهْم لكثرة الأرضيّة فيه، وثقل جوهره، وكثرة ما يتولّد عنه من البخارات الّتي تسدّ المجاري، وتمنع نفوذ الأرواح، ولا ريب أنّ الجوع يقتضي تقليل البَلْغم، لأنّ القوّة الهاضمة إذا لم تجد غِذاءً تهضمه، عملت في الرّطوبة الغريبة الكائنة في الجسد، فكلّما انقطع الغِذاء استمرّ عملها في البلغم الموجود في البدن، فلا تزال تعمل فيه وتُذيبه الحرارة الكائنة في البدن، حتّى يفنى كلّ ما في البدن من الرّطوبات الغريبة، ولا يبقى إلّا الرّطوبات الأصليّة، فإن استمرّ انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوّة الهاضمة في تنقيص الرّطوبات الأصليّة من جوهر البدن؛ فإن كان ذلك يسيرًا وإلى حدٍّ ليس بمَفْرِط، لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الإضرار، وكان ذلك هو غاية الرّياضة الّتي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله: «حتّى دَقّ جَليله ولَطُفَ غَليظه»، وإن أفرط وقع الحَيْف والإجحاف على الرّطوبة الأصليّة، وعَطِب البدن ووقع صاحبه في الدّقّ والذّبول، وذلك منهيٌّ عنه، لأنّه قَتْل للنّفس، فهو كمن يقتل نفسه بالسّيف أو بالسِّكّين. (١١ : ١٣٧)

## [كلامٌ للفلاسفة والحُكَماء في المكاشفات النّاشئة عن الرّياضة]

**واعلم!** أنّ قوله عليه السلام: «وبَرَق له لامعٌ كثير البرق»، هو حقيقة مذهب الحُكَماء، وحقيقة قول الصّوفيّة أصحاب الطّريقة والحقيقة، وقد صرّح به الرّئيس أبو عليّ ابن سينا في كتاب «الإشارات»، فقال في ذكر السّالك إلى مرتبة العرفان: ثمّ إنّه إذا بلغت به الإرادة والرّياضة حدًّا ما عَنَّتْ له خُلْسات من اطّلاع نور الحقّ إليه لذيذة كأنّها بُروقٌ تُومِض إليه ثمّ تخمد عنه، وهي الّتي تُسمّى عندهم أوقاتًا، وكلّ وقتٍ يكتنفه وَجْدٌ إليه، ووجد عليه، ثمّ إنّه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض، ثمّ إنّه ليتوغّل في ذلك حتّى يغشاه في غير الارتياض، فكلّما لَمَح شيئًا عاج منه إلى جانب

القُدس، فتذكّر مِن أمره أمرًا فغَشِيَهُ غاشٍ، فيكاد يرى الحقّ في كلّ شيء، ولعلّه إلى هذا الحدّ تستولي عليه غواشِيه، ويزول هو عن سكينته، ويتنبّه جَليسه لاستنفاره عن قراره؛ فإذا طالت عليه الرّياضة لم تستنفره غاشية؛ وهُدِي للتّأنّس بما هو فيه، ثمّ إنّه لتبلغ به الرّياضة مبلغًا ينقلب له وقته سكينةً فيصير المخطوبُ مألوفًا، والوَميض شهابًا بيّنًا، ويحصل له معارف مستقرّة، كأنّها صحبة مستمرّة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفًا.

فهذه ألفاظ الحكيم أبي عليّ بن سينا في «الإشارات»، وهي كما نراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللاّمعة للعارف.

وقال القُشَيريّ في «الرّسالة» لمّا ذَكَر الحال والأُمور الواردة على العارفين، قال: هي بُروق تلمع ثمّ تخمد، وأنوار تبدو ثمّ تخفى، ما أحلاها لوبقيت مع صاحبها !، ثمّ تمثّل بقول البحتريّ [الرّمل]:

خَطَرَتْ في النّومِ منها خطرةٌ ... خطرةَ البرقِ بدا ثمّ اضمحلّ

أيُّ زَوْرٍ لكِ لو قَصْدًا سَرَى ... ومُلِمٌّ بكِ لو حقًّا فَعَلْ

فهو كما تراه يذكر البروق اللاّمعة حَسْبما ذكره الحكيم، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه حكيم الحكماء وعارف العارفين ومعلّم الصّوفيّة، ولولا أخلاقه وكلامه وتعليمه للنّاس هذا الفنّ تارةً بقوله، وتارةً بفعله، لما اهتدى أحدٌ من هذه الطّائفة ولاعلم كيف يُورد ولاكيف يصدر.

وقال القُشيريّ أيضًا في «الرّسالة»: المحاضرة قبل المكاشفة؛ فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة.

وقال: وهي أرفع الدّرجات. قال: فالمحاضرة حضور القلب، وقد تكون بتواتر البرهان، والإنسان بعد وراء السّتر، وإن كان حاضرًا باستيلاء سلطان الذّكر.

**وأمّا المكاشفة**؛ فهي حضور البيّن غير مفتقر إلى تأمّل الدّليل، وتطلّب السّبيل، ثمّ المشاهدة وهي وجود الحقّ من غير بقاء تهمة.

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجُنَيد: هي وجود الحقّ مع فقدانك.

وقال عمرو بن عثمان المكّيّ: المشاهدة أن تتوالى أنوار التّجلّي على القلب من غير أن يتخلّلها سَتْر ولا انقطاع، كما لو قدّر اتّصال البروق في اللّيلة المظلمة؛ فكما أنّها تصير من ذلك بضوء النّهار، فكذلك القلب إذا دام له التّجلّي مع النّهار فلا ليل.

وأنشدوا شعرًا [مجزوء الكامل]:

لَـيْلِي بوجهـكَ مُشـرِقٌ وظَلامُهُ في النّاسِ سارِ
فالنّاسُ في سَدَفِ الظَّلا م ونحن في ضَوءِ النّهارِ

وقال الثّوريّ: لا تصحّ للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرْق قائم.

وقالوا: إذا طلع الصّباح استغنى عن المصباح.

وأنشدوا أيضًا [الطّويل]:

فلمّا استنار الصّبحُ طَوَّحَ ضوؤُهُ بـأنوارهِ أنـوارَ ضـوءِ الكواكـبِ
فجرّعهمْ كأسًا لَـوِ ابتليتْ لَظى بتجريعِهِ طارتْ كأسرعِ ذاهبِ

كأس وأيّ كأس، تصطلمهم عنهم، وتفنيهم وتخطفهم منهم، ولا تبقيهم، كأس لا تبقي ولا تَذَر تمحو بالكلّيّة، ولا تبقي شظيّة من آثار البشريّة، كما قال قائلهم [البسيط]:

ساروا فَلَم يَبْقَ لا عَينٌ ولا أثَرُ[1]

وقال القُشَيريّ أيضًا: هي ثلاث مراتب: اللّوائح، ثمّ اللّوامع، ثمّ الطّوالع، فاللّوائح كالبروق ما ظهرت حتّى استترت، كما قال القائل [الخفيف]:

فافترقنا حولًا فلمّا التقينا كانَ تسليمُهُ عليّ وداعَا

وأنشدوا [السّريع]:

يـا ذا الّـذي زارَ ومـا زَارا كأنّـهُ مقتـبس نـارَا
مرّ بباب الدّارِ مستعجلًا ما ضَرَّهُ لودخل الدّارَا

---

١ ـ الرّسالة القشيريّة: ٤٣.

ثمّ اللّوامع، وهي أظهر من اللّوائح؛ وليس زوالها بتلك السّرعة، فقد تبقى وقتين وثلاثة، ولكن كما قيل [البسيط]:

العينُ باكيةٌ لم تُشْبِعِ النّظرَا

أو كما قالوا [الخفيف]:

وبلائي من مشهدٍ ومغيبٍ وحبيبٍ منّي بعيدٍ قريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهِهِ العينُ حتّى شَرِقَتْ قبل ريّها برقيبِ

فأصحاب هذا المقام بين رَوْح وفَوْح، لأنّهم بين كشف وستريلمع، ثمّ يقطع لايستقرّ لهم نور النّهار حتّى تكرّ عليه عَساكر اللّيل، فهم كما قيل [الكامل]:

واللّيلُ يَشْملُنا بفاضلِ بُرْدِهِ والصّبحُ يَلْحفُنا رِداءً مذهبَا

ثمّ الطّوالع وهي أبقى وقتًا، وأقوى سلطانًا، وأدوم مكثًا، وأذهب للظّلمة، وأنفى للتّهمّة[1]. أفلا ترى كلام القوم كلّه مشحون بالبروق واللّمعان.

وكان ممّا نقم حامد بن العبّاس وزير المقتدر وعليّ بن عيسى الجرّاح وزيره أيضًا على الحلّاج أنّهما وجدا في كُتُبه لفظ «النّور الشّعْشَعانيّ» وذلك لجهالتهما مراد القوم واصطلاحهم، ومَن جهل أمرًا عاداه.

ثمّ قال عليه السلام: «وتدافعته الأبواب إلى باب السّلامة ودار الإقامة» أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه، حتّى وصل، وتلك المقامات معروفة عند أهلها ومَن له أُنس بها، وسنذكرها فيما بعد.

ثمّ قال: «وثبتت رِجْلاه بطمأنينة بَدَنه في قرار الأمن والرّاحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه »أي كانت الرّاحة الكلّيّة والسّعادة الأبديّة مستثمرة من ذلك التّعب الّذي تحمّله لمّا استعمل قلبه، وراض جوارحه ونفسه، حتّى وصل، كما قيل [الرّجز]:

---

١ ـ الرّسالة القشيريّة: ٤٣ ـ ٤٤.

عِندَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُرَى وتَنجَلي عَنّا غَيَابَاتُ الكَرَى

وقال الشّاعر[الطّويل]:

تقولُ سُلَيمَى لو أقمتَ بأرْضنَا وَلَمْ تدرِ أنّي للمقامِ أطَوّفُ

وقال آخر[الكامل]:

ما ابيَضَّ وَجْهُ المَرْءِ في طلب العُلَى حتّى يُسَوَّدَ وَجْهُهُ في البيدِ

وقال [الكامل]:

فاطْلُب هُدُوءًا بالتَّقَلْقُلِ واستَبِرْ بالعِيسِ من تحتِ السُّهادِ هُجُودَا

ما إن تَرَى الأحسابَ بيضًا وُضَّحًا إلّا بحيثُ تَرَى المنايا سودَا

(١١ : ١٢٧ ـ ١٤١)

**(كتابه عليه السلام: ٤٥) ... إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ ... اعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذْلِّينِي، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَايْمُ اللهِ يَمِينًا أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُومًا، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا ... .**

الشّرح: ... ثمّ حلف واستثنى بالمشيئة أدبًا كما أدّب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله ليروضنّ نفسه أي يدرّبها بالجوع، والجوع هو أصل الرّياضة عند الحكماء وأرباب الطّريقة. (١٦: ٢٩٥)

## الفصل الثّامن والخمسون:
## [في الزُّهد والآثار والأخبار الواردة فيها]

**(الخطبة: ٨٠) أَيُّهَا النَّاسُ؛ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِندَ النِّعَمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِندَ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلَاتَنسَوْا عِندَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ.**

**الشّرح:** فسّر عليه السلام لفظ الزّهادة، وهي الزّهد، بثلاثة أُمور، وهي: قصر الأمل، وشكر النّعمة، والورع عن المحارم، فقال: لا يُسمَّى الزّاهد زاهدًا حتّى يستكمل هذه الأُمور الثّلاثة، ثمّ قال: «فإن عَزَب ذلك عنكم»، أي بَعُدَ، فأمران من الثّلاثة لابدّ منهما، وهما الورع وشكر النّعم، جعلهما آكد وأهمّ من قصر الأمل.

واعلم! أنّ الزّهد في العُرف المشهور هو الإعراض عن متاع الدّنيا وطيّباتها، لكنّه لما كانت الأُمور الثّلاثة طريقًا موطّئة إلى ذلك، أطلق عليه السلام لفظ الزّهد عليها على وجه المجاز...

قد أوضح لكم بالحُجَج النّيرّة المشرقة ما يجب اجتنابُه، وما يجب فعله، فإن خالفتم استوجبتم العقوبة، فكان له في تعذيبكم العذر.

**والآثار الواردة في الزُّهد كثيرة:**

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفلح الزّاهد في الدّنيا، حَظِيَ بعزّ العاجلة وبثواب الآخرة».

وقال صلى الله عليه وآله: «مَن أصبحت الدّنيا همّه وسَدَمه، نزع الله الغِنَى من قلبه، وصيّر الفقر بين عينَيه، ولم يأته من الدّنيا إلّا ما كُتِب له، ومَن أصبحت الآخرة همّه وسَدَمه، نزع الله الفقر عن قلبه، وصيّر الغِنَى بين عينيه، وأتتْه الدّنيا وهي راغمة».

وقال عليه السلام للضّحّاك بن سُفيان: ما طعامُك؟ قال: اللّحم واللّبن. قال: ثمّ يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما علمت. قال: فإنّ الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلًا للدّنيا.

وكان الفُضَيل بن عِياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه: انطلقوا حتّى أُريَكم الدّنيا، فيجيء بهم إلى المزبلة، فيقول: انظروا إلى عِنَبهم وسَمْنهم ودجاجهم وبَطّهم! صاروا إلى ما ترون.

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام: الدّنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها.

سُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ اَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْاِسْلَامِ﴾[1]، فقال: إذا دخل النّور القلبَ انفسح، فذلك شرح الصّدر. فقيل: أفلذلك علامة يُعرَف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتّجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

قالوا: أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء: اتّخِذِ الدّنيا ظِئْرًا، واتّخِذِ الآخرة أُمًّا.

الشّعبيّ: ما أعلم لنا وللدّنيا مَثَلًا إلّا قول كُثَيِّر[الطّويل]:

أسيئي بنا أو أحسِني لا ملومةً لَدينا ولا مَقلِيّةً إن تقلّتِ

**بعض الصّالحين:** المستغني عن الدّنيا بالدّنيا، كالمُطْفِئ النّار بالتِّبن.

وفي بعض الكُتُب القديمة الإلهيّة: قال الله للدّنيا: مَن خَدَمني فاخْدِميه، ومَن خَدَمَكِ فاستخدميه.

دخل محمّد بن واسع على قُتَيبة بن مسلم، وعليه مدرعة من صوف، فقال: ما هذه؟ فسكت، فأعاد عليه السّؤال، فقال: أكره أن أقول: زهدًا فأزكّي نفسي، أو فقرًا فأشكو ربّي.

قيل في صفة الدّنيا والآخرة: هما كضرّتَين إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأُخرى.

قيل لمحمّد بن واسع: إنّك لترضى بالدُّون، قال: إنّما رضي بالدُّون مَن رضي بالدّنيا.

خطب أعرابيّ ـ كان عاملًا لجعفر بن سليمان على ضَرّيّة ـ يوم جمعة خطبةً لم يُسمع أوجَز منها ولا أفصح، فقال: إنّ الدّنيا دار بلاغ، وإنّ الآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمستقرّكم، ولا تهتِكوا أستارَكم عند مَن لا تخفى عليه أسراركم، وأخْرِجُوا من الدّنيا قلوبَكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها جئتم، ولغيرها خُلِقتم، إنّ المرء إذا هلك قال النّاس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدّم؟ فللّه آثاركم! قدّموا بعضًا يكن

---

١ ـ الأنعام / ١٢٥.

لكم، ولاتؤخّروا كُلًّا فيكون عليكم، أقول قولي هذا؛ وأستغفرالله، والمدعوّله الخليفة، ثمّ الأمير جعفر. ونزل.

أبو حازم الأعرج: الدّنيا كلّها غُموم، فما كان فيها سُرورًا فهو رِبح.

محمّد ابن الحنفيّة: مَن عزّت عليه نفسه، هانت عليه الدّنيا.

قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام: مَن أعظم النّاس خَطَرًا؟ قال: مَن لم يَرالدّنيا لنفسه خَطَرًا.

قال المسيح عليه السلام لأصحابه: حُبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ، واقتناء المال فيها داءٌ عظيمٌ. قالوا له: كيف ذلك؟ قال: لايسلم صاحبه من البغي والكبر. قيل: فإن سَلِم منهما؟ قال: يشغلُه إصلاحه عن ذِكرِالله.

أشرف أبو الدَّرداء على أهل دِمَشق، فقال: يا أهل دِمَشق، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لاتأكلون، وتأمُلون ما لا تدركون! أينَ مَن كان قبلكم؟ بَنَوْا شديدًا، وأمّلوا بعيدًا، وجمعوا كثيرًا، فأصبحتْ مساكنهم قُبورًا، وجمْعُهم بُورًا، وأمَلُهم غُرورًا.

قال المأمون: لوسُئِلتِ الدّنيا عن نفسها، لم تسطع أن تصف نفسها بأحسنَ مِن قول الشّاعر[الطّويل]:

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تَكَشَّفتْ  لَهُ عن عدوٍّ في ثياب صديقِ[1]

وقال رجل: يارسول الله، كيف لي أن أعلم أمري؟ قال: «إذا أردتَ شيئًا من أُمور الدّنيا فعَسُرَعليك، فاعْلم أنّك بخير، وإذا أردتَ شيئًا من أمرالدّنيا، فيسّرلك، فاعْلم أنّه شرّلك».

قال رجل ليونس بن عُبَيد: إنّ فلانًا يعمل بعمل الحسن البَصْريّ، فقال: والله ما أعرف أحدًا يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؟ قيل: فصِفْه لنا. قال: كان إذا أقْبَلَ فكأنّه أقْبَلَ من دفنِ حبيب، وإذا جلس فكأنّه أسيرٌ أُجلِس لضَرْب عُنُقه، وإذا

---

١ ـ لأبي نواس، ديوانه: ١٩٢.

ذُكرتِ النّار فكأنّهالم تُخلَق إلّا له.

وقال بعض الصّالحين لرجل: يا فلان، هل أنت على حالٍ أنت فيها مستعدّ للموت؟ قال: لا. قال: فهل أنت عالم بأنّك تنتقل إلى حالٍ ترضى به؟ قال: لا، قال: أفتعلم بعد الموت دارًا فيها مُستعتَب[1]؟ قال: لا، قال: أفتأمن الموت أن يأتيَك صباحًا أومَساءً؟ قال: لا، قال: أفيرضى بهذه الحال عاقل!

وقال أبو الدّرداء: أضحكتني ثلاثٌ، وأبكتني ثلاثٌ: أضحكني مؤمّل الدّنيا والموت يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفول عنه، وضاحكٌ مِلْءَ فيه لايدري أراضٍ عنه الله أم ساخط! وأبكاني فراق محمّد وحزبه، وأبكاني هَوْلُ الموت، وأبكاني هَوْلُ الموقف، يوم تبدُوالسّرائرحين لا أدري أيُؤخَذ بي إلى جَنّةٍ أم إلى نار!

وكان عبد الله بن صغيريقول: أتضحك، ولعلّ أكفانك قد خرجتَ من عند القَصّار!

**وكان يقال:** مَن أتى الذّنب ضاحكًا، دخل النّار باكيًا.

وكان مالك بن دينار يقول: وددت أنّ رزقي في حصاة أمصّها حتّى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتّى استحييتُ من ربّي.

وقال رسول الله ﷺ: «لايبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يَدَعَ ما ليس به بأس حَذَرًا عمّا به البأس».

وقال المسيح عليه السلام: بحقّ أقول لكم، إنّ مَن طلب الفِرْدَوس، فخُبْزالشّعيروالنّوم على المزابل مع الكلاب له كثير.

وأوصى ابن محرز رجلًا، فقال: إن استطعتَ أن تَعْرِف ولاتُعْرَف، وتَسْأَل ولاتُسأَل، وتَمْشِي ولايُمْشَى إليك، فافعل.

وقال عليّ عليه السلام: طُوبَى لمن عَرَف النّاس ولم يعرفوه، تعجّلت له منيّته، وقَلّ تُراثُه، وفَقَد باكياته.

---

١ ـ مستعتب: رضا.

وكان يقال: في الجوع ثلاث خصالٍ: حياةٌ للقلب، ومذلّة للنّفس، ويورث العقل الدّقيق من المعاني.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أُريد أن تقبل منّي دراهم. قال: إن كنتَ غنيًّا قبلتُها منك، وإن كنتَ فقيرًا لم أقبلها. قال: فإنّي غنيّ، قال: كم تملك؟ قال: ألفَي درهم. قال: أفيسرُّك أن تكون أربعة آلاف؟ قال: نعم. قال: لستَ بغنيّ ودراهمك لا أقبلها.

وكان أبو حازم الأعرج إذا نَظَر إلى الفاكهة في السُّوق، قال: مَوعدكِ الجنّة إن شاء الله تعالى.

ومرّ أبو حازم بالقصّابين، فقال له رجل منهم: يا أبا حازم، هذا سَمين فاشترِ منه. قال: ليس عندي دراهم. قال: أنا أنظِرُك. قال: فأُفكّر ساعة. ثمّ قال: أنا أنظِرُ نفسي.

نزل الحَجّاج في يوم حارٍّ على بعض المياه، ودعا بالغَدَاء، وقال لحاجبه: انظر مَن يتغدّى معي، واجْهَدْ ألّا يكون من أهل الدّنيا. فرأى الحاجب أعرابيًّا نائمًا، عليه شملة منْ شَعْر، فضربه برِجْله ، وقال: أجِبِ الأمير. فأتاه، فدعاه الحجّاج إلى الأكل، فقال: دعاني مَن هو خيرٌ من الأمير فأجبته. قال: مَن هو؟ قال: الله، دعاني إلى الصّوم فصُمْتُ. قال: أفي هذا اليوم الحارّ؟ قال: نار جهنّم أشدّ حَرًّا. قال: افْطِرْ وتَصومُ غدًا. قال: إن ضمنتَ لي البقاء إلى غدٍ. قال: ليس ذلك إليّ، قال: فكيف أدَعُ عاجلًا لآجل لا تقدر عليه! قال: إنّه طعام طيّب. قال: إنّك لم تطيّبه ولا الخبّاز، ولكنّ العافية طيّبته لك.

وقال شَبيب: كنّا سنةً في طريق مكّة، فجاء أعرابيّ في يوم صائفٍ شديد الحَرّ، ومعه جارية سَوْداء، وصحيفة، فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم. وحضر غداؤنا، فقلنا له: لو دخلتَ فأصبت من طعامنا! قال: إنّي صائم. قلنا: الحَرّ وشدّته، وجفاء البادية. فقال: إنّ الدّنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولاأكون فيها، وما أحبّ أن أغبن أمامي. ثمّ نبذ إلينا الصّحيفة، فقال للكاتب: اكْتُبْ ولا تَزِد على ما أمليه عليك: هذا ما أعْتَق عبد الله بن عَقيل الكلبيّ، أعتق جاريةً له سوداء اسمها لؤلؤة، ابتغاء وجه الله وجواز العَقَبة، وإنّه لا سبيل له عليها إلّا سبيل الوَلاء، والمنّة لله علينا وعليها

واحدة.

قال الأصمعيّ: فحُدِّث بذلك الرّشيد، فأمر أن يعتّق عنه ألف نَسَمةٍ، ويكتب لهم هذا الكتاب.

وقال خالد بن صَفْوان، بِتُّ ليلتي هذه أتمنّى، فكبست البحر الأخضر بالذّهب الأحمر، فإذا الّذي يلقاني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران[1].

ورأى رجل رجلًا من ولد معاوية يعمل على بعيرٍ له، فقال: هذا بعد ما كنتم فيه من الدّنيا! قال: رحمك الله يابن أخي، ما فقدنا إلّا الفضول.

وقال الحسن: يا بن آدم، إنّما أنت أيّام مجموعة، كلّما ذهب يوم ذهب بعضُك.

قال يونس الكاتب: لو قيل بيت دُرَيد في زاهد كان به جديرًا [الطّويل]:

قليلُ التّشكّي للمصيباتِ مِنَ اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في

وقال الحسن: ما أطال عبدُ الأملَ إلّا أساءَ العمل.

وقال رجل للفُضَيل بن عياض: ما أعجب الأشياء؟ قال: قلبٌ عرف الله ثمّ عصاه.

قال وَكيع: ما أحسنتُ قطّ إلى أحدٍ، ولا أسأتُ إليه. قيل: كيف؟ قال: لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[3].

وقال الحسن لرجلٍ: إن استطعتَ ألّا تسيء إلى أحدٍ ممّن تحبّه، فافعل. قال الرّجل: يا أبا سعيد[4]، أو يسيء المرء إلى مَن يحبّه؟ قال: نعم، نفسك أحبّ النّفوس إليك، فإذا عصيتَ الله فقد أسأتَ إليها.

وكان مالك بن دينار إذا منع نفسه شيئًا من الشّهوات، قال: اصْبري، فوالله ما

---

١ ـ الطّمر: الثّوب الخَلَق.

٢ ـ من كلمة له في ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٨ ، يرثي أخاه عبد الله.

٣ ـ الإسراء / ٧.

٤ ـ كنية الحسن البصريّ.

منعتُك إلّا لكرامتك عليّ.

قام رسول الله ﷺ اللّيل، حتّى تورّمت قَدَماه، فقيل له: يارسول الله، أتفعل هذا، وقد غفر الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شَكورًا»!

وقال عبد الله بن مسعود: لا يكونن أحدكم جيفة ليله، قُطْرُب نهاره.

**وكان يقال:** مَن كَثُرت صلاته باللّيل حَسُن وجهه بالنّهار.

وكان مالك بن دينار يقول في قِصَصه: ما أشدّ فطام الكبر! وينشد [أحذ الكامل]:

أتروضُ عِرْسك بعد ما هَرِمَتْ ومِن العَناء رياضةُ الهَرِمِ

وقال آخر [مجزوء الكامل]:

إن كنتَ تؤمنُ بالقيـا مة واجترأتَ على الخطيَّهْ

فلقدْ هلكتَ وإن جَحَدْ تَ فـذاكَ أعظـمُ للبليَّـهْ

(٦ : ٢٣١ ـ ٢٣٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَلَاتَرْغَبَنَّ فِيمَن زَهِدَ عَنكَ، وَلَايَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَاتكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «لا ترغبنّ فيمن زَهِد فيك»، الرّغبة في الزّاهد هي الدّاء العَياء، قال العبّاس بن الأحنف [الكامل]:

ما زِلْتُ أزْهَدُ في مودّةِ راغبٍ حتّى ابتليتُ برغبةٍ في زاهدِ

هذا هو الدّاء الّذي ضاقتْ بهِ حِيَلُ الطّبيبِ وطالَ يأسُ العَائدِ

وقد قال الشّعراء المتقدّمون والمتأخّرون فأكثروا، نحو قولهم [الطّويل]:

وفي النّاسِ إن رثّتْ حَبَالُكَ واصِلٌ وفي الأرضِ عَن دارِ القِلَى مُتَحَوَّلُ

وقول تأبّط شرًّا [البسيط]:

إنّي إذا خُلّةٌ ضنّتْ بنائلها وأمسكَتْ بضَعيفِ الحَبْلِ أخذاقِ
نجوتُ منها نجائي من بجيلةَ إذْ ألقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أزواقِ

(١٦: ١١٠ ـ ١١١)

**(الحكمة: ٤) الأصل: الْعَجْزُ آفَةٌ وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.**

**الشّرح:** فهذه فصول خمسة: ... [ثمّ ذكر الفصل الأول في «العجز» كما سيجيء عنه، والفصل الثّاني في «الصّبر»، كما تقدّم عنه، وقال:]

الفصل الثّالث: قوله: «والزّهد ثروة»، وهذا حقّ، لأنّ الثّروة ما استغنى به الإنسان عن النّاس، ولا غناء عنهم كالزّهد في دنياهم، فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر.

ورُوي أنّ عليًّا عليه السلام قال لعمر بن الخطّاب أوّل ما وَلي الخلافة: إن سرّك أن تلحق بصاحبَيك فقصّر الأمل، وكُلْ دون الشِّبع، وارْقع القميص، واخْصف النَّعل، واستغن عن النّاس بفقرك تلحق بهما.

وقف مَلِك على سُقراط وهو في المشرفة قد أسند ظهره إلى جُبّ كان يأوي إليه، فقال له: سَلْ حاجتك، فقال: حاجتي أن تتنحّى عنّي، فقد منعني ظلّك المرفق بالشّمس. فسأله عن الجُبّ، قال: آوى إليه. قال: فإن انكسر الجُبّ لم ينكسر المكان.

**وكان يقال:** الزُّهد في الدّنيا هو الزّهد في المحمدة والرّياسة، لا في المطعم والمشرب، وعند العارفين: الزّهد ترك كلّ شيء يشغلك عن الله.

**وكان يقال:** العالم إذا لم يكن زاهدًا لكان عقوبة لأهل زمانه، لأنّهم يقولون: لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزّهد لزهد، فهم يقتدون بزهده في الزّهد. (١٨ : ٩١)

**(الحكمة: ٢٨) الأصل: أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.**

**الشّرح:** إنّما كان كذلك، لأنّ الجَهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلّ أن يَسلم

من مخالطة الرّياء، وقد تقدّم لنا في الرّياء أقوال مُقْنِعة.

رأى المنصور رجلًا واقفًا ببابه، فقال: مثل هذا الدّرهم بين عينيك وأنت واقف ببابنا! فقال الرّبيع: نعم، لأنّه ضرب على غير السّكّة. شاعر[الخفيف]:

مَعْشرٌ أثبَتَ الصّلاةَ عليهمْ لجِبـــاهٍ يشـــقُّها المحـــرابُ

عَمَرُوا موضعَ التّصنّعِ منهمْ ومكانُ الإخلاصِ منهمْ خَرابُ

(١٨ : ١٣٩)

**(الحكمة: ١٠٩) ... وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ، وَلَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ.**

**الشّرح:** ... ولا ريب أنّ مَن يزهد في الحرام أفضل ممّن يزهد في المباحات، كالمآكل اللّذيذة، والملابس النّاعمة. (١٨ : ٢٧٧)

**(الحكمة: ٣٩٧) الأصل: ازْهَدْ فِي الدُّنيَا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا، وَلَاتَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنكَ.**

**الشّرح:** أمره بالزّهد في الدّنيا، وجعل جزاء الشّرط تبصير الله تعالى له عورات الدّنيا، وهذا حقّ، لأنّ الرّاغب في الدّنيا عاشق لها، والعاشق لا يرى عيب معشوقه، كما قال القائل [الطّويل]:

وعينُ الرّضا عن كلِّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنّ عينَ السُّخطِ تُبْدِي المَساوِيَا

فإذا زَهِد فيها فقد سخطها وإذا سخطها أبصَرَ عيوبها مُشاهدةً لا رواية.

ثمّ نهاه عن الغفلة، وقال له: إنّك غير مغفول عنك، فلا تغفل أنتَ عن نفسك، فإنّ أحقّ النّاس وأولاهم ألّا يغفل عن نفسه مَن ليس بمغفول عنه، ومَن عليه رقيب شهيدٌ يناقشه على الفتيل والنّقير. (١٩ : ٣٣٩)

(الحكمة: ٤٤٥) الأصل: الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرآنِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]، وَمَن لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي، فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.

الشّرح: قد تقدّم القول في هذيْن المعنيَيْن بما فيه كفاية. (٢٠ : ٨٧)

(الحكمة: ٤٥٧): وقال عليه السلام: زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ.

الشّرح: أي نقصان حظّ لك، وذلك لأنّه ليس من حقّ مَن رغب فيك أن تَزْهَد فيه، لأنّ الإحسان لا يكافأ بالإساءة، وللقصد حُرْمة، وللأمل ذِمام، ومَن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك وأمّلك، فلا يجوز رَفْضه وإطراحه والزّهد فيه، وإذا زَهدتَ فيه فذلك لنقصان حظّك لا لنقصان حظّه، فأمّا رغبتك في زاهدٍ فيك فمذلّة، لأنّك تطرح نفسَك لمن لا يعبأ بك، وهذا ذُلٌّ وصِغارٌ.

وقال العبّاس بن الأحنف في نسيبه، وكان جيّد النّسيب [الكامل]:

ما زلتُ أزْهَدُ في مودّةِ راغبٍ ... حتّى ابتُليتُ برغبةٍ في زاهدِ

هذا هو الدّاءُ الّذي ضاقتْ بِهِ ... حِيَلُ الطّبيبِ وطالَ يأسُ العَائِدِ

أي ما زلت عزيزًا حتّى أذلّني الحبّ. (٢٠ : ١٠١)

## [في العُبّاد والزُّهّاد والعارفين وأحوالهم]

(الخطبة: ٨٦) ومن خطبة له عليه السلام:

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ مِن أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ

---

١ ـ الحديد / ٢٣.

بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ.

نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِن عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلًا، وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدَدًا.

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وتَخَلَّى عَنِ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا انفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِن صِفَةِ الْعَمَى وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِن مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى.

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ.

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، ويَسْكُتُ فَيَسْلَمُ.

قَدْ أَخْلَصَ لِلّٰهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِن مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ. قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَن نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِن زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنزِلُهُ.

**الشّرح:** ... **واعلم!** أنّ هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطّريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى.

والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جدًّا، مناسبة للنّبوّة ويختصّ الله تعالى بها مَن يُقرّبه إليه من خلقه.

والأولياء على طبقات ثلاث:

**الطّبقة الأُولى:** حالُ العابد، وهو صاحب الصّلاة الكثيرة، والصّوم الدّائم، والحجّ

والصَدقة.

**والطّبقة الثّانية:** حال الزّاهد، وهو المعرض عن ملاذّ الدّنيا وطيّباتها، تقنِعه الكِسرة، تستره الخِرقة، لا مال ولا زوجة ولا ولد.

**والطّبقة الثّالثة:** حال العارف، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه، والبارئ سبحانه متمثِّل في نفسه تمثّل المعشوق في ذات العاشق. وهو أرفع الطّبقات، وبعده الزّاهد.

**وأمّا العابد؛** فهو أدْونُها، وذلك لأنّ العابد مُعامل كالتّاجر، يعبُد ليثاب، ويُتْعب نفسه ليرتاح: فهو يُعطي من نفسه شيئًا ويطلب ثمنه وعِوَضه، وقد يكون العابد غنيًّا موسرًا، كثير المال والولد، فليستْ حاله من أحوال الكمال.

**وأمّا الزّاهد؛** فإنّه احتقر الدّنيا وعروضها وقَيْناتها، فخلصت نفسه من دناءة المطامع. وصار عزيزًا مَلِكًا، لا سلطان عليه لنفسه ولالغيره، فاستراح من الذُّلّ والهَوان، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت، فكان أقرب إلى السّلامة والنّجاة من العابد الغنيّ الموسر.

**وأمّا العارف؛** فإنّه بالحال الّتي وصفناها، ويستلزم مع جودها أن يكون زاهدًا، لأنّه لايتصوّر العرفان مع تعلّق النّفس بملاذّ الدّنيا وشهواتها.

نعم، قد يحصل بعضُ العرفان لبعض العلماء الفُضَلاء، مع تعلّقهم بشهوات الدّنيا، ولكنّهم لايكونون كاملين في أحوالهم، وإنّما تحصل الحالة الكاملة لمن رَفِض الدّنيا وتخلّى عنها، وتستلزم الحالة المذكورة أيضًا أن يكون عابدًا عبادةً ما، وليس يشترط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة، بل الإكثار من العبادة حجاب كما قيل، ولكن لابدّ من القيام بالفرائض وشيء يسير من النّوافل.

**واعلم!** أنّ العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورُسُله وكُتُبه، وبالحِكمة المودعة في نظام العالَم، لا سيّما الأفلاك والكواكب، وتركيب طبقات

العناصر، والأحكام البيّنة وفي تركيب الأبدان الإنسانيّة. فَمَن حصل له ذلك، فهو العارف، فإن لم يحصل له ذلك، فهو ناقص العرفان، وإن انضمّ إلى ذلك استشعاره جلال الله تعالى وعظمته، ورياضة النّفس والمجاهدة، والصّبر والرّضا والتّوكّل، فقد ارتفع طبقه أُخرى، فإن حصل له بعد ذلك الحبّ والوَجْد، فقد ارتفع طبقة أُخرى، فإن حصل له بعد ذلك الإعراض عن كلّ شيء سوى الله، وأن يصير مسلوبًا عن الموجودات كلّها، فلا يشعر إلّا بنفسه وبالله تعالى، فقد ارتفع طبقة أُخرى، وهي أرفع الطّبقات.

وهناك طبقة أُخرى يذكرونها، وهي أن يسلب عن نفسه أيضًا، فلا يكون له شعور بها أصلًا، وإنّما يكون شاعرًا بالقيّوم الأوّل سبحانه لا غير، وهذه درجة الاتّحاد، بأن تصير الذّاتان ذاتًا واحدةً.

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخّرين أيضًا، وهو مقام صعب، لاتثبت العقول لتصوّره واكتناهه.

**واعلم!** أنّ هذه الصّفات والشّروط والنّعوت الّتي ذكرها في شرح حال العارف، إنّما يعني بها نفسه عليه السلام، وهو من الكلام الّذي له ظاهر وباطن، فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معيّن، وهو نفسه عليه السلام. وسيأتي في آخر الخطبة ما يدلّ على ذلك.

ونحن نذكر الصّفات الّتي أشار عليه السلام إليها واحدةً واحدةً:

**فأوّلها:** أن يكون عبدًا أعانه الله على نفسه، ومعنى ذلك أن يخصّه بألطاف، يختار عندها الحَسَن ويتجنّب القبيح، فكأنّه أقام النّفس في مقام العدوّ، وأقام الألطاف مقام المعونة الّتي يمدّه الله سبحانه بها، فيُكْسِر عادية العدوّ المذكور، وبهذا الاعتبار سَمّى قومٌ من المتكلّمين اللّطف عونًا.

**وثانيها:** أن يستشعر الحزن، أي يحزن على الأيّام الماضية، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ما اكتسبه.

**وثالثها:** أن يتجلببَ الخوف، أي يخاف من الإعراض عنه، بأن يصدر عنه ما يمحوه من جريدة المخلصين.

**ورابعها:** أن يُعِدّ القِرَى لضيف المنيّة، وذلك بإقامة وظائف العبادة.

**وخامسها:** أن يقرّب على نفسه البعيد، وذلك بأن يمثل الموت بين عينيه صباحًا ومساءً، وألّا يطيل الأمل.

**وسادسها:** أن يهوّن عليه الشّدائد، وذلك باحتمال كُلَف المجاهدة ورياضة النّفس على عمل المشاقّ.

**وسابعها:** أن يكون قد نظر فأبصر، وذلك بترتيب المقدّمات المطابقة لمتعلّقاتها ترتيبًا صحيحًا، لتنتج العلم اليقينيّ.

**وثامنها:** أن يذكر الله تعالى فيستكثر من ذكره، لأنّ ذكره سبحانه والإكثار منه، يقتضي سكون النّفس وطمأنينتها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

**وتاسعها:** أن يرتوي من حبّ الله تعالى، وهو العَذْب الفرات، الّذي سهّل موارده على مَنِ انتخبه الله، وجعله أهلًا للوصول إليه، فشرب منه ونَهَل، وسَلَك طريقًا لا عَثار فيه ولا وَعْث.

**وعاشرها:** أن يخلَعَ سرابيلَ الشّهوات، لأنّ الشّهوات تُصدِئ مرآة العقل، فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغي، وكذلك الغضب.

**وحادي عشرها:** أن يتخلّى من الهُموم كلّها، لأنّها تزيّدات وقواطع عن المطلوب، إلّا همًّا واحدًا وهو همّه بمولاه الّذي لذّته وسروره الاهتمام به، والتّفرّد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته، فحينئذٍ يخرج عن صفة أهل العَمَى، ومن مشاركة أهل الهَوَى، لأنّه قد امتاز عنهم بهذه المرتبة والخاصّيّة الّتي حصلت له، فصار مفتاحًا لباب الهُدَى، ومِغلاقًا لباب الضّلال والرَّدَى، قد أبصر طريق الهدى وسَلَك سبيله وعرف مَناره

---

١ ـ الرّعد / ٢٨ .

وقطع غِماره.

**وثاني عشرها:** أن ينصِبَ نفسه لله في أرفع الأُمور، وهو الخلوة به، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره، حتّى تتكيّف نفسه بتلك الكيفيّة العظيمة الإشراق، فهذا أرفع الأُمور وأجلّها وأعظمها، وقد رَمَز في هذا الفصل ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر، وهو فقه النّفس في الدِّين والأُمور الشّرعيّة النّافعة للنّاس في دنياهم وأُخراهم، أمّا في دنياهم: فلرَدْع المُفْسِد وكفّ الظّالم، وأمّا في أُخراهم: فللفوز بالسّعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهيّة. فقال: «في إصدار كلّ وارد عليه»، أي في فتيا كلّ مستفتٍ له، وهداية كلّ مسترشد له في الدِّين، ثمّ قال: «وتصيير كلّ فرع إلى أصله». ويمكن أن يحتجّ بهذا مَن قال بالقياس، ويمكن أن يقال: إنّه لم يُرد ذلك، بل أراد تخريج الفروع العقليّة، وردّها إلى أُصولها، كما يتكلّف أصحابنا القول في بيان حكمة القديم تعالى، في الآلام وذبح الحيوانات، ردًّا له إلى أصل العدل، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح.

**وثالث عشرها:** أن يكون مصباحًا لظلمات الضّلال، كشّافًا لعَشَوات الشّبَه، مفتاحًا لمبهمات الشّكوك المستغلقة، دفّاعًا لمعضلات الاحتجاجات العقليّة الدّقيقة الغامضة، دليلًا في فَلَوات الأنظار الصّعبة المشتبهة. ولم يكن في أصحاب محمّد ﷺ أحد بهذه الصّفة إلّا هو.

**ورابع عشرها:** أن يقول مخاطبًا لغيره فيُفهمه ما خاطبه به، وأن يسكت فيَسلم، وذلك لأنّه ليس كلّ قائل مُفْهِمًا، ولا كلّ ساكت سالمًا.

**وخامس عشرها:** أن يكون قد أخلص لله فاستخلصه الله، والإخلاص لله مقام عظيم جدًّا، وهو تنزُّه الأفعال عن الرّياء، وألّا يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه، ولهذا كان بعض الصّالحين يصبح من طول العبادة نَصِبًا قَشِفًا، فيكتحلُ ويدّهن، ليذهب بذلك أثر العبادة عنه ... .

**وسادس عشرها:** أن يكون قد ألزم نفسه العدل، والعدالة: مَلَكَة تصدر بها عن النّفس الأفعال الفاضلة خُلقًا لا تخلّقًا. وأقسام العدالة ثلاثة، هي الأُصول وما عدَاها

من الفضائل فروعٌ عليها:

**الأُولى:** الشّجاعة، ويدخل فيها السّخاء، لأنّه شجاعة وتهوين للمال، كما أنّ الشّجاعة الأصليّة تهوين للنّفس، فالشّجاع في الحرب جواد بنفسه، والجواد بالمال شجاع في إنفاقه، ولهذا قال الطّائيّ [الكامل]:

أيقنتُ أنّ مِنَ السّماحِ شجاعةً تُدمِي وأنّ مِنَ الشّجاعةِ جُودا

**والثّانية:** الفقه، ويدخل فيها القناعة والزّهد والعزلة.

**والثّالثة:** الحكمة، وهي أشرفها. ولم تحصل العدالة الكاملة لأحدٍ من البشر بعد رسول الله ﷺ إلّا لهذا الرّجل، ومَنْ أنصف عَلِم صحّة ذلك، فإنّ شجاعته وجوده، وعفّته وقناعته وزهده، يُضرَب بها الأمثال .... (٦ : ٣٦٥ ـ ٣٧١)

**(الخطبة: ٢٢٥) في صفة الزُّهّاد: ... كَانُوا قَوْمًا مِن أَهْلِ الدُّنيَا وَلَيْسُوا مِن أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَن لَيْسَ مِنهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ ....**

الشّرح: ... قوله عليه السلام: «كانوا قومًا من أهل الدّنيا وليسوا من أهلها»، أي هم من أهلها في ظاهر الأمر وفي مرأى العَين وليسوا من أهلها، لأنّه لا رغبة عندهم في ملاذّها ونعيمها، فكأنّهم خارجون عنها.

قوله: «عملوا فيها بما يُبْصِرون»، أي بما يرونه أصلح لهم، ويجوز أن يريد أنّهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء، وهذا كقوله عليه السلام: «لوكُشِف الغطاء ما ازددت يقينًا».

قوله عليه السلام: «وبادَروا فيها ما يحذرون»، أي سابقوه، يعني الموت.

قوله عليه السلام: «تقلّب أبدانهم»، هذا محمول تارةً على الحقيقة، وتارةً على المجاز، أمّا الأوّل فلأنّهم لا يخالطون إلّا أهل الدِّين ولا يجالسون أهل الدّنيا. وأمّا الثّاني

فلأنّهم لما استحقُّوا الثّواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانهم تتقلّب بين ظهراني أهل الآخرة، أي بين ظهراني قوم هم بمنزلة أهل الآخرة، لأنّ المستحقّ للشّيء نظير لمن فعل به ذلك الشّيء.

ثمّ قال: هؤلاء الزُّهّاد يرون أهل الدّنيا إنّما يستعظمون موت الأبدان، وهم أشدّ استعظامًا لموت القلوب، وقد تقدّم من كلامنا في صفات الزُّهّاد والعارفين ما فيه كفاية. (١٣ : ٧ ـ ٨)

## [نبذ من أقوال الصّالحين والحكماء]

**(الخطبة: ٢٨) أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنيَا قَدْ أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمارَ، وَغَدًا السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ، أَفَلَا تَائِبٌ مِن خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ.**

**الشّرح:** ... ونحن نورد في هذا الفصل نُكَتًا من مواعظ الصّالحين يرحمهم الله، تناسب هذا المأخذ.

فممّا يؤثرعن أبي حازم الأعرج ـ كان في أيّام بني أُميّة ـ قوله لعمربن عبد العزيز، وقد قال له: يا أبا حازم، إنّي أخاف الله ممّا قد دخلت فيه. فقال: لستُ أخاف عليك أن تخاف، وإنّما أخاف عليك ألّا تخاف.

وقيل له: كيف يكون النّاس يوم القيامة؟ قال: أمّا العاصي فآبق قُدِم به على مولاه، وأمّا المطيع فغائب قَدِم على أهله.

ومن كلامه: إنّما بيني وبين الملوك يوم واحد، أمّا أمس فلا يجدون لذّته، ولاأجد شدّته، وأمّا غدًا؛ فإنّي وإيّاهم منه على خطر، وإنّما هو اليوم، فما عسى أن يكون!

ومن كلامه: إذا تتابعت عليك نِعَمُ ربّك وأنت تعصيه فاحْذره.

وقال له سليمان بن عبد الملك: عِظْني. فقال: عَظِّم ربّك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

وقيل له: ما مالك؟ قال: شيئان لا عدم بي معهما: الرّضا عن الله، والغنى عن النّاس.

ومن كلامه: عجبًا لقوم يعملون لدار يَرْحلون عنها كلّ يوم مرحلة، ويتركون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة!

ومن كلامه: إن عوفينا من شرّ ما أعطانا، لم يضرّنا فقد ما زُوِي عنّا.

ومن كلامه: نحن لانريد أن نموت حتّى نتوب، ونحن لانتوب حتّى نموت.

ولما ثقِلَ عبد الملك رأى غسّالًا يلوي بيده ثوبًا، فقال: وددت أنّي كنت غسّالًا مثل هذا، أعيش بما اكتسب يومًا فيومًا. فذكر ذلك لأبي حازم، فقال: الحمد لله الّذي جعلهم عند الموت يتمنّون ما نحن فيه، ولانتمنّى عند الموت ما هم فيه.

ومن كلام غيره من الصّالحين: دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك في الكعبة، فكلّمه هشام، ثمّ قال له: سَلْ حاجتك. قال: معاذ الله أن أسأل في بيت الله غير الله.

وقيل لرابعة القَيْسِيّة: لوكلّمتِ أهلك أن يشتروا لك خادمًا يكفيك مؤنة بيتك! قالت: إنّي لأستحي أن أسال الدّنيا مَن يملكها، فكيف أسألُها مَن لا يملكها!

وقال بكر بن عبد الله: أطفئوا نار الغضب بذكر نار جهنّم.

عامر بن عبد القيس: الدّنيا والدة للموت، ناقضة للمُبرَم، مرتجعة للعطيّة، وكلّ مَن فيها يجري إلى ما لايدري، وكلّ مستقرّ فيها غير راضٍ بها، وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار.

باع عُتْبة بن عبد الله بن مسعود أرضًا له بثمانين ألفًا، فتصدّق بها، فقيل له: لوجعلتَ هذا المال أو بعضه ذُخرًا لولدك! قال: بل أجعل هذا المال ذُخرًا لي، وأجعل الله تعالى ذُخرًا لولدي.

رأى إياس بن قَتادة شيبةً في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني، وأراني لا أفوته. فلزم بيتَه وترك الاكتساب. فقال له أهله: تموت هُزالًا، قال: لَأن أموت مؤمنًا مهزولًا أحبّ إليّ من أعيش منافقًا سمينًا.

بكربن عبد الله المُزَنيّ: ما الدّنيا ليت شعري! أمّا ما مَضَى منها فحُلْم، وأمّا ما بقي فأمانيّ!

مَوْرَق العجليّ: خيرٌ من العُجْب بالطّاعة ألّا تأتي بالطّاعة.

ومن كلامه: ضاحكٌ معترفٌ بذنبه، خيرٌ من باكٍ مُدِلٍّ على ربّه.

ومن كلامه: أوحى الله إلى الدّنيا: مَن خدمني فاخْدُميه، ومَن خَدَمك فاستَخْدميه.

قيل لرابعة: هل عملتِ عملًا ترين أنّه يُقْبَل منكِ؟ قالت: إن كان فخوفي أن يُرَدّ عليّ.

نظر حبيب إلى مالك بن دينار، وهو يقسم صدقته علانيةً، فقال: يا أخي، إنّ الكنوز لتُسْتَر، فما بال هذا يجهر به!

قال عمرو بن عُبيد للمنصور: إنّ الله أعطاك الدّنيا بأسْرِها، فاشْتَرِ نفسك منه ببعضها، وإنّ هذا الّذي أصبح اليوم في يدك، لوكان ممّا يبقى على النّاس لبقي في يد مَن كان قبلك، ولم يصر إليك، فاحْذَرْ ليلة تمخّض بيوم لاترى بعده إلّا يوم القيامة. فبكى المنصور، وقال: يا أبا عثمان، سَلْ حاجةً. قال: حاجتي ألّاتعطيَني حتّى أسألك، ولاتدْعني حتّى أجيئك. قال: إذن لانلتقي أبدًا، قال: فذاك أُريد.

كان يقال: الدّنيا جاهلة، ومِن جَهْلها، أنّها لا تعطي أحدًا ما يستحقّه، إمّا أن تزيده، وإمّا أن تَنقُصَه.

قيل لخالد بن صَفْوان: مَن أبلغ النّاس؟ قال: الحَسَن، لقوله: فَضَح الموتُ الدّنيا.

قيل لبعض الزُّهّاد: كيف سُخْط نفسك على الدّنيا؟ قال: أيقنتُ أنّي خارج منها كُرْهًا، فأحببتُ أن أخرج منها طَوْعًا.

مرّ إبراهيم بن أدهم بباب أبي جعفر المنصور، فنظر السّلاح والحَرَس، فقال: المُرِيب خائف.

قيل لزاهد: ما أصبرَك على الوحدة! قال: كلّا، أنا أُجالس ربّي، إذا شئت أن يناجيَني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أُناجيه صلّيت.

كان يقال: خف الله لقدرته عليك، واستَحيِ منه لقُربه منك.

قال الرَشيد[١] للفُضَيل بن عِياض: ما أزهدك! قال: أنت يا هارون أزهد منّي، لأنّي زهدتُ في دنيا فانية، وزهدتَ في آخرة باقية.

وقال الفُضَيل: يا ربّي، إنّي لأستحيي أن أقول: توكّلت عليك، لو توكّلت عليك ما خفتُ إلّا منك، ولا رجوتُ إلّا إيّاك.

عُوتب بعض الزُهّاد على كثرة التّصدّق بماله، فقال: لو أراد رجل أن ينتقل مِن دارٍ إلى دارٍ، ما أظنّه كان يترك في الدّار الأُولى شيئًا!

قال بعض الملوك لبعض الزُهّاد: ما لك لا تغشى بابي، وأنت عبدي! قال: لو علمتَ أيّها المَلِك، لعلمتَ أنّك عبدُ عبدي، لأنّي أمْلِك الهَوَى، والهَوَى يملكك.

دخل متظلّم على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أذكر يوم الأذان. قال: وما يوم الأذان؟ قال: اليوم الّذي قال تعالى فيه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٢]، فبكى سليمان وأزال ظلامته.

سُئِل الفضيل بن عِياض عن الزُهْد، فقال: يجمعه حرفان في كتاب الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣] ... .

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرّشيد: ما يمرّ يومٌ من نعيمك إلّا ويمرّ يومٌ من بؤسي، وكلاهما إلى نفاد.

قيل لحاتم الأصمّ: عَلامَ بنيتَ أمرك؟ قال: على أربع خصال: علمتُ أنّ رزقي لا يأكله غيري فلم أهتمّ به، وعلمتُ أنّ عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمتُ أنّ الموت يأتيني بغتةً، فأنا أُبادره، وعلمتُ أنّي بعين الله في كلّ حال فاستحييتُ منه.

---

١ ـ ب: «قال بعض الملوك»، وما أثبته من أ، ج.

٢ ـ الأعراف / ٤٤.

٣ ـ الحديد / ٢٣.

نظر بعض الصّالحين إلى رجل يَفْحُش في قوله، فقال: يا هذا إنّما تُملي على حافظَيك كتابًا إلى رَبك، فانظر ما تودعه.

كان يقال: مَثَل الدّنيا والآخرة مَثَل ضَرَّتَين لبَعْلٍ واحدٍ، إن أرْضى هذه أسخط الأُخرى.

قيل لبعضهم: ما مَثَلُ الدّنيا؟ قال هي أقلّ من أن يكون لها مَثَل.

دخل لُصّ على بعض الزُّهّاد الصّالحين، فلم يَرَ في داره شيئًا، فقال له: يا هذا، أين متاعك؟ قال: حوّلتُه إلى الدّار الأُخرى.

قيل للرّبيع بن خَيْثم: يا ربيع، ما نراك تذمّ أحدًا! فقال: ما أنا عن نفسي براضٍ، فأتحوّل من ذمّي إلى ذمّ النّاس، إنّ النّاس خافوا الله على ذنوب العباد وأمِنوه على ذنوبهم.

قال عيسى بن موسى لأبي شيبة القاضي: لمَ لا تأتينا؟ قال: إن قرّبتني فتَنتَني، وإن أقصيتَني أحزنتَني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجوك له.

**من كلام بعض الزُّهّاد:** تأمّل ذا الغنى، ما أشدّ نصبه، وأقلّ راحَته، وأخسّ من ماله حظّه، وأشدّ من الأيّام حذره! هو بين سلطان يتهضّمه، وعدوّ يبغي عليه، وحقوق تلزمه، وأكفاء يحسدونه، وولد يودّ فراقَه، قد بعث عليه غناه من سلطانه العَنَت، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذّمّ، ومن الولد الملالة.

ومن كلام سفيان الثّوريّ: يا بن آدم، جوارحك سلاح الله عليك، بأيّها شاء قَتَلك.

ميمون بن مهران في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[1]، قال: إنّها لَتعزية للمظلوم، ووعيد للظّالم.

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريض يعوده، فقال له: ما نمتُ منذ أربعين ليلةً،

---

١ ـ إبراهيم / ٤٢ .

فقال: يا هذا، أحصيت ليالِيَ البلاء، فهل أحصيت ليالِيَ الرَّخاء!

بعضُهم: واعجباه لمن يفرح بالدّنيا، فإنّما هي عقوبة ذنب!

ابن السّمّاك: خفِ الله حتّى كأنّك لم تطعه قَطّ، وارْجه حتّى كأنّك لم تعصه قطّ.

بعضهم: العلماء أطبّاء هذا الخَلْق، والدّنيا داء هذا الخَلق، فإذا كان الطّبيب يطلب الدّاء فمتى يُبرِئ غيره.

قيل لمحمّد بن واسع: فلان زاهد، قال: وما قدر الدّنيا حتّى يحْمَد مَن يزهد فيها؟

رُئِي عبد الله بن المبارك واقفًا بين مقبرة ومَزْبلة، فقيل له: ما أوقفك؟ قال أنا بين كنزين من كنوز الدّنيا فيهما عِبرة: هذا كنز الأموال، وهذا كنز الرّجال.

قيل لبعضهم: أتعبتَ نفسك، فقال: راحتَها أطلب.

دخل الإسكندر مدينة فتحها، فسأل عمّن بقي من أولاد الملوك بها، فقيل: رجل يسكن المقابر، فدعا به، فقال: ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر؟ فقال: أحببت أن أُميّز بين عظام الملوك، وعظام عبيدهم، فوجدتها سواء. فقال: هل لك أن تتّبعني فأحيي شرفك وشرف آبائك، إن كانت لك همّة! قال: همّتي عظيمة، قال: وما همّتك؟ قال: حياةٌ لا موت معها، وشباب لا هَرَم معه، وغنًى لا فقر معه، وسرور لا مكروه معه، فقال: ليس هذا عندي، قال: فدعني التمسه ممّن هو عنده.

مات ابنٌ لعمر بن ذَرّ، فقال: لقد شغلني الحزن لك يا بنيّ عن الحزن عليك.

**كان يقال:** مِن هَوان الدّنيا على الله ألّا يعصى إلّا فيها، ولا ينال ما عنده إلّا بتركها.

ومن كلام عبد الله بن شَدّاد: أرى دواعي الموت لا تُقْلِع، وأرى من مَضَى لا يرجع، فلا تزهدنّ في معروف، فإنّ الدّهر ذو صروف. كم من راغبٍ قد كان مرغوبًا إليه! والزّمان ذو ألوان، مَن يصحب الزّمان يَرَ الهَوان، وإن غلبت يومًا على المال فلا تغلبنّ على الحيلة على كلّ حال، وكن أحسن ما تكون في الظّاهر حالًا، أقلّ ما تكون في الباطن مآلًا.

**كان يقال:** إنّ ممّا يعجّل الله تعالى عقوبته: الأمانة تخان، والإحسان يُكْفَر، والرَّحِم

تُقْطَع، والبغي على النّاس.

الرّبيع بن خَيْثم: لوكانت الذّنوب تفوح روائحها لم يجلس أحدٌ إلى أحدٍ.

قيل لبعضهم: كيف أصبحتَ؟ قال: آسفًا على أمسي، كارهًا ليومي، متهمًا لغدي.

وقيل لآخر: لمَ تركتَ الدّنيا؟ قال: أنِفْتُ من قليلها، وأنِفَ منّي كثيرها. وهذا كما قال بعضهم، وقد قيل له: لمَ لا تقول الشّعر؟ قال: يأباني جَيّده، وأبى رديئه.

بعض الصّالحين: لو أنزل الله تعالى كتابًا: أنّي مُعذّب رجلًا واحدًا، لخِفْتُ أن أكونه، أو أنّه راحم رجلًا واحدًا ، لرجوتُ أن أكونه.

مُطَرّف بن الشِّخّير: خير الأُمور أوساطها، وشرّ السّير الحَقْحَقة[1]. وهذا الكلام قد رُوي مرفوعًا.

يحيى بن معاذ: إنّ لله عليك نعمتَين: في السّرّاء التّذكّر، وفي الضّرّاء التّصبّر، فكن في السّرّاء عبدًا شكورًا، وفي الضّرّاء حرًّا صبورًا.

دخل ابن السّماك على الرّشيد، فقال له: عِظْني. ثمّ دعا بماءٍ ليشربه، فقال له: ناشدتُك الله لو منعك الله من شربه ما كنت فاعلًا؟ قال: كنت أفتديه بنصف ملكي. قال: فاشربه، فلمّا شرب، قال: ناشدتُك الله! لومنعك الله من خروجه ما كنت فاعلًا؟ قال: كنت أفتديه بنصف ملكي. قال: إنّ ملكًا يُفتَدى به شربة ماء، لَخليق ألّا ينافس عليه.

قال: المنصور لعمرو بن عُبَيد رحمه الله تعالى: عِظْني. قال: بما رأيتُ أم بما سمعتُ؟ قال: بما رأيتَ. قال: رأيتُ عمر بن عبد العزيز، وقد مات، فخلّف أحد عشرًا ابنًا، وبلغت تَرِكَتُه سبعة عشر دينارًا، كُفّن منها بخمسة دنانير، واشتري موضع قبره بدينارَيْن، وأصاب كلّ واحد من ولده دون الدّينار. ثم رأيتُ هِشام بن عبد الملك، وقد مات وخلّف عشرة ذكور، فأصاب كلّ واحد من ولده ألف ألف دينار. ورأيتُ رجلًا من ولد عمر بن عبد العزيز، قد حمل في يوم واحدعلى مائة فرس في سبيل

---

١ ـ الحقحقة : أرفع السّير و أتعبه للظّهر.

الله، ورأيتُ رجلًا من ولد هشام، يسأل النّاس ليتصدّقوا عليه.

حسّان بن أبي سنان: ما شيء أهون من ورع؛ إذا رابك شيء فدعه.

مورِّق العِجْليّ: لقد سألت الله حاجةً أربعين سنة، ما قضاها ولايئست منها. قيل: وما هي؟ قال: ترك ما لا يعنيني.

قَتادة: إنّ الله لَيعطي العبد على نيّة الآخرة ما يسأله من الدّنيا، ولايعطيه على نيّة الدّنيا إلّا الدّنيا.

من كلام محمّد بن واسع: ليس في النّار عذاب أشدّ على أهلها من علمهم بأنّه ليس لكُرْبهم تنفيس، ولالضيقتهم ترفيه، ولا لعذابهم غاية، وليس في الجَنّة نعيم أبلغ من علم أهلها بأنّ ذلك الملك لايزول عنهم.

قال بعض الملوك لبعض الزُّهّاد: أذْمُم لي الدّنيا. قال: أيّها الملك، هي الآخذة لما تُعْطي، المورّثة بعد ذلك النّدم، السّالبة ما تكسو، المورّثة بعد ذلك الفضوح، تسدّ بالأراذل مكان الأفاضل وبالعجزَة مكان الحَزَمة، تجد في كلّ مَن كلّ خَلَفًا، وترضى بكلّ مَن كلّ بدلًا، تسكن دار كلّ قَرْنٍ قرنًا، وتُطْعِم سُؤر كلّ قوم قومًا.

ومن كلام الحجّاج ـ وكان مع غَشْمِه وإلحاده واعظًا بليغًا مفوَّهًا ـ خطب، فقال: اللّهمّ أرني الغَيّ غيًّا فأتجنّبه، وأرني الهدى هُدًى فأتّبعه، ولاتكلني إلى نفسي فأضلّ ضلالًا بعيدًا، والله ما أحبّ أن ما مضى من الدّنيا بعمامتي هذه، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

وقال مالك بن دينار: غَدَوْتُ إلى الجمعة، فجلست قريبًا من المنبر، فصعد الحجّاج، فسمعته يقول: امرؤٌ زَوَّرَ عمله، امرؤٌ حاسَبَ نفسه، امرؤٌ فكّر فيما يقرأه في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤٌ كان عند قلبه زاجر، وعند هَمّه آمرٌ، امرؤٌ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرّجل بخِطام جمله، فإن قاده إلى طاعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كَفّه، إنّنا والله ما خُلِقنا للفناء، وإنّما خُلِقنا للبقاء، وإنّما ننتقل من دارٍ إلى دارٍ.

وخطب يومًا، فقال: إنّ الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدّنيا، فليته كفانا

مؤونة الآخرة، وأمَرَنا بطلب الدّنيا. فقال الحسن: ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق.

ومن الكلام المنسوب إليه، وأكثر النّاس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام: أيّها النّاس، اقدعوا هذه الأنفس، فإنّها أسأل شيء إذا أعطيت، وأعطى لشيء إذا سُئِلت، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإنّي رأيت الصّبر عن محارم الله أيسر من الصّبر على عذاب الله.

ومن كلامه: إنّ امرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربّه، ويستغفر من ذنبه، ويفكّر في معاده، لجدير أن يطول حُزْنه، ويتضاعف أسَفُه. إنّ الله كتب على الدّنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كُتِب عليه الفناء، ولا فناء لما كُتِب عليه البقاء، فلا يغرّنّكم شاهد الدّنيا عن غائب الآخرة، واقْهَرُوا طول الأمل بقصر الأجل.

ونقلت من «أمالي» أبي أحمد العسكريّ رحمه الله تعالى، قال: خطب الحجّاج يومًا، فقال: أيّها النّاس، قد أصبحتم في أجلٍ منقوصٍ، وعملٍ محفوظٍ. رُبّ دائبٍ مُضِيع وساعٍ لغيره. والموت في أعقابكم، والنّار بين أيديكم، والجَنّة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غِناكم لفَقْركم، وممّا في أيديكم لما بين أيديكم، فكأنّ ما قد مضَى من الدّنيا لم يكن، وكأنّ الأموات لم يكونوا أحياء، وكلّ ما ترونه، فإنّه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشّمس الّتي طلعت على التّبابعة والأكاسرة وخزائنهم السّائرة بين أيديهم وقصورهم المشيّدة، ثمّ طلعت على قبورهم! أين الملوك الأوّلون! أين الجبابرة المتكبّرون! المحاسب الله، والصّراط منصوب، وجهنّم تَزْفِرُ وتتوقّد، وأهل الجَنّة ينعمون، في روضة يُحبرون، جَعَلَنَا الله وإيّاكم من الّذين، ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1].

قال: فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول: ألا تعجبون من هذا الفاجر، يَرْقَى عَتَبات المنبر فيتكلّم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتِك فَتْكَ الجبّارين! يوافق الله في قوله،

---

١ ـ الفرقان / ٧٣.

ويخالفه في فعله! (٢ : ٩٣ ـ ١٠٣)

(كتابه عليه السلام: ٢٧) ... وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنيَا فِي دُنيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلُ الدُّنيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انقَلَبُوا عَنهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ ... .

الشّرح: ... ثمّ ذكر حال الزُّهّاد، فقال: «أخذوا من الدّنيا بنصيب قويّ، وجعلت لهم الآخرة»، ويُروَى أنّ الفُضَيل بن عِياض كان هو ورفيق له في بعض الصّحارى، فأكلا كسرةً يابسةً، واغترفا بأيديهما ماءً من بعض الغُدْران، وقام الفضيل فحطّ رِجْلَيه في الماء، فوجد برده، فالتذّ به وبالحال الّتي هو فيها، فقال لرفيقه: لوعَلِم الملوك وأبناءُ الملوك ما نحن فيه من العيش واللّذّة لحسدونا. (١٥ : ١٦٥)

(الحكمة: ٣١): وَسُئِلَ عليه السلام عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: اَلْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهَادِ. وَالصَّبْرُ مِنهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ، عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ. فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَن أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَن زَهِدَ فِي الدُّنيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ... .

الشّرح: من هذا الفصل أخذت الصّوفيّة وأصحاب الطّريقة والحقيقة كثيرًا من فنونهم في علومهم، ومن تأمّل كلامَ سَهْل بن عبد الله التُّستريّ، وكلام الجُنَيد، والسَّرِيّ، وغيرهم رأى هذه الكلمات في فُرُش كلامهم تلوح كالكواكب الزّاهرة. وكلّ المقامات والأحوال المذكورة في هذا الفصل قد تقدّم قولنا فيها. (١٨ : ١٤٣)

**(الحكمة: ٩٩) الأصل: وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذا الباب، وذكرنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمَين: منهم مَن آثر لبسَ الأدنى على الأعلى. ومنهم مَن عكس الحال... وكذلك أمير المؤمنين، وهو شعار عيسى ابن مريم عليه السلام، كان يلبس الصّوف وغليظ الثّياب، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس النّوعَين جميعًا، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثّياب مثل أبراد اليمن، وما شاكل ذلك، وكانت مِلحفته مورَّسة [1] حتّى أنّها لترتدع [2] على جِلْده كما جاء في الحديث.

ورُئِي محمّد ابن الحنفيّة عليه السلام واقفًا بعرفات على بِرْذون أصفر، وعليه مُطْرَف خَزّ أصفر. وجاء فَرْقَد السّبخيّ [3] إلى الحسن، وعلى الحسن مُطْرف خَزّ، فجعل ينظر إليه وعلى فَرْقَد ثياب صوف، فقال الحسن: ما بالك تنظر إليّ وعليّ ثياب أهل الجَنّة، وعليك ثياب أهل النّار! إنّ أحدكم ليجعل الزّهد في ثيابه والكبر في صدره، فَلَهُوَ أشدّ عجبًا بصوفه من صاحب المطرف.

وقال ابن السَّمّاك لأصحاب الصّوف: إن كان لباسكم هذا موافقًا لسرائركم، فلقد أحببتم أن يطّلع النّاس عليها، ولئن كان مخالفًا لها لقد هلكتم.

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطّاب في ملبوسه، وكان قبل الخلافة يلبس الثّياب المثمنة جدًّا، كان يقول: لقد خِفْتُ أن يَعْجَز ما قَسَم الله لي من الرّزق عمّا أُريده من الكسوة، وما لبست ثوبًا جديدًا قطّ إلّا وخُيِّل لي حين يراه النّاس أنّه سَمِلٌ أو بالٍ، فلمّا ولي الخلافة ترك ذلك كلّه.

---

١ ـ مورّسة، أي مصبوغة بالورس؛ و هو نبت أصفر يكون باليمن؛ تصبغ به الثّياب.

٢ ـ في «اللّسان» عن ابن عبّاس: «لم ينه عن شيء من الأردية عن المزعفرة الّتي تردع على الجلد»، قال: أي تنفض صبغها عليه، وثوب رديع، مصبوغ بالزّعفران.

٣ ـ ب: «السّنجيّ»، والصّواب ما أثبته، منسوب إلى السّبخة، موضع بالبصرة، ذكره ياقوت، وذكر بنسبة فرقد إليه.

وروى سعيد بن سُوَيد، قال: صلّى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة، ثمّ جلس وعليه قميص مرقوع الجَيْب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: إنّ الله أعطاك يا أمير المؤمنين، فلو لبستَ. فنكس مليًّا ثمّ رفع رأسه، فقال: إنّ أفضل القصد ما كان عند الجِدَة، وأفضل العفو ما كان عند المَقْدرة.

وروى عاصم بن مَعْدلة: كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة، فأعجب من حُسْن لونه وجودة ثِيابه وبزّته، ثمّ دخلت عليه بعد أن وَلي، وإذا هو قد احترق واسودّ ولَصِق جِلْدَه بعَظْمِه، حتّى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قَلَنسُوة بيضاء قد اجتمع قطنُها ويعلم أنّها قد غسلت، وعليه سُحُقٌ[1] أنبجانيّة قد خرج سَدَاها، وهو على شاذكونة[2]، قد لَصِقت بالأرض تحت السّاذكونه عباءةٌ قَطَوانيّة من مُشاقة الصّوف، وعنده رجل يتكلّم، فرفع صوته، فقال له عمر: اخْفِض قليلًا من صوتك، فإنّما يكفي الرّجل من الكلام قدر ما يسمع صاحبه.

وروى عبيد بن يعقوب أنّ عمر بن عبد العزيز كان يلبس الفَرْو الغليظ من الثّياب، وكان سراجه على ثلاث قَصَبات فوقهنّ طين. (١٨ : ٢٦٢ ـ ٢٦٣)

## [ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهّاد]

**(الخطبة: ٢٠٢) ومن كلام له عليه السلام بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثيّ، وهو من أصحابه، يعوده، فلمّا رأى سعة داره، قال:**

**مَا كُنتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنيَا، أَنتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنتَ أَحْوَجَ! وَبَلَى إِن شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ.**

**فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصمَ بن زياد.**

---

١ ـ جمع سحق، وهو الثّوب البالي.

٢ ـ الشّاذكونة: ثياب غلاظ تعمل باليمن.

قال: وَمَا لَهُ؟

قال: لَبِس العَباءَ وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنيَا.

قال: عَلَيَّ به. فَلَمَّا جاء، قال: يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَن تَأْخُذَهَا! أَنتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِن ذَلِكَ!

قال: يا أمير المؤمنين، هَذا أنت في خشونة مَلْبَسِكَ وَجُشوبة مأكَلِكَ!

قَالَ: وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَن يُقَدِّرُوا أَنفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ[1] بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!

**الشّرح:** ... ورُوي أنّ قومًا من المتصوّفة دخلوا خراسان على عليّ بن موسى الرّضا، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولّاه الله من الأُمور فرآكم ـ أهل البيت ـ أوْلَى النّاس أن تؤمُّوا النّاس، ونظر فيك من أهل البيت، فرآك أوْلى النّاس بالنّاس، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك، والإمامة تحتاج إلى مَن يأكل الجَشِب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار، ويعود المريض. فقال لهم: إنّ يوسف كان نبيًّا يلبس أقبية الدّيباج المزرّرة بالذّهب، ويجلس على متّكآت آل فرعون، ويحكم. إنّما يراد من الإمام قِسْطه وعَدْله؛ إذا قال صدق، وإذا حكم عَدَل، وإذا وعد أنجز. إنّ الله لم يحرّم لبوسًا ولا مطعمًا، ثمّ قرأ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...﴾[2].

وهذا القول مخالف للقانون الّذى أشار أمير المؤمنين إليه، وللفلاسفة في هذا الباب كلام لا بأس به، وقد أشار إليه أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات»، وعليه يتخرّج قولا أمير المؤمنين وعليّ بن موسى الرّضا عليهما السلام.

---

١ ـ يهيج به الألم فيهلكه. (صبحي صالح).

٢ ـ الأعراف / ٣٢.

قال أبو عليّ في «مقامات العارفين»: «العارفون قد يختلفون في الهِمَم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العِبر، فربّما استوى عند العارف القَشَف والتَّرف، بل ربّما آثر القَشَف، وكذلك ربّما سوّى عنده التَّفَل والعِطْر، بل ربّما آثر التّفل، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله؛ استحقار ما عدا الحقّ، وربّما صغا إلى الزّينة وأحبّ من كلّ شيء عقيلته[1]، وكره الخِداج والسَّقَط، وذلك عند ما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظّاهرة، فهو يرتاد إليها في كلّ شيء، لأنّه مزيّة خطوة من العناية الأُولى، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، وقد يختلف هذا في عارفين، وقد يختلف في عارف بحسب وقتَين.

واعلم! أنّ الّذي رويتُه عن الشّيوخ، ورأيتُه بخطّ عبد الله بن أحمد بن الخشّاب رحمه الله، أنّ الرّبيع بن زياد الحارثيّ أصابته نشّابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه عليّ عليه السلام عائدًا، فقال:كيف تجدك أبا عبد الرّحمان؟ قال: أجِدُني يا أمير المؤمنين لوكان لايذهب ما بي إلّا بذهاب بصري لتمنّيت ذهابه، قال: وما قيمة بصرِكِ عندك؟ قال: لوكانت لي الدّنيا لفديتُه بها. قال: لا جرم! ليعطينّك الله على قدر ذلك. إنّ الله تعالى يُعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده تضعيف كثير. قال الرّبيع: يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي؟قال: ماله؟ قال لبس العَباء، وترك المُلاء، وغمّ أهله، وحَزَن ولده.

فقال عليّ: ادعُوا لي عاصمًا فلمّا أتاه عبس في وجهه، وقال: ويحك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللّذّات، وهو يكره ما اخذت منها! لأنت أهون على الله من ذلك. أوَ ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[2]،ثم يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[3]، وقال: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[1]، أما

---

١ ـ العقيلة من كلّ شيء أكرمه ، جمعها عقائل .

٢ ـ الرّحمن / ١٩ .

٣ ـ الرّحمن / ٢٢ .

والله إنّ ابتذال نِعَم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتم الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢]، وقوله: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٣]،إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[٥]، وقال رسول الله ﷺ لبعض نسائه: «ما لي أراك شَعْثاء مرهاء سلْتاء!»[٦].

قال عاصم: فلمَ اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجَشِب؟ قال: إنّ الله تعالى افترض على أئمّة العدل أن يقدّروا لأنفسهم بالقوام، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره. فما قام عليّ عليه السلام حتّى نزع عاصم العباء ولبس مُلاءة.

والرّبيع بن زياد هو الّذي افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دُلّوني على رجل إذا كان في القوم أميرًا، فكأنّه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير، فكأنّه الأمير بعينه! وكان خيّرًا متواضعًا، وهو صاحب الوقعة مع عمر لمّا أحضر العُمّال فتوحّش له الرّبيع، وتقشّف وأكل معه الجَشِب من الطّعام، فأقرّه على عمله، وصرف الباقين، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدّم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الرّبيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان؛ أنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرك أن تحرز الصَّفْراء والبيضاء وتقسم الخُرْثِيّ[٧] وَمَا أشبهه على أهل الحرب، فقال له الرّبيع: إنّي وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. ثمّ نادى في النّاس أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي

---

١ ـ فاطر/ ١٢.

٢ ـ الضّحى / ١١.

٣ ـ الأعراف / ٣٢.

٤ ـ البقرة / ١٧٢.

٥ ـ المؤمنون / ٥١.

٦ ـ المرهاء: الّتي لاتكتحل. و السّلتاء: الّتي لاتختضب.

٧ ـ الخُرثيّ: أراد الغنائم.

على المسلمين، ثمّ دعا الله أن يميته؛ فما جمع حتّى مات.

وهو الرّبيع بن زياد بن أنس بن ديّان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أدد.

وأمّا العلاء بن زياد الّذي ذكره الرّضيّ ﵀ فلا أعرفه، لعلّ غيري يعرفه.

(١١ : ٣٤ ـ ٣٧)

**(الخطبة: ٢١٠) ... إِنَّ مِن حَقِّ مَن عَظُمَ جَلَالُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِن قَلْبِهِ، أَن يَصْغُرَ عِندَهُ لِعِظَمِ ذَلِكَ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَن كَانَ كَذَلِكَ لَمَن عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَمًا.**

**الشّرح:** هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرَح، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضّح، وتذكر نظائرها وما يناسبها.

**فمنها:** قوله ﵇ إنّ مِن حقّ مَن عَظُمَت نعمة الله عليه أن تَعْظُم عليه حقوق الله تعالى وأن يَعْظُم جلال الله تعالى في نفسه، ومن حق مَن كان كذلك أن يَصْغُر عنده كلّ ما سوى الله.

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقار كلّ ما سوى الله تعالى، وذلك أنّ مَن عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظم من كلّ عظيم، بل لا نسبة لشيء من الأشياء أصلًا إليه سبحانه، فلا يظهر عند العارف عظمة غيره ألبتّة كما أنّ مَن شاهد الشّمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسّراج الموضوع في ضوء الشّمس حال مشاهدته جرم الشّمس، بل لا تظهر له في تلك الحال صنوبرة السّراج ولا تنطبع صورتُها في بصره. (١١ : ١٠٢)

## [ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

(الخطبة: ١٨٦) [في وصف المتّقين] ... فَمِن عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غِنًى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى، وَتَحَرُّجًا عَن طَمَعٍ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ.

يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا، حَذِرًا لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِن اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ.

اَلْخَيْرُ مِنهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنهُ مَأْمُونٌ. إِن كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِن كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّن ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَن حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَن قَطَعَهُ. بَعِيدًا فُحشُهُ، لَيِّنًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ.

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَن يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَن يُحِبُّ.

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَن يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِن صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِن ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِن بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنهُ فِي

رَاحَـةٍ. أَتْعَـبَ نَفْسَـهُ لِآخِرَتِـهِ، وَأَرَاحَ النَّـاسَ مِـن نَفْسِـهِ. بُعْـدُهُ عَمَّـن تَبَاعَـدَ عَنـهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّن دَنَا مِنهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ ... .

**الشّرح:** ... قوله: «إن كان من الغافلين»، معناه أنّه لا يزال ذاكر الله تعالى، سواءً كان جالسًا مع الغافلين أو مع الذّاكرين، أمّا إذا كان مع الغافلين فإنّه يذكر الله بقلبه، وأمّا إذا كان مع الذّاكرين فإنّه يذكره بقلبه ولسانه.

قوله عليه السلام: «يعفوعمّن ظَلَمه، ويعطي مَن حَرَمَه، ويَصِلُ مَن قَطَعَهُ»، من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل: «أحبّوا أعداءكم، وصِلُوا قاطعيكم، واعْفُوا عن ظالميكم، وباركوا علَيّ لأعينَكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الّذي في السّماء، الّذي تشرق شمسُه على الصّالحين والفَجَرة، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثمَة».

قوله عليه السلام: «بعيدًا فُحْشُه»، ليس يعني به أنّه قد يُفحِش تارةً، ويترك الفُحْش تارات، بل لا فُحْش له أصلًا، فكنى عن العدم بالبُعْد، لأنّه قريب منه.

قولـه: «ليّـنًا قولـه»، العـارف بسّـام طَلْـق الوجـه، لـيّن القـول. وفي صـفات النّبيّ صلى الله عليه وآله: «ليس بفَظّ ولا صَخّاب».

قولـه: «في الـزّلازل وقـور»، أي لا تحرّكه الخطوب الطّارقـة، ويقـال: إنّ عـليّ بـن الحسين عليه السلام كان يصلّي، فوقعت عليه حيّة، فلم يتحرّك لها، ثمّ انسابت بين قدمَيْه فمّا حرّك إحداهما عن مكانه، ولا تغيّر لونه.

قوله: «لا يحيف على مَن يُبْغِض»، هذا من الأخلاق الشّريفة النّبويّة، وفي كلام أبي بكر في صفات مَن يصلح للإمامة: «إن رضيَ لم يُدْخِلْه رضاه في باطل، وإن غضب لم يخرِجْه غَضَبُه عن الحقّ».

قوله: «يعترف بالحقّ قبل أن يُشْهَد عليه»، لأنّه إن أنكر ثمّ شهد عليه فقد ثبت كذبه، وإن سكت ثمّ شهد عليه فقد أقام نفسه في مقام الرّيبة.

قوله: «ولا ينابز بالألقاب»، هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [١].

قوله: «ولا يضارّ بالجار»، في الحديث المرفوع: «أوصاني ربّي بالجار حتّى ظننت أن يورّثه».

قوله: «ولا يشمت بالمصائب»، نظير قول الشّاعر [الطّويل]:

فلَستَ تَرَاه شامِتًا بمصيبةٍ ولا جَزِعًا مِن طارِقِ الحَدَثَانِ

قوله: «إن صمت لم يغمّه صَمْتُه»، أي لا يحزن لفوات الكلام، لأنّه يَرى الصّمت مغنمًا لا مغرمًا.

قوله: «وإن ضحك لم يَعْلُ صَوْتُه»، هكذا كان ضَحْكُ رسول الله ﷺ، أكثره التّبسّم، وقد يفرّ أحيانًا، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة.

قوله: «وإن بُغِي عليه صبر»، هذا من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [٢].

قوله: «نفسه منه في عناءٍ، لأنّه يتعبُها بالعبادة، والنّاس لا يلقون منه عنتًا ولا أذًى» فحالهم بالنّسبة إليه خلاف حال نفسه بالنّسبة إليه ... .

واعلم! أنّ الوَجْد أمرٌ شريفٌ، قد اختلف النّاس [٣] فيه، فقالت الحكماء فيه أقوالًا، وقالت الصّوفيّة فيه أقوالًا.

**أمّا الحكماء**، فقالوا: الوَجْد هو حالة تحدُث للنّفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتةً، إذا كان قد وَرَد عليها وارد مُشَوِّق.

وقال بعضهم: الوَجْد هو اتّصال النّفس بمبادئها المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال.

**وأمّا الصّوفيّة**، فقد قال بعضهم: الوَجْد رَفْع الحجاب، ومشاهدة المحبوب،

---

١ ـ الحجرات / ١١ .

٢ ـ الحجّ / ٦٠ .

٣ ـ د: «قدامى النّاس» .

وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السّرّ، وهو فناؤك من حيث أنت أنت.

وقال بعضهم: الوَجْدُ سرّ الله عند العارفين، ومكاشفة من الحقّ تُوجِبُ الفَناء عن الحقّ.

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت العبارة، وقد مات كثير من النّاس بالوَجْد عند سماع وعظ، أو صفقة[1] مطرِب، والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًّا، وقد رأينا نحن في زماننا مَن مات بذلك فجأة. (١٠ : ١٥٩ ـ ١٦١)

**(الخطبة: ٢٠٧) ... وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ، يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلَاتُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى فَيُؤْخَذُ مِنهُ وَيُلْقَى قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ ذكر العارفين، فقال: «واعلموا أنّ عباد الله المستحفظين عِلْمَه» إلى قوله: «وهذّبه التّمحيص».

**واعلم!** أنّ الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملّة الإسلاميّة إلّا عن هذا الرّجل، ولَعمري لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات، وأبعد النّهايات. والعارفون هم القوم الّذين اصطفاهم الله تعالى، وانتخبهم لنفسه، واختصّهم بأُنسه، أحبّوه فأحبّهم، وقربوا منه فقَرُب منهم، وقد تكلّم أرباب هذا الشّأن في المعرفة والعرفان، فكلٌّ نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجده في وقته.

وكان أبو عليّ الدّقّاق يقول: مِن أَمَارات المعرفة حصول الهيبة من الله، فَمَنِ ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وكان يقول: المعرفة توجب السّكينة في القلب، كما أنّ العلم يوجب السّكون، فمن

---

١ ـ صفقة مطرب من صفقة العود، إذا حرّكت أوتاره فاصطفق (اللسان).

ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

وسُئِل الشِّبْليّ عن علامات العارف، فقال: ليس لعارفٍ علامةٌ، ولا لمحبٍّ سكونٌ، ولا لخائفٍ قرارٌ.

وسُئِل مرّة أُخرى عن المعرفة، فقال: أوّلها الله وآخرها ما لا نهاية له.

وقال أبو حفص الحدّاد: منذ عرفت الله ما دخل قلبي حقّ ولا باطل. وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشّأن وتأوّله بعضهم، فقال عند القوم أنّ المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذِكْر الحقّ عليه، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلّا إليه، وكما أنّ العاقل يرجع إلى قلبه وتفكّره وتذكّره فيما يسنح له من أمر أو يستقبله من حالٍ، فالعارف رجوعه إلى ربّه لا إلى قلبه وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له.

وسُئِل أبو يزيد البسطاميّ عن العرفان، فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1]، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحدّاد.

وقال أبو يزيد أيضًا: للخَلْق أحوال، ولا حال للعارف، لأنّه مُحِيَتْ رُسومه وفُنِيَ هو، وصارت هويّته هويّة غيره، وغُيِّبت آثاره في آثار غيره.

**قلت:** وهذا هو القول بالاتّحاد الّذي يبحث فيه أهل النّظر.

**وقال الواسطيّ:** لا تصحّ المعرفة وفي العبد استغناء بالله أو افتقار إليه. وفسّر بعضهم هذا الكلام، فقال: إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه، والعارف لا يصحّ ذلك عليه، لأنّه لاستهلاكه في وجوده أو لاستغراقه في شهوده إن لم يبلغ درجة الاستهلاك في الوجود مختطف عن إحساسه بالغنى والفقر وغيرهما من الصّفات، ولهذا قال الواسطيّ: مَن عرف الله انقطع وخرس وانقمع. قال ﷺ: «لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نَفسِكَ».

وقال الحسين بن منصور الحلّاج: علامة العارف أن يكون فارغًا من الدّنيا والآخرة.

---

١ ـ النمل / ٣٤.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ: غايةُ العرفان شيئان: الدَّهَش والحيرة.

وقال ذو النّون: أعرف النّاس بالله أشدّهم تحيّرًا فيه.

وقيل لأبي يزيد: بماذا وصلتَ إلى المعرفة؟ قال: ببدنٍ عارٍ، وبطنٍ جائع.

وقيل لأبي يعقوب السُّوسيّ: هل يتأسّف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئًا غيره ليتأسّف عليه.

وقال أبو يزيد: العارف طيّار، والزّاهد سيّار.

وقال الجُنَيد: لايكون العارف عارفًا حتّى يكون كالأرض يَطَؤها البَرّ والفاجر، وكالسّحاب يُظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لاينبت.

وقال يحيى بن معاذ: يخرُج العارف من الدّنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بُكائه على نفسه، وحبّه لربّه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأُنس.

وقال بعضهم: العارف أنِسَ بالله فأوحَشَه مِنْ خَلْقه، وافتقر إلى الله، فأغناه عن خلقه، وذلّ لله فأعزّه في خلقه.

وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالِم دون ما يقول.

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: إنّ الله يفتح للعارف على فراشه ما لايفتح للعابد وهو قائم يُصلّي.

وكان رُويم يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين.

وسُئِل أبو تراب النّخشبيّ عن العارف، فقال: هو الّذي لايكدّره شيء، ويصفُوبه كلّ شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتحطّ.

وسُئِل يحيى بن معاذ عن العارف، فقال: الكائن البائن. وقيل: ليس بعارف مَن وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدّنيا.

وقال محمّد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

وسُئِل أبو سعيد الخَرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البُكاء؟ قال: نعم،

إنّما البُكاء في أوقات سيرهم إلى الله، فإذا صاروا إلى حقائق القُرب، وذاقوا طعم الوصول زال عنهم ذلك.

**واعلم!** أنّ إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة «الولاية» في قوله: «يتواصَلون بالولاية ويتلاقون بالمحبّة» يستدعي الخَوْض في مقامَيْن جليلَين من مقامات العارفين:

**المقام الأوّل:** الولاية، وهو مقام جليل، قال الله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

وجاء في الخبر الصّحيح عن النّبيّ صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى: «مَن آذى لي وليًّا فقد استحلّ محارمي، وما تقرّب إليّ العبد بمثل أداء ما فرضتُ عليه، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، ولا تردّدتُ في شيء أنا فاعله كتردّدي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولابدّ له منه» ... [ثمّ ذكر معنى الوليّ، كما سيجيء عنه في باب «الولاية وأهل البيت عليهم السلام»].

**المقام الثّاني:** المحبّة، قال الله سبحانه: ﴿**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[2]، والمحبّة عند أرباب هذا الشّأن حالة شريفة.

قال أبو يزيد البَسْطاميّ: المحبّة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القُرَشيّ: المحبّة أن تهب كلّك لمن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شيء، وأكثرهم على نفي صفة العشق، لأنّ العشق مجاوزة الحدّ في المحبّة، والبارئ سبحانه أجلّ من أن يوصف بأنّه قد تجاوز أحد الحدّ في محبّته.

سُئِل الشِّبْليّ عن المحبّة، فقال: هي أن تَغارَ على المحبوب أن يحبّه أحدٌ غيرك.

وقال سمنون: ذهب المحبُّون بشرف الدّنيا والآخرة، لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «المرء مع

---

١ ـ يونس / ٦٢.

٢ ـ المائدة / ٥٤.

مَنْ أحبّ»، فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ حقيقة المحبّة ما لاينقُص بالجفاء ولايزيد بالبرّ.

وقال: ليس بصادق مَنِ ادّعى محبّته ولم يحفظ حدوده.

وقال الجُنَيد: إذا صحّت المحبّة سقطت شروط الأدب.

وأنشد في معناه [الوافر]:

إذا صَفَتِ المودّةُ بينَ قومٍ ودَامَ ودادهمْ سَمُج الثّناء

وكان أبو عليّ الدّقّاق يقول: ألست ترى الأب الشّفيق لايبجّل ولده في الخطاب، والنّاس يتكلّفون في مخاطبته والأب يقول له: يا فلان، باسمه.

وقال أبو يعقوب السّوسيّ: حقيقة المحبّة أن ينسَى العبد حظّه من الله، وينسى حوائجه إليه.

قيل للنّصراباذيّ: يقولون: إنّه ليس لك من المحبّة شيء. قال: صدقوا، ولكنّ لي حسراتهم، فهو ذو احتراق فيه.

وقال النّصراباذيّ أيضًا: المحبّة مجانبة السِّلْو على كلّ حال، ثمّ أنشد [الطّويل]:

ومَن كَانَ في طَوْلِ الهَوَى ذاقَ سَلْوَةً فإنّي من ليلى لها غيرذائقِ

وأكثـــرُ شيءٍ نلتُـــهُ في وصـــالها أماني لَمْ تَصدُقْ كلمحةِ بارقِ

**وكان يقال:** الحبّ أوّله خبل وآخره قتل.

وقال أبو عليّ الدّقّاق في معنى قول النّبيّ ﷺ: «حبّك الشّيء يُعْمي ويُصِمّ»، قال: يُعْمي ويُصِمّ عن الغير إعراضًا وعن المحبوب هَيْبة، ثمّ أنشد [المتقارب]:

إذا مـا بَـدا لي تعاظمتُـهُ فأصدرَ في حالِ مَن لَمْ يَرَه

وقال الجُنَيد: سمعت الحارث المحاسبيّ يقول: المحبّة إقبالك على المحبوب بكلّيّتك، ثمّ إيثارك له على نفسك، ومالك وولدك، ثمّ موافقتك له في جميع الأُمور سرًّا وجهرًا، ثمّ اعتقادك بعد ذلك أنّك مقصّر في محبّته.

وقال الجُنَيد: سمعت السَّريّ يقول: لاتصلح المحبّة بين اثنين حتّى يقول الواحد

للآخر: يا أنا.

وقال الشِّبْليّ: المحبّ إذا سكت هلك، والعارف إذا لم يسكت هلك.

وقيل: المحبّة نار في القلب تحرق ما سوى ودّ المحبوب.

وقيل: المحبّة بذل الجهد، والحبيب يفعل ما يشاء.

وقال الثّوريّ: المحبّة هَتْك الأستار، وكشف الأسرار.

حُبِس الشِّبْليّ في المارستان بين المجانين، فدخل عليه جماعة، فقال: مَنْ أنتم؟ قالوا: محبّوك أيّها الشّيخ. فأقبل يرميهم بالحجارة، ففرّوا، فقال: إذا ادّعيتم محبّتي، فاصبروا على بلائي.

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البَسْطاميّ: قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من كأس محبّته. فكتب إليه أبو يزيد: غيرُك شَرِبَ بحُور السّماوات والأرض وما روِي بعد، ولسانه خارج ويقول: هل من مزيد.

ومن شعرهم في هذا المعنى [الوافر]:

عجبتُ لمن يقول ذكرتُ ربّي ... وهَلْ أنسى فأذكرُ ما نسيتُ!

شربتُ الحبَّ كأسًا بَعدَ كأسٍ ... فما نَفِدَ الشّرابُ ولا رَوِيتُ

**ويقال:** إنّ الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: إذا اطّلعتُ على قلب عَبْدٍ، فلم أجد فيه حُبّ الدّنيا والآخرة ملأتُه من حُبّي.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: إنّ في بعض الكُتُب المنزلة: عبدي أنا وحقّك لك محبّ، فبحقّي عليك كن لي محبًّا.

وقال عبد الله بن المبارك: من أُعطِيَ قسطًا من المحبّة، ولم يعط مثله من الخشية، فهو مخدوع.

وقيل: المحبّة ما تمحو أثرك وتَسْلُبك عن وجودك.

وقيل: المحبّة سكر لا يصحو صاحبه إلّا بمشاهدة محبوبه، ثمّ إنّ السّكر الّذي يحصل عند المشاهدة لا يُوصَف. وأنشد [مخلّع البسيط]:

فأسكَرَ القومُ دَوْرُ كأسٍ وكان سُكرِي مِنَ المُدِيرِ

وكان أبو عليّ الدّقّاق ينشد كثيرًا [البسيط]:

لي سكرتانِ وللنّدمانِ واحدةٌ شيءٌ خُصِصتُ بهِ مِن بينهمْ وَحْدِي

وكان يحيى بن معاذ يقول: مثقال خَرْدَلةٍ من الحُبّ أحَبّ إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حُبّ.

وقال بعضهم: مَن أراد أن يكون محبًّا، فليكن كما حُكِي عن بعض الهند أنّه أحبّ جاريةً، فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفَتَى في وداعها، فدَمَعَتْ إحدى عَيْنَيْه دون الأُخرى، فغمّض الّتي لم تدمع أربعًا وثمانين سنة ولم يَفْتَحها عقوبة، لأنّها لم تبك على فراق حبيبته.

وأنشدوا في هذا المعنى [الوافر]:

بَكَتْ عَيْني غَداةَ البينِ دَمْعًا وأخرى بالبُكاءِ بخلتْ عَلَيْنَا

فعاقبتُ الّتي بخِلَتْ عَلَيْنَا بأن غمّضتها يوم التَّقَيْنَا

وقيل: إنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أنّي حرّمت على القلوب أن يدخلها حبيّ وحُبّ غيري.

وقيل: المحبّة إيثار المحبوب على النّفس كامرأة العزيز لمّا أفرط بها الحُبّ، قالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، وفي الابتداء قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾[2]، فورّكت الذّنب في الابتداء عليه، ونادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة.

وقال أبو سعيد الخَرّاز: رأيتُ النّبيّ صلى الله عليه وآله في المنام، فقلت: يا رسول الله، اعذرني، فإنّ محبّة الله شغلتني عن حبّك، فقال: يا مبارك مَن أحبّ الله فقد أحبّني.

(١١ : ٧٢ ـ ٨٠)

---

١ ـ يوسف / ٥١.

٢ ـ يوسف / ٢٥.

(الخطبة: ٢١٧) ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾[1]:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ لِلهِ عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ. عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ، مَن أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَن أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَن مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنهُ، فَكَأَنَّهُمْ قَطَعُوا الدُّنيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنهَا، أَوْ نُهُوا عَنهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْاسْتِقلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجًا، وَتَجَاوَبُوا نَحِيبًا، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِن مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجًى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ

---

١ ـ النور / ٣٦ ـ ٣٧.

عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ.

يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ.

لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَن لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

**الشّرح:** ... واعلم! أنّ هذا الكلام في الظّاهر صفة حال القُصّاص والمتصدّين لإنكار المنكرات، ألَا تراه يقول: «يذكّرون بأيّام الله» أي بالأيّام الّتي كانت فيها النّقمة بالعصاة، ويخوّفون مقامه من قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1]، ثمّ قال: فَمَن سلك القَصْد حَمِدوه، ومَن عدل عن الطّريق ذمّوا طريقه، وخوّفوه الهلاك، ثمّ قال: يهتفون بالزّواجر عن المحارم في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر.

وهذا كلّه إيضاح لما قلناه أوّلًا؛ أنّ ظاهر الكلام شرح حال القُصّاص وأرباب المواعظ في المجامع والطّرقات، والمتصدّين لإنكار القبائح؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين، الّذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه، وهو عليه السلام دائمًا يكني عنهم، ويرمز إليهم على أنّه في هذا الموضع قد صرّح بهم في قوله: «حتّى كأنّهم يرون ما لا يَرى النّاس، ويسمعون ما لا يسمعون».

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذّكر، ومحاسبة النّفس، والبُكاء والنّحيب، والنّدم والتّوبة، والدّعاء والفاقة، والذّلّة، والحزن، وهو الأسى الّذي ذكر أنّه جرح قلوبهم بطوله.

---

١ ـ الرّحمن / ٤٦.

## [بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم، وهذا موضعه، فنقول: إنّ أوّل مقام من مقامات العارفين، وأوّل منزل من منازل السّالكين التّوبة، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا اِلَى اللهِ جَمِيعًا اَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «التّائب من الذّنب كمَن لا ذَنب له».

وقال عليّ عليه السلام: «ما من شيء أحبّ إلى الله مِن شابٍّ تائبٍ».

والتّوبة في عرف أرباب هذه الطّريقة النّدَم على ما عمل من المخالفة، وترك الزّلّة في الحال، والعزم على ألّا يعود إلى ارتكاب معصية، وليس النّدَم وحده عند هؤلاء توبة، وإن جاء في الخبر: «النّدم توبة»، لأنّه على وزان قوله عليه السلام: «الحجّ عرفة»؛ ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها. ومنهم من قال: يكفي النّدم وحدة، لأنّه يستتبع الرّكنَين الآخرين، لاستحالة، كونه نادمًا على ما هو مُصِرٌّ على مثله، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله.

قالوا: وللتّوبة شروط وترتيبات:

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، وإنّما يصل إلى هذه الجملة بالتّوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زَواجر الحقّ سبحانه؛ يسمع قلبه، فإنّ في الخبر النّبويّ عنه صلى الله عليه وآله: «واعظ كلّ حالٍ الله في قلب كلّ امرئ مسلم».

وفي الخبر: «إنّ في بدن المرء لمَضغة إذا صَلَحت صَلَح جميع البدن ألّا وهي القلب، وإذا فسدت فسد جميع البدن ألّا وهي القلب».

وإذا أفكر العبد بقلبه في سوء صنيعه، وأبصر ما هو عليه من ذميم الأفعال، سَنَحت في قلبه إرادة التّوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمدّه الحقّ سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في طُرُق الرّجوع والتّأهّب لأسباب التّوبة.

---

١ ـ النور / ٣١ .

وأوّل ذلك هجران إخوان السّوء؛ فإنّهم الّذين يحملونه على ردّ هذا القصد وعكس هذا العزم، ويشوشون عليه صحّة هذه الإرادة، ولا يتمّ ذلك له إلّا بالمواظبة على المشاهد والمجالس الّتي تزيده رغبة في التّوبة، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ما عزم عليه ممّا يقوّي خوفه ورجاءه، فعند ذلك تنحلّ عن قلبه عُقْدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال، فيقف عن تعاطي المحظورات، ويكبَح نفسَه بلِجام الخوف عن متابعة الشّهوات، فيفارق الزّلّة في الحال، ويلزم العزيمة على ألّا يعود إلى مثلها في الاستقبال، فإن مَضَى على موجب قصده، ونفذ على مقتضى عَزْمِه، فهو الموفَّق حقًّا، وإن نقضَ التّوبة مرّةً أو مرّات، ثمّ حملته إرادته على تجديدها، فقد يكون مثل هذا كثيرًا، فلا ينبغي قطع الرّجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإنّ لكلّ أجل كتابًا.

وقد حُكي عن أبي سليمان الدّارانيّ أنّه قال: اختلفتُ إلى مجلس قاصّ، فأثّر كلامه في قلبي، فلمّا قمت لم يبق في قلبي شيء، فعدت ثانيًا، فسمعت كلامه فبقي من كلامه في قلبي أثر في الطّريق ثمّ زال، ثمّ عدت ثالثًا، فوَقر كلامه في قلبي، وثبت حتّى رجعتُ إلى منزلي، وكسرت آلات المخالفة، ولزمت الطّريق.

وحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ: فقال: عصفور اصطاد كُرْكيًّا، يعني بالعصفور القاصّ، وبالكركيّ أبا سليمان.

ويُحكَى أنّ أبا حفص الحدّاد ذكر بدايته، فقال: تركت ذلك العمل ـ يعني المعصية ـ كذا وكذا مرّة، ثمّ عدت إليها، ثمّ تركني العمل، فلم أعد إليه.

وقيل: إنّ بعض المريدين تاب، ثمّ وقعت له فترة، وكان يفكّر ويقول: أترى لو عدتُ إلى التّوبة كيف كان يكون حُكمي! فهتف به هاتف: يا فلان، أطعتَنا فشكرناك، ثمّ تركتَنا فأمهلناك، وإن عدتَ إلينا قبلناك، فعاد الفتَى إلى الإرادة.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: التّوبة عَلَى ثلاثة أقسام: فأوّلها التّوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوْبة، فجعل التّوبة بداية، والأوْبة نهاية، والإنابة واسطة بينهما. والمعنى أنّ مَن تاب خوفًا من العقاب فهو صاحب التّوبة ومَن تاب طمعًا في الثّواب فهو صاحب الإنابة، ومَن تاب مراعاة للأمر فقط فهو صاحب الأوبة.

وقال أبو عليّ أيضًا: التّوبة صفة المؤمنين، قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، والإنابة صفة الأولياء، قال سبحانه: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[٢]، والأوبة صفة الأنبياء، قال سبحانه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣].

وقال الجُنَيد: دخلتُ على السَّريّ يومًا، فوجدته متغيّرًا، فسألته، فقال: دخل عليّ شابٌّ، فسألني عن التّوبة، فقلت: ألا تنسى ذَنبَك؟ فقال: بل التّوبة ألا تذكر ذنبك. قال الجنيد: فقلت له: إنّ الأمر عندي ما قاله الشّابّ. قال: كيف؟ قلت: لأنّي إذا كنتُ في حال الجفاء، فنقلني إلى حال الصّفاء، فذِكر الجفاء في حال الصّفاء جَفاء، فسكت السَّريّ.

وقال ذوالنّون المصريّ: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذّابين.

وسُئِل البُوشنجيّ عن التّوبة، فقال: إذا ذكرت الذّنب ثمّ لا تجد حلاوته عند ذكره، فذاك حقيقة التّوبة.

وقال ذوالنّون: حقيقة التّوبة أن تضيق عليك الأرضُ بما رَحُبَتْ حتّى لا يكون لك قرار، ثمّ تضيق عليك نفسك؛ كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[٤].

وقيل لأبي حَفْص الحدّاد: لِمَ تبغِضُ الدّنيا؟ فقال: لأنّي باشرتُ فيها الذّنوب، قيل: فهلّا أحببْتَها، لأنّك وفّقت فيها للتّوبة! فقال: أنا من الذّنب على يقين، ومن هذه التّوبة على ظنّ.

وقال رجل لرابعة العدويّة: إنّي قد أكثرت من الذّنوب والمعاصي، فهل يتوب عليّ

---

١ ـ النّور/ ٣١.

٢ ـ ق / ٣٣.

٣ ـ ص / ٣٠.

٤ ـ التّوبة / ١١٨.

إن تبتُ؟ قالت: لا، بل لوتاب عليك لتبت.

قالوا: ولما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[1] دلّنا ذلك على محبّته لمن صحّت له حقيقة التّوبة، ولا شبهة أنّ مَن قارف الزّلّة فهو من خطئه على يقين، فإذا تاب فإنّه من القبول على شكّ لا سيّما إذا كان من شرط القبول محبّة الحقّ سبحانه له، وإلى أن يبلُغ العاصي محلًّا يجد في أوصافه أمَارة محبّة الله تعالى إيّاه مسافة بعيدة، فالواجب إذًا على العبد إذا علم أنّه ارتكب ما يجب عنه التّوبة دوام الانكسار وملازمة التّنصّل والاستغفار، كما قيل: استشعار الوَجَل إلى الأجَل.

وكان من سنّته عليه السلام دوام الاستغفار، وقال: «إنّه ليُغَانُ على قلبي، فاستغفر الله في اليوم سبعين مرّة»[2].

وقال يحيى بن معاذ: زلّة واحدة بعد التّوبة أقبح من سبعين قبلها.

ويُحكَى أنّ عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: مَن هذا؟ مَن هذا؟ فقالت امرأة قائمة على السّطح: إلى متى تقولون مَن هذا مَن هذا! هذا عبد سقط من عين الله، فابتلاه بما تَرَوْن. فسمع عليّ بن عيسى كلامها، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصّل في الاستعفاء من الوزارة حتّى أُعفِيَ وذهب إلى مكّة فجاور بها.

**ومنها: المجاهدة**، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدّم.

**ومنها: العُزْلة والخلوة**، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء ممّا جاء في ذلك طَرَفًا صالحًا.

---

١ ـ البقرة: ٢٢٢.

٢ ـ أورده ابن الأثير في «النّهاية ٣ : ١٨٠» ، وقال: الغين : الغيم، وغينت السّماء تغان إذا أطبق عليها الغين، وقيل: الغين شجر ملتف؛ أراد ما يغشاه من السّهو الّذي لايخلو منه البشر، لأنّ قلبه أبدًا كان مشغولًا بالله تعالى، فإن عرض له وقتًا ما عارض بشريّ يشغله من أُمور الأُمّة والملّة ومصالحها عدّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار.

**ومنها التّقوى**، وهي الخوف من معصية الله، ومن مظالم العباد، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقٰكُمْ﴾[١]، وقيل: إنّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، أوصِني. فقال: «عليك بتقوى الله، فإنّه جمّاع كلّ خير، وعليك بالجهاد، فإنّه رهبانيّة المسلم. وعليك بذكر الله، فإنّه نور لك».

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٢]: أن يُطاع فلا يعصى ويُذْكَر فلا ينسى، ويُشْكَر فلا يكفر.

وقال النّصراباذيّ: مَن لَزِم التّقوى بادر إلى مفارقة الدّنيا، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَلدَّارُ الْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٣].

وقيل: يستدلّ على تقوى الرّجل بثلاث: التّوكّل فيما لم يَنَلْ، والرّضا[٤] بما قد نال، وحُسن الصّبر على ما فات.

**وكان يقال:** مَن كان رأس ماله التّقوى كَلّت الألسن عن وصف ربحه.

وقد حكوا من حكايات المتّقين شيئًا كثيرًا مثل ما يُحكَى عن ابن سيرين، أنّه اشترى أربعين حُبًّا[٥] سمنًا، فأخرج غلامه فأرةً من حُبّ، فسأله من أيّ حبٍّ أخرجها؟ قال: لا أدري فصبّها كلّها.

وحُكِي أنّ أبا يزيد البَسْطاميّ غسل ثوبَه في الصّحراء ومعه مُصاحب له، فقال صاحبه: نضرب هذا الوتَد في جدار هذا البُستان، ونبسط الثّوب عليه. فقال: لا يجوز ضرب الوتِد في جدار النّاس. قال: فنعلّقه على شجرة حتّى يجفّ. قال: يكسر

---

١ ـ الحجرات / ١٣.

٢ ـ آل عمران / ١٠٢.

٣ ـ الأنعام / ٣٢.

٤ ـ ب: «الشكر»، وما أثبته من: أ.

٥ ـ الحبّ هنا: الجرّة.

الأغصان. فقال: نبسطه على الإذخر[١]. قال: إنّه علف الدَوابّ، لا يجوز أن نستره منها. فولّى ظهره قِبَل الشّمس، وجعل القميص على ظهره حتّى جفّ أحدُ جانبيه ثمّ قلبه حتّى جفّ الجانب الآخر.

**ومنها: الوَرَع**، وهو اجتناب الشُّبهات، وقال ﷺ لأبي هُريرة: «كن وَرِعًا تكن أعبد النّاس».

وقال أبو بكر: كنّا نَدَعُ سبعين بابًا من الحلال مخافةً أن نقع في باب واحد من الحرام.

**وكان يقال:** الورع في المنطق أشدّ منه في الذّهب والفضّة، والزّهد في الرّياسة أشدّ منه في الذّهب والفِضّة، لأنّك تبذلهما في طلب الرّياسة.

وقال أبو عبد الله الجلّاء: أعرف مَن أقام بمكّة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلّا ما استقاه برَكْوته ورِشائه.

وقال بِشْر بن الحارث: أشدّ الأعمال ثلاثة: الجود في القِلّة، والورع في الخلوة، وكلمة الحقّ عند مَن يُخَاف ويُرجَى.

**ويقال:** إنّ أُختَ بشر بن الحارث[٢] جاءت إلى أحمد بن حنبل، فقالت: إنّا نغزل على سطوحنا، فتمرّ بنا مشاعل الظاهريّة، فيقع شعاعها علينا، أفيجوز لنا الغزل في ضوئها؟، فقال أحمد: مَن أنت يا أمَةَ الله؟ قالت: أخت بشر الحافي. فبكى أحمد، وقال: من بيتكم خرج الوَرَع لا تغزلي في ضوء مشاعلهم.

وحكى بعضهم، قال: مررتُ بالبَصرة في بعض الشّوارع، فإذا بمشايخ قُعود وصبيان يلعبون، فقلت: أما تستحيون من هؤلاء المشايخ؟ فقال غلام من بينهم: هؤلاء المشايخ قلّ ورعُهم، فقلّت هيبتُهم.

**ويقال:** إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة، ما صحّ له أن يأكل من تمر

---

١ ـ الإذخر: الحشيش الأخضر.

٢ ـ هو بشر بن الحارث بن عبد الرّحمان أبو نصر الحافي. تاريخ بغداد ٧: ٦٧.

البصرة ولا من رُطَبها حتّى مات ولم يذقه. وكان إذا انقضى أوان الرُّطَب يقول: يا أهل البصرة، هذا بطني ما نقص منه شيء سواء عليّ أكلت من رُطَبكم أو لم آكل.

وقال الحسن: مثقال ذرّة من الوَرَع خيرٌ من ألف مثقال من الصّوم والصّلاة.

ودخل الحسن مكّة فرأى غلامًا من وَلَد عليّ بن أبي طالب، قد أسند ظهره إلى الكعبة، وهو يعظ النّاس، فقال له الحسن: ما مِلاك الدِّين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطّمع. فجعل الحسن يتعجّب منه.

وقال سهل بن عبد الله: مَن لم يَصْحبْه الوَرَع أكل رأس الفيل ولم يشبع.

وحُمل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم، فقبض على مشمّه، وقال: إنّما ينتفع من هذا بريحه، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وسُئِل أبو عثمان الحريريّ عن الورع، فقال: كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في النّزع، فمات الرّجل، فنفث أبو صالح في السّراج فأطفأه، فقيل له في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدّهن الّذي في المسرجة له، فلمّا مات صار إلى الورثة.

**ومنها: الزّهد**، وقد تكلّموا في حقيقته، فقال سفيان الثّوريّ: الزّهد في الدّنيا قَصْرُ الأمل.

وقال الخواصّ: الزّهد أن تترك الدّنيا فلا تبالي مَن أخذها.

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: الزّهد ترك كلّ ما يشغل عن الله.

وقيل: الزّهد تحت كلمتَين من القرآن العزيز: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

**وكان يقال:** مَن صدق في زهده أتته الدّنيا وهي راغمة. ولهذا قيل: لو سقطت قَلَنسُوة من السّماء لما وقعت إلّا عَلَى رأس مَن لا يريدها.

وقال يحيى بن معاذ: الزّهد يُسْعِطُك[2] الخلّ والخَرْدل، والعِرفان يُشِمّك المسك

---

١ ـ الحديد / ٢٣.

٢ ـ سعطه الدّواء وغيره: أدخله في أنفه.

والعنبر.

وقيل لبعضهم: ما الزّهد في الدّنيا؟ قال: ترك ما فيها على مَن فيها.

وقال رجل لذي النّون المصريّ: متى تراني أزهد في الدّنيا؟ قال: إذا زهدتَ في نفسك.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى تراني أدخل حانوت التّوكّل، وألبس رداء الزّهد، وأقعد بين الزّاهدِين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك في السّرّ إلى حدّ لو قَطَعَ الله عنك القوت ثلاثة أيّام لم تضعف في نفسك ولا في يقينك، فأمّا ما لم تبلغ إلى هذه الدّرجة فقعودك على بساط الزّاهدِين جهل؛ ثمّ لا آمن أن تفتضح.

وقال أحمد بن حنبل: الزّهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام، وهو زهد العوامّ. وترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصّ. وترك كلّ ما يشغلك عن الله، وهو زهد العارفين.

وقال يحيى بن معاذ: الدّنيا كالعَرُوس، فطالبها كماشِطتها تحسِّن وجهها، وتعطّر ثوبها، والزّاهد فيها كضَرّتها تُسَخِّم وجهها، وتنتف شعرها وتحرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها، ولا يشعر بها.

وكان النّصراباذيّ يقول في مناجاته: يا مَنْ حَقَنَ دماء الزّاهدين، وسفك دماء العارفين.

**وكان يقال:** إنّ الله تعالى جعل الخير كلّه في بيتٍ، وجعل مفتاحه الزّهد، وجعل الشّرّ كلّه في بيتٍ، وجعل مفتاحه حُبّ الدّنيا.

**ومنها: الصّمت**، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نُكَتًا نافعة في هذا المعنى، ونذكر الآن شيئًا آخر.

قال رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذينّ جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو فليصمت».

وقال أصحاب هذا العِلْم: الصّمت من آداب الحضرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ

﴿الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[١].

وقال مخبرًا عن الجنّ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾[٢].

وقال الله تعالى مخبرًا عن يوم القيامة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٣].

وقالوا: كم بين عبدٍ سكت تصوّنًا عن الكذب والغيبة، وعبدٍ سكت لاستيلاء سلطان الهيبة.

وأنشدوا [الوافر]:

أرتّبُ ما أقولُ إذا افْتَرقْنَا ... وأحْكمُ دائمًا حُجَجَ المَقالِ

فأنساها إذا نحنُ التَقَيْنَا ... وأنطقُ حِينَ أنطقُ بالمحَالِ

وأنشدوا [الطّويل]:

فيا ليلُ كم من حاجةٍ لي مهمّةٍ ... إذا جئتكمْ لم أدرِ باللّيلِ ما هيا

قالوا: وربّما كان سبب الصّمت والسّكوت حيرة البديهة؛ فإنّه إذا ورد كَشْف بغتة، خرست العبارات عند ذلك، فلا بيان ولا نطق، وطمست الشّواهد فلا علم ولا حسّ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤]، فأمّا إيثار أرباب المجاهدة الصّمت، فلما علموا في الكلام من الآفات، ثمّ ما فيه من حطّ النّفس وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميّز من بين أشكاله بحسن النّطق، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام. وهذا نعت أرباب الرّياضة، وهو أحد أركانهم في حُكم مجاهدة النّفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق.

---

١ ـ الأعراف / ٢٠٤.

٢ ـ الأحقاف / ٢٩.

٣ ـ طه / ١٠٨.

٤ ـ المائدة / ١٠٩.

ويقال: إنّ داود الطّائيّ لما أراد أن يقعد في بيته، اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة، لأنّه كان تلميذًا له ويقعد بين أضرابه من العلماء، ولا يتكلّم في مسألةٍ على سبيل رياضته نفسه، فلمّا قَوِيَتْ نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنةً كاملةً قعد في بيته عند ذلك، وآثر العزلة.

ويقال: إنّ عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابًا فاستحسن لفظه، مزّق الكتاب وغيّره.

وقال بشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام فاصْمُت، فإذا أعجبك الصّمت فتكلّم.

وقال سهل بن عبد الله: لا يصحّ لأحدٍ الصّمت حتّى يلزم نفسه الخلوة، ولا يصحّ لأحدٍ التّوبة حتّى يلزم نفسه الصّمت.

ومنها: الخوف، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾[2].

وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[3].

وقال أبو عليّ الدّقّاق: الخوف على مراتب: خوف، وخشية، وهيبة.

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

والخشية من شروط العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰؤُا﴾[5].

والهيبة من شروط المعرفة، قال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾[6].

---

١ ـ السّجدة / ١٦.

٢ ـ البقرة / ٤٠.

٣ ـ النّحل / ٥٠.

٤ ـ آل عمران / ١٧٥.

٥ ـ فاطر / ٢٨.

٦ ـ آل عمران / ٢٨.

وقال أبو عمر الدّمشقيّ: الخائف: مَن يخاف من نفسه أكثر ممّا يخاف من الشّيطان.

وقال بعضهم: مَن خاف مِن شيءٍ هرب منه، ومَن خاف الله هَرَب إليه.

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: ما فارق الخوف قلبًا إلّا خرب.

**ومنها: الرّجاء**، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرّجاء طَرَفًا صالحًا؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ اَجَلَ اللهِ لَاٰتٍ﴾[1].

والفرق بين الرّجاء والتّمنّي، وكون أحدهما محمودًا والآخر مذمومًا أنّ التّمنّي ألّا يسلك طريق الاجتهاد والجدّ، والرّجاء بخلاف ذلك، فلهذا كان التّمنّي يورث صاحِبَه الكسل.

وقال أبو عليّ الرّوذباريّ: الرّجاء والخوف كجناحَي الطّائر، إذا استويا استوى الطّائر وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النّقص، وإذا ذهبا صار الطّائر في حدّ الموت.

وقال أبو عثمان المغربيّ: مَن حمل نفسه على الرّجاء تعطّل، ومَن حمل نفسه على الخوف قَنَط، ولكنّ مِن هذا مرّة ومِن هذا مرّة.

ومن كلام يحيى بن معاذ، ويروي عن عليّ بن الحسين عليهما السّلام: يكاد رجائي لك مع الذّنوب، يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأنّي أجدُني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذّنوب أعتمد على عفوك! وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف.

**ومنها: الحزن**، وهو من أوصاف أهل السّلوك.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لايقطعه مَن فقد الحزن في سنتَين.

في الخبر النّبويّ ﷺ: «إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين».

وفي بعض كُتُب النّبوّات القديمة: «إذا أحبّ الله عبدًا نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدًا جعل في قلبه مِزْمارًا».

---

١ ـ العنكبوت / ٥ .

وروي أنّ رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر.

وقيل: إنّ القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب، كما أنّ الدّار إذا لم يكن فيها ساكن خربت.

وسمعتْ رابعة رجلًا يقول: وا حزناه، فقالت: قُلْ وا قلّة حُزْناه! لو كنتَ محزونًا ما تهيّأ لك أن تتنفّس.

وقال سفيان بن عيينة: لوأنّ محزونًا بكى في أُمّة، لرحم الله تلك الأُمّة ببكائه.

وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول: إذا رأيت محزونًا فأقرِئْه عنّي السّلام.

وكان الحسن البصريّ لا يراه أحد إلّا ظنّ أنّه حديث عهد بمصيبة.

وقال وَكيع يوم مات الفُضَيل: ذهب الحزن اليوم من الأرض.

وقال بعض السَّلَف: أكثر ما يجده [1] المؤمن في صحيفته من الحسنات الحُزْن والهمّ.

وقال الفُضَيل: أدركت السَّلَف يقولون: إنّ لله في كلّ شيء زكاة، فزكاة العقل طول الحزن.

**ومنها: الجوع وترك الشّهوات**، وقد تقدّم ذكر ذلك.

**ومنها: الخشوع والتّواضع**، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [2].

وفي الخبر النّبويّ عنه ﷺ: «لا يدخل الجنّة مَن في قلبه مثقال ذرّة من كِبرٍ، ولا يدخل النّار مَن في قلبه مثقال ذرّةٍ من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله، إنّ المرء لَيحبّ أن يكون ثوبُه حسنًا. فقال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال، إنّما المتكبّر مَن بَطِر الحقّ وغمص النّاس».

وروى أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ كان يعود المريضَ، ويشيّع الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

---

١ ـ ب: «يوجده»، وما أثبته من أ.

٢ ـ المؤمنون/ ٢.

وكان يوم قُرَيظة والنّضير على حمار مخطوم بحبل من ليفٍ، عليه إكاف من ليف.

ودخل مكّة يوم فتحها راكب بعيرٍ برَحْل خَلَق وأنّ ذقنه لتمسّ وسط الرَّحْل خضوعًا لله تعالى وخشوعًا، وجيشه يومئذٍ عشرة آلاف.

قالوا في حدّ الخشوع: هو الانقياد للحقّ. وفي التّواضع: هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم.

وقال بعضهم: الخشوع: قيام القلب بين يدي الحقّ بهم مجموع.

وقال حذيفة بن اليمان: أوّل ما تفقدون من دِينكم الخشوع.

**وكان يقال:** من علامات الخشوع أنّ العبد إذا أغضب أو خولف أو رُدّ عليه استقبل ذلك بالقبول.

وقال محمّد بن عليّ التّرمذيّ: الخاشع مَن خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التّعظيم في قلبه، فماتت حواسّه وحَيي قلبه، وتطامنت جوارحه.

وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدّائم اللّازم للقلب.

وقال الجُنَيد: الخشوع تذلّل القلوب لعلّام الغيوب، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1]، أي خاشعون متواضعون.

ورأى بعضهم رجلًا منقبِض الظّاهر، منكسر السّاهد، قد زوى منكبَيه، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا ـ وأشار إلى صدره ـ لا ها هنا ـ وأشار إلى منكبيه ـ .

وروي أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلًا يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

وقيل: شرط الخشوع في الصّلاة ألّا يعرف مَن على يمينه، ولامَن على شماله.

وقال بعض الصّوفيّة: الخشوع: قُشَعْريرة تردُ على القلب بَغْتةً عند مفاجأة كشف الحقيقة.

**وكان يقال:** مَن لم يتّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

---

١ ـ الفرقان / ٦٣ .

وقيل: إنّ عمربن عبد العزيزلم يكن يسجد إلّا على التّراب.

وكان عمربن الخطّاب يُسرع في المشي ويقول: هو أنجح للحاجة، وأبعد من الزَّهو.

كان رَجاء بن حَيْوة ليلةً عند عمربن عبد العزيزوهو خليفة، فضَعُف المصباح، فقام رجل ليصلحه، فقال: اجْلِسْ، فليس من الكرم أن يستخدِم المرء ضَيْفه. فقال: أنبِه[1] الغلام. قال: إنّها أوّل نَوْمةٍ نامها. ثمّ قام بنفسه فأصلح السّراج، فقال رجاء: أتقوم إلى السّراج وأنت أميرالمؤمنين! قال: قمت وأنا عمربن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمربن عبد العزيز.

وفي حديث أبي سعيد الخُدْريّ أنّ رسول الله ﷺ كان يعلِفُ البعير، ويقمُّ البيت، ويخصف النَّعْل، ويرقع الثّوب، ويحلب الشّاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا أعيت، وكان لايمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السُّوق إلى منزل أهله، وكان يصافح الغنيّ والفقير، ويسلّم مُبتدئًا، ولايُحقِرُما دُعِيَ إليه ولوإلى حَشَف التَّمر، وكان هيّنَ المؤنةِ، لَيّنَ الخُلق، كريم السّجيّة، جميل المعاشرة، طَلْقَ الوجه، بسّامًا من غيرضحك، محزونًا من غيرعبوس، متواضعًا من غيرذلّة، جوادًا من غيرسَرَف، رقيقَ القلب، رحيمًا لكلّ مسلم، ما تجشّأ قطُّ من شِبَع، ولامدّ يده إلى طبع.

وقال الفُضَيل: أوحى الله إلى الجبال أنّي مكلّم على واحد منكم نبيًّا، فتطاولتِ الجبال، وتواضع طور سَيْناء، فكلّم الله عليه موسى لتواضعه.

سُئِل الجُنَيد عن التّواضع، فقال: خَفْض الجناح، ولين الجانب.

ابن المبارك: التّكبرّ على الأغنياء، والتّواضع للفقراء من التّواضع.

وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرّجل متواضعًا؟ قال: إذا لم يَرَلنفسه مقامًا ولاحالًا ولايرى أنّ في الخَلْق مَن هو شرّ منه.

وكان يقال: التّواضع نعمة لايحسد عليها، والتّكبرّ محْنة لايرحَم منها، والعِزّ في التّواضع، فمَن طلبه في الكبرلم يجده.

---

١ ـ ب: «انتبه»، تصحيف.

وكان يقال: الشّرف في التّواضع، والعِزّ في التّقوى، والحُرّيّة في القناعة.

يحيى بن معاذ: التّواضع حَسَنٌ في كلّ أحدٍ؛ لكنّه في الأغنياء أحسن، والتّكبّر سَمِجٌ في كلّ أحدٍ؛ ولكنّه في الفقراء أسمج.

وركب زيد بن ثابت، فدنا ابن عبّاس ليأخذ بركابه، فقال: مَهْ يا بن عمّ رسول الله! فقال: إنّا كذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا. فقال زيد: أرني يدك. فأخرجها، فقبّلها، فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا.

أبو سليمان الدّارانيّ: مَن رأى لنفسه قيمة، لم يذق حلاوة الخدْمة.

يحيى بن معاذ: التّكبّر على مَن تكبّر عليك تواضع.

بِشْر الحافي: سلّموا على أبناء الدّنيا بترك السّلام عليهم.

بلغ عمر بن عبد العزيز أنّ ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه: بلَغني أنّك اشتريتَ خاتمًا وفضّه بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبِع الخاتم، وأشْبِع به ألف بطن، واتّخِذْ خاتمًا من درهَمين، واجعل فضّه حديدًا صينيًّا، واكتب عليه: «رحم الله امرأ عرف قدره».

قُوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب أيّام خلافته باثني عشر درهمًا وهي: قَبَاء، وعمامة، وقميص، وسراويل، ورداء، وخُفّان، وقَلَنسوة.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما سررت قطّ سروري في أيّام ثلاثة، كنت في سفينة وفيها رجل مُضْحِك، كان يلعب لأهل[1] السّفينة، فيقول: كنّا نأخذ العِلْج من بلاد التّرك هكذا، ويأخذ بشعر رأسي فيهزّني، فسرّني ذلك، لأنّه لم يكن في تلك السّفينة أحقر منّي في عينه. وكنت عليلًا في مسجد، فدخل المؤذّن وقال: اخرج، فلم أطق، فأخذ برِجْلي وجرّني إلى خارج المسجد. وكنت بالشّام وعليّ فَرْو، فنظرت إليه فلم أُميّز بين الشّعر وبين القمْل لكثرته.

عرض على بعض الأُمراء مملوكٌ بألوف من الدّراهم، فاستكثر الثّمن، فقال العبد:

---

١ ـ في الأُصول: «أهل».

اشترني يا مولاي، فإنّ خصلة تساوى أكثر من هذا الثّمن. قال: ما هي؟ قال: لو قدّمتني على جميع مماليك وخوّلتني بكلّ مالك لم أغلظ في نفسي، بل أعلم أنّي عبدُك فاشتراه.

تشاجر أبو ذَرّ وبلال، فعيّر أبو ذرّ بلالًا بالسّواد، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا ذَرّ، ما علمت أنّه قد بقي في قلبك شيء من كِبر الجاهليّة، فألقى أبو ذرّ نفسه، وحَلَف ألّا يحمل رأسه حتّى يطأ بلال خدّه بقدمه، فما رفع رأسه حتّى فعل بلال ذلك.

مرّ الحسن بن عليّ عليه السلام بصبيان يلعبون، وبين أيديهم كِسَر خُبز يأكلونها، فدعوه، فنزل وأكل معهم، ثمّ حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: الفضل لهم، لأنّهم لم يجدوا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر ممّا أطعمناهم.

**ومنها: مخالفة النّفس وذكر عيوبها**، وقد تقدّم ذكر ذلك.

**ومنها: القناعة**، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾[1]. قال كثير من المفسّرين: هي القناعة.

وفي الحديث النّبويّ، ويقال: إنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «القناعة كنز لا ينفد».

وفي الحديث النّبويّ أيضًا: «كُن وَرِعًا تَكُن أعبد النّاس، وكُن قنوعًا تَكُن أشكر النّاس، وأحِبَّ للنّاس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمنًا، وأحسن مجاورة مَن جاورك تَكُن مسلمًا، وأقلّ الضّحك، فإنّ كثرة الضّحك تميتُ القلب».

**وكان يقال:** الفقراء أمواتٌ إلّا مَن أحياه الله تعالى بعزّ القناعة.

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: القناعة من الرّضا بمنزلة الورع من الزّهد، هذا أوّل الرّضا وهذا أوّل الزّهد.

**وقيل:** القناعة سكون النّفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات.

---

١ ـ النّحل / ٩٧.

**وقيل:** في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾[١]: إنّه القناعة.

وقال أبو بكر المراغيّ: العاقل مَن دبّر أمر الدّنيا بالقناعة والتّسويف؛ وأنكر أبو عبد الله بن خفيف، فقال: القناعة ترك التّسويف بالمفقود، والاستغناء بالموجود.

**وكان يقال:** خرج العزّ والغنى يجولان، فلقيا القناعة فاستقرّا.

**وكان يقال:** مَن كانت قناعته سمينةً طابت له كلّ مَرَقة.

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب، فقال له: خُذْ يا أبا حازم. فقال: ليس معي درهم، قال: أنا أنظِرُك. قال: نفسي أحسن نَظِرةً لي منك.

**وقيل:** وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع: العزّ في الطّاعة، والذّلّ في المعصية، والهيبة في قيام اللّيل، والحِكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

**وكان يقال:** انتقم من فلان بالقناعة، كما يُنتَقَم مِن قاتلك بالقصاص.

ذو النّون المصريّ: مَن قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وأنشدوا [الوافر]:

وأحْسَنُ بالفَتَى مِن يومِ عارٍ يُنَال به الغَنِي كَرَمٌ وجُوعُ

ورأى رجل حكيمًا يأكل ما تساقط من البَقْل على رأس الماء، فقال له: لو خدمت السّلطان لم تحتَجْ إلى أكل هذا. فقال: وأنت لوقَنَعْتَ بهذا لم تحتج إلى خدمة السّلطان.

**وقيل:** العُقَاب عزيز في مطاره، لا تسمو إليه مطامع الصّيّادين، فإذا طمع في جيفةٍ علِقت على حبالة، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة.

**وقيل:** لمّا نطق موسى بذكر الطّمع، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ اَجْرًا﴾[٢]، قال

---

١ ـ الحجّ / ٥٨.

٢ ـ الكهف / ٧٧.

له الخِضْر: ﴿هٰذَا فَرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[١].

وفسّر بعضهم قوله: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[٢]، فقال: مقامًا في القناعة لا يبلغه أحد.

**ومنها: التّوكّل**، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٣].

قال سهل بن عبد الله: أوّلُ مقامٍ في التّوكّل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميّت بين يدي الغاسل يقلّبه كيف يشاء، لا يكون له حركة، ولا تدبير.

وقال رجل لحاتم الأصمّ: مِن أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٤].

وقال أصحاب هذا الشّأن: التّوكّل بالقلب، وليس ينافيه الحركة بالجسد بعد أن يتحقّق العبد أنّ التّقدير من الله، فإن تعسّر شيء، فبتقديره، وإن تسهّل فبتيسيره.

وفي الخبر النّبويّ أنّه عليه السلام قال للأعرابيّ الّذي ترك ناقته مهملة، فندّت، فلمّا قيل له، قال: توكّلت فتركتُها، فقال عليه السلام: «اعْقِلْ وتَوَكَّلْ».

وقال ذو النّون: التّوكّل الانخلاع من الحول والقوّة، وترك تدبير الأسباب.

وقال بعضهم: التّوكّل ردّ العيش إلى يوم واحد بإسقاط همّ غدٍ.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: التّوكّل ثلاثُ درجات: التّوكّل وهو أدناها، ثمّ التّسليم، ثمّ التّفويض؛ فالأُولى للعوامّ، والثّانية للخواصّ، والثّالثة لخواصّ الخواصّ.

جاء رجلٌ إلى الشِّبْليّ يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارْجَعْ إلى بيتك، فمَن وجدتَ منهم ليس رزقه على الله، فأخْرجه من البيت.

وقال سهل بن عبد الله: مَن طَعَن في التّوكّل فقط طَعَن في الإيمان، ومَن طَعَن في

---

١ ـ الكهف / ٧٨.

٢ ـ ص / ٣٥.

٣ ـ الطّلاق / ٣.

٤ ـ المنافقون / ٧.

الحَرَكة، فقد طَعَن في السُّنّة.

**وكان يقال:** المتوكّل كالطّفل لايعرف شيئًا يأوي إليه إلّا ثدي أُمِّه، كذلك المتوكّل لايهتدي إلّا إلى ربّه.

ورأى أبو سليمان الدّارانيّ رجلًا بمكّة لايتناول شيئًا إلّا شربةً من ماء زمزم، فمضت عليه أيّام، فقال له يومًا: أرأيت لوغارت ـ أي زمزم ـ أيّ شيء كنت تشرب! فقام وقبّل رأسه، وقال: جزاك الله خيرًا حيث أرشدتني، فإنّي كنت أعبد زمزم منذ أيّام، ثمّ تركه ومضى.

**وقيل:** التّوكّل نفي الشّكوك، والتّفويض إلى مالك الملوك.

ودخل جماعة على الجُنَيد، فقالوا: نطلب الرّزق! قال: إن علمتم في أيّ موضع هو فاطلبوه. قالوا: فنسأل الله ذلك. قال: إن علمتم أنّه ينساكم فذكّروه. قالوا: لندخل البيت فنتوكّل. قال: التّجربة شكّ. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وقيل: التّوكّل الثّقة بالله، واليأس عمّا في أيدي النّاس.

**ومنها: الشّكر،** وقد تقدّم منّا ذكر كثير ممّا قيل فيه.

**ومنها: اليقين،** وهو مقام جليل، قال الله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1].

قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: لوكُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقينًا.

وقال سهل بن عبد الله: حرام على قلب أن يشمّ رائحة اليقين، وفيه شكوى إلى غير الله.

وذُكِر للنّبيّ صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنّه مشى على الماء، فقال: لو ازداد يقينًا لمشى على الهواء.

وفي الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال لعبد الله بن مسعود: «لاتُرضِينّ أحدًا بسخط الله، ولاتحمَدَنّ أحدًا على فضل الله، ولاتذمّنّ أحدًا على ما لم يؤتك الله. واعلم! أنّ الرّزق لا يسوقه حرص حريص، ولايردّه كراهة كاره، أنّ الله جعل الرّوح والفَرَج في

---

١ ـ البقرة / ٤ .

الرّضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشّكّ والسّخط».

**ومنها: الصّبر**، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾[1].

وقال عليّ عليه السلام: الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد.

وسُئِل الفُضَيل عن الصّبر، قال: تجرّع المرارة من غير تعبيس.

وقال رويم: الصّبر ترك الشّكوى.

وقال عليّ عليه السلام: الصّبر مطيّة لا تكبُو.

وقف رجل على الشِّبْليّ، فقال: أيّ صبر أشدّ على الصّابرين؟ قال الشِّبْليّ: الصّبر في الله تعالى. فقال: لا. قال: فالصّبر لله. فقال: لا. قال: فالصّبر مع الله تعالى. فقال: لا. قال: فأيّ شيء؟ قال: الصّبر عن الله. فصرخ الشِّبْليّ صَرْخةً عظيمةً ووقع.

**ويقال:** إنّ الشِّبْليّ حبس في المارستان، فدخل عليه قوم، فقال: مَن أنتم؟ قالوا: محبّوك جئناك زائرين. فرماهم بالحجارة، فهربوا، فقال: لو كنتم أحبّائي لصبرتم على بلائي.

وجاء في بعض الأخبار، عن الله تعالى: بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي.

وقال عمر بن الخطّاب: لو كان الصّبر والشّكر بعيرَيْن لم أُبال أيّهما ركبت.

وفي الحديث المرفوع: «الإيمان الصّبر والسّخاء».

وفي الخبر: العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرّفق والده، والبرّ أخوه، والصّبر أمير جنوده. قالوا: فناهيك بشرف خصلة تتأمّر عَلَى هذه الخصال! والمعنى أنّ الثّبات على هذه الخصال واستدامة التّخلّق بها إنّما يكون بالصّبر، فلذلك كان أمير الجنود.

**ومنها: المراقبة**، جاء في الخبر عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّ سائلًا سأله عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك».

وهذه إشارة إلى حال المراقبة، لأنّ المراقبة عِلْم العبد باطّلاع الرّبّ عليه،

---

١ ـ النّحل / ١٢٧.

فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحقّ، وهو أصل كلّ خير، ولايكاد يصل إلى هذه الرّتبة إلّا بعد فراغه عن المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحقّ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس، راقبه تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنّه تعالى رقيب عليه يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله. ومَن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة.

ويُحكَى أنّ مَلِكًا كان يتحظّى جارية له، وكان لوزيره ميل باطن إليها، فكان يسعى في مصالحها، ويرجّح جانبَها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه، فاتّفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْن من الياقوت الأحمر أحدهما أنفَس من الآخر، بمحضر من وزيره، فتحيرّت أيّهما تأخذ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس، وحانت من الملك التفاتة، فشاهد عين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب، فبَقِيَ الوزير بعدها أربعين سنة لايراه الملك قطّ إلّا كاسرًا عينه نحو الجانب الّذي كان طرفُه مائلًا إليه ذلك اليوم، أي كأنّ[1] ذلك خِلْقة. وهذا عزم قويّ في المراقبة، ومثله فليكن حالُ مَن يريد الوصول.

ويُحكَى أيضًا أنّ أميرًا كان له غلام يُقْبِل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمةً ولاأحسنهم صورةً، فقيل له في ذلك: فأحبّ أن يُبيّن لهم فضل الغلام في الخدْمة على غيره، فكان يومًا راكبًا ومعه حشمه، وبالبُعْد منهم جبل عليه ثَلْج، فنظر الأمير إلى الثّلج وأطرق، فركض الغلام فرسه ولم يعلم الغلمان لماذا ركض! فلم يلبث إلّا قليلًا حتّى جاء ومعه شيء من الثّلج، فقال الأمير: ما أدراك أنّي أردتُ الثّلج، فقال: إنّك نظرتَ إليه، ونظر السّلطان إلى شيء لايكون إلّا عن قصدٍ، فقال الأمير لغلمانه: إنّما أختصّه بإكرامي وإقبالي، لأنّ لكلّ واحدٍ منكم شغلًا، وشغله مراعاة لحظاتي ومراقبة أحوالي.

---

١ ـ ب: «أن».

وقال بعضهم: مَن راقب الله في خواطره، عصمه الله في جوارحه.

**ومنها: الرّضا**، وهو أن يرضى العبد بالشّدائد والمصائب الّتي يقضيها الله تعالى عليه، وليس المراد بالرّضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش أونسبتها إلى الرّبّ تعالى عنها، فإنّه سبحانه لا يرضاها، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[1].

وقال: ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[2].

قال رُوَيم: الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لما سخطت عليه.

وقيل لبعضهم: متى يكون العبد راضيًا؟ قال: إذا سرّته المصيبة، كما سرّته النّعمة.

قال الشِّبْليّ مرّة، والجُنَيد حاضر: لاحول ولاقوّة إلّا بالله. فقال الجُنَيد: أرى أنّ قولك هذا ضَيْقُ صَدْر، وضيق الصّدر يجيء من ترك الرّضا بالقضاء.

وقال أبو سليمان الدّارنيّ: الرّضا ألّاتسأل الله الجنّة ولاتستعيذ به من النّار.

وقال تعالى فيمَن سخط قسمته: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[3].

ثمّ نبّه على ما حرموه من فضيلة الرّضا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾[4]، وجواب «لو» هاهنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به.

وفي حذفه فائدة لطيفة، وهو أنّ تقديره: «لرضي الله عنهم»، ولما كان رضاه عن عباده مقامًا جليلًا جدًّا حذف ذكره؛ لأنّ الذّكر له لايُنبئ عن كُنهه وحقيقة فضلِه، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه.

ومن الأخبار المرفوعة أنّه ﷺ قال: «اللّهمّ إنّي أسالك الرّضا بعد القضاء»، قالوا:

---

١ ـ الزُّمَر/ ٧.

٢ ـ الإسراء / ٣٨.

٣ ـ التّوبة /٥٨.

٤ ـ التّوبة /٥٩.

إنّما قال: «بعد القضاء»، لأنّ الرّضا قبل القضاء لايتصوّر، وإنّما يتصوّر توطين النّفس عليه، وإنّما يتحقّق الرّضا بالشّيء بعد وقوع ذلك الشّيء.

وفي الحديث أنّه قال لابن عبّاس يوصيه: «اعْمل لله باليقين والرّضا، فإن لم يكن فاصْبر، فإنّ في الصّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا».

وفي الحديث أنّه ﷺ رأى رجلًا من أصحابه، وقد أجهده المرض والحاجة، فقال: ما الّذي بلغ بك ما أرى؟ قال: المرض والحاجة. قال: أو لا أُعلّمك كلامًا إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك! قال: والّذي نفسي بيده ما يسرّني بحظّي منهما أن شهدت معك بدرًا والحديبيّة. فقال ﷺ: «وهل لأهل بَدْرٍ والحديبيّة ما للرّاضي والقانع!».

وقال أبو الدّرداء: ذِرْوة الإيمان الصّبر والرّضا.

قدم سعد بن أبي وَقّاص مكّة بعد ما كُفّ بَصَره، فانثال النّاس عليه يسألونه الدّعاء لهم، فقال له عبد الله بن السّائب: يا عمّ، إنّك تدعوللنّاس فيُستجاب لك، هلّا دعوت أن يردّ عليك بَصَرَك! فقال: يا بن أخي، قضاء الله تعالى أحبّ إليّ من بصري.

عمر بن عبد العزيز: أصبحتُ وما لي سرور إلّا في مواقع القَدَر.

**وكان يقال:** الرّضا إطراح الاقتراح، على العالم بالصّلاح.

**وكان يقال:** إذا كان القَدَر حقًّا كان سخطه حمقًا.

**وكان يقال:** مَن رَضِيَ حَظِيَ، ومن أطرح الاقتراح أفلح واستراح.

**وكان يقال:** كُن بالرّضا عاملًا قبل أن تكون له معمولًا وسُرْ إليه عادلًا وإلّا سرْت نحوه معدولًا.

وقيل للحسن: مِن أين أُتِيَ الخلق؟ قال: مِن قلّة الرّضا عن الله. فقيل: ومِن أين دَخَلَتْ عليهم قلّة الرّضا عن الله؟ قال: مِن قلّة المعرفة بالله.

وقال صاحب[1] «سُلْوان المطاع» في الرّضا[1] [مجزوء الكامل]:

---

١ ـ هو شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن ظفر المكّيّ، المتوفّى سنة ٥٦٥.

يا مفزعي فيما يجي ء وراحمي فيما مـضَى
عندي لما تقضيه ما يـرضيك من حسن الرّضا
ومن القــطيعـة أستعيـ ـذُ مُصرّحًـا ومعرّضًـا

وقال أيضًا[٢] [مجزوء الكامل]:

كن من مدبّرك الحكيـ ـم عَلَا وجَلّ على وَجَلْ
وأرضَ القضاءَ فإنّهُ حـتم أجل ولـه أجَلْ

وقال أيضًا[٣] [السّريع]:

يا من يَرَى حالي وأن ليس لِي في غيرقُربي منه أوْطَارُ
ولــيس لي ملتحــد دونــه ولاعليــهِ لِيَ أنصــارُ
حاشـا لـذاكَ العِـزّ الفضـل أن يهلك مَن أنتَ لَهُ جارُ
وإن تَشَأ هُلْكي فهبْ لي رضًا بكـلّ مـا تقضـي وتختـارُ
عنـدي لأحكامـكَ يـا مـالكي قلبٌ كما أنعمتَ صبّارُ
كـلّ عـذابٍ منـكَ مُسْـتَعْذَبٌ ما لم يكن سخطكَ والنّارُ

**ومنها: العبوديّة**، وهي أمر وراء العبادة، معناها التّعبّد والتّذلّل. قالوا: العبادة للعوامّ من المؤمنين، والعبوديّة للخواصّ من السّالكين.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: العبادة لمن له علم اليقين، والعبوديّة لمن له عين اليقين.

وسُئِل محمّد بن خفيف: متى تصحّ العبوديّة؟ فقال: إذا طرح كلّه على مولاه، وصبر معه على بَلواه.

وقال بعضهم: العبوديّة معانقة ما أُمِرتَ به، ومفارقة ما زُجِرتَ عنه.

---

١ ـ سُلْوان المطاع: ٦٦.

٢ ـ نفس المرجع: ٦٦.

٣ ـ نفس المرجع: ٦٦ ـ ٦٧.

وقيل: العبوديّة أن تَسْلِم إليه كُلّك، وتحمل عليه كَلّك.

وفي الحديث المرفوع: «تَعِس عبد الدِّينار وتَعِس عبد الخبيصة».

رأى أبو يزيد البَسْطاميّ رجلًا، فقال له: ما حِرْفتك؟ قال خَرْبنده، قال: أمات الله حِمارك؛ لتكون عبدًا لله لا عبدًا للحمار.

وكان ببغداد في رباط شيخ الشّيوخ، صوفيّ كبير اللِّحية جدًّا ، وكان مغرًى ومعنىً بها أكثر زمانه، يدهنها ويسرّحها، ويجعلها ليلًا عند نومه في كيس، فقام بعض المريدين إليه في اللّيل، وهو نائم، فقصّها من الأُذن إلى الأُذن، فأصبحت كالصّريم، وأصبح الصّوفيّ شاكيًا إلى شيخ الرّباط، فجمع الصّوفيّة وسألهم، فقال المريد: أنا قصصتُها. قال: وكيف فعلتَ ويلك ذلك! قال: أيّها الشّيخ، إنّها كانت صَنَمه، وكان يعبدها من دون الله، فأنكرت ذلك بقلبي وأردت أن أجعلَه عبدًا لله لا عبدًا لِلِّحية.

قالوا: وليس شيء أشرف من العبوديّة ولااسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبوديّة، ولذلك قال سبحانه في ذكر النّبيّ ﷺ ليلة المعراج، وكان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدّنيا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[2]، فلوكان اسم أجلّ من العبوديّة لسمّاه به. وأنشدوا [السّريع]:

لاتدعُني إلّا بِيا عَبْدها فإنّهُ أشرفُ أسمائي

**ومنها: الإرادة**، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[3].

قالوا: الإرادة هي بدء طريق السّالكين، وهي اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله، وإنّما سمّيت هذه الصّفة إرادة، لأنّ الإرادة مقدّمة كلّ أمر، فما لم يرد العبد شيئًا لم يفعله، فلمّا كان هذا الشّأن أوّل الأمر لمن يسلك طريق الله سُمّي إرادة، تشبيهًا له

---

١ ـ الإسراء / ١.

٢ ـ النّجم / ١٠.

٣ ـ الأنعام / ٥٢.

بالقصد إلى الأُمور الّتي هو مقدّمتها.

قالوا: والمريد على موجب الاشتقاق مَن له إرادة؛ ولكنّ المريد في هذا الاصطلاح مَن لا إرادة له، فما لم يتجرّد عن إرادته لا يكون مريدًا، كما أنّ مَن لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريدًا.

وقد اختلفوا في العبارات الدّالّة على ماهيّة الإرادة في اصطلاحهم:

فقال بعضهم: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة النّاس في الغالب التّعريج على أوطان الغفلة، والرّكون إلى اتّباع الشّهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنيّة، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة.

وقال بعضهم: الإرادةُ نهوض القلب في طلب الرّبّ، ولهذا قيل: إنّها لوعة تهوّن كلّ روعة.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: الإرادة لوعةٌ في الفؤاد، ولذعةٌ في القلب، وغرامٌ في الضّمير، وانزعاج في الباطن، ونيران تأجّج في القلوب.

وقال ممشاذ الدِّينوريّ: مذ علمت أنّ أحوال الفقراء جِدٌّ كلّها لم أمازح فقيرًا، وذلك أنّ فقيرًا قدم عليّ، فقال: أيّها الشّيخ، أُريد أن تتّخذ لي عصيدة. فجرى على لساني «إرادة وعصيدة»، فتأخّر الفقير ولم أشعر، فأمرتُ باتّخاذ عصيدة، وطلبته فلم أجده، فتعرّفتُ خبره، فقيل: إنّه انصرف من فوره، وهو يقول: «إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة!»، وهامَ على وجهه حتّى خرج إلى البادية، وهو يكرّر هذه الكلمة، فما زال يقول ويردّدها حتّى مات.

وحكى بعضهم، قال: كنت بالبادية وحدي، فضاق صدري، فصحتُ: يا إنس كلّموني، يا جنّ كلّموني! فهتف هاتفٌ: أيّ شيء ناديت؟ فقلت: الله. فقال الهاتف: كذبتَ، لو أردته لما ناديت الإنس ولا الجنّ.

فالمريد هو الّذي لا يشغله عن الله شيء، ولا يفتر آناء اللّيل وأطراف النّهار، فهو في الظّاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، فارَقَ الفراش، ولازم الانكماش، وتحمّل المصاعب، وركب المتاعب، وعالج الأخلاق، ومارس المشاقّ،

وعانق الأهوال، وفارق الأشكال، فهو كما قيل [السّريع]:

ثمّ قطعتُ اللّيلَ في مَهْمَهٍ لا أسدًا أخشى ولا ذِيبَا
يغلبني شَوقي فأطوي السُّرَى ولَمْ يَزَلْ ذو الشّوقِ مغلوبَا

**وقيل:** من صفات المريدين التّحبّب إليه بالتّوكّل، والإخلاص في نصيحة الأُمّة، والأُنس بالخلوة، والصّبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبّته، والتّعرّض لكلّ سبب يُوصِل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم الفرار من القلب إلى أن يصل إلى الرّبّ.

**وقال بعضهم:** آفة المريد ثلاثة أشياء: التّزويج، وكتبه الحديث، والأسفار.

وقيل: مِن حُكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومُه غَلبة، وأكلُه فاقة، وكلامه ضرورة.

**وقال بعضهم:** نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجده مع الإشارة، فقيل له: وأيّ شيء يستوعِبُ الإرادة؟ فقال: أن يجد الله بلا إشارة.

وسُئِل الجُنَيد: ما للمريدين وسماع القصص والحكايات؟ فقال: الحكايات جُندٌ من جند الله تعالى يقوّي بها قلوب المريدين. فقيل له: هل في ذلك شاهد؟ فتلا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1].

وقال أصحاب الطّريقة: بين المريد والمراد فرقٌ؛ فالمريد مَن سَلَك الرّياضة طلبًا للوصول. والمراد: مَن فاضت عليه العناية الإلهيّة ابتداءً، فكان مخطوبًا لا خاطبًا. وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم.

قالوا: كان موسى عليه السلام مريدًا، قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[2]، وكان

---

١ ـ هود / ١٢٠ .

٢ ـ طه / ٢٥ .

محمّد ﷺ مرادًا، قال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[١].

وسُئِل الجُنَيد عن المريد والمراد، فقال: المريد سائر، والمراد طائر، ومتى يلحَقُ السّائر الطّائر.

أرسل ذو النّون المصريّ رجلًا إلى أبي يزيد، وقال له: إلى متى النّوم والرّاحة! قد سارت القافلة! فقال له أبو يزيد: قل لأخي: الرّجُل مَن ينام اللّيل كلّه، ثمّ يصبح في المنزل قبل القافلة. فقال ذو النّون: هنيئًا له! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا.

وقد تكلّم الحكماء في هذا المقام، فقال أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات»: أوّل درجات حركات العارفين ما يسمّونه هم الإرادة، وهو ما يعترى المستبصر باليقين البرهانيّ، أو السّاكن النّفس إلى العقد الإيمانيّ، من الرّغبة في اعتلاق العروة الوثقى، فيتحرّك سرّه إلى القدس، لينال من روح الا تّصال، فما دامت درجته هذه فهو مريد.

ثمّ إنّه لَيحتاج إلى الرّياضة، والرّياضة موجّهة إلى ثلاثة أغراض:

**الأول:** تنحية ما دون الحقّ عن سُنَن الإيثار.

**والثّاني:** تطويع النّفس الأمّارة للنّفس المطمئنّة، لتَنجذب قوى التّخيّل والوهم إلى التّوهّمات المناسبة للأمر القدسيّ، منصرفة من التّوهّمات المناسبة للأمر السّفليّ.

**والثّالث:** تلطيف السّرّ لنفسه. فالأوّل يُعِين عليه الزّهد الحقيقيّ، والثّاني يُعينُ عليه عدّة أشياء: العبادة المشفوعة بالفكرة، ثمّ الألحان المستخدمة لقوى النّفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القَبول من الأوهام، ثمّ نفس الكلام الواعظ من قائل ذكيّ بعبارة بليغة ونغمة رخيمة، وسمتٍ رشيد. والثّالث يُعين عليه الفكر اللّطيف والعشق العفيف الّذي تتأمّر فيه شمائل المعشوق دون سلطان الشّهوة.

**ومنها: الاستقامة**، وحقيقتها الدّوام والاستمرار على الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٢].

---

١ ـ الشّرح / ١.

٢ ـ فصّلت / ٣٠.

وسُئِل بعضهم عن تارك الاستقامة، فقال: قد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [١].

وفي الحديث المرفوع: «شَيَّبَتْني هود»، فقيل له في ذلك، فقال: قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [٣]، فلم يقل: «سقيناهم»، بل ﴿أَسْقَيْنَاهُمْ﴾، أي جعلنا لهم سُقْيًا دائمةً، وذلك لأنّ مَن دام على الخدمة دامت عليه النّعمة.

**ومنها: الإخلاص**، وهو إفراد الحقّ خاصّة في الطّاعة بالقصد والتّقرّب إليه بذلك خاصّة، من غير رياءٍ، ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنّع لمخلوقٍ، أو اكتساب محْمَدَة بين النّاس، أو محبّة مدح، أو معنًى من المعاني، ولذلك قال أربابُ هذا الفنّ: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

وقال الخواصّ من هؤلاء القوم: نقصانُ كلّ مخلِصٍ في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلّص إخلاصَ عبدٍ أسقطَ عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلَصًا لا مخْلِصًا.

وجاء في الأثر عن مكحول: ما أخلص عبدٌ لله أربعينَ صباحًا إلّا ظهرتْ ينابيع الحِكمة من قلبه على لسانه.

**ومنها: الصّدق**، ويطلق على معنيَين: تجنّب الكذب، وتجنّب الرّياء. وقد تقدّم القول فيهما.

**ومنها: الحياء**، وفي الحديث الصّحيح: «إذا لم تستحي فاصْنَعْ ما شئت».

---

١ ـ النّحل / ٩٢.

٢ ـ هود / ١١٢.

٣ ـ الجنّ / ١٦.

وفي الحديث أيضًا: «الحياء من الإيمان»، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[1]، قالوا: معناه ألم يستحي!

وفي الحديث أنّه قال لأصحابه: «استحيوا من الله حقّ الحياء». قالوا: إنّا لنستحيي ونحمد الله. قال: «ليس كذلك، مَنِ استحيا من الله حقّ الحياء، فليحفظ الرّأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت وطول البِلى، وليترك زينة الحياة الدّنيا، فمن فعَل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء».

وقال ابن عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإذا ذهبا لم يبق خير.

وقال ذو النّون: الحبّ ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وقال السّريّ: الحياء والأُنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزّهد والورع حَطّا وإلّا رحلا.

**وكان يقال:** تعامل القرن الأوّل من النّاس فيما بينهم بالدّين حتّى رقّ الدّين، ثمّ تعامل القرن الثّاني بالوفاء حتّى ذهب الوفاء، ثمّ تعامل القرن الثّالث بالمروءة حتّى فَنِيَت المروءة، ثمّ تعامل القرن الرّابع بالحياء حتّى قَلّ الحياء، ثم صار النّاس يتعاملون بالرّغبة والرّهبة.

وقال الفُضَيل: خمس من علامات الشّقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلّة الحياء، والرّغبة في الدّنيا، وطول الأمل.

وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[2]، أنّها كان لها صنم في زاوية البيت، فَحَضَتْ فألقت على وجهه ثوبًا، فقال يوسف: ما هذا؟ قالت: أستحيي منه. قال: فأنا أولى أن أستحيي من الله.

وفي بعض الكُتُب القديمة: ما أنصفني عبدي! يدعوني فأستحيي أن أردّه، ويعصيني وأنا أراه، فلا يستحيي منّي.

---

١ ـ العلق/١٤.

٢ ـ يوسف/ ٢٤.

**ومنها: الحرّيّة**، وهو ألّا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات، لا من أغراض الدّنيا، ولا من أغراض الآخرة؛ فيكون فردًا لفرد لا يسترقّه عاجل دنيا ولا آجل مُنى، ولا حاصل هوى، ولا سؤال ولا قصد ولا أرَب.

قال له ﷺ بعض أصحاب الصُّفّة: قد عزفتْ نفسِي يا رسول الله عن الدّنيا، فاستوى عندي ذَهَبُها وحَجَرُها. قال: صِرْتَ حُرًّا.

وكان بعضهم يقول: لو صحّتْ صلاة بغير قرآن لصحّت بهذا البيت [الخفيف]:

أتمنّى على الزّمانِ مُحالًا أن تَرَى مقلتايَ طَلْعَةَ حُرِّ

وسُئِل الجُنَيد عمّن لم يبق له من الدّنيا إلّا مقدار مصّ نواة، فقال: المكاتب عبد ما بَقِي عليه درهم.

**ومنها: الذّكر**، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وروى أبو الدّرداء أنّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أُنبّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند خالقكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطائكم الذّهب والفضّة في سبيل الله، ومن أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: ما ذلك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله».

وفي الحديث المرفوع: «لا تقوم السّاعة على أحدٍ يقول: الله الله».

وقال أبو عليّ الدّقّاق: الذّكر منشور الولاية، فَمَن وفّق للذّكر فقد أُعطيَ المنشور، ومَن سُلِبَ الذّكر، فقد عزل.

وقيل: ذِكْر الله تعالى بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات الّتي تقصدهم. وإنّ البلاء إذا أظلّ العبد ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كلّ ما يكرهه.

وفي الخبر المرفوع: «إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا فيها». قيل: وما رياض الجنّة؟ قال: «مجالس الذِّكر».

---

١ ـ الأحزاب/٤١.

وفي الخبر المرفوع: «أنا جليس مَن ذكرني».

وسمع الشِّبْليّ هو ينشد [الطويل]:

ذكرتُـــكَ لا أنّي نســـيتُكَ لمحـــةً وأيسـرُ مـا في الـذِّكْرِ ذِكْـرُ لسـاني
فكـدتُ بـلا وَجْـدٍ أمـوتُ مِـنَ الهَـوَى وهـامَ عـلَيَّ القلـبِ بالخفَقَـانِ
فلمّـا أراني الوجـد أنّـكَ حاضِـري شـهدتُك موجـودًا بكـلِّ مكـانِ
فخاطبـتُ موجـودًا بغيـرِ تكلّـمٍ ولاحظـتُ معلومًـا بغيـرِ عَيَـانِ

**ومنها: الفتوّة**، قال سبحانه مخبرًا عن أصحاب الأصنام: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرٰهِيمُ﴾[1].

وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2].

وقد اختلفوا في التّعبير عن الفتوّة ما هي؟ فقال بعضهم: الفتوّة: ألّا ترى لنفسك فضلًا على غيرك.

وقال بعضهم: الفتوّة: الصّفح عن عَثرات الإخوان.

وقالوا: إنّما هتف المَلَك يوم أُحُد بقوله [مجزوء الكامل]:

لا ســـيف إلّا ذوالفقـــا رِ، ولا فَـــتًى إلّا عـــليّ

لأنّه كسر الأصنام، فسُمّيَ بما سُمّي به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذَاذًا.

قالوا: وصنم كلّ إنسان نفسه، فَمَنْ خالف هواه فقد كسر صَنَمَه، فاستحقّ أن يطلق عليها لفظ الفتوّة.

وقال الحارث المحاسبيّ: الفتوّة أن تنصِف ولاتنتصف.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سُئِل أبي عن الفتوّة، فقال: ترك ما تهوَى

---

١ ـ الأنبياء / ٦٠.

٢ ـ الكهف / ١٣.

لما تخشى.

وقيل: الفتوّة ألّا تدّخر ولا تعتذر.

سأل شَقيق البلخيّ جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن الفتوّة، فقال: ما تقول أنت؟ قال: إن أُعطِينا شكرنا، وإن مُنِعنا صبرنا. فقال: إنّ الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها، ولكن قُلْ: إن أُعطِينا آثرنا، وإن مُنِعنا شكرنا.

**ومنها: الفراسة**، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]، أي للمتفرّسين، وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّها لا تخطئ».

**قيل:** الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب حتّى شهدت الأشياء من حيث أشهدها الحقّ إيّاها، وكلّ مَن كان أقوى إيمانًا كان أشدّ فراسة.

**وكان يقال:** إذا صحّت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة.

**ومنها: حُسن الخُلق**، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيّه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وقيل له صلى الله عليه وآله: أيّ المؤمنين أفضل إيمانًا؟ فقال: أحسنهم خُلقًا. وبالخُلق تظهر جواهر الرّجال، والإنسان مستور بخُلقه مشهور بخَلْقِه.

وقال بعضهم: حُسن الخُلق استصغار ما مِنك واستعظام ما إليك.

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّكم لن تَسَعُوا النّاس بأموالكم، فسعُوهم بأخلاقكم».

قيل لذي النّون: مَن أكبر النّاس همًّا؟ قال: أسوؤهم خُلقًا.

**وكان يقال:** ما تخلّق أحد أربعين صباحًا بخُلُقٍ إلّا صار ذلك طبيعة فيه.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[3]، أي وخُلُقك فحسّن.

شتم رجلُ الأحنف بن قيس، وجعل يتبعه ويشتُمه، فلمّا قرب الحيّ وقف، وقال:

---

١ ـ الحجر/ ٧٥.

٢ ـ القلم/ ٤.

٣ ـ المدّثر/ ٤.

يا فتى إن كان قد بقي في قلبك شيء فقُلْه، كيلا يسمَعك سفهاء الحيّ فيجيبوك.

**ويقال:** إنّ معروفًا الكرخيّ نزل دِجْلة ليسبَح، ووضع ثيابه ومصحَفه، فجاءت امرأة فاحتملتهما، فتبعها وقال: أنا معروف الكرخيّ، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ؟ قالت: لا. قال: أفلك بعل؟ قالت: لا. قال: فهاتي المصحف وخذي الثّياب.

قيل لبعضهم: ما أدب الخُلُق؟ قال: ما أدّب الله به نبيّه في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

**يقال:** إنّ في بعض كُتُب النّبوّات القديمة: يا عبدي، اذكرني حين تغضَب، أذكرك حين أغضب.

قالت امرأةٌ لمالك بن دينار: يا مرائي! فقال: لقد وجدتِ اسمي الّذي أضلّه أهلُ البصرة.

قال بعضهم، وقد سئل عن غلام سوء له: لمَ يُمْسِكُه؟ قال: أتعلَم عليه الحِلْم.

**وكان يقال:** ثلاثة لايُعْرَفون إلّا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشّجاع عند الحرب، والصّديق عند الحاجة إليه.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2]، الظّاهرة تسوية الخَلْق، والباطنة تصفية الخُلُق.

الفُضَيل: لَأن يصحبني فاجر حَسَنُ الخُلُق أحبّ إليّ مِن أن يصحبني عابد سيّئ الخُلُق.

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراريّ، فاستقبله جنديّ، فسأله: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجّه وأدماه، فلمّا جاوزه قيل له: إنّ ذلك إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان! فردّ إليه يعتذر، فقال إبراهيم: إنّك لما ضربتَني سألتُ الله لك الجنّة. قال: لمَ سألت ذلك؟ قال: علمت أنّي أُوجر على ضربك لي، فلم أرد أن يكون

---

١ ـ الأعراف / ١٩٩.

٢ ـ لقمان / ٢٠.

نصيبي منك الخير، ونصيبك منّي الشّرّ.

وقال بعض أصحاب الجُنَيد: قَدِمْتُ من مكّة، فبدأت بالشّيخ كي لايتعنّى إليّ، فسلّمت عليه، ثمّ مضيتُ إلى منزلي، فلمّا صلّيت الصّبح في المسجد، إذا أنا به خَلْفي في الصّفّ، فقلت: إنّما جئتك أمس لئلّا تتعنّى فقال: ذلك فضلك وهذا حقُّك.

كان أبو ذرّ على حوضٍ يسقي إبله، فزاحمه إنسان فكسر الحوض، فجلس أبو ذرّ، ثمّ اضطجع، فقيل له في ذلك، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ: «إذا غضب الرّجل وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه وإلّا فليضطجع».

دعا إنسان بعض مشاهير الصّوفيّة إلى ضيافة، فلمّا حضر باب داره ردّه واعتذر إليه، ثمّ فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة، والصّوفيّ لايغضب ولايضجر، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخُلُق، فقال: إنّما تمدحني على خُلُقٍ تجد مثله في الكَلْب، إن دعوته حضر، وإن زجرته انزجر.

مرّ بعضهم وقت الهاجرة بسكّة، فأُلْقِيَ عليه من سَطح طست رماد، فغضب مَن كان في صحبته، فقال: لا تغضبوا، مَنِ استحقّ أن يُصَبّ عليه النّار فصولح على الرّماد ، لم يجزله أن يغضب.

كان لبعض الخيّاطين جارٌ يدفع إليه ثيابًا فيخيطها، ويدفع إليه أجرتها دراهم زُيوفًا، فيأخذها، فقام يومًا من حانوته، واستخلف ولده، فجاء الجار بالدّراهم الزّائفة فدفعها إلى الولد فلم يقبلْها، فأبدلها بدراهم جيّدة، فلمّا جاء أبوه دفع إليه الدّراهم، فقال: وَيْحك! هل جرى بينك وبينه أمر؟ قال: نعم،إنّه أحضر الدّراهم زُيوفًا، فرددتها فأحضر هذه. فقال: بئس ما صنعت! إنّه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزّائف وأصبر عليه، وألقيها في بئرٍ كي لا يغرّ غيري بها!

وقيل: الخُلُق السّيّئ هو أن يضِيقَ قلب الإنسان عن أن يتّسع لغير ما تحبّه النّفس وتؤثره، كالمكان الضّيق لا يسع غير صاحبه.

وكان يقال: من سوء الخُلُق أن تقف على سوء خُلُق غيرك، وتعيبه به.

قيل لرسول الله: ادْعُ الله على المشركين. فقال: «إنّما بعثتُ رحمةً، ولم أبعث عذابًا».

دعا عليّ عليه السلام غلامًا له مرارًا؛ وهو لا يجيبه، فقام إليه، فقال: ألا تسمع يا غلام! قال: بلى. قال: فما حملك على ترك الجواب؟ قال: أمْني لعقوبتك. قال: اذْهَب فأنت حُرّ.

**ومنها: الكتمان**، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استعينوا على أُموركم بالكتمان».

وقال السّريّ: علامة الحبّ الصّبر والكتمان، ومَن باح بسرّنا فليس منّا.

وقال الشّاعر[البسيط]:

كتمتُ حبّكَ حتّى مِنكَ تَكْرِمَةً ثمّ استوى فيكَ إسراري وإعلاني

كأنّهُ غاضَ حتّى فاضَ عن جَسَدي فصارَ سقمي بهِ في جسمِ كتماني

وهذا ضدّ ما يذهب إليه القوم من الكتمان، وهو عذر لأصحاب السّرّ والإعلان.

**وكان يقال:** المحبّة فاضحة، والدّمع نمام.

وقال الشّاعر[الخفيف]:

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينيَ خَيرًا وجَزَى اللهُ كلّ خيرٍ لساني

فاضَ دمعي فليسَ يكتُمُ شيئًا ووجدتُ اللّسانَ ذا كتمانِ

**يقال:** إنّ بعض العارفين أوصَى تلميذه بكتمان ما يطّلع عليه من الحال، فلمّا شاهد الأمر غلب، فكان يطّلع في بئر في موضع خالٍ، فيحدّثها بما يشاهد، فنبتت في تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكى كلام ذلك التّلميذ، كما يحكى الصّدى كلام المتكلّم، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء. وأنشدوا [الكامل]:

أبــدًا تَحِــنّ إلــيكمُ الأرواحُ ووصالكمْ رَيْحانها والرَّاحُ

وقلوبُ أهلِ ودادِكمْ تشتاقكمْ وإلى لقاءِ جمالِكمْ ترتاحُ

وا رحمــةً للعاشــقينَ تحمّلــوا ثقلَ المحبّةِ والهَوَى فَضّاحُ

بالسّرِ إن باحوا تُباح دماؤهمْ وكذا دماء البائحينَ تُباحُ

وقال الحسين بن منصور الحلاّج [البسيط]:

إنّي لأكتمُ من عِلمي جَواهِرَهُ كي لايَرَى العلمُ ذوجهلٍ فَيَفْتَتِنَا
وقد تقدّمني فيه أبو حَسَنٍ إلى الحسينِ وأوصى قبلَهُ الحَسَنَا
يا رُبَّ مكنونِ علمٍ لو أبوحُ بِهِ لَقِيلَ لي أنتَ ممّن يَعبُدُ الوَثَنَا
ولَاستَحَلّ رِجالٌ صالحونَ دمِي يَرَوْنَ أقبح ما يأتونَهُ حَسَنَا

**ومنها: الجود والسّخاء والإيثار**، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْكَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

وقال النّبيّ ﷺ: السّخيّ قريبٌ من الله، قريبٌ من النّاس. والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من النّاس. وإنّ الجاهل السّخيّ أحبّ إلى الله من العابد البخيل.

قالوا: لا فرق بين الجود والسّخاء في اصطلاح أهل العربيّة، إلّا أنّ البارئ سبحانه لا يُوصَف بالسّخاء، لأنّه يشعر بسماح النّفس عقيب التّردّد في ذلك، وأمّا في اصطلاح أرباب هذه الطّريقة، فالسّخاء هو الرّتبة الأُولى، والجود بعده ثمّ الإيثار، فَمَن أعطى البعض وأبقى البعض، فهو صاحب السّخاء، ومن أعطى الأكثر وأبقى لنفسه شيئًا فهو صاحب الجود، والّذي قاسَى الضَّرّاء وآثر غيره بالبُلْغَة، فهو صاحب الإيثار.

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ: ما أحبّ أن أردّ أحدًا عن حاجة طلبها، إن كان كريمًا صُنتُ عِرْضَه عن النّاس، وإن كان لئيمًا صُنتُ عنه عِرْضي.

كان مؤرّق العجليّ يتلطّف في برّ إخوانه يضع عندهم ألف درهم، ويقول: أمسكوها حتّى أعودَ إليكم، ثمّ يرسل إليهم أنتم منها في حلّ.

**وكان يقال: الجود إجابة الخاطر الأوّل.**

وكان أبو الحسن البوشنجيّ في الخلاء، فدعا تلميذًا له، فقال: انزع عنّي هذا

---

١ ـ الحشر/ ٩.

القميص وادْفَعْه إلى فلان. فقيل له: هلّا صبرت! فقال: لم آمن على نفسي أن تغيّر على ما وقع لي من التّخلّق معه بالقميص.

رُئِي عليّ عليه السلام يومًا باكيًا، فقيل له: لمَ تبكي؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيّام؛ أخاف أن يكون الله قد أهانني.

أضاف عبد الله بن عامر رجلًا فأحسن قِرَاه، فلمّا أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه، فسُئِل عن ذلك، فقال: إنّهم إنّما يعينون مَن نزل علينا لا مَن ارتحل عنّا.

**ومنها: الغيرة**، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا أحد أغْيرُ من الله، إنّما حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته».

وفي حديث أبي هريرة: «إنّ الله لَيغار وإنّ المؤمن لَيغار».

قال: والغيرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقّك.

**وقيل**: الغيرة الأَنفة والحميّة.

وحُكِي عن السّريّ أنّه قُرِئ بين يديه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾[1]، فقال لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغَيرة، ولا أحد أغْير من الله.

قالوا: ومعنى حجاب الغَيرة، أنّه لما أصرّ الكافرون على الجحود عاقبهم بان لم يجعلْهم أهلًا لمعرفة أسرار القرآن.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: إنّ أصحاب الكسل عن عبادته هم الّذين ربط الحقّ بأقدامهم مثقلة الخذلان، فاختارلهم البُعْد وأخّرهم عن محلّ القرب، ولذلك تأخّروا.

وفي معناه أنشدوا، فقالوا [الخفيف]:

أنا صَبٌّ بِمَنْ هَويتُ ولكِن ما احتيالي في سُوءِ رأي المَوالي

وفي معناه قالوا: سقيمٌ لا يُعاد، ومريد لا يُراد.

وكان أبو عليّ الدّقّاق إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوّش قلوبَ الحاضرين،

---

١ ـ الإسراء/ ٤٥.

يقول: هذا من غَيرة الحقّ، يريد به ألّا يتمّ ما أمّلناه من صفاء هذا الوقت.

وأنشدوا في معناه [البسيط]:

هَمَتْ بإتياننا حتّى إذا نظرتْ إلى المِرَاةِ نهاها وجهُها الحسنُ

وقيل لبعضهم: أتريد أن تراه؟ قال: لا. قيل: لمَ؟ قال: أُنزّه ذلك الجمال عن نظر مثلي.

وفي معناه أنشدوا [الكامل]:

إنّي لأحْسُدُ ناظري عليكَا حتّى أغُضَّ إذا نظرتُ إليكَا

وأراكَ تخطر في شمائلكَ الّتي هي فِتْنَتِي فأغارُ مِنكَ عليكَا

وسُئِل الشِّبْليّ متى تستريح؟ قال: إذا لم أَرَ له ذاكرًا.

وقال أبو عليّ الدّقّاق في قول النّبيّ ﷺ عند مبايعته فرسًا من أعرابيّ وأنّه استقاله فأقاله، فقال الأعرابيّ: عمّرك الله، فَمَنْ أنت؟ قال ﷺ: «أنا امرؤ من قريش». فقال بعض الصّحابة من الحاضرين للأعرابيّ: كفاك جَفَاءً ألّا تعرف نبيّك! فكان أبو عليّ يقول: إنّما قال: «امرؤ من قريش» غَيْرةً ونوعًا من الأنفة، وإلّا فقد كان الواجب عليه أن يتعرّف لكلّ أحدٍ أنّه مَن هو، لكنّ الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصّحابيّ التّعريف للأعرابيّ بقوله: «كفاك جَفَاءً ألّا تعرف نبيّك».

وقال أصحاب الطّريقة: مساكنة أحدٍ من الخَلْق للحقّ في قلبك توجب الغيرة منه تعالى.

أذّن الشِّبْليّ مرّة، فلمّا انتهى إلى الشّهادتَين، قال: وحقّك لولا أنّك أمرتني ما ذكرت معك غيرك.

وسمع رجلٌ رجلًا يقول: جلّ الله! فقال له: أحبّ أن تجلّه عن هذا.

وكان بعض العارفين يقول: لا إله إلّا الله من داخل القلب، محمّد رسول الله من قُرْط الأُذن.

وقيل لأبي الفتوح السّهروَرْديّ، وقد أُخِذ بحَلَب ليصلب على خشبة: ما الّذي

أباحهم هذا منك؟ قال: إنّ هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمّدًا شريكًا لله في الرّبوبيّة، فلم أفعل، فقتلوني.

ومنها: التّفويض، قال الله تعالى: ﴿وَعَسى اَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى اَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُو شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فاستوقف مَن عقل أمره عن الاقتراح عليه، وأفهمه ما يرضاه به من التّفويض إليه، فالعاقل تارك للاقتراح على العالم بالصّلاح.

وقال تعالى: ﴿فَعَسى اَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيرًا كَثِيرًا﴾[2]، فبعث على تأكيد الرّجاء بقوله: ﴿خَيرًا كَثيرًا﴾.

ولمّا فوّض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله وقاه ﴿فَوَقٰهُ اللهُ سَيِّاٰتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِاٰلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[3]،كما ورد في الكتاب العزيز.

وحقيقة التّفويض هي التّسليم لأحكام الحقّ سبحانه، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلٰنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[4]، فأُسّ التّفويض والباعث عليه هو اعتقاد العَجز عن مغالبة القدر، وإنّه لايكون في الخير والشّرّ، أعني الرّخص والصّحّة وسعة الرّزق والبلايا، والأمراض والعِلَل وضيق الرّزق إلّا ما أراد الله تعالى كونه، ولايصحّ التّفويض ممّن لم يعتقد ذلك، ولم يعلمه علم اليقين.

وقد بالغ النّبيّ ﷺ في التّصريح به والنّصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود: «ليقلّ همُّك؛ ما قدّر أتاك، وما لم يقدّر لم يأتك؛ ولو جهد الخَلْق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، ولو جَهِدوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك

---

١ ـ البقرة / ٢١٦ .

٢ ـ النّساء/ ١٩ .

٣ ـ غافر/ ٤٥ .

٤ ـ التّوبة/٥١ .

لم يقدروا على ذلك».

وفي «صحيح مسلم بن الحجّاج»: أنّه قال لأبي هريرة في كلام له: «فإن أصابَك شيء فلا تقل: لوفعلت كذا لكان كذا، فإنّ (لو) تفتح عمل الشّيطان، ولكن قل: ما قدّر الله وما شاء فعل».

وفي «صحيح مسلم» أيضًا عن البرَاء بن عازب: «إذا أخذت مَضجَعك فقل كذا...» إلى أن قال: «وجّهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رَغْبةً ورَهْبةً إليك، لا مَنجى ولا ملجأ منك إلّا إليك».

**وكان يقال:** معارضة المريض طبيبه، توجب تعذيبه. وكان يقال: إنّما الكيّس الماهر مَن أمسى[1] في قبضة القاهر.

**وكان يقال:** إذا كانت مغالبة القَدَر مُستحيلة، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة.

**وكان يقال:** إذا التبست المصادر، ففوّض إلى القادر.

**وكان يقال:** من الدّلالة على أنّ الإنسان مُصرَّف مغلوب، ومُدبَّر مربوب أن يتبلّد رأيه في بعض الخطوب، ويعمَى عليه الصّواب المطلوب.

وإذا كان كذلك، فربّما كان تدميره في تدبيره، واغتيالُه من احتياله، وهَلَكته من حَرَكته. وفي ذلك أنشدوا [المتقارب]:

أيا مَن يعوّلُ في المشكلات ... على ما رآه وما دَبَّرَهْ[2]

إذا أعضلَ الأمرُ فافزَعْ بهِ ... إلى مَن يَرَى مِنهُ ما لَمْ تَرَهْ

تكنْ بَينَ عطفٍ يقيل الخطوب ... ولطفٍ يهوّن ما قدّرَهْ

إذا كنتَ تجهل عُقْبَى الأمور ... وما لكَ حَوْلٌ ولا مَقْدرهْ

فلِمْ ذا العَنَا وعَلَامَ الأسى ... ومِمَّ الحذار وفِيمَ الشَّرَهْ!

---

١ ـ كذا في أ، وفي ب: «استسلم».

٢ ـ الأبيات لابن ظفر، وهي في كتابه: «سلوان المطاع»: ٨.

وأنشدوا في هذا المعنى [مجزوء الكامل]:

يا ربَّ مُغتبطٍ ومَغـ ـبُوطٍ بأمرٍ فيه هُلْكُهْ [١]
ومُنَافِس في مُلْكِ ما يُشقِيه في الدّارَيْن مُلْكهْ
عِلْمُ العَواقبِ دُونَهُ سِتْر وليسَ يرامُ هَتْكُهْ
ومُعارِضُ الأقْدار بالـ آراءِ سَيْئُ الحالِ ضَنكُهْ
فكن امرأ مَحَضَ اليقيـ ـن وزَيَّفَ الشُّبَهاتِ سَبْكهْ
تفويضُهُ توحيدُهُ وعِنادُهُ المِقْدَارَ شِرْكُهْ

**ومنها: الولاية والمعرفة**، وقد تقدّم القول فيهما.

**ومنها: الدّعاء والمناجاة**، قال الله تعالى: ﴿**اُدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.[٢]

وفي الحديث المرفوع: «الدّعاء مُخّ العبادة».

وقد اختلف أرباب هذا الشّأن في الدّعاء، فقال قوم: «الدّعاء مفتاح الحاجة، ومُستروَح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرّين، ومتنفَّس ذوي المآرب.

وقد ذمّ الله تعالى قومًا، فقال: ﴿**وَيَقْبِضُونَ اَيْدِيَهُمْ**﴾[٣]، فسّروه وقالوا: لا يمدّونها إليه في السّؤال.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ: خَلَق الله الخَلْقَ، وقال: تاجروا فيّ، فإن لم تفعلوا فاسمَعوا منّي، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابي، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي.

قالوا: وقد أثنى الله على نفسه، فقال: ﴿**اَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذَا دَعَاهُ**﴾[٤]، قالوا: الدّعاء إظهار فاقة العبوديّة.

---

١ ـ لابن ظفر، سلوان المطاع: ٨.

٢ ـ غافر/ ٦٠.

٣ ـ التّوبة / ٦٧.

٤ ـ النّمل / ٦٢.

وقال أبو حاتم الأعرج: لَأن أُحرَم الدّعاء أشدّ عليَّ من أن أُحرَم الإجابة.

وقال قوم: بل السّكوت والخمود تحت جريان الحُكم والرّضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أوْلى؛ ولهذا قال الواسطيّ: اختيار ما جَرَى لك في الأزل خيرٌ لك من معارضة الوقت.

وقال النّبيّ ﷺ إخبارًا عن الله تعالى: «مَن شَغَله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطى السّائلين».

وقال قومٌ: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضًا بقلبه، ليأتي بالأمرَيْن جميعًا.

وقال قومٌ: إنّ الأوقات تختلف، ففي بعض الأحوال يكون الدّعاء أفضل من السّكوت، وفي بعض الأحوال يكون بالعكس، وإنّما يُعرَف هذا في الوقت، لأنّ علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدّعاء فالدّعاء أوْلى، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السّكوت فالسّكوت له أتمّ وأوْلى.

وجاء في الخبر: «إنّ الله يُبْغِض العبد، فيسرع إجابته بُغْضًا لسماع صوته، وإنّه يحبّ العبد فيؤخّر إجابته حُبًّا لسماع صوته».

ومن أدب الدّعاء: حضور القلب، فقد رُوِي عنه ﷺ: «إنّ الله لا يستجيب دعاء قَلْبٍ لاهٍ».

ومن شروط الإجابة: طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب. قال ﷺ لسعد بن أبي وَقّاص: «أَطِبْ كَسْبَك تُسْتَجَبْ دعوتك».

وينبغي أن يكون الدّعاء بعد المعرفة، قيل لجعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: ما بالُنا ندْعوفلا يُستجاب لنا! قال: لأنّكم تدعون مَن لا تعرفونه.

كان صالح المرّيّ يقول كثيرًا: ادعوا: فمَن أدْمَن قَرْع الباب يوشك أن يُفْتَح له. فقالت له رابعة العدويّة: ماذا تقول: أُغْلِق هذا الباب حتّى يستفتح! فقال صالح: شيخ جَهِل، وامرأة علمت.

وقيل: فائدة الدّعاء إظهار الفاقة من الخَلْق وإلّا فالرّبّ يفعل ما يشاء.

وقيل: دعاء العامّة بالأقوال، ودعاء العابد بالأفعال، ودعاء العارف بالأحوال.

وقيل: خير الدّعاء ما هيّجه الأحزان والوَجْد.

وقيل: أقرب الدّعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

قال أصحاب هذه الطّريقة: ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدّعاء، وألسنة المحقّقين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: ما دعوتُه منذُ خمسين سنة، ولا أُريد أن يدعو لي أحد.

وقيل: الدّعاء سُلَّم المذنبين. وقال مَن قال بنقيض هذا: الدّعاء مراسلة، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا: ألسنة المذنبين دُمُوعهم. وكان أبو عليّ الدّقّاق يقول: إذا بكى المذنب فقد راسل الله. وفي معناه أنشدوا [الطّويل]:

دُمُوعُ الفَتَى عمّا يجنّ تترجَمُ وأنفاسُهُ تبدينَ ما القلبُ يكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين: ادْعُ لي، فقال: كفاك من الإجابة ألّا تجعل بينك وبينه واسطة.

ومنها: التّأسّي، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، أي في مصابه وما نيل منه في نفسه وفي أهله يوم أُحُد، فلا تجزعوا إن أُصيب بعضكم. وجاء في الحديث المرفوع: لا تنظروا إلى مَن فوقكم، وانظروا إلى مَن دونكم، فإنّه أجدر ألّا تزدروا نِعَم الله عليكم.

وقالت الخنساء ترثي أخاها [الوافر]:

ولَولَا كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلي عَلَى إخوانِهِمْ لقَتَلْتُ نفسي[2]

---

١ ـ الأحزاب/ ٢١.

٢ ـ ديوانها: ١٥٢.

وما يَبْكونَ مِثْل أخي ولكِن أعَـزِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بالتّـأسّي

وحقيقة التّأسّي تهوين المصائب والنّوائب على النّفس بالنّظر إلى ما أصاب أمثالك، ومن هو أرْفَع محلًا منك.

وقد فسّر العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[1]، قال: إنّه لايهون على أحدٍ من أهل النّار عذابه، وإن تأسّى بغيره من المعذّبين، لأنّ الله تعالى جعل لهم التّأسّي نافعًا في الدّنيا، ولم يجعله نافعًا لأهل النّار مبالغة في تعذيبهم ونفيًا لراحة تصل إليهم.

**ومنها: الفقر**، وهو شعار الصّالحين، قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ أحْيِني مسكِينًا وأمِتْني مسكينًا واحشرني مع المساكين».

وقال ﷺ لعليّ عليه السلام: «إنّ الله قد زَيّنك بزينةٍ لم يزيّن العباد بأحسن منها، وَهَبَ لك حُبّ المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعًا ويرضون بك إمامًا».

وجاء في الخبر المرفوع: «الفقراء الصُّبر جُلَساء الله يوم القيامة».

وسُئِل يحيى بن مُعاذ عن الفقر، فقال: ألّا تستغني إلّا بالله.

وقال أبو الدَّرْداء: لأن أقَعَ من فوق قصرٍ فاتحطّم، أحَبّ إليّ من مجالسة الغنيّ، لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إيّاكم ومجالسه الموتى». فقيل له: وما الموتى؟ قال: الأغنياء.

قيل للرّبيع بن خُثَيم: قَدْ غلا السِّعر. قال: نحن أهون على الله من أن يُجيعنا إنّما يجيع أولياءه.

وقيل ليحيى بن مُعاذ: ما الفقر؟ قال: خوف الفقر.

وقال الشِّبْليّ: أدنى علامات الفقير أن لوكانت الدّنيا بأسْرها لواحدٍ فأنفقها في يومٍ واحدٍ، ثمّ خطر بباله: «لوأمسكت منها قوت يوم آخر!»، لم يصدق في فقره.

سُئِل ابن الجلاء عن الفَقْر، فسكت، ثمّ ذهب قليلًا، وعاد، فقال: كانت عندي

---

١ ـ الزّخرف/ ٣٩.

أربعة دوانيق فضّة، فاستحييت من الله أن أتكلّم في الفقر وهي عندي، فذهبت فأخرجتها، ثمّ قعد فتكلّم في الفقر.

وقال أبو عليّ الدّقّاق في تفسير قوله ﷺ: «مَن تَواضَعَ لغنيّ ذهب ثُلثا دِينه»، إنّ المرء بقلبه ولسانه وجوارحه، فمَن تواضَعَ لغنيّ بلسانه وجوارحه ذهب ثلثا دِينه، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دِينه كلّه.

**ومنها: الأدب**، قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1]، حفظ أدب الحضرة.

قيل: إنّه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الّذي أوصل إليه ليلة شاهد السِّدرة، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشريّون.

وفي الحديث المرفوع: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي».

وقيل: إنّ الجُنَيد لم يمدّ رِجلَه في الخلوة عشرين سنة، وكان يقول: الأدب مع الله أوْلى مِن الأدب مع الخَلْق.

وقال أبو عليّ الدّقّاق: مَن صاحَبَ الملوك بغير أدبٍ أسلمه الجهل إلى القتل.

ومن كلامه عليه السلام: ترك الأدب يوجب الطّرد فَمَن أساء الأدب على البساط، ردّ إلى الباب، ومَن أساء الأدب على الباب ردّ إلى ساحة الدّوابّ.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر النّاس في الأدب، وعندي أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه.

وقال الثّوريّ: مَن لم يتأدّب للوقت فوقته مَقْت.

وقال أبو عليّ الدّقّاق في قوله تعالى، حكايةً عن أيّوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2]، قال: لم يقل: «فارْحمني»، لأنّه حفظ آداب الخطاب،

---

١ ـ النّجم / ١٧.

٢ ـ الأنبياء / ٨٣.

وكذلك قال في قول عيسى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[1]، قال: لم يقل: «لم أقل» رعايةً لأدب الحضرة.

**ومنها: المحبّة**، وهي مقام جليل، قالوا: المحبّة أن تهَبَ كُلّك لمن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شيء.

قيل لبعض العرب: ما وجدتَ مِن حُبِّ فلانة؟ قال: أرى القَمَر على جدارها أحسنَ منه على جُدران النّاس.

وقال أبو عبد الرّحمان السُّلَميّ: المحبّة أن تغار على محبوبك أن يحبّه غيرك.

وقال النّصراباذيّ: المحبّة نوعان: نوع يُوجب حَقْنَ الدّماء، ونوع يوجب سَفْك الدّماء.

وقال يحيى بن مُعاذ: المحبّة الخالصة ألّا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبرّ.

وقيل للنّصراباذيّ: كيف حالك في المحبّة؟ قال: عدمتُ وصال المحبّين، ورزقتُ حسراتهم، فهو ذا أنا أحترق فيها، ثمّ قال: المحبّة مجانبة السّلو على كلّ حال.

وأنشدوا [الطّويل]:

ومَن كان في طولِ الهَوَى ذاقَ سَلْوةً ... فإنّي من لَيْلَى لها غيرُ ذائِقِ

وأكثرُ شيءٍ نِلْتُهُ مِن وِصالها ... أمانيّ لم تصدُقْ كلَمْحَةِ بارِقِ

وجاء في الحديث المرفوع: «المرء مع مَنْ أحبّ»؛ ولما سمع سمنون هذا الخبر، قال: فاز المحبّون بشَرَف الدّنيا والآخرة، لأنّهم مع الله تعالى.

وفي الحديث المرفوع: «لأعطينّ الرّاية غدًا رجلًا يحبّ اللهَ ورسولَه ويحبّه اللهُ ورسولُه»، وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشّرف.

**وكان يقال:** الحبّ أوّله خَتْلٌ وآخره قَتْل.

**قيل:** كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من محبّته.

---

١ ـ المائدة / ١١٦.

فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحُور السّماوات والأرض، وما روى بعد، ولسانه خارج، وهو يقول: هل من مزيد!

وأنشد [الوافر]:

عَجِبْتُ لمن يقول ذكرتُ حبّي ... وهَلْ أنسَى فأذكر ما نسيتُ!

شربتُ الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ ... فما نَفِدَ الشّرابُ ولا رويتُ

**وقيل:** المحبّة سكر لا يَصْحُو صاحبه إلّا بمشاهدة محبوبه، ثمّ السّكر الّذي يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف. وأنشدوا [مخلّع البسيط]:

فأسْكَرَ القومُ دَوْرُ كأسٍ ... وكان سُكرِي مِنَ المُديرِ

**ومنها: الشّوق،** جاء في الخبر المرفوع: «إنّ الجنّة لَتشتاق إلى ثلاثة: عليّ، وسلمان، وعمّار.

الشّوق مرتبة من مراتب القوم، ومقام من مقاماتهم. سُئِل ابن عطاء: الشّوق أعلى أم المحبّة؟ فقال: المحبّة، لأنّ الشّوق منها يتولّد.

ومن الأدعية النّبويّة المأثورة الدّعاء الّذي كان يدعو به عمّار بن ياسر رضي الله عنه: «اللّهمّ بعلمك بالغيب، وقدرتك على الخَلْق، أحْيِني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفّني ما كانت الوفاة خيرًا لي، اللّهمّ إنّي أسألك خشيَتك في الغيب والشّهادة، وأسألك كلمة الحقّ في الرّضا والغضب، وأسألك القَصْدَ في الغِنَى والفقر، وأسألك نعيمًا لا يَبيد، وقرّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرّضا بعد القضاء، وبَرْد العيش بعد الموت، وأسألك النَّظَر إلى وَجْهك، والشّوق إلى لِقائك من غير ضَرّاء مَضَرّة. اللّهمّ زَيّنا بزينة الإيمان، واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدين».

قالوا: الشّوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبّة يكون الشّوق، وعلامة الشّوق حبّ الموت.

وهذا هو السّرّ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، أي أنّ مَن كان صاحب محبّة يتمنّى لقاء محبوبه، فمن لا يتمنّى ذلك لا يكون صادق المحبّة.

قيل لبعض الصّوفيّة: هل تشتاق إليه؟ فقال: إنّما الشّوق إلى غائب، وهو حاضر لا يغيب. وقالوا في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَاِنَّ اَجَلَ اللهِ لَاٰتٍ﴾[٢]: إنّه تطييب لقلوب المشتاقين.

**ويقال:** إنّه مكتوب في بعض كُتُب النّبوات القديمة: شوّقناكم فلم تشتاقوا، وزَمّرنا لكم فلم ترقُصوا، وخوّفناكم فلم ترهبوا، ونُحْنَا لكم فلم تحزنوا.

**وقيل:** إنّ شُعَيبًا بكى حتّى عَمِيَ، فردّ الله إليه بصره، ثمّ بكى حتّى عميَ، فردّ عليه بصره، ثمّ كذلك ثلاثًا، فقال الله تعالى: «إن كان هذا البكاء شوقًا إلى الجنّة فقد أبحتُها لك، وإن كان خوفًا من النّار فقد أجرتُك منها»، فقال: وحقّك لا هذا ولا هذا، ولكن شوقًا إليك، فقال له: «لأجل ذلك أخدمتك نبيّ وكليمي عشر سنين».

**ومنها: الزّهد ورفض الدّنيا**، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اِلٰى مَا مَتَّعْنَا بِهِ اَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾[٣].

وجاء في الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع في سِنِي الجَدْب، فقيل له: أتجوع وأنت على خزائن مصر! فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وكذلك قال عليّ عليه السلام: وقد قيل له: أهذا لباسك، وهذا ما مأكولك، وأنت أمير المؤمنين! فقال: نعم، إنّ الله فَرَضَ على أئمّة العدل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفَة النّاس كيلا يتبيّغ[٤] بالفقير فقره.

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر النّاس تنعّمًا؛ قبل أن يليَ الخلافة، قوّمت ثيابه

---

١ ـ البقرة / ٩٤.

٢ ـ العنكبوت / ٥.

٣ ـ طه / ١٣١.

٤ ـ يتبيّغ به فقره: أي يغلبه و يحمله على الضّمر.

حينئذٍ بألف دينار، وقوّمت وهو يخطب النّاس أيّام خلافته بثلاثة دراهم.

واعلم! أنّ بعض هذه المراتب والمقامات الّتي ذكرناها للقوم قد يكون متداخلًا في الظّاهر، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه مَن يأنس بكُتُبهم، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية. (١١ : ١٨١ ـ ٢٣٧)

## [نبذ من كلام الحكماء]

(كتابه عليه السلام: ٦٦) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس، وقد تقدّم ذكره بخلاف هذه الرّواية:

**أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ، وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ. وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.**

الشّرح: هذا الفصل قد تقدّم شرح نظيره، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير، ولكنّا سنذكر من كلام الحكماء والصّالحين كلمات تناسبه.

فمن كلام بعضهم: ما قُدِّر لك أتاك، وما لم يُقدَّر لك تَعدّاك، فعَلَامَ تَفرح بما لم يكن بدٌّ من وصوله إليك، وعَلَام تحزن بما لم يكن ليقدم عليك!

ومن كلامهم: الدّنيا تُقبِل إقبال الطّالب، وتدبّر إدبار الهارب، وتَصِل وصالَ المتهالك، وتُفارِق فراق المُبغض الفارك، فخيرُها يسير، وعيشُها قصير، وإقبالها خدعة، وإدبارها فجعة، ولذّاتها فانية وتَبِعاتها باقية، فاغتنم غفلة الزّمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخُذْ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يَوْمِك لغَدِك قبل نَفاد المدّة، وزوال القدرة، فلكلّ امرئ من دنياه ما ينفعه على عمارة أُخراه.

ومن كلامهم: مِن نَكَد الدّنيا أنّها لا تبقى على حالة، ولا تَخْلُو مِن استحالة، تصلح جانبًا بإفسادِ جانب، وتسرّ صاحبًا بمساءة صاحبٍ، فالسّكون فيها خَطَر، والثّقة إليها

غَرَر، والالتجاء إليها مُحال، والاعتماد عليها ضلال.

ومن كلامهم: لاتَبتهجنّ لنفسك بما أدركت من لذّاتها الجسمانيّة، وابتهج لها بما تناله من لذّاتها العقليّة.

ومن القول بالحقّ، والعمل بالحقّ، فإنّ اللّذّات الحسّيّة خيالٌ ينفد، والمعارف العقليّة باقية بقاء الأبد. (١٨ : ٢٨ ـ ٢٩)

**(الحكمة: ٣٣٩) وقَالَ عليه السلام فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْسًا، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ، طَوِيلٌ غَمُّهُ بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ مَشْغُولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ.**

**الشّرح:** هذه صفات العارفين، وقد تقدّم كثير من القول في ذلك.

**وكان يقال:** البِشر عُنوان النّجاح، والأمر الّذي يختصّ به العارف أن يكون بِشْرُه في وجهه وهو حَزين، وحُزْنه في قلبه، وإلّا فالبشر قد يوجد في كثير من النّاس.

ثمّ ذكر أنّه أوسع النّاس صدرًا، وأذلّهم نفسًا، وأنّه يكره الرِّفعة والصّيت.

وجاء في الخبر في وصفهم: «كلّ خاملٍ نُوَمة».

وطُولُ الغمّ وبُعد الهمّ من صفاتهم، وكذلك كثرةُ الصّمت، وشَغل الوقت بالذّكر والعبادة، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق في الفكر وتدبّر آيات الله تعالى في خَلْقه، والضّنّ بالخَلّة وقلّة المخالطة والتّوقّر على العُزلة وحسن الخُلُق ولِين الجانب، وأن يكون قَوِيّ النّفس جدًّا، مع ذلّ للنّاس وتواضع بينهم، وهذه الأُمور كلّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم. (١٩ : ٢٤٥)

## الفصل التّاسع والخمسون:
## [في العُزْلة والاجتماع وما قيل فيهما]

**(الخطبة: ١٧٧) ... فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِن فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّن مَضَى، وَلَا مِمَّن بَقِيَ.**

**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! طُوبَى لِمَن شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَن عُيُوبِ النَّاسِ، وَطُوبَى لِمَن لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِن نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنهُ فِي رَاحَةٍ!**

**الشّرح:** ... ثمّ نهاهم عليه السلام عن التّفرّق في دين الله، وهو الاختلاف والفُرقة، ثمّ أمرهم باجتماع الكلمة، وقال: إنّ الجماعة في الحقّ المكروه إليكم، خيرٌ لكم من الفُرقة في الباطل المحبوب عندكم، فإنّ الله لم يُعْط أحدًا خيرًا بالفُرقة، لا ممّن مضى، ولا ممّن بقي، وقد تقدّم ذكر ما ورد عن النّبيّ صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة، والنّهي عن الاختلاف والفُرقة.

ثمّ أمر عليه السلام بالعُزْلة، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة، ومجانبة النّاس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم. وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة؛ واختلف النّاس قديمًا وحديثًا فيها، ففضّلها قوم على المخالطة، وفضّل قوم المخالطة عليها.

فممّن فضّل العُزْلة؛ سُفيان الثّوريّ، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطّائيّ، والفُضَيل بن عِياض، وسليمان الخوّاص، ويوسف بن أسباط، وبِشْر الحافي، وحُذَيفة المرعشيّ، وجمْعٌ كثيرٌ من الصّوفيّة، وهو مذهب أكثر العارفين، وقول المتألّهين من الفلاسفة.

وممّن فضّل المخالطة على العُزْلة؛ ابن المسيّب، والشّعبيّ، وابن أبي ليلى، وهِشام ابن عُرْوة، وابن شُبْرُمة، والقاضي شُرَيح، وشَريك بن عبد الله، وابن عُيَينة، وابن المبارك.

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النّظر فيه أنّ العُزْلة خيرٌ لقوم، وأنّ

المخالطة خيرٌ لقوم آخرين على حَسَب أحوال النّاس واختلافهم.

وقد احتجّ أرباب المخالطة بقول الله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1]، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾[2]، وهذا ضعيف، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في أُصول الدّين، والمراد بتأليف القلوب وبالأُخوّة عدم الإحَن والأحقاد بينهم، بعد استعار نارها في الجاهليّة، وهذا أمر خارج عن حديث العُزْلة.

واحتجّوا بقول النّبيّ ﷺ: «المؤمن إلْفٌ[3] مألوف، ولا خير فيمَن لا يَألف ولا يُؤلَف»، وهذا أيضًا ضعيف، لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخُلُق والأمر بالرِّفق والبِشْر، فلا يدخل تحته الإنسان الحَسَن الخُلُق الّذي لو خُولِط لأُلِف وأَلِف، وإنّما يمنعه من المخالطة طلب السّلامة من النّاس.

واحتجّوا بقوله: «مَن شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَة الإسلام عن عُنُقه»، وهذا ضعيف أيضًا، لأنّه مختصّ بالبُغاة والمارقين عن طاعة الإمام، فلا يتناول أهل العُزْلة الّذين هم أهل طاعة للأئمّة، إلّا أنّهم لا يخالطون النّاس.

واحتجّوا بنهيه ﷺ عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث، وهذا ضعيفٌ، لأنّ المراد منه النّهي عن الغضب، واللّجاج، وقطع الكلام والسّلام لثوران الغليظ، فهذا أمر خارج عن الباب الّذي نحن فيه.

واحتجّوا بأنّ رجلًا أتى جَبَلًا يعبد فيه، فجاء أهله إلى رسول الله ﷺ، فنهاه، وقال له: إنّ صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يومًا واحدًا خيرٌ له من عبادة أربعين سنة. وهذا ضعيف، لأنّه إنّما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين.

واحتجّوا بما رُوي عنه ﷺ أنّه قال: الشّيطان ذِئْبٌ، والنّاس كالغنم يأخذ القاصية

---

١ ـ آل عمران / ١٠٣.

٢ ـ آل عمران / ١٠٥.

٣ ـ الإلف: العشير المؤانس.

والشّاذّة، إيّاكم والشِّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد. وهذا ضعيف، لأنّ المراد به: مَن اعتزل الجماعة وخالفها.

واحتجّ مَن رجّح العُزْلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك؛ نحو قول عمر: خُذوا بحظّكم من العزلة.

وقول ابن سيرين: العُزْلة عبادة.

وقول الفُضَيل: كفى بالله محبوبًا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا! اتّخِذ الله صاحبًا، ودَعِ النّاس جانبًا.

وقال ابن الرّبيع الزّاهد لداود الطّائيّ: عِظْني. فقال: صُمْ عن الدّنيا، واجعل فِطْرَك للآخرة، وفرّ من النّاس فرارك من الأسد.

وقال الحسن: كلمات أحفظهنّ من التّوراة: قَنَع ابن آدم فاستغنى، واعتزل النّاس فسَلِم، ترك الشّهوات فصار حُرًّا، ترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلًا فتمتّع طويلًا.

وقال وُهَيب بن الورد: بلغنا أنّ الحِكمة عشرة أجزاء، تسعة منها الصَّمْت، والعاشر في العُزْلة عن النّاس.

وقال يوسف بن مسلم لعليّ بن بكّار: ما أصبرك على الوحدة! وكان قد لزم البيت، فقال: كنت وأنا شابٌّ أصبر على أشدّ من هذا، كنت أُجالس النّاس ولا أُكلّمهم.

وقال الثّوريّ: هذا وقت السّكوت وملازمة البيوت.

وقال بعضهم: كنتُ في سفينةٍ، ومعنا شابٌّ علويّ، فمكث معنا سبعًا لا نسمع له كلامًا، فقلنا له: قد جمَعَنا الله وإيّاك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا! فأنشد [الوافر]:

قليل الهمّ لا ولد يموتُ ... وليس بخائفٍ أمرًا يفوتُ

قَضَى وطَر الصِّبا وأفادَ علمًا ... فغايتهُ التّفرّدُ والسّكوتُ

وأكبرُ همّهِ ممّا عليهِ ... تناجز مَن تَرَى خَلْقٌ وقوتُ

قال النّخعيّ لصاحبٍ له: تفقّه ثمّ اعتزل.

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز، ويعود المرضى ويُعطي الإخوان حقوقهم، ثمّ ترك واحدًا واحدًا من ذلك، إلى أن ترك الجميع . وقال: ليس يتهيّأ للإنسان أن يخبر بكلّ عذر له.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرّغت لنا! فقال: ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلّا عند الله تعالى.

وقال الفُضَيل بن عِياض: إنّي لأجد للرّجل عندي يدًا، إذا لقيني ألّا يسلّم عليّ، وإذا مرضتُ ألّا يعودني.

وقال الدّارانيّ: بينا ابن خُثَيم جالس على باب داره، إذ جاء حَجَر فصكّ وجهه، فسجد، وجعل يمسح الدّم، ويقول: لقد وُعِظْتَ يا ربيع! ثمّ قام فدخل الدّار، فما جلس بعد ذلك على بابه حتّى مات.

وكان سعد بن أبي وَقّاص وسعيد بن زيد قد لَزِما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما، حتّى ماتا بالعقيق.

قال بِشْر: أقلِلْ من معرفة النّاس، فإنّك لا تدري ما تكون يوم القيامة! فإن تكن فضيحةً كان مَن يعرفك أقلّ.

وأحضر بعض الأُمراء حاتمًا الأصمّ فكلّمه، ثمّ قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، ألّا تراني ولا أراك.

وقيل للفُضَيل: إنّ ابنك يقول: لوددْتُ أنّي في مكان أرى النّاس ولا يرونني! فبكى الفضيل، وقال: يا وَيْحُ عليّ، ألا أتمنّاها، فقال: ولا أراهم!

ومن كلام الفُضَيل أيضًا: من سخافة عقل الرّجل كثرة معارفه.

وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذِكْر العُزْلة وفضلها، نحو قوله عليه السلام لعبد الله بن عامر الجُهَنيّ لمّا سأله عن طريق النّجاة، فقال له: «لِيَسَعك بيتك، أمسِكْ عليك دِينَك، وابْكِ على خطيئتك».

وقيل له صلى الله عليه وآله : أيّ النّاس أفضل؟ فقال: «رجل معتزل في شِعْبٍ من الشّعاب،

يعبد ربّه، ويَدَع النّاس من شرّه».

وقال عليه السلام: «إنّ الله يحبّ التّقيّ النّقيّ الخفيّ». (١٠ : ٣٧ ـ ٤٢)

## [فوائد العُزْلة]

وفي العزلة فوائد:

منها: الفراغ للعبادة والذّكر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخَلْق، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدّنيا والآخرة وملكوت السّماوات والأرض، لأنّ ذلك لا يمكن إلّا بفراغٍ، ولا فراغ مع المخالطة، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله في ابتداء أمره يتبتّل في جبل حِراء، ويعتزل فيه، حتّى أتته النّبوّة.

وقيل لبعض الحُكَماء: ما الّذي أرادوا بالخَلْوة والعُزْلة؟ فقال: دوام الفكر وثبات العلوم في قلوبهم، ليحيَوْا حياةً طيّبةً، ويموتوا موتًا طيّبًا.

وقيل لبعضهم: ما أصبرك على الوَحْدة؟ فقال: لستُ وَحْدي، أنا جليس ربّي، إذا شئتُ أن يناجيني قرأتُ كتابه، وإذا شئتُ أن أُناجيه صلّيتُ.

وقال سُفيان بن عُيَينة: لَقَيْتُ إبراهيم بن أدهم في بلاد الشّام، فقلت له: يا إبراهيم، تركتَ خراسان! فقال: ما تهنّأت بالعيش إلّا هاهنا، أفرّ بديني من شاهقٍ إلى شاهقٍ، فمن رأني قال: موسوِس أو حمّال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، هاهنا رجل لم نره قطّ جالسًا إلّا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني. فنظروا إليه ذات يوم، فقالوا للحسن، وأشاروا إليه، فمضى نحوه، وقال له: يا عبد الله، لقد حُبِّبت إليك العُزْلة، فما يمنعك من مجالسة النّاس؟ قال: أمرٌ شَغَلني عنهم. قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرّجل الّذي يقال له: الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمرٌ شَغَلني عن النّاس وعن الحسن. قال: وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال: إنّي أمسي وأصبح بين نعمةٍ وذَنبٍ، فأشغل نفسي بشكر الله على نِعَمِه، والاستغفار من الذّنب. فقال الحسن: أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن، فالْزَمْ ما أنت عليه.

وجاء هرَم بن حيّان إلى أُوَيس، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: جئتُ لآنس بك. قال: ما كنتُ أعرف أحدًا يعرف ربّه فيأنس بغيره!

وقال الفُضَيل: إذا رأيتُ اللّيل مُقبلًا فرحتُ به، وقلت: أخلُو بربّي، وإذا رأيتُ الصّبح أدركني، استرجعت كراهيَة لقاء النّاس، وأن يجيء إلى مَن يشغلني عن ربّي.

وقال مالك بن دينار: مَن لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ علمه، وعَمَى قلبه، وضاع عمره.

وقال بعض الصّالحين: بينا أنا أسير في بعض بلاد الشّام، إذا أنا بعابدٍ خارج من بعض تلك الجِبال، فلمّا نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة، وتستّر بها: فقلت: سبحان الله! أتبخل عليّ بالنّظر إليك؟ فقال: يا هذا، إنّي أقمتُ في هذا الجبل دهرًا طويلًا، أُعالج قلبي في الصّبر عن الدّنيا وأهلها، فطال في ذلك تَعَبي، وفَنيَ عمري، ثمّ سألت الله تعالى ألّا يجعل حظّي من أيّامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكّنه الله عن الاضطراب، وآلَفَهُ الوَحْدة والانفراد، فلمّا نظرت إليك وتريدني خفتُ أن أقع في الأمر الأوّل فأعود إلى إلْف المخلوقين، فإليك عنّي فإنّي أعوذ من شرك بربّ العارفين وحبيب التّائبين.

ثمّ صاح: واغمّاه من طول المكث في الدّنيا! ثمّ حوّل وجهه عنّي، ثمّ نفض يده، وقال: إليكِ عنّي يا دنيا، لغيري فتزيّني، وأهلك فغرّي! ثمّ قال: سبحان مَن أذاق العارفين من لذّة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان، والحُور الحِسان، فإنّي في الخلوة آنس بذكر الله، وأستلذّ بالانقطاع إلى الله، ثمّ أنشد [الطّويل]:

وإنّي لَأستَغشي وما بِيَ نَعْسَةٌ ... لعلّ خَيَالًا منكِ يَلْقَى خَياليَا[1]

وأخرجُ مِن بَينِ البيوتِ لعلّني ... أحدّثُ عنكِ النّفسَ في السّرِ خاليَا

وقال بعض العلماء: إنّما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة،

---

١ ـ لمجنون ليلى، ديوانه: ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

فيتكثّر حينئذٍ بملاقاة النّاس، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاتُه فاضلة طلب الوحدة ليستعينَ بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحِكمة، وكان يقال: الاستئناس بالنّاس من علامات الإفلاس.

ومنها: التّخلّص بالعُزْلة عن المعاصي الّتي يتعرّض الإنسان لها غالبًا بالمخالطة، وهي الغِيبة، والرّياء، وترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وسرِقة الطّبع بعض الأخلاق الرّديئة والأعمال الخبيثة من الغيْر.

أمّا الغِيبة؛ فإنّ التّحرّز منها مع مخالطة النّاس صعبٌ شديدٌ لاينجو من ذلك إلّا الصّدّيقون، فإنّ عادة أكثر النّاس التّمضمض بأعراض مَن يعرفونه، والتّنقّل بلذّة ذلك، فهي أُنسهم الّذي يستريحون إليه في الجَلْوة والمفاوضة، فإن خالطتهم ووافقت أثـمَتْ، وإن سكتّ كنت شريكًا، فالمستمع أحد المغتابَيْن، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المُغتاب واغتابوك، فازدادوا إثمًا على إثمهم.

فأمّا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ فإنّ مَن خالط النّاس لايخلو عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عَصَى الله، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضّرر، وفي العُزْلة خلاص عن ذلك، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخِصام، وتحريك لكوامن ما في الصّدور. وقال الشّاعر[الطّويل]:

وكمْ سُقْتُ في آثاركمْ من نصيحةٍ وقد يستفيد الظّنّةَ المُتنصّحُ

ومَن تجرّد للأمر بالمعروف ندم عليه في الأكثر كجدار مائل، يريد الإنسان أن يقيمه وحده، فيوشك أن يقع عليه، فإذا سقط قال: يا ليتني تركتُه مائلًا! نعم؛ لو وجدَ الأعوان حتّى يحكم ذلك الحائط ويدعمه استقام، ولكنّك لاتجد القوم أعوانًا على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فَدَعِ النّاس وانج بنفسك.

وأمّا الرّياء؛ فلا شبهةَ أنّ مَن خالط النّاس داراهم، ومَن داراهم راءاهم، ومَن راءاهم كان منافقًا، وأنت تعلم أنّك إذا خالطتَ متعاديَيْن، ولم تَلْق كلّ واحدٍ منهما بوجهٍ يوافقه صِرْتَ بغيضًا إليهما جميعًا، وإن جاملتَهما كنتَ من شِرار النّاس، وصِرْتَ ذا وَجْهَين، وأقلّ ما يجب في مخالطة النّاس، إظهار الشّوق والمبالغة فيه، وليس يخلو

ذلك عن كذبٍ، إمّا في الأصل وإمّا في الزّيادة بإظهار الشّفقة بالسّؤال عن الأحوال، فقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه، نفاقٌ محضٌ.

قال سَرِيّ السّقطيّ: لو دخل عليّ أخٌ فسوّيتُ لحْيتي بيدي لدخوله، خشيتُ أن أُكتَب في جَريدة المنافقين.

كان الفُضَيل جالسًا وحده في المسجد، فجاء إليه أخٌ له، فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة، قال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلّا أن تتزيّن لي وأتزيّن لك، وتكذِب لي وأكذب لك! إمّا أن تقوم عنّي، وإمّا أن أقوم عنك.

**وقال بعض العلماء:** ما أحبّ الله عبدًا إلّا أحبّ ألّا يشعر به خلقه.

ودخل طاووس على هِشام بن عبد الملك، فقال: كيف أنت يا هِشام؟ فغضب، وقال: لِمَ لَمْ تخاطبني بإمْرة المؤمنين؟ قال: لأنّ جميع النّاس ما اتّفَقُوا على خلافتك، فخشيتُ أن أكون كاذبًا.

فمَن أمكنه أن يحترِز هذا الاحتراز، فليخالط النّاس، وإلّا فليرْضَ بإثبات اسمه في جريدة المنافقين إن خالطهم، ولانجاة من ذلك إلّا بالعزلة.

**وأمّا سَرِقة الطّبع من الغيْر:** فالتّجربة تشهد بذلك، لأنّ مَن خالط الأشرار اكتسب مِن شرّهم، وكلّما طالت صُحْبة الإنسان لأصحاب الكبائر، هانت الكبائر عنده، وفي المثَل: «فإنّ القرين بالمقارن يقتدي»[1].

**ومنها:** الخلاص من الفِتن والحروب بين الملوك والأُمراء على الدّنيا. روى أبو سعيد الخُدْريّ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «يوشِك أن يكون خيرُ مالِ المسلم غنيماتٍ يتتبّع بها شِعاف الجبال، ومواضع القَطْر، يفرّ بدِينه من الفِتن».

---

١ ـ أصله قول الشّاعر [الطّويل]:

عن المرءِ لا تَسأل وسَلْ عن قَرينهِ فكلّ قَرينٍ بالمقارنِ يَقْتَدِي

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ ذكر الفِتن، فقال: إذا رأيت النّاس قد مَرِجت عهودهم [١]، وخفّت أمانتهم، وكانوا هكذا، وشبّك بأصابعه. فقلتُ: ما تأمرني؟ فقال: «الزَم بيتك، واملك عليك لسانك، وخُذ ما تعرف، ودَعْ ما تنكر، وعليك بأمر الخاصّة، ودَعْ عنك أمر العامّة».

وروى ابن مسعود عنه ﷺ أنّه قال: «سيأتي على النّاس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلّا مَن فرّ مِن قريةٍ إلى قريةٍ، ومن شاهقٍ إلى شاهقٍ، كالثّعلب الروّاغ». قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا لم تُنَل المعيشة إلّا بمعاصي الله سبحانه، فإذا كان ذلك الزّمان كان هلاك الرّجل على يد أبَوَيْه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوْجَتِه وولده، وإن لم يكن فعلى يدِ قرابته». قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيّرونه بالفقر وضيق اليد، فيكلّفونه ما لا يطيقه حتّى يورده ذلك موارد الهَلَكة».

وروى ابن مسعود أيضًا أنّه ﷺ ذكر الفتنة، فقال: «الهَرْج». فقلت: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: «حين لا يأمن المرء جليسه». قلت: فبِمَ تأمرني يا رسول الله، إن أدركتُ ذلك الزّمان؟ قال: «كفّ نفسَك ويدَك، وادْخل دارك». قلتُ: أرأيت إن دخل عليّ داري! قال: «ادخل بيتَك». قلت: إن دُخِل عليّ البيت. قال: «ادخل مسجدَك، واصنع هكذا ـ وقبض على الكوع ـ وقل ربّيَ الله، حتّى تموت».

ومنها: الخلاص من شرّ النّاس، فإنّهم يؤذونك تارةً بالغِيبة، وتارةً بسوء الظّنّ والتّهمة، وتارةً بالاقتراحات والأطماع الكاذبة الّتي يعسر الوفاءُ بها، وتارةً بالنّميمة والكَذِب ممّا يروْنَه منك من الأعمال والأقوال ممّا لا تبلغ عقولهم كُنهه، فيدّخرون ذلك في نفوسهم عدّة لوقت ينتهزون فيه فرصة الشّرّ، ومَن يعتزلهم يستغنِ عن التّحفّظ لذلك.

وقال بعض الحُكماء لصاحبه: أُعلّمك شعرًا هو خير لك من عشرة آلاف درهم!

---

١ ـ مَرِجت عهودهم، أي اختلطت. املك عليك لسانك، أي لا تجره إلّا بما يكون لك لا عليك. انظر: النّهاية لابن الأثير ٤: ٨٧، ١٠٦.

وهو [الخفيف]:

اخفضِ الصّوتَ إن نطقتَ بليلٍ والتفتْ بالنّهارِ قَبْلَ المقالِ
ليسَ للقولِ رجعةٌ حِينَ يَبدُو بقبيحٍ يكون أو بجمالِ

ومَن خالط النّاس لاينفكّ من حاسدٍ وطاعنٍ، ومَن جرّب ذلك عرف.

ومن الكلام المأثور عن عليّ عليه السلام: «اخْبِرْ تُقْلَهْ». قال الشّاعر [السّريع]:

مَـن حمـدَ النّـاسَ ولَمْ يَـبْلُهُمْ ثمّ بلاهمْ ذمَّ مَن يحمَدُ
وصـارَ بالوحـدةِ مُستأنِسًـا يُوحِشهُ الأقربُ والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبي وَقّاص: ألاتأتي المدينة؟ قال: ما بقي فيها إلّا حاسد نعمةٍ، أو فَرِحٌ بنقمةٍ.

وقال ابن السَّمّاك: كتب إلينا صاحب لنا: أمّا بعد، فإنّ النّاس كانوا دواءً يُتداوَى به، فصاروا داءً لا دواء لهم، ففِرّ منهم فرارك من الأسد.

وكان بعض الأعراب يلازم شجرةً ويقول: هذه نديمي، وهو نديم فيه ثلاثة خصال: إن سمِعَ لم ينمّ عليّ، وإن تَفلْتُ في وجهه احتمل، وإن عربدتُ عليه لَمْ يغضب، فسمع الرّشيد هذا الخبر، فقال: قد زهّدني سماعه في النّدماء.

وكان بعضهم يلازم الدّفاتر والمقابر، فقيل له في ذلك، قال: لَمْ أرَ أسلم من الوَحْدة ولا أوْعَظ من قبر، ولا أمْتَع من دفْتر.

وقال الحسن مرّة: إنّي أُريد الحجّ، فجاء إليّ ثابت البُنانيّ، وقال: بلغني أنّك تريد الحجّ، فأحببتُ أن نصطحب. فقال الحسن: دَعْنا نتعاشر بسَتْرِ الله، إنّي أخاف أن نصطحب فيرى بعضُنا من بعضٍ ما نتماقَتُ عليه.

**وقال بعض الصّالحين:** كان النّاس وَرَقًا لا شَوْك فيه، فالنّاس اليوم شَوْكٌ لاوَرَق فيه.

وقال سُفيان بن عُيَينه: قال لي سُفيان الثّوريّ، في اليقظة في حياته، وفي المنام بعد وفاته: اقْلِل معرفة النّاس، فإنّ التّخلّص منهم شديد، ولاأحسبني رأيتُ ما أكره

إلّا ممّن عرفت.

**وقال بعضهم:** جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده، وعنده كَلْبٌ رابضٌ قريبًا منه، فذهبتُ أطرده، فقال: دَعْه فإنّه لايضرّ ولايؤذي، وهو خير من الجليس السّوء.

وقال أبو الدّرداء: اتّقوا الله واحْذروا النّاس، فإنّهم ما ركبوا ظَهْر بَعيرٍ إلّا أدبروه، ولا ظَهْر جوادٍ إلّا عَقِروه، ولا قلب مؤمن إلّا أخربوه.

**وقال بعضهم:** اقْلِل المعارف، فإنّه أسلم لدينك وقلبك، وأخفّ لظَهْرك، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك، لأنّه كلّما كَثُرتِ المعارف كَثُرتِ الحقوق، وعَسُر القيام بالجميع.

**وقال بعضهم:** إذا أردتَ النّجاة فأنكِرْ مَن تعرف، ولا تتعرّف إلى مَن لا تعرف.

**ومنها:** إنّ في العُزْلة بقاء السّتر على المروءة والخُلُق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله تعالى المتستّرين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ اَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[1].

وقال الشّاعر[الطّويل]:

ولَا عارَ أن زالتْ عَنِ الحُرِّ نِعمةٌ ولكنّ عارًا أن يزولَ التّجمُّلُ

وليس يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله عن عورات يُتَّقَينَ ويجب سترها، ولاتبقى السّلامة مع انكشافها، ولاسبيل إلى ذلك إلّا بترك المخالطة.

**ومنها:** أن ينقطع طمعُ النّاس عنك، وينقطع طمعك عن النّاس، أمّا انقطاعُ طمع النّاس عنك ففيه نفع عظيم، فإنّ رضا الخَلْق غاية لاتُدرك، لأنّ أهون حقوق النّاس وأيسرها حضور الجنازة، وعيادة المريض، وحضور الولائم، والإملاكات[2]، وفي ذلك تضييع الأوقات، والتّعرّض للآفات، ثمّ قد يعوّق عن بعضها العوائق، وتستثقل فيها المعاذير، ولايمكن إظهار كلّ الأعذار، فيقول لك قائل: إنّك قمت بحقّ فلان، وقصّرت

---

١ ـ البقرة / ٢٧٣.

٢ ـ الإملاكات: مجامع التّزويج.

في حقّي، ويصير ذلك سبب عداوة، فقد قيل: إنّ مَن لم يَعُد مريضًا في وقت العيادة، يشتهي موتَه خيفةً من تخجيله إيّاه إذا برئ من تقصيره، فأمّا مَن يعمّ النّاس كلّهم بالحرمان، فإنّهم يرضوْن كلّهم عنه، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق، ممّا لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره، فكيف مَن له مهمّ يشغله دينيّ أو دنيويّ!.

ومن كلام بعضهم: كثرة الأصدقاء زيادة [1] الغُرَماء. وقال الشّاعر[الوافر]:

عدوّك مِن صديقِكَ مُستَفادٌ فلا تستكثرنَّ مِنَ الصّحابِ

فإنّ الدّاءَ أكثرما تراهُ يكونُ مِنَ الطّعامِ أوِ الشّرابِ

وأمّا انقطاع طمَعك عنهم، ففيه أيضًا فائدة جزيلة، فإنّ مَن نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها، تحرّك حِرْصُه، وانبعث بقوّة الحرص طمعه، وأكثرُ الأطماع يتعقّبها الخيبة، فيتأذّى الإنسان بذلك، وإذا اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشتَهِ ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنيَا﴾ [2].

وقال عليه السلام: «انظروا إلى مَن دونكم، ولاتنظروا إلى مَن هو فوقكم، فإنّه أجدر ألّا تزدروا نعمة الله عليكُمْ».

وقال عَوْن بن عبد الله: كنتُ أُجالس الأغنياء، فلا أزال مغمومًا أرى ثوبًا أحسن من ثوبي، ودابّةً أفْرَهَ من دابّتي، فجالستُ الفقراء فاسترحت.

وخرج المُزَنيّ صاحب الشّافعيّ من باب جامع الفُسْطاط بمصر، وكان فقيرًا مُقلًّا، فصادف ابنَ عبد الحكم قد أقبل في موكبه، فبهره ما رأى من حاله، وحسن هيآته، فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [3]، ثمّ قال: نعم،

---

١ ـ ب: «كثرة»، و ما أثبته من أ، د.

٢ ـ طه / ١٣١.

٣ ـ الفرقان / ٢٠.

أصبر وأرضى.

فالمعتزل عن النّاس في بيته لايُبتلَى بمثل هذه الفِتن، فإنّ مَن شاهد زينة الدّنيا، إمّا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر، فيحتاج إلى أن يتجرّع مرارة الصّبر، وهو أمَرُّ من الصّبر، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدّنيا فيهلك دنيا وآخرة، أمّا في الدّنيا؛ فبالطّمع الّذي في أكثر الأوقات يتضمّن الذُّلّ المعجّل، وأمّا في الآخرة؛ فلإيثاره متاع الدّنيا على ذكر الله، والتّقرّب إليه، ولذلك قال الشّاعر[الطّويل]:

إذا كانَ بابُ الذّلِّ من جانبِ الغِنَى سَمَوتُ إلى العَلْياءِ من جانبِ الفَقْرِ

أشار إلى أنّ الطّمع يوجب في الحال ذُلًّا.

ومنها: الخلاص من مشاهدة الثُّقَلاء والحمقَى ومُعاناة أخلاقهم، فإنّ رؤية الثّقيل هي العَمى الأصغر، قيل للأعمش: بمَ عَمِشتْ عيناك[1]؟ قال: بالنّظر إلى الثُّقَلاء.

ودخل على أبي حَنيفة رحمه الله، فقال له: رَوَيْنا في الخبر أنّ مَن سلِب كريمتَيه عَوّضه الله ما هو خير منهما، فما الّذي عوضك؟ قال: كفاني رؤية ثقيل مثلك يمازحه.

وقال الشّافعيّ رحمه الله: ما جالستُ ثقيلًا إلّا وجدتُ الجانب الّذي يليه من بَدَني كأنّه أثقل عليّ من الجانب الآخر.

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيويًّا، إلّا أنّها تَضْرِب في الدّين بنصيبٍ، وذلك لأنّ مَن تأذّى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلُبَه، وذلك فساد في الدّين، وفي العُزْلة السّلامة عن جميع ذلك.

واعلم! أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام تختلف مناهجه، فقد رجّح العُزلة في هذا الفصل على المخالطة، ونهى عن العُزْلة في موضع آخر، سيأتي ذكره في الفصل الّذي أوّله «أنّه دخل على العَلاء بن زياد الحارثيّ عائدًا»، ويجب أن يُحْمَل ذلك على أنّ مِنَ النّاس مَنِ العُزْلة خيرٌ له من المخالطة، ومنهم مَن هو بالضّدّ من ذلك، وقد قال الشّافعيّ قريبًا من ذلك، قال ليونس بن عبد الأعلى صاحبه: يا يونس، الانقباض عن النّاس

---

١ ـ د: «عينيك».

مَكْسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهم مجلبةٌ لقُرَناء السّوء، فكُن بين المنقبض والمنبسط.

فإذا أردت العُزْلة، فينبغي للمعتزل أن ينوي بعُزْلته كفّ شرّه عن النّاس أوّلًا، ثمّ طلب السّلامة من شرّ الأشرار ثانيًا، ثمّ الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثًا، ثمّ التّجرّد بكُنه الهمّة بعبادة الله تعالى رابعًا، فهذه آداب نيّته، ثمّ ليكُن في خلوته مواظبًا على العلم والعمل، والذّكر والفكر، ليجتني ثمرة العُزْلة.

ويجب أن يمنع النّاس عن أن يُكثِروا غشيانه وزيارته، فيتشوّش وقته، وأن يكفّ نفسه عن السّؤال عن أخبارهم وأحوالهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما النّاس مشغولون به، فإنّ كلّ ذلك ينغرس في القلب حتّى ينبعث على الخاطر والبال وقت الصّلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب، فإنّ وقوع الأخبار في السّمع كوقوع البَذر في الأرض، لابدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه، وإحدى مهمّات المعتزل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله، ولا ريب أنّ الأخبار يَنابيع الوساوس وأُصولها.

ويجب أن يقنع باليسير من المعيشة، وإلّا أضطرّه التّوسّع إلى النّاس، واحتاج إلى مخالطتهم.

وليكُن صبورًا على ما يلقاه من أذى الجِيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه مَن أثنى عليه بالعُزْلة، وقَدَح فيه بترك المخالطة، فإنّ ذلك لابدّ أن يؤثّر في القلب، ولو مدّة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لابدّ أن يكون واقفًا عن سَيره في طريق الآخرة، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظبة على وِرْدٍ أو ذِكْرٍ مع حضور قلب، وإمّا بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته، وإمّا بالتّأمّل في دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طُرُق التّخلّص منها، وكلّ ذلك يستدعي الفراغ، ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوّش القلب.

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالحٌ أو جَليسٌ صالحٌ، لتستريح نفسه إليه ساعة عن كدّ المواظبة، ففي ذلك عَوْنٌ له على بقيّة السّاعات. وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العُزْلة إلّا بقطع الطّمع عن الدّنيا، وما النّاس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلّا بقِصَر الأمل، وألّا يقدّر لنفسه عمرًا طويلًا، بل يصبح على أنّه لا يمسي، ويمسي على

أنّه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخي أجله، وليكن كثيرَ الذّكر للموت ووحدة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقّق أنّ مَن لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فإنّه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، وأنّ مَن أنِسَ بذكر الله ومعرفته، فإنّ الموت لا يزيل أُنسه، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأُنس والمعرفة، بل يبقى حيًّا بمعرفته وأُنسه فَرِحًا بفضل الله عليه، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1].

وكلّ مَن يجرّد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت، فالمجاهد مَن جاهد نفسه وهواه، كما صرّح به عليه السلام، وقال لأصحابه: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين، والجهاد الأكبر جهاد النّفس.

وهذا الفصل في العُزلة نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزاليّ في «إحياء علوم الدّين» وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه. (١٠ : ٣٧ ـ ٥٤)

## [في مدح الخمول والجنوح إلى العُزْلة]

**(الخطبة: ٣٢) ... وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا.**

الشّرح: ... وقد صرّح أمير المؤمنين عليه السلام في مدح الأبرار ـ وهم القسم الخامس ـ بمدح الخمول، فقال: «قد أخملَتْهُمُ التَّقِيَّةُ»، يعني الخوف. وقد ورد في الأخبار والآثار شيء كثير في مدح الخمول.

---

١ ـ آل عمران / ١٦٩ ـ ١٧٠.

قال رسول الله ﷺ: «رُبّ أشْعَثَ أغْبَرَ ذي طِمْرَيْن لايُؤْبَه له، لو أقسم على الله لأبرّ قَسَمه». وفي رواية ابن مسعود: «رُبّ ذي طِمَرَيْن لايُؤْبَهُ له، لو سأل الجنّة لَأُعطيها».

وفي الحديث أيضًا عنه ﷺ: «ألا أدلّكم على أهل الجنّة! كلّ ضعيف مستضعَف، لو أقسم على الله لأبرّه. ألاأدلّكم على أهل النّار! كلّ متكبّر جَوّاظ».

وعنه ﷺ: «إنّ أهل الجنّة الشُّعثُ الغُبر، الّذين إذا استأذنوا على الأُمراء لم يُؤذَن لهم، وإذا خَطَبوا لم يُنكَحوا، وإذا قالوا لم يُنصَتْ لهم، حوائج أحدهم تَتَلَجْلَجُ في صدورهم، لو قُسِم نورهم يوم القيامة على النّاس لَوسعهم».

ورُوي أنّ عمر دخل المسجد، فإذا بمُعاذ بن جَبَل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال: ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ اليسير من الرّياء لَشِرْكٌ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء، الّذين إذا غابوا لم يُفتَقَدوا، وإذا حَضَروا لم يُعْرَفُوا، قلوبُهُم مصابيح الهُدَى، يَنجون من كلّ غبراء مُظْلِمة».

وقال ابن مسعود: كونوا يَنابيعَ العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سُرُجَ اللّيل، جُدُدَ القلوب، خُلْقان الثِّياب، تُعْرَفون عند أهل السّماء، وتَخْفَون عند أهل الأرض.

وفي حديث أبي أُمامة، يرفعه: قال الله تعالى: إنّ أغْبَط أوليائي لَعبدٌ مؤمنٌ، خَفيفُ الحاذِ[1]، ذو حظٍّ من صلاةٍ، وقد أحسن عبادة ربّه، وأطاعه في السّرّ، وكان غامضًا في النّاس، لايُشار إليه بالأصابع».

وفي الحديث: «السّعيد مَن خَمَلَ صِيتُه، وقلّ تُراثه، وسَهُلت منيّته، وقَلّت بواكيه».

وقال الفُضَيل: رُوي لي أنّ الله تعالى يقول في بعض ما يمنّ به على عبده: ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أُخْمل ذِكْرَك!

---

١ ـ خفيف الحاذ، قليل المال.

وكان الخليل بن أحمد يقول في دعائه: اللّهمّ اجعلني عندك مِن أرفع خَلْقك، واجعلني عند نفسي مِن أوضع خَلْقك، واجعلني عند النّاس مِن أوسط خَلْقك.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرّت عيني ليلة قطّ في الدّنيا إلّا مرّة، بتُّ ليلةً في بعض مساجد قُرَى الشّام، وكان بي علّة البطن، فجرّني المؤذّن برِجْلي حتّى أخرجني من المسجد.

وقال الفُضَيل: إن قَدَرْتَ على ألّا تُعرف، فافْعل، وما عليك ألّا تعرف! وما عليك ألّا يُثْنى عليك! وما عليك أن تكون مذمومًا عند النّاس، إذا كنت محمودًا عند الله تعالى!

**فإن قيل:** فما قولك في شُهْرة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين؟

**قيل:** إنّ المذموم طلب الشّهرة، فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلّف من العبد ولا طلب فليس بمذموم، بل لابدّ من وجود إنسان يشتهر أمره، فإنّ بطريقه ينصلح العالَم، ومثال ذلك الغرقَى الّذين بينهم غريق ضعيف، الأولى به ألّا يعرفه أحد منهم، لئلّا يتعلّق به فيهلك ويهلكوا معه، فإن كان بينهم سابح قويّ مشهور بالقوّة فالأولى ألّا يكون مجهولًا، بل ينبغي أن يُعْرَف ليتعلّقوا به، فينجو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه. (٢ : ١٨٢ ـ ١٨٤)

## [في الجماعة]

**(الخطبة: ١٢٧) ... وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَم، فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ! فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّةَ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ.**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «والزموا السّواد الأعظم»، وهو الجماعة. وقد جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله هذه اللّفظة الّتي ذكرها عليه السلام، وهي: «يد الله على الجماعة ولا يبالى بشذوذ مَن شذّ»، وجاء في معناها كثير، نحو قوله عليه السلام: «الشّيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»، وقوله: «لا تجتمع أُمّتي على خطأ»، وقوله: «سألت الله ألّا

تجتمع أُمّتي على خطأ، فأعطانيها»، وقوله: «ما رآه المسلمين حسنًا فهو عند الله حسن»، وقوله: «لا تجتمع أُمّتي على ضلالة»، و«سألت ربّي ألّا تجتمع أُمّتي على ضلالة فأعطانيها». و«لم يكن الله ليجمع أُمّتي على ضلال ولا خطأ».

وقوله عليه السلام: «عليكم بالسّواد الأعظم»، وقوله: «مَن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عُنقه».

وقوله: «من فارق الجماعة مات ميتةً جاهليّةً». وقوله: «مَن سرّه بحبوحة الجنّة، فليلزم الجماعة». والأخبار في هذا المعنى كثيرة جدًّا. (٨ : ١٢٢ ـ ١٢٣)

## الفصل السّتّون: [أقوال في النّساء]

**(الخطبة: ٧٩) ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجَمَل، في ذمّ النّساء:**

**مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْإِنصَافِ مِن مَوَارِيثِ الرِّجَالِ فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِن خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعْنَ فِي الْمُنكَرِ.**

**الشّرح:** ... وقوله عليه السلام: «ولا تطيعوهنّ في المعروف»، ليس بنهي عن فعل المعروف، وإنّما هو نهي عن طاعتهنّ، أي لا تفعلوه لأجل أمرهنّ لكم به، بل افعلوه لأنّه معروف، والكلام ينحو نحو المثَل المشهور: لاتُعْطِ العبدَ كُراعًا فيأخذ ذراعًا.

وهذا الفصل كلّه رمزٌ إلى عائشة، ولا يختلف أصحابنا في أنّها أخطأت فيما فَعَلَتْ ثمّ تابت وماتت تائبة، وأنّها من أهل الجنّة. (٦ : ٢١٤)

**(الخطبة :١٥٣) : ... إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا.**

**الشّرح:** ... ثمّ أراد عليه السلام أن يومئ إلى ذِكْر النّساء للحال الّتي كان وقع إليها مِن استنجاد أعدائه بامرأة، فذكر قبل ذكر النّساء أنواعًا من الحيوان، تمهيدًا لقاعدة ذِكْر النّساء، فقال: إنّ البهائم همّها بطونها، كالحُمُر والبَقَر والإبل والغَنَم، وإنّ السّباع همّها العدوان على غيرها، كالأُسود الضّارية والنّمور والفهود والبُزاة والصّقور. ثمّ قال: وإنّ النّساء همّهنّ زينة الحياة الدّنيا والفساد فيها.

نَظَرَ حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرة، فقال: ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثّمرة.

ومرّت امرأة بسُقْراط وهو يتشرّق في الشّمس، فقالت: ما أقبَحَك أيّها الشّيخ! فقال: لو أنّكُنّ من المرائي الصّدئة لغمّني ما بان من قبح صورتي فيكنّ.

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة، فقال: سَهْمٌ يسقَى سمًّا ليرمى به يومًا ما.

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارًا، فقال: نارٌ على نارٍ، والحامل شرٌّ من المحمول. وقيل لسُقراط: أيّ السّباع أحسن؟ قال: المرأة.

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفةً، فقيل له في ذلك، فقال: اخترتُ من الشّرّ أقلّه.

ورأى بعض الحُكَماء المرأة غريقة قد احتملها السّيل، فقال: زادت الكَدر كَدَرا، والشّرّ بالشّرّ يهلك. (٩ : ١٦٢ ـ ١٦٣)

**(الخطبة: ١٥٦) فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِندَ ذَلِكَ أَن يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِن أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِن شَاءَ اللهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِن كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.**

**وَأَمَّا فُلَانَةُ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَو دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِن غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ.**

**الشّرح:** ... فأمّا قوله: «فأدركها رأي النّساء» أي ضعف آرائهنّ.

وقد جاء في الخبر: «لايفلح قومٌ أسندوا أمْرَهم إلى امرأةٍ».

وجاء: «إنّهنّ قليلات عقل ودِين»، أو قال: «ضعيفات».

ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرّجل الواحد، والمرأة في أصل الخلقة سريعة الانخداع، سريعة الغَضَب، سيّئة الظّنّ، فاسدة التّدبير، والشّجاعة فيهنّ مفقودة، أو قليلة، وكذلك السّخاء. (٩ : ١٩٢)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِن إِدْخَالِكَ مَن لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ**

أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ.

وَلَاتُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِن أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلَاتَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَاتُطْمِعْهَا فِي أَن تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا ... .

**الشّرح:** ... فأمّا مشاورة النّساء؛ فإنّه من فعل عَجَزَة الرّجال، قال الفضل بن الرّبيع أيّام الحرب بين الأمين والمأمون في كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز: ينام نوم الظّربان، وينتبه انتباهةَ الذّئب، همّه بطنُه ولذّته فَرْجه، لايفكّر في زوال نعمة، ولا يروّى في إمضاء رأيٍ ولامكيدةٍ، قد شمّر له عبد الله عن ساقه، وفوّق له أشدّ سهامه، يرميه على بُعد الدّار بالحَتْف النّافذ، والموت القاصد، قد عيّ له المنايا على مُتُون الخَيل وناط له البلايا بأسنّة الرّماح، وشِفار السّيوف، فكأنّه هو قال هذا الشّعر ووصف به نفسه وأخاه [الطّويل]:

يُقارِع أتراك ابن خاقان ليلَهُ ... إلى أن يَرَى الإصباح لايتلعثمُ

فيصبح من طولِ الطّرادِ وجسمُهُ ... نحيلٌ وأضحى في النّعيمِ أصمّمُ

وهمّتُهُ دِرْعٌ ورُمْحٌ ومخذمٌ ... وهمّتُهُ كأسٌ مِن عُقارٍ وقَيْنَةٍ

فشتّانَ ما بيني وبين ابنِ خالدٍ ... أميّة في الرّزقِ الّذي الله يقسمُ

ونحن معه نجري إلى غاية إن قصّرنا عنها ذممنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنّما نحن شعب من أصل، إن قوي قوينا، وإن ضَعُف ضعفنا، إنّ هذا الرّجل قد ألقى بيده إلقاء الأمَة الوكعاء، يشاور النّساء، ويعتزم على الرّؤيا، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو من سمعه، فهم يمنّونه الظّفر، ويَعِدُونه عُقَب الأيّام، والهلاك أسرع إليه من السّيل إلى قِيعان الرّمل ... .

ثمّ ذكر فائدة الحجاب، ونهاه أن يُدْخِل عليهنّ مَن لايُوثَق به، وقال: إنّ خروجهنّ أهون من ذلك، وذلك لأنّ مَن تلك صفته يتمكّن من الخلوة ما لايتمكن منه مَن يراهنّ في الطّرقات.

ثمّ قال: «إن استطعت ألّا يعرفنّ غيرك فافعل». كان لبعضهم بنت حسناء، فحجّ

بها، وكان يعصبُ عينيها، ويكشف للنّاس وجهها، فقيل له في ذلك، فقال: إنّما الحَذَر من رؤيتها النّاس، لا من رؤية النّاس لها.

قال: «ولاتملّك المرأة مِن أمرها ما جاوز نفسها»، أي لاتدخلها معك في تدبير ولا مشورة، ولاتتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها.

فإنّ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، أي إنّما تصلح للمتعة واللّذّة، وليست وكيلًا في مالٍ ولا وزيرًا في رأيٍ. ثمّ أكّد الوصيّة الأُولى، فقال: لا تَعْدُ بكرامتها نفسها، هذا هو قوله: «ولاتملّكها مِن أمرها ما جاوز نفسها». ثمّ نهاه أن يطمعها في الشّفاعات.

وروى الزّبير بن بَكّار، قال: كانت الخَيْزران كثيرًا ما تكلّم موسى ابنها ـ لمّا استخلف ـ في الحوائج: وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتّى مَضَتْ أربعة أشهر من خلافته وتتالى النّاس عليها، وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، وكلّمته يومًا في أمرٍ فلم يجد إلى إجابتها سبيلًا، واحتجّ عليها بحجّةٍ، فقالت: لا بدّ من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إنّي قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: وَيْلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنّه صاحبها، والله لا قضيتُها لك ولا له! قالت: والله لا أسالك حاجةً أبدًا، قال: إذَن والله لا أُبالي، فقامت مغضَبة، فقال: مكانك تستوعبي كلامي، وأنا والله بريء من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنّه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخَدَمي وكتّابي على بابك لأضربنّ عُنُقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب الّتي تغدو إلى بابك كلّ يوم! أما لك مِغْزَلٌ يشغلك، أو مُصْحفٌ يذكرك، أو بيتٌ يصونك! إيّاك ثمّ إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لمِلّيّ أو ذمّيّ. فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحلوة ولامرّة بعدها حتّى هلك.

وأخذ هذه اللّفظة منه ـ وهي قوله: «إنّ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة» ـ الحجّاج، فقالها للوليد بن عبد الملك، روى ابن قُتَيبة في كتاب «عيون الأخبار»، قال: دخل الحجّاج على الوليد بن عبد الملك وعليه دِرْعٌ وعمامة سوداء وفرس عربيّة، وكنانة، وذلك في أوّل قَدْمة قدمها عليه من العراق، فبعثت أُمّ البنين بنت

عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه: مَن هذا الأعرابيّ المستلئم في السّلاح عندك وأنت في غلالة! فأرسل إليها: هذا الحجّاج. فأعادت إليه الرّسول: [فقال: تقول لك:] والله لأن يخلو بك مَلَك الموت في اليوم أحيانًا أحبّ إليّ من أن يخلو بك الحجّاج. فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه، فقال: يا أمير المؤمنين، دَعْ عنك مفاكهة النّساء بزُخْرُف القول، فإنّما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سِرّك ومكايدة عدوّك. فلمّا دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجّاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غدًا أن يأتيني مسلِّمًا: ففعل ذلك، فأتاها الحجّاج فحجبته، فلم يزل قائمًا، ثمّ أذنت له، فقالت: يا حجّاج، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزّبير وابن الأشعث! أما والله لولا أنّ الله علم أنّك شرّ خَلْقه ما ابتلاك برَمْي الكعبة الحرام ولا بقَتْل ابن ذات النّطاقَين أوّل مولود في دار هجرة الإسلام! وأمّا نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النّساء وبلوغ لذّاته وأوطاره، فإن كنّ ينفرجْنَ عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك! إن كنّ ينفرجْنَ عن مثله فهو غير قابل لقولك، أما والله لقد نقص نساء أمير المؤمنين الطّيّب من غدائرهنّ فبعنه في أعطية أهل الشّام حين كنت في أضيق من قَرْن، قد أظلّتك رِماحهم، وأمْخنك كِفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إيّاه، قاتَلَ اللهُ القائل حين ينظر إليك وسنان غَزَالة بين كِتْفَيك [الكامل]:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ ... رَبْدَاء تنفرُ من صَفيرِ الصّافرِ
هلّا برزتَ إلى غزالة في ... بل كانَ قلبُكَ في جناحَيْ

قم فاخرج فقام فخرج. (١٦ : ١٢٣ ـ ١٢٦)

**(الحكمة: ٥٩) الأصل: المَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ.**

**الشّرح:** ... وقيل لسُقراط: أيّ السِّباع أجسر؟ قال المرأة.

ونَظَر حكيمٌ إلى امرأةٍ مصلوبةٍ على شجرةٍ، فقال: ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذة الثّمرة.

مرّت بسُقراط امرأة وهي تتشوّف[1]، فقالت يا شيخ، ما أقبحك؟ فقال: لولا أنّكِ من المَرايا الصّدئة لغمّني ما بان مِن قُبْح صورتي فيك.

ورأى بعضهم مؤدّبًا يعلّم جاريةً الكتابة، فقال: لا تَزِد الشّرّ شَرًّا، إنّما تسق سَهْمًا سمًّا لترمى به يومًا ما.

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارًا فقال: نارٌ على نارٍ والحامل شرٌ من المحمول.

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفةً، فقيل له في ذلك، فقال: اخترتَ من الشّرّ أقلّه.

كتب فيلسوفٌ على بابه: ما دخل هذا المنزل شَرّ قطّ، فقال له بعضهم: اكْتُبْ: إلّا المرأةَ. ورأى بعضهم امرأةً غريقة في الماء، فقال: زادت الكَدَرَ كَدَرًا، والشّرّ بالشّرّ يُهْلَك.

وفي الحديث المرفوع: «استعيذوا بالله من شِرار النّساء، وكونوا مِن خِيارهنّ على حَذَر».

وفي كلام الحُكَماء: اعْصِ هَواك والنّساء، وافْعَلْ ما شئتَ.

دعا بعضهم لصاحبه، فقال: أمات اللهُ عدوّك؟ فقال: لوقلت: زوّج الله عدوّك، لكان أبلغ في الانتقام.

ومن الكنايات المشهورة عنهنّ: «سَلاحُ إبليس».

وفي الحديث المرفوع: «إنّهنّ ناقصاتُ عَقْل ودِين».

وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرح وإيضاح لهذا المعنى. وجاء في الحديث أيضًا: «شاوروهنّ وخالفوهنّ».

وفي الحديث أيضًا: «النّساء حبائل الشّيطان».

وفي الحديث أيضًا: «ما تركتُ بعدي فتنة أضرّ من النّساء على الرّجال».

وفي الحديث أيضًا: «المرأة ضِلَع عَوْجاء إن دارَيْتَها استمتعتَ بها، وإن رُمْتَ

---

١ ـ د: «تتشرّف».

تقويمها كسرتَها». وقال الشّاعر في هذا المعنى [الطّويل]:

هي الضّلَعُ العَوْجاء لستَ تقيمُها ألَا إنّ تقويمَ الضّلوعِ انكسارُها

أيجمعنَ ضَعفًا واقتدارًا على الفَتَى أليسَ عَجِيبًا ضعفُها واقتدارُها!

ومن كلام بعض الحُكَماء: ليس ينبغي للعاقل أن يمدح امرأةً إلّا بعد موتها.

وفي الأمثال: لا تحمَدنّ أَمَةً عامَ شِرائها، ولا حُرّة عام بنائها.

ومن كلام عبد الله المأمون: إنّهنّ شرٌّ كلّهنّ، وشرّ ما فيهنّ أن لا غِنى عنهنّ.

**وقال بعض السَّلَف:** إنّ كَيْد النّساء أعظم من كَيْد الشّيطان، لأنّ الله تعالى ذكر الشّيطان، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]، وذكر النّساء فقال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2].

**وكان يقال:** من الفواقِر امرأة سَوْء إن حَضَرْتَها لسَبَتْك، وإن غِبْتَ عنها لم تأمَنها.

وقال حكيم: أضرّ الأشياء بالمال والنّفس والدّين والعقل والعِرْض شدّة الإغرام بالنّساء، ومِن أعظم ما يبتلى به المغرَم بهنّ أنّه لا يقتصر على ما عنده منهنّ ولو كُنّ ألفًا، ويَطمَح إلى ما ليس له منهنّ.

**وقال بعض الحُكَماء:** مَن يُحصي مَساوئ النّساء! اجتمع فيهنّ نجاسة الحيض والاستحاضة، ودَم النِّفاس، ونقص العقل والدّين، وترك الصّوم والصّلاة في كثير من أيّام العمر، ليست عليهنّ جماعة ولا جُمُعة، ولا يسلَّم عليهنّ، ولا يكون منهنّ إمامٌ ولا قاضٍ ولا أميرٌ ولا يسافرن إلّا بوليّ.

**وكان يقال:** ما نُهيت امرأةٌ عن أمر إلّا أتته. وفي هذا المعنى يقول طُفَيل الغَنَويّ [البسيط]:

إنّ النّساءَ كأشجارٍ نَبَتنَ معًا هُنّ المُرَارُ وبعض المُرّ مأكولُ

---

١ ـ النّساء / ٧٦.

٢ ـ يوسف / ٢٨.

إنّ النّساءَ متى يُنهيْنَ عن خُلُقٍ فإنّـهُ واجـبٌ لا بـدّ مفعـولُ

(١٨ : ١٩٨ ـ ٢٠٠)

**(الحكمة: ٢٣١) الأصل: خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ، وَالْبُخْلُ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَـرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّن مِن نَفْسِهَا، وَ إِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا، وَ إِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا.**

**الشّرح:** أخذ هذا المعنى الطُّغرائيّ شاعر العَجَم، فقال [الكامل]:

الجُـودُ والإقـدامُ في فِتيـانهمْ والبُخْلُ في الفَتَياتِ والإشفاقُ

والطّعنُ في الأحداقِ دَأبُ رُماتِهِمْ والرّامِيَاتُ سِهامَها الأحداقُ

وله [البسيط]:

قد زادَ طِيبَ أحاديثِ الكِرامِ بها ما بالكَرائِمِ من جُبنٍ ومِن بخلِ

**وفي حكمة أفلاطون:** مِن أقوى الأسباب في محبّة الرّجل لامرأته واتّفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دون صوتِه بالطّبع، وتميّزها دون تميّزه، وقلبُها أضعف من قلبه، فإذا زادَ من هذا عندها شيء على ما عند الرّجل تنافرا على مقداره. (١٩ : ٦٥)

**(الحكمة: ٢٣٥) وقَالَ عليه السلام: الْمَـرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرُّ مَا فِيهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنهَا.**

**الشّرح:** حَلَف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنّه ما دخل بابي شرّ قطّ، فقال الحكيم: فمِن أينَ دَخَلتْ امرأتُك!

**وكان يقال:** أسباب فتنة النّساء ثلاثة: عينٌ ناظرةٌ، وصورةٌ مستحسنةٌ، وشهوةٌ قادرةٌ، فالحكيم مَن لا يردّد النّظرة حتّى يَعْرِفَ حقائق الصّورة، ولو أنّ رجلًا رأى امرأةً فأعجبتْه ثمّ طالَبها فامتَنَعَتْ، هل كان إلّا تاركها! فإن تأبّى عَقْلُه عليه في مطالبتها

كتأبِيها عليه في مُساعَفَتها قَدَع[١] نفسه عن لذّته قَدْع الغَيُور إيّاه عن حُرْمة مُسْلِم.

**وكان يقال:** مَن أتعب نفسه في الحلال من النّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ، كالطَّلِيح[٢] مُناه أن يَستريح. (١٩ : ٦٩)

١ ـ قدع نفسه : منعها وحدّ من شهوتها .

٢ ـ الطَّليح : المتعب .

## الفصل الحادي والسّتّون: [نبذ ممّا قيل في السّلطان]

**(كتابه ﷺ: ٣١) ... إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ ... .**

الشّرح: ... ومنها قوله: «إذا تغيرّ السّلطان، تغيرّ الزّمان». في كُتُب الفرس أنّ أنوشروان جمع عُمّال السّواد وبيده دُرّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السّواد وأدْعى إلى محقه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدّرّة في فيه؟ فقال بعضهم: انقطاع الشّرب. وقال بعضهم: احتباس المطر. وقال بعضهم: استياء الجنوب وعدم الشّمال. فقال لوزيره: قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرّعيّة لكلّها أو يزيد عليها. قال: تغيّر رأي السّلطان في رعيّته، وإضمار الحَيْف لهم، والجور عليهم. فقال: لله أبوك! بهذا العقل أهَلَك آبائي وأجدادي لمّا أهَلُوك له. ودفع إليه الدُّرّة فجعلها في فيه. (١٦ : ١٢١)

**(الحكمة: ٢٦٩) الأصل: صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.**

الشَّرح: قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَميّة مستحسَنةٌ تُناسِب هذا المعنى، أو تَجْري مَجْراه في شَرْح حالِ السّلطان، نحو قولهم: صاحبُ السُّلطان كراكبِ الأسَد يَهابُه النّاسُ، وهو لمرْكُوبه أهْيَب.

**وكان يقال:** إذا صَحِبْتَ السُّلطان فلتكن مُدَارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لَبَعْلِها المُبغِض لها، فإنّها لا تَدَع التّصنُّع له على حالٍ.

**قيل للعَتّابيّ:** لمَ، لا تَقصِد الأميرَ؟ قال: لأنّي أراه يُعطِي واحدًا لغيرِ حَسَنة ولا يَدٍ، ويَقتُل آخرَ بلا سيّئةٍ ولا ذَنب، ولستُ أدري أيَّ الرّجُلَين أكون! ولا أرجومنه مقدارَ ما أُخاطِر به.

**وكان يقال:** العاقل مَن طَلَب السّلامةَ مِن عَمَل السّلطان، لأنّه إن عَفّ جَنَى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة، وإن بَسَط يَده جَنَى عليه البَسْط ألسِنَةَ الرّعيّة.

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول: عمل السّلطان كالحمّام، الخارجُ يُؤثِر الدُّخول،

والدّاخل يُؤثر الخرُوج.

**ابن المقفَّع:** إقبالُ السّلطان على أصحابِه تَعَب، وإعراضُه عنهم مَذَلّة.

وقال آخر: السّلطان إن أرضَيْتَه أتعبَك، وإن أغضبته أعطَبَك.

**وكان يقال:** إذا كنتَ مع السُّلطان فكُن حَذِرًا منه عند تقريبه، كاتمًا لِسرّه إذا استَسَرّك، وأمينًا على ما ائتَمَنك، تشكُر له ولاتكلّفه الشُّكر لك، وتُعلِمه وكأنك تتعلّم منه وتؤدّبه وكأنّه يؤدّبُك، بصيرًا بهَواه، مؤثِرًا لمَنفَعته، ذليلًا إن ضامَك، راضيًا إن أعطاك، قانعًا إن حَرَمك، وإلّا فابعدْ منه كلّ البُعْد.

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السُّلطانَ: لا تَصحَبْهم، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التّنُّور، كلّما مسّه الإنسانُ اسوَدّ منه. فقال: إن كان خارج تلك القِدْر أسوَد فداخِلُها أبيَض.

**وكان يقال:** أفضَل ما عُوشِر به المُلوك قِلّة الخِلاف، وتخفيف المؤونة.

**وكان يقال:** لايَقدِر على صُحبة السّلطان إلّا مَن يستقلّ بما حملوه، ولايُلحِف إذا سأَلَهم، ولايغترّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولايتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه، ولايَطغَى إذا سَلّطوه، ولايَبطَر إذا أكرَموه.

**وكان يقال:** إذا جعلك السُّلطانُ أخًا فاجعله رَبًّا، وإن زادَكَ فزِدْه.

**وقال أبو حازم:** للسُّلطان كُحْل يَكحُل به مَن يُولّيه، فلا يُبصِر حتّى يُعزَل.

**وكان يقال:** لا ينبغي لصاحب السّلطان أن يبتدئَه بالمسألة عن حاله، فإنّ ذلك من كلام النَّوَكَى[1]، وإذا أردت أن تقول: كيف أصبَحَ الأمير؟ فقل: صَبّح اللهُ الأمير بالكرامة، وإن أردت أن تقول: كيف يَجِد الأميرُ نفسَه؟ فقل: وَهَب اللهُ الأمير العافية؛ ونحو هذا، فإنّ المسألة تُوجِب الجواب، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك، وإن أجابَك اشتدّ عليه.

**وكان يقال:** صُحبةُ المـلوكِ بغير أدبٍ كركوب الفلاةِ بغيرِ ماء.

---

١ ـ النَوكى: الحُمق.

**وكان يقال:** ينبغي لمن صَحِب السّلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به، أوحشَ ما يكونُ منه.

**وكان يقال:** شِدّة الانقباض من السّلطان تُورِث التّهمة، وسُهولة الانبساط إليه تُورِث المـلالة.

**وكـان يقـال:** اصْـحَب السّـلطانَ بإعْمـالِ الحَـذَر، ورَفْـض الدّالّـة، والاجتهـاد في النّصيحة، ولْيَكُن رأس مالِكَ عندَه ثلاث: الرّضا، والصّبر، والصِّدْق.

**واعلم!** أنّ لكلّ شيءٍ حَدًّا، فما جاوَزَه كان سَرَفًا، وما قَصّر عنه كان عَجْزًا، فلا تَبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِي حاشيتَه، خاصّتَه وأهلَه، فإنّ ذلك ليس من حَقّه عليك، وليَكُن أَقضى لحقّه عنك، وأَدعَى لاستمرارِ السّلامة لك؛ أن تَستصلح أُولئك جُهْدَك، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمتَه، وأمِنتَ سطوَتَه، وقلّلت عدوّك عنده، وإذا جاريتَ عند السّلطان كُفُؤًا من أكفائِك فلتكن مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة، وإن عَضَهك[1]، وبالرّفق وإن خَرف بك. واحذر أن يستلحَك فتَحمَى، فإنّ الغَضَب يُعمِي عـن الفرصـة، ويَقطَع عـن الحجّـة، ويُظهِـر عليـكَ الخَصْـم، ولاتتـوَرّدَنّ عـلى السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاك، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك، ولا بالنّصيحة وإن كانـت لـه دونَـك، فـإنّ السّـلطان يَعـرِض لـه ثـلاثٌ دونَ ثـلاث: القـدرة دونَ الكَـرَم، والحَمِيّة دون النَّصَفة؛ واللّجاج دونَ الحَظّ. (١٩ : ١٤٩ ـ ١٥١)

**(الحكمة: ٣٣٨) الأصل: السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ.**

**الشّرح:** ... وقد قيل هذا المعنى كثيرًا، قالوا: لا بدّ للنّاس من وَزَعةٍ.

**وقيل:** ما يَزَع الله عن الدّين بالسّلطان أكثر ممّا يَزَع عنه بالقرآن. وتُنسَب هذه اللّفظة إلى عثمان بن عفّان.

---

١ ـ عضهك: كذبك

قال الشّاعر[البسيط]:

لا يَصْلُح النّاسُ فَوْضَى لا سَرارةَ لهمْ ولا سَراةَ إذا جُهّالهم سادُوا

**وكان يقال:** السّلطان القاهر وإن كان ظالمـا خيرٌ للرّعيّة وللملك من السّلطان الضّعيف وإن كان عادلًا.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلٰكِنَّ اللهَ ذُوفَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]. قالوا في تفسيره: أراد السّلطان. (١٩ : ٢٤٤)

---

١ ـ البقرة / ٢٥١ .

## الفصل الثّاني والسّتّون:
## [نُبَذٌ وحكايات ممّا وقع بين يدي الملوك]

**(الحكمة: ٣١) ... وَالْجِهَادُ مِنهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ ... .**

**الشّرح:** ... ونذكرهاهنا الصِّدق في المواطن وبين يَدَي الملوك، ومَن يَغضَب لله، ويَنهَى عن المنكر، ويقوم بالحقّ، ولايُبالي بالسّلطان ولايُراقبه.

دخل عمربن عبد العزيزعلى سليمان بن عبد الملك وعنده أيُّوب ابنه ـ وهو يومئذٍ وليّ عهدِه ـ قد عقد له من بعده، فجاء إنسانٌ يَطلُب ميراثًا من بعض نساءِ الخُلَفَاء، فقال سليمان: ما إخال النِّساء يَرِثن في العَقار شيئًا، فقال عمربنُ عبد العزيز: سبحان الله! وأين كتابُ الله! فقال سليمان: يا غلام، اذهَب فأْتِني بسِجِلّ عبد الملك الّذي كُتب في ذلك، فقال له عمر: لكأنّك أرسلتَ إليّ المصحف! فقال أيُّوب بن سليمان: والله ليُوشِكَنَّ الرَّجل يتكلّم بمثل هذا عندَ أميرِالمؤمنين. فلا يشعرحتّى يفارقه رأسُه؛ فقال عمر: إذا أفضَى الأمرُإليك وإلى أمثالك كان ما يَدخُل على الإسلام أشدّ ممّا يخشى عليكم من هذا القول. ثمّ قام فخرج.

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال: حدّثني أبي عن جدّي، قال كان عمربنُ عبد العزيزيَنهَى سليمانَ بن عبد الملك عن قَتْل الحَرُوريّة، ويقول: ضَمِّنهم الحُبوس حتّى يُحدثوا توبةً. فَأُتي سليمان بحَرُوريّ مستقتل، وعنده عمربنُ عبد العزيز، فقال سليمان للحَرُوريّ: ماذا تقول؟ قال: ما أقول يا فاسق يابن الفاسق! فقال سليمان لعمر: ما تَرَى يا أبا حفص؟ فسَكَت، فقال: أقسمتُ عليك لتخبرنّي ماذا ترى عليه! فقال: أَرَى أن تَشتُمه كما شَتَمك، وتَشتُم أباه كما شتم أباك. فقال سليمان: ليس إلّا ؟! قال: ليس إلّا. فلم يرجع سليمان إلى قوله، وأَمَر بضَرْب عنق الحَروريّ.

ورَوَى ابنُ قتيبة في كتاب «عيون الأخبار»، قال: بينما المنصور يطوف ليلًا بالبَيْت سَمِع قائلًا يقول: اللّهمّ إليك أشكو ظهورَ البَغْي والفساد، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطّمع. فخرج المنصورُفجلس ناحيةً من المسجد، وأرسل إلى الرّجل

يدعوه، فصلّى ركعتَين، واستَلَم الرُّكن، وأقبل على المنصور فسلّم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الّذي سمعتُك تقوله من ظُهور البَغْي والفساد في الأرض، وما يَحول بين الحقّ وأهله من الطّمع؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما أرْمضني[1]، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمَّنتني على نفسي، أنبأتُك بالأُمور من أُصولها، وإلّا احتجزتُ منك، واقتصرتُ على نفسي، فلي فيها شاغل. قال: أنت آمنٌ على نفسك، فقل. فقال: إنّ الّذي دخله الطّمع حتّى حال بينه وبين إصلاح ما ظَهر من البَغْي والفساد لأنتَ. قال: وَيْحك! وكيف يَدخُلني الطّمع والصّفراء والبيضاء في قَبْضتي، والحُلْو والحامض عندي؟! قال: وهل دخل أحد من الطّمع ما دَخَلَكَ! إنّ الله عزّوجلّ استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلتَ أُمورهم، واهتممتَ بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حُجُبًا من الجِصّ والآجُرّ، وأبوابًا من الحديد، وحَجَبةً معهم السّلاح، ثمّ سجنتَ نفسك فيها منهم، وبعَثت عُمّالك في جباية الأموال وجمعِها، فقوّيتهم بالسِّلاح والرِّجال والكُراع، وأمَرْت بألّا يدخُل عليك إلّا فلان وفلان، نفرٌ سمّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملْهوف، ولا الجائع والفقير، ولا الضّعيف والعارى، ولا أحد ممّن له في هذا المال حقّ، فما زال هؤلاء النّفرُ الّذين استخلصتَهم لنفسك، وآثرتهم على رعيّتك، وأمرت ألّا يحجَبوا عنك، يجبون الأموال ويَجْمعونها ويَحجُبونها، وقالوا: هذا رجل قد خان الله، فما لنا لا نخونه، وقد سَخَّرنا! فائتَمروا على ألّا يصل إليك مِن أخبار النّاس شيء إلّا ما أرادوا، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا بغضوه[2] عندك، وبغَوْه العوائل، حتّى تسقُط منزلتُه ويَصْغر قدرُه.

فلمّا انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم النّاسُ وهابوهم، وكان أوّل مَن صانَعَهُم عُمّالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلْم رعيّتك، ثمّ فعل ذلك ذَوو القدرة والثّروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونَهم فامتلأتْ بلاد الله بالطّمع بغيًا وفسادًا، وصار

---

١ ـ ب : «أمرضني» ؛ والصّواب ما أثبته من ا ، د وعيون الأخبار.

٢ ـ عيون الأخبار: «قصبوه» أي عابوه .

هؤلاء القوم شركاءك في سَلْطنتك وأنت غافل، فإن جاء مُتظلّم حِيلَ بينه وبين دخول دارك، وإن أراد رَفع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك، ووقفت للنّاس رَجُلًا ينظر في مظالمهم، فإن جاء المتظلّم إليه أرسَلوا إلى صاحب المظالم ألّا يرفع إليك قصّته، ولا يكشف لك حاله؛ فيجيبهم خوفًا منك، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه، ويعتلّ عليه؛ وإذا أجهِد وأُحرِج وظهرتَ أنت لبعض شأنك صَرَخ بين يديك، فيُضرب ضربًا مبرّحًا ليكون نَكالًا لغيره، وأنت تَنظُر ولا تُنكِر، فما بقاءُ الإسلام على هذا!

ولقد كنتُ أيّام شبيبتي أُسافِر إلى الصّين فقدِمْتُها مرّة وقد أُصِيب مَلِكُها بسَمْعه، فبَكَى بكاءً شديدًا، فحداه [1] جلساؤه على الصّبر، فقال: أما إنّي لست أبكي للبليّة النّازلة، ولكن أبكي للمظلوم بالباب يَصرُخ فلا أسمعُ صوتَه. ثمّ قال: أمَا إذْ ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادُوا في النّاس ألّا يلبسَ ثوبًا أحمرَ إلّا مظلوم [2]. ثمّ كان يَركَب الفِيل طرَفَي نهاره يَنظُر هل يرى مظلومًا! فهذا مُشرك بالله غلبتْ رأفتُه بالمشركين على شُحّ نفسِه، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تَغلِبُك رأفتُك بالمسلمين على شُحّ نفسِك!

فإن كنتَ إنّما تَجمَع المال لوَلَدك، فقد أراك الله تعالى عِبَرًا في الطِّفل يَسقُط من بطن أُمّه مالَه على الأرض مال، وما من مال يومئذٍ إلّا ودونه يدٌ شحيحة تَحوِيه، فلا يزال الله يَلطُف بذلك الطِّفْل حتّى تَعظُم رغبةُ النّاس إليه، ولستَ بالّذي تُعطي، ولكنّ الله يُعطي مَن يشاء ما يشاء.

وإن قلتَ: إنّما أجمع المال لتشييد السُّلطان، فقد أراك اللهُ عِبَرًا في بني أُميّة، ما أغنَى عنهم ما جَمَعوا من الذَّهَب والفضّة، وأعَدُّوا من الرِّجال والسّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد. وإن قلتَ: أجمع المالَ لطلب غاية هي أجسَم من الغاية الّتي أنا

---

١ ـ عيون الأخبار: «فحثّه».

٢ ـ د: «متظلّم».

فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلّا منزلة لا تُدرَك إلّا بخلاف ما أنت عليه.

انظرْ هل تعاقِب مَن عصاك بأشدَ من القَتْل؟ قال: لا. قال: فإنَ المـلِك الّذي خَوَّلك ما خَوَّلك لا يُعاقِب مَن عصاه بالقَتْل، بالخلود في العذاب الأليم! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبَك، وَعمِلَتْه جوَارحُك، ونظر إليه بَصرُك، واجترحَتْه يداك ومشتْ إليه رِجْلاك. وانظر هل يُغني عنك ما شححتَ عليه من أمر الدُّنيا إذا انتَزَعَه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما مَنَحك!

فبكى المنصور، وقال: ليتني لم أُخلَقْ! وَيْحك! فكيف أحتالُ لنفسي ؟ قال: إنّ للنّاس أعلامًا يَفزَعون إليهم في دِينهم، ويَرْضَوْن بقَوْلهم، فاجعلْهم بِطانَتك يُرشِدُوك، وشاوِرْهم في أمرك يُسدِّدوك. قال: قد بعثتُ إليهم فهرَبوا منّي. قال: نعم، خافوا أن تَحمِلهم على طريقك، ولكن افتحْ بابَك، وسَهِّل حِجابَك، وانظر المظلومَ، وأقْمَع الظّالم، وخذ الفَيْء والصَّدقات ممّا حلّ وطاب، واقسِمه بالحقّ والعدل على أهله، وأنا الضّامن عنهم أن يأتوك ويُسعِدوك على صلاح الأُمّة. وجاء المؤذّنون فسلّموا عليه، ونادَوا بالصّلاة، فقام وصلّى، وعاد إلى مجلسه، فطُلب الرّجل فلم يُوجَد [1].

وروى ابن قُتَيبة أيضًا في الكتاب المذكور أنّ عمروبنَ عبيد قال للمنصور: إنّ الله أعطاك الدُّنيا بأسْرِها، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها، واذكر ليلةً تتمخّض لك صبيحتُها عن يوم القيامة ـ قال: يعنى ليلةَ موتِه ـ فوَجَم المنصورُ، فقال الرَّبيع: حَسْبُك، فقد غَممتَ أمير المؤمنين. فقال عمروبن عبيد: إن هذا صَحِبَك عشرين سنةً لم يرَ عليه أن يَنصحَك يومًا واحدًا، ولم يَعمَل وراء بابك بشيء ممّا في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه! قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قد قلتُ لك، خاتَمي في يَدِك فهلمّ أنت وأصحابك فاكفِني. فقال عمرو: دَعْنا بعَدْلِك نَسْخُ بأنفسنا بعَوْنِك، وببابك مَظالِم كثيرة [2]، فاردُدها نعلم أنّك صادق.

---

١ ـ عيون الأخبار٢: ٣٣٣ ـ ٣٣٧

٢ ـ عيون الأخبار: «ألف مظلمة» .

وقال ابن قُتَيبة في الكتاب المذكور: وقد قام أعرابيّ بين يدي سليمانَ بن عبد الملك بنحو هذا، قال له: إنّي مكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة][1]، فاحتمِله إن كرهتَه، فإنّ وراءه ما تحبّ. قال: قل. قال: إنّي سأُطلِق لساني بما خَرِستْ عنه الألسُن من عِظَتك تأديةً لحقِّ الله، إنّك قد تكتنفك رجالٌ أساؤوا الاختيارَ لأنفسهم، فابتاعوا دنياهم بدِينهم، فهم حربُ الآخرة، سِلْمُ الدّنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنّهم لم يألوا الأمانة تَضييعًا، والأُمّة خَسْفًا، وأنت مسؤول عمّا اجتَرَحوا، وليسوا مسؤولين عمّا اجترَحْتَ، فلا تُصلِح دُنياهُمْ بفسادِ آخرَتِك، فإنّ أعظمَ النّاس غبْنًا مَن باعَ آخرتَه بدُنيا غيره. قال: فقال سليمان: أمّا أنت يا أعرابيّ، فإنّك قد سَلَلتَ علينا عاجلًا لسانك، وهو أقطَعُ سَيفيْك. فقال: أجَل، لقد سللتُه، ولكنّ لك لا عليك[2]. (١٨ : ١٤٣ ـ ١٤٨)

---

١ ـ زيادة من عيون الأخبار.

٢ ـ عيون الأخبار: ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

## الفصل الثّالث والسّتّون: [في طبقات المجتمع]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَاعْلَمْ! أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَن بَعْضٍ: فَمِنهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنهَا: كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنهَا: قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنهَا: عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنهَا: أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِن أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنهَا: التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنهَا: الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِن ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِه فِي كِتَابِهِ أَو سُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله عَهْدًا مِنهُ عِندَنَا مَحْفُوظًا.

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ الدِّين، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِن وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِن الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِن خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِن مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِن أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِن أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ.

وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ.

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِن حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِن ذَلِكَ إِلَّا بِالْاِهْتِمَامِ وَالْاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَو ثَقُلَ ....

**الشّرح:** قالت الحكماء: الإنسانُ مدنيّ بالطّبع، ومعناه: أنّه خُلِق خِلْقةً لابدّ معها من أن يكون منضمًّا إلى أشخاص من بني جنسه، ومتمدّنًا في مكان بعينه، وليس

المراد بالمتمدّن ساكن المدينة ذات السُّور والسّوق، بل لا بدّ أن يقيم في موضع مّا مع قوم من البَشَر، وذلك لأنّ الإنسان مضطرّ إلى ما يأكله ويشرَبُه ليقيم صورته، ومضطرّ إلى ما يلبسه، ليدفع عنه أذى الحرّ والبرْد، وإلى مسكن يسكنه ليردّ عنه عادَيةَ غيره من الحيوانات، وليكون مَنزِلًا له ليتمكّن من التّصرّف والحركة عليه، ومعلومٌ أنّ الإنسان وحده لا يستقلّ بالأُمور الّتي عددناها، بل لا بدّ من جماعة يحرُث بعضهم لغيره الحَرْث، وذلك الغير يحُوك للحرّاث الثّوب، وذلك الحائك يبني له غيره المَسكَن، وذلك البنّاء يحمل له غيره الماء، وذلك السّقاء يكفيه غيرُه أمرَ تحصيل الآلة الّتي يطحن بها الحَبّ ويعجن بها الدّقيق ويخبزبها العجين، وذلك المحصّل لهذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة الّتي تدعو إليها داعية الشَّبَق، فيَحصُل مساعدة بعض النّاس لبعض لولا ذلك لما قامت الدّنيا، فلهذا معنى قوله ﷺ: «إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض، ولا غناء ببعضها عن بعض».

ثمّ فصّلهم وقسّمهم، فقال: منهم الجند، ([1]ومنهم الكُتّاب، ومنهم القُضاة، ومنهم العُمّال)[1]، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذّمّة، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين، ومنهم التّجّار، ومنهم أرباب الصّناعات. ومنهم ذووالحاجات والمسكنة، وهم أدون الطّبقات.

ثمّ ذكر أعمال هذه الطّبقات، فقال: الجند للحماية، والخراجُ يُصرَف إلى الجند، والقُضاة والعمّال والكتّاب لما يحكمونه من المعاقد، ويجمعونه من المنافع، ولابدّ لهؤلاء جميعًا من التّجّار لأجل البيع والشّراء الّذي لا غناء عنه، ولابدّ لكلٍّ من أرباب الصّناعات كالحدّاد والنّجّار والبنّاء وأمثالهم. ثمّ تلى هؤلاء الطّبقة السّفلى، وهم أهل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتهم والإحسان إليهم.

وإنّما قسّمهم في هذا الفصل هذا التّقسيم تمهيدًا لما يذكره فيما بعد، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل، فذكر طبقةً طبقةً وصنفًا صنفًا، وأوصاه في كلّ طبقة وفي كلّ صِنف

---

١ ـ ساقطة من ب، وأثبته من أ، د.

منهم بما يليق بحاله، وكأنّه مهّد هذا التّمهيد، كالفِهرِست لما يأتي بعده من التّفصيل.
(١٧ : ٤٩ ـ ٥٠)

## [في أُمراء الجيش]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... فَوَلِّ مِن جُنُودِكَ أَنصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلّهِ، وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وأَطْهَرَهُمْ جَيْبًا، وأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا مِمَّن يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنبُوعَلَى الأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّن لَا يُثِيرُهُ الْعُنفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بَذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّماحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِن أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الْوَالِدَانِ مِن وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِن قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِن لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنهُ. وَلْيَكُن آثَرُ رُؤُوسِ جُندِكَ عِندَكَ مَن وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِن جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَن وَرَاءَهُمْ مِن خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ. وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الأُمُورِ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ.

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ مِن حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِن شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ،

وَلَاتُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَايَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَن تُعْظِمَ مِن بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَاضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَن تَسْتَصْغِرَ مِن بَلَائِهِ مَاكَانَ عَظِيمًا.

وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا ءَ يُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اَطِيعُوا اللهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاُولِى الْاَمْرِ مِنكُمْ فَاِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ: الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ ... .

الشّرح: هذا الفصل مختصّ بالوَصاة فيما يتعلّق بأُمراء الجيش، أمَرَه أن يولّيَ أمر الجيش من جنوده مَن كان أنصحهم لله في ظنّه، وأطهرهم جَيْبًا، أي عفيفًا أمينًا، ويُكنى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب، لأنّ الّذي يسرق يجعل المسروق في جَيْبه.

فإن قلتَ: وأيّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش؟ إنّما ينبغي أن تكون هذه الوصيّة في وُلاة الخَراج!

قلتُ: لابدّ منها في أُمراء الجيش لأجل الغنائم.

ثمّ وصف ذلك الأمير، فقال: «ممّن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر»، أي يقبَل أدنى عذر، ويستريح إليه، ويسكن عنده. يرؤف[1] على الضّعفاء، يرفق بهم ويرحمهم. والرّأفة: الرّحمة. وينبو عن الأقوياء، يتجافَى عنهم ويبعد، أي لا يمكّنهم من الظّلم والتّعدّي على الضّعفاء ... .

ثمّ أمره أن يلصق بذوي الأحساب وأهل البُيُوتات، أي يكرمهم ويجعل مُعوّله في ذلك عليهم ولايتعدّاهم إلى غيرهم، وكان يقال: عليكم بذوي الأحساب، فإنّ هم لم يتكرّموا استحيَوْا.

قوله: «ثمّ تفقَّدْ من أُمورهم»، الضّمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأُمراء، لما سنذكره ممّا يدلّ الكلام عليه.

---

١ ـ د: «يرأف»، تحريف.

فإن قلتَ: إنّه لم يجرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سَبَق، وإنّما المذكور الأُمراء!

قلتُ: كلّا، بل سبق ذكر الأجناد، هو قوله: «الضّعفاء والأقوياء».

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أُمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الولد، وأمره ألّا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم، وألّا يستحقر شيئًا تعهّدهم به وإن قلّ، وألّا يمنعه تفقّد جسيم أُمورهم عن تفقّد صغيرها. وأمره أن يكون آثر رؤوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَن واساهم في معونته، هذا هو الضّمير الدّالّ على أنّ الضّمير المذكور أوّلًا للجند لا لأُمراء الجند، لولا ذلك لما انتظم الكلام.

قوله :«من خُلُوف أهليهم»، أي ممّن يخلفونه من أولادهم وأهليهم.

ثمّ قال: لا يصحّ نصيحة الجند لك إلّا بحيطتهم على وُلاتهم، أي بتعطّفهم عليهم وتحنّنهم ... .

قوله: «وقلّة استثقال دُوَلهم»، أي لا تصحّ نصيحة الجند لك إلّا إذا أحبّوا أُمراءهم ثمّ لم يستثقلوا دُوَلهم، ولم يتمنّوا زوالها.

ثمّ أمره أن يذكر في المجالس والمحافل بلاء ذوي البلاء منهم، فإنّ ذلك ممّا يرهف عزم الشّجاع ويحرّك الجبان.

قوله: «ولا تضمَّنَّ بلاء امرئ إلى غيره»، أي اذكر كلّ مَن أبلى منهم مفرَدًا غير مضموم ذكر بلائه إلى غيره كي لا يكون مغمورًا في جنب ذكر غيره.

ثمّ قال له: لا تُعظِّم بلاء ذوي الشّرف لأجل شرفهم، ولا تُحقِّر بلاء ذوي الضَّعَة لضعة أنسابهم، بل اذكر الأُمور على حقائقها.

ثمّ أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب، أي ما يؤوده ويميله لثقله، وهذه الرّواية أصحّ من رواية مَن رواها بالظّاء، وإن كان لتلك وجه.

(١٧ : ٥٢ ـ ٥٤)

## [في أمر العُمّال]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... ثُمَّ انظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَارًا، وَلَاتُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِن شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِن أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا.

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَن تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِن خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِن أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِن أَحَدٌ مِنهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِندَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِن عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

الشّرح: لما فرغ عليه السلام من أمر القضاء، شرع في أمر العُمّال، وهم عُمّال السّواد والصّدقات والوقوف والمصالح وغيرها، فأمره أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم وألّا يولّيهم محاباةً لهم، ولمن يشفع فيهم، ولا أثرة ولا إنعامًا عليهم.

كان أبو الحسن بن الفرات يقول: الأعمال للكُفاةِ من أصحابنا، وقضاء الحقوق على خواصّ أموالنا.

وكان يحيى بن خالد يقول: مَن تسبّب إلينا بشفاعة في عمل فقد حلّ عندنا محلّ مَن ينهض بغيره، ومَن لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلًا.

ووقّع جعفر بن يحيى في رُقعةِ متحرّم به: هذا فتًى له حُرمة الأمل، فامتحنه بالعمل، فإن كان كافيًا فالسّلطان له دوننا، وإن لم يكن كافيًا فنحن له دون السّلطان.

ثمّ قال عليه السلام: «فإنّهما ـ يعني استعمالهم للمحاباة والأثرة ـ جماع من شُعَب الجَوْر

والخيانة»، وقد تقدّم شرح مثل هذه اللّفظة، والمعنى أنّ ذلك يجمع ضروبًا من الجور والخيانة. أمّا الجور فإنّه يكون قد عدل عن المستحقّ، إلى غير المستحقّ، ففي ذلك جَوْر على المستحقّ. وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضي تقليد الأعمال الأكفّاء، فمَن لم يعتمد ذلك فقد خان مَن ولّاه.

ثمّ أمره بتخيّر مَن قد جرّب، ومَن هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشّيء والخوف من فواته.

ثمّ أمره بإسباغ الأرزاق عليهم، فإنّ الجائع لا أمانةَ له، ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا، لأنّهم قد كُفُوا مُؤْنة أنفسهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق[1].

ثمّ أمره بالتّطلّع عليهم وإذكاء العيون والأرصاد على حركاتهم ... ثمّ أمره بمؤاخذة مَن ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه، وقد صنع عمر كثيرًا من ذلك، وذكرناه فيما تقدّم.

قال بعض الأكاسرة لعامل من عُمّاله: كيف نومك باللّيل؟ قال: أنامُه كلّه. قال: أحسنت! لو سرقت ما نمت هذا النّوم. (١٧ : ٦٩ ـ ٧٠)

## [في ذكر أرباب الخَراج ودهاقين السّواد]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَتفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَن سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَن سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وأَهْلِهِ.

وَلْيَكُن نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِن نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَن طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا. فَإِن شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً، أَوِ انقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ

---

١ ـ في د: «الرزق».

أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنهُمْ بِمَا تَرْجُو أَن يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ.

وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِندَهُمْ مِن إِجْمَاعِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِن عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِن بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِن إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلَهَا لِإِشْرَافِ أَنفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

الشّرح: انتقل عليه السلام من ذكر العُمّال إلى ذكر أرباب الخَراج ودَهاقين السّواد، فقال: تفقّد أمرهم، فإنّ النّاس عيال عليهم، وكان يقال: استوصُوا بأهل الخراج، فإنّكم لا تزالون سمانًا ما سمِنُوا.

ورُفع إلى أنوشِرْوان أنّ عامل الأهواز قد حمل من مال الخَراج ما يزيد على العادة، وربّما يكون ذلك قد أجحف بالرّعيّة، فوقّع: يُرَدّ هذا المال على مَن قد استوفَى منه، فإنّ تكثير المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَن يحصّن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه.

وكان على خاتم أنوشِرْوان: لا يكون عُمرانٌ، حيث يجور السّلطان ... .

ثمّ أمره أن يخفّف عنهم متى لحقّهم شيء من ذلك، فإنّ التّخفيف يُصلح أُمورهم، وهو وإن كان يُدخِل على المال نقصًا في العاجل إلّا أنّه يقتضي[1] توفير زيادة في الآجل، فهو بمنزلة التّجارة الّتي لابدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه ... .

---

١ ـ في د: «يفضي إلى» .

ثمّ قال له: وربّما احتجت فيما بعد إلى تكلّفهم بحادث يحدث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضًا أو معونةً محضة، فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك، طيّبة قلوبهم[1] به.

ثمّ قال عليه السلام: فإنّ العمران محتمل ما حمّلته.

سمعت أبا محمّد بن خُليد ـ وكان صاحب ديوان الخَراج في أيّام النّاصر لدين الله يقول لمن قال له: قد قيل عنك: إنّ واسط والبَصْرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها في تحصيل الأموال! فقال أبو محمّد: ما دام هذا السّطّ بحاله، والنَّخل نابتًا في منابته بحاله، ما تخرب واسط والبَصْرة أبدًا.

ثمّ قال عليه السلام: «إنّما تؤتى الأرض»، أي إنّما تُدهَى من إعواز أهلها أي من فقرهم.

قال: والموجب لإعوازهم طمعُ وُلاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنّهم بالبقاء، يحتمل أن يريد به أنّهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموت والزّوال. ويحتمل أن يريد به أنّهم يتخيّلون العزل والصّرف، فينتهزون الفرص، ويقتطعون الأموال ولاينظرون في عِمارة البلاد .... (١٧: ٧١ ـ ٧٣)

## [فصل في الكُتّاب وما يلزمهم من الآداب]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... ثُمَّ انظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الأَخْلَاقِ مِمَّن لَاتُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئُ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأٍ.

وَلَاتُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنِ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوابِ عَنكَ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنكَ، وَلَايُضْعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَايَعْجُزُ عَن إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلَايَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ

---

١ ـ في د: «نفوسهم».

الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلّٰهِ، وَلِمَن وُلِّيتَ أَمْرَهُ.

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِن أُمُورِكَ رَأْسًا مِنهُمْ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِن عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنهُ أُلْزِمْتَهُ.

**الشّرح:** ... لما فرغ من أمر الخَراج، شَرَع في أمر[1] الكُتّاب الّذين يلُون أمر الحضرة، ويترسّلون عنه إلى عُمّاله وأُمَرائه، وإليهم مَعاقد التّدبير وأمرُ الدّيوان، فأمَرَه أن يتخيّر الصّالح منهم، ومَن يوثق على الاطّلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتّدبيرات، ومَن لا يُبطِره الإكرام والتّقريب، فيطمعَ فيجترئ على مخالفته في مَلإٍ من النّاس والرّدّ عليه، ففي ذلك من الوَهَن للأمير وسُوء الأدب الّذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاءَ به.

**قال الرّشيد للكِسَائيّ:** يا عليّ بن حمزة، قد أحللْناك المحلّ الّذي لم تكن تبلغه همّتك، فروِّنا من الأشعار أعفَّها، ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق وذاكرْنا بآداب الفُرس والهند، ولاتُسرِع علينا الرّدّ في ملأ، ولاتترك تثقيفنا في خلاء.

**وفي آداب ابن المقفّع:** لا تكوننّ صُحبتك للسّلطان إلّا بعد رياضةٍ منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأُمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنتَ حافظًا إذا ولّوك. حَذِرًا إذا قرّبوك، أمينًا إذا ائتمنوك، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنّك تتأدّب بهم، وتَشكُرهم ولاتكلّفهم الشُّكر. ذليلًا

---

١ ـ في د «ذكر».

إن صَرَموك، راضيًا إن أسخطوك، وإلّا فالبُعد منهم كلَ البعد، والحَذَر منهم كلَ الحذر.

وإن وجدتَ عن السُلطان وصُحبته غِنًى فاستَغْنِ عنه، فإنّه مَن يخدُم السُلطانَ حقّ خدمته يُخلَّى بينه وبين لَذّة الدُنيا وعمل الآخرة، ومَن يخدمه غيرحقّ الخدمة فقد احتمل وِزْر الآخرة، وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة في الدُنيا. فإذا صحبتَ السُلطان فعليك بطول الملازمة من غيرإملال، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثِّقة فاعزل عنه كلام الملق، ولاتُكثِرْ له من الدّعاء، ولاتردّنّ عليه كلامًا في حفْل وإن أخطأ، فإذا خلوتَ به فبصّره في رِفْق، ولايكونن طلبك ما عنده بالمسألة، ولاتستبطئه وإن أبطأ، ولاتخبرنّه أنّ لك عليه حقًّا، وأنّك تعتدّ عليه ببلاء، وإن استطعتَ ألّا تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النُصَح والاجتهاد فافعل، ولاتعطينّه المجهود كلّه من نفسك في أوّل صحبتك له، وأعدّ موضعًا للمزيد. وإذا سأل غيرَك عن شيء فلا تكن المجيبَ.

**واعلم!** أنّ استلابك الكلامَ خفّة فيك واستخفافٌ منك بالسّائل والمسؤول، فما أنت قائل إن قال لك السّائل: ما إيّاك سألتُ أو قال المسؤول: أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه، والمستخفّ بسلطانه.

وقال عبد الملك بن صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته: يا عبدَ الله، كُن على التماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام، فإنّهم قالوا: إذا أعجبك الكلامُ فاصْمُت، وإذا أعجبك الصّمتُ فتكلّم.

**واعلم!** أنّ أصعب الملوك معاملةً الجبّارُ الفَطِن المتفقّد، فإن ابتُليتَ بصحبته فاحترس، وإن عُوفيت فاشكرالله على السّلامة، فإنّ السّلامة أصل كلّ نعمة. لا تساعدْني على ما يَقبُح بي، ولاتردّنّ عليّ خطأ في مجلس، ولاتكلّفْني جوابَ التّشميت والتّهنئة، ودَعْ عنك: كيف أصبح الأمير، وكيف أمسَى ! وكلّمني بقدر ما أستنطقك، واجعل بدَل التّقريظ لي صوابَ الاستماع منّي.

**واعلم!** أنّ صوابَ الاستماع أحسنُ من صواب القول، فإذا سمعتَني أتحدّث فلا يفوتنّك منه شيء، وأَرِني فهمَك إيّاه في طَرْفِك ووجهك، فما ظنّك بالمَلِك وقد أحلّك

محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه، وأحللته محلّ مَن لا يسمع منه! وكلٌّ من هذا يُحبِط إحسانَك، ويُسقِط حقَّ حُرمتك، ولاتستدعِ الزّيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون منّي، فمَن أسوأ حالًا ممّن يستكدّ الملوك بالباطل، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقّهم.

**واعلم!** أنّي جعلتك مؤدّبًا، بعد أن كنتَ معلّمًا، وجعلتك جليسًا مقرّبًا بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعدًا، فمتى لم تعرف نقصانَ ما خرجتَ منه، لم تعرف رجحان ما دخلتَ فيه، وقد قالوا: مَن لم يعرف سوء ما أَوْلَى، لم يَعرِف حُسنَ ما أَبلَى.

ثمّ قال عليه السلام: وليكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عُمّالك عليك، والإجابة عنها حسن الوكالة والنّيابة عنك فيما يحتجّ به لك عليهم مِن مكتوباتهم، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة، فإن عَقَد لك عقدًا قوّاه وأحكَمه، وإن عَقد عليك عقدًا اجتهد في نقضِه وحَلّه. قال: وأن يكون عارفًا بنفسه، فَمَن لم يعرف قدرَ نفسِه لم يَعرِف قدرَ غيرِه.

ثمّ نهاه أن يكون مستَنَدَ اختيارِه لهؤلاء فِراستهُ فيهم، وغلبةُ ظنّه بأحوالهم، فإنّ التّدليس ينمّ في ذلك كثيرًا، وما زال الكُتّاب يتصنّعون للأُمراء بحُسن الظّاهر، وليس وراء ذلك كثير طائل في النّصيحة والمعرفة، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمتْ به التّجربةُ لهم، وما وُلّوه من قبل، فإن كانت ولايتُهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم، وإلّا فلا، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التّصنّع. وروي: «يتعرّضون».

ثمّ أمَرَه أن يقسم فنونَ الكتابة وضروبَها بينهم، نحو أن يكون أحدهم للرَّسائل إلى الأطراف والأعداء، والآخر لأجوبة عُمّال السّواد، والآخره بحضرة الأمير في خاصّته وداره، وحاشيته وثقاته. ثمَّ ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابى عنه، ويتغافل من عيوب كُتّابه، فإنّ الدّين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل، ويوجب التّطلّع عليهم.

**واعلم!** أنّ الكاتب الّذي يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الّذي يُسمَّى الآن في الاصطلاح العُرْفيّ وزيرًا، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنّائب عنه في أُموره، وإليه تصل مكتوباتُ العُمّال وعنه تصدر الأجوبة، وإليه العَرْض على الأمير، وهو المستدرِك على العُمّال، والمهيمِن عليهم، وهو على الحقيقة كاتبُ الكتّاب ولهذا يسمّونه: الكاتب المطلَق.

**وكان يقال:** للكاتب على الملك ثلاث: رفعُ الحجاب عنه، واتّهام الوُشاة عليه، وإفشاء السّرّ إليه.

**وكان يقال:** صاحبُ السُّلطان نصفُه، وكاتبُه كلّه. وينبغي لصاحب الشُّرْطة أن يطيل الجلوس، ويديمَ العُبوس، ويستخفّ بالشّفاعات.

**وكان يقال:** إذا كان الملك ضعيفًا، والوزيرُ شَرِهًا، والقاضي جائرًا، فرّقوا الملك شَعاعًا.

**وكان يقال:** لا تَخَفْ صولةَ الأمير مع رِضَا الكاتب، ولا تثقنّ برضَا الأمير مع سخط الكاتب، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بنُ العميد، فقال [الكامل]:

وزعمتَ أنّكَ لستَ تُفكِر بعد ما ... عَلِقتْ يداكَ بذِمّةِ الأمراءِ

هيهاتَ قد كذبَتْكَ فكرتُكَ الّتي ... قد أوهمتْكَ غِنى عن الوزراءِ

لم تُغنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجدْ ... أرضًا ولا أرضٌ بغيرِ سماءِ

**وكان يقال:** إذا لم يُشرِف المَلِك على أُموره، صار أغشّ النّاس إليه وزيرُه.

**وكان يقال:** ليس الحرب الغشومُ بأسرعَ في اجتياح[1] المُلْك من تضييع مراتب الكُتّاب حتّى يصيبها أهل النّذالة، ويزهدَ فيها أُولُو الفَضْل. (١٧ : ٧٦ ـ ٨٠)

---

١ ـ اجتياح الملك : الذّهاب به .

## [فصل في ذكر ما نصحتْ به الأوائلُ الوزراء]

**وكان يقال:** لا شيء أذهبُ بالدُّوَل من استلقاء المَلِك الأسرار.

**وكان يقال:** مِن سعادة جدّ المرء ألّا يكون في الزّمان المختلط وزيرًا للسّلطان.

**وكان يقال:** كما أنّ أشجع الرّجال يحتاج إلى السّلاح، وأسبَقَ الخيل يحتاج إلى السّوط، وأحدَّ الشِّفار يحتاج إلى المِسَنّ، كذلك أحزم الملوك وأعقَلُهم يحتاج إلى الوزير الصّالح.

**وكان يقال:** صلاحُ الدّنيا بصلاح الملوك، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء، وكما لا يَصْلُح الملك إلّا بمن يستحقّ الملك، كذلك لا تَصلُح الوَزارة إلّا بمن يستحقّ الوَزارة.

**وكان يقال:** الوزير الصّالح لا يرى أنّ صلاحه في نفسه كائن صلاحًا حتّى يتّصل بصلاح المِلك وصلاح رعيّته، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته، وفيما استعطف قلوب الرّعيّة والعامّة على الطّاعة للملك، وفيما فيه قِوام أمر الملك من التّدبير الحَسَن، حتّى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن. وإذا طرقت الحوادثُ، كان للمَلِك عُدّةً وعتادًا، وللرّعيّة كافيًا محتاطًا، ومن ورائها محاميًا ذابًّا، يعنيه من صلاحها ما لا يعنيه من صلاح نفسِه دونَها.

**وكان يقال:** مَثَل الملك الصّالح إذا كان وزيره فاسدًا مَثَلُ الماء العَذْب الصّافي وفيه التِّمساح، لا يستطيع الإنسان ـ وإن كان سابحًا، وإلى الماء ظامئًا ـ دخوله، حذرًا على نفسه.

قال عمر بنُ عبد العزيز لمحمّد بن كَعْب القُرَظيّ حين استُخلِف: لوكنتَ كاتبي ورِدْءًا لي على ما دُفعت إليه! قال: لا أفعل، ولكنّي سأرشدك؛ أسرِع الاستماع، وأبطئ في التّصديق حتّى يأتيَك واضحُ البرهان، ولاتعملن ثبجتك فيما تكتفي فيه بلسانك، ولاسَوْطك فيما تكتفي فيه ثبجتك، ولاسيفك فيما تكتفي فيه بسوطك.

**وكان يقال:** التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان.

وقال أبرويز لكاتبه: اكتُم السّرَّ، واصْدُق الحديث، واجتهد في النّصيحة، وعليك

بالحَذَر؛ فإنّ لك عليَّ ألّا أعجّل عليك حتّى أستأنيَ لك، ولا أقبل فيك قولًا حتّى أستيقنَ، ولا أُظمِعُ فيك أحدًا فتُغتال؛ واعلم! أنّك بمَنجاةٍ[1] رفعة فلا تحطّنها، وفي ظلّ مملكةٍ فلا تستزيلنّه. قارِب النّاس مجاملةً من نفسك، وباعِدهم مسامحةً عن عدوّك، واقْصِد إلى الجميل ازدراعًا لغَدِك، وتنزّه بالعفاف صَونًا لمُروءتك، وتحسن عندي بما قدرت عليه. احْذَرْ، لا تُسرِعَنّ الألسنةَ عليك، ولاتُقَبِّحن الأُحدوثة عنك، وصُن نفسَك صونَ الدُّرّة الصّافية، وأخْلِصها خلاصَ الفِضّة البيضاء، وعاتبها معاتبة الحَذِر المُشفِق، وحصِّنها تحصينَ المدينة المنيعة. لا تدَعنّ أن ترفع إليّ الصّغير، فإنّه يدلّ على[2] الكبير، ولاتكتمنّ عنّي الكبير فإنّه ليس بشاغل عن الصّغير. هذِّب أُمورَك ثمّ القني بها، واحكم أمرَك ثمّ راجعني فيه، ولا تجترأنّ عليَّ فأمتعِض، ولا تنقبضنّ منّي فأتّهم، ولاتُمرضنّ ما تلقاني به ولاتخدجنّه[3]؛ وإذا أفكرتَ فلا تجعل، وإذا كتبتَ فلا تُعْذِر، ولا تستعن بالفضول فإنّها علاوة على الكفاية، ولا تقصّرنّ عن التّحقيق فإنّها هُجْنة بالمقالة، ولاتُلبِس كلامًا بكلام، ولاتبعدنّ معنًى عن معنى.

وأكرم لي كتابك عن ثلاث: خضوع يستخفّه، وانتشار يهجنه، ومعانٍ تعقّد به. واجمع الكثير ممّا تريد في القليل ممّا تقول، وليكن بسطة كلامك على كلام السُّوقة كبسطة الملك الّذي تحدّثه على الملوك. لا يكن ما نِلْتَه عظيمًا، وما تتكلّم به صغيرًا، فإنّما كلام الكاتب على مقدار الملك، فاجْعله عاليًا كعُلُوّه، وفائقًا كتفوّقه، فإنّما جماع الكلام كلّه خصال أربع: سؤالك الشّيء، وسؤالك عن الشّيء، وأمرُك بالشّيء، وخَبرُك عن الشّيء. فهذه الخصال دعائمُ المقالات، إن التُمِسَ إليها خامس لم يوجَد، وإن نَقَص منها واحد لم يتمّ؛ فإذا أمرت فاحْكم، وإذا سألت فأوْضِح، وإذا طلبتَ فأسمح، وإذا أخبرت فحقّق، فإنّك إذا فعلتَ ذلك أخذت بجراثيم القول كلّه،

---

١ ـ المنجاة: ما ارتفع من الأرض.

٢ ـ كذا في أ، وهو الوجه؛ وفي ب: «عن الكبير».

٣ ـ التّمرين: التّوهين، والتّخديج: يأتي به ناقصًا.

فلم يشتبه عليك واردةٌ، ولم تُعجزْك صادرة. أثبت في دواوينك ما أَخذت، وأحْصِ فيها ما أخرجت، وتيقّظ لما تُعطِي، وتجرّد لما تأخذ، ولا يغلبنّك النِّسيان عن الإحصاء، ولا الأنأةُ عن التّقدّم، ولا تخرجنّ وزنَ قيراط في غير حقّ؛ ولا تعظّمنّ إخراج الأُلوف الكثيرة في الحقّ؛ وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتي. (١٧: ٨٠ ـ ٨٣)

## [في ذكر التّجّار وذوي الصّناعات]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا: اَلْمُقِيمِ مِنهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ. فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ. وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ.

وَاعْلَمْ! مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا، وَشُحًّا قَبِيحًا، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ. فَامْنَعْ مِنَ الْاِحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله مَنَعَ مِنهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ مِن غَيْرِ إِسْرَافٍ.

الشّرح: خرج عليه السلام الآن إلى ذكر التّجّار وذوي الصّناعات، وأمره بأن يعمل معهم الخير، وأن يُوصِي غيره من أُمرائه وعُمّاله أن يعملوا معهم الخير... .

ثمّ قسم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام: اثنان منها للتّجّار، وهما المقيم، والمضطرب، يعني المسافر... . وقال: ليسوا كعُمّال الخَراج وأُمراء الأجناد، فجانبُهم ينبغي أن يُراعَى، وحالُهم يجب أن يُحاط ويُحمَى، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا في مال يخونون فيه، ولا في دَوْلة يُفسدونها ... .

ثمّ قال له: قد يكون في كثير منهم نوع من الشّحّ والبخل فيدعوهم ذلك إلى

الاحتكار في الأقوات، والحيف في البياعات، والاحتكار: ابتياع الغلّات في أيّام رخصها، وادّخارها في المخازن إلى أيّام الغلاء والقَحْط. والحيف: تطفيف في الوزن والكَيْل، وزيادة في السّعر، وهو الّذي عبرّ عنه بالتّحكّم. وقد نهى رسول الله ﷺ عن الاحتكار، وأمّا التّطفيف وزيادة التّسعير فنهيّ عنهما في نصّ الكتاب ...

وأمره أن يُؤدّب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنّه دون المعاصي الّتي توجب الحدود، فغاية أمره من التّعزير الإهانة والمنع. (١٧ : ٨٣ ـ ٨٥)

## [في ذكر الفقراء الرّعيّة ومغموريها]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، وَاحْفَظْ لِلّٰهِ، مَا اسْتَحْفَظَكَ مِن حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِن بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْمًا مِن غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ. فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ. فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَن لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنهُمْ مِمَّن تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِن أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ.

ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِن بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنصَافِ مِن غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّن لَا حِيلَةَ لَهُ، وَلَا يَنصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذَلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ.

الشّرح: انتقل من التُّجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرّعيّة ومَغْموريها، فقال: وأهل البؤسَى، وهي البؤس كالنُّعمى للنّعيم. والزَّمْنى أولو الزّمانة.

والقانع: السّائل. والمعترّ: الّذي يَعرِض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز[١].

أمره أن يعطيهم من بيت مال المسلمين، لأنّهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢]، وأن يُعطِيَهم من غلّات صوافي الإسلام ـ وهي الأرضون الّتي لم يُوجَف عليها بخَيلٍ ولا ركابٍ ـ وكانت صافية لرسول الله ﷺ، فلمّا قُبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

ثمّ قال له:«فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى»، أي كلّ فقراء المسلمين سواء في سهامهم، ليس فيها أقصى وأدنى، أي لا تُؤثِرمَن هو قريب إليك أو إلى أحدٍ مِن خاصّتك على مَن هو بعيد ليس له سببٌ إليك، ولا عُلْقة بينه وبينك، ويمكن أن يريد به: لا تَصرِف غلّات ما كان من الصّوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد خاصّة، فإنّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم في ذلك البلد ... .

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه، ولا يثق إلى غيره، ويقعد بحيث يسمع الصّوت، فإذا سمعه أدخل المتظلّم فأصيب بصَمَم في سمعه فنادَى مناديه، إنّ الملك يقول: أيّها الرّعيّة إنّي إن أُصبتُ بصَمَم في سمعي فلم أُصَب في بصري، كلّ ذي ظلامة فليَلْبَس ثوبًا أحمر، ثمّ جلس لهم في مستشرف له.

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيت سمّاه بيت القِصَص، يُلقِي النّاس فيه رقاعَهُم، وكذلك كان فعل المهديّ محمّد بن هارون الواثق، من خلفاء بني العبّاس. (١٧ : ٨٦ ـ ٨٧)

---

١ ـ و هو قوله تعالى في سورة الحجّ / ٣٦ : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ .

٢ ـ الأنفال / ٤١ .

## الفصل الرّابع والسّتّون:
## [فصل في ذكر بعض وصايا العرب]

وينبغي أن يذكر في هذا الموضع وصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصَوا بها أولادَهم ورَهْطَهم، فيها آدابٌ حسان، وكلام فصيح وهي مناسبة لعهد أمير المؤمنين عليه السلام هذا، ووصاياه المودعة فيه، وإن كان كلام أمير المؤمنين عليه السلام أجلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام، لأنّه قبَس من نور الكلام الإلهيّ، وفَرَع من دَوْحة المَنطِق النّبويّ.

رَوى ابنُ الكَلْبيّ، قال: لمـا[1] حضرت الوفاةُ أوسَ بن حارثة أخًا الخَزرج، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس، وكان لأخيه الخزرج خمسة، قيل له: كنّا نأمرك بأنّ تتزوّج في شبابك فلم تَفعل حتّى حضَرَك الموت، ولا ولدَ لك إلّا مالِكٌ! فقال: لم يهلِكْ هالكٌ تَرَك مِثْل مالك، وإن كان الخزرجُ ذا عَدَد، وليس لمالك ولد، فلعلّ الّذي استخرج العَذْق من الجَرِيمة[2]، والنّارَ من الوثيمة [3] أن يجعل لمالكٍ نَسْلًا، ورجالًا بُسْلًا[4]، وكلّنا إلى الموت. يا مالك، المنيّة ولا الدَّنيّة، والعتاب قبل العقاب، والتّجلّد لا التّبلّد، واعلم! أنّ القبر خيرٌ من الفقر، ومَن لم يُعطِ قاعدًا حُرم قائمًا، وشرّ الشّرب الاشتفاف وشرّ الطّعم الاقتفاف[5]، وذهاب البَصر خيرٌ من كثير من النّظر، ومن كرم الكريم الدّفع عن الحريم، ومن قَلّ ذَلّ، وخيرُ الغِنَى القناعة، وشرّ الفقر الخُضوعُ.

الدّهر صَرْفان: صَرْف رخاء، وصرف بلاء؛ واليوم يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك، فإذا كان لك فلا تَبْطَر وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحَسِر[6] وكيف بالسّلامة، لمن ليست له إقامة، وحيّاك ربّك.

---

١ ـ أمالي القالي ١: ٢٠ .

٢ ـ الجريمة : النّواة . والعذق : النّخلة .

٣ ـ الوثيمة : الصّخرة .

٤ ـ بسل : جمع باسل ؛ وهو الشّجاع .

٥ ـ الاشتفاف : الامتصاص . والاقتفاف : الأخذ بعجلة .

٦ ـ يعني ينكشف .

وأوصى[١] **الحارثُ بنُ كعب** بنيه، فقال: يا بنيّ، قد أتت عَلَيّ مائةٌ وستّون سنةً ما صافَحَتْ يميني يمينَ غادر، ولاقَنَعتُ لنفسي بخلّة فاجر، ولاصبوتُ بابنة عمّ ولا كَنّة[٢]، ولابحتُ لصديق بسرّ، ولاطرحتُ عن مُومِسَة قناعًا، ولابقِي على دين عيسى بن مريم ـ وقد رُوِي على دِينِ شُعيب ـ من العرب غيري وغير تميم بن مرّ بن أسد بن خزيمة، فموتوا على شريعتي، واحفظوا [عَلَيّ[٣]] وصيّتي، وإلهكم فاتّقوا، يَكفِكم ما أهمّكم، ويصلح لكم حالكم، وإيّاكم ومعصيته، فيحلّ بكم الدّمار، ويُوحِش منكم الدّيار. كونوا جميعًا، ولاتفرّقوا فتكونوا شِيَعًا، وبُزّوا قبل أن تُبَزّوا[٤]، فموت في عزّ، خيرٌ من حياة في ذُلّ وعجز، وكلّ ما هو كائن كائن، وكلّ جمع إلى تباين، والدّهر صَرْفان: صرف بلاء، وصرف رخاء، واليوم يومان: يومُ حَبرة[٥]، ويوم عَبْرة، والنّاس رجلان: رجلٌ لك، ورجلٌ عليك. زوّجوا النّساءَ الأكفاء، وإلّا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء، وإيّاكم والوَرْهاء، فإنّها أدوأُ الدّاء، وإنّ ولدها إلى أفن[٦] يكون. لا راحةَ لقاطع القرابة. وإذا اختلف القومُ أمكَنوا عدوّهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة، والتّفضّل بالحسنة يَقِي السّيّئة، والمكافأة بالسّيّئة دخول فيها، وعمل السّوء يُزيلُ النّعماء، وقطيعة الرَّحِم تُورِث الهمّ، وانتهاك الحُرمة يُزيل النِّعمة، وعقوق الوالدَين يُعقِب النّكَد، ويُخرب البلد، ويَمحق العدد، والإسراف في النّصيحة هو الفضيحة، والحقد منعُ الرِّفد، ولزوم الخَطيئة يُعقِب البليّة، وسوء الدّعة[٧] يقَطِّع

---

١ ـ الوصايا: ١٢٣، ونُسِبَت هذه الوصيّة إلى مالك بن المنذر البجليّ. قال: «وقد كان أصاب دمًا في قومه؛ فخرج هاربًا بأهله حتّى أتي بهم بني هلال، فلمّا احتضر أوصى بنيه، و أمرهم أن يعطوا قومه النّصف من حدثه الّذي أحدثه فيهم.

٢ ـ الكنّة: امرأة الابن أو الأخ.

٣ ـ تكملة من د.

٤ ـ بزّه: سلبه.

٥ ـ الحبرة: السّرور.

٦ ـ الأفن: الفساد.

٧ ـ الوصايا: «الرّعة».

أسبابَ المنفعة، والضّغائن تدعو إلى التّباين؛ يا بَنيّ إنّي قد أكلتُ مع أقوام وشربتُ، فذهبوا وغبرتُ، وكأنّي بهم قد لحقتُ، ثمّ قال [المتقارب]:

أكلــتُ شــبابي فأفنيتُــهُ ... وأبْليْــتُ بَعــدَ دُهــورٍ دُهــورَا
ثلاثــةُ أهلِــينَ صــاحَبتُهمْ ... فبادُوا وأصبحتُ شَيخًا كبيرَا
قليــلَ الطّعــامِ عسيرَ القِيَــا ... مِ قد ترك الدَّهْرُ خَطوِي قصيرَا
أبيتُ أراعِي نجومَ السّماءِ ... أقلّــبُ أمــرِي بُطونًــا ظُهــورَا

وصّى أكثمُ بن صَيْفيّ بنيه ورَهْطَه، فقال: يا بني تميم، لا يفوتنّكم وَعْظي، إن فاتكم الدّهر بنفسي، إنّ بين حَيْزومي وصدري لكلامًا لا أجدُ له مواقعَ إلّا[1] أسماعَكم ولا مقارّ إلّا قلوبكم، فتلقّوه بأسماع مُصْغية، وقلوب واعية، تَحمَدوا مَغَبّته. الهوى يَقْظان والعقل راقد، والشّهَوات مطلقة والحزم معقول، والنّفس مهملة والرّويّة مقيّدة، ومن جهة التّواني وترك الرّويّة يتلف الحَزْم، ولن يَعدَم المشاور مُرْشدًا، والمستبدّ برأيه موقوف على مداحِض الزّلَل، ومَن سَمّع سُمِّع به، ومصارعُ الرّجال تحت بُروق الطّمع، ولو اعتُبرتْ مواقِعُ المِحَن ما وُجدتْ إلّا في مَقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد، ومَن سلك الجَدَد[2] أَمِن العثار، ولن يَعْدم الحسودُ أن يُتعب قلبه، ويُشغل فكرَه، ويُورث غَيظه، ولا تجاوز مضرّته نفسه. يا بني تميم، الصّبر على جرع الحلم أعذَب من جنا ثمرِ النّدامة، ومن جعل عِرْضه دون ماله استهدَفَ للذّمّ، وكلم اللّسان أنكى مِن كلم السّنان، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُم من الفم، فإذا نجمتْ مزجت، فهي أسدٌ محرَّب، أو نار تَلَهَّب، ورأي النّاصح اللّبيب دليلٌ لا يجوز، ونفاذُ الرّأي في الحرب، أجدى من الطّعن والضّرب.

وأوصى يزيد بن المهلّب ابنه مخلّدًا حين استخلفه على جُرْجانَ، فقال له:

---

١ ـ في د «غير».

٢ ـ الجدد: الأرض المستوية.

يا بُنيّ، قد استخلفتُك على هذه البلاد، فانظر هذا الحيّ من اليمن فكن لهم، كما قال الشّاعر[الطّويل]:

إذا كنتَ مرتادَ الرّجالِ لنفعهمْ فَرِشْ واصطَنِعْ عندَ الّذينَ بهمْ تَرمي

وانظر هذا الحيّ من ربيعة، فإنّهم شيعتك وأنصارك، فاقْضِ حقوقهم، وانظر هذا الحيّ من تميم فأمطرهم[1] ولاتُزْهَ لهم، ولاتُدِنهم فيطمعوا، ولاتُقصِهم فيقطعوا، وانظر هذا الحيّ من قيس فإنّهم أكفاءُ قومِك في الجاهليّة، ومناصِفوهم المآثِرِ في الإسلام، ورضاهم منك البُشَر. يا بنيّ، إنّ لأبيك صنائع فلا تفسِدها، فإنّه كفى بالمرء نقصًا أن يهدِم ما بَنى أبوه، وإيّاك والدّماءَ، فإنّه لا تقيّةَ معها، وإيّاك وشَتْم الأعراض، فإنّ الحرّ لا يرضيه عن عِرضه عوض، وإيّاك وضربَ الأبشار فإنّه عارٌ باقٍ ووِتْر مطلوب، واستعمل على النّجدة والفضل دون الهوى، ولاتعزل إلّا عن عَجْز أو خيانة.

ولايمنعك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه، فإنّك إنّما تصطنع الرّجالَ لفَضْلها. وليكن صَنيعُك عند مَن يكافئك عنه العشائر. احمل النّاسَ على أحسن أدبك يكفُوك أنفسهم. وإذا كتبت كتابًا فأكثر النّظر فيه، وليكن رسولُك فيما بيني وبينك مَن يفقه عنّي وعنك؛ فإنّ كتابَ الرّجل موضعُ عقله، ورسوله موضعُ سِرّه. وأستودعُك الله، فلا بدّ للمودّع أن يسكت، وللمشيّع أن يرْجع. وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبّ إلى أبيك.

**وأوصى قيس بنُ عاصم المِنقَريّ** بَنيه، فقال: يا بنيّ، خُذوا عنّي، فلا أحد أَنصَحُ لكم منّي. إذا دفنتموني فانصرفوا إلى رحالكم، فسوِّدوا أكبرَكم، فإنّ القوم إذا سوَّدوا أكبرَهم خلفوا أباهم، وإذا سوّدوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم، وإيّاكم ومعصية الله وقطيعة الرَّحِم، وتمسّكوا بطاعة أُمرائكم فإنّهم مَن رفعوا ارتفع، ومَن وَضَعوا اتَّضَع. وعليكم بهذا المال فأصلحوه، فإنّه مَنبَهة للكريم، وجُنّة لعِرْض اللّئيم. وإيّاكم والمسألة، فإنّها آخر كسب الرّجل، وإنّ أحدًا لم يسأل إلّا ترك الكسب،

---

١ ـ د: «فانظرهم».

وإيّاكم والنِّياحة، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عنها، وادفنوني في ثيابي الّتي كنتُ أُصلّي فيها وأصوم، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني، فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهليّة والإسلام، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عارًا. وخذوا عنّي ثلاث خِصال: إيّاكم وكلّ عِرق لئيم أن تلابِسوه، فإنّه إن يسرُرْكم اليوم يسؤكم غدًا، واكْظِموا الغيظ، واحْذَروا بُنيّ أعداءَ آبائكم، فإنّهم على منهاج آبائِهم، ثمّ قال [البسيط]:

أحْيَا الضّغائنَ آباءٌ لنا سَلَفوا فلَن تبيدَ وللآباءِ أبناءُ

**قال ابن الكَلْبيّ:** فيَحكى النّاسُ هذا البيت سابقًا للزُّبير وما هو إلّا لقيس بن عاصم.

**وأوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلبيّ**[1] [بَنيه][2]، فقال: يا بَنيّ، إنّي قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحدٌ من آبائي وأجدادي، ولابدّ من أمرٍ مقتبِل، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأُمّهات والأولاد، فاحفظوا عنّي ما أُوصيكم به. إنّي والله ما عيّرت رجلًا قطّ أمرًا إلّا عيّرني مثله، إن حقًّا فحقّ، وإن باطلًا فباطل، ومَن سَبّ سُبّ، فكُفُّوا عن السّتم، فإنّه أسلم لأعْراضكم. وصِلُوا أرحامكم تعمُرْ دارُكم[3]، وأكرموا جاركم بحُسْن ثنائكم، وزوّجوا بنات العمّ بني العمّ، فإن تعدّيتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن[4]] الأكفاء.

وأبعدوا بيوتَ النّساء من بيوت الرّجال، فإنّه أغضّ للبصر، وأعفُّ للذّكْر؛ ومتى كانت المعاينة واللّقاء، ففي ذلك داءٌ من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغارُ لغيره كما يغارُ لنفسه، وقَلّ مَن انتهك حرمةً لغيره إلّا انتُهكت حرمته. وامنعوا القريب من ظُلْم

---

١ ـ ب: «التّعلبيّ» تحريف.

٢ ـ تكلمة من د.

٣ ـ في د: «دياركم».

٤ ـ من د.

الغريب، فإنّك تُدِلّ على قريبك، ولايَجمُل بك ذلّ غريبك، وإذا تنازعتم في الدّماء فلا يكن حقّكم الكِفاء، فَرُبَّ رجل خيرٌ من ألف، ووُدّ خير من خلف، وإذا حُدِّثتم فَعُوا، وإذا حَدّثتم فأوْجزوا، فإنّ مع الإكثار يكون الإهذار، وموتٌ عاجل خيرٌ من ضنى آجل، وما بكيتُ من زمان إلّا دهاني بعده زمان، وربّما شَجَاني[1] من لم يكن أمرُه عَناني، وما عجبتُ من أُحدوثة إلّا رأيت بعدها أُعجوبة.

واعلموا! أنّ أشجع القوم العَطوف، وخيرُ الموت تحت ظِلال السّيوف، ولا خير فيمَن لا رويّة له عند الغضب، ولافيمن إذا عُوتب لم يُعْتب، ومن النّاس مَن لا يُرجَى خيره، ولا يخاف شرّه، فبكوؤُه[2] خير من درّه، وعقوقه خيرٌ من برّه، ولاتُبرحوا في حبّكم، فإنّ من أبرَح في حبٍّ آلَ ذلك إلى قبيح بغض، وكم قد زارني إنسان وزُرْته، فانقلب الدّهر بنا فقبَرْته. واعلموا! أنّ الحليم سليم، وأنّ السَّفيه كليم، إنّي لم أمت ولكن هَرِمت، ودخلتني ذِلّة فسكتّ، وضعف قلبي فأهترت[3]، سلّمكم ربّكم وحيّاكم.

**ومن كتاب أردشير بن بابك إلى بَنيه والملوك من بعده:** رشاد الوالي خيرٌ للرّعيّة من خَصْب الزّمان، المُلْك والدّين توأمان لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه، فالدّين أُسُّ المُلْك وعمادُه، ثمّ صار المَلِكُ حارسَ الدّين فلا بدّ للمُلك من أُسّه، ولا بدّ للدّين من حارسه، فأمّا مالا حارس له فضائع، ومالا أُسَّ له فمهدوم، إنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرة السّفلة إيّاكم إلى دراسة الدّين وتأويله والتّفقّه فيه، فتحملكم الثّقة بقوّة الملك على التّهاون بهم، فتحدث في الدّين رياساتٌ منتشِرات سرًّا فيمن قد وترتم وجَفَوتم، وحرمتم وأخفتم، وصغّرتم من سفلة النّاس والرّعيّة وحَشْو العامّة، ثمّ لا تنشَب تلك الرّياسات أن تحدث خرقًا في المُلك ووَهْنًا في الدّولة. واعلموا! أنّ

---

١ ـ شجاني : أحزنني .

٢ ـ بكأت النّاقة بكوءً ا :قل لبنها.

٣ ـ الهتر: ذهاب العقل.

سلطانكم إنّما هو على أجساد الرّعيّة لا على قلوبها. وإن غلبتم النّاس على ما في أيديهم فلن تغلبوهم على ما في عقولهم وآرائهم ومكايدهم. واعلموا! أنّ العاقل المحروم سَالٌ عليكم لسانه، وهو أقطعُ سَيْفيه، وإنّ أشدّ ما يضرّ بكم من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدِّين، فكان للدُّنيا يحتج[1]، وللدّين فيما يظهريتعصّب فيكون للدّين بكاؤه، وإليه دعاؤه، ثمّ هو أوحد للتّابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين، لأنّ تعصّب[2] النّاس موكّل بالملوك، ورحمتهم ومحبّتهم موكّلة بالضّعفاء المغلوبين، فاحذروا هذا المعنى كلّ الحذر.

واعلموا! أنّه ليس ينبغي للمَلِك أن يعرف للعبّاد والنُّسّاك بأن يكونوا أولى بالدِّين منه، ولاأحْدَبَ عليه ولاأغضَبَ له. [ولاينبغي][3] له أن يخلي النّسّاك والعُبّاد من الأمروالنّهي في نُسكهم ودينهم، فإنّ خروج النّسّاك وغيرهم من الأمروالنّهي عيبٌ على الملوك وعلى المملكة وثُلْمة بيّنة الضّرر على الملك وعلى مَن بعده.

واعلموا! أنّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان المِلك منهم يتعهّد الحماية بالتّفتيش والجماعة بالتّفضيل والفراغ بالإشغال، كتعهّده جَسَده بقصّ فضول الشّعر والظّفروغَسْل الدّرن والغمر[4]، ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن، وقد كان من أُولئك الملوك من صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده، فتتابعتْ تلك الأملاك بذلك كأنّهم ملك واحد، وكأنّ أرواحَهم روحٌ واحدة، يمكّن أوّلهم لآخرهم، ويصدّق آخرهم أوّلهم يجتمع أبناءُ أسلافهم، ومواريث آرائهم، وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم، وكأنّهم جلوسٌ معه يحدّثونه ويشاورونه، حتّى كأنّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرّوميّ على ما غلب عليه من مُلْكه. وكان إفسادُه أمرَنا،

---

١ ـ أ: «يجنح».

٢ ـ في د: «بغض».

٣ ـ تكملة من د.

٤ ـ ب: «والغمص».

وتفرقتُه جماعتَنا، وتخريبُه عمران مملكتنا أبلغ له فيما أراد من سَفْك دمائنا، فلمّا أذن الله عزّوجلّ في جمع مملكتنا وإعادة أمرنا، كان من بعثه إيانّا ما كان. وبالاعتبار يُتّقَى العثار، والتّجارب الماضية دستورٌ يُرجَع إليه من الحوادث الآتية.

واعلموا! أنّ طباع الملوك على غير طباع الرّعيّة والسّوقة: فإنّ المِلك يُطيف به العزّ، والأمْن والسّرور والقُدْرة على ما يريد، والأُنْفَة والجرأة والعبث والبَطر، وكلّما ازداد في العُمر تنفُّسًا، وفي المُلك سلامةً ازداد من هذه الطّبائع والأخلاق حتّى يُسلمه ذلك إلى سُكْر السّلطان الّذي هو أشدّ من سكر السّراب، فينسى النّكبات والعَثَراتِ، والغِير والدّوائر، وفُحْش تسلّط الأيّام، ولُؤم غَلبة الدّهر، فيرسل يدَه بالفعل ولسانه بالقول.

وعند حُسن الظّنّ بالأيّام تحدثُ الغِيَر، وتزوُل النِّعَم؛ وقد كان من أسلافنا وقُدَماءِ مُلوكنا مَن يذكِّرهُ عِزّه الذّلّ، وأمْنُه الخوف، وسرورُه الكآبة، وقدرتُه المعجزة، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك، وفكرة السُّوقة، ولاكمال إلّا في جمعها.

واعلموا! أنّكم ستبلون على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوُزَراء والأخدان، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والنُّدماء والمُضحِكين، وكلّ هؤلاء ـ إلّا قليلًا ـ أن يأخذ لنفسه، أحبّ إليه من أن يعطي منها عمله، وإنّما عملُه سوقٌ ليومه، وذخيرةٌ لغده، فنصيحتُه للملوك فضلُ نصيحته لنفسه، وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه، وغايةُ الفساد عنده فسادُها؛ يقيم للسّلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقتْ عليه ظُلم الجهالة. أخوَف ما يكون العامّة [آمن ما يكون الوزراء، وآمن ما يكون العامّة [1]] أخوف ما يكون الوزراء.

واعلموا! أنّ كثيرًا من وزراء الملوك من يُحاول استبقاء دولته وأيّامه بإيقاع الاضطراب، والخَبْط في أطراف مملكة الملك، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدبيره؛ فإذا عرفتم هذا مِن وزيرمِن وزرائكم، فاعزلوه فإنّه يُدخِل الوَهن والنّقْص على الملك والرّعيّة لصلاح حال نفسه، ولاتقوم نفسُه بهذه النّفوس كلّها.

---

١ ـ تكحلة من د بها يستقيم الكلام.

واعلموا! أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرّعيّة بغير أشغال معروفة، ولا أعمالٍ معلومة، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النّظر في الأُمور، والفكر في الفروع والأُصول. فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ فتختلف بهم المذاهب، ويتولّد من اختلاف مذاهبهم تَعادِيهم وتضاغُنهم، وهم مع اختلافهم هذا متّفقون ومجتمعون على بغض الملوك، فكلّ صِنف منهم إنّما يجري إلى فَجيعةِ الملك بملكه، ولكنّهم لا يجدون سُلَّمًا إلى ذلك أوثقَ من الدِّين والنّاموس، ثمّ يتولّد مِن تَعادِيهم أنّ المَلِك لا يستطيع جمعَهم على هوًى واحد، فإنِ انفرد باختصاص بعضِهم صارَ عدوًّ بقيّتهم، وفي طباع العامّة استثقال الولاة ومَلالُهم، والنَّفاسة[1] عليهم، والحَسد لهم، وفي الرّعيّة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يَجْبُن المَلِك عن الإقدام عليهم، فإنّ في إقدام الملك على الرّعيّة كلّها كافّة تغريرًا بمُلكه. ويتولّد من جُبْن المَلِك عن الرّعيّة استعجالهم عليه، وهم أقوى عدوٍّ له وأخلقُه بالظَّفَر، لأنّه حاضر مع الملك في دار ملكه، فمَن أفضى إليه الملكُ بعدي فلا يكوننّ بإصلاح جسده أشدّ اهتمامًا منه بهذه الحال، ولاتكوننّ لشيء من الأشياء أكره وأنكر لرأسٍ صار ذَنَبًا، وذَنَبٍ صار رأسًا، ويد مشغولة وصارت فارغةً، أو غنيٍّ صار فقيرًا، أو عاملٍ مصروف، أو أمير معزول.

واعلموا! أنّ سياسة الملك وحراسته ألّا يكون ابن الكاتب إلّا كاتبًا، وابن الجنديّ إلّا جنديًّا، وابن التّاجر إلّا تاجرًا، وهكذا في جميع الطّبقات، فإنّه يتولّد من تنقّل النّاس عن حالاتهم أن يلتمس كلّ امرئ منهم فوق مرتبته، فإذا انتقل أوشَكَ أن يرى شيئًا أرفع ممّا انتقل إليه، فيَحسُدَ أو ينافسَ، وفي ذلك من الضّرر المتولّد ما لا خفاء به، فإن عجز مَلكٌ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصَيْناه، فلا يكون للقميص القَمِل أسرَع خلعًا منه لما لبس من قميص ذلك المُلْك.

واعلموا! أنّه ليس مَلكٌ إلّا وهو كثير الذِّكْر لمن يلي الأمرَ بعده، ومِن فساد أمر الملك

---

١ ـ النّفاسة: كراهة الخير لهم.

نَشْرُ ذِكره وُلاةَ العهود، فإنّ في ذلك ضُروبًا من الضّرر، وأنّ ذلك دخولُ عداوةٍ بين الملك ووليّ عهده، لأنّه تطمح عينُه إلى الملك، ويصير له أحبابٌ وأخدانٍ يمنّونه ذلك، ويستبطئون موتَ الملك. ثمّ إنّ الملك يستوحش منه، وتنساق الأُمور إلى هلاك أحدهما، ولكن لينظرْ الوالي منكم لله تعالى ثمّ لنفسه ثمّ للرّعيّة، ولينتخب وليًّا للعهد من بعده،ولا يُعلمه ذلك، ولا أحد من الخَلْق قريبًا كان منه أو بعيدًا، ثمّ يكتب اسمَه في أربع صحائف، ويختمها بخاتمه، ويضَعُها عند أربعة نفرمن أعيان أهل المملكة، ثمّ لا يكون منه في سرّه وعلانيته أمْرٌيستدلّ به على وليّ عهده من هؤلاء في إدناء وتقريب يعرَف به، ولا في إقصاء وإعراضٍ يُستَراب له. وليتّقِ ذلك في اللّحظة والكَلِمة، فإذا هَلَك الملك جُمِعتْ تلك الصّحائفُ إلى النّسخة الّتي تكون في خزانة المَلِك، فتفضّ جميعًا، ثمّ ينوّه حينئذٍ باسم ذلك الرّجل، فيلقى الملك إذا لقيه بحَداثة عَهْده بحال السّوقة، ويلبسه إذا لبسه ببصر السّوقة وسَمْعِها، فإنّ في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكْرًا تُحدِثه عنده ولايةُ العهد، ثمّ يلقاه الملك فيزيده سُكْرًا إلى سكره، فيَعمَى ويصمّ، هذا مع ما لابدّ أن يلقاه أيّام ولاية العَهْد من حِيَل العُتاة، وبغي الكَذّابين، وترقيَة النّمّامين، وإيغار صدره، وإفساد قلبه على كثيرمن رعيّته، وخواصّ دولته، وليس ذلك بمحمود ولا صالح.

واعلموا! أنّه ليس للمَلِك أن يُحلِّف، لأنّه لا يقدر أحدٌ استكراهه، وليس له أن يغضب لأنّه قادر، والغضب لقاح الشّرّ والنّدامة، وليس له أن يَعبث ويَلعب، لأنّ اللّعِب والعَبَث من عمل الفُرّاغ، وليس له أن يفرَغ، لأنّ الفَرَاغ من أمر السّوقة، وليس للمَلِك أن يَحسُد أحَدًا إلّا على حُسن التّدبير، وليس له أن يَخاف، لأنّه لا يدَ فوق يده.

واعلموا! أنّكم لن تَقْدِروا على أن تَختِموا أفواهَ النّاس من الطّعن والإزْراء عليكم، ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح من أفعالكم حَسَنًا؛ فاجتهدوا في أن تَحسُن أفعالُكم كلّها، وألّا تجعلوا للعامّة إلى الطّعن عليكم سبيلًا.

واعلموا! أنّ لباس المَلِك ومَطعَمه ومَشربه مقاربٌ للباس السّوقة ومطعِمهم،

وليس فضل المَلِك على السُوقة إلّا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم، فإنّ الملك إذا شاء أحسن، وليس كذلك السُوقة.

واعلموا! أنّ لكلّ ملك بطانةً، ولكلّ رجل من بطانته بطانة، ثمّ إنّ لكلّ امرئ من بطانة البطانة بطانة، حتّى يجتمع من ذلك أهلُ المملكة، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصّواب فيهم، أقام كلّ امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتّى يجتمع على الصّلاح عامّة الرّعيّة.

احذروا بابًا واحدًا طالما أمِنتُه فضَرَّني، وحَذِرته فنَفَعني. احذروا إفشاءَ السّرّ بحضْرة الصِّغار من أهليكم وخَدمِكم، فإنّه ليس يَصغُر واحدٌ منهم عن حَمْل ذلك السّرّ كاملًا؛ لا يترك منه شيئًا حتّى يضعَه حيثُ تكرهون إمّا سقطًا أو غشًّا.

واعلموا! أنّ في الرّعيّة صِنفًا أتوا الملك من قِبَل النّصائح له، والتمسوا إصلاح منازلهم بإفساد منازل النّاس، فأُولئك أعداءُ النّاس وأعداءُ الملوك، ومَن عادى الملوك والنّاس كلّهم فقد عادى نفسه.

واعلموا! أنّ الدّهر حاملُكم على طبقات؛ فمنها: حال السّخاء حتّى يدنو أحدُكم من السّرف، ومنها: حال التّبذير حتّى يدنو من البُخل، ومنها: حال الأناة حتّى يدنو من البَلادة، ومنها: حال انتهاز الفُرصة حتّى يدنو من الخِفّة، ومنها: حال الطّلاقة في اللّسان حتّى يدنو من الهَذَر، ومنها: حال الأخذ بحَكَمة[1] الصَّمْت حتّى يدنو من العيّ، فالمَلِك منكم جديرٌ أن يَبلُغ من كلّ طبقة في محاسنها حَدّها، فإذا وقف عليه ألجم نفسَه عمّا وراءها.

واعلموا! أنّ ابن المِلك وأخاه ابنَ عمّه، يقول: كدت أن أكون مَلِكًا، وبالحَرِيّ ألّا أموت حتّى أكون مَلِكًا فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك، وإن كتمه فالدّاء في كلّ مكتوم، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سُلَّمًا إلى الصّلاح، ولم يكن الفساد سُلَّمًا إلى صلاح قطّ.

---

١ ـ الحَكَمة في الأصل: اللّجام؛ والكلام على الاستعارة.

وقد رسمتُ لكم في ذلك مِثالًا، اجعلوا الملْك لا ينبغي إلّا لأبناء الملوك من بنات عمومتهم، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلّا كامل غير سخيف العقل، ولا عازبُ الرّأي، ولا ناقص الجوارح، ولا مطعونٌ عليه في الدّين، فإنّكم إذا فعلتم ذلك قلّ طُلّاب الملك، وإذا قلّ طُلّابه استراح كلّ امرئ إلى ما يليه، ونَزَع إلى حَدٍّ يَليه، وعرف حاله، ورضي معيشته، واستطاب زمانه.

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرْس وأعظمهم حكمةً لتُضَمّ إلى وصايا أمير المؤمنين فيحصَل منها وصايا الدِّين والدّنيا، فإنّ وصايا أمير المؤمنين عليه السلام الدِّين عليها أغلب، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلب، فإذا أخذ مَنْ أخذ التّوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِد، ولا سعيد إلّا مَن أسعده الله. (١٧ : ١١٨ ـ ١٣٠)

## الفصل الخامس والسّتون:

## [في الدّنيا وصفاتها وبعض الآثار والأشعار فيها]

(الخطبة: ٥٢) أَلَا وَإِنَّ الدُّنيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِانقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا، وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أُمِرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْوًا، وَكَدِرَ مِنهَا مَا كَانَ صَفْوًا، فَلَمْ يَبْقَ مِنهَا إِلَّا سَمْلَةٌ كَسَمْلَةِ الْإِدَاوَةِ، أَو جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمُقْلَةِ، لَو تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنقَعْ.

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَن هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوالُ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ. فَوَاللهِ لَوحَنَنتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِندَهُ، أَوغُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُم مِن ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِن عِقَابِهِ.

وَتَاللهِ لَوامْتَاثَتْ قُلُوبُكُمُ امْتِيَاثًا، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِن رَغْبَةٍ إِلَيْهِ وَرَهْبَةٍ مِنهُ دَمًا، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنيَا مَا الدُّنيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنكُمْ وَلَو لَمْ تُبْقُوا شَيْئًا مِن جُهْدِكُمْ أَنعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ.

الشّرح: ... فأمّا ما قاله النّاس في ذمّ الدّنيا وغُرورها وحوادثها وخُطُوبها، وتنكّرها لأهلها، والشّكوى منها، والعتاب لها، والموعظة بها، وتصرّمها وتقلّبها، فكثير، من ذلك قول بعضهم [الوافر]:

هِيَ الدُّنيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِن بَطْشِي وَفَتْكِي[1]

فلا يَغُرُرْكُمُ حُسْنُ ابتسامي ... فَقَولِي مُضْحِكٌ والفِعلُ مُبْكِي

وقال آخر [الطّويل]:

---

١ ـ لأبي الفرج السّاوي، معاهد التّنصيص ٤: ٢٤١.

تَـنَحَّ عـنِ الـدّنيا وَلاتَطْلُبَنّهـا ... ولاتَخْطُـبنَ قتّالـةً مَـن تُنَـاكِحُ
فَلَـيْسَ يَـفِي مَرْجُوُهَـا بمَخُوفِهـا ... ومَكْروهُهـا إمَّـا تأمّلْـتَ راجِـحُ
لَقَـدْ قَـالَ فيهَـا القَـائِلونَ فـأكْثَرُوا ... وعِنـدي لها وَصْـفٌ لعَمْـرُكَ صَالِحُ
سُـلافٌ، قُصَـاراهَا ذُعَـافٌ، ومركـبٌ ... شـهيٌّ إذا اسْـتَلَذْتَهُ فَهْـوَ جَـامِحُ
وشَخْصٌ جميلٌ يُعْجِبُ النّاسَ حُسْنُهُ ... ولكـن لـه أفعـالُ سُـوءٍ قبـائِحُ

وقال أبو الطّيّب [الخفيف]:

أبـدًا تَسْـتَرِدُّ مـا تَهَـبُ الدُّنْـ ... ـيَا فيَا لَيْتَ جُودَها كان بُخْلَا[1]
وهْي مَعْشُوقَةٌ على الغَدْرِ لاتَحْـ ... ـفَظُ عَهْـدًا ولاتـتمّم وَصْـلَا
كـلّ دَمْـعٍ يَسـيلُ مِنهـا عَلَيْهَـا ... وبفـكِّ اليَـدَيْنِ عنهـا تُخَـلّى
شِـيَمُ الغانيَـاتِ فيهـا ولا أدْ ... رِي لـذا أنّـثَ اسمَهـا النّـاسُ أمْ لا

وقال آخر[مجزوء الكامل]:

إنّما الدّنيا عَوارٍ ... والعَوارِي مُسْتَرَدّهْ
شدّة بعد رَخَاء ... ورَخاءُ بعد شِدّهْ

وقال محمّد بن هانئ المغربيّ [الطّويل]:

وَمـا النّـاسُ إلّا ظَـاعِنٌ فَمُـوَدّعٌ ... وثَـاوٍ قريح الجُفْنِ يَبْكِي لرَاحِلِ[2]
فما الدَّهْرإلّا كالزّمانِ الّذي مَضَى ... ولانحـن إلّا كـالقرون الأوائـلِ
نُسَـاقُ مـن الـدّنيا إلى غيـرِدائمٍ ... ونَبْكي من الدّنيا على غيرِطائلِ
فمـا عاجـلٌ نَرْجُـوه إلّا كآجَـلٍ ... ولا آجـلٌ نخشـاه إلّا كعاجـلِ

وقال ابن المظفّر المغربيّ [المجتثّ]:

---

١ ـ ديوانه ٣ : ١٣١ .

٢ ـ محاضرات الأدباء ٢ : ١٢٦ من غيرنسبة .

دُنيـاك دارُ غُـرورٍ ونعمـةٌ مُسْـتعَارَهْ
ودارُ أكْـلٍ وشُـرْبٍ ومَكْسَـبٌ وتجَـارَهْ
ورأسُ مالِكَ نَفْسٌ فخفْ عليها الخَسارَهْ
ولاتَبِعْهَـا بأكْـلٍ وطِيبَ عَـرْفٍ وشَارَهْ
فـإنّ مُلْـكَ سُـلَيما نَ لا يَـفي بشَـرارَهْ

وقال أبو العَتاهيّة [الطّويل]:

ألا إنّمـا التّقـوَى هِـيَ البَـرُّ والكَـرَمْ وحُبُّـك للـدّنيا هُـوَ الفَقْـرُ والعَـدَمْ[1]
ولـيس عـلى عَبْـدٍ تَـقِيٍّ غَضاضَـةٌ إذا صَـحَّحَ التّقوَى وإن حـاكَ أو حَجَـمْ[2]

وقال أيضًا [الهزج]:

تَعَلّقْـتَ بآمـالِ طـوالٍ أيّ آمـالِ
وأقْبَلْـتَ عـلى الـدُّنيا مُلِحًّـا أيّ إقبـالِ
أيَـا هـذا تَجَهَّـزْ لِـ ـفِراقِ الأهلِ والمالِ
فـلا بـدَّ مِـنَ المَـوْتِ على حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضًا [المديد]:

سَكَنٌ يَبْقَى له سَكَنُ ما بِهذا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ![3]
نحـن في دارٍ يُخَبِّرنـا ببلاهـا نـاطِقٌ لَسِـنُ
دارُ سُوءٍ لم يدمْ فَرَحٌ لامـرئٍ فيهـا ولا حَـزَنُ
في سبيلِ اللهِ أنفُسنَا كُلّنـا بـالموتِ مُـرْتَهَنُ

---

١ ـ ديوانه : ٢٤٣ .

٢ ـ ديوانه : ٢١٣ .

٣ ـ ديوانه : ٢٥٢ .

كلّ نَفسٍ عند مَوْتِها حَظُّها مِن مالها الكَفَنُ
إنّ مَالَ المرءِ ليسَ لهُ مِنـهُ إلّا ذِكْـرُهُ الحَسَـنُ

وقال أيضًا [المتقارب]:

ألَا إنّنـــا كلّنـــا بائِـــدُ وأيّ بـــني آدَمٍ خَالِـــدُ![1]
وبَـدْؤُهمُ كـان مِـن رَبّهِـمْ وكُـــلّ إلى ربّـــهِ عائِـــدُ
فوا عَجَبَا كيفَ يَعْصِي الإلَـ ـهَ أمْ كيف يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وفي كـــلّ شيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدلّ عـــلى أنّـــهُ الواحِـــدُ

وقال الرّضيّ الموسويّ [الكامل]:

يـا آمِـنَ الأيّـامِ بـادِرْ صَـرْفَهَا وَاعْلَـمْ بـأنَّ الطّـالبينَ حِثَـاثُ
خُذْ مِن ثَرائِكَ ما اسْتَطَعْتَ فإنّما شُـــرَكاؤكَ الأيّـــامُ والـــوُرّاثُ
لم يَقْـضِ حَـقَّ المـالِ إلّا مَعْشَـرٌ نَظَـرُوا الزّمَـانَ يَعِيثُ فيهِ فعَاثُوا
تَحْتُوعلى عَيْبِ الغَنِيّ يَدُ الغِنَا والفَقْرُعن عَيْبِ الفَتَى بَحّاثُ
المالُ مَالُ المَرْءِ ما بَلَغَتْ بهِ الشّـ ـهَوَاتُ أو دَفَعَتْ بهِ الأحْداثُ
مـا كـان منـهُ فاضِـلًا عـن قُوتِـهِ فَلْـــيَعْلَمَنّ بأنّـــهُ مِيـــراثُ
مـا لي إلى الدّنيا الدّنيّةِ حاجـةٌ فَلْـيَجْنِ سـاحِرُكَيْـدِها النَّفّـاثُ
طَلّقْتُهـا ألْفًـا لِأخْسِـمَ داءَهـا وطلاقُ مَن عَزَمَ الطّلاقَ ثَلاثُ
وثَبَاتُهَـــا مَرْهُوبَـــةٌ، وعِـــدَاتُها مَكْذُوبـــةٌ، وحِبَالُهَـــا أنكَـــاثُ
أمُّ المصـــائبِ لاتـــزالُ تَرُوعُنَـــا منهـــا ذُكُـــورُ حَـــوادِثٍ وإنـــاثُ
إنّي لَأعجـبُ للّـذينَ تمَسّـكُوا بحبائـلِ الـدُّنيَا وهُـنّ رِثَـاثُ

---

١ ـ ديوانه : ٦٩ .

كَنَزُوا الكُنُوزُ وأعقلوا شَهَواتِهِمْ فالأرْضُ تَشْبَعُ والبُطُونُ غِرَاثُ
أتُراهُمْ لم يَعْلَمُوا أنّ التُّقَى أزْوَادُنا، ودِيارُنا الأجْدَاثُ!

وقال آخر[المديد]:

هذه الدّنيا إذا صَرَفَتْ وَجْهَها لم تَنفَعِ الحِيَلُ
وإذا ما أقْبَلَتْ لِعَمٍ بَصَّرَتْهُ كيف يَفْتَعِلُ
وإذا ما أدْبَرَتْ لِذَكِيٍّ غابَ عَنْهُ السَّهْلُ والجَبَلُ
فَهْيَ كالدُّولابِ دَائِرَةٌ تَرْتَقِي طَوْرًا وتَسْتَفِلُ
في زَمَانٍ صَارَ ثَعْلَبُهُ أسَدًا واسْتَذْأبَ الحَمَلُ
فالذَّنابي فِيهِ ناصِيةٌ والنّواصِي خُشَّعٌ ذُلُلُ
فاصْبِرِي يا نَفْسُ واحْتَمِلي إنّ نَفْسَ الحُرِّ تحتَمِلُ

وقال أبو الطّيّب [الوافر]:

نُعِدُّ المشْرِفيّةَ والعَوالي وتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلَا قِتَالِ[1]
ونَرْتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ وما يُنجِينَ مِن خَبَبِ اللّيالي[2]
ومَن لم يَعْشَقِ الدُّنيا قديمًا ولكن لا سَبيلَ إلى الوِصالِ
نَصيبُكَ في حياتكَ مِن حَبيبٍ نَصِيبُكَ في مَنامِكَ مِن خِيالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بالأرزاء حتّى فُؤادي في غِشَاءٍ مِن نِبالِ
فَصِرْتُ إذا أصَابَتْني سِهامٌ تَكَسَّرتِ النِّصَالُ على النِّصالِ
وهَانَ فما أبالي بالرَّزايَا لأنّي ما انتَفَعْتُ بأن أبالي
يُدَقِّنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويَمْشِي أواخِرُنا على هَامِ الأوالي

---

١ ـ ديوانه : ٣ : ٨ . المشرفيّة : السّيوف ؛ و العوالي : الرّماح .

٢ ـ المقربات من الخيل : الكرام الّتي تربط لكرامتها على أصحابها .

وكَـمْ عَـينٍ مُقَبَّلـةِ النَّـواحي كَحِيـلٍ في الجَنـادلِ والرِّمـالِ
ومُغْضٍ كان لايُغْضي لحَظْبٍ وبـالٍ كـان يُفْكِـرُ في الهُـزَالِ

وقال أبو العتاهيّة في أُرجوزته المشهورة في ذمّ الدّنيا، وفيها أنواع مختلفة من الحكمة:

مـا زالَـتِ الـدّنيا لنـا دَارَ أذَى ممزوجَـةَ الصَّـفْوِبألْوانِ القَـذَى
الخَيـرُ والشَّـرُّ بهـا أزْواجُ لِـذَا نِتـاجٌ، ولِـذَا نِتـاجُ
مَن لكَ بالمَحْضِ ولَيس محْضُ يَخْبُثُ بَعْضٌ ويَطِيبُ بَعْضُ
لكُـلّ إنسـانٍ طَبيعتـانِ خَيـرٌ وشَـرٌّ وهُمَـا ضِـدّانِ
والخَيـرُ والشَّـرُّ إذا مـا عُـدّا بَيْنَهُمـا بَـوْنٌ بَعيـدٌ جِـدّا
إنّـكَ لـو تَسْتَنشِـقُ الشَّـحِيحَا وَجَدْتَـهُ أنـتنَ شيءٍ رِيحَـا
حَسْـبُكَ ممّـا تَبْتَغِيـهِ القُـوتُ مَـا أكْثَـرُ القُـوتَ لِمَـن يمُـوتُ!
الفَقْـرُ فِيمَـا جَـاوَزَ الكَفَافَـا مَـنِ اتّـقَى اللهَ رَجَـا وخَافَـا
هِـيَ المقـادِيرُ فَلُمْـني أو فَـذَرْ إن كُنتُ أخْطأتُ فَمَا أخْطَا القَدَرْ
لكُـلِّ مـا يُـؤْذِي وإن قَـلّ أَلَمْ ما أطْوَلَ اللّيْلَ على مَن لم يَنَمْ!
مـا انتَفَـعَ المـرءُ بمثـلِ عَقْلِـهِ وخَيـرُ ذُخْرِالمـرءِ حُسْـنُ فِعْلِـهِ
إنّ الفَسـادَ ضِـدّهُ الصَّـلاحُ ورُبَّ جِـدٍّ جَـرَّهُ المـزاحُ
مَـن جَعَـلَ التَّمَّامَ عَيْنًـا هَلَكَـا مُبْلِغُـكَ الشَّـرَّ كبَاغِيـهِ لَكَـا
إنّ الشَّـبابَ والفَـراغَ والجِـدَهْ مَفْسَـدةٌ للمَـرْءِ أيّ مَفْسَـدَهْ
يُغْنِيـكَ عـن كُـلّ قَبـيحٍ تَرْكُـهُ قد يُـوهِنُ الرّأيَ الأصيلَ شَكُّهُ
مـا عَـيْشُ مَـن آفَتُـهُ بَقـاهُ نَغَّـصَ عَيْشًـا ناعِمًـا فَنَـاهُ
يـا رُبَّ مَـن أسْـخَطَنَا بجُهْـدِهِ قـد سَـرَّنَـا اللهُ بغَيـرِ حَمْـدِهِ

ما تَطْلُعُ الشّمسُ ولاتَغيبُ إلّا لأمرٍ شأنُهُ عَجيبُ
لكلِّ شيءٍ قَدرٌ وجَوْهَرْ وأوْسَطٌ وأصْغَرٌ وأكْبرُ
وكُلّ شيءٍ لَا حِقٌّ بجَوْهَرِهْ أصْغَرُه مُتَّصِلٌ بأكْبرِهْ
مَن لكَ بالمَحْضِ وكُلّ مُمْتَزِجْ وَساوِسٌ في الصَّدرِ مِنكَ تَعْتَلِجْ
عَجِبْتُ واسْتَغْرقني السُّكُوتُ حتَّى كأنّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
إذا قَضَى اللهُ فَكَيْفَ أصْنَعُ والصَّمْتُ إن ضَاقَ الكَلامُ أوْسَعْ

وقال أيضًا [أحذ الكامل]:

كُلّ على الدّنيا له حِرْصُ والحادِثاتُ لنا بها قَرْصُ
وكأنّ مَن وارَتْهُ في جَدَثٍ لم يَبْدُ مِنهُ لَناظِرٍ شَخْصُ
يَهْوَى من الدّنيا زِيادَتَها وزِيادةُ الدّنيا هي النَّقْصُ
لِيَدِ المَنِيّةِ في تلَطُّفِهَا عن ذُخرِ كُلِّ نَفيسَةٍ فَحْصُ

وقال أيضًا [الخفيف]:

أبْلَغَ الدَّهْرُ في مَواعِظِهِ بلْ زَادَ فِيهِنّ لي من الإبلاغِ
أيُّ عَيْشٍ يكونُ أطْيَبَ من عَيْـ ـشٍ كَفافٍ قُوتٍ بقَدْرِ البَلاغِ
غَصَبَتْني الأيّامُ أهلي ومالي وشبابي وصحّتي وفراغِي
صاحِبُ البَغْيِ ليس يَسْلَمُ مِنهُ وعلى نَفْسِهِ بَغَى كُلّ بَاغِ
رُبَّ ذي نِعْمَةٍ يعرَّضَ مِنهَا حائِلٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ المَساغِ

وقال ابن المعتزّ [البسيط]:

حَمْدًا لربّي وذَمًّا للزَّمانِ فَمَا أقلّ في هذه الدّنيا مَسَرَّاتي!
كفّت يَدِي أمْلِي عن كُلِّ مُطَّلَبٍ وأغْلَقَتْ بابَهَا مِن دُونِ حَاجَاتي

وله أيضًا [الطّويل]:

أَلَسْتَ تَرَى يا صاح ما أعْجَبَ الدَّهْرَا فَذَمًّا له، لكنَّ لِلْخَالِقِ الشُّكْرَا
لقد حَبَّبَ المَوْتَ البَقاءُ الّذي أرَى فيَا حَبَّذَا مِنّي لمَن سَكَنَ القَبرَا
وسُبْحانَ ربّي راضيًا بقَضَائِهِ وكانَ اتّقائي الشّرَّ يُغْرِي بِيَ الشَّرَّا

وله [الخفيف]:

قُلْ لدُنياك: قد تمكَّنتِ مِنّي فافْعِلي ما أرَدْتِ أن تَفْعَلِي بي
واخْرقي كَيفَ شِئْتَ خَرْقَ جَهُولٍ إنَّ عندي لَكِ اصطبارَ لَبِيب

وقال أبو العلاء المُعَرّيّ [السّريع]:

والدَّهْرُ إبرامٌ ونَقْضٌ و تفـ ـريقٌ وجَمْعٌ ونَهارٌ ولَيْلْ[1]
لو قال لي صاحبُهُ سِمْهِ ما جُزْتُ عَن ناجِيَةٍ أو بَدِيلْ

وقال آخر[السّريع]:

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حالَةٍ لا بُدّ أن يُدْبِرَ أو يُقْبِلَا

وقال أبو الطّيّب [الطّويل]:

فما لي وللدّنيا طِلابي نُجومُها ومَسْعَايَ منها في شِفَاهِ الأرَاقِمِ[2]

وقال آخر[الطّويل]:

لعَمْرُكَ ما الأيّامُ إلّا مُعَارَةٌ فما اسْطَعْتَ مِن مَعْرُوفِها فَتَزَوَّدِ

وقال آخر[الطّويل]:

لعَمْرُكَ ما الأيّامُ إلّا كما تَرَى رَزِيّةُ مالٍ، أو فِراقُ حَبيبِ

الوزير المهلّبيّ [الوافر]:

---

١ ـ سقط الزّند: ١٦١.

٢ ـ ديوانه ٤: ١١١. الأراقم: الحيات.

أَلَا مَـوْتٌ يُبَـاعُ فاشْـتَرِيهِ فهـذا العَـيْشُ مـا لا خَيـرَ فيـهِ[1]
أَلَا رَحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ تَصـدَّقَ بالمَمـاتِ عـلى أخِيـهِ

وله [البسيط]:

أَشْكُو إلى الله أحْداثًا من الزَّمَنِ يَبرينَني مِثْل بَرْي القِدْح بالسّفنِ
لم يَبْـقِ بـالعَيْشِ لي إلّا مِرارتُـهُ إذا تَذَوّقتُـهُ، والحلْـو مِنـه فـنِي
لاتحسبن نِعَمًا سَرَّتْكَ صُحْبَتُها إلّا مَفـاتيحَ أبـوابَ مـن الحَـزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر [الطّويل]:

أَلَا أيّها الدَّهْرُ الّذي قد مَلَلْتُه سألتُكَ إلّا ما سَلَلْتَ حَياتي
فَقَدْ وجلالِ اللهِ حَبَّبْتَ جَاهِدًا إلَيَّ ـ على كُرْه المَماتِ ـ مَمَاتِي

وله [الطّويل]:

أَلَم تَرَ أنّ الدَّهْرَ يَهْدِمُ ما بَنَى ويَسْلُبُ ما أعْطَى ويُفْسِدُ ما أسْدَى
فَمَن سَرَّهُ أَلّا يَرَى ما يَسُوءهُ فَـلَا يَتّخـذْ شـيئًا يخـافُ لَـهُ فَقْـدَا

البُحْتريّ [الطّويل]:

كأنَّ اللّيالي أغْرِيَتْ حادِثَاتُها بحُبِّ الّذي نَأبَى، وبُغْضِ الّذي نَهْوَى[2]
ومَن عَرَفَ الأيّامَ لم يَرَ خَفْضَها نَعيمًـا ولم يَعْـدُدْ مَضَـرَّتَها بَلْـوَى

أبو بكر الخوارزميّ [الرّجز]:

ما أثْقَلَ الدَّهْرَ على مَن رَكِبَهْ
حَـدَّثني عنـه لِسـانُ التَّجْرِبَـهْ
لَاتَشْـكُرِ الـدَّهْرَ لخيـرٍ سَـبَّبَهْ

---

١ ـ ابن خلّكان ١ : ١٤٢ .

٢ ـ ديوانه ١ : ١٠ .

فإنّـــهُ لَمْ يتعمَّـــدْ بالهِبَـــهْ
وإنّمـــا أخْطـــأ فِيـــكَ مَذْهَبَـــهْ
كَالسَّيْلِ قد يَسْقِي مَكانًا أخْرَبَهْ
والسُّمّ يَسْتَشْفِي بِهِ مِن شَرِبَهْ

وقال آخر[البسيط]:

يَسْعَى الفَتَى في صَلاحِ العَيْشِ مجْتَهِدًا والدَّهْرُ ما عَاشَ في إفْسَادِهِ سَاعِي

آخر[الطّويل]:

يَغُرّ الفَتَى مَرُّ اللّيالي سَلِيمةً وهُنَّ به عمّا قَليلٍ عَواثِرُ

آخر[الوافر]:

إذا مَا الدَّهْرُ جَرَّ على أناسٍ حَوادِثَـــه أنـــاخَ بآخَرِينَـــا
فقُـلْ للشّـامِتِينَ بنـا أفِيقُـوا سَيَلْقَى الشّامِتُونَ كما لَقِينَا

آخر[الرّمل]:

قُلْ لمَن أنكَرَ حَالًا مُنكَرَهْ ورأى مِـن دَهْـرِهِ مـا حَيَّـرَهْ
لَـيْسَ بـالمُنكَرِ مـا أنكَرْتَـهُ كُلّ مَن عَاشَ رأى مَا لم يَرَهْ

ابن الرُّوميّ [أحذ الكامل]:

سَكَنَ الزَّمانُ وتحتَ سَكْنَتِهِ دَفْعٌ مِنَ الحَرَكَاتِ والبَطْشِ
كـــالأفْعُوانِ تَـــراهُ مُنبَطِحًـــا بـالأرض ثُمَّ يَثُـورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطّيّب [البسيط]:

إنّـــا لَـــفِي زَمَـــنٍ تَـــرْكُ القَبـيحِ بِـــهِ مِن أكْثَرِ النّاسِ إحْسَـانٌ وإجمَالُ[1]
ذِكْـرُ الفَـتَى عُمْـرُه الثّـاني وحَاجَتُـهُ مـا فَاتَـه، وفُضُـولُ العَـيْشِ أشْـغَالُ

---

١ ـ ديوانه ٣ : ٢٨٧ .

وقال آخر[البسيط]:

جَـارَ الزَّمـانُ عَلَيْنَـا في تَصَـرُّفِهِ وأيّ حُرٍّ عليهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجُرِ!
عِندِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لوأنّ أيسَرَهُ يُلْقَى على الفَلَكِ الدَّوّارِ لم يَدُرِ

آخر[البسيط]:

هذا الزّمانُ الّذي كنّا نحَاذِرُهُ فيما يحدّث كَعْبٌ وابنُ مسعودِ
إن دَامَ هذا ولم تعقبْ لَهُ غِيَرٌ لم يُنبكَ مَيْتٌ، ولم يُفْرَحْ بمولودِ

آخر[مجزوء الرّمل]:

يا زَمَانًا ألْبَسَ الأحـ ـرارَ ذُلّا ومَهانَـــــةْ
لَسْتَ عندي بزَمانٍ إنّمـــا أنـــتَ زَمانَـــةْ
أجُنُـــونٌ مـــا نَـــراهُ مِنكَ يَبْدُو أمْ مجَانَهْ!

الرَّضيّ الموسويّ [مجزوء الكامل]:

تَأبى اللّيالي أن تُدِيمَا بُؤْسًـا لِخَلْـقٍ أو نَعيمَـا
والمَـرْءُ بالإقبـالِ يَبْـ ـلُغُ وَادِعًا خَطَرًا جَسِيمَا
فـإذا انقَضَـى إقبالُـهُ رَجَعُ الشّفيعُ لَهُ خَصيمَا
وهـو الزّمـانُ إذا نَبَـا سَلَبَ الّذي أعْطَى قَديمَا
كَالرّيحِ تَرْجِعُ عَاصِفًا مِن بَعْدِ ما بَدَأتْ نَسِيمَا

أبو عثمان الخالديّ [البسيط]:

ألِفْتُ من حَادِثاتِ الدَّهْرِ أكبرَهَا فما أعَاد على أحْداثِهَا الصُّغَر
تَزيدُني قَسْوَة الأيّامِ طِيبَ ثَنًا كأنّني المِسْكُ بين الفِهْرِ والحَجَرِ

السَّريّ الرّفاء [الطّويل]:

تَنكَّدَ هذا الدَّهْرُ فيمَا يَرُومُهُ عـلى أنّـهُ فِيمَـا نُحَـاذِرُهُ نَـدْبُ[1]
فَسَيرُ الّذي نَرْجُوهُ سَيرٌ مُقيَّدٌ وسَيْرُ الّذي نخْشَى غَوائِلَهُ وَثْبُ

ابن الرُّوميّ [الطّويل]:

أَلَا إنّ في الـدّنيا عَجائِـبُ جَمّـةٌ وأعْجَبُهـا أَلّا يَشِـيبَ وَليـدُها
إذا ذَلّ في الدّنيا الأعِزّاءُ واكْتَسَتْ أذِلّتُهـا عِـزًّا وسَـادَ مَسُـودُها
هُنَاكَ فلا جَادَتْ سماءٌ بِصَوْبِها ولاأمْرَعَتْ أرضٌ، ولااخْضَرَّ عُودُها
أرَى النّاسَ مَخْسُوفًا بِهِمْ غيرأنّهُمْ عَلَى الأرضِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُها
وَمَا الخَسْفُ أن يلْقَى أسَافِلَ بَلْدَةٍ أعَالِيَهـا، بَـلْ أن يَسُـودَ عَبيـدُهَا

السّريّ الرّفاء [البسيط]:

لنا من الدَّهْرِ خَصْمٌ لانُطَالِبُهُ فما على الدَّهْرِ لوكَفَّتْ نَوائِبُهُ![2]
يَرْتَدّ عنه جَريحًا مَن يُسالِمُهُ فكَيفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَن يحَارِبُهُ!
ولَو أمِنتُ الّذي تجْنى أراقِبُهُ عـلَيَّ هَـانَ الّـذي تجْنى عَقَارِبُهُ

أبو فراس بن حمدان [الطّويل]:

تَصَفَّحْتُ أحْوالَ الزَّمانِ ولم يَكُن إلَى غيرشاكٍ للزَّمانِ وُصُولُ[3]
أُكَلّ خَليلٍ هكذا غَيرُ مُنصِفٍ وكُـلّ زَمـانٍ بـالكَرامِ بَخيـلُ!

ابن الرّوميّ [الوافر]:

رأيتُ الدَّهْرَيَرْفَعُ كُلّ وَغْدٍ ويخْفِضُ كُلّ ذي شِيَمٍ شَرِيفَهْ
كمِثْلِ البَحْرِيَغْرَقُ فِيهِ حَيٌّ ولايَنفَـكّ تَطْفُـو فِيـهِ جِيفَـهْ

---

١ ـ ديوانه : ٣٦ .

٢ ـ ديوانه : ٥٤ ، و فيه : «خصم لانغالبه» .

٣ ـ ديوانه : ٣١٥ ( و نسرسامي الدّهان ) .

أو الميزان يخفِضُ كُلّ وافٍ ويَرْفَعُ كُلّ ذي زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نُباتة [الطّويل]:

وأصْغَرُ عَيْبٍ في زَمانِكَ أنّهُ به العِلْمُ جَهْلٌ، والعفَافُ فُسُوقُ
وكَيْفَ يُسَرّ الحُرُّ فِيهِ بمَطْلَبٍ وما فِيه شيءٌ بالسُّرورِ حَقِيقُ!

أبو العتاهيّة [البسيط]:

لِتَجْذِبَنّي يَدُ الدّنيا بقُوَّتِها إلى المنايا، وإن نازعتُها رَسَني[1]
لله دُنيَا أناسٍ دائبينَ لها قد ارْتَعَوْا في غِياضِ الغَيّ والفِتَنِ
كسَائماتِ رواعٍ تبتغي سِمَنًا وحَتْفُها لودَرَتْ في ذلكَ السِّمَنِ

وله أيضًا [مجزوء الكامل]:

أنسَاكَ مَحْيَاكَ المَمَاتَا فطَلَبْتَ في الدّنيا الثَّباتَا[2]
ووَثِقْتَ بالدُّنيا وأنْـ ـتَ تَرَى جماعَتَها شَتاتَا
وعَزَمْتَ وَيْكَ على الحَيَا ة وطُولها عَزْمًا بَتَاتَا
يا مَن رأى أبَوَيْه فِي ـمَن قد رأى كانَا فَمَاتَا
هل فيهما لكَ عِبرَةٌ أم خِلْتَ أنّ لكَ انفلاتَا
ومَنِ الّذي طَلَبَ التَّفَلْـ ـلُتَ مِن مَنِيَّتِه فَفَاتَا
كُلّ تُصَبِّحُه المَنِيْـ ـيَةُ أو تُبَيِّتُه بَيَاتَا

وله [الوافر]:

أرَى الدّنيا لِمَن هي في يَدَيْهِ عَذابًا، كُلّما كَبُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ المُكْرَمينَ لها بصُغْرٍ وتُكْرِمُ كُلّ مَن هانَتْ عَلَيْهِ

---

١ ـ ديوانه : ٢٨٨ .

٢ ـ ديوانه : ٥٣ .

إذا اسْتَغْنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ وخُذْ مَا أنتَ محتاجٌ إلَيْهِ

وله [الطويل]:

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهْرِ في كُلِّ ساعَةٍ لَـهُ عـارِضٌ فيـه المَنيّـةُ تَلْمَـعُ
أيَـا بـانِيَ الـدُّنيا لِغَيـرِكَ تَبْتَـني ويـا جَـامِعَ الـدُّنيا لغَيـرِكَ تَجْمَـعُ
أرَى المَرْءَ وَثّابًا على كُلِّ فُرْصَةٍ وللمَـرْءِ يَوْمًـا لا مَحَالَـةَ مَصْـرَعُ
يُنازِلُ ما لا يمْلِكُ المُلْكَ غَيرُهُ مَتَى تَنقَضِي حَاجَاتُ مَن لَيْسَ يَشْبَعُ
وأيّ امرئ في غايةٍ ليسَ نَفْسُهُ إلى غايـةٍ أخـرى سـواها تَطَلّـعُ

وله [الوافر]:

سَلِ الأيّامَ عَنْ أمَمٍ تَقَضَّتْ سَتُخبِرُكَ المَعَالِمُ والرُّسُومُ
تَـرُومُ الخُلْـدَ في دارِ التَّفَـاني وكَمْ قَدْ رَامَ قَبْلَك ما تَرُومُ
لأمْـرٍ مَـا تَصَـرَّمَتِ اللّيـالي وأمْـرٍ مَـا تَقَلّبَـتِ النُّجُـومُ
تَنَـامُ ولَمْ تَـنَمْ عَنـكَ المَنايَـا تَنَبَّـهْ للمَنِيَّـةِ يـا نَـؤُومُ
إلى دَيّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي وَعِندَ اللهِ تَجتَمِعُ الخُصُومُ

(٣ : ٣٣٥ ـ ٣٤٩)

**(الخطبة: ٦٢) الأصل: أَلَا إِنَّ الدُّنيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنهَا إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا، ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنهَا لَهَا أُخرِجُوا مِنهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ، فَإِنَّهَا عِندَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغًا حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِدًا حَتَّى نَقَصَ.**

الشرح: تقدير الكلام أنّ الدّنيا دارٌ لا يُسلَم من عقاب ذنوبها إلّا فيها، وهذا حقّ،

لأنّ العقاب المستحقّ [١] إنّما يَسقُط بأحد أمرين: إمّا بثوابٍ على طاعاتٍ تفضُل على ذلك العقاب المستحقّ، أو بتوبةٍ كاملة الشّروط.

وكِلا الأمرين لايصحّ من المكلّفين إيقاعه إلّا في الدّنيا، فإنّ الآخرة ليست دار تكليفٍ، ليصحّ من الإنسان فيها عمل الطّاعة والتّوبة عن المعصيّة السّالفة، فقد ثبت إذًا أنّ الدّنيا دارٌ لايُسلَم منها إلّا فيها ... (٥ : ١٤٠)

**(الخطبة: ٦٣) الأصل: فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صِيحَ بِهِمْ فَانتَبَهُوا، وَعَلِمُوا! أَنَّ الدُّنيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَن يَنزِلَ بِهِ.**

**وَإِنَّ غَايَةً تَنقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِبًا يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لأَفْضَلِ الْعُدَّةِ. فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنيَا مِنَ الدُّنيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنفُسَكُمْ غَدًا.**

الشّرح: وقوله: «فتزوّدوا في الدّنيا من الدّنيا»، كلامٌ فصيحٌ، لأنّ الأمر الّذي به يتمكّن المكلَّف من إحراز نفسه في الآخرة، إنّما هو يكتسبه في الدّنيا منها، وهو التّقوى والإخلاص والإيمان .... (٥ : ١٤٦)

**(الخطبة: ٨١) ومن كلام له عليه السلام في صفة الدّنيا:**

**مَا أَصِفُ مِن دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا**

---

١ ـ ج: «لأنّ عقاب الذّنوب».

**عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَن سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَن قَعَدَ عَنهَا وَاتَتْهُ، وَمَن أَبْصَرَبِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَن أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.**

**الشّرح:** ... ونظر الرَّضيّ إلى قوله: «أوّلها عَناءٌ وآخِرُها فَناءٌ»، فقال [الوافر]:

وأوّلنا العَنَاءُ إذا طَلَعنَا إلى الدّنيا وآخِرُنا الذَّهَابُ

ونظر إلى قوله عليه السلام: «في حلالها حِسابٌ، وفي حرامها عِقابٌ» بعضُ الشّعراء فقال [السّريع]:

الدَّهْرُ يَوْمان فيومٌ مَضَى عنك بما فيه ويومٌ جَديدُ
حلالُ يَوميْك حِسابٌ وفي حرام يَوْمَيْك عذابٌ شَديدُ
تجمعُ ما يَأكلُهُ وارثٌ وأنتَ في القبْرِ وَحيدٌ فَريدُ
إنّي لغيري واعِظٌ تاركٌ نفسي وقولي من فعالي بَعيدُ
حَلاوةُ الدّنيا ولذّاتُها تكلّفُ العاقلَ ما لا يُريدُ

ومن المعنى أيضًا قول بعضهم [البسيط]:

حَلَاهُا حَسْرَةٌ تُفْضِي إلى نَدَمٍ وفي المحارمِ منها الغنْمُ مَنزُورُ

ونظر الحسن البَصْريّ إلى قوله عليه السلام: «مَنِ استغنى فيها فُتِنَ، ومَنِ افتقر فيها حَزِنَ»، فقال، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولود له ذكَر: ليهنك الفارس يا أبا سعيد. فقال: بل الرّاجل! ثمّ قال: لا مرحبًا بمن إن كان غنيًّا فتَنِني، وإن كان فقيرًا أحزنني، وإن عاش كَدَّني، وإن مات هَدّني، ثمّ لا أرضى بسَعْيي له سَعْيًا، ولا بكَدْحِي له كَدْحًا، حتّى أهتمّ بما يُصيبه بعد موتي، وأنا في حالٍ لا ينالُني بمساءته حُزْن، ولا بسروره جَذَل.

ونظر ابن المُعتزّ إلى قوله عليه السلام: «مَن سَاعَاها فأتَتْه، ومَن قَعَدَ عنها واتَتْه»، فقال: الدّنيا كظِلّك، كلّما طلبتَه، زاد منك بُعْدًا. ونظرتُ إلى قوله عليه السلام: «ومَن أبْصَرَ بها بَصَّرَتْهُ، ومَن أبْصَرَ إليها أعْمَتْهُ»، فقلت [السّريع]:

دُنيَاك مِثْلُ الشَّمْسِ تُدْنى إلَيْـ ـكَ الضَّوءَ لكن دعوة المَلِكِ
إن أنـت أبْصَـرْتَ إلى نُورِهـا تَعْشَ، وإن تبصـر به تدركِ

(٦ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩)

(الخطبة: ٩٨) الأصل: ... أُوصِيكُمْ بِالزَّفْضِ لِهذِهِ الدُّنيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِن لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وَإِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وأَمُّوا عَلَمًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ، وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَن يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَن يَكُونَ بَقَاءُ مَن لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوتِ يَحْدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا!

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجْزَعُوا مِن ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انقِطَاعٍ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ.

الشّرح: ... قوله عليه السلام: «الدّنيا التّاركة لكم وإن لم تحبّوا تركها» معنًى حَسَن، ومنه قول أبي الطّيّب [الخفيف]:

كلّ دَمْعٍ يسيلُ مِنها عَلَيها وبفَكِّ اليَدَيْنِ عنها تُخَلّى[1]

... وكأنّ في هذه المواضع كهي في قوله: «كأنّك بالدّنيا لم تكن، وكأنّك بالآخرة لم تزل، ما أقرب ذلك وأسرعه!»، وتقدير الكلام هاهنا: كأنّهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له، وكأنّهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنّه لمّا قرب زمان إحدى الحالتيْن من زمان الأُخرى شُبِّهوا وهم في الحال الأُولى بهم أنفسِهم وهم على الحال الثّانية. (٧ : ٨٢)

١ ـ ديوانه ٣ : ١٣١.

(الخطبة: ١٠٢) الأصل: انظُرُوا إِلَى الدُّنيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِينَ عَنهَا، فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ، لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنهَا فَأَدْبَرَ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنهَا فَيُنتَظَرَ.

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنهَا. رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، واعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنيَا عَن قَلِيلٍ لَمْ يَكُن، وَكَأَنَّ مَا هُوَكَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ ... .

الشّرح: ... ثمّ نهى عن الاغترار بكثرة العُجب من الدّنيا، وعلّل حُسنَ هذا النّهي، وقبح الاغترار بما نشاهده عَيَانًا من قلّة ما يصحب مفارقيها منها. وقال الشّاعر [البسيط]:

فما تَزَوّد ممّا كان يجمعُهُ ... إلّا حَنُوطًا غداة البين في خِرَقِ

وغير نَفْحَةِ أعوادٍ شببنَ لَهُ ... وقَلّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

ثمّ ذكر أنّ ما هو كائن موجود من الدّنيا سيصير عن قليل ـ أي بعد زمان قصير ـ معدومًا، والزّمان القصير هاهنا: انقضاء الأجل وحضور الموت.

ثمّ قال: إنّ الّذي هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل ـ أي بعد زمان قصير أيضًا ـ كأنّه لم يزل، والزّمان القصير هاهنا هو حضور القيامة، وهي وإن كانت تأتي بعد زمان طويل، إلّا أنّ الميّت لا يحسّ بطوله، ولا فَرْقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيًّا، وبين يوم واحد، لأنّ الشّعور بالبطء في الزّمان مشروط بالعلم بالحركة، ويدلّ على ذلك حال النّائم.

ثمّ قال: كلّ معدود منقض، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النّظريّ على أنّ الدّنيا زائلة ومنصرفة، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألّا يكون لها أوّل، فقالوا: لأنّها داخلة تحت العدد، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ، والكلام في هذا مذكور في كُتُبنا العقليّة. (٧ : ١٠٦ ـ ١٠٧)

(الخطبة: ١٠٥) الأصل: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ، الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهَا. ... التَّصْدِيقُ مِنهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالدُّنيَا مِضْمارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ.

الشّرح: ... ثمّ وصفه بصفات أُخرى، فقال: التّصديق طريقه، والصّالحات أعلامه، والموت غايته، أي أنّ الدّنيا سِجْن المؤمن، وبالموت يخلُص من ذلك السِّجْن، ويحظى بالسّعادة الأبديّة.

قال: والدّنيا مِضماره، كأنّ الإنسان يجرى إلى غاية هي الموت، وإنّما جعلها مضمار الإسلام، لأنّ المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته، فالدّنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعيّنة. (٧ : ١٧٢)

(الخطبة: ١١٠) الأصل: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ، لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ، لَا تَعْدُو ـ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَن تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[1].

لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ مِن سَرَّائِهَا بَطْنًا إِلَّا مَنَحَتْهُ مِن ضَرَّائِهَا ظَهْرًا، وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ!. وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنتَصِرَةً أَن تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِن جَانِبٌ مِنهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى!

لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِن غَضَارَتِهَا رَغَبًا، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِن نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَا يُمْسِي مِنهَا فِي

---

١ ـ الكهف / ٤٥.

جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ.

غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَن عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِن أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَن أَقَلَّ مِنهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنهُ. كَمْ مِن وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا!

سُلْطَانُهَا دُوَلٌ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بَعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، ومَوْفُورُهَا مَنكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ.

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْثَفَ جُنُودًا! تَعَبَّدُوا لِلدُّنيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ؟ أَو أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ؟ أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَن دَانَ لَهَا وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا حِينَ ظَعَنُوا عَنهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ.

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ، أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ، فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَن لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُن فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنهَا!

فَاعْلَمُوا ـ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنهَا، وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأُنزِلُوا الأَجْدَاثَ

---

١ ـ فصّلت / ١٥.

فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَانًا، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً، إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا، جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ، مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ، حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ، وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضِيقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاؤُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

الشّرح: ... وهذه اللّفظة من الألفاظ النّبويّة، قال النّبيّ ﷺ: «إنّ الدّنيا حُلْوةٌ، خَضِرةٌ، وإنّ الله مُسْتَخْلِفُكم فيها، فناظر كيف تعملون!» ... .

ثمّ قال: إنّها إذا تناهت إلى أُمنيّة ذوي الرّغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[2].

ومن هاهنا أخذ الشّاعر قوله [الطّويل]:

ألَا إنّما الدّنيا غَضارةُ أيكةٍ ... إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانِبُ

فلا تكتحِلْ عَيْناكَ منها بعبرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنّكَ ذاهِبُ

... ثمّ أخذ قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾[3] ... وقد دلّنا الكتاب الصّادق على أنّهم كانوا

---

١ ـ الأنبياء / ١٠٤ .

٢ ـ الكهف / ٤٥ .

٣ ـ إبراهيم / ٤٥ .

أطول أعمارًا بقوله: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[١]، وثبت بالعيان أنّهم أبقى آثارًا، فإنّ مِن آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندريّة وغير ذلك. وأمّا بُعْدُ الآمال فمرتّب على طول الأعمار، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد، وإن عَنَى به علوّ الهِمَم، فلا رَيب أنّهم كانوا أعلى هِمَمًا من أهل هذا الزّمان، وقد كان فيهم مَن ملَك معمورة الأرض كلّها ... .

وقد قال الشّعراء والخطباء في هذا المعنى كثيرًا، فمن ذلك قول الرّضيّ أبي الحسن ﷺ في مرثيّته لأبي إسحاق الصّابي [الكامل]:

أعْـزِزْ عَـلَيّ بـأن نزلـتَ بمنـزلٍ ... متشـابهِ الأمجـادِ بالأوغـادِ[٢]

في عُصْبةٍ جُنِبوا إلى آجالِهِمْ ... والدَّهْرُ يعجِلُهمْ عَنِ الإرْوادِ

ضربوا بمدْرَجةِ الفِنَاءِ قِبابَهمْ ... مِـن غيـرِ أطنَـابٍ ولا أوْتـادِ

رَكْبٌ أناخُوا لا يرجّى مِنْهُمُ ... قصـدٌ لإتهـامٍ ولا إنجـادِ

كرهـوا النّـزولَ فـأنزلَتهُمْ وقعـةٌ ... للـدَّهْرِ نازلـةٌ بكـلِّ مَقـادِ

فتهافتوا عن رَحْل كلِّ مُذلِّلٍ ... وتطاوحوا عن سَرْج كلِّ جَوادِ

بادُونَ في صُوَرِ الجميعِ وإنّهم ... متفـرِّدونَ تفـرُّدَ الآحـادِ

... وقال الرّضي رحمه الله تعالى أيضًا [الكامل]:

مُتوَسِّـدينَ عـلى الخُـدودِ كأنّمـا ... كَرَعُوا على ظَمَإٍ من الصَّهْباءِ[٣]

صُوَرٌ ضَنَنتُ على العُيونِ بحُسنِها ... أمسـيتُ أوقِرُهـا مِـنَ البَوْغـاءِ[٤]

ونَـواظرٌ كَحَـلَ التُّـرابُ جُفونَهـا ... قد كُنتُ أحْرُسُـها مِنَ الأقذاءِ

---

١ ـ العنكبوت / ١٤ .

٢ ـ ديوانه : لوحة ١٢٩ مع اختلاف في الرّواية وترتيب الأبيات .

٣ ـ ديوانه : لوحة ١١٦ ، من مرثيّته لوالدته .

٤ ـ والبوغاء : التّربة الرّخوة .

قَرُبَتْ ضَرائحُهم على زُوّارِها ونَأوا عَنِ الطُّلابِ أيَّ تَناءِ[1]

قوله: «قربت ضرائحهم...» البيت هو معنى قوله عليه السلام: «وجيرة وهم أبعاد» بعينه. ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب [الطويل]:

لكلِّ أناسٍ مقبرٌ في ديارهمْ فهم ينقصون، والقبورُ تَزيدُ
فكائن تَرَى مِن دارِ حَيّ قد اخربتْ وقبرٍ بأكنافِ التُّرابِ جديدُ
همُ جيرةُ الأحياءِ، أمّا مزارهمْ فَدانٍ، وأمّا الملتقَى فبعيدُ

ومن كلام ابن نُباته: «وحيدًا على كثرة الجيران، بعيدًا على قُرب المكان».

ومنه قوله: «أسير وحشة الانفراد، فقير إلى اليسير من الزّاد، جارُ مَن لا يجير، وضَيْفُ مَن لا يمير، حُمِلُوا ولا يَرَوْن ركبانًا، وأُنزلُوا ولا يُدْعَون ضيفانًا، واجتمعوا ولا يستمعون جيرانًا، واحتشدوا ولا يعدّون أعوانًا».

وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور في هذه الخطبة، وقد أخذه مصالتةً.

واعلم! أنّ هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتّبيين»[2] ورواها لقَطَريّ بن الفجاءة، والنّاس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب «المونق» لأبي عبيد الله المرزبانيّ مرويّة لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قَطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره، وقد لقي قَطَريّ أكثرهم. (٧: ٢٢٦ ـ ٢٣٦)

**(الخطبة: ١١٢) الأصل: وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا، فَإِنَّهَا مَنزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا،**

---

١ ـ الضَّرائح: جمع ضريح، وهو القبر.

٢ ـ البيان والتّبيين ٢: ١٢٦ ـ ١٢٩، وهي أيضًا بنسبتها إلى قَطَري في «العقد» ١: ١٤١؛ وصبح الأعشى ١: ٢٢٣؛ وعيون الأخبار ٢: ٢٥٠؛ ونهاية الأدب ٧: ٢٥٠.

وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ، خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنقَطِعُ انقِطَاعَ السَّيْرِ!

اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِن طَلِبَتِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِن أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَن يُدْعَى بِكُمْ.

إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِن ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِن فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا.

قَدْ غَابَ عَن قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنتُمْ إِخْوَانُ عَلَى دِينِ اللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ، فَلَا تَوَازَرُونَ، وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ، وَلَا تَوَادُّونَ.

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنهَا عَنكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ.

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَن يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِن عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَن يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَن قَدْ فَرَغَ مِن عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَى سَيِّدِهِ.

**الشّرح:** ... ثمّ وصف هوان الدّنيا على الله تعالى، فقال: «من هوانها أنّه خلط حلالها بحرامها...» الكلام، مراده تفضيل الدّار الآتية على هذه الحاضرة، فإنّ تلك صَفو كلّها وخير كلّها، وهذه مشوبة، والكَدَر والشّر فيها أغلب من الصَّفو والخير.

ومن كلام بعض الصّالحين: مِن هوان الدّنيا على الله أنّه لا يُعْصَى إلّا فيها، ولايُنَال ما عنده إلّا بتركها.

ثمّ أمرهم بأن يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جملة مطلوباتهم، وأن يسألوا الله من الإعانة والتّوفيق على القيام بحقوقه الواجبة. كما سألهم، أي كما ألزمهم وافترض عليهم، فسمّى ذلك سؤالًا لأجل المقابلة بين اللّفظين، كما قال سبحانه: ﴿وجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[1]، وكما قال النّبيّ ﷺ: «فإنّ الله لا يَمَلّ حتّى تملّوا». وكما قال الشّاعر[الوافر]:

ألا لَا يجْلَهَن أحدٌ عَلَيْنَا فنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا[2]

ثمّ أمرهم أن يسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت، فيحلّ بهم. ومثل قوله: «تبكى قلوبهم وإن ضحكوا»، قول الشّاعر، وإن لم يكن هذا المقصد بعينه قصد [الكامل]:

كَمْ فاقَةٍ مستورةٍ بمروءة وضرورةٍ قد غُطّيَتْ بتجمُّلِ

ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ قد خامرتْه لوعةٌ ما تنجَلِي

... ثمّ ذكر أنّ النّاس كلّهم مخلوقون على فطرة واحدة، وهي دين الله وتوحيده، وإنّما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك، وهو خُبْث سرائرهم وسوء ضمائرهم، فصاروا إلى حال لايتوازرون ... .

ومثل قوله عليه السلام: «ما بالكم تفرحون بكذا، ولاتحزنون لكذا، ويُقْلِقُكم اليسير من الدّنيا يفوتكم» من هذا قول الرّضيّ رحمه الله [البسيط]:

نَقْصُ الجديدَيْن من عمري يَزيدُ على ما ينقِصانِ على الأيّامِ من مالي[3]

دَهْرٌ تؤثّرُ في جسمي نَوائبُهُ فما اهتمامي أن أودَى بسربالي

---

١ ـ الشّورى / ٤٠ .

٢ ـ لعمرو بن كلثوم ، من المعلّقات بشرح التّبريزيّ : ٢٣٨ .

٣ ـ ديوانه : لوحة ١٥٠ ، من قصيدة يرثي فيها صديقًا له .

قوله: «وصار دين أحدكم لُعقةً على لسانه» أخذه الفَرَزْدق، فقال للحسين ابن عليّ عليه السلام، وقد لقيه قادمًا إلى العراق، وسأله عن النّاس: «أمّا قلوبهم فمعك، وأمّا سيوفهم فعليك، والدِّين لُعَقَةٌ على ألسنتهم، فإذا امتحصوا قلّ الدّيّانون»، واللّفظة مجاز، وأصل اللُّعقة شيء قليل يُؤخَذ بالمِلْعقة من الإناء، يصف بالنَّزارة والقِلّة كتلك اللّعقة، ولم يقنع بأن جعله لُعْقة حتّى جعله على ألسنتهم فقط، أي ليس في قلوبهم.
(٧ : ٢٤٧ ـ ٢٤٩)

(الخطبة: ١١٣) الأصل: ... ثُمَّ إِنَّ الدُّنيا دَارُفَنَاءٍ، وَعَنَاءٍ، وغِيَرٍ وَعِبَرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَمُوتِرٌ[1] قَوْسَهُ، لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ، وَلَاتُؤْسَى جِرَاحُهُ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ، آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنقَعُ.

وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، لَا مَالًاحَمَلَ، وَلَابِنَاءً نَقَلَ!

وَمِن غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّانَعِيمًا زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ.

وَمِن عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُأَجَلِهِ، فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعَزَّسُرُورَهَا! وَأَظْمَأَ رِيَّهَا! وَأَضْحَى فَيْئَهَا! لَا جَاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ.

فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانقِطَاعِهِ عَنهُ! إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّمِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍمِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِن عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِن سَمَاعِهِ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ.

---

١ ـ مخطوطة النّهج: «موتر» بالتّشديد.

**وَاعْلَمُوا! أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنيَا، فَكَمْ مِن مَنقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!**

**الشّرح:** ... قوله: «ومِن غِيَرِها أنّك ترى المرحوم مغبوطًا والمغبوط مرحومًا»، أي يصير الفقير غنيًّا والغنيّ فقيرًا، وقد فسّره قوم فقالوا: أراد أنّك ترى مَنْ هو في باطن الأمر مرحوم مغبوطًا، وترى مَنْ هو في باطن الأمر مغبوط مرحومًا، أي تحسب ذاك وتتخيّله، وهذا التّأويل غير صحيح، لأنّ قوله بعده: «ليس ذلك إلّا نعيمًا زلّ، وبُؤسًا نزل»، يكذّبه ويصدّق التّفسير الأوّل ... .

**فإن قلتَ:** ما وجه تقسيمه عليه السلام الأُمور الّتي عدّدها إلى الفناء والعناء، والغِيَر والعِبَر؟

**قلتُ:** لقد أصاب الثّغرة وطبّق المفصِل، ألَا تراه ذكَر في الفَناء رَمْيَ الدَّهْر الإنسان عن قَوْس الرَّدَى، وفي العَناء جمْع ما لا يأكل، وبناء ما لا يسكن، وفي الغِيَر الفقر بعد الغِنَى والغِنَى بعد الفقر، وفي العِبر اقتطاع الأجل الأمل، فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها.

وقد نظر بعض الشُّعَراء إلى قوله عليه السلام: «ليس شيء بشرّ من الشّرّ إلّا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلّا ثوابه»، فقال [البسيط]:

خَيرُ البضائعِ للإنسانِ مَكْرُمة تَنمِي وتَزْكُو إذا بارتْ بَضائِعُهُ

فالخيرُ خيرٌ، وخيرٌ منه فاعِلُهُ والشّرّ شرٌّ، وشرٌّ منه صانِعُهُ

إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثّواب، والشّاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشّرّ.

ثمّ ذكر أنّ كلّ شيء من أُمور الدّنيا المرغبة والمرهبة، سماعه أعظم من عِيانه، والآخرة بالعكس، وهذا حقّ، أمّا القضيّة الأُولى فظاهرة، وقد قال القائل[البسيط]:

اِهتزَّ عند تَمَنِّي وَصْلِها طربًا ورُبَّ أمنِيَّةٍ أحلَى مِنَ الظَّفَر

ولهذا يحرِص الواحد منّا على الأمر، فإذا بلغه بَرَد وفتر، ولم يجده كما كان يظنّ في

اللّذة. ويُوصِف لنا البلد البعيد عَنّا بالخِصْب والأمن والعدل، وسماح أهله، وحُسْن نسائه، وظَرْف رِجاله، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وَصَف، بل ربمّا وجدنا القليل من ذلك، ويُوصَف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحِكَم، ويُبالِغ الواصفون في ذلك. فإذا اختبرناه وجدناه دون ما وصف، وكذلك قد يخاف الإنسان حَبْسًا أو ضَرْبًا أو نحوهما فإذا وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه، ووجد الأمر دون ذلك، وكذلك القتل والموت، فإنّ ما يستعظمه النّاس منهما دون أمرهما في الحقيقة، وقد قال أبو الطّيّب ـ وهو حكيم الشّعراء [الخفيف]:

كلّ ما لم يَكُن من الصَّعبِ في الأنـ ـفُسِ سَهْلٌ فيها إذا هُوَ كانَا

ويقال في المَثَل: لَجِ الخوف تأمن. وأمّا أحوال الآخرة؛ فلا ريب أنّ الأمر فيها بالضّدّ من ذلك، لأنّ الّذي يتصوّره النّاس من الجنّة أنّها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب، وجماع، وأمرها في الحقيقة أعظم من هذا وأشرف، لأنّ ملاذّها الرّوحانيّة المقارنة لهذه الملاذّ المضادّة لها أعظم من هذه الملاذّ بطبقات عظيمة، وكذلك أكثر النّاس يتوهّمون أنّ عذاب النّار يكون أيّامًا وينقضي، كما يذهب إليه المرجئة، أو أنّه لا عذاب بالنّار لمسلم أصلًا، كما هو قول الخُلّص من المُرْجئة، وأنّ أهل النّار يألفون عذابها فلا يستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم، وأمر العذاب أصعب ممّا يظنّون، خصوصًا على مذهبنا في الوعيد، ولو لم يكن إلّا آلام النّفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها، فإنّ ذلك أعظم من ملاقاة جِرْم النّار لبدن الحيّ.

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة، ليس هذا الكتاب موضوعًا لها.

ثمّ أمرهم بأن يكتفوا من عيان الآخرة وغيبها بالسّماع والخبر، لأنّه لا سبيل ونحن في هذه الدّار إلى أكثر من ذلك. وإلى قوله: «ما نقص من الدّنيا وزاد في الآخرة، خيرٌ ممّا نقص من الآخرة وزاد في الدّنيا» نظر أبو الطّيّب، فقال، إلّا أنّه أخرجه في مخرج آخر [الوافر]:

بلاد ما اشتهيتَ رأيتَ فيها فَلَيسَ يَفُوتُها إلّا كِرامُ

فَهلّا كان نَقْصُ الأهْلِ فيها وكان لأهلِها منها التَّمَامُ

ثمّ قال: «فكَمْ مِن منقوصٍ في دنياه وهو رابِحٌ في آخرته، وكَمْ مِن مَزيدٍ في دنياه وهو خاسِرٌ في آخرته» ... (٧ : ٢٥٦ ـ ٢٥٩)

**(الخطبة: ١٣٣) الأصل: ... وَإِنَّمَا الدُّنيَا مُنتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى، لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيئًا، وَالْبَصِيرُ يَنفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالبَصِيرُ مِنهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ ... .**

الشّرح: ... شَبَّهَ الدّنيا وما بعدها بما يتصوّره الأعمى، من الظُّلْمة الّتي يتخيّلها، وكأنّها محسوسة له، وليست بمحسوسة على الحقيقة، وإنّما هي عدم الضّوء، كمن يطّلع في جُبٍّ ضيق، فيتخيّل ظلامًا، فإنّه لم يَرَ شيئًا، ولكن لما عدم الضّوء فلم ينفذ البصر تخيّل أنّه يرى الظُّلْمة، فإمّا مَن يَرَى المبْصِرات في الضّياء، فإنّ بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقينًا، وهذه حال الدّنيا والآخرة، أهل الدّنيا منتهى بصرهم دنياهم، ويظنّون أنّهم يبصرون شيئًا وليسوا بمبصرين على الحقيقة، ولاحواسّهم نافذة في شيء، وأهل الآخرة قد نفذت أبصارهم، فرأوا الآخرة، ولم يقف إحساسهم على الدّنيا خاصّة ، فأُولئك هم أصحاب الأبصار على الحقيقة، وهذا معنى شريف من معاني أصحاب الطّريقة والحقيقة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[1]. (٨ : ٢٧٥ ـ ٢٧٦)

**(الخطبة: ١٤٥) ومن خطبة له عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيَا غَرَضٌ تَنتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أُكْلَةٍ غَصَصٌ!**

**لَا تَنَالُونَ مِنهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنكُمْ يَوْمًا مِن عُمُرِهِ إِلَّا**

---

١ ـ الأعراف / ١٩٥ .

بِهَدْمِ آخَرَمِن أَجَلِهِ، وَلَاتُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلَّا بَنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِن رِزْقِهِ، وَلَايَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ، وَلَايَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَن يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ، وَلَاتَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنهُ مَحْصُودَةٌ، وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!

**الشّرح:** ... ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نَعيم الدّنيا لا يدوم، فإذا أحْسَنَتْ أساءَتْ، وإذا أنعَمَتْ أنقَمَتْ.

ثمّ قال: «لاينالون منها نعمةً إلّا بفراق أُخرى»، هذا معنى لطيف، وذلك أنّ الإنسان لايتهيّأ له أن يجمع بين المَلاذّ الجسمانيّة كلّها في وقتٍ، فحالٌ ما يكون آكلًا لا يكون مُجامعًا، وحالٌ ما يَشْربُ لا يأكل، وحالٌ ما يركب للقَنَص والرّياضة، لايكون جالسًا على فِراش وَثير ممهّد، وعلى هذا القياس لايأخذ في ضَرْبٍ من ضروب المَلاذّ إلّا وهو تارك لغيره منها.

ثمّ قال: «ولا يعمّر مُعَمّر منكم يومًا من عُمُره إلّا بهَدْم آخَرَ من أجَلِه»، وهذا أيضًا لطيفٌ، لأنّ المسرور ببَقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلّا بعد أن قَضى يوم السَّبْت وقَطَعه، ويوم السَّبْت من أيّام عُمُره، فإذًا قد هدم من عُمُره يومًا، فيكون قد قرب إلى الموت، لأنّه قد قطع من المسافة جُزْءًا.

ثمّ قال: «ولا تُجَدَّد له زيادة في أكْلِه إلّا بنَفادِ ما قبلها من رِزْقه»، وهذا صحيح، فإن فسّرنا الرّزق بما وصل إلى البَطْن على أحد تفسيرات المتكلّمين، فإنّ الإنسان لا يأكل لُقمةً إلّا وقد فرغ من اللّقمة الّتي قبلها، فهو إذًا لايتجدّد له زيادة في أكْلِه إلّا بنَفاد ما قبلها من رزقه.

ثمّ قال: «ولا يحْيَا له أثَرٌ إلّا مات له أثَرٌ»، وذلك أنّ الإنسان في الأعمّ الأغلب لاينتشر صِيتُه ويشيع فضْله إلّا عند الشّيخوخة، وكذلك لاتعرف أولاده ويصير لهم اسم في الدّنيا إلّا بعد كِبره وعُلوّ سِنّه، فإذًا ما حيي له أثَرٌ إلّا بعد أن مات له أثَرٌ، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته، ومثله قوله: «ولايتجدد له جديد، إلّا بعد أن يخلَق

له جديد».

ثمّ قال: «ولاتقوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة»، هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم في الأعمّ الأغلب، ولهذا قال: «وقد مَضَتْ أُصولٌ نحن فروعها فما بقاء فَرْع بعد ذهاب أصله» ، وقد نظر الشُّعَراء إلى هذا المعنى، فقالوا فيه وأكثروا، نحو قول الشّاعر[الطّويل]:

فإن أنتَ لَمْ تصدقْكَ نفسُكَ فانتَسِبْ لَعَلّك تهدِيكَ القُرونُ الأوائِلُ
فـإن لَمْ تجِـدْ مِـن دُونِ عَـدْنانَ والـدًا ودونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ العَواذِلُ

وقال الشّاعر[الكامل]:

فعددتُ آبائي إلى عِرْق الثَّرى فَدَعَوْتُهُم فَعَلِمتُ أن لَمْ يَسْمعُوا
لا بدّ مِن تَلَفٍ مُصِيبٍ فانتظرْ أبِأرضِ قومِك أم بأخرى تُصْرَعُ

وقد صرّح أبو العتاهيّة بالمعنى، فقال [مخلّع البسيط]:

كـلّ حيـاةٍ إلى ممـاتٍ وكُـلّ ذي جِـدَّةٍ يَحـولُ
كَيفَ بَقاءُ الفُروعِ يَومًا وقد ذَوَتْ قَبْلَهَا الأُصولُ

(٩ :٩١ ـ ٩٣)

**(الخطبة: ١٥٦) الأصل: ... وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنيَا، وَبِالدُّنيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ ...**

الشّرح: ... ثمّ قال: «وبالموت تختم الدّنيا»، وهذا حقّ، لأنّه انقطاع التّكليف. ثمّ قال:« وبالدّنيا تحرز الآخرة»، هذا كقول بعض الحكماء: الدّنيا مَتْجر، والآخرة ربح، ونفسك رأس المال. (٩ : ٢٠٢)

(الخطبة: ١٦١) ... قَضَمَ الدُّنيا قَضْمًا، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفًا، أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنيا كَشْحًا، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنيا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنيا فَأَبَى أَن يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ.

وَلَوْلَمْ يَكُن فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَاللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلهِ، وَمُحَادَّةً عَن أَمْرِاللهِ. وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَالْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُعَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُفَيَقُولُ: «يَا فُلَانَةُ ـ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنيا وَزَخَارِفَهَا».

فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنيا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِن نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَن تَغِيبَ زِينَتُهَا عَن عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ. وَكَذَلِكَ مَن أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَن يَنظُرَ إِلَيْهِ، وَأَن يُذْكَرَعِندَهُ.

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنيا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنظُرْنَاظِرٌبِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّدًا بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِن قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَاللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِن قَالَ: «أَكْرَمَهُ»، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنيا لَهُ، وَزَوَاهَا عَن أَقْرَبِ النَّاسِ مِنهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنيا خَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا، لَمْ يَضَعْ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ.

فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِندَنَا حِينَ أَنعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأُ عَقِبَهُ! وَاللهِ

لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِن رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنبِذُهَا عَنكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَعِندَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى!

## [الأخبار والآثار الواردة في البُعْد عن زينة الدّنيا]

**الشّرح:** ... جاء في الأخبار الصّحيحة أنّه عليه الصّلاة والسّلام، قال: «إنّما أنا عَبْدٌ آكل أكْلَ العَبيد، وأجلس جِلْسَة العَبيد»؛ وكان يأكل على الأرض، ويجلس جُلوس العَبيد يَضَعُ قصبَتَيْ ساقَيْه على الأرض، ويعتمد عليهما بباطني فَخِذَيه، وركوبه الحمار العارِي آيةُ التّواضع وهَضْم النّفس. وإرداف غيره خلفه آكِدُ في الدّلالة على ذلك.

وجاء في الأخبار الصّحيحة النّهي عن التّصاوير وعن نصب السُّتور الّتي فيها التّصاوير، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى سِتْرًا فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصّورة.

وجاء في الخبر: «مَن صَوّر صُورةً كُلِّف في القيامة أن ينفخ فيها الرّوح، فإذا قال: لا أستطيع، عُذِّب».

قوله: «لم يَضَعْ حَجَرًا على حَجَرٍ»، هو عين ما جاء في الأخبار الصّحيحة. خرج رسول الله ﷺ من الدّنيا ولم يضع حَجَرًا على حَجَر.

وجاء في أخبار عليّ عليه السلام الّتي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب «فضائله»، وهو روايتي عن قُرَيش بن السّبيع بن المهنّا العلويّ، عن نَقيب الطّالبيّين أبي عبد الله أحمد بن عليّ ابن المعمّر، عن المبارك بن عبد الجبّار أحمد بن القاسم الصّيرفيّ المعروف بابن الطّيوريّ عن محمّد بن عليّ بن محمّد بن يوسف العَلّاف المُزَنيّ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حَمْدان بن مالك القَطيعيّ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله قال: قيل لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لِمَ ترقّع قَميصك؟ قال: ليَخْشَع القَلْب، ويقتديَ بي المؤمنون.

وروى أحمد ﷺ أنّ عليًّا كان يَطُوف الأسواق مُؤْتَزرًا بإزارٍ، مُرْتدِيًا بردِاءٍ، ومعه الدِّرّة كأنّه أعرابيٌّ بَدَويّ، فطاف مرّة حتّى بلغ سُوق الكَرابيس، فقال لواحدٍ: يا شيخ بِعْني قَميصًا تكون قيمتُه ثلاثة دراهم، فلمّا عرفه الشّيخ لم يشترِ منه شيئًا، ثمّ أتى آخر، فلمّا عرفه لم يشترِ منه شيئًا، فأتى غلامًا حَدَثًا، فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم، فلمّا جاء أبو الغلام، أخبره، فأخذ درهمًا. ثمّ جاء إلى عليّ عليه السلام ليدفعه إليه، فقال له: ما هذا؟ أو قال ما شابَهَ هذا، فقال: يا مولاي، إنّ القَميص الّذي باعك ابني كان يساوي دِرْهَمَين، فلم يأخذ الدّرهم، وقال: باعني رضاي وأخذ رضاه.

وروى أحمد ﷺ عن أبي النّوار بائع الخام بالكوفة. قال: جاءني عليّ بن أبي طالب إلى السُّوق، ومعه غلام له وهو خليفة، فاشترى منّي قميصَين، وقال لغلامه: اختر أيّهما شئت، فأخذ أحدهما، وأخذ عليّ الآخر، ثمّ لبسه ومدّ يده، فوجد كُمّه فاضلة، فقال: اقطع الفاضل. فقطعته، ثمّ كفّه وذهب.

وروى أحمد ﷺ عن الصّمال بن عُمَير، قال: رأيتُ قَميص عليّ عليه السلام الّذي أُصيب فيه، وهو كَرابيس سبيلانيّ [1]، ورأيت دَمَه قد سَالَ عليه كالدّرديّ [2].

وروى أحمد ﷺ قال: لمـا أرسل عُثمان إلى عليّ عليه السلام، وجده مُؤْتَزِرًا بعباءة، محتَجِرًا بعِقال، وهو يَهْنَأ بعيرًا له.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية. (٩ : ٢٣٤ ـ ٢٣٦)

**(الخطبة: ١٦٤) الأصل: ... أَيَّتُهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الأَسْتَارِ، بُدِئْتَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تُحِيرُ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِن مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا ... .**

---

١ ـ الكرابيس : ثياب فارسيّة من القُطن ؛ و سبيلانيّ : لعلّها منسوبة إلى سبيلة ، موضع .

٢ ـ الدّرديّ : ما رسب من الزّيت في أسفل الإناء .

**الشّرح:** ... «إلى دار لم تشهدها»، يعني الدّنيا، ويقال: أشبه شيء بحال الانتقال من الدّنيا إلى الأحوال الّتي بعد الموت، انتقال الجنين من ظُلْمة الرَّحِم إلى فضاء الدّنيا، فلوكان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلّا الدّار الّتي هو فيها، ولا يشعر بما وراءها ولا يحسّ بنفسه إلّا وقد حصل في دار لم يعرفها، ولا تخطر بباله، فبقي هو كالحائر المبهوت وهكذا حالنا في الدّنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت.

ولقد أحسن ابن الرُّوميّ في صفة خطوب الدّنيا وصروفها بقوله [الطّويل]:

لِمَا تُؤْذِن الدّنيا به مِن صُروفها ... يكون بكاءُ الطِّفْلِ ساعَةَ يُولَدُ

وإلّا فما يبكيهِ منها وإنّها ... لأوْسَعُ ممّا كان فيه وأرْغَدُ!

إذا أبْصَرَ الدّنيا استَهلّ كأنّهُ ... بما سَوفَ يَلقَى مِنْ أذاها يُهدَّدُ

(٩ : ٢٥٩)

**(الخطبة: ١٧٤) الأصل: ... أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِن غَرَّتْكُمْ مِنهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنهَا، وَلَا يَخِنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنهُ مِنهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِن كِتَابِهِ.**

**أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِن دُنيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ، أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِن أَمْرِ دُنيَاكُمْ. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!**

**الشّرح:** ... ثمّ ذكر أنّ الدّنيا الّتي تغضب النّاس وترضيهم، وهي منتهى أمانيّهم ورغبتهم، ليست دراهم، وإنّما هي طريق إلى الدّار الآخرة، ومدّة اللّبث في ذلك

الطّريق يسيرة جدًّا.

وقال: إنّها وإن كانت غرّارة، فإنّها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما رأوه من آثارها في سَلَفهم وإخوتهم وأحبّائهم، ومناداتها على نفسها بأنّها فاعلة بهم ما فعلت بأُولئك من الفناء، وفراق المألوف.

قال: فدَعُوا غرورَها لتحذيرها، وذلك لأنّ جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورِها، لأنّ غرورَها إنّما هو بأمر سريع مع التّصرّم والانقضاء، وتحذيرها إنّما هو لأمرٍ جليل عظيم، فإنّ الفناء المعجّل محسوس، وقد دلّ العقل والشّرائع كافّة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة، فينبغي للعاقل أن يحذَر من تلك الشّقاوة، ويرغب في تلك السّعادة ولا سبيل إلى ذلك إلّا برَفْض غرور الدّنيا، على أنّه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللّبّ والبصيرة رَفْضُها، لأنّ الموجود منها خيال، فإنّه أشبه شيء بأحلام المنام فالتّمسّك به والإخلاد إليه حُمق ... .

ثمّ ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قِسْط من الدّنيا إذا حفظ قائمة دينه، يعني القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات، ولا ينفعه حصول الدّنيا كلّها بعد تضييعه دينه ، لأنّ ابتياع لذّة متناهية بلذّة غير متناهية يخرج اللّذّة المتناهية من باب كونها نفعًا، ويدخلها في باب المضارّ، فكيف إذا انضاف إلى عدم اللّذّة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية، أعاذَنا الله منها! (٩ : ٣٣١ ـ ٣٣٢)

**(الخطبة:١٩٧ ... إنَّ الدُّنيا تَغُرُّ المُؤَمِّلَ لَهَا وَالمُخلِدَ إلَيْهَا، وَلَاتَنفَسُ بِمَن نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَن غَلَبَ عَلَيْهَا ... .**

**الشّرح: ... المخلد: المائل إليها، قال تعالى: ﴿وَلٰكِنَّهُ اَخْلَدَ اِلَى الْاَرْضِ﴾[1].**

ولا تنفس بمن نافس فيها: لا تضنّ به، أي مَن نافس في الدّنيا فإنّ الدّنيا تهينه، ولا تضنّ به، كما يضنّ بالعلق النّفيس.

---

١ ـ الأعراف/ ١٧٦ .

ثمّ قال: «وتغلب مَنْ غلب عليها»، أي مَن غلب على الدّنيا مقاهرة فسوف تغلبه الدّنيا وتهلكه. (١٠ : ٦١)

**(الخطبة: ١٨٩) ... أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيَا، فإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ!**

**عِبَادَ اللهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، وَالْمُنقَلَبُ فَسِيحٌ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَاتَنتَظِرُوا قُدُومَهُ.**

**الشّرح:** ... ضرب عليه السلام لأهل الدّنيا مثلًا براكبي السّفينة في البحر، وقد مادَتْ بهم، فمنهم الهالك على الفور، ومنهم مَن لا يتعجّل هلاكه، وتحمله الرّياح ساعة أوساعات، ثمّ مآله إلى الهلاك أيضًا.

ثمّ أمر عليه السلام بالعمل وقت الإمكان قبل ألّا يمكن العمل، فكنى عن ذلك بقوله: والألسن منطلقة، لأنّ المحتضر يعتقل لسانه. والأبدان صحيحة، لأنّ المحتضر سقيم البدن. والأعضاء لدنة، أي لينة، أي قبل الشّيخوخة والهرَم ويبس الأعضاء والأعصاب ... .

قوله: «فحقّقوا عليكم نزوله، ولاتنتظروا قدومه»، أي اعملوا عمل مَن يشاهد الموت حقيقة، لا عمل مَن ينتظره انتظارًا ويطاول الأوقات مطاولة، فإنّ التّسويف داعية التّقصير. (١٠ : ١٧٧ ـ ١٧٨)

(الخطبة: ١٩٦) الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنيَا دارُ مَجَازٍ، والْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِن مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، ولَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِندَ مَن يَعْلَمُ أَسرَارَكُم، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنيَا قُلُوبَكُمْ مِن قَبْلِ أَن تَخْرُجَ مِنهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ.

إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلّٰهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضًا يَكُن لَكُمْ قَرْضًا، وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا فَيَكُونَ فَرْضًا عَلَيْكُمْ.

**الشّرح:** ذكر أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد في «الكامل»[1] عن الأصمعيّ، قال: خطَبنا أعرابيّ بالبادية، فحمد الله واستغفره ووحّده وصلّى على نبيّه ﷺ؛ فأبلغ في ايجاز، ثمّ قال: أيّها النّاس إنّ الدّنيا دار بَلاغ والآخرة دار قَرار، فخُذوا لمقرّكم من ممرّكم، ولاتهتكوا أستاركم عند مَن لا تخفى عليه أسراركم، في الدّنيا أنتم، ولغيرها خُلِقتم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والمصلّى عليه رسول الله والمدعوله الخليفة[2]، والأمير جعفربن سليمان.

وذكر غيره الزّيادة الّتي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي «إنّ المرء إذا هَلَك...» إلى آخر الكلام.

وأكثر النّاس على أنّ هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام.

ويجوز أن يكون الأعرابيّ حفظه فأورده كما يورد النّاس كلام غيرهم.

قوله عليه السلام: «دار مجاز» أي يجاز فيها إلى الآخرة، منه سمّي المجاز في الكلام مجازًا، لأنّ المتكلّم قد عَبر الحقيقة إلى غيرها، كما يَعْبر الإنسان من موضع إلى موضع. ودار القرار: دار الاستقرار الّذي لا آخر له. فخذوا من ممرّكم ـ أي من الدّنيا ـ لمقرّكم، وهو الآخرة.

قوله عليه السلام: «قال النّاس: ما ترك!» يريد أنّ بني آدم مشغولون بالعاجلة

---

١ ـ الكامل ٤: ١٠٨ (طبعة نهضة مصر).

٢ ـ يريد به أباجعفر المنصور؛ و قد ولّى ابن عمّه جعفربن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس المدينة سنة ستّ و أربعين و مائة.

لا يفكّرون في غيرها ولا يتساءلون إلّا عنها، فإذا هلك أحدكم فإنّما قولهم بعضهم لبعض ما الّذي ترك فلان من المال، ما الّذي خلف من الولد؟ وأمّا الملائكة؛ فإنّهم يعرفون الآخرة ولا تستهويهم شهوات الدّنيا وإنّما هم مشغولون بالذّكر والتّسبيح، فإذا هلك الإنسان، قالوا: ما قدّم؟ أي أيّ شيء قدّم من الأعمال؟ ثمّ أمرهم عليه السلام بأن يقدّموا من أموالهم بعضها صدقة، فإنّها تبقى لهم، ونهاهم أن يخلّفوا أموالهم كلّها بعد موتهم فتكون وبالًا عليهم في الآخرة. (١١ : ٣ ـ ٤)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... إِنَّمَا لَكَ مِن دُنيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِن كُنتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِن يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ، اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُن بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ ... مَن أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَن أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ ....**

الشّرح: ... قوله: «إنّما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك»، هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بن آدم ليس لك من مالك إلّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأبقيتَ».

وقال أبو العتاهيّة [الخفيف]:

ليس للمُتْعَبِ المُكادِحِ مِن دُنْـ ـيَاهُ إلّا الرّغيفُ والطِّمْرانِ[1]

قوله: «وإن كنت جازعًا على ما تفلّت من يديك، فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك»، يقول: لا ينبغي أن تجزع على ما ذهب من مالك، كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب، فإنّه لا فرق بينهما، إلّا أنّ هذا حصل، وذاك لم يحصل بعد، وهذا فرق غير مؤثّر، لأنّ الّذي تظنّ أنّه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة، وإنّما الحاصل على الحقيقة ما أكلتَه ولبستَه، وأمّا القنيات والمدخّرات فلعلّها ليست لك، كما قال الشّاعر [الطّويل]:

---

١ ـ الطّمران: تثنية طمر، وهو الثّوب الخلق البالي.

وذي إبلٍ يَسقَى ويحسِبها لـه أخي تَعَبٍ في رَعِيها ودُؤُوبِ
غدتْ وغدَا ربُّ سواه يسوقُها وبُدِّلَ أحجارًا وجالَ قَليبِ

ومنها قوله: «استدلّ على ما لم يكن بما كان، فإنّ للأُمور أشباهًا»، يقال: إذا شئت أن تنظر للدّنيا بعدك فانظرها بعد غيرك.

وقال أبو الطّيّب في سيف الدّولة [الطّويل]:

ذكِيٌّ تَظنّيهِ طَلِيعةُ عَيْنِهِ يرى قَلْبُهُ في يَومِهِ ما يَرَى غَدَا[1]

... ومنها قوله: «مَن أمن الزّمان خانَه، ومن أعظمه أهانَه»، مثل الكلمة الأُولى قول الشّاعر [الطّويل]:

ومَن يَأمَنِ الدّنيا يكن مِثلَ قابضٍ على الماءِ خانَتْهُ فروجُ الأنامِلِ

وقالوا: احْذَرِ الدّنيا ما استقامت لك. ومن الأمثال الحِكَميّة: «مَن أمن الزّمان ضَيَّع ثغرًا مَخُوفًا».

ومثل الكلمة الثّانيه قولهم: «الدّنيا كالأَمَة اللّئيمة المعشوقة، كلّما ازددت لها عشقًا وعليها تهالُكًا ازدادت إذلالًا، وعليك شطاطًا».

وقال أبو الطّيّب [الخفيف]:

وَهيَ معشوقةٌ على الغَدْرِ لاتَحْـ ـفَظُ عهـدًا ولاتُـتَمِّمُ وَصْـلَا
شِـيَمُ الغانيـاتِ فيهـا فـلا أدْ ري لِذَا أنّثَ اسمَها النّاسُ أمْ لَا

(١٦ : ١١٦)

## [ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة في ذمّ الدّنيا]

**(الخطبـة: ٢٢١) الأصـل: ومـن خطبـة لـه عليه السلام: دَارُ بَـلْبَلَاءٍ مَحْفُوفَـةٌ، وَبِالْغَـدْرِ مَعْرُوفَـةٌ، لَا تَـدُومُ أَحْوَالُهَـا، وَلَا يَسْـلَمُ نُزَّالُهَـا. أَحْـوَالٌ مُخْتَلِفَـةٌ، وَتَـارَاتٌ مُتَصَـرِّفَةٌ،**

---

١ ـ ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظني : التّظنّن ، و الطّليعة : الّذي يطلع القوم على العدوّ .

٢ ـ ديوانه ٣ : ١٣٠ .

الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَاعْلَمُوا! عِبَادَ اللهِ أَنَّكُم وَمَا أَنتُمْ فِيهِ مِن هَذِهِ الدُّنيَا عَلَى سَبِيلِ مَن قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّن كَانَ أَطْوَلَ مِنكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِن قُرْبِ الْجِوَارِ وَدُنُوِّ الدَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى!

وَكَأَن قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ، فَكَيْفَ بِكُمْ لَو تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ!: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

الشّرح: ... ومن كلام بعض البُلَغاء في ذمّ الدّنيا: أمّا بعد، فإنّ الدّنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرّفها، وأنبأت عن مَساوئها بما أظهرت عن مَصارع أهلها، ودلّت على عَوْراتها بتغيرّ حالاتها، ونَطَقَتْ ألسنةُ العِبر فيها بزَوالها، وشهد اختلافُ شؤونها على فنائها، ولم يَبْقِ لمرتاب فيها رَيْبٌ، ولا ناظر في عواقبها شكّ، بل عَرَفها جَلّ مَن عرفها معرفة يقين، وكشّفوها أوضح تكشيف، ثمّ اختلجتْهم الأهواء عن منافع العلم، ودلّتهم الآمال بغرور، فلجّجت بهم في غَمَرات العجز، فسبحوا في بُحورها مُوقنين بالهَلَكة، ورتعوا في عِراصها عارفين بالخِدْعة، فكان يقينُهم شكًّا، وعِلْمُهم

---

١ ـ يونس / ٣٠ .

جهلًا، لا بالعلم انتفعوا، ولا بما عاينوا اعتبروا ، قلوبهم عالمة جاهلة، وأبدانهم شاهدة غائبة حتّى طرقتهم المنيّة، فأعجلتهم عن الأُمنيّة، فبغتتهم القيامة، وأورثتهم النّدامة، وكذلك الهَوَى حَلَت مَذاقَتُه، وسمّت عاقبتُه والأملُ يُنسِي طويلًا، ويأخذ وَشيكًا، فانتفع امرؤ بعِلْمه، وجاهد هَواهُ أن يُضلّه، وجانب أمله أن يغرّه، وقَوِي يقينه على العمل، ونفى عنه الشّكّ بقطع الأمل، فإنّ الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صَرَعاه، وإذا تَعاونَا على ذي غفلة خَدَعاه، فصريعهما لا ينهض سالمًا، وخديعهما لا يزال نادمًا، والقويُّ مَن قَوِيَ عليهما، والحازم مَنِ احترس منهما. أَلْبَسَنَا الله وإيّاكم جُنَّةَ السّلامة، ووَقَانَا وإيّاكم سوءَ العذاب.

كان عمر بن عبد العزيز إذا جَلَس للقضاء قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[1].

قال منصور بن عمّار لأهل مجلسه: ما أرى إساءة تكبُر على عفوالله فلا تيأس، وربّما آخذ الله على الصّغير فلا تأمن، وقد علمتَ أنّك بطول عفوالله عنك عمّرت مجالس الاغترار به، ورضيت لنفسك المقام على سَخَطه، ولوكنت تعاقِبُ نفسك بقدر تجاوُزه عن سيّئاتك، ما استمرّ بك لجاج فيما نُهيتَ عنه، ولاقصرت دون المبالغة فيه، ولكنّك رَهين غفلتك وأسير حَيْرتك.

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب: قَدِمَ علينا بعبّادان راهبٌ من الشّام، ونزل دير ابن أبي كَبْشة، فذكروا حكمة كلامه، فحملني ذلك على لقائه، فأتيته وهو يقول: إنّ لله عبادًا سَمَتْ بهم هِمَمُهم فهوُوا عظيم الذّخائر، فالتمسوا من فَضْل سيّدهم توفيقًا يُبْلِغُهم سُمُوًّا لهِمَم، فإن استطعتم أيّها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعض أمرهم، فإنّهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبَهم، فلم تجد الدّنيا فيها ملبسًا، فالحزن بثّهم، والدّمع راحتهم، والدّؤوب وسيلَتُهم، وحُسن الظّنّ قُربانهم، يحزنون بطول المكث في الدّنيا إذا فرح أهلها، فهم فيها مسجونون، وإلى الآخرة منطلقون.

---

١ ـ الشّعراء / ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

فما سمِعتُ موعظةً كانت أنفع لي منها.

ومِن جيّد شِعْر أبي نواس في الزّهد [مجزوء الخفيف][1]:

يا بَنِي النَّقْصِ والغِيَرْ ... وبَـنِي الضَّـعْفِ والخَـوَرْ

وبَنِي البُعْدِ في الطِّبا ... عِ على القُرْبِ في الصُّوَرْ

والشُّـكولِ الّـتي تَبـا ... يَـنُ في الطُّـولِ والقِصَـرْ

أينَ مَن كان قَبْلَكُمْ ... مِن ذَوِي البأسِ والخَطَرْ

سـائِلوا عـنهمُ المَـدَا ... ئِـنَ واسـتَبْحِثُوا الخَبَـرْ

سَـبَقُونا إلى الرَّحِيـ ... ـلِ وإنَّـا لَبِـالْأَثَرْ

مَـن مَضَـى عِبرَةٌ لنا ... وغـدًا نَحـنُ مُعْتَبَـرْ

إنّ للمـوتِ أخْـذَةً ... تَسْـبِقُ اللّمْـحَ بالبَصَـرْ

فكـأنّي بكـمْ غَـدًا ... في ثيـابٍ مِـنَ المَـدَرْ

قد نُقِلْتُمْ مِنَ القُصُو ... رِ إلى ظُلْمَـةِ الحُفَـرْ

حَيْث لاتُضْرَبُ القِبا ... بُ عليـكمْ ولاالحَجَـرْ

حيث لاتطربون مِنْـ ... ـهُ للّهْـو ولاسَمَـرْ[2]

رَحِـمَ اللهُ مُسْـلِمًا ... ذَكَـرَ المـوتَ فـازْدَجَرْ

رَحِـمَ اللهُ مُؤْمِنًـا ... خافَ فاسْتَشْعَرَالحَذَرْ

ومن جيّد شعر الرّضيّ أبي الحسن ﷺ في ذكر الدّنيا وتقلّبها بأهلها [المتقارب][3]:

---

١ ـ ديوانه: ١٩٥.

٢ ـ رواية الدّيوان: حيث لاتَظهَرون فيـ ... ـها لِلهْوٍ ولا سَمَرْ

٣ ـ ديوانه: لوحة ٧١١، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا عليّ الحسن بن جعفر.

وهل نحن إلّا مرامي السِّهـا ... مِ يَحْفِزُهَـا نابـلٌ دائِـبُ[١]
نُسَـرُّإذا جازنـا طـائِشٌ ... ونجـزعُ إن مَسَّـنا صـائِبُ
فـفي يومِنـا قَـدَرٌ لابِـدُ ... وعِنْـدَ غَـدٍ قَـدَرٌ واثِـبُ[٢]
طرائـدُ تطردُهـا النّائبـات ... ولابُـدّ أن يُـدرِكَ الطّالِـبُ
أرى المرءَ يفعلُ فِعْلَ الحديـ ... ـدِ وهـو غـدًا حَمَـأ لازِبُ[٣]
عَواريُّ مِن سَلَبِ الهالِكِين ... يَمُـدُّ يَـدًا نَحْوَهـا السّـالِبُ
لنـا بـالرّدَى مَوْعِـدٌ صـادقٌ ... ونَيْـلِ المُـنَى مَوعِـدٌ كـاذِبُ
حَبائـلُ للـدَّهْرِ مَبْثوثـةٌ ... يُـرَدّ إلى جَـذْبِها الهـارِبُ
وكَيـفَ نُجـاوِزُ غاياتِنـا ... وقـد بَلَـغَ المَـوْرِدَ القـارِبُ[٤]
نُصبِّـحُ بالكأسِ مَجدحَـةً[٥] ... ذُعَافًا، ولايعلم الشّـارِبُ[٦]

وقال أيضًا وهي من محاسن شعره [الخفيف]:

مـا أقـلّ اعتبارَنـا بالزّمـانِ ... وأشـدّ اغترارَنـا بالأمـاني![٧]
وقفـاتٌ عـلى غـرورٍ، وأقـدا ... مٌ عـلى مَزْلـقٍ مِـنَ الحَـدَثَانِ
في حُـروبٍ مع الـرَّدَى فكأنّـا الـ ... ـيومَ في هُدْنَـةٍ مـع الأزمـانِ
وكفانـا مـذكِّرًا بالمنايـا ... عِلْمُنـا أنّنـا مـن الحَيَـوانِ

---

١ ـ النّابل: صاحب النّبل. و الدّائب: المجدّ.

٢ ـ لابد: مقيم.

٣ ـ الحمأ: الطّين الأسود المنتن. و اللّازب: الصّلب اللّازق.

٤ ـ المورد: مكان ورود الماء. و القارب: الّذي يطلب الماء.

٥ ـ نصبّح: نُوْتَى بها وقت الصّبح. و مجدوحة: مخلوطة.

٦ ـ رواية الدّيوان: * و لا علم لي أيّنا الشّاربُ *

٧ ـ ديوانه: لوحة ١٥٥، يرثي صديقًا له من بني العبّاس اسمه أبو عبد الله بن الإمام.

كـــلّ يـــومٍ رَزيّـــةٌ بفـــلانٍ ... ووقـــوعٌ مـــن الـــرَّدَى بفُـــلانِ
كـم تَـراني أضِـلّ نَفسًـا وأهْـو ... ـي فكـأنّي وَثِقْـتُ بالوجـدانِ
قُلْ لهذي الهوامل استوقِفِي السَّيـ ... ـرَ أو استَنشِدي عن الأظْعَانِ
واستقيمي قد ضَمَّك اللَّقَم النَّهـ ... ـج وغَـنِيٌّ وراءك الحادِيـانِ[1]
كم مَحيدًا عن الطّريق وقدضَـرْ ... رَحَ خَلْجُ البُرَى وجذب العِرَانِ
ننثني جازعين من عَدْوة الدّهـ ... ـرِ ونرتـاع للمنايـا الـرَّوَانِي
جفلة السِّرب في الظَّلامِ وقد ذُعـ ... ـذعَ روعًا من عَدْوة الذِّؤبانِ
ثمّ تَنسَى جرحَ الحِمَامِ وإن كا ... نَ رَغيبًا يا قُرْب ذا النّسيانِ!
كـلّ يَـوْمٍ تزايـلٌ مـن خَلـيطٍ ... بـالرَّدَى أو تباعـدٌ مـن دانِ[2]
وسواء مضـى بنـا القدر الجِـدْ ... ـدِ عَجُولًا أو ماطل العَصْرانِ

وأيضًا من هذه القصيدة [الخفيف]:

قد مَرَرْنَا على الدّيار خُشوعًا ... ورأينـا البِـنَى، فـأين البَـاني!
وجَهِلْنَـا الرُّسـومَ ثمّ عَلِمْنَـا ... فـذَكَرْنا الأوطـارَ بالأوطـانِ
التفاتًـا إلى القـرونِ الخَـوالي ... هل تَرَى اليومَ غيرَ قَرْنٍ فَانِ
أيـنَ رَبُّ السَّـديرِ فالحيرةالبَيْـ ... ـضاء أمْ أينَ صاحبُ الإيوانِ
والسّيوفُ الحدادُ مِن آلِ بَدْرٍ ... والقَنا الصَّمُّ مِن بَنِي الرَّيّانِ
طَرَدَتْهُمْ وقائعُ الدَّهْرعن لَعْـ ... ـلَعَ طَرْدَ السِّفَافِ عن نَجْرانِ
والمواضِي من آلِ جَفْنةَ أرْسَى ... طُنُبًا مُلْكُهُمْ على الجَولَانِ

---

١ ـ اللَّقَم : معظم الطّريق .

٢ ـ الخليط : الصّديق . والدّاني : القريب .

يكرعـونَ العُقـارَ في فَلَـقِ الإبـ ـريزِ كَرْعَ الظِّماءِ في الغُدْرَانِ[١]
مِنْ أباةِ اللّعْنِ الّذينَ يُحَيَّوْ نَ بهـا في مَعَاقِـدِ التّيجـانِ
تَتَـراءاهُمُ الوُفُـودُ بعيـدًا ضـارِبينَ الصُّـدُورَ بالأذقـانِ
في رِياضٍ مِنَ السَّماحِ حَوَالٍ وجِبـالٍ مِـنَ الحُلُـومِ رِزانِ
وهُـمُ المـاءُ لَـذَّ للنّاهـلِ الظّمْـ ـآنِ بَـرْدًا والنّـارُ للحِيـرانِ
كُـلّ مُسْـتَيْقظِ الجَنَـانِ إذا أظْـ ـلَمَ لَيْـلُ النّوامـةِ المِبْطَـانِ
يَغْتَدِي في السِّبابِ غيرَ شُجاعٍ ويُـرَى في النِّـزَالِ غيـرَ جَبـانِ
ما ثَنَتْ عَنْهُمُ المَنونَ يدًا شَوْ كَـاءُ أطرافُهـا مِـنَ المُـرّانِ[٢]
عَطَـفَ الـدّهْرُ فَـرْعَهُمْ فـرآهُ بَعْدَ بُعْدِ الذّرَى قَرِيبَ المَجَانِي
وثَنَـتْهُمْ بَعْـدَ الجِمـاحِ المَنَايَـا في عِنـانِ التّسـلِيمِ والإذعـانِ
عُطّلَتْ منهمُ المَقارِي وباخَتْ في حِمـاهُمْ مَواقِـدُ النّيـرانِ[٣]
لَيسَ يَبْقَى على الزّمان جَرِيءٌ في إبـاءٍ أو عـاجِزٌ في هَـوَانِ
لا شُـبُوبٌ مِنَ الصُّوارِ ولا أعْـ ـنَقُ يَرْعَـى مَنابِـتَ العُلْجَـانِ
لا ولا خاضِـبٌ مِنَ الزُّبْـدِ يختا لُ بِـرَيْطٍ أحـمَّ غَيْـرِ يَمَـانِ[٤]
يَرْتَمِـي وُجْهَـةَ الرّئـالِ إذا آ نَـسَ لَـونَ الإظلامِ والإدجـانِ
وعُقـابُ المَـلاعِ تُلحِـمُ فَرْخَيْـ ـهَا بإزليقـةٍ زَلُـولِ القِنَـانِ
نـائلًا في مَطـامِحِ الجَـوِّ هاتِيْـ ـكَ وذا في مَهـابِطِ الغِيطـانِ

---

١ ـ الفلق : القطعة من الجفان .

٢ ـ المرّان : الرّماح .

٣ ـ باخت : خمدت .

٤ ـ الرّيط : جمع ريطة .

وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربيّة.

ومن شعره الجيّد أيضًا في ذكر الدّنيا ومصائبها [أحذ الكامل][1]:

أوَ مَـا رأيـتَ وقـائعَ الـدَّهْرِ ... أفَـلَا تُسِـيءُ الظّـنَ بـالعُمْرِ

بَيْنَـا الفَـتَى كـالطَّوْدِ تَكْنُفُـهُ ... هَضَباتُهُ، والعَضْبِ ذي الأثْرِ

يَـأْبَى الدّنيّـةَ في عَشـيرتِهِ ... ويُجاذِبُ الأيدي على الفَخرِ

وإذا أشَـارَ إلى قَبائِلِـه ... حَشَـدَتْ عليـه بِأوجُـهٍ غُـرِّ

يَترادفـونَ عـلى الرِّمـاحِ فَهُـمْ ... سَـيْلٌ يَعُـبُّ وعـارِضٌ يَسْـرِي

إن نَهْنَهُـوا زادُوا مقارَبَـةً ... فكأنّمـا يَـدْعُونَ بـالزَّجْرِ

عَـدَدُ النّجـومِ إذا دُعِـي بِهِـمُ ... يَتَزاحَمُـون تَـزاحُمَ الشَّـعْرِ

عَقَـدُوا عـلى الجُـلّى مـآزِرَهُمْ ... سَـبْطى الأناملِ طَيّبي النَّشْرِ

زَلّ الزّمـانُ بِـوَطْءِ أخْمَصِـهِ ... ومَـوَاطِئُ الأقـدامِ للعَثْـرِ

نَـزَعَ الإبـاءَ وكـان شَمْلَتَـهُ ... وأقَـرَّ إقـرارًا عـلى صُـغْرِ

صَـدْعُ الرَّدَى، أعْيَـا تَلَاحُمُـهُ ... مَـنْ ألحَـمَ الصّـدَفَينِ بـالقِطْرِ

جَرَّ الجِيادَ على الوَجَى ومَضَى ... أمَمًـا يَـدُقّ السَّـهْلَ بـالوَعْرِ

حتّى الْتَقَى بالشّمس مَغْمَدُهُ ... في قَعْـرِ مُنقطـعٍ مِـنَ البَحْـرِ

ثمّ انثَنَـتْ كَـفُّ المَنُـونِ بِـهِ ... كالضِّـغْثِ بَينَ النّابِ والظُّفْرِ

لَمْ تَسْـتَجِرْ عنـه الرِّمـاحُ ولا ... ردّ القضـاءَ بمالِـهِ الـدَّثْرِ

جَمَـعَ الجُنُـودَ وَرَاءَهُ فكأنّمـا ... لاقَتْـهُ وَهْـوَ مُضَـيَّعُ الظَّهْـرِ

وبَـنَى الحُصُـونَ تمنُّعًـا فكأنّمـا ... أمسَـى بمضـيَعةٍ ومـا يـدْرِي

---

١ ـ من قصيدةٍ يرثي بها أباالحسن عبدالله بن محمّد، ديوانه، لوحة ١٣٢.

وبَرَى المَعَابِلَ للعَدَى فكأنّما لِحمامِهِ كان الّذي يَبْرِي
إنّ التَّوَقِّي فَرْطُ مُعجِزَةٍ فَدَع القَضاءَ يَقُدّ أو يَفْرِي
وحمى المطاعِم للبقاءِ وذي الـ آجال مِلْءُ فُرُوجِها تَجْرِي
لوكان حِفْظُ النّفسِ يَنفَعُنَا كان الطّبيبُ أحقّ بالعُمْرِ
المـوتُ داءٌ لا دَوَاءَ لَـهُ سِيّانِ ما يوبي وما يمرِي

وهذا من حرّ الكلام وفصيحه ونادره، ولاعجب فهذه الورقة من تلك الشّجرة، وهذا القَبَس من تلك النّار. (١١ : ٢٥٩ ـ ٢٦٦)

(الخطبة: ٢٣٧) ... وَلَاتَضَعُوا مَن رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلَاتَرْفَعُوا مَن رَفَعَتْهُ الدُّنيَا، وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلَاتَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَاتُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلَاتَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ.

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ. حَالُهَا انتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ.

دَارُ حَرَبٍ وَسَلَبٍ، وَنَهَبٍ وَعَطَبٍ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ؛ فَمِن نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَن عَزْمِهِ.

وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنيَا لِحَالِ بَالِهَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1].

**الشّرح:** ... ثمّ شرع في ذكر الدّنيا ... قال :«حالها انتقال»، يجوز أن يعني به أنّ شيمتَها وسجيّتها الانتقال والتّغيّر، ويجوز أن يريد به معنى أدقّ وهو أنّ الزّمان على ثلاثة أقسام: ماضٍ، وحاضر، ومستقبل، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن، وإنّما الموجود أبدًا هو الحاضر، فلمّا أراد المبالغة في وصف الدّنيا بالتّغيّر والزّوال، قال: «حالها انتقال»، أي أنّ الآن الّذي يحكم العُقَلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة، بل هو سيّال متغيّر، فلا ثبوت إذًا لشيء منها مطلقًا ... .

ثمّ وصف أحوال الدّنيا، فقال:«هم فِن ناجٍ معقور»، أي مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه وقد جرح بدنه ... .

ومرتفق بخدَّيه جاعل لهما على مرفقَيه فكرًا وهمًّا.

وزار على رأيه، أي عائب، أي يرى الواحد منهم رأيًا ويرجع عنه ويعيبه، وهو البداء الّذي يذكره المتكلّمون، ثمّ فسّره بقوله: «وراجع عن عزمه».

فإن قلتَ: فهل يمكن أن يُفرّق بينهما، ليكون الكلام أكثر فائدة؟

قلتُ: نعم، بأن يريدَ بالأوّل مَن رأى رأيًا وكشفه لغيره وجامعه عليه ثمّ بدا له وعابه، ويريد بالثّاني مَن عزم نفسه عزمًا ولم يظهر لغيره ثمّ رجع عنه، ويمكن أيضًا بأن يفرّق بينهما بأن يعني بالرّأي: الاعتقاد، كما يقال: هذا رأي أبي حنيفة، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك، وهو: ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه، ولا يقال: عزم في الاعتقادات ... .

قوله عليه السلام: «ومضت الدّنيا لحال بالهَا»، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرًا، وإن كان شرًّا.

قوله عليه السلام: «فما بكت عليهم السّماء»، هو من كلام الله تعالى، والمراد أهل السّماء وهم الملائكة، وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى: أنّهم لا يستحقّون أن يتأسّف

---

١ ـ الدّخان / ٢٩ .

عليهم. وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم، لأنّ العرب كانت تقول في العظيم القدر يموت: بَكَتْه السّماء، وبَكَتْه النّجوم، قال الشّاعر[البسيط]:

فالشَّمسُ طالِعةٌ لَيسَتْ بكاسِفَةٍ تَبْكي عَلَيكَ نجومُ اللّيلِ والقَمَرا[1]

فنفى عنهم ذلك، وقال: ليسوا مَن يقال فيه مثل هذا القول، وتأوّلها ابن عبّاس ﷺ لمّا قيل له: أتبكي السّماء والأرض على أحدٍ؟ فقال: نعم، يبكيه مصلّاه في الأرض ومصعد عمله في السّماء، فيكون نفي البكاء عنهما كناية عن أنّه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السّماء. (١٣: ١٢٢ ـ ١٢٦)

**(كتابه عليه السلام: ٢٢) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى، وكان عبد الله يقول: «ما انتفعتُ بكلامٍ بعد كلام رسول الله كانتفاعي بهذا الكلام!»:**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِن آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنهَا، وَمَا نِلْتَ مِن دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلْيَكُن هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.**

**الشّرح:** يقول: إنّ كلّ شيء يصيب الإنسان في الدّنيا مِن نَفْعٍ وضَرٍّ، فبقضاءٍ من الله وقَدَره تعالى، لكنّ النّاس لا ينظرون حقّ النّظر في ذلك، فيُسَرّ الواحد منهم بما يصيبه من النّفع، ويُسَاءُ بفَوْت ما يفوته منه، غيرُ عالِم بأنّ ذلك النّفع الّذي أصابه كان لابدّ أن يصيبه، وأنّ ما فاته منه كان لا بدّ أن يفوته، ولو عَرَف ذلك حقّ المعرفة لم يَفْرَح ولم يحْزَن.

**ولقائل أن يقول:** هَبْ أنّ الأُمور كلّها بقضاءٍ وقَدَرٍ، فلم لاينبغي للإنسان أن يَفرَح بالنّفع وإن وَقَع بالقَدَر، ويُساءَ بفَوْته أو بالضّرر وإن وَقَعَا بقَدَرٍ! أليس العُرْيان يُساء

---

١ ـ لجرير، ديوانه: ٣٠٤.

بقُدوم الشِّتاء وإن كان لابدّ من قُدُومه، والمحمومُ غِبًّا يساء بتجدّد نَوبة الحُمَّى وإن كان لابدّ من تجدُّدها! فليس سبب الاختيار في الأفعال ممّا يوجب أن لايُسَرّ الإنسان ولا يساء بشيء منها.

**والجواب:** ينبغي أن يُحمَل هذا الكلام على أنّ الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرِّزق أنّه أتاه بسَعْيه وحَرَكته فيَفْرَح مُعْجبًا بنفسه، معتقدًا أنّ ذلك الرِّزْق ثمرةُ حركته واجتهاده، وكذلك ينبغي ألّا يساء بفَوات ما يفوته من المنافع لائمًا نفسَه في ذلك ناسبًا لها إلى التّقصير وفساد الحيلة والاجتهاد، لأنّ الرِّزْق هو مِنَ الله تعالى، لا أثَر للحركة فيه وإن وقع عندها، وعلى هذا التّأويل ينبغي أن يُحمَل قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

من النّظم الجيّد الرّوحانيّ في صفة الدّنيا والتّحذير منها، والوَصاة بترك الاغترار بها، والعمل لما بعدها، ما أورده أبو حيّان في كتاب «الإشارات الإلهيّة»، ولم يُسَمِّ قائله:

دارُ الفجائعِ والهُمومِ وَدَا ... رُ البَثِّ والأحْزانِ والبَلْوَى
مُزُ المذاقةِ غبُّ ما احتَلَبَتْ ... منها يَداكَ وبيَّةُ المَرْعَى
بَيْنَا الفَتَى منها بمنزلةٍ ... إذْ صارَ تحتَ تُرابِها مُلْقَى
تَقْفو مَساوِيها محاسِنُها ... لا شيء بين النَّعْيِ والبُشْرَى
ولقَلّ يَوْمٌ ذَرَّ شارِقُهُ ... إلّا سمعتَ بهالِكٍ يُنعَى
لاتَعتبَنَّ على الزّمانِ لِمَا ... يَأتِي به فَلَقلّمَا يَرْضَى
للمَرْءِ رِزْقٌ لايَفُوتُ ولو ... جَهَدَ الخلائِقُ دُونَ أن يَفْنَى

---

١ ـ الحديد / ٢٢ ـ ٢٣.

يـا عـامِرَ الـدّنيا المُعِـدّ لهـا ... ماذا عَمِلْتَ لدارِكَ الأُخْرَى!
ومُمهِّـد الفُـرُشِ الوَطيئـةِ لا ... تُغفِلْ فِراشَ الرَّقْدةِ الكُبْرَى
لَوْ قَدْ دُعِيتَ لَقَدْ أجَبْتَ لِمَا ... تُدْعَى لَهُ فانظُرْ مَتَى تُدْعَى!
أتراكَ تُحْصِي كَمْ رأيْتَ مِنَ الْـ ... أحْيَـاءِ ثُمَّ رأيْـتَهُمْ مَـوْتَى
مَـن أصبحتْ دُنيـاهُ هِمَّتَـهُ ... فَمَتَى ينالُ الغايةَ القُصْوَى!
سُبْحانَ مَن لا شيء يَعْدِلُهُ ... كَمْ مِن بَصِيرٍ قَلْبُهُ أعْمَى!
والمـوتُ لا يخْفَى عـلى أحَـدٍ ... ممّـنْ أرَى وكأنّـهُ يخْفَى
واللّيـلُ يَـذْهَبُ والنّهـارُ بِأحْـ ... ـبابي، ولَيْسَ عَلَيهما عَدْوَى

(١٥ : ١٤١ ـ ١٤٢)

(كتابه عليه السلام: ٢٧) ... وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنيَا فِي دُنيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُم أَهْلُ الدُّنيَا فِي آخِرَتِهِمْ، سَكَنُوا الدُّنيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انقَلَبُوا عَنهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنيَا فِي دُنيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِن لَذَّةٍ ... .

**الشّرح:** ... ثمّ ذكر حال الزُّهّاد، فقال: «أخذوا من الدّنيا بنصيبٍ قويّ، وجعلت لهم الآخرة»، ويُرْوَى أنّ الفُضَيل بن عِياض كان هو ورفيق له في بعض الصّحارى، فأكلا كسرةً يابسةً، واغترفا بأيديهما ماء من بعض الغُدْران، وقام الفُضَيل فحطّ رِجْليه في الماء، فوجد بَرْدَه، فالتذّ به وبالحال الّتي هو فيها، فقال لرفيقه: لوعَلِم الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش واللّذّة لحَسَدونا ... .

قوله: «جيران الله غدًا في آخرتهم»، ظاهر اللّفظ غير مراد، لأنّ البارئ تعالى ليس

في مكان وجهة ليكونوا جيرانه، ولكن لما كان الجار يُكرِم جارَه سَماهم جيران الله، لإكرامه إيّاهم، وأيضًا فإنّ الجَنّة إذا كانت في السّماء والعرش هو السّماء العليا، كان في الكلام محذوف مقدّر، أي جيران عرش الله غدًا ... . (١٥ : ١٦٥)

## [أقوال حكيمة في وَصْف الدّنيا وفَناءِ الخَلْقِ]

(كتابه عليه السلام: ٣١) ... يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ أَنبَأْتُكَ عَنِ الدُّنيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانتِقَالِهَا، وَأَنبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وتَحْذُو عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَن خَبَرَ الدُّنيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ، نَبَا بِهِمْ مَنزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنزِلًا خَصِيبًا وَجَنَابًا مَرِيعًا، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ أَلَمًا، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِن مَنزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِن مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِندَهُمْ مِن مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ ... .

وَاعْلَمْ! يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي مَنزِلِ قُلْعَةٍ، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنجُو مِنهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُن مِنهُ عَلَى حَذَرٍ أَن يُدْرِكَكَ وَأَنتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ، أَكْثِرْ مِن ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ.

وَإِيَّاكَ أَن تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِن إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ

اللهُ عَنهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَن نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَن مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا.

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَن مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَن قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَن أَسْرَعَ أَن يَلْحَقَ!

**الشّرح:** ... يقول: مَثَل مَن عرف الدّنيا وعمل فيها للآخرة، كمَن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب، فلقي في طريقه مشقّة، فإنّه لا يكترث بذلك في جنب ما يطلب، وبالعكس مَن عَمِل للدّنيا وأهمل أمر الآخرة، فإنّه كمن يسافر إلى منزل ضَنك ويهجر منزلًا رحيبًا طيّبًا، وهذا مِن قول رسول الله ﷺ: «الدّنيا سِجْن المؤمن وجنّة الكافر» ... .

**واعلم!** أنّا قدّمنا في وصف الدّنيا والفَناء والموت من محاسن كلام الصّالحين والحكماء ما فيه الشّفاء، ونذكر الآن أشياء أُخَر.

فمن كلام الحسن البَصْريّ: يا بْن آدم، إنّما أنت أيّام مجموعة، فإذا مضى يوم مضى بعضك.

عن بعض الحكماء: رَحِمَ الله امرأً لا يغرّه ما يَرى من كثرة النّاس، فإنّه يموت وحده، ويقبر وحده، ويحاسَبُ وحده.

**وقال بعضهم:** لا وَجْهَ لمقاساة الهُموم لأجْل الدّنيا ولا الاعتداد بشيءٍ من مَتاعِها، ولا التّخلّي منها، أمّا ترك الاهتمام لها، فمِن جهة أنّه لا سبيل إلى دفع الكائن من مقدورها، وأمّا ترك الاعتداد بها، فإنّ مرجع كلّ أحدٍ إلى تركها، وأمّا ترك التّخلّي عنها، فإنّ الآخرة لا تُدرَك إلّا بها.

**ومن كلام بعض الحكماء:** أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدّنيا، وقد تقدّمت الحجّة أُذِنًا بالرّحيل، ولنا من الدّنيا على الدّنيا دليل، وإنّما أحدنا في مدّة بقائه صريع لمرض، أو مُكْتَئِب بهمّ، أو مَطْروق بمصيبة، أو مترقّب لمخوف. لايأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه، ولايأمن مملوكه وجاريته أن يقتلاه بحَديدٍ أو سَمّ، وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عَقْله من زَوالٍ، وسَمْعه من صَمَمٍ، وبَصَره من عَمًى، ولسانه من خَرَسٍ، وسائر جوارحه من زَمانةٍ، ونَفْسه من تَلَفٍ، وماله من بوارٍ، وحَبيبه من فراقٍ، وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعيّة أنّه فقير إلى ربّه، ذليل في قبضته، محتاج إليه. لايزال المرء بخير ما حاسب نفسه وعمّر آخرته بتخريب دنياه، وإذا اعترضته بحار المكاره، جعل معابرها الصّبر والتّأسّي، لم يغترّ بتتابع النِّعَم، وإبطاء حلول النِّقَم، وأدام صُحْبة التّقى، وفَطَم النّفس عن الهَوَى، فإنّما حياته كبضاعةٍ ينفق من رأس المال منها، ولايمكنه أن يزيد فيها، ومِثْل ذلك يوشك فَناؤه وسرعة زواله.

وقال أبو العتاهيّة في ذِكْر الموت [مجزوء الكامل]:

سَتُباشِرُ التَّرباءُ خَدَّكْ ... وسَيَضْحَكَ البَاكُونَ بَعْدَكْ[1]

ولَيَنزِلَنَّ بك البِلَى ... ولَيخلفنّ الموت عَهْدَكْ

ولَيُفْنِيَنَّك مِثْل ما[2] ... أفنَى أَبَاكَ بِلًى وجدَّكْ[3]

لو قد رَحَلْتَ عَنِ القُصُو ... رِ وطِيبِها وسَكَنتَ لَحْدَكْ[4]

لَمْ تَنتَفِعْ إلّا بِفِعْـ ... ـلٍ صالحٍ قد كانَ عِندَكْ

---

١ ـ ديوانه: ٨٦، ٨٧، والتّرباء: التّراب، ورواية الدّيوان: * لتباشِرُ الأجْداث وَخدَكْ *

٢ ـ الدّيوان: «بالّذي».

٣ ـ الدّيوان: «به وجدّك».

٤ ـ الدّيوان: لو قد ظَعَنتَ عن البيو ... تِ ودَوْحِها وسَكَنتَ لَحْدَكْ

وتَرَى الّذينَ قَسَمْتَ مَا لَـكَ بينهمْ حصصًـا وكَـذَّكْ
يَتَلَـذَّذُون بِمَـا جَمَعْـ ـتَ لَهُـمْ ولايَجِـدُونَ فَقْـدَكْ

(١٦ :٨٣ و٩١ ـ ٩٣)

**(كتابه عليه السلام: ٤٩) الأصل: ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضًا:**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنيَا مَشْغَلَةٌ عَن غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا، وَلَهَجًا بِهَا، وَلَن يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنهَا، وَمِن وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ! لَواعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.**

**الشّرح:** هذا كما قيل في المَثَل: صاحب الدّنيا كشارب ماء البحر، كلّما ازداد شُرْبًا ازداد عَطَشًا، والأصل في هذا قول الله تعالى: «لوكان لابن آدم وادِيَانِ مِن ذَهَبٍ لا بتغَى لهما ثالثًا، ولايملأ عين ابن آدم إلّا التّراب»، وهذا من القرآن الّذي رُفِعَ ونُسِخَت تلاوتُه.

ومعنى قوله عليه السلام: «لواعتبرت بما مضى حفظت ما بَقِيَ» أي لواعتبرت بما مَضَى من عمرك لحفظت باقيَه أن تنفقه في الضّلال وطلب الدّنيا وتضيّعه. (١٧ : ١٤ـ ١٥)

**(كتابه عليه السلام: ٥٥) الأصل: ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية:**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَسْنَا لِلدُّنيَا خُلِقْنَا، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا، وَقَدِ ابْتَلَانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ، فَعَدَوْتَ عَلَى الدُّنيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي، وَعَصَيْتَهُ أَنتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ ....**

**الشّرح:** قال عليه السلام: «إنّ الله قد جعل الدّنيا لما بعدها»، أي جعلها طريقًا إلى الآخرة.

ومن الكلمات الحكميّة: الدّنيا قَنطرةٌ فاعْبروها ولا تعمروها.

وابتلى فيها أهلها أي اختبرهم ليعلم أيّهم أحسن عملًا، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز... وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدّم، قال: «ولَسْنا للدّنيا خُلِقْنا» أي لم نُخلَق للدّنيا فقط. قال: «ولا بالسّعي فيها أمرنا»، أي لم نُؤمَر بالسّعي فيها لها، بل أُمِرنا بالسّعي فيها لغيرها.

ثمّ ذكر أنّ كلّ واحد منه ومن معاوية مُبتلًى بصاحبه، وذلك كابتلاء آدم بإبليس وإبليس بآدم .... (١٧ : ١٣٥ ـ ١٣٦)

**(كتابه عليه السلام: ٦٨) الأصل: ومن كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسيّ رحمه الله قبل أيّام خلافته:**

**أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنيَا مَثَلُ الحَيَّةِ؛ لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سُمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنهَا، وَضَعْ عَنكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنتَ بِهِ مِن فِرَاقِهَا، وتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا، وَكُن آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونَ مِنهَا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنهُ إِلَى إِيحَاشٍ، وَالسَّلَامُ.**

**الشّرح:** ... فأمّا ألفاظ الفصل ومعانيه فظاهرة، وممّا يُناسِب مضمونه، قول بعض الحكماء: تَعَزّ عن الشّيء إذا منعته، بقلّة صحبته لك إذا أُعطيتَه.

**وكان يقال:** الهالك على الدّنيا رجلان: رجلٌ نافس في عِزّها، ورجل أنِفَ مِن ذُلّها.

ومرّ بعض الزُّهّاد بباب دارٍ وأهلها يبكون مَيّتًا لهم، فقال: واعجبا لقومٍ مسافرين! يبكون مسافرًا قد بلغ منزله!

وكان يقال: يا بن آدم، لا تأسف على مَفقود لا يردّه عليك الفَوت، ولا تفرح بموجود لا يتركُه عليك الموت.

لقي عالمٌ من العلماء راهبًا فقال: أيّها الرّاهب، كيف ترى الدّنيا؟ قال: تُخْلِق الأبدان، وتجدّد الآمال، وتُباعد الأُمنيّة، وتُقرّب المَنِيّة. قال: فما حالُ أهلها؟ قال: مَن ظفر بها نَصَب، ومَن فاتَتْه أسِف. قال: فكيف الغِنَى عنها؟ قال: بقَطْع الرَّجاء منها. قال: فأيّ الأصحاب أبرّ وأوفى؟ قال: العمل الصّالح. قال: فأيّهم أضرّ وأنكى؟ قال: النّفس والهوى. قال: فكيف المَخْرَج؟ قال: في سلوك المنهج. قال: وبماذا أسلكه؟ قال: بأن تخلع لباس الشّهوات الفانية، وتعمل للدّار الباقية. (١٨ : ٣٩ ـ ٤٠)

(كتابه عليه السلام:٦٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمدانيّ:

**وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرآنِ وَاسْتَنصِحْهُ، وَأَحِلَّ حَلَالَهُ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنيَا لِمَا بَقِي مِنهَا، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضًا، وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا! وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ ....**

**الشّرح:** ... ومنها قوله: «واعتبر بما مضى من الدّنيا لما بقي منها»، وفي المَثَل: «إذا شئت أن تنظر الدُّنيا بعدَك فانظرها بعد غيرك»، وقال الشّاعر [الطّويل]:

وما نحنُ إلّا مثلهم غير أنّنا أقمنا قليلًا بعدهُمْ ثمّ نرحَلُ [١]

ويناسب قوله: «وآخرُها لاحقٌ بأوّلها، وكلّها حائل مُفارق» قوله أيضًا عليه السلام في غير هذا الفصل الماضي: « للمقيم عِبرة، والميّت للحيّ عِظة، وليس لأمس عودة، ولا المرءُ من غدٍ على ثقة، الأوّل للأوسط رائد، والأوسط للأخير قائد؛ وكلٌّ بكلّ لاحق، والكلُّ للكلِّ مفارق». (١٨ : ٤٣ ـ ٤٤)

---

١ ـ في د «وترحلوا» والمعنى عليه يستقيم أيضًا.

## [نبذ من أقوال الحكماء والصّالحين في الدّنيا]

**(الخطبة: ١٢٩) عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ ـ وَمَا تَأْمُلُونَ مِن هَذِهِ الدُّنيَا ـ أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَارًا، وَالشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا، فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ ....**

**الشّرح: ... واعلم** ! أنّ هذه الخطبة قد اشتملت على كلام فصيح، وموعظة بالغة مِن ذِكْر الدّنيا وذِكْر أهلها، ونحن نذكر كلماتٍ وَرَدَتْ عن الحكماء والصّالحين تناسبها، على عادتنا في إيراد الأشباه والنّظائر.

**قال بعض الصّالحين:** ما أدري كيف أعجب من الدّنيا! أمِن حُسن مَنظرها وقُبح مَخْبرِها، أم مِن ذمّ النّاس لها، وتناحُرِهم عليها!

قيل لبعضهم: كيف أصبحتَ؟ قال: آسفًا على أمْسِي، كارِهًا ليَوْمي، مُتّهمًا لغَدِي.

قيل لأعرابيّ: كيف تَرَى الدَّهْر؟ قال: خَدُوعًا خلوبًا، وثوبًا غَلوبًا.

قيل لصُوفيّ: لِمَ تَرَكْتَ الدّنيا؟ قال: لأنّي مُنِعْتُ صَفْوَها، وامتنعت من كَدَرها.

وقيل لآخر: لِمَ تركتَ الدّنيا؟ قال: لأنّي عدمت الوسيلة إليها إلّا بعشقها، وأعْشَقُ ما أكون لها أغدرُ ما تكون بي. وأنشد لبِشْر الحافي [الوافر]:

قَرِيرُ العينِ لا وَلَدٌ يموتُ ... ولا حَذِرٌ يبادِرُ ما يفُوتُ

رخيُّ البالِ ليس له عيالٌ ... خليٌّ من حُربت ومِن دُهيتُ

قَضَى وَطَرَ الصّبا وأفادَ عِلْمًا ... فعاتَبَهُ التّفرّدُ والسّكوتُ

وأكْبَرُ هِمّهِ ممّا عليهِ ... تذابح مَن تَرَى خَلْقٌ وقُوتُ

**قال أبو حيّان:** سمعت ابن القَصّاب الصّوفيّ، يقول: اسمَعْ واسْكُتْ، وانظر واعجب، قال ابن المعتزّ [مجزوء الرّجز]:

مَـلّ سـقامي عُـوَّدُهْ وخَانَ دَمْعي مُسْعِدُهْ
وضَاعَ مِن لَيْلَى غَدُهْ طُـوبَى لِعَـينٍ تجِـدُهْ
قَلّتْ مِنَ الدَّهْرِيدُهْ يَفْـنَى ويَـبْقَى أبَـدُهْ
والمـوتُ ضـارٍأسَـدُهْ وقاتِـلٌ مَـن يَلِـدُهْ

ومن الشّعر القديم المختلف في قائله [مجزوء الكامل]:

قَصْـرُ الجديـدِ إلى بَـلَى والوَصْلُ في الدُّنيا انقِطاعُهْ
أيُّ اجتمـــاعٍ لَمْ يَعُـــدْ بتفـرُّقٍ منهـا اجتماعُـهْ
أم أيُّ شَـعْبٍ ذي الْتِئَـا مٍ لم يبـدِّدْهُ انصـداعُهْ
أمْ أيُّ منتفـعٍ بشَـي ءٍ ثمّ تمّ لَـهُ انتِفاعُـهْ
يـا بُـؤسَ للـدّهرِالّـذي مـا زالَ مختلفًـا طِباعُـهْ
قَـدْ قِيـلَ في مَثَـلٍ خَـلَا: «يكفِيكَ مِن شَرٍّ سَماعُهْ»

قيل لصُوفيّ: كيف ترى الدّنيا؟ قال: وما الدّنيا؟ لا أعرف لها وجودًا، قيل له: فأين قَلْبك: قال عند ربّي. قيل: فأين ربّك؟ قال: وأين ليس هو!

قال ابن عائشة: كان يقال: مجالسة أهل الدّيانة تجلُو عن القلوب صدأ الذّنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلّ على مَكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكّي النّفوس.

ومن كلام بعض الحكماء الفُصَحاء: كُن لنفسك نَصيحًا، واستقبل توبةً نَصوحًا، وازْهَد في دارٍ سمّها ناقِع، وطائِرُها واقِع، وارْغَبْ في دارٍ طالبها مُنجِح، وصاحبها مُفْلح، ومتى حقّقت وآثرت الصّدق، بانَ لك أنّهما لايجتمعان، وأنّهما كالضِّدَّين لايصطلحان؛ فجَرِّدْ همّك في تحصيل الباقية، فإنّ الأُخرى أنت فانٍ عنها وهي فانية عنك: وقد عرفت آثارَها في أصحابها ورُفَقائها، وصنعَها بطلّابها وعُشّاقها معرِفة عيانٍ، فأيّ حجّة تبقى لك، وأيّ حجّة لاتثبت عليك!

ومن كلام هذا الحكيم: فإنّا قد أصبحْنَا في دارٍ رابحُها خاسِر، ونائِلُها قاصِر، وعزيزها

ذليل، وصحيحها عَليل، والدّاخل إليها مخرَج، والمطمئنّ فيها مزعَج، والذّائق من شرابها سكران، والواثق بسرابها ظَمآن، ظاهرها غُرور، وباطنها شرور، وطالبها مَكْدود، وعاشقها مجهود، وتاركها محمود. العاقل مَن قَلَاها وسَلَا عنها، والظّريف مَن عافَها وأنِفَ منها، والسّعيد مَن غَمَّض بَصَره عن زَهْرَتها، وصَرَفه عن نَضْرَتها، وليس لها فضيلة إلّا دلالتها على نفسها، وإشارتها إلى نقصها، ولعَمْري إنّها لفضيلة لو صادفتْ قلبًا عَقولًا لالسانًا قَؤولًا، وعَمَلًا مَقبولًا لا لفظًا منقولًا. فإلى الله الشَّكْوَى مِن هَوًى مُطاع، وعُمْرٍ مُضاع، فبِيَده الدّاء والدّواء، والمرض والشّفاء.

**قال أبو حرّة:** أتينا بَكْر بن عبد الله المرّيّ نعوده، فدخلنا عليه وقد قام لحاجته، فجلسنا ننتظره، فأقبل إلينا يتهادَى بين رجلين، فلمّا نظر إلينا سلّم علينا، ثمّ قال: رَحَم اللهُ عَبْدًا أُعْطِيَ قوّة فعمل بها في طاعة الله، أو قصّر به ضعف، فكفّ عن محارم الله.

**وقال بَكْر بن عبد الله:** مَثَلُ الرّجل في الدّنيا مَثَل رجل له ثلاثة خلّان، قال له أحدهم: أنا خازنك خُذْ منّي ما شئت. فاعْمَل به ما شئت. وقال الآخر: أنا معك أحمِلك وأضَعُك، فإذا متّ تركتك. وقال الآخر: أنا أصحبك أبدًا، حياتك وموتك. فأمّا الأوّل فمالُه، وأمّا الثّاني فعشيرتُه، وأمّا الثّالث فعمله.

**قيل للزُّهْريّ:** مَنِ الزّاهد في الدّنيا؟ قال: مَن لم يمنع الحلال شُكْرَه، ومَن لم يمنع الحرام صَبرَه.

**وقال سفيان الثّوريّ:** ما عُبِدَ اللهُ بمثل العقل، ولا يكون الرّجل عاقلًا حتّى تكون فيه عشر خصال: يكون الكِبر منه مأمونًا، والخير منه مأمولًا، يَقتدِي بمَن قَبْله، ويكون إمامًا لمن بعده، وحتّى يكون الذّلّ في طاعة الله أحبّ إليه من العِزّ في معصية الله، وحتّى يكون الفقر في الحلال أحبّ إليه من الغِنَى في الحرام، وحتّى يكون عيشه القُوت، وحتّى يستقلّ الكثير من عَمَله، ويستكثر القَليل من عمل غيره، وحتّى لا يتبرّم بطلب الحوائج قبله، والعاشرة وما العاشرة! بها شادَ مجْدَه، وعَلَا ذِكْره: أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحدٌ من النّاس ألّا رأى أنّه دونه.

**قال يونس بن حَبيب:** كان عندنا بالبَصْرة جنديّ عابد، فأحبّ الغَزْو، فلمّا خرج شيّعتُه، فقلتُ: أوْصِني. فقال: أُوصيك بتقوى الله، وأُوصيك بالقرآن، فإنّه نور اللّيل المُظْلم، وهُدَى النّهار المشرق، فاعْمَل به على ما كان مِن جُهْدٍ وفَاقَةٍ، فإن عَرَض بلاء فقدّم مالَك دون نَفْسِك، فإن تجاوز البلاء فقدّم مالَك ونفسك دون دِينك. واعلم! أنّ المحروب مَن حرب دينه، والمسلوب مَن سُلِبَ يقينُه. إنّه لا غِنى مع النّار، ولا فَقْر مع الجنّة، وإنّ جهنّم لا يفكّ أسيرها، ولا يستغنى فقيرها.

ابن المبارك، كان فيما مَضَى جبّارٌ يقتل النّاس على أكْل لحوم الخَنازير، فلم يزل الأمر يترقّى حتّى بلغ إلى عابدٍ مشهورٍ، فأراده على أكْلها، وهدّده بالقتل، فشقّ ذلك على النّاس. فقال له صاحب شرطته: إنّي ذابح لك غدًا جَدْيًا، فإذا دعاك هذا الجبّار لتأكل، فكُلْ فإنّما هو جَدْى، فلمّا دعاه ليأكل أبَى أن يأكُلَ، فقال: أخرجوه واضْربوا عُنُقَه. فقال له الشُّرطيّ: ما مَنَعك أن تأكُلَ من لحْم جَدْي؟ قال: إنّي رجل منظور إليّ، وإنّي كرهت أن يتأسّى بي النّاس في معاصي الله. فقدّمه فقتله.

سفيان الثّوريّ، كان رجل يبكى كثيرًا، فقال له أهله: لو قتلت قتيلًا ثمّ أتيت وليّه فرآك تبكي هذا البُكاء لعَفَا عنك. فقال: قد قتلتُ نفسي، فلعلّ وليّها يعفو عنّي.

وكان أيّوب السِّخْتيانيّ كثير البُكاء، وكان يغالط النّاس عن بكائه، يبكي مرّةً فيأخذ أنفه، ويقول: الزّكمة ربّما عرضت لي، ويبكى مرّة، فإذا استبانَ مَن حوله بكاءه، قال: إنّ الشّيخ إذا كبر مجّ[1].

ومن كلام أبي حيّان التّوحيديّ في «البصائر»: ما أقول في عالَم؛ السّاكن فيه وَجِل، والصّاحي بين أهله ثَمِل، والمُقيم على ذنوبه خَجِل، والرّاحل عنه مع تماديه عَجِل. وأنّ دارًا هذه من آفاتها وصروفها، لمحقوقة بهجْرانها وتَرْكها، والصُّدُوف عنها خاصّة ولا سبيل لساكنها إلى دار القَرار إلّا بالزّهد فيها، والرِّضا بالطّفيف منها، كبُلْغة الرّاوى وزاد المنطلق ... . (٨ : ٢٤٦ ـ ٢٥١)

---

١ ـ الماج : من يسيل لعابه كبرًا و هرمًا .

(كتابه عليه السلام: ٤٥) ... إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انسَلَلْتُ مِن مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِن حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ.

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ.

وَاللهِ لَوكُنتِ شَخْصًا مَرْئِيًّا، وَقَالَبًا حِسِّيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ!

هَيْهَاتَ! مَن وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَن رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَن حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنكِ لَا يُبَالِي إِن ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنيَا عِندَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انسِلَاخُهُ.

الشّرح: ... ثمّ قال: لوكنتِ أيّتها الدّنيا إنسانًا محسوسًا كالواحد من البَشَر لأقمتُ عليكِ الحدّ كما فعلتُ بالنّاس. ثمّ شرح أفعالها، فقال: منهم مَن غررتِ، ومنهم مَن ألقَيتِ في مهاوي الضّلال والكفر، ومنهم مَن أتلفتِ وأهلكتِ.

ثمّ قال: «ومَن وَطِئَ دَحْضكِ زَلِقَ» مكان دحض أي مزلّة.

ثمّ قال: لايبالي مَن سَلِم منكِ إن ضاق مُناخه، لايبالي بالفقر ولا بالمرض ولا بالحبوس والسّجون وغير ذلك من أنواع المِحَن! لأنّ هذا كلّه حقيرٌ لا اعتداد به في جَنب السّلامة من فتنة الدّنيا. قال: والدّنيا عند مَن قد سلم منها كيومٍ قَرُبَ انقضاؤه وفناؤه. (١٦ : ٢٩٤)

(الحكمة: ٩) الأصل: إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنيَا عَلَى قَوْمٍ أَعَارَتْهُمْ مَحَاسِنَ غَيْرِهِمْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحَاسِنَ أَنفُسِهِمْ.

الشّرح: كان الرّشيد أيّامَ كان حسنَ الرّأي في جعفر بن يحيى يحلف بالله أنّ جعفرًا أفصح من قُسّ بن ساعدة، وأشجعُ من عامر بن الطُّفَيل، وأكتب من عبد الحميد

بن يحيى، وأسْوَس من عمر بن الخطّاب، وأحسن مِن مُصْعَب بن الزُّبَير ـ وكان جعفر ليس بحسن الصّورة، وكان طويل الوجه جدًّا ـ وأنصح له من الحجّاج لعبد الملك، وأسمح من عبد الله بن جعفر، وأعفّ من يوسف بن يعقوب، فلمّا تغيّر رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقيّة الّتي لايختلف اثنان أنّها فيه، نحو كياسته وسماحته، ولم يكن أحد يجسر أن يردّ على جعفر قولًا ولا رأيًا، فيقال: إنّ أوّل ما ظهر من تغيّر الرّشيد له أنّه كلّم الفضل بن الرّبيع بشيء فردّه عليه الفَضْل، ولم تجرِ عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفَضْل، فغضب الرّشيد لإنكار سليمان، وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي؟ كالرّاضي بما كان من الفضل ثمّ تكلّم جعفر بشيء قاله للفضل، فقال الفضل: اشْهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فضّ الله فاك يا جاهل! إذا كان أمير المؤمنين الشّاهد، فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرّشيد، وقال: يا فضل، لا تمار جعفرًا، فإنّك لا تقع منه موقعًا.

واعلم! أنّا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام في العلوم والفضائل والخصائص النّفسانيّة، دَعْ حديث الدّنيا والسّلطان والرّياسة، فإنّ المحظوظ مِن عِلْمٍ أو مِن فضيلةٍ تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ، مثاله حظّ عليّ عليه السلام من الشّجاعة، ومن الأمثال الحكميّة قلّ أن ترى مثلًا شاردًا أو كلمةً حكميّةً إلّا وتضيفها النّاس إليه، وكذلك ما يدّعي العامّة له من الشّجاعة وقَتْل الأبطال حتّى يقال: إنّه حمل على سبعين ألفًا فهزمهم، وقتل الجِنَّ في البئر، وفَتل الطّوق في عُنق خالد بن الوليد. وكذلك حظّ عَنترة بن شدّاد في الشّجاعة، يُذْكَر له من الأخبار ما لم يكن، وكذلك ما اشتهر به أبو نُؤاس في وصف الخمر، يضاف إليه من الشِّعر في هذا الفنّ ما لم يكن قاله، وكذلك جُود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك، وبالعكس مَن لاحظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له، فقد رأينا كثيرًا من الشِّعر الجيّد يُنفَى عن قائله استحقارًا له، لأنّه خامل الذِّكر، وينسب إلى غيره، بل رأينا كُتُبًا مصنَّفة في فنون من العلوم خَمَل ذكر مصنّفيها ونسبت إلى غيرهم من ذوي النّباهة والصِّيت، وكلّ ذلك منسوب إلى الجدّ والإقبال. (١٨: ١٠٥ ـ ١٠٦)

(الحكمة: ٦٢) الأصل: أَهْلُ الدُّنيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ.

الشّرح: هذا التّشبيه واقعٌ وهو صورة الحال لا محالة.

وقد أتيتُ بهذا المعنى في رسالةٍ لي كتبتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً، فقلت: «ولو تأمّل النّاس أحوالهم[1]، وتبيّنوا مَآلَهم، لعَلِمُوا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه، والسّاكن إلى سَكَنِه، أخو سَفَر يُسْرَى به وهو لا يَسْرِي، وراكبُ بَحْرٍ يجْرَى به وهو لا يَدْري.

(١٨ : ٢٠٩)

(الحكمة:٧٠) الأصل: الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ، وَيُجَدِّدُ الْآمَالَ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ، وَيُبَاعِدُ الْأُمْنِيَّةَ، مَن ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ، وَمَن فَاتَهُ تَعِبَ.

الشّرح: قد سبق لنا قولٌ طويلٌ عريضٌ في ذِكْرِ الدّهْرِ والدّنيا، ونذكر الآن شيئًا آخر.

قال بعض الحكماء: الدّنيا تَسُرّ لِتَغُرّ، وتُفِيد لتَكِيد، كمْ راقِدٍ في ظلّها قد أيقظَتْه، وواثِقٍ بها قد خَذلَتْه، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ، وعلى هذا الشّرط صُوحِبَتْ.

وكتب الإسكندر إلى أرِسْطوطاليس: عِظْني. فكتب إليه: إذا صَفَتْ لك السّلامة فجدّد ذِكْرَ العَطَب، وإذا اطمأنّ بك الأمن فاستشْعر الخوف، فإذا بلغتَ نهايةَ الأمل فاذْكر الموتَ، وإذا أحْبَبْتَ نفسك فلا تجعل لها نصيبًا في الإساءة، وقال شاعر فأحْسَنَ [الطّويل]:

كأنّك لَمْ تَسْمَعْ بأخبارِ مَن مَضَى ... ولَمْ تَرَ بالباقينَ ما صَنَعَ الدَّهْرُ

فإن كنتَ لاتدري فتلْكَ دِيارُهمْ ... عَفَاها فحالَ الرّيحُ بعدَكَ والقَطْرُ

وهَلْ أبصرَتْ عَيْناكَ حَيًّا بمَنزِلٍ ... على الدّهرِ إلّا بالعَرَاءِ لَهُ قَبْرُ

فلا تحسبنَّ الوَفْرَ مالًا جَمَعْتَهُ ... ولكنَّ ما قدمْتَ مِن صالحٍ وَفْرُ

مَضَى جامِعُو الأموال لَمْ يَتَزَوَّدُوا ... سِوَى الفَقْرِ يا بُؤْسَى لِمَنْ زادَهُ الفَقْرُ!

---

١ ـ أ: «في أحوالهم».

فحَتَّامَ لاتَصْحُو وقد قَرُبَ المَدَى ... وحَتَّامَ لا ينجاب عن قلبِكَ السُّكْرُ!
بَلَى سَوْفَ تَصْحُو حِينَ يَنكَشِف الغِطَا ... وتذكر قولي حين لاينفع الذِّكْرُ
وما بَينَ مِيلادِ الفَتَى ووفاتِهِ ... إذا انْتَصَحَ الأقوامُ أنفُسَهُمْ عُمْرُ
لأنّ الّذي يأتِيهِ شِبْهُ الّذي مَضَى ... وما هو إلّا وَقْتُكَ الضَّيِّقُ النَّزْرُ
فصبرًا على الأيّامِ حتَّى تجُوزَها ... فَعَمَّا قَلِيلٍ بَعْدها يُحْمَدُ الصَّبرُ

(١٨ : ٢١٨ ـ ٢١٩)

**(الحكمة: ٧٥) الأصل:** ومِن خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الضَّبَابِيّ، عِندَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وقَالَ: فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، ويَقُولُ:

يَا دُنيَا إِلَيْكِ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتِ، أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ! لَا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ. آهِ مِن قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ.

**الشّرح:** ... فأمّا ضِرارُ بن ضَمْرة فإنّ الرِّياشيّ رَوَى خبرَه، ونقلتُه أنا من كتاب عبد الله بن إسماعيل بن أحمد الحلبيّ في «التّذييل على نهج البلاغة»، قال: دخل ضِرار على معاوية ـ وكان ضِرارٌ من صحابة عليّ عليه السلام ـ فقال له معاوية: يا ضِرار، صِفْ لي عليًّا. قال: أو تُعْفِيني! قال: لا أُعْفيك.

قال: ما أصِف منه! كان[1] والله شديد القُوَى، بعيد المَدى، يتفجّر العلم من أنحائه، والحِكْمة من أرْجائِه، حَسَن المعاشرة، سَهْل المباشرة، خَشِن المأكل، قصير المَلْبَس، غَزير العَبرة، طويل الفِكرة، يُقَلِّب كَفّه، ويخاطب نفسَه، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا

---

١ ـ ب: «وكان»، والصّواب ما أثبته.

سألنا، ويبتدئنا إذا سكَتْنا، ونحن مع تقريبه لنا أشدّ ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته، يحبّ المساكين، ويقرّب أهل الدِّين، وأشهَد لقد رأيتُه في بعض مواقفه... وتمام الكلام مذكور في الكتاب.

وذكر أبو عُمَر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» هذا الخبر، فقال: حدّثنا عبد الله بن محمّد بن يوسف، قال: حدّثنا يحيى بن مالك بن عائذ، قال: حدّثنا أبو الحسن محمّد بن محمّد بن مُقْلة البغداديّ بمصر. وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دُرَيد، قال: حدّثنا العُكْليّ، عَنِ الحِرْمازِيّ، عن رجل من هَمْدان، قال: قال معاوية لضِرار الضّبابيّ[1]: يا ضِرار صِفْ لي عليًّا، قال: اعْفِني يا أمير المؤمنين. قال: لتَصِفنّه. قال: أمّا إذ لابدّ من وَصْفِه، فكان والله بعيد المَدَى، شديد القُوَى، يقول فَصْلًا، وَيحكُم عَدْلًا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتَنطِق الحِكْمة من نواحيه، يَستوحش من الدّنيا وزَهْرتها، ويَأْنَس بالليل ووَحْشَتِه، [وكان][2] غزير العَبرة، طويل الفِكْرة، يُعْجِبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطّعام ما خَشُن. كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويُنبئنا إذا استفتيناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا وقربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبةً له. يعظِّم أهلَ الدِّين ويقرّب المساكين لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضّعيف مِن عَدْله. وأشهد لقد رأيتُه في بعض مواقفه وقد أرخَى اللّيل سُدولَه وغارَتْ نجومُه قابضًا على لِحيته يَتَمَلْمَل تملمُل السّليم[3] ويَبْكي بُكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري أبي تعرَّضْتِ أم إليّ تَشَوَّقْتِ! هيهات هيهات! قد باينتُكِ ثلاثًا لا رجعة لي فيها فعُمرُكِ قصير وخَطرُكِ حقير. آهِ مِن قلّة الزّاد وبُعْد السَّفَر، ووحشة الطّريق. فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا حسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضِرار؟ قال: حُزْنُ

---

١ ـ في الاستيعاب: «الصَدائيّ».

٢ ـ من الاستيعاب.

٣ ـ السَليم: اللّديغ.

مَن ذُبح ولدُها في حِجْرها[1]. (١٨ : ٢٢٤ ـ ٢٢٦)

**(الحكمة: ١٠٠) الأصل: ... إنّ الدُّنيا وَالْآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ، فَمَن أَحَبَّ الدُّنيا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا، كُلَّمَا قَرُبَ مِن وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ.**

**الشّرح:** هذا الفصل بَيِّنٌ في نفسه لا يحتاج إلى شَرْح، وذلك لأنّ عمل كلّ واحدة من الدّارَين مُضادٌّ لعمل الأُخرى، فعَمَل هذه: الاكتساب، والاضطراب في الرّزق، والاهتمام بأمر المعاش، والولد والزّوجة، وما ناسَبَ ذلك. وعَمَلُ هذه: قَطْعُ العَلائق، ورَفْض الشَّهَوات، والانتصاب للعبادة وصَرْف الوجه عن كلّ ما يَصُدُّ عن ذِكْر الله تعالى، ومعلومٌ أنّ هذَيْن العَمَلَين مُتضادّان، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضَرّتين لا يجتمعان! (١٨ : ٢٦٤)

**(الحكمة : ١٠٣) الأصل: لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِن أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنيَاهُمْ، إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُو أَضَرُّ مِنهُ.**

**الشّرح:** مثال ذلك إنسان يضيّع وقتَ صلاة الفريضة عليه، وهو مُشتغِل بمحاسبة وَكيله ومخافته على ماله، خوفًا أن يكون خائنَه في شيء منه، فهو يحرص على مناقشته عليه، فتفوته الصّلاة.

قال عليه السلام: مَن فَعَل مِثْل هذا فَتَحَ الله عليه في أمْر دُنياه ومالِه ما هو أضرّ عليه ممّا رام أن يَسْتَدْرِكَه بإهماله الفريضة. (١٨ : ٢٦٨)

---

١ ـ الاستيعاب : ١١٠٧ ـ ١١٠٨ ، و هو أيضًا في «أمالي القالي» ٢ : ١٤٧ .

(الحكمة: ١١٥) الأصل: مَثَلُ الدُّنيا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسَّمُّ النَّاقِعُ في جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ الْعَاقِلُ.

الشّرح: قد تقدّم القول في الدّنيا مِرارًا، وقد أخذ أبو العتاهيّة هذا المعنى، فقال [الخفيف]:

إنَّما الدَّهْرُ أرقَمٌ لَيِّنُ المَسـ ـسِ وفي نابِهِ السِّقامُ العُقامُ

(١٨ : ٢٨٤)

(الحكمة: ١٢٧) الأصل: وقَالَ عليه السلام: وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ الدُّنيا: أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنيا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا؛ أَتَغْتَرُّ بِالدُّنيا ثُمَّ تَذُمُّهَا! أَنتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ؟! أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؟! كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ.

لَمْ يَنفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنهُ بِقُوَّتِكَ، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنيا نَفْسَكَ وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ.

إِنَّ الدُّنيا دَارُ صِدْقٍ لِمَن صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَن فَهِمَ عَنهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَن تَزَوَّدَ مِنهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَن ذَا يَذُمُّهَا، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ!

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا، وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنيا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ

فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

**الشّرح:** ... وقوله عليه السلام: «فمثّلت لهم ببلائها البلاء»، أي بلاءَ الآخرة وعذابَ جهنّم، «وشوّقتهم بسُرورها إلى السّرور» أي إلى سرور الآخرة ونَعيم الجَنّة.

وهذا الفصل كلّه لمدح الدّنيا، وهو يُنبئ عن اقتداره عليه السلام على ما يريد من المعاني، لأنّ كلامه كلّه في ذمّ الدّنيا، وهو الآن يمدحها، وهو صادق في ذاك وفي هذا، وقد جاء عن النّبيّ صلى الله عليه وآله كلامٌ يتضمّن مدح الدّنيا أو قريبًا من المدح، وهو قوله عليه السلام: «الدّنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، فمَن أخذها بحقّها بُورِكَ له فيها».

واحتَذَى عبد الله بن المعتزّ[1] حَذْو أمير المؤمنين عليه السلام في مَدْح الدّنيا، فقال في كلام له: الدّنيا دارُ التّأديب والتّعريف، الّتي بمكروهها توصّل إلى محبوب الآخرة، ومِضْمار الأعمال السّابقة بأصحابها إلى الجِنان، ودرجة الفوز الّتي يَرْتَقي عليها المتّقون إلى دار الخُلْد، وهي الواعظة لِمَن عقل، والنّاصحة لِمَن قَبِل، وبِساط المَهَل، ومَيْدان العمل، وقاصِمَة الجبّارين، ومُلْحِقة الرّغم معَاطِسَ المتكبّرين، وكاسية التّراب أبدان المُختالِين، وصارِعَة المغترّين، ومفرّقة أموال الباخِلين، وقاتلة القاتلين، والعادلة بالموت على جميع العالَمين، وناصرة المؤمنين، ومُبيرة الكافرين. الحَسَنات فيها مضاعَفة، والسّيّئات بآلامها ممحوّة، ومع عُسْرها يُسران، والله تعالى قد ضَمِنَ أرزاق أهلها، وأقْسَم في كتابه بما فيها، وربّ طيّبةٍ من نَعيمها قد حمد الله عليها فتلقّتها أيدي الكَتَبة ووَجَبتْ بها الجَنّة، وكم نائبةٍ من نَوائبها، وحادثةٍ من حَوادثها، قد راضَت الفَهْم، ونبّهت الفِطْنة، وأذْكَت القريحة، وأفادَت فضيلة الصّبر، وكثّرت ذخائر الأجر.

ومن الكلام المنسوب إلى عليّ عليه السلام: النّاس أبناء الدّنيا، ولا يلامُ المرء على حُبّ أُمّه، أخَذَه محمّد بن وَهْب الحِمْيريّ، فقال [الطّويل]:

ونَحنُ بنو الدّنيا خُلِقْنا لغَيرِها وما كُنتَ منه فَهْوَ شيء مُحَبَّبُ

(١٨ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧)

---

١ ـ د: «المغيرة».

(الحكمة: ١٢٨) الأصل: إِنَّ لِلّهِ، مَلَكًا يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، واجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وابْنُوا لِلْخَرَابِ.

الشّرح: ... وأمّا فَحوَى هذا القول وخلاصتُه فهو التّنبيه على أنّ الدّنيا دارُ فَناءٍ وعَطَبٍ، لا دارُ بَقاءٍ وسَلامةٍ، وأنّ الولد يَمُوت، والدُّور تُخرَب وما يُجمَع من الأموال يَفنى. (١٨ : ٣٢٨)

(الحكمة: ١٢٩) الأصل: الدُّنيَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوبَقَهَا، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا.

الشّرح: قال عمر بن عبد العزيز يومًا لجُلَسائه: أخبِرُوني مَن أحمق النّاس؟ قالوا: رجلٌ باع آخرته بدُنياه، فقال: ألا أُنبّئكم بأحمق منه؟ قالوا: بلى، قال: رجلٌ باع آخرته بدنيا غيره.

قلتُ: لِقائل أن يقول له: ذاك باع آخرته بدنياه أيضًا، لأنّه لولم يكن له لذّةٌ في بَيْع آخرته بدُنيا غيره لما باعَها، وإذا كان له في ذلك لذّة، فإذَن إنّما باعَ آخرتَه بدنياه، لأنّ دنياه هي لذّته. (١٨ : ٣٢٩)

(الحكمة: ١٨٦) الأصل: إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنيَا غَرَضٌ تَنتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أُكْلَةٍ غَصَصٌ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يَستَقْبِلُ يَوْمًا مِن عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِن أَجَلِهِ، فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ، وَأَنفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ، فَمِن أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِن شَيْءٍ شَرَفًا، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا؟!

الشّرح: قد سبق ذرءٌ[1] من هذا الكلام في أثناء خطبته عليه السلام، وقد ذكرنا نحن أشياء

١ ـ ذرء: أي طرف.

كثيرة في الدّنيا وتقلّبها بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: طُوبَى للهَارِب من زَخارف الدّنيا، والصّادِ عن زَهْرة دِمْنَتِها، والخائف عند أمانها، والمتّهم لضمانها، والباكي عند ضحكها إليه، والمتواضع عند إعزازها له، والنّاظر بعَين عقله إلى فضائحها، والمتأمّل لقُبْح مَصارِعها، والتّارك لكلابها على جِيفها، والمكذّب لمواعيدها، والمتيقّظ لخُدَعها، والمُعْرِض عن لُمَعِها، والعامل في إمهالها، والمتزوّد قبل إعجالها ... .

وقد سبق تفسير قوله: «لاينال العبد نعمةً إلّا بفراق أُخرى»، وقلنا: إنّ الّذي حصلت له لذّة الجماع حالَ ما هي حاصلة له، لابدّ أن يكون مفارقًا لذّة الأكل والشّرب، وكذلك مَن يأكل ويشرب يكون مُفارقًا حالَ أكْله وشربه لذّة الرَّكْض على الخيل في طلب الصّيد، ونحو ذلك.

قوله: «فنحن أعوانُ المَنُون» لأنّا نأكل، ونشرب، ونجامع، ونركب الخيل والإبل، ونتصرّف في الحاجات والمآرب، والموت إنّما يكون بأحد هذه الأسباب، إمّا مِن أخلاط تحدثها المآكل والمشارب، أو مِن سقطة يسقط الإنسان من دابّة هو راكبها، أو مِن ضَعْفٍ يلحقه من الجِماع المُفْرِط، أو لمصادمات واصطكاكات تُصِيبه عند تصرّفه في مآربه وحركته وسَعْيه، ونحو ذلك، فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا... .

(١٩: ٧ ـ ٨)

**(الحكمة: ١٩١) الأصل: وقال عليه السلام ـ وقَدْ مَرَّ بِقَذَرٍ عَلَى مَزْبَلَةٍ ـ : هَذَا مَا بَخِلَ بِهِ الْبَاخِلُونَ.**

**وفي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ قَالَ: هَذَا مَا كُنتُمْ تَتَنَافَسُونَ فِيهِ بِالْأَمْسِ!**

**الشّرح:** قد سبق القول في مثل هذا، وأنّ الحسن البَصْريّ مَرّ على مَزْبلةٍ، فقال: انظُروا إلى بَطِّهم ودَجاجهم وحَلْوائهم وعَسَلهم وسَمْنهم، والحَسَن إنّما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وقال ابن وَكيع في قول المتنبّي [السّريع]:

لو أفكَرَ العاشِقُ فِي مُنتَهَى حُسنِ الّذي يَسبِيهِ لَمْ يَسبِهِ[1]

إنّه أراد: لو أفكر في حاله وهو في القبر، وقد تغيرّت محاسِنُه، وسَالَتْ عَيْناه، قال وهذا مثل قولهم: لو أفكَر الإنسان فيما يؤول إليه الطّعام لعافَتْه نفسُه.

وقد ضَرَب العلماء مَثَلًا للدّنيا ومخالفة آخرِها أوّلها، ومُضادّة مَباديها عَواقبها، فقالوا: إنّ شَهَوات الدّنيا في القلب لذيذةٌ، كشَهَوات الأطعمة في المعدة، وسَيَجِدُ الإنسان عند الموت لشَهَوات الدّنيا في قلبه من الكَراهة والنَّتن، والقُبْح ما يجده للأطعمة اللّذيذة، إذا طبختها المعدة وبلغتْ غايةَ نُضْجها، وكما أنّ الطّعام كلّما كان ألذّ طعمًا وأظهر حلاوةً، كان رجيعه أقذر وأشدّ نَتْنًا، فكذلك كلّ شهوةٍ في القلب أشهى وألذّ وأقوى، فإنّ نتنَها وكراهتها والتّأذّي بها عند الموت أشدّ، بل هذه الحال في الدّنيا مشاهدة، فإنّ [ مَن ][2] نُهِبَتْ دارُه، وأخذ أهله وولدُه ومالُه، تكون مصيبتُه وألَمَه وتفجُّعه في الّذي فقد بمقدار لذّته به، وحبّه له، وحِرْصه عليه، فكلّ ما كان في الوجود أشْهَى وألذّ، فهو عند الفَقْد أدهى وأمرّ، ولا معنى للموت إلّا فَقْد ما في الدّنيا.

وقد رُوي أنّ النّبيّ ﷺ قال للضّحّاك بن سُفْيان الكلابيّ: ألستَ تُؤتَى بطعامك وقد قَزَح وملح [3]، ثمّ تشرَب عليه اللّبن والماء! قال: بلى، قال: فإلى ماذا يصير؟ قال، إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال، فإنّ الله عَزّوجَلّ ضرب مَثَل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم.

ورَوَى أُبَيّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ قال: إن أنتَ ضربتَ مَثَلًا لابن آدم، فانظر ما يخرج من ابن آدم، وإن كان قزحه وملحَه إلى ماذا صار.

---

١ ـ ديوانه ١ : ٢١٢ .

٢ ـ تكملة من د .

٣ ـ يقال : قزح القِدْر كمنع ، جعل فيها بزر البَصَل والتّابِل .

وقال الحسن ﷺ: قد رأيتهم يطيّبونه بالطِّيب والأفاويه[١]، ثمّ يرمونه حيث رأيتم، قال الله عَزَّوجَلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[٢]، قال ابن عباس: إلى رَجِيعه.

وقال رجل لا بن عمر: إنّي أُريد أن أسالك وأستحيي، فقال: لاتَستَحْي وسَلْ، قال: إذا قَضَى أحدُنا حاجته فقام، هل ينظر إلى ذلك منه؟ فقال: نعم، إنّ المَلك يقول له : انظُر، هذا ما بخلت به، انظُر إلى ماذا صار! (١٩ : ١٣ ـ ١٤)

**(الحكمة: ٢٣٣) الأصل: وَاللهِ لَدُنيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِن عِرَاقِ[٣] خِنزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.**

**الشّرح:** ... ولايكون شيء أحقر ولا أبغض إلى الإنسان من عِراق خنزير في يَدِ مجْذُوم، فإنّه لم يَرْضَ بأن يجعله في يدمجذوم ـ وهو غاية ما يكون من التّنفير ـ حتّى جعله عِراق خنزير. ولعَمْري لقد صَدَق ـ وما زال صادقًا ـ ومَن تأمّل سيرتَه في حالتَيْ خلوّه من العمل وولِايته الخلافة عَرَف صحّة هذا القول. (١٩ : ٦٧)

**(الحكمة: ٢٤٨) وقَالَ ﷺ: مَرَارَةُ الدُّنيَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ، وحَلَاوَةُ الدُّنيَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ.**

**الشّرح:** لمّا كانت الدّنيا ضدّ الآخرة، وجب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه، كالسّواد يجمع البَصَر والبياض يفرق البَصَر، والحرارة توجب الخِفّة، والبرودة توجب الثّقل، فإذا كان في الدّنيا أعمال هي مرّة المذاق على الإنسان قد ورد الشّرع

---

١ ـ الأفاويه : جمع أفواه ، و هي التّوابل .

٢ ـ عبس / ٢٤ .

٣ ـ العراق بكسر العين ـ : هو من الحَشَا ما فوق السُّرّة معترضًا البطن. (نهج البلاغة، بضبط الدُّكتور صبحي الصّالح: ص ٧٢٠ ، الرّقم ٧٤٣١).

بإيجابها فتلك الأفعال تقتضي وتوجب لفاعلها ثوابًا حُلو المذاق في الآخرة.

وكذاك بالعكس ما كان من المشتَهيَات الدّنياويّة الّتي قد نَهى الشّرع عنها توجب ـ وإن كانت حُلوة المذاق ـ مرارة العقوبة في الآخرة. (١٩ : ٨٥)

**(الحكمة: ٢٧٥) الأصل: النَّاسُ فِي الدُّنيَا عَامِلَانِ:**

**عَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنيَا لِلدُّنيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنيَاهُ عَن آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَن يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنفَعَةِ غَيْرِهِ.**

**وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنيَا لِمَا بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعًا وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعًا، فَأَصْبَحَ وَجِيهًا عِندَ اللهِ، لَا يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ.**

الشّرح: معنى قوله: «ويأمنه على نفسه»، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيرًا، لأنّه يعيش عَيش الفقراء وإن كان ذا مالٍ، لكنّه يدّخر المالَ لولده فيُفني عمرَه في منفعة غيره.

ويجوز أن يكون معناه أنّه لكثرة ماله قد أمِنَ الفقر على نفسه ما دام حَيًّا، ولكنّه لا يأمن الفقر على ولده، لأنّه لا يثق من ولده بحُسن الاكتساب كما وَثِق من نفسه، فلا يزال في الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولده الّذي يخاف عليه الفقر بعد موته.

فأمّا العامل في الدّنيا لما بعدها فهم أصحاب العبادة، يأتيهم رزقهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ، وقد حصلت لهم الآخرةُ، فقد حَصَل لهم الحظّان جميعًا. (١٩ : ١٥٧)

**(الحكمة: ٢٨٦) الأصل: مَن تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ.**

الشّرح: هذا مِثل قولهم في المَثَل: «اللّيل طويل، وأنت مُقْمِر»، وقال أيضًا: عَشِّ ولا تَغْتَرّ.

وقال أصحاب المعاني: مَثَل الدّنيا كرَكْبٍ في فَلاة وَرَدوا ماءً طيّبًا، فمنهم مَن شَرِب

من ذلك الماء شُرْبًا يسيرًا، ثمّ أفكر في بُعد المسافة الّتي يقصدونها، وإنّه ليس بعد ذلك الماء ماءٌ آخر، فتزوّد منه ماء أوصَلَه إلى مقصده، ومنهم مَن شَرِب من ذلك الماء شُرْبًا عظيمًا، ولها عن التّزوّد والاستعداد، وظنّ أنّ ما شَرِب كافٍ له ومُغْنٍ عن ادّخار شيء آخر، فقطع به، وأخْلَفَه ظنّه، فعَطِش في تلك الفلاة ومات.

وقد رُوِي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال لأصحابه: «إنّما مَثَلي ومَثَلكم ومَثَل الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ما سلكوا منها أكثَرُ أم ما بَقِي! أنفدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر، وبقوا بين ظَهْرانَي المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهَلَكة، فبيناهم كذلك خرج عليهم رجل في حُلّة يَقْطُر رأسُه ماءً، فقالوا: هذا قريب عَهْدٍ بريفٍ، وما جاءكم هذا إلّا من قريب، فلمّا انتهى إليهم وشاهد حالهم، قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رَواء، ورِياض خُضْرٍ ما تعملون؟ قالوا: لا نَعْصيك شيئًا، قال: عُهودَكم ومواثيقكم بالله، فأعطوه ذلك، فأوْرَدَهم ماءً رَواءً ورياضًا خُضْرًا، ومَكث بينهم ما شاء الله، ثمّ قال: إنّي مُفارِقكم، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرِياضكم، فقال الأكثرون منهم: والله ما وجدنا ما نحن فيه حتّى ظنّنا أنّا لا نجده، وما نَصنَع بمنزل خير من هذا! وقال الأقلّون منهم: ألم تُعْطُوا هذا الرّجل مواثيقكم وعهودكم بالله لا تَعْصُونه شيئًا، وقد صدقكم في أوّل حديثه، والله ليصدُقَنّكم في آخره، فراح فيمن تَبِعه منهم، وتخلّف الباقون، فدَهَمهم عدوّ شديد البأس عظيم الجيش، فأصبحوا ما بين أسير وقتيل. (١٩: ١٧١ ـ ١٧٢)

**(الحكمة: ٢٨٨) الأصل: بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم ذكر الدّنيا وغُرورها، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعظة، لأنّ الإنسانَ يغترّ بالعاجِلة، ويتوهّم دوام ما هو فيه، وإذا خطر بباله الموت والفَناء وَعَد نفسه رحمةَ الله تعالى وعَفْوَه، هذا إن كان ممّن يعترف بالمعاد، فإنّ كثيرًا ممّن يظهر القول بالمعاد هو في الحقيقة غير مُسْتَيقِنٍ له، والإخلاد إلى عَفْوالله

تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية، غرورٌ لا محالة، والحازم مَن عَمِل لما بعد الموت ولم يُمَنّ نفسه الأمانيّ الّتي لا حقيقةَ لها. (١٩ : ١٧٤)

**(الحكمة: ٣٠٩) الأصل: النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنيَا، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ.**

**الشّرح:** قد قال عليه السلام في موضع آخر: «النّاس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

وقال الشّاعر [الطّويل]:

ونَحنُ بَنِي الدُّنيَا غُذِينَا بدَرِّها وما كنتَ منهُ فَهْوَ شيءٌ محبَّبُ

(١٩ : ٢٠٩)

**(الحكمة: ٣٦٥) الأصل: يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ أَقْصِرُوا، فَإِنَّ الْمُعَرِّجَ عَلَى الدُّنيَا لَا يَرُوعُهُ مِنهَا إِلَّا صَرِيفُ أَنيَابِ الْحِدْثَانِ. أَيُّهَا النَّاسُ تَوَلَّوْا مِن أَنفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا، وَاعْدِلُوا بِهَا عَن ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا.**

الشّرح: ... وقد تقدّم الكلام في الدّنيا والرّغبة فيها، وغَدْرِها وحوادثها، ووجوب العدول عنها، وكسر عادِية عادات السّوء المكتسبة فيها. (١٩ : ٢٧٦)

## [نبذ من الأقوال الحكيمة في وصف حال الدّنيا وصُروفها]

**(الحكمة: ٣٧٣) الأصل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ، فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِن طُمَأْنِينَتِهَا، وَبُلْغَتُهَا أَزْكَى مِن ثَرْوَتِهَا، حُكِمَ عَلَى مُكْثِرِيهَا[1] بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَن غَنِيَ عَنهَا بِالرَّاحَةِ، مَن رَاقَهُ زِبرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهًا، وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلَأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَانًا، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ: هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وَغَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ، مُنقَطِعًا أَبْهَرَاهُ،**

---

١ ـ خ ل: مُكْثِرِمِنْهَا.

هَيِّنًا عَلَى اللهِ فَنَاؤُهُ، وَعَلَى الْإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ.

وَإِنَّمَا يَنظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنيَا بِعَيْنِ الْاِعْتِبَارِ، وَيَقْتَاتُ مِنهَا بِبَطْنِ الْاِضْطِرَارِ، وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالْإِبْغَاضِ، إِن قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى! وَإِن فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ! هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ: يَوْمٌ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

**الشّرح:** ... وقد ذكرنا من حال الدّنيا وصُروفها وغَدْرِها بأهلها فيما تقدّم أبوابًا كثيرة نافعة. ونحن نذكرها هاهنا زيادة على ذلك.

فمن كلام بعض الحكماء: وَيْلٌ لصاحِب الدّنيا، كيف يموت ويتركها، وتغرّه ويأمَنها وتَخْذُله ويَثِقُ بها! وَيْلٌ للمغترّين، كيف أرتهم ما يكرهون، وفاتَهم ما يحبّون، وجاءهم ما يُوعَدون! وَيْلٌ لمَنِ الدّنيا همّه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذَنبه.

ورَوَى أنس، قال: كانت ناقة رسول الله ﷺ العَضْباء لا تُسبَق، فجاء أعرابيّ بناقةٍ له فسَبَقَها، فشَقّ ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «حَقّ على الله ألّا يرفع في الدّنيا شيئًا إلّا وَضَعه».

وقال بعض الحكماء: مَن ذا الّذي يبني على مَوْج البحر دارًا! تلكم الدّنيا، فلا تتّخذوها قرارًا.

وقيل لحكيم: عَلّمنَا عَمَلًا واحدًا إذا عَمِلناه أحبّنَا الله عليه، فقال: ابْغَضوا الدّنيا يُحبِبْكم الله.

**وقال أبو الدَّرْداء:** قال رسول الله ﷺ: «لو تَعْلَمون ما أعْلَمُ لَضَحِكتم قليلًا، ولبَكَيْتُم كثيرًا، ولهانَتْ عليكم الدّنيا، ولآثَرْتم الآخرة».

ثمّ قال أبو الدَّرداء من قِبَل نفسه: أيّها النّاس، لو تعلمون ما أعلم لخرَجْتم إلى الصُّعُدات[1] تبكون على أنفسكم، ولتَرَكْتُم أموالكم لا حارِسَ لها، ولا راجِعَ إليها إلّا ما لابدّ لكم منه، ولكن غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة، وحضرها الأمل، فصارت

---

١ ـ الصُّعُدات: الطُّرُق. مأخوذة من الصَعيد، وهو التّراب. وجمع الصَعيد، صُعُد، ثمّ صُعُدات جمع الجمع. (تهذيب اللّغة، صعد).

الدّنيا أمْلَك بأعمالكم، وصِرتم كالّذين لا يعلمون، فبعضكم شَرٌّ مِنَ البهائم الّتي لاتَدَع هواها، ما لكم لاتحابُّون ولاتناصَحُون في أُموركم، وأنتم إخوانٌ على دينٍ واحدٍ، ما فرَّق بين أهوائكم إلّا خُبْثُ سَرائركم، ولو اجتمعتم على البِرّ لتَحابَبْتم، ما لكم لاتناصحون في أُموركم ، ما هذا إلّا من قلّة الإيمان في قلوبكم، ولوكنتم توقنون بأمر الآخرة كما توقنون بالدّنيا لأثرتم طلب الآخرة، فإن قلتم: حُبّ العاجلة غالبٌ، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدّنيا للآجل منها، ما لكم تَفْرَحون باليَسير من الدّنيا، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتّى يتبيّن ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسنتكم، وتسمّونها المصائب، وتقيمون فيها المآتم، وعامّتكم قد تركوا كثيرًا من دِينهم، ثمّ لايتبيّن ذلك في وجوههم، ولاتتغيّر حالٌ بهم، يَلْقى بعضهم بعضًا بالمسرّة، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يَكْرَه مخافةً أن يستقبله صاحبُه بمثله، فاصطَحَبتم على الغِلّ، وبَنَيْتم مَراعِيَكم على الدِّمَن، وتصافَيْتم على رَفْض الأجل، أراحَني الله منكم، وألحقني بمن أحبّ رؤيته.

وقال حكيمٌ لأصحابه: ارْضُوا بدَنيءِ الدّنيا مع سلامة الدِّين، كما رَضِيَ أهلُ الدّنيا بدنيء الدِّين مع سلامة الدّنيا.

وقيل في معناه [البسيط]:

أرَى رِجالًا بأدْنَى الدِّينِ قد قَنِعُوا ... ولاأراهُمْ رَضُوا في العَيْش بالدُّونِ

فاسْتغن بالدِّين عن دُ نيا الملوكِ كما اسْـ ... ـتَغْنَى الملوكُ بدُنيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ

وفي الحديث المرفوع: «لتأتينّكم بَعْدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النّار الحطب».

وقال الحسن ﷺ: أدركتُ أقوامًا كانت الدّنيا عندهم وديعةً، فأدّوْها إلى مَنِ ائتمنهم عليها، ثمّ رَكضوا خِفافًا.

وقال أيضًا: مَن نافَسَك في دِينك فنافِسْه، ومَن نافَسَك في دنياك فألقِها في نَحْرِه.

وقال الفُضَيل: طالت فِكْرتي في هذه الآية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا

﴿لِنَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا* وَاِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[1].

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح في شيء من الدّنيا إلّا وقد كان له أهلٌ قَبْلك، ويكون له أهلٌ من بعدك، وليس لك من الدّنيا إلّا عَشاء ليلة، وغَداء يوم، فلا تُهْلِك نفسك في أكْلةٍ، وصُمْ عن الدّنيا وأفْطِرْ على الآخرة، فإنّ رأس مالِ الدّنيا الهَوَى، وربْحها النّار.

وقيل لبعض الرُّهْبان: كيف تَرَى الدَّهْر؟ قال: يُخْلِق الأبدان، ويُجدِّد الآمال، ويُقرِّب المَنِيّة، ويُباعِد الأُمنيّة. قيل: فما حالُ أهلِه؟ قال: مَن ظَفِر به تَعَب، ومَن فاتَهُ اكتَأب.

ومن هذا المعنى قول الشّاعر[الطّويل]:

ومَن يَحْمَدُ الدُّنْيَا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ ... فَسَوْفَ لَعَمْري عَن قَلِيلٍ يَلُومُهَا

إذَا أدبَرَتْ كانتْ عَلَى المَرْءِ حَسْرَةً ... وَإنْ أقْبَلَتْ كانتْ كَثِيرًا هُمُومُهَا[2]

وقال بعض الحكماء: كانت الدّنيا ولم أكُن فيها، وتذهَب الدّنيا ولا أكون فيها، ولستُ أسْكُن إليها، فإنّ عَيشها نَكَد، وصَفْوها كَدَر، وأهلها منها على وَجَلٍ، إمّا بنعمةٍ زائلةٍ،أو ببليّةٍ نازلةٍ، أو ميتةٍ قاضيةٍ.

وقال بعضهم: مِن عَيْب الدّنيا أنّها لا تُعْطِي أحدًا ما يستحقّ، إمّا أن تزيد له، وإمّا أن تنقص.

**وقال سُفْيان الثَّوْريّ:** أمَا تَرَوْنَ النِّعَم كأنّها مغضوبٌ عليها، قد وُضِعَتْ في غير أهلها.

**وقال يحيى بن مُعاذ:** الدّنيا حانوتُ الشّيطان، فلا تسرق من حانوته شيئًا، فإنّه يجيء في طلبك حتّى يأخذك.

---

١ ـ الكهف / ٧ ـ ٨ .

٢ ـ وهو من الشّعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليّ بن ابيطالب عليه السّلام (انظر ديوانه عليه السّلام)

وقال **الفُضَيل**: لوكانت الدّنيا مِن ذَهَبٍ يَفْنَى، والآخرة مِن خَزَفٍ يَبْقَى، لكان ينبغي لنا أن نختار خَزَفًا يَبْقَى على ذَهَبٍ يَفْنَى، فكيف وقد اخترنا خَزَفًا يَفْنَى على ذَهَبٍ يَبْقَى!

وقال بعضهم: ما أصبح أحدٌ في الدّنيا إلّا وهو ضَيْف، ولاشُبهة في أنّ الضَّيْف مُرْتحِل، وما أصبح ذو مالٍ فيها إلّا ومالُه عارية عنده، ولا رَيْب أنّ العارِيَة مردودة.

ومثل هذا قول الشّاعر[الطّويل]:

وما المالُ والأهْلُونَ إلّا وَدِيعةٌ ولابُدَّ يومًا أن تُردَّ الوَدائعُ

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فأنشد [الطّويل]:

نُرَقِّعُ دُنيانا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فلا دِينُنا يَبْقَى ولاما نُرَقِّعُ

وزارَ رابعة العدويّة أصحابُها، فذكروا الدّنيا، فأقبلوا على ذمّها، فقالت: اسْكُتوا عن ذِكْرها وكُفُّوا، فلولا مَوْقِعُها في قلوبكم ما أكثَرْتم من ذِكْرِها، إنّ مَن أحبّ شيئًا أكثر مِن ذِكْرِه.

وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير: لا تنظروا إلى خَفْض عَيْش الملوك ولين رِياشِهم، ولكن انظُروا إلى سُرْعة ظَعْنهم وسوء مُنقَلبهم، قال الشّاعر [الطّويل]:

أرَى طالِبَ الدُّنيَا وإن طالَ عُمْرُهُ ونالَ مِنَ الدُّنيَا سُرورًا وأنعُمَا

كَبانٍ بَنَى بُنيانَهُ فَأقامَهُ فَلَمَّا اسْتَوَى ما قَدْ بَنَاهُ تَهدَّمَا

وقال أبو العتاهيّة [الوافر]:

تعالَى اللهُ يا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍ أذَلّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

هَبِ الدُّنيَا تُساقُ إلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصيرُ ذَاكَ إلى الزَّوالِ!

وما دُنياكَ إلّا مثْلُ فَيْءٍ أظَلّكَ ثُمّ آذَنَ بِانْتِقالِ

وقال بعضهم: الدّنيا جِيفةٌ، فمَن أراد منها شيئًا فليصبر على معاشرة الكلاب.

وقال أبو أُمامة الباهليّ: لمّا بَعَثَ اللهُ محمّدًا ﷺ أتَتْ إبليسَ جنودُهُ، وقالوا: قد بُعِثَ نبيٌّ، وجدّدت ملّة وأُمّة، فقال: كيف حالُهم؟ أيحبّون الدّنيا؟ قالوا: نعم، قال:

إن كانوا يحبّونها فلا أُبالى ألّا يَعْبُدوا الأصنام، فإنّما أغْدُو عليهم وأرُوح بثلاثٍ: أخْذِ المال من غير حقّه، وإنفاقِه في غير حقّه، وإمساكه عن حقّه، والشَّرُّ كلّه لهذه الثّلاث تَبَع.

وكان مالك بن دينار يقول: اتّقوا السَّحّارة، فإنّها تَسْحَرُ قلوبَ العلماء. يعني الدّنيا.

وقال أبو سليمان الرّازيّ: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدّ نيا فزاحمَتْها، وإذا كانت الدّنيا في القلب لم تُزاحِمْها الآخرة، لأنّ الآخرة كريمة، والدّنيا لَئيمة.

وقال مالك بن دينار: بقَدْر ما تَحْزَن للدّنيا يخرج هَمُّ الآخرة من قلبك، وبقَدْر ما تحزَن للآخرة يخرج هَمّ الدّنيا من قَلْبك. وهذا مُقْتَبس من قول أمير المؤمنين عليه السلام: الدّنيا والآخرة ضَرَّتان: فبقَدْر ما تُرْضِي إحداهما تُسْخِط الأُخرى.

وقال الشّاعر [السّريع]:

يا خاطِبَ الدّنيا إلى نَفْسِهَا تَنَحَّ عَنْ خِطْبتِها تَسْلَمِ
إنَّ الّـتِي تَخْطُـبُ غَـدَّارَةٌ قَرِيبةُ العُرْسِ مِنَ المَأتَمِ

وقالوا: لو وَصَفَتِ الدّنيا نَفْسَها لما قالتْ أحْسَنَ من قول أبي نُواس فيها [الطّويل]:

إذا امْتَحَنَ الدُّنيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ في ثِيابِ صَدِيقِ

ومِن كلام الشّافعيّ يَعِظُ أخًا له: يا أخي، إنّ الدّنيا دَحْض[1] مَزَلّةٍ، ودارُ مَذَلّةٍ، عُمرانُها إلى الخراب سائر، وساكِنُها إلى القبور زائر، شَمْلها على الفُرْقة موقوف، وغِناها إلى الفَقْر مَصْروف، الإكثارُ فيها إعْسار، والإعسارُ فيها يَسار، فافْزَع إلى الله، وارْضَ برِزْق الله، ولا تَستَسْلِف من دار بَقائِك في دار فَنائك، فإنّ عيشك فَيْءٌ زائل، وجِدارٌ مائِل، أكْثِرْ مِن عَمَلك، وأقْصِر من أمَلِك.

وقال إبراهيم بن أدْهَم لرَجلٍ: أدِرْهمٌ في المنام أحبّ إليك أم دينارٌ في اليَقَظة؟ فقال: دينار في اليَقَظة، فقال: كَذَبْتَ، إنّ الّذي تحبّه في الدّنيا فكأنّك تحبّه في المنام،

---

١ ـ الدّحض: المكان الزّلق.

والّذي تحبّه في الآخرة فكأنّك تحبّه في اليَقَظة.

وقال بعض الحكماء: مَن فَرح قلبه بشيءٍ من الدّنيا فقد أخطأ الحِكْمة، ومَن جَعَل شهوته تحت قَدَمَيْه فَرِق الشّيطانُ من ظلّه، ومَن غلب علمه هواه فهو الغالب.

**وقال بعضهم:** الدّنيا تُبغضّ إلينا نفسها ونحن نحبّها، فكيف لو تحبّبت إلينا!

**وقال بعضهم:** الدّنيا دارُ خرابٍ، وأخْرَبُ منها قلبُ مَن يَعْمُرُها، والجَنّة دارُ عُمْران، وأعْمَرُ منها قَلْبُ مَن يَظلُبها.

**وقال يحيى بن مُعاذ:** العُقَلاء ثلاثة: مَن تَرَك الدّنيا قبل أن تَتْرُكَه، وبَنَى قَبرَه قبل أن يَدْخُلَه، وأرْضَى خالقَه قبل أن يَلْقاهُ.

**وقال بعضهم:** مَن أراد أن يستغني عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفِئ النّار بالتِّبْنِ.

ومن كلام بعض فصحاء الزُّهّاد: أيّها النّاس، اعْمَلوا في مَهَلٍ، وكونوا مِن الله على وَجَلٍ، ولاتغترّوا بالأمَل ونسيان الأجَل، ولاتركنوا إلى الدّنيا، فإنّها غَدّارة غَرّارة خَدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفَتَنَتْكم بأمانيّها، وتزيّنتْ لخُطّابها، فأضحت كالعَروس المُتجلّيَة، العيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها عاكفةٌ، والنُّفوسُ لها عاشِقةٌ. فكَمْ مِن عاشقٍ لها قَتَلَتْ، ومُطمئنّ إليها خَذَلَتْ! فانظُروا إليها بعَينِ الحقيقة، فإنّها دارٌ كثرت بَوائقُها، وذَمَّها خالِقُها، جَديدُها يَبْلَى، ومُلْكُها يَفْنَى، وعَزيزُها يَذِلّ، وكثيرُها يَقِلّ، وحَيُّها يموتُ، وخَيرُها يَفوتُ، فاستَيْقِظوا من غفلتِكم، وانتبهوا مِن رَقْدتِكم قبل أن يقال: فلانٌ عَليلٌ ومُدْنَفٌ ثَقيلٌ، فهل على الدّواء مِن دَليلٍ، وهل إلى الطّبيب من سَبيلٍ؟ فتُدْعَى لك الأطبّاء، ولايُرْجَى لك الشّفاء، ثمّ يقال: فلانٌ أوْصَى، وماله أحْصَى، ثمّ يقال: قد ثَقُل لسانُه فما يُكلّم إخوانَه، ولايَعْرِف جيرانَه، وعَرِق عند ذلك جَبينُك، وتتابع أنينُك، وثبت يقينُك، وطَمَحتْ جفونُك، وصَدقَتْ ظُنونُك، وتلجلجَ لسانُك، وبكى إخوانُك، وقيل لك: هذا ابنُك فلان، وهذا أخُوك فلان، مُنِعتَ من الكلام فلا تَنطِقُ، وخُتِمَ على لسانكَ فلا يَنطبِق، ثمّ حَلّ بك القضاء، وانتُزِعَت روحُك من الأعضاء، ثمّ عُرِج بها إلى السّماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأُحْضِرَتْ أكفانُك، فغسّلوك وكفّنوك، ثمّ حملوك فدَفَنُوك، فانقطع عُوّادُك، واستراح حُسّادُك،

وانصَرَفَ أهلُك إلى مالِكَ، وبَقِيتَ مُرْتهنًا بأعمالِك.

وقالَ بعض الزُّهّاد لبعض الملوك: إنّ أحقّ النّاس بذَمّ الدّنيا وقِلاها مَن بُسِطَ له فيها، وأُعْطِي حاجته منها، لأنّه يتوقّع آفةً تَغْدُوعلى ماله فتَجْتاحه، وعلى جمعِه فتفرّقه، أو تأتي على سلطانه فتَهْدِمه من القواعد، أو تدبّ إلى جسمه فتُسْقِمه، أو تفجعه بشيءٍ هو ضَنينٌ به مِن أحبابه، فالدّنيا الأحقّ بالذّمّ، وهي الآخذة ما تُعْطِي، الرّاجعة فيما تَهَب، فبينا هي تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه، وبينا هي تبكي له إذ أبكَتْ عليه، وبينا هي تَبْسُط كفّه بالإعطاء إذ بَسَطتْ كفّها إليه بالاسترجاع والاسترداد، تَعْقِد التّاج على رأس صاحبها اليوم وتُعفِّره في التّراب غدًا، سواء عليها ذهاب مَن ذَهَبَ وبقاء مَن بَقِ، تجد في الباقي من الذّاهب خَلَفًا، وتَرْضى بكلّ مِن كلّ بَدَلًا.

وكتب الحسن البَصْريّ إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإنّ الدّنيا دارُ ظَعْنٍ ليست بدار إقامةٍ، وإنّما أُنزل إليها عقوبة فاحْذَرْها، فإنّ الزّاد منها رِبحُها، والغِنَى منها فَقْرُها، لها في كلّ حينٍ قَتيلٌ، تُذِلّ مَن أعزّها، وتُفْقِرُ مَن جَمَعها، هي كالسُّمّ يأكله مَن لا يعرفه وهو حَتْفُه، فكُن فيها كالمُداوِي جراحه، يحْمِي قليلًا مخافةً ما يكرهه طويلًا، ويصبر على شدّة الدّواء، مخافة طول البلاء، فاحْذَرْ هذه الدّنيا الغَدّارة المَكّارة، الخَتّالة الخَدّاعة، الّتي قد تزيّنت بخُدَعها، وفَتنَتْ بغرورها، وتحلّت بآمالها، وتَشَرَّفَتْ لخُطّابها، فأصبحت بينهم كالعَروس تُجْلى على بَعْلها، العيونُ إليها ناظرةٌ، والقُلوبُ عليها والِهَةٌ، والنُّفوسُ لها عاشِقَةٌ، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي مُعْتَبِر، ولا الآخر بالأوّل مُزْدَجِر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مُذَكِّر، فمِن عاشقٍ لها قد ظفر منها بحاجته، فاغْترّ وطغى ونَسِيَ المعاد، وشُغِل بها لُبُّه حتّى زَلّت عنها قَدَمُه، فعَظُمتْ ندامتُه، وكَثُرَتْ حَسْرتُه، واجتمعت عليه سَكَرات الموت بألَمِه، وحَسَرات الفَوْت بغصّته، ومِن راغِبٍ فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يُرِح نفسه من التَّعَب، خرج منها بغير زادٍ، وقَدِم على غير مِهادٍ، فاحْذَرْها ثمّ احْذَرْها، وكُن أسرّ ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها، فإنّ صاحبها كلّما اطْمأنّ منها إلى سُرورٍ أشْخَصَته إلى مَكْروهٍ،

والسّارّ منها لأهلها غارّ، والنّافع منها في غَدٍ ضَارّ، قد وُصِل الرّخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها للفَناء، فسُرورُها مَشُوبٌ بالأحزان، ونَعيمُها مُكدَّرٌ بالأشجان، لا يرجع ما ولّى منها وأدبر، ولا يَدري ما هو آتٍ فينتظر، أمانيّها كاذبة، وآمالها باطلة، وصَفوها كَدَر، وعيشها نَكَد، والإنسان فيها على خَطَرٍ إن عَقَل ونَظَر، وهو من النَّعْماء على غَرَرٍ، ومن البلاء على حَذَرٍ، فلوكان الخالق لها لم يخبرعنها خَبرًا، ولم يَضْرِبْ لها مَثَلًا، لكانت هي نفسها قد أيقَظَتِ النّائم، ونبّهتِ الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجرٌ، وبتصاريفها واعِظٌ، فما لها عند الله قَدْر، ولا نظر إليها منذ خَلَقَها. ولقد عُرِضتْ على نبيّك محمّد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لاينقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضَةٍ، فأبَى أن يقبلها، كَرِهَ أن يخالف على الله أمره، أو يحبّ ما أبغَضَه خالِقُه، أو يرفع ما وضعه مَليكه، زواها الرّبّ سبحانه عن الصّالحين اختبارًا، وبَسَطها لأعدائه اغترارًا، فيظنّ المغرور بها، المقتدر عليها، أنّه أُكْرِم بها، ويَنسَى ما صنع اللهُ تعالى بمحمّد ﷺ من شَدِّهِ الحَجَر على بَطْنِه، وقد جاءت الرّواية عنه عن ربّه سبحانه أنّه قال لموسى: إذا رأيتَ الغِنَى مُقبلًا، فقُلْ: ذنبٌ عجلتْ عقوبتُه. وإذا رأيت الفَقْرَ مُقبلًا، فقُلْ: مَرْحبًا بشِعارِ الصّالحين، وإن شئتَ اقتديتَ بصاحبِ الرُّوحِ والكلمةِ عيسى، كان يقول: إدامي الجوع، وشِعاري الخوف، ولباسي الصُّوف، وصِلائي في الشّتاء مشارق الشّمس، وسِراجي القمر، ووِسادي الحَجَر، ودابّتي رِجْلَاي، وفاكهتي وطعامي ما أنبتت الأرضُ، أبيتُ وليس لي شيء، وليس على الأرض أحدٌ أغْنَى منّي.

**وفي بعض الكُتُب القديمة:** إنّ الله تعالى لما بَعَثَ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، قال: لايروعنّكما لباسه الّذي لبس من الدّنيا، فإنّ ناصِيتَه بيَدي ليس ينطق ولايَطْرِف ولايتنفّس إلّا بإذني. ولايُعْجِبكما ما مُتِّع به منها، فإنّ ذلك زَهْرة الحياة الدّنيا، وزينة المُتْرَفين، ولو شئت أن أُزيّنكما بزينةٍ من الدّنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مَقْدِرته تعجز عمّا وُهِبتما لفَعَلْتُ، ولكنّي أرغب بكما عن ذلك، وأزوِي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي. إنّي لأذودُهم عن نَعيمها كما يَذودُ الرّاعي الشّفيق غنمه عن مَراتع الهَلَكة، وإنّي لأُجنِّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الرّاعي الشّفيق إبلَه

عن مبارك العُرَّ، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا مَوْفُورًا. إنّما يتزيّن لي أوليائي بالذُّلّ والخضوع والخوف، وإنّ التّقوى لتثبت في قلوبهم فتظهر على وجوههم، فهي ثيابُهم الّتي يلبسونها، ودِثارُهم الّذي يظهرون، وضميرهم الّذي يستشعرون، ونجاتُهم الّتي بها يفوزون، ورَجاؤهم الّذي إيّاه يأملون، ومجدهم الّذي به يفتخرون، وسيماهم الّتي بها يُعْرَفون. فإذا لقيهم أحدكما فليخفض لهم جناحه، وليذلّل لهم قلبه ولسانه، وليعلم أنّه مَن أخاف لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، ثمّ أنا الثّائر به يوم القيامة.

**ومن كلام بعض الحكماء:** الأيّام سِهام، والنّاس أغراض، والدّهر يرميك كلّ يوم بسِهامه، ويتخرَّمك بلَياليه وأيّامه، حتّى يستغرق جميع أجزائك، ويُضْمِي جميع أبعاضك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيّام بك، وسرعة اللّيالي في بدنك! ولو كُشِف لك عمّا أحدثَت الأيّام فيك من النقص لاستَوْحَشْتَ من كلّ يومٍ يأتي عليك، واستثقلْت مَمَرَّ السّاعاتِ بك، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النّظر والاعتبار.

**وقال بعض الحكماء** ـ وقد استوصف الدّنيا وقَدْر بقائها ـ: الدّنيا وقتك الّذي يرجع إليه طَرْفُك، لأنّ ما مضى عنك فقد فاتَك إدراكه، وما لم يأتِ فلا علم لك به، والدّهر يومٌ مُقْبَل تنعاه ليلتُه، وتَطْويه ساعاتُه، وأحداثه تتوالى على الإنسان، بالتّغيير والنّقصان، والدّهر مُوكَّل بتشتيت الجماعات، وانخرام الشَّمْل، وتنقُّل الدُّوَل، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأُمور.

**وقال بعض الفضلاء:** الدّنيا سريعة الفَناء، قريبة الانقضاء، تَعِدُ بالبقاء، وتُخْلِف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة، وهي سائرة سيرًا عَنيفًا ومرتحلة ارتحالًا سريعًا، ولكنّ النّاظر إليها قد لا يُحِسّ بحركتها فيطمئنّ إليها، وإنّما يحسّ بذلك بعد انقضائها، ومِثالها الظّلّ: فإنّه متحرّك ساكن، متحرّك في الحقيقة، وساكنٌ في الظّاهر، لا تدرَك حركته بالبَصَر الظّاهر، بل بالبصيرة الباطنة. (١٩: ٢٨٧ ـ ٢٩٧)

**(الحكمة: ٣٩٠) الأصل: الرُّكُونُ إِلَى الدُّنيَا مَعَ مَا تُعَايِنُ مِنهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ الْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ لَهُ عَجْزٌ.**

**الشّرح:** قد تقدّم الكلام في الدّنيا وحُمْق مَن يَرْكَنُ إليها مع مُعاينة غَدْرِها، وقِلّة وفائها ونَقْضِها عهودَها، وقَتْلِها عُشّاقها.

ولا ريب أنّ الغُبن ـ وأعظم الغَبْن ـ هو التّقصير في الطّاعة مع يقين الثّواب عليها، وأمّا الطّمأنينة إلى مَن لم يعرف ولم يختبر فإنّها عجز ـ كما قال عليه السلام ـ يعني عجزًا في العقل والرّأي، فإنّ الوثوق مع التّجربة فيه ما فيه، فكيف قبل التّجربة!

وقال الشّاعر[الطّويل]:

وكُنتُ أرَى أنَّ التّجاربَ عُدّةٌ فخانَتْ ثِقاتُ النّاسِ حين التّجاربُ

(١٩ : ٣٢٥)

**(الحكمة: ٣٩١) الأصل: مِن هَوَانِ الدُّنيَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنَالُ مَا عِندَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا.**

**الشّرح:** هذا الكلام نَسَبَه الغَزاليّ في كتاب «إحياء علوم الدّين» إلى أبي الدّرداء، والصّحيح أنّه من كلام عليّ عليه السلام، ذكره شيخنا أبو عُثمان الجاحظ في غير موضع من كُتُبه، وهو أعرف بكلام الرّجال.

## [نبذ ممّا قيل في حال الدّنيا وهَوانها واغترار النّاس بها]

وقد تقدّم من كلامنا في حال الدّنيا وهَوانها على الله واغترار النّاس بها وغَدْرِها بهم[1]، وذمّ العقلاء لها، وتحذيرهم منها ما فيه كفاية. ونحن نذكرها هنا زيادةً على ذلك.

---

١ ـ أ: «وغدرهم بها».

يقال: إنّ في بعض كُتُب الله القديمة: الدّنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجُهّال، لم يَعْرِفوها حتّى خرجوا منها فسألوا الرَّجعة فلم يَرْجِعوا.

**وقال بعض العارفين:** مَن سأل الله [ تعالى ] الدّنيا فإنّما سأله طول الوقوف بين يديه.

**وقال الحسن:** لاتخرج نفس ابن آدم من الدّنيا إلّا بحَسَرات ثلاث: أنّه لم يشبع ممّا جمَع، ولم يُدْرِك ما أمَّلَ، ولم يحسن الزّاد لما يُقْدِم عليه.

**ومن كلامه:** أهِينوا الدّنيا، فوالله ما هي لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها.

**وقال محمّد بن المُنكَدِر:** أرأيتَ لو أنّ رجلًا صام الدّهر لا يفطر، وقام اللّيل لايَفْتُر، وتصدّق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجْتَنَب محارمَ الله تعالى، غيرأنّه يؤتَى به يوم القيامة، فيقال: إنّ هذا مع ما قد عمل كان يَعْظم في عَيْنه ما صغرالله، ويصغُر في عينه ما عظّم الله، كيف ترى يكون حالُه! فمَن منّا ليس هكذا، الدّنيا عظيمة عنده مع ما اقْتَرَفْنا من الذّنوب والخطايا.

وقد ضرَبَت الحكماء مَثَلًا للدّنيا نحن نذكره هاهنا، قالوا: مَثَلُ الدّنيا وأهلها كقَوْمٍ رَكِبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم المَلّاح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المقام، وخَوّفهم مُرورَ السّفينة، واستعجالها، فتفرّقوا في نواحي الجزيرة، فقَضَى بعضُهم حاجته وبادر إلى السّفينة، فصادف المكان خاليًا، فأخذ أوْسَعَ المواضع وألْيَنها وأوْفَقها لمراده. وبعضهم توقّف في الجزيرة ينظُر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، وغِياضِها الملتفّة، ونَغَمات طُيورِها الطّيّبة، وألحانها الموزونة الغريبة، ولحظ في تزيينها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذوات الأشكال الحَسَنة المَنظَر، العجيبة النّقش، السّالبة أعين النّاظرين بحُسْن زِبْرِجها، وعجائب صُوَرها، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السّفينة، فرجع إليها فلم يصادف إلّا مكانًا ضَيّقًا حَرَجًا، فاستقرّ فيه، وبعضهم أكَبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار، وقد أعْجَبَه حُسْنُها، ولم تَسْمَح نفسه بإهمالها وتَرْكِها، فاستصحَبَ منها جملةً، فجاء إلى السّفينة فلم يجد إلّا مكانًا ضيّقًا، وزاده ما

حمله ضِيقًا، وصار ثِقْلًا عليه ووَبالًا، فندم على أخْذِه، ولم تُطِعْه نفسه على رَمْيِه، ولم يجد مَوْضعًا له، فحَمَله على عُنُقه ورأسِه، وجلس في المكان الضّيّق في السّفينة، وهو متأسّف على أخْذِه ونادِم، وليس ينفعه ذلك، وبعضُهم تولج بتلك الأنوار والغِياض، ونَسي السّفينة وأبْعَد في متفرَّجِه ومتنزَّهِه، حتّى أنّ نداء المَلّاح لم يَبلُغه لاشتغاله بأكْل تلك الثِّمار، واشتمامِه تلك الأنوار، والتّفرّج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائِفٌ على نفسه من السِّباع، والسَّقَطات والنَّكَبات، ونَهْشِ الحَيّات، وليس ينفكّ عن شَوْكٍ يتشبّث بثيابه، وغصن يَجْرح جسمه، ومَرْوةٍ تُدْمِي رِجْلَه، وصوتٍ هائل يَفْزَع منه، وعَوْسَج يملأ طريقَه، ويمنعه عن الانصراف لو أراده، وكان في جماعةٍ ممّن كان معه في السّفينة حالهم حالُه، فلمّا بلغهم نداءُ السّفينة راحَ بعضهم مُثْقَلًا بما معه فلم يجد في السّفينة مَوْضعًا واسعًا ولا ضيّقًا، فبقي على الشّطّ حتّى مات جُوعًا.

وبعضهم بَلَغَه النّداء، فلم يُعرّج عليه، واستغرقَتْه اللّذّة، وسارت السّفينة: فمنهم مَن افتَرَسَتْه السِّباع، ومنهم مَن تاهَ وهامَ على وجهه حتّى هلك، ومنهم مَن ارتَطَم في الأوحال، ومنهم مَن نَهَشَتْه الحَيّات، فتفرّقوا هَلْكَى كالهَشِيم المنتنة. فأمّا مَن وصل إلى السّفينة مُثْقَلًا بما أخَذَهُ من الأزهار والفاكهة اللّذيذة، والأحجار المعجبة، فإنّها استرقّته وشغَلَه الحُزْن بحفظِها والخَوْفِ من ذهابها عن جميع أُموره، وضاق عليه بطريقها مكانُه، فلم تَلْبَث أن ذبلتْ تلك الأزهار، وفَسَدت تلك الفاكهة الغَضّة، وكَمَدتْ ألوان الأحجار وحالت، فظهر له نَتْنُ رائحتها، فصارت مع كونها مضيّقة عليه مُؤذِيةً له بنَتْنِها ووَحْشَتها، فلم يجد حيلةً إلّا أن ألقاها في البحر هَرَبًا منها وقد أثّر في مزاجه ما أكله منها، فلم يَنتَهِ إلى بلده إلّا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بما أكل وما شَمّ من تلك الرّوائح، فبلغ سَقيمًا وقيذًا مُدبرًا. وأمّا مَن كان رجع عن قريب وما فاته إلّا سَعَة المحلّ، فإنّه تأذّى بضِيق المكان مدّة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح. وأمّا مَن رجع أوّلًا فإنّه وجد المكان الأوسع، ووَصَل إلى الوطن سالمًا طيّبَ القلب مَسرورًا.

فهذا مِثال أهل الدّنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونِسيانهم مَوْرِدهم

ومَصْدَرهم، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم، وما أقْبَحَ حال مَن يَزْعُم أنّه بصير عاقل وتغرّه حجارة الأرض، وهي الذَّهَب والفضّة، وهَشيم النَّبْت وهو زينة الدّنيا، وهو يعلم يقينًا أنّ شيئًا من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كلّه وَبالًا عليه، وهو في الحال الحاضرة شاغِلٌ له بالخوف عليه، والحزن والهَمّ لحفظه، وهذه حال الخَلْق كلّهم إلّا مَن عَصِمَه الله.

وقد ضرب أيضًا لها مِثالٌ آخَر في عبور الإنسان عليها، قالوا: الأحوال ثلاثة: حال لم يكن الإنسان فيها شيئًا، وهي ما قبل وجوده إلى الأزل. وحالٌ لا يكون فيها موجودًا مُشاهدًا للدّنيا، وهي بعد موته إلى الأبد. وحالة متوسّطةٌ بين الأزل والأبد، وهي أيّام حياته في الدّنيا. فلينظر العاقل إلى الطَّرَفَين الطّويلَين، ولينظر إلى الحالة المتوسّطة، هل يجد لها نسبةً إليها، وإذا رأى العاقل الدّنيا بهذه العين لم يَرْكَن إليها، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها، في ضُرّ وضِيق، أو في سَعَةٍ ورَفاهة، بل لا يَبْني لَبِنةً على لَبِنة. توفّي رسولُ الله ﷺ وما وَضَع لَبِنة على لَبِنة، ولا قَصَبة على قَصَبة.

ورأى بعضَ الصّحابة بَنَى بيتًا من جِصّ، فقال: أرى الأمرَ أعْجَل من هذا، وأنكَر ذلك، ولهذا قال النّبيّ ﷺ: ما لي وللدّنيا، إنّما مَثَلي ومَثَلُها كراكبٍ سارَ في يوم صائف، فرُفِعَتْ له شجرةٌ، فقام تحت ظِلّها ساعةً ثمّ راح وتركها، وإلى هذا أشار عيسى ابن مريم حيث قال: الدّنيا قَنطَرةٌ، فاعْبُروها ولا تَعْمروها. وهو مَثَلٌ صحيح، فإنّ الحياة الدّنيا قنطرة إلى الآخرة، والمَهْد هو أحد جانِبَي القنطرة، واللَّحْد الجانب الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن النّاس مَن قطع نصفَ القَنطَرة، ومنهم مَن قطع ثُلثَيها، ومنهم مَن لم يَبْقِ له إلّا خُطْوةً واحدةً وهو غافل عنها، وكيفما كان فلابدّ من العبور والانتهاء، ولا ريب أنّ عمارة هذه القنطرة، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن هو محمول قَسْرًا وقَهْرًا على عُبورها، يسوقه سائقٌ عنيف، غاية الجهل والخذلان.

وفي الحديث المرفوع: «أنّ رسول الله ﷺ مَرّ على شاةٍ مَيّتةٍ، فقال: أترَوْن أنّ هذه الشّاة هيّنةٌ على أهلها؟ قالوا: نعم، ومِن هَوانها ألْقَوْها. فقال: والّذي نفسي بيده لَلدّنيا أهون على الله مِن هذه الشّاة على أهلها، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ

بَعُوضة لما سَقَى كافرًا منها شربةَ ماء».

وقال ﷺ: «الدّنيا سِجْنُ المؤمن، وجَنّة الكافر».

وقال أيضًا: «الدّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلّا ما كان لله منها».

وقال أيضًا: «مَن أحبّ دنياه أضَرّ بآخرته، ومَن أحبّ آخرته أضرّ بدُنياه، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى».

وقال أيضًا: «حُبّ الدّنيا رأس كلّ خَطيئةٍ».

ورَوَى زيد بن أرقم، قال: كنّا مع أبي بكر، فدَعَا بشرابٍ، فأُتِي بماءٍ وعَسَل، فلمّا أدناه مِن فيه بَكَى حتّى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سَكَت، ثمّ عاد ليَشْرَب، فبكى حتّى ظنّوا أنّهم لا يَقْدِرُون على مسألته، ثمّ مسح عينَيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله، ما أبكاك؟ قال: كُنتُ مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يدفع بيده عن نفسه شيئًا، ولم أرَ معه أحدًا، فقلت: يا رسول الله، ما الّذي تدفع عن نفسك؟ قال: هذه الدّنيا مُثِّلت لي، فقلت لها: إليكِ عَنّي، فرجعتْ وقالت: إنّك إن أفلتّ منّي لم يفلتْ منّي مَن بَعْدَك.

وقال ﷺ: «يا عَجَبا كلّ العَجَب للمُصدِّق بدار الخلود وهو يَسْعَى لدّار الغرور!».

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام: «لاتتّخذوا الدّنيا ربًّا فتتّخذكم الدّنيا عَبيدًا، فاكْنِزُوا كَنزكم عند مَن لا يُضَيِّعه، فإنّ صاحب كَنز الدّنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كَنز الآخرة لا يخاف عليه». (١٩ : ٣٢٦ ـ ٣٣١)

**(الحكمة: ٤٠١) الأصل: خُذْ مِنَ الدُّنيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنكَ، فَإِن أَنتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.**

الشّرح: كان يقال: اجْعَلِ الدّنيا كغَرِيم السّوء حَصِّل منه ما يَرْضَخ لك به، ولا تَأْسَ على ما دَفَعك عنه. ثمّ قال عليه السلام: فإن لم تفعل فأجْمِل في الطّلب، وهي من الألفاظ النّبويّة: «لن تموت نَفْسٌ حتّى تَسْتَكْمِل رِزْقَها، فأجْمِلوا في الطّلب».

قيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى؟ فقال: قلّة تمنّيك، ورِضاك بما يكفيك.

(١٩ : ٣٥٨)

**(الحكمة: ٤١٩) الأصل: وقَالَ عليه السلام فِي صِفَةِ الدُّنيَا: الدُّنيَا تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَابًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا كلامٌ طويلٌ في ذمّ الدّنيا.

ومن الكلام المستحسَن قوله: «تَغُرّ وتَضُرُّ وتَمُرّ»، والكلمة الثّانية أحسن وأجمل.

وقرأتُ في بعض الآثار: أنّ عيسى عليه السلام مَرّ بقَرْيةٍ وإذا أهلها مَوْتَى في الطُّرُق والأفْنِية، فقال للتّلامذة: إنّ هؤلاء ماتُوا عن سَخَطةٍ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافَنوا، فقالوا: يا سيّدنا، وَدَدْنا أنّا عَلِمْنا خبرهم. فسأل الله تعالى، فقال له: إذا كان اللّيل فنَادِهم يجيبوك. فلمّا كان اللّيل أشرف على نَشَزٍ ثمّ ناداهم، فأجابه مجيب، فقال: ما حالُكم، وما قِصّتكم؟ فقال: بِتْنا في عافيةٍ، وأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذلك؟ قال: لحُبّنا الدّنيا. قال: كيف كان حُبّكم لها؟ قال: حُبّ الصَّبيّ لأُمّه، إذا أقبلتْ فَرِحَ بها، وإذا أدبرتْ حَزِن عليها وبَكَى. قال: فما بَالُ أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنّهم مُلْجَمون بلُجُم من نارٍ بأيدي ملائكة غِلاظٍ شِدادٍ. قال: فكيف أجبتَني أنت من بينهم؟ قال: لأنّي كنتُ فيهم، ولم أكن منهم، فلمّا نَزَل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا مُعلّق على شَفِير جهنّم لا أدري أنجو منها أم أُكَبْكَبُ فيها؟ فقال المسيح لتلامذته: لأكْل خُبْز الشَّعير بالمِلْح الجَريشِ ولَبْس المُسُوح والنّوم على المَزابِل وسِباخ الأرض في حَرّ الصّيف، كثيرٌ مع العافية من عذاب الآخرة. (٢٠ : ٥١)

**(الحكمة: ٤٢٠) الأصل: ... وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنيَا كَرَكْبٍ، بَيْنَا هُمْ حَلُّوا إِذْ صَاحَ بِهِمْ سَائِقُهُمْ فَارْتَحَلُوا.**

**الشّرح:** ... وممّا جاء في وصف الدّنيا ممّا يناسب كلام أمير المؤمنين قول أبي العَتَاهيّة [المديد]:

إنّ دارًا نَحنُ فيها لَدَارُ ... لَيسَ فيها لِمُقِيمٍ قَرارُ

كَمْ وكَمْ قد حَلّها مِن أناسٍ ... ذَهَبَ اللّيلُ بهم والنّهارُ

فهُمُ الرَّكْبُ أصابوا مُناخًا[1] فاستَراحُوا ساعةً ثُمَّ سارُوا
وكذا الدّنيا على ما رَأيْنَا يَذْهَبُ النّاسُ وتَخلُو الدِّيارُ

(٢٠ : ٥٢ ـ ٥٣)

(الحكمة: ٤٢١) الأصل: وقَالَ عليه السلام لابْنِهِ الْحَسَنِ عليه السلام:

يا بُنَيَّ لَا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئًا مِنَ الدُّنيَا، فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ، إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ، فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، فَكُنتَ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَلَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ حَقِيقًا أَن تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

قَالَ الرَّضِيُّ: ويُرْوَى هَذَا الْكَلَامُ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ مِنَ الدُّنيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى أَهْلٍ بَعْدَكَ، وَإِنَّمَا أَنتَ جَامِعٌ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ اللهِ، فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ؛ أَوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَشَقِيتَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، وَلَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ أَهْلًا أَن تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا أَن تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ، فَارْجُ لِمَن مَضَى رَحْمَةَ اللهِ، وَلِمَن بَقِيَ رِزْقَ اللهِ.

الشّرح: رُوِي: «فإنّك لا تخلّفه إلّا لأحد رَجُلَين»، وهذا الفصل نَهيٌ عن الادّخار، وقد سبق لنا فيه كلام مُقْنع.

وخلاصةُ هذا الفَصْلِ أنّك إن خلّفتَ مالًا، فإمّا أن تخلّفه لمن يَعْمل فيه بطاعة الله، أو لمن يَعْمل فيه بمعصيته، فالأوّل يسعد بما شَقَيْتَ به أنت، والثّاني يكون مُعانًا منك على المعصية بما تركته له من المال، وكِلَا الأمرين مذمومٌ، وإنّما قال له: «فَارْجُ

---

١ ـ حذف «قد» حفظًا للوزن وتماشيًا مع سياق الأبيات، ونزولًا على ماجاء بالدّيوان ومصادر الأدب كالمتنخل وحماسة القرشيّ.

لمن مَضَى رَحْمَةَ اللهِ، ولمن بَقِي رِزقَ اللهِ»، لأنّه قال في أوّل الكلام: «قد كان لهذا المال أهلٌ قبلك، وهو صائر إلى أهلٍ بعدك».

والكلام في ذمّ الادّخار والجَمْع كثيرٌ، وللشّعراء فيه مذاهب واسعة ومعانٍ حَسَنة. وقال بعضهم [البسيط]:

يا جامِعًا مانِعًا والدَّهْرُ يَرْمُقُهُ ... مُدَبِّرًا أيّ باب عنه يُغْلِقُهُ

وناسِيًا كيفَ تأتيهِ مَنِيّتُهُ ... أغادِيًا أمْ بها يَسْرِي فتَطْرُقُهُ

جمعتَ مالًا فقُلْ لي هَلْ جمعتَ لَهُ ... يا جامِعَ المالِ أيّامًا تُفَرِّقُهُ

المالُ عِندَكَ مخزونٌ لوارِثِهِ ... ما المالُ مالُكَ إلّا يوم تُنفِقُهُ

أرْفِهْ ببَالِ فتًى يَغْدُو على ثِقَةٍ ... إنَّ الّذي قَسَمَ الأرزاقَ يَرْزُقُهُ

فالعِرْضُ منه مَصُونٌ لا يُدَنِّسُهُ ... والوَجْهُ منه جَدِيدٌ ليس يُخْلِقُهُ

إنَّ القناعةَ مَن يَحْلُلْ بسَاحَتِها ... لَمْ يَلْقَ في ظِلِّها همًّا يُؤَرِّقُهُ

(٢٠ : ٥٤ ـ ٥٥)

**(الحكمة: ٤٦٩) الأصل: وقَالَ عليه السلام: الدُّنيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا.**

**الشّرح:** قال أبو العلاء المَعَرّيّ ـ مع ما كان يُرْمَى به ـ في هذا المعنى ما يطابق إرادة أمير المؤمنين عليه السلام بلفظه هذا [الخفيف]:

خُلِقَ النّاسُ للبقاءِ فَضَلّتْ ... أمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ للنَّفَادِ

إنَّما يُنقَلُون مِن دارِ أعْمَا ... لٍ إلى دارِ شِقْوةٍ أو رَشَادِ

(٢٠ : ١٨١)

## الفصل السّادس والسّتّون: [في وَصْف القُبور والمَوْتى]

(الخطبة: ٢١٦) ومن كلام له عليه السلام: قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾:

يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْرًا مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَرًا مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ!

أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ!

يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ، وَلَأَن يَكُونُوا عِبَرًا، أَحَقُّ مِن أَن يَكُونُوا مُفْتَخَرًا، وَلَأَن يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَى مِن أَن يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَو اسْتَنطَقُوا عَنهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَؤُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا.

سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِن لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِن دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنمُونَ، وَضِمَارًا لَا يُوجَدُونَ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ، غُيَّبًا لَا يُنتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافًا فافْتَرَقُوا.

وَمَا عَن طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْسًا بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ.

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ، وَانقَطَعَتْ مِنهُمْ أَسبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا، شَاهَدُوا مِن أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِن آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

فَلَوكَانُوا يَنطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا. وَلَئِن عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِن غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَامَّحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِن كَرْبٍ فَرَجًا، وَلَا مِن ضِيقٍ مُتَّسَعًا!

فَلَو مَثَّلَتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْكُشِفَ عَنهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنجَلِي.

فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِن عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِن مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنًّا بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنيَا

وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِن كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَتٌّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنَحِيٌّ هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِن تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ. وَخَرِسُوا عَن جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ، فَقَائِلٌ: هُوَ لِمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِن قَبْلِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحِ مِن فِرَاقِ الدُّنيَا، وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِن غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ، فَكَمْ مِن مُهِمٍّ مِن جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَن رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ لِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عنهُ، مِن كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِن أَن تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنيَا.

**الشّرح:** قد اختلف المفسّرون في تأويل هاتَين الآيَتَين، فقال قوم: المعنى أنّكم قطعتم أيّام عمركم في التّكاثر بالأموال والأولاد حتّى أتاكم الموت، فكنّى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر.

وقال قومٌ: بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات، فقالوا: منّا فلان وفلان لقوم كانوا وانقرضوا.

وهذا هو التّفسير الّذي يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يا له مَرامًا!» منصوب على التّمييز. ما أبعده، أي لا فخر في ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد، وإنّما الفخر بتقوى الله وطاعته.

«وزَوْرًا ما أغفله!» إشارة إلى القوم الّذين افتخروا؛ جعلهم بتذكّر الأموات السّالفين، كالزّائرين لقبورهم. والزّور اسمٌ للواحد والجمع، كالخصم والضّيف. قال: ما

أغفلهم عمّا يراد منهم، لأنّهم تركوا العبادة والطّاعة، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى.

ثمّ قال: «وخَطَرًا ما أفظعه» إشارة إلى الموت: ما أشدّه! (١١ : ١٤٥ ـ ١٤٦)

## [بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور والموتى]

**واعلم!** أنّ النّاس قد قالوا في حال الموتى، فأكثروا فمن ذلك قول الرّضيّ أبي الحسن رحمه الله تعالى [الكامل]:

أعْزِزْ عَلَيّ بأن نَزَلْتَ بمنزلٍ ... مُتشابِهِ الأمجادِ بالأوغادِ

في عُصْبةٍ جُنِبُوا إلى آجالِهِمْ ... والدّهْرُ يُعجِلُهُمْ عَنِ الإزوادِ

ضَرَبُوا بِمَدْرَجةِ الفَنَاءِ قِبَابَهُمْ ... مِنْ غَيْرِ أطنابٍ ولا أعْمَادِ

رَكْبٌ أناخُوا لا يُرَجَّى منْهُمُ ... قَصْدٌ لإِ تْهَامٍ ولا إنجادِ

كَرِهُوا النُّزولَ فَأنْزَلَتْهُمْ وَقْعَةٌ ... للدَّهْرِ بارِكةٌ بكلِّ مَفادِ

فَتَهافَتُوا عَن رَحْلِ كلِّ مُذلّلٍ ... وتَطَاوَحُوا عَن سَرْجِ كلّ جَوادِ

بادُونَ في صُوَرِ الجميعِ وإنَّهُمْ ... مُتَفرّدُونَ تَفَرُّدَ الآحَادِ

قوله: «بادون في صُوَر الجميع» مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «فكلّهم وَحيد وهم جميع».

وقال أيضًا [الكامل]:

ولَقَدْ حَفِظْتُ له فَأيْنَ حِفَاظُهُ ... ولَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ فَأيْنَ وَفَاؤُهُ

أوَعَى الدّعاءَ فَلَمْ يُجِبْهُ قَطِيعةً ... أمْ ضَلّ عنه مِنَ البِعَادِ دُعاؤُهُ

هَيْهَاتَ أصْبَحَ سَمْعُهُ وَعِيَانُهُ ... في التّرب قد حجبتْهُمَا أقذاؤُهُ

يمسِي ولِينُ مِهادِهِ حَصْبَاؤُهُ ... فِيهِ ومُؤْنِسُ لَيْلِهِ ظَلْماؤُهُ

قد قُلِّبَتْ أعْيَانُهُ وتنكَّرَتْ ... أعْلَامُه وتَكَسَّفَتْ أضْوَاؤُهُ

مُغْـفٍ ولَـيْسَ لِلَـذّةٍ إغْفَـاؤُهُ مُغْـضٍ ولَـيسَ لِفِكْـرَةٍ إغْضَـاؤُهُ
وَجْهٌ كلَمْعِ البَرْقِ غاضَ وَمِيضُـهُ قَلْبٌ كصَدْرِ العَضْبِ فُلَّ مَضَاؤُهُ
حَكَـمَ الـبِلَى فِيـهِ فلـو تَلْـقَى بِـهِ أعْـداءَهُ لَـرَثَى لَـهُ أعْـدَاؤُهُ

وقال أبو العلاء [البسيط]:

أستغفرُ اللهَ ما عندي لَكُمْ خَبَرٌ وما خِطَـابِي إلّا معشـرًا قُبِـروا
أصبحتُم في البِلَى عُبْرًا مَلابِسِكُمْ مِـنَ الهَبَـاءِ فـأيْنَ البُـرْدُ والقِطَـرُ
كُنتُمْ على كلِّ خَطْبٍ فادِحٍ صُبُرًا فَهَلْ شَعَرْتُمْ؛ وقد جَادَتْكُمُ الصِّبرا!
وما دَرَى يوم أحْدٍ بالّذِينَ ثَوَوْا فِيـهِ ولا يـوم بَـدْرٍ أنّهُـمْ نُصِـرُوا

وقال أبو عارم الكلابيّ [الوافر]:

أجازِعَـةٌ رُدَيْنَـةُ أن أتَاهَـا نَعِيٌّ أمْ يكون لها اصْطِبارُ!
إذا مـا أهْـلُ قَبْـرِي وَدَّعُـونِي وَرَاحُـوا والأكُـفُّ بهـا غُبَـارُ
وغُـودِرَ أعظُمِـي في لَحْـدَ قَبـرٍ تراوِحُـهُ الجنائِـبُ والقِطَـارُ
تَهِبُّ الرِّيحُ فَوْقَ مَحَطِّ قَبرِي ويَرْعَى حَوْلَهُ اللّهقُ النَّوَارُ
مُقِـيمٌ لايُكلِّمُـهُ صَـدِيقٌ بِقَبْـــــرٍ لا أزُورُ ولا أزارُ
فَذَاكَ النَّأيُ لا الهِجْرانُ حَوْلًا وحَـوْلًا ثَمَّ تَجْتَمِعُ الـدِّيارُ!

مرّ الإسكندر بمدينة قد مَلَكها سبعة أملاك من بيتٍ واحدٍ وبادوا، فسأل: هل بَقِيَ من نسلهم أحدٌ؟ قالوا: بقي واحد، وهو يلزم المقابر. فدعا به، فسأله لِمَ تلزم المقابر؟ قال: أردتُ أن أُميّز عِظامَ الملوكِ من عِظام عَبيدِهم، فوجدتُها سواء. قال: هل لك أن تلزمني حتّى أنيلَك بغيتك؟ قال: لو علمتُ أنّك تقدر على ذلك للزمتُك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياةٌ لا موت معها. قال: لن أقدرَ على ذلك. قال: فدعني أطلبه ممّن يقدر عليه.

قال النّبيّ ﷺ: «ما رأيت منظرًا إلّا والقبر أفظع منه».

وقال ﷺ: «القبر أوّل منزلٍ من مَنازل الآخرة، فمَن نجا منه فما بعده أيسر، ومَن لَمْ يَنجُ فما بعده شَرٌّ له».

مَرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرةٍ، فصلّى فيها ركعتَين، وقال: ذكرتُ أهلَ القبور وأنّه حِيلَ بينهم وبين هذا، فأحببتُ أن أتقرّب بهما إلى الله ... .

قوله عليه السلام: «شَاهَدوا مِن أخْطارِ دارِهِمْ»، المعنى: أنّه شاهد المتّقون من آثار الرّحمة وأماراتها، وشاهد المجرمون من آثار النّقمة وأماراتها عند الموت، والحصول في القبر أعظم ممّا كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم في الدّنيا ... .

قوله: «وتهدّمت علينا الرُّبوع» ... ويعني بالرّبوع الصُّموت القبور، وجعلها صُموتًا، لأنّه لا نطق فيها، كما تقول: ليل قائم ونهار صائم، أي يقام ويصام فيهما، وهذا كلّه على طريق الهَزّ والتّحريك وإخراج الكلام في معرض غير المعرض المعهود، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتَوْا] بما وصفه من أحوالهم.

قوله عليه السلام: «فلومثّلتَهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك» ... هذا الكلام أخذه ابن نُباتة بعينه، فقال: فلوكشفتم عنهم أغطيةَ الأجداث بعد ليلتَين أو ثلاث، لوجدتم الأحداق على الخدود سائلة والألوانَ من ضيق اللُّحود حائلة، وهوامَّ الأرض في نواعم الأبدان جائلة، والرّؤوس الموسّدة على الأيمان زائلة، ينكِرُها مَن كان لها عارفًا، ويفرّ عنها مَن لم يَزَل لها آنفًا ... .

وأخذ المتنبيّ قوله: «واكتحَلَتْ أبصارهم بالتّراب»، فقال [الوافر]:

يُدَفِّنُ بَعضُنا بعضًا ويَمْشِي ... أوَاخِرُنا على هَامِ الأوالِي

وكَمْ عَيْنٍ مُقبَّلَةِ النَّوَاحِي ... كَحِيلٍ بالجَنادِلِ والرِّمالِ

ومُغْضٍ كان لايُغضِي لحَظْبٍ ... وَبَالٍ كان يُفْكِرُ في الهزالِ

... ثمّ ذكر غمرات الدّنيا، فقال: إنّها أفظع من أن تحيط الصّفات بها وتستغرقُها، أي تأتي على كُنهها وتُعبّر عن حقائقها.

قوله: «أو تعتدل على عقول أهل الدّنيا»، هذا كلامٌ لطيفٌ فصيح غامض، ومعناه

أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدًّا لا تستقيم على العقول، ولاتقبلها إذا شرحت لها، ووصفت كما هي على الحقيقة، بل تنبوعنها، ولاتصدق بما يقال فيها، فعبّرعن عدم استقامتها على العقول بقوله: «أو يعتدل»، كأنّه جعلها كالشّيء المعوج عند العقل، فهو غير مصدّق به. (١١ : ١٥٦ ـ ١٦٨)

## [ إيراد أشعار وحكايات في وَصْف الموت وأحوال المَوْتى]

وممّا يناسب ما ذكر من حال الإنسان قول الشّاعر[الكامل]:

بَينَا الفَتَى مَرِحُ الخُطَى فَرِحًا بما ... يُسعى لَهُ إذْ قيلَ قد مَرِضَ الفَتَى

إذْ قيلَ باتَ بليلةٍ ما نَامَها ... إذْ قيلَ أصبَحَ مُثْقَلًا ما يُرْتَجَى

إذْ قيلَ أمْسَى شاخِصًا ومُوَجَّهًا ... إذْ قيلَ فارقهُمْ وحَلّ بِهِ الرَّدَى

وقال أبو النّجم العجليّ [الرّجز]:

والمرءُ كالحالِ في المنامِ ... يقول إنّي مدركٌ أمامِي

في قابلٍ ما فاتَنِي في العامِ ... والمرءُ يُدْنِيهِ إلى الحِمَامِ

مرُّ اللّيالي السُّودِ والأيّامِ ... إنّ الفَتَى يُصْبحُ لِلْأَسْقَامِ

كالغَرَضِ المنصوبِ للسِّهامِ ... أخْطَاهُ رامٍ وأصابَ رامِ

وقال عمران بن حِطّان [الطّويل]:

أفي كلِّ عامٍ مَرْضَةٌ ثمّ نقهةٌ ... ويُنعَى ولاينعَى مَتَى ذَا؟ إلى مَتَى!

ولابدّ مِن يومٍ يجيء وليلةٍ ... يَسُوقانِ حَتْفًا راحَ نحوكَ أو غَدَا

وجاء في الحديث: أنّ رسول الله ﷺ مَرّ بمقبرةٍ، فنَادَى: يا أهل القبور المُوحِشة، والرُّبوع المعطّلة، ألَا أُخبركم بما حَدَث بعدكم؟ تُزوّجَ نساؤُكم، وتُبوئت مَساكنكم، وقُسِمَت أموالكم، هل أنتم مخبرون بما عاينتم! ثمّ قال: ألَا إنّهم لو أُذِن لهم في الجواب لقالوا: وجدنا خيرَ الزّاد التّقوى.

ونَظَر الحسن إلى رجلٍ يجود بنفسه، فقال: إنّ أمرًا هذا آخرُه، لجديرٌ أن يُزْهَد في أوّلِه، وإنّ أمرًا هذا أوّلُه لجدير أن يخاف آخره.

وقال عَبَدة بن الطّبيب ـ ويعجبني قوله على الحال الّتي كان عليها؛ فإنّه كان أسود لُصًّا من لُصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم [الكامل]:

ولقد علمتُ بأنّ قَصْرِيَ حُفرةٌ ... غبراءُ يَحمِلُني إليها شَرْجَعُ[1]

فَبَكَى بَناتِي شَجْوَهُنَّ وزوْجَتِي ... والأقربون إليَّ، ثُمَّ تَصدَّعُوا

وتُرِكْتُ في غبراءَ يُكْرَهُ وِرْدُها ... تَسْفِي عَلَيَّ الرِّيحُ ثمّ أُوَدَّعُ

إنّ الحوادِثَ يَخْتَرِمْنَ وإنّما ... عُمْرُ الفَتَى في أهْلِهِ مُسْتَودَعُ

ونظير هذه الأبيات في رَويّها وعَروضها قول متمّم بن نُوَيرة اليَرْبوعيّ [الكامل]:

ولَقَدْ عَلِمْتُ ولا محالة أنّني ... للحادثاتِ، فَهَلْ تَرِيْنِي أَجْزَعُ[2]

أهلكْنَ عادًا ثمّ آلَ مُحرِّقٍ ... فتركنَهم بَلَدًا وما قد جَمّعُوا[3]

ولهنّ كان الحارِثانِ كلاهما ... ولَهُنّ كان أخو المصانِعِ تُبَّعُ[4]

فَعَدَدْتُ آبائي إلى عِرْقِ الثَّرى ... فدعوتُهمْ فعلمتُ أن لم يَسْمَعُوا

ذهبوا فلم أدرِكْهُمُ وَدَعَتْهُمُ ... غُولٌ أتَوْها والطّريقُ المَهْيَعُ

لابدّ من تَلَفٍ مُصِيبٍ فانتظِرْ ... أبِأرْضِ قومِكِ أمْ بأخرى تُصْرَعُ

ولَيَأتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرّةً ... يُبْكَى عَلَيْكَ مُقنّعًا لاتَسْمَعُ[5]

لمّا فتح خالد بن الوليد عَين التّمر، سأل عن الحُرَقَة بنت النُّعمان بن المنذر، فدلّ

---

١ ـ من مفضّليّته: ١٤٥ ـ ١٤٩. والشّرجع: خشب يشدّ بعضه إلى بعض كالسّرير يحمل عليه الموتى.

٢ ـ من مفضّليّته: ٤٨ ـ ٥٤.

٣ ـ بلدًا، أي ترابًا.

٤ ـ الحارثان: هما الحارث الأصغر، والحارث الأكبر الأعرج؛ المصانع: القصور؛ تُبَّع: مَلِكٌ من ملوك اليمن.

٥ ـ مقنّع: ملفّف في أثوابه.

عليها فأتاها ـ وكانت عَمْياء ـ فسألها عن حالها، فقالت: لقد طلعتْ علينا الشّمس ما شيءٌ يدبّ تحت الخورنق إلّا تحت أيدينا، ثمّ غربت وقد رحمنا كلُّ مَن يَدُور به، وما بيتٌ دخلته حَبرة إلّا دخلته عَبرة ، ثمّ قالت [الطّويل]:

وبَيْنَا نَسُوسُ النّاسَ والأمْرُ أمْرُنَا إذَا نَحنُ فِيهِ سُوقَةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لِـدُنْيَا لايَـدومُ نَعِيمُهَـا تُقلِّب تَـاراتٍ بنا وتَصرِّفُ

فقال قائل ممّن كان حول خالد: قاتَلَ اللهُ عديّ بن زيد! لكأنّه ينظر إليها حين يقول [الخفيف]:

إنَّ لِلـدَّهْرِ صَـرْعةً فاحْـذَرَنْهَا لَاتَبِيـتَنَّ قَـدْ أمِنْـتَ الدُّهُورَا[1]
قَدْ يَبِيتُ الفَتَى مُعَافَى فَيَرْدَى ولَقَـدْ كـانَ آمِنًـا مَسْـرُورَا

دخل عبد الله بن العبّاس على عبد الملك بن مروان يوم قرّ، وهو على فُرُش يكاد يغيب فيها، فقال: يابن عبّاس، إنّي لأحسب اليوم باردًا! قال: أجَلْ، وإنّ ابنَ هِندٍ عاش في مثل ما تَرَى عشرين أميرًا، وعشرين خليفةً، ثمّ هو ذاك على قبره ثُمامَةٌ تَهتَزّ.

فيقال: إنّ عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامَة نابتة.

كان محمّد بن عبد الله بن طاهر في قَصْره ببغداد على دِجْلة، فإذ أتت بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبة، على رأسها رقعة، فأمر بها، فوجد هذا [البسيط]:

تـاهَ الأَعَيْـرِجُ وَاسْـتَوْلَى بِـهِ البَطَـرُ فَقُـل لِخَيْـرِمَـا اسْـتَعْمَلْتَهُ الحَـذَرُ
أحْسَنتَ ظَنّكَ بالأيّام إذْ حَسُنَتْ ولَمْ تَخَفْ سُوءَ ما يَأتِي بِهِ القَدَرُ
وسَـالَمَتْكَ اللّيَـالِي فَـاغْتَرَرْتَ بِهَـا وعِنْدَ صَفْوِ اللّيَالِي يَحْدُثُ الكَدرُ

فلم ينتفع بنفسه أيّامًا.

عَدِيّ بن زيد [الخفيف]:

---

١ ـ الأغاني ٢ : ١٣٨ ـ ١٤٠ .

أيّهـا الشّـامت المُعَيِّـرُ بالدَّهْـ ـرِ أأنـتَ المُبَـرَّأ المَوْفُـورُ
أم لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثيقُ مِنَ الأيْـ ـيَامِ، بـل أنـتَ جاهِـلٌ مَغْرُورُ
مَن رأيتَ المَنُون خَلَّدَنَ أمْ مَن ذا عَلَيْـهِ مِـنْ أن يُضَـامَ خَفِيـرُ
أين كِسْرى كِسْرَى المُلُوكِ أنوشُرْ وَانَ أمْ أيْـنَ قَبْلَـهُ سَـابُورُ[1]
وبنُـو الأصْـفَرِ الكِـرَامِ مُلُـوكُ الـرْ ـرُومِ لَمْ يَبْـقَ مِـنْهُمُ مَـذْكُورُ
وأخُـو الحَضْـرِ إذْ بَنَـاهُ وإذْ دِجْـ ـلَـةُ تَجْـبَى إلَيْـهِ والخَـابُورُ[2]
لَمْ يَهَبْـهُ رَيْـبُ المَنُـون فَبَـادَ الْـ ـمُلْكُ عَنْـهُ فَبَابُـهُ مَهْجُـورُ
شـادَهُ مَرْمَـرًا وجَلَّلَـهُ كِلْـ ـسًا فَلِلطَّيْـرِ في ذُراهُ وُكُـورُ[3]
وتَبَـيَّنْ رَبّ الخورَنْـقِ إذ أشْـ ـرَفَ يومًـا ولِلْهُـدَى تَفكِيـرُ
سَـرَّهُ حالُـهُ وكَثْـرَةُ مَـا يَمْـ ـلِكُ والبَحْـرُ مُعرِضًـا والسَّـدِيرُ
فَـارْعَوَى قَلْبُـهُ وقـالَ فمـا غِبْـ ـطَةُ حـيٍّ إلى المَمـاتِ يَصِـيرُ
ثُمَّ بَعْـدَ الفَـلاح والمُلْـكِ والإ مْـ ـمَةِ وارَتْهُـمُ هُنَـاكَ القُبُـورُ[4]
ثُمَّ أضْـحَوْا كَـأنَّهُمْ وَرَقٌ جَفْـ ـفَ فَألْوَتْ بِهِ الصَّبَا والدَّبُورُ[5]

قد اتّفق النّاس على أنّ هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى، وأنّ الشّعراء كلّهم أخذوا منها، واحتذوا في هذا المعنى حَذْوها.

وقال الرّضيّ أبو الحسن رضي الله عنه [الكامل]:

---

١ ـ سابور الجنود، هو ابن أردشير، و سابور ذو الأكناف، هو سابور بن هرمز، و كلاهما من ملوك العجم.

٢ ـ الخابور: اسم نهر كبير بين رأس عين و فرات من أرض الجزيرة.

٣ ـ الكلس: الصّاروج، و أخلاطها الّتي تصرج (تطلى) بها النّزل و غيرها.

٤ ـ الأمّة: النّعمة.

٥ ـ ألوت به: أي ذهبت به.

انْظُرْ إلى هَذَا الأنامِ بعَبرَةٍ ... لا يُعجِبَنَّكَ خَلْقُهُ ورُوَاؤُهُ[1]

فَتَراهُ كالوَرَقِ النَّضِيرِ تقصَّفَتْ ... أغْصانُهُ، وتَسَلَّبَتْ شَجْرَاؤُهُ

أنّى تَحامَاهُ المَنُونُ، وإنَّما ... خُلِقَتْ مَراعِيَ للرَّدَى خَضْراؤُهُ

أمْ كَيْفَ تَأمُلُ فَلْتَةً أجْسَادُهُ ... مِن ذَا الزّمانِ وحَشْوُها أدْوَاؤُهُ

لا تَعْجَبَنَّ فما العَجِيبُ فَنَاؤُهُ ... بِيَدِ المَنُونِ بَلِ العَجِيبُ بُقَاؤُهُ

إنَّا لَنَعْجَبُ كَيفَ حُمَّ حِمَامُهُ ... عَن صِحَّةٍ، ويَغِيبُ عَنَّا داؤُهُ

مَن طَاحَ فِي سُبُلِ الرَّدَى آباؤُهُ ... فَلَيَسْلُكَنَّ طَرِيقَهُمْ أبْنَاؤُهُ

ومُؤمَّرٍ نَزَلُوا بِهِ فِي سُوقَةٍ ... لا شَكْلُهُ فِيهِمْ ولا نُظَرَاؤُهُ[2]

قد كانَ يَفْرَقُ ظِلَّهُ أقرانُهُ ... ويَغُضُّ دُونَ جَلالِهِ أكْفَاؤُهُ[3]

ومُحَجَّبٍ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ ... يَغْشَى العُيُونَ بَهاؤُهُ وضِياؤُهُ

نادَتْهُ مِنْ خَلْفِ الحِجابِ مَنِيَّةٌ ... أمَمٌ فكانَ جَوَابَها حَوْباؤُهُ[4]

شُقَّتْ إليهِ سُيُوفُهُ ورِمَاحُهُ ... وأمِيطَ عَنْهُ عَبِيدُهُ وإمَاؤُهُ

لَمْ يَغْنِهِ مَن كانَ وَدّ لو أنَّهُ ... قَبْلَ المَنُونِ مِن المَنُونِ فِدَاؤُهُ

حَرَمٌ عَلَيْهِ الذّلّ إلّا أنَّه ... أبَدًا لَيَشهدُ بالجَلالِ بِنَاؤُهُ[5]

مُتَخَشِّعٌ بَعْدَ الأنِيسِ جَنَابُهُ ... مُتَضَائِلٌ بَعْدَ القَطِينِ فِنَاؤُهُ

عُرْيانُ تَطْرُدُ كُلّ ريحٍ تُرْبَهُ ... ويَطِيعُ أوّلَ أمْرِهَا حَصْبَاؤُهُ

---

١ ـ ديوانه ، لوحة : ١١٦ .

٢ ـ الدّيوان : «قرناؤه» .

٣ ـ يفرق : يخاف و يهاب .

٤ ـ أمَم : قريبة ؛ والحوباء : النّفس .

٥ ـ حَرَمٌ عليه : حرام عليه .

ولَقَـدْ مَـرَرْتُ بِبَـرْزَخٍ فَسَـأَلْتُهُ ... أيْـنَ الأُلى ضَـمَّتْهُمُ أرْجَـاؤُهُ
مِثْـلِ المَطـيّ بَوَارِكًـا أجْدَاثُـهُ ... تَسْـفِي عَـلَى جَنَبَاتِهَـا بَوْغَـاؤُهُ[1]
نادَيْتُـهُ فخَـفِيَ عَـلَيَّ جَوَابُـهُ ... بـالقَوْلِ إلّا مـا زَقَـتْ أصْـدَاؤُهُ[2]
مِـن نـاظِرٍ مَطْرُوفَـةٍ ألْحَاظُـهُ ... أو خـاطِرٍ مَظْلُولَـةٍ سَـوْدَاؤُهُ[3]
أو وَاجِـدٍ مَكْظُومَـةٍ زَفَراتُـهُ ... أو حاقِـدٍ مَنسِـيَّةٍ شَـحْنَاؤُهُ[4]
ومُسـنَّدِينَ عَـلَى الجُنُوب كأنَّهُمْ ... شَـرْبٌ تَخَـاذَلَ بـالطِّلَا أعْضَـاؤُهُ
تَحْـتَ الصَّعِيدِ لِغَيْـرِ إشْـفَاقٍ إلَى ... يَـوْمِ المَعَـادِ يَضُـمُّهُمْ أحْشَـاؤُهُ
أكَلَـتْهُمُ الأرْضُ الّـتِي وَلَـدَتْهُمُ ... أكْـلَ الضَّـرُوسِ حَلَـتْ لـهُ أكْـلَاؤُهُ

وقال أيضًا [الكامل]:

وتفـرُّقُ البُعَـدَاءِ بَعَـدَ تَجَمُّـعٍ ... صَـعْبٌ فَكَيْـفَ تَفَـرُّقُ القُرَبَـاءِ[5]
وخَلَائِقُ الدُّنْيَا خَلَائقُ مُومِسٍ ... لِلْمَنْـعِ آونَـةً، ولِلْإعْطَـاءِ[6]
طَـوْرًا تُبَادِلُـكَ الصَّـفَاءَ وتَـارَةً ... تَلْقَـاكَ تُنكِرُهَـا مِـنَ البَغْضَـاءِ
وتَـدَاوُلُ الأيَّـامِ يُبْلِينَـا كَمَـا ... يُـبْلِي الرِّشَـاءَ تَطَـاوُحُ الأرْجَـاءِ[7]

---

١ ـ بوارك: جمع بارك أو باركة؛ البوغاء: التّراب.

٢ ـ زقت: صاحت؛ الأصداء: جمع صدى، و هو حكاية الصّوت في الجبال و الكهوف و الأماكن العالية.

٣ ـ مطروفة، من قولهم: طرق فلان بصره؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر؛ و مطلولة، من قولهم: طلّ دم فلان، إذا ذهب هدرًا.

٤ ـ واجد: من الوجد، و هو الحزن.

٥ ـ من مرثيّته لوالدته فاطمة بنت النّاصر؛ أوّلها:

أبكيك لو نفع الغليلُ بُكائي ... و أقول لو ذَهب المقالُ بدائي

ديوانه، لوحة ١١٥.

٦ ـ المومس: المرأة الفاجرة.

٧ ـ الرّشاء: الحبل يستقى به من البئر؛ و الأرجاء: جمع رجا، و هو ناحية البئر.

وكَأنَّ طُولَ العُمْرِ رَوْحَةُ راكِبٍ قَضَّى اللُّغُوبَ وجَدَّ في الإسْرَاءِ[١]

لَهْفِي عَلَى القَوْمِ الأُلى غَادَرْتُهُمْ وعَلَيْهِمُ طَبَقٌ مِنَ البَيْدَاءِ[٢]

مُتَوَسِّدِينَ عَلَى الخُدُودِ كأنَّما كَرَعُوا عَلَى ظَمَأٍ مِنَ الصَّهْبَاءِ

صُوَرٌ ضَنَنتُ عَلَى العُيُونِ بِلَحْظِهَا أمْسَيْتُ أوقِرُهَا مِنَ البَوْغَاءِ[٣]

ونَواظِرٌ كَحَّلَ التُّرَابُ جُفُونَها قَدْ كُنتُ أحْرُسُها مِنَ الأقْذَاءِ

قَرُبَتْ ضَرائِحُهُمْ عَلَى زُوّارِهَا ونَأوْا عَنِ الطُّلاّب أيّ تَنَائي[٤]

ولَبِئْسَ ما يَلْقَى بِعُقْرِ دِيَارِهِمْ أذْنُ المُصِيخِ بِهَا وعَينُ الرَّائِي[٥]

(١١ : ١٦٨ ـ ١٧٥)

**(الخطبة: ١٣٣) ... واعْلَمُوا! أَنَّهُ لَيْسَ مِن شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنهُ وَيَمَلُّهُ، إِلَّا الْحَيَاةَ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ ... .**

**الشّرح:** هذا الفصل ليس بمنتظم مِن أوّله إلى آخره، بل هو فصول متفرّقة التقطها الرّضيّ من خطبةٍ طويلةٍ على عادته في التقاط ما يستفصحه من كلامه عليه السلام، وإن كان كلّ كلامه فصيحًا، ولكنّ كلّ واحدٍ له هوًى ومحبّةٌ لشيء مخصوص، وضروب النّاس عُشّاق ضروبًا.

أمّا قوله: «كلّ شيء مملولٌ إلّا الحياة»، فهو معنى قد طَرقه النّاس قديمًا وحديثًا،

---

١ ـ روحة راكب: راحته؛ واللّغوب: الإعياء؛ والإسراء: سير اللّيل.

٢ ـ الطّبق: وجه الأرض؛ أو غطاء كلّ شيء.

٣ ـ البوغاء: التّربة الرّخوة.

٤ ـ الضرائح: جمع ضريح؛ وهو القبر.

٥ ـ عقر ديارهم: وسطها.

قال أبو الطّيّب [الخفيف]:

ولَذيذُ الحياةِ أنفُسُ في النَّفـ ـسِ وأشْهَى من أن يُمَلّ وأحْلَى[1]
وإذا الشّيخُ قالَ أفٍّ فَمَا مَلْـ ـلَ حَيَاةً ولكنِ الضَّعْفَ مَلّا

وقال أيضًا [الطّويل]:

أرَى كُلّنا يَبْغِي الحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيصًا عَلَيها مُسْتَهامًا بها صَبًّا[2]
فحُبُّ الجبانِ النّفسَ أوْرَدَهُ البَقَا وحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أوْرَدَهُ الحَرْبَا

وقال أبو العلاء [الطّويل]:

فما رَغِبَتْ في المَوْتِ كُدْرٌ مَسِيرُهَا إلَى الوِرْدِ خَمْسًا ثُمَّ تَشْرَبْنَ مِنْ أجَنِ[3]
يُصادِفْنَ صَقْرًا كُلّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ويَلْقَيْنَ شَرًّا مِن مَخَالِبِهِ الحُجُنِ[4]
ولا قَلِقاتُ اللّيلِ باتَتْ كأنّها منَ الأيْنِ والإدْلاجِ بَعْضُ القَنَا اللّدُنِ[5]
ضَرَبْنَ مليعًا بالسَّنَابِكِ أرْبعًا إلَى الماءِ لا يقدِرْنَ مِنْهُ عَلَى مَعْنِ[6]
وخَوفُ الرَّدَى آوَى إلَى الكَهْفِ أهْلَهُ وكَلّفَ نوحًا وابْنَهُ عَمَلَ السّفْنِ
وما اسْتَعْذَبَتْهُ رُوحُ مُوسى وآدَمٍ وَقَدْ وُعِدَا مِن بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

ولي من قصيدةٍ، أخاطب رجلَيْن فَرّا في حرب [الطّويل]:

عَذَرْتُكُمَا إنَّ الحَمَامَ لَمُبغَضٌ وإنَّ بَقَاءَ النَّفس لِلنَّفْسِ مَحْبُوبُ
ويُكْرَهُ طَعْمُ الموتِ والموتُ طالِبٌ فَكَيْفَ يلذّ المَوْتُ والمَوْتُ مَطْلُوبُ!

---

١ ـ ديوانه ٣ : ١٢٩ ـ ١٣٠ .

٢ ـ ديوانه ١ : ٦٥ .

٣ ـ سقط الزّند ٢ : ٩١٩ ـ ٩٢٠ ؛ الكدر من القطا : الغير الألوان ، و الخمس : ورود الماء كلّ خمسة أيّام ؛ و الآجن : الماء المتغيّر.

٤ ـ الحجن : المنعطفة .

٥ ـ عني بالقلقات حمر الوحش ؛ لقلقها في السّير إلى الماء .

٦ ـ المليع : الأرض الخالية ؛ و المعن : الشّيء القليل .

وقال أبو الطّيّب أيضًا [الخفيف]:

طِيبُ هَذَا النَّسِيمِ أوْقَرَ في الأنْـ ـفُسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المَذَاقِ[1]

والأسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عجزٌ والأسَى لا يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ

البُحْتريّ [الكامل]:

مَا أطْيَبَ الأيّامَ إلّا أنَّها يَا صَاحِبَيَّ إذا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ[2]

وقال آخر[الكامل]:

أوْفَى يُصَفِّقُ بالجناح مُغلِّسًا ويَصِيحُ مِن طَرَبٍ إلَى النَّدمانِ

يا طِيبَ لَذَّةِ هذه دُنيَاكم لو أنَّها بَقِيَتْ على الإنسانِ

وقال آخر[الطّويل]:

أرَى النّاسَ يهوَوْنَ البَقَاءَ سفاهةً وذَلِكَ شَيْءٌ ما إلَيْهِ سَبِيلُ

ومَن يأمَنِ الأيّامَ! أمّا بلاؤُها فَجَمٌّ، وأمّا خيرُها فقَلِيلُ

وقال محمّد بن وُهَيب الحِمْيريّ [الطّويل]:

ونَحنُ بَنُوالدُّنيا خُلِقْنا لِغَيرِها وما كُنْتُ مِنْهُ فَهْوَ شَيْءٌ مُحَبَّبُ

وهذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد قيل له: ما أكثر حُبّ النّاس للدّنيا! فقال: هم أبناؤها، أيُلام الإنسان على حُبّ أُمّه!

وقال آخر[السّريع]:

يا مَوْتُ ما أفْجَاكَ من نازِلٍ تنزل بالمرءِ عَلَى رُغْمِهِ

تستلبُ العَذْراءَ مِن خِدْرِها وتأخذُ الواحدَ مِنْ أمّهِ

أبو الطّيّب [الخفيف]:

---

١ ـ ديوانه ٢ : ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، و روايته : «إلف هذا الهواء».

٢ ـ ديوانه ٢ : ١٠٠ .

وَهيَ مَعشُوقةٌ على الغَدْرِ لا تَحْـ ـفَظُ عَهْدًا ولاتُـتَمِّمُ وَصْـلَا[1]
كُـلّ دَمْـعٍ يَسِـيلُ منهـا عليْهَـا وبِفَـكِّ اليَـدَيْنِ عنهـا تَخَـلّى
شِـيَمُ الغانيـاتِ فيهـا فـلا أدْ رِي لذا أنَّثَ اسْمَها النّاسُ أمْ لا

**فإن قلتَ:** كيف يقول: إنّه لا يجد في الموت راحةً؟ وأين هذا من قول رسول الله ﷺ: «الدّنيا سِجْن المؤمن، وجنّة الكافر»!، ومن قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلّا بعد الموت»! وماذا يعمل بالصّالحين الّذين آثَرُوا فراق هذه العاجلة، واختاروا الآخرة، وهو عليه السلام سيّدهم وأميرهم!

**قلتُ:** لا منافاة، فإنّ الصّالحين، إنّما طلبوا أيضًا الحياة المستمرّة بعد الموت، ورسول الله ﷺ إنّما قال: إنّ الدّنيا سِجْن المؤمن، لأنّ الموت غير مطلوب للمؤمن لذاته، إنّما يطلبه للحياة المتعقّبة له، وكذلك قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلّا بعد الموت»، تصريح بأنّ الرّاحة في الحياة الّتي تتعقّب الموت وهي حياة الأبد، فلا منافاة إذًا بين هذه الوجوه وبين ما قاله عليه السلام، لأنّه ما نفى إلّا الرّاحة في الموت نفسه، لا في الحياة الحاصلة بعده.

**فإن قلتَ:** فقد تطرأ على الإنسان حالة يستصعبها قيود الموت لنفسه، ولا يفكّر فيما يتعقّبه من الحياة الّتي تشير إليها، ولا يخطر بباله؟

**قلتُ:** ذاك شاذٌّ نادرٌ، فلا يُلتفت إليه، وإنّما الحكم للأعمّ الأغلب، وأيضًا فإنّ ذاك لا يلتذّ بالموت، وإنّما يتخلّص به من الألم، وأمير المؤمنين قال: ما مِن شيء من الملذّات إلّا وهو مملول إلّا الحياة، وبين الملذّ والمخلّص من الألم فَرْقٌ واضحٌ، فلا يكون نقضًا على كلامه.

**فإن قلتَ:** قد ذكرت ما قيل في حُبّ الحياة وكراهيّة الموت، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء؟

---

١ ـ ديوانه ٣ : ١٣١ ـ ١٣٢ .

قلتُ: نعم، فمن ذلك قول أبي الطّيّب [الطّويل]:

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شافيًا وحَسْبُ المَنَايَا أن يَكُنَّ أمانِيَا
تمَنَّيتَهـا لمّـا تَمَنَّيـتَ أن تَـرَى صَديقًا فأعيَا، أو عَدوًّا مُداجِيَا

وقال آخر[الكامل]:

قَدْ قلتُ إذ مَدَحُوا الحياةَ فأسرفوا: في الموت ألف فضيلةٍ لا تعرَفُ
منهـا أمـانُ لِقَائِـهِ بلقائِـهِ وفِـراقُ كـلِّ مُعاشِـرٍ لاينصِـفُ

وقيل لأعرابيّ وقد احتُضِر: إنّك ميّت. قال: إلى أين يُذْهَب بي؟ قيل: إلى الله. قال: ما أكره أن أذهب إلى مَن لم أرَ الخيرَ إلّا منه.

إبراهيم بن مهديّ [الطّويل]:

وإنّي وإن قُدِّمْتَ قبلي لَعَالِمٌ بأنّي وإن أبطأتُ عنك قَرِيبُ
وإنَّ صباحًا نَلْتقي في مسائِهِ صباحٌ إلى قلبي الغَداةَ حَبِيبُ

وقال بعض السَّلَف: ما مِن مؤمنٍ إلّا والموت خيرٌ له من الحياة، لأنّه إن كان مُحْسنًا، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، وإن كان مُسيئًا، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[2].

وقال ميمون بن مِهْران: بتُّ ليلةً عند عمربن عبد العزيز، فرأيتُه يبكي ويكثرمن تمنّي الموت، فقلت له: إنّك أحييتَ سُنَنًا، وأمَتّ بِدَعًا، وفي بقائك خيرٌللمسلمين، فما بالك تتمنّى الموت! فقال: ألا أكون كالعبد الصّالح حين أقرّالله له عينه، وجمع له أمره، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ

---

١ ـ الشّورى / ٣٦.

٢ ـ آل عمران / ١٧٨.

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنيَا وَالْاٰخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1]!

وقالت الفلاسفة: لايستكمل الإنسان حدّ الإنسانيّة إلّا بالموت، لأنّ الإنسان هو الحيّ النّاطق الميّت.

وقال بعضهم: الصّالح إذا مات استراح، والطّالح إذا مات استُرِيح منه.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

جَزَى اللهُ عنّا الموتَ خيرًا فإنّهُ أبرّ بنا مِن كلِّ برٍّ وأرأفُ
يُعجّلُ تخليصَ النّفوسِ مِنَ الأذَى ويُدْنِي مِنَ الدّارِ الّتي هِيَ أشرَفُ

وقال آخر[الكامل]:

مَن كانَ يَرْجُو أن يعيشَ فإنّني أصْبَحْتُ أرْجُو أن أموتَ لِأُعْتِقَا
في الموت ألفُ فضيلةٍ لو أنّها عُرِفتْ لَكانَ سَبيلهُ أن يُعْشَقَا

وقال أبو العلاء [البسيط]:

جِسْمي ونَفْسِي لمّا استَجْمَعَا صَنَعَا شرًّا إليَّ فَجَلّ الواحِدُ الصَّمَدُ!
فالجسم يعذل فيه النّفس مجتهدًا وتلكَ تزعمُ أنَّ الظّالمَ الجَسَدُ
إذا هُمَا بَعْدَ طُولِ الصُّحْبةِ افترقَا فإنَّ ذاكَ لأحداث الزّمانِ يَدُ

وقال أبو العَتاهيّة [مجزوء الكامل]:

المرءُ يأمُلُ أن يَعِيـ ـشَ وطول عُمْرٍ قد يَضُرُّهْ
تفنَى بشَاشَتُهُ ويَبْـ ـقَى بَعْد حُلْو العِيشِ مُرُّهْ
وتخونُهُ الأيّام حَتْـ ـتَى لايَرى شيئًا يَسُرُّهْ
كَمْ شامِتٍ بِي إن هَلَكْـ ـتُ وقائلٍ: لِلّهِ دَرُّهْ

وقال ابن المعتزّ[الطّويل]:

---

١ ـ يوسف / ١٠١.

ألستَ تَرَى يا صاحِ ما أعْجَبَ الدَّهْرَا فذمًّا لَهُ لكنَّ للخالِقِ الشُّكْرَا
لقد حَبَّبَ الموت البَقاء الّذي أرَى فَيَا حَسَدًا مِنِّي لمن يَسْكُنُ القَبرَا

(٨ : ٢٨٨ ـ ٢٩٣)

(الخطبة: ٢٣٤) ... وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَن لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى وَاعِظًا بِمَوْتَى عَايَنتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنيَا عُمَّارًا، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا، أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انتَقَلُوا. لَا عَن قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انتِقَالًا، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَادًا، أَنِسُوا بِالدُّنيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسَابِقُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَن تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ.

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشّرح: ... قوله عليه السلام: «أوحشوا ما كانوا يوطنون»، أي أوطنوا قبورهم الّتي كانوا يوحشونها.

قوله عليه السلام: «واشتغلوا بما فارقوا»، أي اشتغلوا وهم في القبور بما فارقوه من الأموال والقينات، لأنّها أذًى وعقاب عليهم في قبورهم، ولولاها لكانوا في راحة. ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد في الدّنيا، أي اشتغلوا أيّام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه.

ثمّ ذكر أنّهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبةً من قبيح، لأنّ التّكليف سقط،

والمنازل الّتي أُمِروا بعمارتها، والمقابر، وعمارتها الأعمال الصّالحة.

وقوله عليه السلام: «إنّ غدًا من اليوم قريب»، كلام يجري مجرى المَثَل، قال[الطّويل]:

*غدٌ ما غد ما أقرب اليوم من غدِ*

والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1].

وقوله عليه السلام: «ما أسرع السّاعات في اليوم...» إلى آخر الفصل، كلامٌ شريفٌ وجيز بالغ في معناه، والفصل كلّه نادر لا نظير له. (١٣ : ١٠٠)

**(كتابه عليه السلام: ٢٧) الأصل: ... فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا، أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا، فَمَن أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِن عَامِلِهَا! وَمَن أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِن عَامِلِهَا! وَأَنتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِن أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَ إِن فَرَرْتُمْ مِنهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِن ظِلِّكُمْ، الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ، وَالدُّنيَا تُطْوَى مِن خَلْفِكُمْ ....**

**الشّرح:** ... قوله:«فإنّه يأتي بأمرٍ عظيمٍ، وخَطْبٍ جليلٍ، بخيرٍ لا يكون معه شرّ أبدًا وشرّ لا يكون معه خير أبدًا»، نصّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأنّ مَن دخل النّار من جميع المكلّفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرّ معه خير، وقد نَفى نفيًا عامًّا أن يكون مع الشّرّ المعقّب للموت خير ألبتّة....

قوله: «والدّنيا تُطْوَى من خلفكم»، من كلام بعض الحكماء: الموتُ والنّاسُ كسُطورٍ في صحيفةٍ يقرؤها قارئ ويَطوي ما يقرأ فكلّما ظَهر سطرٌ خَفِي سَطْرٌ.

(١٥ : ١٦٦ ـ ١٦٧)

---

١ ـ هود / ٨١ .

(كتابه عليه السلام: ٣١) ومن وصيّة له عليه السلام للحسن بن عليّ عليهما السلام، كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين:

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ للدَّهْرِ، وَالذَّامّ لِلدُّنيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنهَا غَدًا؛ إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَن قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، قَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ ....

الشّرح: ... قوله: «وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونُصب الآفات، وسريع الشّهوات»، لما كان الإنسان مع الموت، كما قال طرفة [الطّويل]:

لعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخْطَأ الفَتى لَكَ الطِّوَلِ المُرْخَى وثِنيَاهُ باليَدِ[1]

كان أسيرًا له لا محالة، ولمّا كان لا بدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حَليف الهموم، وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحُزْن، فكان قرينًا له، ولما كان معرضًا للآفات كان نصبًا لها، ولما كان إنّما يهلك بشهواته كان صريعًا لها.

قوله: «وخليفة الأموات» قد أخذه مَن قال: إنّ امرأً ليس بينه وبين آدم إلّا أب ميّت، لمعرق في الموت .... (١٦ : ٥٤)

(كتابه عليه السلام: ٦٩) ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهَمْدَانيّ: ... وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَن تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ. وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوتِ، وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ ....

الشّرح: ... ومنها قوله: «وأكثر ذكر الموت، وما بعد الموت» جاء في الخبر المرفوع :

---

١ ـ من المعلّقة بشرح التّبريزيّ : ٨٦ . الطِّوَل : الحبل ، وثِنيَاهُ : ما ثني منه .

« أكثرُوا ذكر هاذم[١] اللَّذّات»، وما بعد الموت: العقابُ والثَّوابُ في القبر وفي الآخرة.

**ومنها قوله:** «ولا تتمنّ الموت إلّا بشرط وثيق»، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر، أي لا تتمنّ الموتَ إلّا وأنت واثق من أعمالك الصّالحة أنّها تؤدّيك إلى الجنّة، وتُنقِذك من النّار؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ اَنَّكُمْ اَوْلِيَاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ اَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٢]. (١٨ : ٤٤)

**(الحكمة: ٢٩) الأصل: إِذَا كُنتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى!**

**الشّرح:** هذا ظاهر، لأنّه إذا كان كلّما جاء في إدبارٍ والموت كلّما جاء في إقبالٍ، فيا سَرْعانَ ما يلتقيان! وذلك لأنّ إدباره هو توجّهه إلى الموت، وإقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوه، فقد حقّ إذَن الالتقاء سَريعًا، ومثال ذلك سفينتانِ بدِجْلَة أو غيرها، تَصْعَد إحداهما، والأُخرى تنحدر نحوها، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشِيكًا.
(١٨ : ١٤٠)

**(الحكمة: ٩٥) الأصل: وقال عليه السلام وَقد سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا اِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٣]، فَقَالَ: إِنَّ قَوْلَنَا «إِنَّا لِلّٰهِ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا «وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنفُسِنَا بِالْهُلْكِ.**

**الشّرح:** قوله: «إنّا لله» اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعَبيدٌ له، لأنّ هذه اللّام لام التّمليك، كما تقول: الدّار لزيد، فأمّا قوله: ﴿وَاِنَّا اِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فهو، إقرار واعترافٌ

---

١ ـ هاذم اللّذات، من الهذم وهوالقطع.

٢ ـ الجمعة / ٦ـ٧.

٣ ـ البقرة / ١٥٦.

بالنّشور والقيامة، لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليه سبحانه، واقتنع أمير المؤمنين عن التّصريح بذلك فذكر الهُلْك، فقال: إنّه إقرار على أنفسنا بالهُلْك، لأنّ هُلْكنا مُفْضٍ إلى رجوعنا يوم القيامة إليه سبحانه، فعبرّ بمقدّمة الشّيء عن الشّيء نفسه، كما يقال: الفقر الموت، والحُمّى الموت، ونحو ذلك.

ويمكن أن يفسّر ذلك على قول مُثْبتي النّفس النّاطقة بتفسيرٍ آخر، فيقال: إنّ النّفس ما دامت في أسْرِ تدابير البَدَن فهي بمَعْزل عن مبادئها، لأنّها مشتغِلةٌ مستغرقة بغير ذلك، فإذا مات البَدَن رجعت النّفس إلى مبادئها، فقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بما لا يصحّ الرّجوع بهذا التّفسير إلّا معه وهو الموت المعبرّ عنه بالهُلْك.

(١٨ : ٢٥٥)

**(الحكمة: ١١٨) وَقَالَ عليه السلام ـ وَقَدْ تَبِعَ جِنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ ـ: كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ، وَرُمِينَا بِكُلِّ فَادِحٍ وَجَائِحَةٍ.**

قال الرّضيّ رحمه الله تعالى. أقول: ومِنَ النّاس مَن ينسب هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك الّذي قَبْلَه.

**الشّرح:** الأشهر الأكثر في الرّواية أنّ هذا الكلام مِن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، ومثل قوله: «كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب»، قول الحسن عليه السلام: ما رأيتُ حقًّا لا باطَل فيه أشبَه بباطلٍ لا حَقَّ فيه من الموت، والألفاظ الّتي بعده واضحة ليس فيها ما يُشرَح، وقد تقدّم ذكر نظائرها. (١٨ : ٣١١)

(الحكمة: ١٢٦) الأصل: وقال عليه السلام، وقَدْ رَجَعَ مِن صِفّينَ، فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ:

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ، يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ، أَنتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ، هَذَا خَبَرُ مَا عِندَنَا، فَمَا خَبَرُ مَا عِندَكُمْ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.

**الشّرح:** ... قد جاء في حديث القُبور ومخاطبتها وحديث الأموات وما يتعلّق بذلك شيءٌ كثيرٌ يتجاوز الإحصاء.

وفي وصيّة النّبيّ صلى الله عليه وآله أبا ذَرّ رضي الله عنه: زُرِ القبور تَذْكُرْ بها الآخرة، ولا تَزُرها ليلًا، وغَسِّل الموتى يتحرّك قلبُك، فإنّ الجسد الخاوي[1] عِظَةٌ بليغةٌ، وصَلِّ على الموتى، فإنّ ذلك يحزنك، فإنّ الحَزين في ظلّ الله.

وُجِد على قبرٍ مكتوبًا [الطّويل]:

مُقيمٌ إلى أن يَبْعثَ اللهُ خَلْقَهُ ... لقاؤُكَ لا يُرْجَى وأنتَ رَقِيبُ

تَزِيدُ بلى في كلِّ يومٍ وليلةٍ ... وتنسَى كما تبلَى وأنتَ حَبِيبُ

وقال الحسن عليه السلام: مات صديق لنا صالح، فدفنّاه ومَدَدْنا على القبر ثَوْبًا، فجاء صِلَة بن أُشَيم، فرَفَع طَرَفَ الثّوب ونادى، يا فلان [الطّويل]:

فإن[2] تَنجُ منها تَنجُ مِن ذِي عَظِيمةٍ ... وإلّا فإنّي لا إخالُكَ ناجِيَا

---

١ ـ الخاوي: الخالي من الرّوح.

٢ ـ كذا في ديوان الشّوكاني، وبه يستقيم الوزن.

وفي الحديث المرفوع، أنّه عليه السلام كان إذا تَبع الجِنازة أكثر الصُّمات[1]، ورُئِي عليه كآبةٌ ظاهرة، وأكثر حديث النّفس.

سمع أبو الدّرداء رجلًا يقول في جنازة: مَن هذا؟ فقال: أنت، فإن كَرِهْتَ فأنا.

سَمِع الحسن عليه السلام امرأةً تَبْكِي خَلْف جنازة، وتقول: يا أبتاه، مِثْلَ يَوْمِك لم أرَه! فقال: بل أبوك مثل يَوْمِه لم يَرَه.

وكان مكحول إذا رأى جنازة، قال: اغْدُ فإنّا رائحون.

وقال ابن شَوْذَب: اطّلَعَتْ امرأةٌ صالحةٌ في لَحْدٍ، فقالت لامرأةٍ معها: هذا كُندُوج العمل، يعني خِزانتَه. وكانت تُعطيها الشّيء بعد الشّيء تأمُرُها أن تتصدّق به، فتقول: اذْهبي فضَعي هذا في كُندوج العمل. شاعر[الوافر]:

أجازِعَةٌ رُدَينةُ أن أتاها ... نَعِيّي أمْ يكون لها اصْطِبارُ
إذا ما أهْلُ قَبري وَدَّعُوني ... وراحُوا والأكفّ بها غُبارُ
وغُودِرَ أعظُمِي في لَحْدِ قَبْرٍ ... تُراوِحُهُ الجنائِبُ والقِطارُ
تَهُبُّ الرّيحُ فَوْقَ مَحَطِّ قَبري ... ويَرْعَى حَوْلَهُ اللّهَقُ النَّوارُ
مُقيمٌ لا يكلّمني صَدِيقٌ ... بقَفْرٍ لا أزُورُ ولا أزارُ
فذاكَ النّأيُ لا الهِجْرانُ حَوْلًا ... وحَوْلًا ثُمَّ تجتمعُ الدِّيارُ

وقال آخر[الطّويل]:

كأنّي بإخواني على حافَتَيْ قَبْرِي ... يَهيلُونَهُ فَوْقي وأدمُعُهُمْ تَجْرِي
فيَأيُّها المُذْرِي عَلَيَّ دُموعَه ... ستُعْرِض في يومَين عنّي وعن ذِكْرِي
عَفَا اللهُ عنّي يومَ أترُكُ ثَاوِيًا ... أزارُ فلا أدْرِي وأجْفى فلا أدْرِي

وجاء في الحديث المرفوع: «ما رأيتُ مَنظرًا إلّا والقبر أفْظَعُ منه».

وفي الحديث أيضًا: «القبر أوّل منزلٍ من منازل الآخرة، فمَن نجا منه فما بَعْدَه أيْسَر،

---

١ ـ الصّمات: مصدر صمت.

ومَن لم يَنج منه فما بعده شرٌّ منه». (١٨ : ٣٢٢ ـ ٣٢٤)

**(الحكمة: ١٥٤) الأصل: الرَّحِيلُ وَشِيكٌ.**

الشّرح: ... وأراد بالرّحيل هاهنا الرّحيل عن الدّنيا وهو الموت.

وقال بعض الحكماء: قبل وجود الإنسان عَدَم لا أوّل له، وبعده عَدَم لا آخر له، وما شبّهت وجوده القليل[1] المتناهي بين العدمَين غير المتناهِيَين إلّا ببَرْق يخطَف خَطْفة خفيفة[2] في ظلامٍ مُعتكر، ثمّ يخمد ويعود الظّلام كما كان. (١٨ : ٣٧٠)

**(الحكمة: ١٧٠) الأصل: اَلأَمْرُ قَرِيبٌ، وَالْاِصْطِحَابُ قَلِيلٌ.**

الشّرح: هذه الكلمة تُذكّر بالموت وسُرْعة زوال الدّنيا، وقال أبو العلاء [البسيط]:

نفسي وجسمي لما استجمعا صنعا ... شرّا إليَّ فجلّ الواحدُ الصّمدُ

فالجسم يعذل فيه النّفس مجتهدًا ... وتلكَ تزعمُ أنَّ الظّالمُ الجسدُ

إذا هُما بعد طُولِ الصُّحبةِ افترقَا ... فإنَّ ذاكَ لأحداثِ الزّمانِ يَدُ

وأصبحَ الجوهرُ الحساس في مِحَنٍ ... موصولةٍ واستراحَ الآخَرُ الجمدُ

(١٨ : ٣٩٤)

**(الحكمة: ١٩٩) الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِن قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِن أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبَادِرُوا الْمَوْتَ الَّذِي إِن هَرَبْتُمْ مِنهُ أَدْرَكَكُمْ، وَإِن أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِن نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ.**

الشّرح: قد تقدّم منّا كلامٌ كثيرٌ في ذكر الموت.

---

١ ـ أ: «الوجود القليل».

٢ ـ أ: «يسيرة».

ورأى الحَسَن البَصْريّ رجلًا يجود بنفسه، فقال: إنّ أمرًا هذا آخره، لجَديرٌ أن يُزْهَد في أوّله، وإنّ أمرًا هذا أوّله لجَديرٌ أن يُخَاف من آخره.

ومن كلامه: فَضَحَ الموتُ الدّنيا.

وقال خالد بن صَفْوان: لوقال قائل: الحَسَن أفْصَحُ النّاس لهذه الكلمة لما كان مخطئًا.

وقال لرجل في جِنازة: أتَرى هذا الميّت لو عاد إلى الدّنيا لكان يَعْمَل عملًا صالحًا؟ قال: نعم. قال: فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك. (١٩ : ٢٣)

**(الحكمة: ٢٩١) الأصل: كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الْإِنْظَارَ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ.**

**الشّرح:** قال الله سبحانه: ﴿حَتّٰى إِذَا جَاءَ اَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى اَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا اِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ اِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

فهذا هو سؤال الإنظار لمَن عُوجِل، فأمّا مَن أُجِّل؛ فإنّه يعلّل نفسه بالتّسويف، ويقول: سوفَ أتوبُ، سوف أُقْلِع عمّا أنا عليه، فأكثرُهم يُخْتَرَم[2] من غير أن يَبْلُغ هذا الأمل، وتأتيه المنيّة وهو على أقْبَح حال وأسوئها، ومنهم مَن تشمَله السّعادة فيتوب قبل الموت، وأُولئك الّذين خُتِمت أعمالهم بخاتمة الخير، وهم في العالَم كالشَّعرة البَيْضاء في الثّور الأسوَد. (١٩ : ١٧٧)

**(الحكمة: ٣٥٥) الأصل: ... وَمَن أَكْثَرَمِن ذِكْرِالْمَوْتِ، رَضِيَ مِنَ الدُّنيَا بِالْيَسِيرِ ....**

**الشّرح:** ... «مَن ذَكَر الموت رَضِي من الدّنيا باليسير»، كان يقال: إذا أحببتَ ألّا

---

١ ـ المؤمنون / ٩٩ ـ ١٠٠ .

٢ ـ يقال : اخترمته المنيّة : أي أخذته من بينهم .

تحسُد أحدًا فأكثر ذِكْر الموت، واعلم أنّك ومَن تحسُده عن قليل مِن عَديد الهَلْكَى.
(١٩ : ٢٦٥)

**(الحكمة: ٣٦٢) الأصل: وَقِيلَ لَهُ عليه السلام: لَوسُدَّ عَلَى رَجُلٍ بَابُ بَيْتِهِ وَتُرِكَ فِيهِ، مِن أَيْنَ كَانَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ؟ فَقَالَ عليه السلام: مِن حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.**

**الشّرح:** ليس يعني عليه السلام إنّ كلّ مَن يُسَدّ عليه بابُ بيتٍ، فإنّه لابدّ أن يرزقه الله تعالى، لأنّ العَيان والمشاهدة تقتضي خلاف ذلك، وما رأينا مَن سُدَّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش، ولا رَيْب أنّ مَن شَقّ أُسطوانة وجُعِل فيها حيًّا، ثمّ بنيت الأسطوانة عليه فإنّه يموت مختنقًا، ولا يأتيه رِزْقُه ولا حياتُه، ولأنّ للحكماء أن يقولوا في الفَرْق بين الموضِعَين: إنّ أجَله إنّما يأتيه، لأنّ الأجَل عدم الحياة، والحياة تعدم لعدم ما يوجبها، والّذي يوجب استمرارها الغذاء، فلمّا انقطع الغذاء حضر الأجل، فهذا هو الوجه الّذي يأتيه منه أجَلُه، ولا سبيل إلى ذكر مثله في حضور الرِّزْق لمن يُسَدّ عليه الباب.

فإذًا معنى كلامه عليه السلام إنّ الله تعالى إذا عَلِم فيمن يُجعل في دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنّ في بقاء حياته لطفًا لبعض المكلَّفين، فإنّه يجب على الله تعالى أن يُديمَ حياته، كما يشاء سبحانه، إمّا بغذاءٍ يقيم به مادّة حياته، أو يُديمَ حياته بغير سَبَبٍ، وهذا هو الوجه الّذي منه يأتيه أجَلُه أيضًا، لأنّ إماتَةَ الله المكلَّف أمْرٌ تابعٌ للمصلحة، لأنّه لابدّ مِن انقطاع التّكليف على كلّ حال للوجه الّذي يذكره أصحابنا في كُتُبهم، فإذا كان الموتُ تابعًا للمصلحة، وكان الإحياء تابعًا للمصلحة، فقد أتَى الإنسانَ رِزْقُه ـ يعني حياته ـ من حيث يأتيه أجَلُه. وانتظَمَ الكلام. (١٩ : ٢٧٢ ـ ٢٧٣)

## الفصل السّابع والسّتّون:
## [بعض ما قيل من الشِّعْر في الدَّهْر وفِعْله بالإنسان]

(الخطبة: ١٥٨) ... عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ[1] كَأَوَّلِهِ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ ... .

الشّرح: ... قوله: «يجري بالباقين كجَرْيه بالماضين»، مِن هذا أخذ الشُّعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى، قال بعضهم [الخفيف]:

ماتَ مَن ماتَ والثُّريّا الثُّريّا  والسِّماكُ السِّماكُ والنَّسْرُ نَسْرُ

ونجومُ السّماءِ تضحكُ مِنّا  كيفَ تَبْقَى مِن بعدِنَا وتَمُرُّ

وقال آخر[الطّويل]:

فما الدَّهْرُ إلّا كالزّمانِ الّذي مَضَى  ولا نحنُ إلّا كالقُرونِ الأوائلِ

قوله: «لا يعود ما قد ولّى منه»، كقول الشّاعر[الكامل]:

ما أحْسَنَ الأيّام إلّا أنّها  يا صاحِبَيَّ إذا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ[2]

قوله: «ولا يبقى سرمدًا ما فيه» كلام مطروق المعنى، قال عديّ [الخفيف]:

لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى المَنُونِ بِبَاقِ  غَيرُ وَجْهِ المُهَيْمِنِ الخَلّاقِ

قوله: «آخر أفعاله كأوّله» يُروَى: «كأوّلها»، ومَن رواه: «كأوّله» أعاد الضّمير إلى الدّهر، أي آخر أفعال الدّهر كأوّل الدّهر، فحُذِف المضاف.

متشابهة أُموره، لأنّه كما كان من قبل يرفع ويضع، ويغنى ويفقر، ويوجد ويعدم، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة. ورُوي: «متسابقة» أي شيء منها قبل شيء، كأنّها خيل تتسابق في مضمار.

متظاهرة أعلامه، أي دلالاته على سجيّته الّتي عامل النّاس بها قديمًا وحديثًا.

---

١ ـ د: «أفعاله».

٢ ـ للبحتريّ، ديوانه ٢: ١٠٠.

متظاهرة: يقوّي بعضها بعضًا. وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام على عادة العرب في ذِكْر الدّهر، وإنّما الفاعل على الحقيقة ربّ الدّهر. (٩ : ٢١١ ـ ٢١٢)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ومن وصيّة له عليه السلام للحسن بن عليّ عليهما السلام، كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين: مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ للدَّهْرِ، وَالذَّامّ لِلدُّنيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنهَا غَدًا، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَن قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ ... .**

**الشّرح:** ... ومِن جيّد ما نَعَي به شاعرنفسه، ووصف ما نقص الدّهرمن قُواه، قول عوف ابن محلّم الشّيبانيّ في عبد الله بن طاهرأميرخراسان [السّريع]:

يَا بْنَ الّذي دَانَ له المشرقَان ... وألْبسَ الأمنَ به المَغْربَان
أنّ الثّمانِينَ وبُلْغتَهَا ... قد أحوجتْ سمعِي إلى تَرْجمان
وبدّلْتني بالشّطاطِ انحِنَا ... وكنتُ كالصَّعْدةِ تحتَ السّنان
وقاربتْ منّي خُطًا لم تكنْ ... مُقارَباتٍ وثَنَتْ مِن عَنان
وعوّضتني من زماعِ الفَتَى ... وهمّه همّ الجبانِ الهِدَان
وأنشأتْ بيني وبينَ الوَرَى ... عَنانةً مِن غيرنَسْجِ العَنان
ولم تَدَعْ فِيَّ لمستمتِعٍ ... إلّا لساني وكَفاني لسان
أدعُو بهِ اللهَ وأثْنِي بهِ ... على الأميرِالمصعبيّ الهِجان

ومن الشّعرالقديم الجيّد في هذا المعنى قول سالم بن عونة الضّبيّ [أحذ الكامل]:

لايَبْعدَنْ عَصْرُ الشّباب ولَا ... لذّاتِهِ ونَباتِهِ النّضرِ
والمشرِفاتُ مِنَ الخُدورِ كإيـ ... ـمَاضِ الغَمامِ يجُودُ بالقطْرِ
وطراد خيلٍ مثلها التقتَا ... لحفيظةٍ ومَقاعدِ الخَمْرِ

لـولا أولئـكَ مـا حلفت مَـتى ... عُولِيتُ في خَـرِجٍ إلى قَبْـرِي
هربتْ زبيبةُ أن رأتْ تَرَمي[1] ... وأنِ انْحَـنَى لتقـادمٍ ظَهْـرِي
مِن بعدِ ما عَهَدَتْ فأدلفني ... يـومٌ يَمُـرُّ وليلـةٌ تسـرِي
حـتّى كـأنّي خاتـلٌ قَنَصًـا[2] ... والمَـرْءُ بعـدَ تمامِـهِ يجـرِي
لا تهـزَئي مـنّي زبيـبُ فمـا ... في ذاكَ مِن عَجَبٍ ولا سَخرِ
أوَ لَمْ تَـرَيْ لُقْمـانَ أهلَكَـهُ ... ما اقْتَاتَ مِن سَنَةٍ ومِن شَهْرِ
وبقـاء نَسْـر كلّمـا انقرضـتْ ... أيّامُـهُ عـادتْ إلى نَسْـر
مـا طـال مِـن أمَـدٍ عـلى لُبَـدٍ ... رَجعـتْ مَحارتـهُ إلى قَصْـرِ[3]
ولقـد حَلَبْـتُ الـدَّهْرَ أشْـطُرَهُ ... وعَلِمـتُ مـا آتِي مِـنَ الأمْـرِ

أنا أستفصح قوله: «ما اقتات من سنة ومن شَهْر»، جعل الزّمان كالقوت له، ومَن اقتات الشّيء فقد أكله، والأَكْل سبب المرض، والمرضُ سبب الهلاك.(١٦ : ٥٥ ـ ٥٦)

**(الخطبة: ١٥٨) الأصل: الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِن فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ.**

---

١ ـ التَّرم: انكسار السّنّ.

٢ ـ المخاتلة: مشي الصّيّاد قليلًا قليلًا في خفية لئلّا يسمع الصّيد حسّه.

٣ ـ في «اللّسان»: وتزعم العرب أنّ لقمان هو الّذي بعثته عاد في وَفْدها إلى الحرم يستسقي لها، فلمّا أُهْلِكُوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بَعَرات سُمْر مِن أظْبٍ عُفْر في جبل وَعْر لا يَمَسُّها القَطْر، أو بقاء سبعة أنْسُرٍ كلّما أُهْلِكَ نَسْرٌ خلَف بعده نَسْر، فاختار النُّسُور، فكان آخر نُسوره يسمّى لُبَدًا، وقد ذكرته الشّعراء؛ قال النّابغة [البسيط]:

أضْحَتْ خَلاءً وأضْحَى أهْلُها احْتَمَلُوا ... أخْنَى عليها الّذي أخْنَى على لُبَدِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَيَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ ....

**الشّرح:** ... قوله: «يجري بالباقين كجَرْيه بالماضين»، مِن هذا أخذ الشُّعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى، قال بعضهم [الخفيف]:

ماتَ مَن ماتَ والثُّريّا الثّريّا والسِّماكُ السِّماكُ والنَّسْرُ نَسْرُ

ونجومُ السّماءِ تضحكُ مِنّا كَيْفَ تَبْقَى مِن بَعْدِنا ونَمُرُّ

وقال آخر[الطّويل]:

فما الدَّهْرُ إلّا كالزّمانِ الّذي مَضَى ولا نَحنُ إلّا كالقُرونِ الأوائلِ

قوله: «لا يعود ما قد ولّى منه»، كقول الشّاعر [الكامل]:

ما أحْسَنَ الأيّامَ إلّا أنّها يا صاحِبَيَّ إذا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ[1]

قوله: «ولا يبقى سَرْمدًا ما فيه»، كلام مطروق المعنى، قال عديّ:

لَيْسَ شَيءٌ عَلَى المَنُونِ بِبَاقِ غَيْرُ وَجْه المُهَيْمنِ الخَلّاقِ

... متشابهة أُموره، لأنّه كما كان من قبل يرفع ويضع، ويغنى ويفقر، ويوجد ويعدم، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة... متظاهرة أعلامه، أي دلالاته على سجيّته الّتي عامَل النّاس بها قديمًا وحديثًا. متظاهرة: يقوى بعضها بعضًا. وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام على عادة العرب في ذكر الدّهر، وإنّما الفاعل على الحقيقة ربّ الدّهر.

(٩ : ٢١١ ـ ٢١٢)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْبِشَيءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنهُ ....**

---

١ ـ للبحتريّ، ديوانه ٢ : ١٠٠ .

الشّرح: ... قوله: «سَاهل الدّهر ما ذلّ لك قعوده»، هذا استعارة، والقعود البَكْر حين يمكن ظهره من الرّكوب إلى أن يثنى، ومثل هذا المعنى قولهم في المَثَل: «مَن ناطح الدّهر أصبح أجمّ».

ومثله [المنسرح]:

*ودُرْ مع الدّهرِ كيفما دارَا*

ومثله [الطّويل]:

ومَن قَامَرَ الأيّامَ عن ثمراتِها فأحْرِ بها أن تَنجَلِي وَلَهَا القَمْرُ[1]

ومثله [الطّويل]:

إذا الدّهرُ أعطاك العِنان فسِرْ بِهِ رُوَيدًا ولا تعنُفْ فيصبح شامِسَا

(١٦ : ١٠٥ ـ ١٠٦)

**(كتابه عليه السلام: ٧٢) ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس:**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ؛ وَاعْلَمْ! بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنيَا دَارُدُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ.**

الشّرح: قد تقدّم شرح مثل هذا الكلام، وهذا معنًى مطروق، قد قال النّاس فيه فأكثروا، قال الشّاعر[المنسرح]:

قَدْ يُرزَقُ العاجزُ الضّعيفُ ومَا شَدَّ بكُورٍ رَحْلًا ولا قَتَبَا

ويحرَمُ المرء ذوالجلادة والرْ رأيَ ومَن لا يزال مُغْتَرِبَا

جيّد ما قيل في هذا المعنى قول أبي يعقوب الخُرَيميّ [الطّويل]:

هلِ الدَّهْرُ إلّا صَرْفُهُ ونَوائبُهْ وسَرّاءُ عيشٍ زائلٍ ومَصَائبُهْ

يَقُول الفَتَى ثمّرتُ مالي وإنّما لوارِثِهِ ما ثمّرَ المالَ كاسِبُهْ

---

١ ـ القمر: الغلبة في القمار.

يُحاسِبُ فِيهِ نَفسَهُ في حَياتِهِ ... ويتركُهُ نَهْبًا لمن لايُحاسِبُهْ
فَكِلْه وأطعِمْهُ وخالِسْهُ وارثًا ... شَحِيحًا ودَهْرًا تَعْتَرِيكَ نَوائِبُهْ
أرَى المالَ والإنسانَ للدَّهرِ نُهْبَةً ... فلا البُخْل مُبْقِيهِ ولاالجود خارِبُهْ
لكلِّ امرئٍ رِزْقٌ وللرِّزْقِ جالِبٌ ... ولَيْسَ يَفوت المرءَ ما خطَّ كاتِبُهْ
يَخيبُ الفَتَى من حَيثُ يُرْزَقُ غيرهُ ... ويُعْطَى الفَتَى من حَيْثُ يُحرَمُ
يُساق إلى ذا رِزْقِهِ وَهوَ وادِعٌ ... ويُحْرَمُ هذا الرِّزْقَ وَهوَ يغالِبُهْ
وإنّك لاتدري: أرِزْقُكَ في الّذي ... تطالِبُه أمْ في الّذي لا تُطالِبُهْ!
تناسَ ذنوبَ الأقربينَ فإنَّهُ ... لكلِّ حَمِيمٍ راكِبٌ هوَ راكِبُهْ
لهُ هَفَواتٌ في الرّخاءِ يَسُوبُها ... بنصرةِ يومٍ لاتوارَى كَواكِبُهْ
تَراهُ غُدُوًّا ما أمِنتَ وتتَّقي ... بِجبهَتِهِ يوم الوَغَى مَن يُحارِبُهْ
لكلِّ امْرِئٍ إخوانُ بُؤسٍ ونعمةٍ ... وأعظمهمْ في النّائباتِ أقارِبُهْ

(١٨ : ٦٠ ـ ٦١)

**(الحكمة: ٧٠) الأصل: الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ، وَيُجَدِّدُ الْآمَالَ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ، وَيُبَاعِدُ الْأُمْنِيَّةَ، مَن ظَفِرَ بِهِ نَصِبَ، وَمَن فَاتَهُ تَعِبَ.**

**الشّرح:** قد سبق لنا قولٌ طويلٌ عَريضٌ في ذِكْرِ الدَّهْرِ والدّنيا، ونذكر الآن شيئًا آخر.

قال بعض الحكماء: الدّنيا تَسُرّ لتَغُرّ، وتُفِيد لتَكِيد، كَمْ راقِدٍ في ظلّها قد أيقظَتْه، وواثِقٍ بها قد خَذَلَتْه، بهذا الخُلقِ عُرِفَتْ، وعلى هذا الشَّرْط صُوحِبَتْ.

وكتب الإسكندر إلى أرِسطوطاليس: عِظْني، فكتب إليه: إذا صَفَتْ لك السّلامة فجدّد ذِكْرَ العَطَب، وإذا اطمأنّ بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغتَ نهايةَ الأمل فاذْكُر الموتَ، وإذا أحببتَ نفسك فلا تجعل لها نصيبًا في الإساءة، وقال شاعر فأحسن [الطّويل]:

كأنّكَ لَمْ تَسْمَعْ بأخبار مَن مَضَى ... ولَمْ تَرَ بالباقِينَ ما صَنَعَ الدَّهْرُ
فإن كنتَ لا تدري فتلكَ دِيارُهمْ ... عَفَاها فحالَ الرِّيحُ بَعْدَكَ والقَطْرُ
وهَلْ أبْصَرَتْ عَيْناكَ حَيًّا بمَنزِلٍ ... على الدَّهرِ إلّا بالعَراءِ لَهُ قَبْرُ
فَلَا تَحْسَبَنَّ الوَفْرَ مالًا جمعتَهُ ... ولكنَّ ما قدمْتَ مِن صالحٍ وَفْرُ
مَضَى جامِعُو الأموالِ لَمْ يَتَزَوَّدُوا ... سِوَى الفَقْرِ يا بُؤْسَى لمن زادُهُ الفَقْرُ
فحتّامَ لا تَصْحُو وقَدْ قَرُبَ المَدَى ... وحَتّامَ لا يَنجاب عن قَلْبك السُّكْرُ
بَلَى سَوْفَ تَصْحُو حِينَ يَنكشِفُ الغِطَا ... وتذكرُ قَولِي حِينَ لا ينفعُ الذِّكْرُ
وما بَيْنَ مِيلادِ الفَتَى ووفاتِهِ ... إذا انتصحَ الأقوامُ أنفسهمْ عُمْرُ
لأنَّ الّذي يأتِيهِ شِبْهُ الّذي مَضَى ... وما هو إلّا وَقْتُكَ الضَّيِّقُ النَّزْرُ
فصَبرًا على الأيّامِ حَتَّى تَجُوزَها ... فَعَمَّا قَلِيل بعدها يَحْمَدُ الصَّبْرُ

(١٨ : ٢١٨ ـ ٢١٩)

## [نبذ من الأقوال الحكميّة في تقلّبات الدَّهْر وتصرّفاته]

**(الحكمة: ٢٩٢) الأصل: مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ «طُوبَى لَهُ» إِلَّا وَقَدْ خَبَّأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْءٍ.**

**الشّرح:** قد تقدّم هذا المعنى، وذكَرْنا فيه نُكَتًا جيّدة حميدة. كان محمّد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد في قَصْره على دِجْلة يومًا، وإذا بحشيشٍ على وَجْه الماء، في وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة، فأمر بأخْذِها، فإذا فيها [البسيط]:

تَاهَ الأُغَيرِجُ واستولَى بِهِ البَطَرُ ... فَقُلْ لَهُ: خَيرُ ما استعمَلْتَهُ الحَذَرُ
أحسنتَ ظَنّكَ بالأيّامِ إذ حَسُنتْ ... ولَمْ تَخَفْ سوءُ ما يأتِي بِهِ القَدَرُ
وسالمَتْكَ اللّيالِي فاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وعِندَ صَفْوِ اللّيالِي يَحدُثُ الكَدَرُ

فما انتفع بنفسه مدّة.
وفي المَثَل: الدَّهْرإذا أُتي بسَحْواءَ سَحْسَح[1]، يُعْقِبها بنَكْباء زَعْزَع.
وكذاك شُرْبُ العَيْش فيه تلوُّن، بَيْناه عَذْبًا إذ تحوَّل آجِنًا.
يحيى بن خالد: أعطانا الدَّهْر فأسرَف، ثمّ مال علينا فأجْحَف.
وقال الشّاعر[الطّويل]:

فيا لَنعيمٍ ساعدَتْنا رِقابُهُ وخاسَتْ بنا أكفالُهُ والرَّوادِفُ

إسحاق بن إبراهيم الموصليّ [البسيط]:

هِـيَ المقـادِيرُ تَجـرِي في أعِنَّتِهـا فاصْبرْ فَلَيْسَ لها صَبْرٌ على حَالِ
يومًا تَرِيشُ خَسيسَ الحالِ تَرْفَعهُ إلى السّماءِ ويومًا تخْفِضُ العَالِي

إذا أدبر الأمر أتَى الشَّرُّ مِن حيث كان يأتي الخَير.
هانئ بن مسعود [الخفيف]:

إنّ كَسْرَى أبى على المَلِك النّعـ ـمان حَتَّى سَقَاهُ أمَّ الرَّقوبِ
كـلّ مُلْـكٍ وإن تَصَـعَّدَ يومًـا بأنـاسٍ يَعـودُ للتَّصْـويبِ

أُحَيْحَة بن الجُلاح [الوافر]:

وما يَدرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وما يَدرِي الغَنِيُّ مَتَى يُعِيلُ
وما تَدْري إذا أضْرَبْتَ شَوْلًا أتُلْقِحُ بَعْدَ ذَلِكَ أمْ تحِيلُ
وما تَدري إذا أزْمَعْتَ سَيْرًا بأيِّ الأرضِ يُدْرِكُكَ المَقِيلُ!

آخر[الطّويل]:

فما دَرَنُ الدّنيا ببَاقٍ لِأَهْلِهِ ولا شِرّة الدّنيا بضَرْبةِ لازِمِ

آخَر[الرّمل]:

---

١ ـ أي: سحابة تصبّ مطرًا شديدًا.

رُبَّ قومٍ غَبروا مِن عِيشهمْ في سُرورٍ ونَعيمٍ وغَدَقْ
سَكَتَ الدَّهْرُ زمانًا عَنهم ثُمَّ أبكاهمْ دَمًا حِينَ نَطَقْ

ومن الشّعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدة [مجزوء الكامل]:

يا نَفْسُ قَدْ حَقَّ الحَذَرْ أيْنَ الفِرارُ مِنَ القَدَرْ
كلّ امرِئٍ مِمَّا يَخَا فُ ويَرْتَجِيهِ عَلَى خَطَرْ
مَن يَرْتشِفْ صَفْوَ الزَّمَا نِ يَغُصُّ يَوْمًا بالكَدَرْ

(١٩ : ١٧٨ ـ ١٨٠)

**(الحكمة: ٤٠٦) الأصل: الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ.**

الشّرح: قديمًا قيل هذا المعنى: الدّهر يومان: يوم بَلاء، ويوم رَخاء.

والدّهر ضربان: حَبرة وعَبرة، والدّهر وقتان: وقت سرور، ووقت ثُبُور[1].

وقال أبو سفيان يوم أُحُد: يومٌ بيوم بَدْر، والدّنيا دُوَل ... . (١٩ : ٣٦٤)

١ ـ الثّبور: الهلاك.

## الفصل الثّامن والسّتّون:

## [في الإقبال والإدبار]

**(الحكمة: ١٤٩) الأصل: لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَن لَمْ يَكُن.**

**الشّرح:** هذا معنًى قد استُعْمِل كثيرًا جدًّا، فمنه المـثَل [مجزوء الرّجز]:

ما طَارَ طيرٌ وارْتَفَعْ إلّا كَمَـا طَـارَ وَقَـعْ

وقول الشّاعر [المتقارب]:

بقَدْرِ العُلوِّ يكون الهبوطُ وإيّاكَ والرُّتَبَ العالِيَهْ

وقال بعض الحكماء: حركةُ الإقبال بَطيئةٌ، وحركةُ الإدبار سريعةٌ، لأنّ المُقْبل كالصّاعد إلى مِرْقاة، ومِرْقاة المُدْبِر كالمَقْذوف به من عُلو إلى أسْفَل، قال الشّاعر [البسيط]:

في هَذِهِ الدّارِ في هَذَا الرِّوَاقِ عَلَى هَذِي الوِسادةِ كانَ العِزُّ فانقَرَضا

آخر [الكامل]:

إنَّ الأُمورَ إذا دَنَتْ لزَوالِها فَعَلَامةُ الإدبارِ فيها تظهرُ

وفي الخبر المرفوع: كانت ناقة رسول الله ﷺ العَضْباء لا تُسْبَق، فجاء أعرابيّ على قَعودٍ له فسَبَقها، فاشتدّ على الصّحابة ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حقًّا على الله ألّا يرفع شيئًا من هذه الدّنيا إلّا وَضَعه».

وقال شيخٌ من هَمْدان: بَعَثَني أهلي في الجاهليّة إلى ذي الكَلاع بهَدَايا، فمكثتُ تحت قَصْرِه حَوْلًا لا أَصِل إليه، ثمّ أشْرَف إشرافةً من كُوّةٍ له فخَرّ له من حَوْل العَرش سُجَدًا، ثمّ رأيتُه بعد ذلك بحِمْص فقيرًا يشتري اللَّحْم ويسمِّطه[1] خَلْف دابّته، وهو القائل [الرّمل]:

أُفٍّ للـدُّنيا إذا كانَـتْ كَـذَا أنّـا منهـا في هُمُـومٍ وأذَى

---

١ ـ يسمّطه، أي يعلّقه.

إنّ صفا عيشُ امرئ في صُبْحها جَرَعَتْه مُمسِيًا كَأْسَ القَذَى
ولَقَدْ كُنتُ إذا ما قِيلَ مَن أنعَمُ العالَمِ عَيْشًا؟ قِيلَ: ذا

وقال بعض الأُدباء في كلام له: بينا هذه الدّنيا تُرْضع بدرّتها وتصرّح[1] بزُبْدتها، وتَلْحِف فضل جَناحِها، وتَغُرّ بركود رِياحِها، إذ عطفتْ عَطْف الضَّرُوس، وصَرَخت[2] صُراخ الثّموس، وشنّت غارة الهموم، وأراقت ما حَلبتْ من النّعيم، فالسّعيد مَن لم يغترّ بنكاحها، واستعدّ لو شكّ طلاقها.

شاعر، هو إهاب بن همّام بن صَعْصَعة المجاشعيّ، وكان عُثْمانيًّا [المتقارب]:

لعَمْرُ أبيكَ فلا تَكْذِبن لقد ذَهَبَ الخَيرُ إلّا قَلِيلَا
وقد فُتِنَ النّاسُ في دِينِهِمْ وخَلّى ابنُ عَفّانَ شرًّا طَويلَا

وقال أبو العتاهيّة [الرّجز]:

يَعْمُرُ بيتٌ بخرابِ بَيْتِ يَعيشُ حيٌّ بتُراثِ مَيْتِ

وقال أنس بن مالك: ما مِن يوم ولا ليلةٍ ولا شَهْرٍ ولا سَنَةٍ إلّا والّذي قبله خيرٌ منه، سمعت ذلك من نبيّكم ﷺ، فقال شاعر [الخفيف]:

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا صِرْتُ في غَيرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

قيل لبعض عُظَماء الكُتّاب بعد ما صُودِر: ما تُفَكِر في زوال نِعْمَتِك؟ فقال: لابدّ من الزّوال، فلأن تزولَ وأبقى خيرٌ من أن أزولَ وتبقى.

ومن كلام الجاهليّة الأُولى: كلّ مُقيمٍ شاخِصٌ، وكلّ زائد ناقصٌ.

شاعر [مجزوء الرّجز]:

إنّما الدّنيا دُوَلْ فراحِلٌ قيلَ نَزَلْ
إذ نازِلٌ قيلَ رَحَلْ

---

١ ـ ب: «تصرخ»، تحريف.

٢ ـ ب: «صرحت»، تحريف.

لمـا فَتَحَ خالدُ بن الوليد عَين التّمر، سأل عن الحُرَقة بنتِ النُّعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها، فقالت: لقد طَلَعَتْ علينا الشّمس وما من شيء يَدِبّ تحت الخَوَرْنَق إلّا وهو تحت أيدينا، ثمّ غَرَبَتْ وقد رَحِمَنا كلّ مَن نُلِمُّ به، وما بيت دَخَلَتْه حَبرَة، إلّا ستدخله عَبرَة،

ثمّ قالت [الطّويل]:

بينا نَسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحنُ فِيهِمْ سُوقةٌ نتنصّفُ

فـأفّ لـدنيا لايَـدومُ نَعيمهـا تُقَلِّبُ تـاراتٍ بنـا وتُصَـرِّفُ

وجاءها سعد بن أبي وَقّاص مرّة ، فلمّا رآها، قال: قاتَلَ الله عَدِيّ بن زيد، كأنّه كان ينظرإليها حيث قال لأبيها [الخفيف]:

إنّ للدَّهرِ صَرْعَةً فاحْـذَرَنها لا تبيتنّ قد أمِنتَ الدّهورَا

قد يبيتُ الفَتَى مُعَافًى فيَرْدَى ولَقَـدْ كـانَ آمِنًـا مَسْـرورَا

وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير: لاتنظروا إلى خَفْض عيش المُلوك ولينِ رِياشهم، ولكن انظروا إلى سُرْعةِ ظَعْنهم وسُوء مُنقَلبهم، وإنّ عُمُرًا قَصيرًا يستوجب به صاحبه النّار لعُمُرٌ مَشؤومٌ على صاحبه.لمـا قَتَل عامِرُبن إسماعيل مَرْوانَ بن محمّد، وقَعَد على فِراشه، قالت ابنة مَرْوان له: يا عامر، إنّ دَهْرًا أنزَلَ مَرْوان عن فُرُشِه وأقْعَدَك عليها لَـبَلِغٌ في عِظَتك إن عَقَلْتَ. (١٨ : ٣٦٣ ـ ٣٦٥)

**(الحكمة: ٣١٨) وقَالَ عليه السلام: إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ.**

**الشّرح:** لا رَيْب أنّ القلوب تَمَـلّ كما تملّ الأبدان، وتُقبِل تارةً على العلم وعلى العمل، وتُدبِر تارةً عنهما.

قال عليّ عليه السلام: فإذا رأيتموها مُقبِلة ـ أي قد نَشِطتْ وارْتاحَتْ للعمل ـ فاحمِلوها على النّوافل، ليس يعني اقتصروا بها على النّافلة، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك،

وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسَئمت، فاقتصروا بها على الفرائض، فإنّه لا انتفاع بعَمَلٍ لا يحضر القَلْب فيه. (١٩ : ٢١٩)

**(الحكمة: ٣٤٦) الأصل: صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ، يُقْبِلُ بِإِقْبَالِهَا وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا.**

**الشّرح:** قال الصُّوليّ: اجتَمَع بنو بَرْمَك عند يحيى بن خالد في آخر دَوْلتهم وهم يومئذٍ عشرة، فأداروا بينهم الرّأي في أمرٍ فلم يصلح لهم، فقال يحيى: إنّا لله! ذهبتْ وَالله دولَتُنا! كنّا في إقبالنا يُبرِم الواحد منّا عشرة آراء مشكلة في وقت واحد، واليوم نحنُ عشرة في أمر غير مشكل، ولا يصحّ لنا فيه رأي! اللهَ نسأل حُسْن الخاتمة.

أرسَل المنصور لمّا هاضَه أمر إبراهيم إلى عمّه عبد الله بن عليّ وهو في السِّجْن يستشيره ما يصنع! وكان إبراهيم قد ظهر بالبَصْرة، فقال عبد الله: أنا محبوس، والمحبوس محبوس الرّأي. قال له: فعَلَى ذاك؟ قال: يُفرِّق الأموال كلّها على الرّجال ويلقاه، فإن ظَفِر فذاك، وإلّا يتوجّه إلى أبيه محمّد بجُرْجَان، ويتركه يَقدُم على بيوتِ أموال فارغة، فهو خيرٌ له من أن تكون الدّبرَة عليه، ويقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة. قال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجّاج يومًا: لَعَن اللهُ رجلًا أجَرّك رَسَنَه، وخَرّب لك آخرته. قال: يا أمير المؤمنين، رأيتني والأمر عنّي مُدبر، ولو رأيتني والأمر عَلَيّ مُقْبِل لاستكبرتَ منّي ما استصغرتَ، ولاستَعْظمت منّي ما استحقَرْتَ. (١٩ : ٢٥٤)

## الفصل التّاسع والسّتّون: [أقوال في الأمَل والمُنى]

**(الخطبة: ٤٢) أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنسِي الْآخِرَةَ ...**

.

**الشّرح:** ... وَأمّا طُول الأمل فيُنسِي الآخرة، وهذا حقّ، لأنّ الذّهن إذا انصرف إلى الأمل، ومدّ الإنسان في مداه، فإنّه لا يذكر الآخرة، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدّنيا، وما يرجو حصوله منها في مستقبل الزّمان.

ومن كلام مِسْعر بن كِدام: كم مِن مُستقبلٍ يومًا ليس يستكمِلُه، ومنتظرٍ غَدًا ليس من أجَلِه! ولو رأيتم الأجل ومسيرَه، أبغضتم الأمل وغروره.

**وكان يقال:** تَسويفُ الأمل غِرارٌ، وتَسويلُ المحال ضِرارٌ.

ومن الشّعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام [مجزوء الرّجز]:

غَــرّ جَهُــولًا أمَلُــهْ ... يموتُ مَن جَا أجَلُهْ

ومَن دَنَا مِن حَتْفِهِ ... لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ

ومــا بقــاءُ آخِــرٍ ... قَدْ غَابَ عَنْهُ أوّلُهْ

والمَــرْءُ لَا يَصْــحَبُهُ ... في القَبْرِ إلّا عَمَلُهْ

وقال أبو العتاهية [البسيط]:

لا تَأمَنِ الموتَ في لحظٍ ولَا نَفَسٍ ... وَلَو تمَنَّعْتَ بالحُجَّابِ والحَرَسِ

واعْلَمْ بأنَّ سِهَامَ الموتِ قَاصِدَةٌ ... لِكُــلِّ مُــدَّرِعٍ مِنَّــا ومُتَّــرِسِ

مَا بَالُ دِينِكَ تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ ... وثَوْبُ لُبْسِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ ولَمْ تَسْلُكْ مَسالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

ومن الحديث المرفوع: «أيّها النّاس إنّ الأعمال تُطْوَى، والأعمار تَفْنى، والأبدان تَبْلَى في الثَّرى، وإنّ اللّيل والنّهار يتراكَضان تَراكُضَ الفرقدَين، يقرّبان كلّ بعيدٍ، ويُخْلِقان كلّ جديدٍ، وفي ذلك ما ألْهَى عن الأمل، وأذكرك بحلول الأجل».

وقال بعض الصّالحين: بقاؤك إلى فَناء، وفَناؤك إلى بقاء، فخذ من فَنائِك الّذي لا يبقى، لبقائك الّذي لا يفنَى.

وقال بعضهم: اغتنم بنفس الأجل، وإمكان العمل، اقْطَعْ ذِكْرَ المعاذير والعِلَل، ودَع تَسويف الأمانيّ والأمل، فإنّك في نَفسٍ معدودٍ، وعُمُرٍ محدودٍ، ليس بممدودٍ.

وقال بعضهم: اعْمَل عَمَل المُرْتَحِل، فإنّ حاديَ الموت يَحْدُوك ليوم لا يعدوك.

(٢ : ٣١٩ ـ ٣٢٠)

**(الخطبة: ٨٥) ... واعْلَمُوا! أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ.**

**الشّرح:** ... ثمّ نهى عن الأمل وطُوله، وقال: «إنّه يورث العقل سَهْوًا، وينسي الذِّكْر».

ثمّ أمر بإكذاب الأمل، ونهى عن الاعتماد عليه والسّكون إليه، فإنّه من باب الغرور. وقد ذكرنا في الأمل وطوله نُكَتًا نافعةً فيما تقدّم ... . (٦ : ٣٥٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَإِيَّاكَ وَالْاِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «إيّاك والاتّكال على المُنى، فإنّها بضائع النَّوْكَى»، من هذا أخذ أبو تمام قوله [الكامل]:

مَن كانَ مَرْعَى عَزْمِهِ وهُمُومِهِ رَوْضُ الأمانيّ لَمْ يَزَلْ مَهْزولَا

ومن كلامهم: ثلاثةٌ تُخْلِق العَقْل، وهو أوضح دليل على الضّعف: طول التّمنّي، وسرعة الجواب، والاستغراب[1] في الضّحك.

وكان يقال: التّمنّي والحِلْم سيّان.

---

١ ـ الاستغراب في الضّحك: المبالغة فيه.

وقال آخر: شَرَفُ الفَتَى تَرْكُ المُنَى. (١٦ : ١٠٢)

**(الحكمة :١٩) الأصل: مَن جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ في الأمل، ونذكر هاهنا زيادةً على ذلك:

قال الحسن عليه السلام: لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه، لنسيتَ الأمَل وغُرورَه، ويُقدِّر المقدّرون والقضاء يَضْحَك.

وروى أبو سعيد الخُدْريّ أنّ أُسامةَ بنَ زيد اشترى وَليدةً بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا تَعْجَبون من أُسامة يشتري إلى شهر! إنّ أُسامة لطويل الأمل.

أبو عثمان النَّهْديّ: قد بلغتُ نحوًا من ثلاثين ومائةَ سنةٍ فما من شيءٍ إلّا قد عرفت فيه النّقص إلّا أَمَلي، فإنّه كما كان.

قال الشّاعر[الوافر]:

أراكَ تَزيدُكَ الأيّام حِرْصًا ... على الدّنيا كأنّكَ لاتموتُ

فَهَلْ لكَ غايةٌ إن صِرْتَ يومًا ... إليها قلتَ حَسْبي قد رَضيتُ

وقال آخر[الخفيف]:

مَن تَمَنَّى المُنَى فأغْرَقَ ... ماتَ مِن قَبْلِ أن يَنالَ

ليس في مالِ مَن تتابع في اللّذّات فضلٌ عن نفسه لِسَواه. (١٨: ١٢٧)

**(الحكمة : ٣٣) الأصل: أَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى.**

**الشّرح:** قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ في المنى، ونذكر هاهنا ما لم نذكره هناك.

سُئِل عبيد الله بن أبي بكر: أيّ شيء أدْوَم مَتاعًا؟ فقال: المُنَى.

وقال بلال بن أبي بُرْدة: ما يَسُرُّني بنصيبي من المنَى حُمْرُ النَّعَم.

**وكان يقال:** الأمانيّ للنّفس كالرَّوْنَق للبَصَر.

ومن كلام بعض الحكماء: الأمانيّ تُعْمِي أعين البصائر، والحَظّ يأتي مَن

لا يأتيه، وربّما كان الطّمع وِعاء حَشوه المتالف، وسائقًا يدعو إلى النّدامة، وأشقَى النّاس بالسّلطان صاحبه، كما أنّ أقرب الأشياء إلى النّار أسرَعُها إحراقًا، ولا يدرك الغِنَى بالسّلطان إلّا نفسٌ خائفةٌ وجسمٌ تَعِب، ودين مُنكتم، وإن كان البحر كَدِرَ الماء، فهو بَعيدُ الهواء. (١٨ : ١٥١)

**(الحكمة: ٢٠٧) ... وَأَشْرَفُ الغِنَى تَرْكُ الْمُنَى ...**

**الشّرح:** ... وسبق أيضًا القول في المُنَى، وإنّها من بضائع النَّوكى ... .
(١٩ : ٣٢)

**(الحكمة :٣٦) وقَالَ عليه السلام: مَن أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم منّا كلامٌ في الأمل.

**وقيل لبعض الصّالحين:** ألك حاجةٌ إلى بغداد؟ قال: ما أحبّ أن أبسُطَ أملي حتّى تذهب إلى بغداد وتعود.

وقال أبو عثمان النَّهديّ: قد أتَتْ عَلَيّ ثلاثون ومائة سنة، ما من شيءٍ إلّا وأجِدُ فيه النّقص إلّا أملي، فإنّي وجدتُه كما هو أو يزيد. (١٨ : ١٥٥)

**(الحكمة: ٣٤٢) وقَالَ عليه السلام: لَو رَأَى الْعَبْدُ الْأَجَلَ وَمَصِيرَهُ، لَأَبْغَضَ الْأَمَلَ وغُرُورَهُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم من الكلام في الأمل ما فيه كفاية.

**وكان يقال:** واعجبًا لصاحِبِ الأمل الطّويل! وربّما يكون كَفَنُه في يد النّسّاج وهو لا يعلم. (١٩ : ٢٥٠)

**(الحكمة: ٣٥٠) الأصل: مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا اللهَ، فَكَمْ مِن مُؤَمِّلٍ مَا لَا يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ مَا لَا يَسْكُنُهُ، وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، وَلَعَلَّهُ مِن بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِن**

**حَقٍّ مَنَعَهُ؛ أَصَابَهُ حَرَامًا وَاحْتَمَلَ بِهِ آثَامًا، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ آسِفًا لَاهِفًا، قَدْ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾**[1].

**الشّرح:** قد تقدّم شرح هذه المعاني والكلام عليها، أمّا الآمال الّتي لا تبلغ، فأكثر مِن أن تُحصَى، بل لا نهاية لها.

وما أحسن قول القائل [البسيط]:

واحَسْرتَا ماتَ حظّي مِن وصالِكُمُ ... وللحُظُوظِ كَمَا للنَّاسِ آجالُ

إن متُّ شَوْقًا ولَمْ أبْلُغْ مَدَى أمَلِي ... كَمْ تحتَ هَذِي القُبورِ الخرْسِ آمالُ

وأمّا بناء ما لا يُسْكن، فنحو ذلك.

وقال الشّاعر[الوافر]:

ألم تَرَ حَوْشَبًا بالأمسِ يَبْنِي ... بَناءً نَفْعُهُ لِبَنِي نُفَيلَهْ

يؤمّل أن يُعمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ ... وأمْرُاللهِ يَطْرُقُ كلّ لَيْلَهْ

وأمّا جامع ما سوف يَتْركه، فأكثر النّاس، قال الشّاعر[الطّويل]:

وذِي إبِلٍ يَسْعَى ويَحْسَبها لَهُ ... أخُو تَعَبٍ في رَعْيها ودُؤُوبِ

غَدَتْ وغَدَا رَبٌّ سِوَاهُ يَسُوقُها ... وبُدِّلَ أحْجارًا وجالَ قَلِيبِ

(١٩ : ٢٥٩)

---

١ ـ سورة الحجّ/١١.

## الفصل السّبعون: [في المال]

(الخطبة: ٢٣) ...وَإِنَّ الْمَالَ والْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنيا، وَالعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ لِأَقْوَامٍ ... .

الشّرح: ... ثمّ قال: «المال والبنون حَرْث الدّنيا» وهو من قوله سبحانه: ﴿اَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾[1]، ومن قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيَا نُؤْتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[2].

قال: «وقد يجمعهما الله لأقوام»، فإنّه تعالى قد يرزق الرّجل الصّالح مالًا وبنين، فتجتمعُ له الدّنيا والآخرة. (١ : ٣١٤ ـ ٣١٥)

(كتابه عليه السلام: ٣١) ... فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَاتَبْقَى لَهُ ... .

الشّرح: ... قوله: «فالمال لا يبقى لك ولاتبقى له»، لفظ شريف فصيح، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة، وقال أبو الطّيّب [الكامل]:

أيْـنَ الجَبـابِرةُ الأكاسـرةُ كَنـزُوا الكُنـوزَ فمـا بَقِـينَ ولا

(١٦ : ٨٨)[3]

(الحكمة: ٥٦) الأصل: الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ.

الشّرح: قد تقدَّم لنا كلامٌ في المال مدحًا وذمًّا.

وقال أعرابيّ لبَنِيه: اجمَعوا الدّراهم فإنّها تُلْبِس اليَلَمَق، وتطعِم الجَرْدَق[4].

وقال أعرابيّ وقد نَظَر إلى دينار: قاتَلَك اللهُ! ما أصْغَر قَمّتَك، وأكبر همّتك!

ومن كلام الحُكَماء: ما اخترتَ أن تحيَا به قمت دونَهُ.

---

١ ـ الكهف / ٤٦ .

٢ ـ الشّورى / ٢٠ .

٣ ـ ديوانه ٢ : ٣٣٤ .

٤ ـ اليلمق : القباء المحشو؛ وهو بالفارسيّة : «يلمه» ، والجردق : الرَغيف ؛ فارسيّة أيضًا .

سُئِل أفلاطون عن المال، فقال: ما أقول في شيءٍ يُعطِيه الحَظّ ويحفَظه اللّؤمُ، ويبلغُه الكَرَمُ!

وكان يقال: ثلاثةٌ يؤثرون المالَ على أنفسهم: تاجرُ البَحْر، والمقاتِل بالأُجْرة، والمرتَشِي في الحُكْم، وهو شرّهم، لأنّ الأوّلين ربّما سَلِما، ولا سلامةَ للثّالث من الإثم.

ثمّ قالوا: وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيرًا في قوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيرًا﴾[1]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2].

كان عبد الرّحمان بن عَوْف يقول: حَبّذا المال، أصُون به عِرْضي، وأُقرضُه ربّي فيضاعفَه لي.

وقالوا في ذمّ المال: المالُ مِثْلُ الماء غادٍ ورائح، طبعه كطبع الصّبيّ لا يُوقَف على سبب رضاه ولا سُخطه. المال لا ينفعك ما لم تفارقه.

وفيه قال الشّاعر[الطّويل]:

وصاحبِ صِدْقٍ لَيسَ يَنفَعُ قُرْبُهُ ولا وُدُّهُ حتَّى تُفارِقُهُ عَمْدا

وأخذ هذا المعنى الحَريريّ، فقال [الرّجز]:

ولَيْسَ يُغنِي عنكَ في المَضايِقِ إلّا إذا فَرّ فِرارَ الآبِقِ

وقال الشّاعر[الطّويل]:

ألم تَـرَ أنَّ المـال يُهْلِـكُ رَبَّـهُ إذا جَـمّ آتِيـه وسُـدَّ طرِيقُـهُ

ومَن جَاوزَ البَحْرَ الغَزِيرَ بقَحْمَةٍ وسَدَّ طريقَ الماءِ فَهْوَ غَرِيقُهُ

(١٨ : ١٩٣ ـ ١٩٤)

---

١ ـ البقرة / ١٨٠ .

٢ ـ العاديات / ٨ .

**(الحكمة: ١٩٢) الأصل: لَمْ يَذْهَبْ مِن مَالِكَ مَا وَعَظَكَ.**

**الشّرح:** مثل هذا قولهم: إنّ المصائب أثمان التّجارب.

وقيل لعالمٍ فقيربعد أن كان غنيًّا. أين مالُك؟ قال: تَجَرْتُ [١] فيه، فابتَعْتُ به تجربةَ النّاس والوقتَ، فاستَفَدْتُ أشْرَفَ العِوَضَين [٢]. (١٩ : ١٥)

**(الحكمة: ٣١٣) الأصل: يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرْبِ.**

قال السّيّد: ومَعْنَى ذلك أنّه يصبرعلى قتل الأولاد، ولا يصبرعلى سلب الأموال.

**الشّرح:** كان يقال: المال عِدْل النّفس.

وفي الأثر: أنّ مَن قُتِل من دون ماله فهو شهيد.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

لَنَا إِبِلٌ غُرٌّ يضيقُ فَضاؤها ... ويَغْبَرُّ عنها أرضُها وسَماؤُها

فمن دونِها أن تُستباحَ دِماؤُنا ... ومِن دونِنا أن تُستباحَ دماؤُها

حِمًى وقِرًى فالموتُ دُونَ مَرامِها ... وأيسرُ أمرٍ يومَ حقّ فَناؤُها

(١٩ : ٢١٣)

**(الحكمة: ٣٤٣) الأصل: لِكُلِّ امْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ.**

**الشّرح:** أخذه الرّضيّ، فقال [الكامل]:

خُذْ من تُراثِكَ ما اسْتَطَعْتَ فإنّما ... شُرَكاؤُكَ الأيّامُ والوُرّاثُ

لَمْ يَقْضِ حقّ المالِ إلّا مَعْشَرٌ ... نَظَرُوا الزّمانَ يَعِيثُ فِيهِ، فعاثُوا

وقد قال عليه السلام في موضع آخر: بَشِّرْ مَالَ البَخِيلِ بِحَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ.

---

١ ـ أ: «تاجرت».

٢ ـ أ: «شيئين».

ورأيتُ بخطّ ابن الخَشّاب ﷺ على ظَهْر كتابٍ «لعبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادث أو وارث» كأنّه يعني ضَنَّه به، أي لا أُخرِجه عن يَدِي اختيارًا.
(١٩ : ٢٥١)

## الفصل الحادي والسّبعون: [في الرِّياء والنّهي عنه]

**(الخطبة: ٢٣) فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِن نَفْسِهِ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بَتَعْذِيرٍ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَن يَعْمَلْ لِغَيْرِاللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَن عَمِلَ لَهُ ... .**

**الشّرح: ... واعلم!** أنّه عليه السلام، بعد أن أمرنا بالصّبر، نهى عن الرِّياء في العمل، والرِّياء في العمل منهيٌّ عنه، بل العمل ذو الرِّياء ليس بعملٍ على الحقيقة، لأنّه لم يُقْصَدْ به وَجْه الله تعالى.

وأصحابنا المتكلّمون يقولون: ينبغي أن يعمل المكلَّف الواجب لأنّه واجب، ويجتنب القبيح لأنّه قبيح، ولا يفعل الطّاعة ويترك المعصية رغبةً في الثّواب، وخوفًا من العقاب، فإنّ ذلك يُخرج عَمَله من أن يكون طريقًا إلى الثّواب، وشبّهوه بالاعتذار في الشّيء، فإنّ مَن يعتذر إليك مِن ذَنبٍ خوفًا أن تعاقبه على ذلك الذَّنب، لا نَدَمًا على القبيح الّذي سبق منه، لا يكون عُذْره مقبولًا، ولا ذَنبُه عندك مغفورًا. وهذا مقامٌ جليلٌ لا يصل إليه إلّا الأفراد من أُلوف الأُلوف.

وقد جاء في الآثار من النّهي عن الرِّياء والسُّمْعة كثيرٌ، روي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يُؤْتَى في يوم القيامة بالرّجل قد عَمِلَ أعمال الخير كالجبال ـ أو قال: كجبال تهامة ـ وله خطيئة واحدة، فيقال: إنّما عَمِلْتَها ليُقال عنك، فقد قيل، وذاك ثوابك، وهذه خطيئتك أدخلوه بها إلى جهنّم».

وقال عليه السلام: «ليست الصّلاة قيامَك وقعودَك، إنّما الصّلاة إخلاصك، وأن تريد بها الله وحده».

وقال حَبيب الفارسيّ: لو أنّ الله تعالى أقامني يوم القيامة، وقال: هل تعدّ سجدةً سجدتَ ليس للشّيطان فيها نصيب؟ لم أقْدِر على ذلك.

توصّل عبد الله بن الزّبير إلى إمرأة عبد الله بن عمر ـ وهي أُخت المختار بن أبي عُبَيد الثَّقَفيّ ـ في أن تُكلّم بَعْلها عبد الله بن عمر أن يُبايعه. فكلّمته في ذلك، وذكرت صلاته وقيامه وصيامه، فقال لها: أما رأيتِ البغلات الشّهْب الّتي كنّا نراها تحت

معاوية بالحِجْر إذا قدم مكّة؟ قالت: بلى. قال: فإيّاها يطلب ابنُ الزُّبير بصومه وصلاته!

وفي الخبر المرفوع: «إنّ أخوف ما أخاف على أُمّتي الرِّياء في العمل، ألا وإنّ الرِّياء في العمل هو الشِّرك الخَفِيّ» [البسيط]:

صَلّى وصَامَ لأَمْرٍ كان يَطْلُبُهُ حَتَّى حَواهُ فلا صَلّى ولا صَامَا

(١: ٣٢٥ ـ ٣٢٦)

## [فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذمّ الرّياء والشّهرة]

(الخطبة: ٣٢) ومن خطبة له عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا، لَا نَنتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا.

وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ:

مِنهُمْ: مَن لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلَالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ.

وَمِنهُمْ: الْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَن تَرَى الدُّنيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا، وَمِمَّا لَكَ عِندَ اللهِ عِوَضًا!

وَمِنهُمْ: مَن يَطْلُبُ الدُّنيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنيَا، قَدْ طَامَنَ مِن شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِن خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِن ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِن نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنهُمْ: مَن أَبْعَدَهُ عَن طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ، وَانقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِن

ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى ... .

**الشّرح: واعلم!** أنّ هذه الخطبة تتضمّن الذّمّ الكثير لمن يَدَّعِي الآخرة من أهل زماننا، وهم أهل الرّياء والنّفاق، ولابسُوا الصّوف والثّياب المرقوعة لغير وجه الله.

وقد وَرَد في ذمّ الرّياء شيء كثير، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدّم.

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3].

ومنها: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[4].

ومن الأخبار النّبويّة قوله ﷺ، وقد سأله رجل: يا رسول الله، فيمَ النّجاة؟ فقال: «ألّا تعمل بطاعة الله وتريد بها النّاس».

وفي الحديث: «مَن راءَى راءَى اللهُ به، ومَن سَمَّع سَمَّع الله به».

وفي الحديث: «إنّ الله تعالى يقول للملائكة: إنّ هذا العمل لم يردْ صاحبُه به وَجْهي، فاجعلوه في سجّين».

وقال ﷺ: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشِّرْك الأصغر». قالوا: وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرّياء»، يقول الله تعالى إذا جازَى العِبادَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤُونهم في الدّنيا، فاطْلبوا جزاءكم منهم».

---

١ ـ النّساء / ١٤٢.

٢ ـ الكهف / ١١٠.

٣ ـ الإنسان / ٩.

٤ ـ الماعون / ٥ ـ ٦.

وفي حديث شَدّاد بن أوس: رأيتُ النّبيّ ﷺ يبكي، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: «إنّي تخوّفت على أُمّتي الشِّرْك، أمّا إنّهم لايعبدون صَنَمًا ولاشَمْسًا ولاقَمَرًا، ولكنّهم يُراؤُون بأعمالهم».

ورأى عمر رجلًا يتخشّع ويطأطئ رَقَبَته في مِشْيته، فقال له: يا صاحب الرَّقبة، ارْفع رَقَبتك، ليس الخشوع في الرِّقاب».

ورأى أبو أمامة رجلًا في المسجد يبكي في سجوده، فقال له: أنت أنت لوكان هذا في بيتك!

**وقال عليّ** عليه السلام: للمُرائي أربع علامات: يَكْسِلُ إذا كان وَحْدَه، وينشَط إذا كان في النّاس، ويزيد في العمل إذا أُثْنِيَ عليه، وينقص منه إذا لم يُثْنَ عليه.

وقال رجل لعبادة بن الصّامت: أُقاتل بسيفي في سبيل الله، أُريد به وجهه ومحْمَدة النّاس. قال: لا شيء لك. فسأله ثلاث مرّات، كلّ ذلك يقول: لا شيء لك! ثمّ قال في الثّالثة: يقول الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشِّرْك... الحديث.

وضرب عُمَر رجلًا بالدِّرّة، ثمّ ظهر له أنّه لم يأتِ جُرْمًا، فقال له: اقتصّ منّي. فقال: بل أدَعُها لله ولك. قال: ما صنعتَ شيئًا، إمّا أن تدَعَها لي فأعرف ذلك لك، أو تَدَعها لله وحده.

**وقال الحسن:** لقد صحبتُ أقوامًا، أن كان أحدهم لتَعْرِضُ له الكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه، ما يمنعه منها إلّا مخافة الشّهرة، وأن كان أحدهم ليمرّ فيرَى الأذى على الطّريق فما يمنعه أن ينحّيَه إلّا مخافة الشّهرة.

**وقال الفُضَيل:** كانوا يُراؤُون بما يعملون، وصاروا اليوم يُراؤُون بما لا يعملون.

**وقال عِكْرِمة:** إنّ الله تعالى يُعطي العبد على نيّته ما لا يعطيه على عمله، لأنّ النّيّة لا رياء فيها.

**وقال الحسن:** المُرائي يريد أن يَغْلِبَ قَدَرَ الله تعالى، هو رجل سُوء، يريد

أن يقول النّاس: هذا صالح، وكيف يقولون وقد حَلَّ من ربّه محلّ الأردناء[١]، فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه.

**وقال قَتادة:** إذا راءَى العبد، قال الله تعالى لملائكته: انظُروا إلى عبدي يستهزئ بي.

**وقال الفُضَيل:** مَن أراد أن ينظر مُرائيًا فلينظر إليّ.

**وقال محمّد بن المبارك الصُّوريّ:** أظهر السَّمْت باللّيل، فإنّه أشرف من سَمْتِك بالنّهار، فإنّ سَمْت النّهار للمخلوقين، وسَمْت اللّيل لربّ العالمين.

**وقال إبراهيم بن أدهم:** ما صدق الله مَن أحبّ أن يَشْتهرَ.

ومن الكلام المعزوّ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: إذا كان يومُ صوم أحدكم فليَدْهُن رأسَه ولحيتَه، وليَمْسَحْ شَفَتَيْه، لئلّا يعلم النّاس أنّه صائم، وإذا أعطَى بيمينه، فليُخْفِ عن شِماله، وإذا صلّى فليُرْخِ ستر بابه، فإنّ الله يَقْسِم الثّناء كما يَقْسِم الرّزق.

**ومن كلام بعض الصّالحين:** آخر ما يخرج من رُؤُوس الصّدّيقينَ حُبّ الرّياسة.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يحسب المرء من الشّرّ ـ إلّا مَن عَصِمَه الله من السّوء ـ أن يُشير النّاس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، إنّ الله لا ينظر إلى صُوَركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

**وقال عليّ** عليه السلام: تَبَذّلْ لا تَشْتَهِرْ، ولا ترفَعْ شَخْصَكِ لتُذْكَر بعلم، واسكُتْ واصْمُتْ تَسلم، تَسرّ الأبرار، وتَغِيظ الفُجّار.

وكان خالد بن مَعْدان إذا كَثُرت حَلْقتُه، قام مخافة الشّهرة.

ورأى طلحة بن مُصرِّف قومًا يمشون معه نحو عشرة، فقال: فَرَاش نار، وذِبّان طمع.

---

١ ـ الأردناء: جمع رديء.

**وقال سُلَيمان بن حَنظلة:** بَيْنَا نحن حوالي أُبيّ بن كَعْب نمشي، إذ رآه عُمَر فعلاه بالدِّرّة، وقال له: انظُر مَن حولك! إنّ الّذي أنت فيه ذِلّة للتّابع، فتنة للمتبوع.

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله، فاتّبعه قومٌ، فالتفت إليهم، وقال: عَلَام تتّبعونني! فوالله لو تعلمون منّي ما أُغْلِقُ عليه بابي لما تبعني منكم اثنان.

**وقال الحسن:** خَفْقُ النّعال حولَ الرّجال مما يُثبّت عليهم قلوب الحَمْقَى.

ورُوِيَ أنّ رجلًا صَحِبَ الحسن في طريق، فلمّا فارقه قال: أوصني رحمك الله! قال: إن استطعتَ أن تَعْرِفَ ولاتُعْرَف، وتمشِي ولايُمْشَى إليك، وتَسْأل ولاتُسْأل، فافْعل.

وخرج أيُّوب السِّخْتيانيّ في سَفَرٍ، فشيّعه قومٌ، فقال: لولا أنّي أعلم أنّ الله يعلم من قلبي أنّي لهذا كاره، لخَشيتُ المَقْتَ من الله.

وعُوتِبَ أيُّوب على تطويل قَمِيصه، فقال: إنّ الشّهرة كانت فيما مَضَى في طوله، وهي اليوم في قِصَره.

**وقال بعضهم:** كنتُ مع أبي قِلابة، إذْ دخل رجل عليه كِساء، فقال: إيّاكم وهذا الحمار النّاهق، يشير به إلى طالب شهرة.

وقال رجل لبِشْر بن الحارث: أوصِني، فقال: أخْمِل ذِكْرك، وطيِّبْ مَطْعَمك.

وكان حوشب يبكي ويقول: بَلَغ اسمي المسجد الجامع.

**وقال بِشْر:** ما أعرف رجلًا أحبّ أن يُعْرَف إلّا ذَهَب دِينه وافتضح.

**وقال أيضًا:** لايجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه النّاس.

فهذه الآثار قليل ممّا وَرَد عن الصّالحين رحمهم الله في ذمّ الرّياء وكون الشّهرة طريقًا إلى الفتنة. (٢ : ١٧٨ ـ ١٨٢)

**(الخطبة: ٨٥) ... وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ ... .**

**الشّرح:** ... وقد ذكرنا فيما تقدّم، ما جاء في ذمّ الرّياء وتفسير كونه شِرْكًا.

(٦ : ٣٥٦)

**(الخطبة: ١٥٤) ... وَاعْلَمْ! أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ.**

الشّرح: ... وهذا الكلام مَثَلٌ في الإخلاص وضدّه، وهو الرّياء وحُبّ السُّمعة، فكلّ عَمَلٍ يكون مدده الإخلاص لوَجْهه تعالى لا غير، فإنّه زاكٍ حلو الجنَى، وكلّ عَمَلٍ يكون الرّياء وحُبّ الشّهرة مدده، فليس بزاكٍ، وتكون ثمرته مُرّة المذاق.

(٩ : ١٨٠)

**(كتابه عليه السلام: ٢٦) الأصل: ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عُمّاله، وقد بعثه على الصّدقة:**

**أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شَاهِدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ.**

**وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بَشَيْءٍ مِن طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَن لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «ألّا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر» أي لا ينافق فيعمل الطّاعة في الظّاهر والمعصية في الباطن. ثمّ ذكر أنّ الّذين يتجنّبون النّفاق والرّياء هم المُخلِصون ... .

(١٥ : ١٥٩)

**(الحكمة: ٢٨) الأصل: أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.**

**الشّرح:** إنّما كان كذلك، لأنّ الجَهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلّ أن يَسلم من مخالطة الرّياء، وقد تقدّم لنا في الرّياء أقوالٌ مُقْنِعة ... . (١٨ : ١٣٩)

**(الحكمة: ٢٨٢) الأصل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن أَن تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَانِيَتِي، وَتُقَبِّحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظًا عَلَى رِيَاءِ النَّاسِ مِن نَفْسِي، بِجَمِيعِ مَا أَنتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّبًا إِلَى عِبَادِكَ وَتَبَاعُدًا مِن مَرْضَاتِكَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في الرّياء، وأن يُظْهِر الإنسان من العبادة والفعل الجميل ما يُبْطن غيره، ويقصد بذلك السُّمْعة والصِّيت لا وجه الله تعالى.

وقد جاء في الخبر المرفوع: «أخوف ما أخاف على أُمّتي الرّياء والشّهوة الخفيّة».

**قال المفسّرون:** والرّياء من الشّهوة الخفيّة، لأنّه شهوة الصِّيت والجاه بين النّاس بأنّه مَتين الدِّين، مُواظِب على نوافل العبادات، وهذه هي الشّهوة الخفيّة، أي ليست كشهوة الطّعام والنّكاح وغيرهما من الملاذّ الحسّيّة.

وفي الخبر المرفوع أيضًا: «أنّ اليسير من الرّياء شِرْك، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء الّذين هم في بيوتهم إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حَضَروا لم يُعْرَفوا، قلوبهم مَصابيح الهُدَى، ينجون من كلّ غَبراء مُظْلِمة». (١٩ : ١٦٧)

## الفصل الثّاني والسّبعون: [في الطّمع]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «قد يكون اليأس إدراكًا إذا كان الطّمع هلاكًا»، هذا مثل قول القائل [مجزوء الكامل]:

مَن عاشَ لاقَى ما يَسُو ءُ مِنَ الأمورِ وما يسُرّ
ولَـرُبَّ حَتْـفٍ فوقَـهُ ذَهَـبٌ ويـاقوتٌ ودُرّ

والمعنى: ربّما كان بلوغ الأمل في الدّنيا والفوز بالمطلوب منها سببًا للهلاك فيها، إذا كان كذلك، كان الحرمان خيرًا من الظّفر... . (١٦ : ١١٩)

**(الحكمة: ٢) الأصل: أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَالطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَن كَشَفَ عَن ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَن أَمَرَّعَلَيْهَا لِسَانَهُ.**

**الشّرح:** هذه ثلاثة فصول:

**الفصل الأوّل في الطّمع:** قوله عليه السلام: «أزرى بنفسه»، أي قصّر بها. مَن استشعر الطّمع، أي جعله شعاره أي لازمه.

وفي الحديث المرفوع: «إنّ الصّفا الزّلزال الّذي لاتثبت عليه أقدام العلماء الطّمع».

وفي الحديث أنّه قال للأنصار: «إنّكم لتكثُرون عند الفَزَع وتقلّون عند الطّمع» أي عند طمع الرّزق.

وكان يقال: أكثر مَصارع الألباب تحت ظِلال الطّمع.

وقال بعضهم: العَبيد ثلاثة: عَبْدُ رقٍّ، وعبدُ شَهْوةٍ، وعبدُ طَمَع.

وسُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغِنَى، فقال: اليأس عمّا في أيدي النّاس، ومَن مَشَى منكم إلى طمع الدّنيا فليَمْشِ رُوَيْدًا». وقال أبو الأسود [البسيط]:

الـبَسْ عـدوّك في رِفْـقٍ وفي دَعَـةٍ طـوبَى لِـذِي إرْبـةٍ للـدَّهْرِلبّـاسِ
ولاتغـرّنـكَ أحقَـادٌ مُزمّلـةٌ قـد يركب الدّبرالدّامي بأحلاسِ
واسْتَغْنِ عن كلِّ ذي قُربَى وذي رَحِمٍ إنّ الغَنِيّ الّذي استغنَى عن النّاسِ

قال عمر: ما الخَمْر صِرْفًا بأذهبَ لعُقول الرّجال من الطّمع.

وفي الحديث المرفوع: «الطّمع الفَقْر الحاضر».

قال الشّاعر[الوافر]:

رأيتُ مخيّلةً فطَمِعتُ فيها وفي الطّمَعِ المذلّةُ للرِّقابِ

(١٨ : ٨٤ ـ ٨٥)

**(الحكمة: ١٨٢) الأصل: الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ.**

**الشّرح:** هذا المعنى مطروقٌ جدًّا، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

تَعَفَّفْ وعِشْ حُرًّا ولاتَكُ طامِعًا فما قَطَعَ الأعناقَ إلّا المطامعُ

وفي المَثَل: أطمَع مِن أشعب. رأى سَلّالًا يَصْنَع سَلّة، فقال له: أوْسِعْها، قال: ما لك وذاك، قال: لعلّ صاحبَها يُهدِي لي فيها شيئًا.

ومرّ بمَكْتب وغُلامٌ يقرأ على الأستاذ: (إنّ أبي يَدْعُوك)، فقال: قُمْ بين يَدَيّ حَفِظك الله وحَفِظ أباك، فقال: إنّما كنتُ أقرأ وِرْدي، فقال: أنكرت أن تُفْلح أو يُفْلح أبوك!

وقيل: لم يكن أطمع من أشعب إلّا كَلْبه. رأى صورة القَمَر في البِئْر فظنّه رَغيفًا، فألقى نفسه في البئر يطلبه، فمات. (١٨ : ٤١٣)

**(الحكمة: ٢١٥) الأصل: أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم منّا قول في هذا المعنى.

ومنه قول الشّاعر[الطّويل]:

طَمِعتَ بلَيْلَى أن تَريعَ وإنّما تُقطّع أعْناقَ الرِّجالِ المطامِعُ

وقال آخر[الطّويل]:

إذا حدّثتْكَ النّفسُ أنّك قادِرٌ على ما حَوَتْ أيدي الرّجالِ فكذِّبِ

وإيّاكَ والأطماع إنّ وُعُودَها رَقــارِقُ آلٍ أو بَــوَارِقُ خُلَّــبِ

(١٩ : ٤١)

**(الحكمة: ٢٢٢) الأصل: الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ.**

**الشّرح:** من أمثال البُحْتريّ قوله [الكامل]:

واليأسُ إحدى الرّاحتَين ولن تَرَى تَعَبًا كَظَنِّ الخائِبِ المَكْدُودِ

وكان يقال: ما طمِعَتْ إلّا وذَلّت يَعْنُون النّفس.

وفي البيت المشهور[الطّويل]:

*تُقطّع أعناقَ الرّجالِ المَطامِعُ*

وقالوا: عَزَّ مَن قَنع، وذَلَّ مَن طَمعَ.

وقد تقدّم القول في الطّمع مرارًا. (١٩: ٥٠)

**(الحكمة: ٢٨١) الأصل: إِنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ، وَرُبَّمَا شَرِقَ شَارِبُ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ، عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ، وَالْأَمَانِيّ تُعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْحَظُّ يَأْتِي مَن لَا يَأْتِيهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذه المعاني كلّها.

وقد ضرب الحكماء مِثالًا لفَرْط الطّمع، فقالوا: إنّ رجلًا صادَ قُبَّرَةً، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلُك. قالت: والله ما أشفي مِن قَرَم، ولا أشبع من جُوع، ولكنّي أُعلِّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك مِن أكْلي، أمّا واحدة؛ فأعلّمك إيّاها وأنا في يدك، وأمّا الثّانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة، وأمّا الثّالثة فإذا صِرْتُ على الجَبَل. فقال: هاتِي الأُولى، قالت: لا تَلهَفنّ على ما فات. فخلّاها، فلمّا صارت على الشّجرة، قال:

هاتِي الثّانية، قالت: لا تُصَدِّقنّ بما لايكون إنّه يكون. ثمّ طارت، فصارت على الجَبَل، فقالت: يا شقيّ، لو ذَبَحْتَني لأخرجتَ مِن حَوْصَلَتي دُرّتَين وزنُ كلّ واحدةٍ ثلاثون مثقالًا، فعَضّ على يَدَيه وتلهّف تلهّفًا شديدًا، وقال: هاتِي الثّالثة، فقالت: أنت قد أُنسِيتَ الاثنتَين، فما تَصْنع بالثّالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهّفنّ على ما فات، وقد تلهّفت، وألم أقل لك لاتصدّقنّ بما لايكون إنّه يكون. وأنا ولحْمي ودَمَي وريشي لا يكون عشرين مثقالًا، فكيف صدّقت أنّ في حَوْصَلتي دُرّتَين كلّ واحدةٍ منهما ثلاثون مثقالًا! ثمّ طارت وذهبت.

وقوله: «وربّما شَرِق شاربُ الماء قبل رِيّه» كلامٌ فصيحٌ، وهو مَثَلٌ لمن يُخْتَرم بَغْتةً، أو تَطرُقه الحوادث والخُطوب وهو في تلْهِيَةٍ مِن عيشه.

ومَثَل الكلمة الأُخرى قولهم: على قَدْر العطيّة تكون الرَّزيّة.

والقول في الأمانيّ قد أوسعنا القول فيه مِن قبل، وكذلك في الحظوظ.

(١٩ : ١٦٥ ـ ١٦٦)

**(الحكمة: ٣٤٠) الأصل: الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.**

**الشّرح:** هذه الكلمة قد رُوِيت مرفوعة، وقد تقدّم القول في الطّمع وذمّه، واليأس ومدحه.

وفي الحديث المرفوع: «ازْهَدْ في النّاسِ يحبّكَ اللهُ، وازْهَدْ فيما أيدِي النّاس يحبّك النّاسُ».

ومِن كلام بعضِهم: ما أكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه.

**وكان يقال:** نعوذ بالله مِن طَمَعٍ يُدْني إلى طَبَع[1].

وقال الشّاعر[السّريع]:

---

١ ـ الطّبع: الدّنس.

أرَحْتُ رُوحي مِن عذابِ المِلاحْ للياَسِ رُوحٌ مِثْل رُوحِ النَّجاحْ

وقال بعض الأُدباء: هذا المعنى الّذي قد أطْنَبَ فيه النّاس ليس كما يزعمونه، لعَمْري إنّ لليأس راحة، ولكن لا كرَاحَةِ النَّجاح، وما هو إلّا كقول مَن قال: لا أدري نِصْف العلم. فقيل له: ولكنّه النّصف الّذي لا يَنفَع!

وقال ابن الفَضْل [السّريع]:

لا أمْـدَحُ اليـأس ولكنّـهُ أرْوَحُ للقَلْبِ مِنَ المطْمَعِ

أفلَحَ مَن أبْصَرَ رَوْضَ المُنَى يُرْعَى فلَمْ يَرْعَ ولَمْ يَرْتَعِ

وممّا يُرْوَى لعبد الله بن المبارك الزّاهد [مجزوء الكامل]:

قـد أرَحْنـا واسْـتَرَحْنا مِـن غُـدُووَرَواحِ

واتّصـــالٍ بـــأمِيرٍ ووَزِيـرٍ ذي سَمـاحِ

بعَفـــافٍ وكَفـــافٍ وقُنـــوعٍ وصَـــلاحِ

وجَعَلْنـا اليـأسَ مفتـا حًا لِأبْوابِ النَّجاحِ

(١٩ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِن صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِن إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِن مَنطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ ....**

الشّرح: ... قوله: «مرارة اليأس خير من الطّلب إلى النّاس»، من هذا أخذ الشّاعر قوله [الطّويل]:

إن كانَ طَعْمُ اليأسِ مُرًّا فإنَّهُ ألَذُّ وأحْلَى من سؤالِ الأراذلِ

وقال البحتريّ [الكامل]:

اليأسُ إحدَى الرّاحتَينِ ولَن تَرَى تَعَـبًا كظنِّ الخائبِ المغرورِ

(١٦ : ٩٨)

## الفصل الثّالث والسّبعون: [في الغيبة]

(الخطبة: ١٤٠): ومن كلام له عليه السلام في النّهي عن غيبة النّاس:

وَإِنَّمَا يَنبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَن يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِن ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِن لَمْ يَكُن رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنبَ بَعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنهُ.

وَايْمُ اللهِ لَئِن لَمْ يَكُن عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجُرْأَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!

يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَن عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ، فَلْيَكْفُفْ مَن عَلِمَ مِنكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِن عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ.

## [ أقوال مأثورة في ذمّ الغيبة والاستماع إلى المغتابين]

ونحن نذكر ممّا ورد في الغيبة لُمَعًا نافعة، على عادتنا في ذكر الشّيء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه.

وقد ورد في الكتاب العزيز ذمّ الغيبة، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضكم بعضًا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والغيبة، فإنّ الغيبة أشدّ من الزّنا، إنّ الرّجل يزني فيتوب الله عليه، وإنّ صاحب الغيبة لا يُغفر له حتّى يغفر له صاحبه».

ورُوي عن أنس عنه صلى الله عليه وآله: «مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي، فرأيت قومًا يخمِشون وجوههم

---

١ ـ الحجرات / ١٢ .

بأظافيرهم، فسألتُ جبريل عنهم، فقال: هؤلاء الّذين يغتابون النّاس».

وفي حديث سلمان، قلت: يا رسول الله، علّمني خيرًا ينفعني الله به، قال: «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أرفضت من دلوك في إناء المستقي، والْقَ أخاك ببشْرٍ حَسَنٍ، ولا تغتابنّه إذا أدبر».

وفي حديث البراء بن عازب: خطبنا رسول الله ﷺ حتّى أسمع الـ ـواتِقَ في بيوتهنّ، فقال: «ألا لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنّه مَن يتتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته، ومَن يتتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

وفي حديث أنس أنّ رسول الله ﷺ قال في يوم صوم: «إنّ فلانة وفلانة كانتا تَأكلان اليوم شَحْم امرأةٍ مسلمةٍ ـ يعني الغيبة ـ فمرْهما فليتقايآ، فقاءت كلّ واحدةٍ منهما عَلَقة دم».

وفي الصّحاح المجمع عليها أنّه عليه السلام مرّ بقبرَين جديدَين، فقال: إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان بكبير، أمّا أحدهما؛ فكان يغتاب النّاس، وأمّا الآخر؛ فكان لا يتنزّه من البوْل».

ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين، أو قال: دعا بجريدتَين، ثمّ غرسهما في القبرين وقال: «أمّا إنّه سيُهون من عذابهما ما دامتا رطْبتَين».

وفي حديث ابن عبّاس أنّ رجلَين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلًا، وهو يمشي عليه السلام، وهما يمشيان معه، فمرّ على جيفةٍ، فقال: «انهشا منها»، فقالا: يا رسول الله، أوَ ننهش الجيفة! فقال: «ما أصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه».

وفي حديث أبي هريرة: «مَن أكل لحم أخيه حَيًّا قُرِّب إليه لحمه في الآخرة، فقيل له: كُلْه ميّتًا كما أكلته حَيًّا، فيأكله ويضجّ ويكلح».

ورُوي أنّ رَجُلَين كانا عند باب المسجد، فمرّبهما رجل كان مخنّثًا، فترك ذلك، فقالا: لقد بقي عنده منه شيء، فأُقيمت الصّلاة، فصلّيا مع النّاس، وذلك يجول في أنفسهما فأتيا عطاء بن أبي رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصّلاة، وإن كانا صائمينِ أن يقضيا صيام ذلك اليوم.

وعن مجاهد: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[١]، الهُمَزة: الطّعان في النّاس، واللُّمَزة: النّمّام.

وعن الحسن: والله لَلْغيبة أسرع في دِين المؤمن من الأكلة في الجسد.

بعضهم: أدركنا السَّلَف وهم لا يرون العبادة في الصّوم ولا في الصّلاة، ولكنّ في الكفّ عن أعراض النّاس.

ابن عبّاس: إذا أرَدْتَ أن تذكُرَ عيوب صاحبك، فاذْكر عيوبك. وهذا مشتقّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أبو هُرَيرة: يبصر أحدُهما القَذَى في عين أخيه، ولا يبصِرُ الجِذْع في عين نفسه! وهذا كالأوّل.

الحسن: يابن آدم، إنّك إن قضيت حقيقة الإيمان، فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتّى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصّة نفسك. وأحبّ العباد إلى الله مَن كان هكذا.

ويُروى أنّ المسيح عليه السلام مرّ على جيفة كَلْبٍ، فقال بعض التّلامذة: ما أشدّ نَتَنه! فقال المسيح: ما أشدّ بياض أسنانه! كأنّه نهاهم عن غيبة الكَلْب، ونبّههم على أنّه لا ينبغي أن يذكر من كلّ شيء إلّا أحسنه.

وسمع عليّ بن الحسين عليه السلام رجلًا يغتاب آخر، فقال: إنّ لكلّ شيء إدامًا، وإدام كلاب النّاس الغيبة.

وفي خطبة حجّة الوداع: «أيّها النّاس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحُرْمة يومكم هذا، في شهركم هذا! في بلدكم هذا. إنّ الله حرّم الغيبة كما حرّم المال والدّم».

عمر: ما يمنعكم إذا رأيتم مَن يُخرِق أعراض النّاس أن تعرّبوا عليه، أي تقبّحُوا، قالوا: نخاف سفهه وشرّه، قال: ذلك أدنى ألّا تكونوا شهداء.

أنس يرفعه: «مَن مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرّقة عيناه، ينادي بالوَيْل

---

١ ـ الهمزة/ ١.

والنّدامة، يعرف أهله ولا يعرفونه».

وقال هِشام بن عبد الملك في بعض ولد الوليد بن عُقْبة [الطّويل]:

أبْلِغْ أبا وَهبٍ إذا ما لقِيتَهُ بأنّك شرّ النّاس غَيْبًا لصاحبِ

فتبدى لَهُ بشْرًا إذا ما لقيتَهُ وتَلْسعهُ بالغيبِ لَسْعَ العقاربِ

مرّ الشّعبيّ بقوم يغتابونه في المسجد، وفيهم بعض أصدقائه، فأخذ بعُضَادَتي الباب، وقال [الطّويل]:

هنيئًا مَريئًا غَيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزّةَ مِن أعراضِنا ما استحلّتِ[1]

ومن كلام بعض الحكماء: أبصر النّاس بالعَوار المِعْوار، هذا مثل قول الشّاعر [الوافر]:

وأجْرَأ مَن رأيتُ بظهرِ غَيْبٍ على عَيبِ الرّجالِ ذَوُو العيوبِ

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال: ما بال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصك، قال: لأنّه شقيق في النّسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصّنعة.

دخل أبو العَيْناء على المتوكّل، وعنده جُلَساؤه، فقال له: يا محمّد، كلّهم كانوا في غيبتك منذ اليوم، ولم يبق أحدٌ لم يذمُمك غيري، فقال [الطّويل]:

إذا رَضِيَتْ عنّي كِرامُ عَشِيرَتي فلا زالَ غَضْبانًا عَلَيَّ لِئامُها

قال بعضهم: بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين، فلمّا كان وقت السّحر، حرّكهم واحد، فقال: إلى كم هذا النّوم عن أعراض النّاس!

وقيل لشاعر وصله بعض الرّؤساء، وأنعم عليه: ما صنع بك فلان؟ قال: ما وَفَتْ نعمتُه بإساءته، منعني لذّة الثّلْب، وحلاوة الشّكوى.

أعرابيّ: مَن عاب سفلة فقد رفعه، ومن عاب شريفًا فقد وضع نفسه.

نظر بعض السَّلَف إلى رجل يغتاب رجلًا، وقال: يا هذا، إنّك تملي على حافظيك

---

١ ـ لكثير. أمالي القالي ٢ : ١٠٨ .

كتابًا، فانظر ماذا تقول!

ابن عبّاس: ما الأسد الضّارِى على فريسة بأسرعَ من الدّنيئ في عِرْض السَّرِيّ.

بعضهم [الطّويل]:

ومطروفة عَيْناه عن عَيبِ نفسهِ فإن لاحَ عيبٌ من أخِيهِ تبصَّرَا

وقالت رابعة العدويّة: إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوئ خلقه.

قال عبد الله بن عُرْوة بن الزّبير لابنه: يا بنيّ، عليك بالدِّين، فإنّ الدّنيا ما بَنَتْ شيئًا إلّا هَدَمه الدِّين، وإذا بنى الدِّين شيئًا لم تستطع الدّنيا هدمه، ألاترى عليّ بن أبي طالب، وما يقول فيه خُطَباء بني أُميّة من ذمّه وعيبه وغيبته! والله لكأنّما يأخذون بناصيته إلى السّماء! ألا تراهم كيف ينْدُبون موتاهم، ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنّما يندبون جِيفَ الحُمُر!

ومن كلام بعض الصّالحين: الورع في المنطق أشدّ منه في الذّهب والفضّة، لأنّك إذا استودعك أخوك مالًا لم تجد بك نفسك لخيانته فيه، وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه، ولاتبالي.

كان محمّد بن سيرين قد جعل على نفسه كلّما اغتاب أحدًا أن يتصدّق بدينار، وكان إذا مدح أحدًا، قال: هوكما يشاء الله، وإذا ذمّه، قال: هوكما يعلم الله.

الأحنف: فِيَّ خَلّتانِ: لاأغتاب جليسي إذا قام عنّي، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلوني فيه.

قيل لرجل من العرب: مَن السّيّد فيكم؟ قال: الّذي إذا أقبل هِبْناه، وإذا أدبر اغتبْناه.

قيل للرّبيع بن خَيْثَم: ما نراك تعيب أحدًا! فقال: لستُ راضيًا على نفسي، فأتفرّغ لذكر عيوب النّاس! ثمّ قال [الطّويل]:

لِنفسيَ أبكي لستُ أبكِي لِغَيرِها لِنفسيَ في نفسي عَنِ النّاسِ شاغِلُ

عبد الله بن المبارك، قلت لسُفيان: ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعته يغتاب

عدوًّا، قال: هو والله أعقل من أن يسلّط على حَسَناته ما يذهب بها.

سُئِل فُضَيل عن غيبة الفاسق، فقال: لاتشتغِلْ بذكره، ولاتعوّد لسانك الغيبة، اشْغل لسانك بذِكْر الله، وإيّاك وذِكْر النّاس، فإنّ ذكر النّاس داء، وذِكْر الله دواء. بعض الشّعراء [المتقارب]:

ولستُ بذي نيربٍ في الصّديقِ خؤونَ العَشِيرَةِ سبّابَها[1]

ولامَن إذا كان في مجلسٍ أضاعَ القبيلةَ واغتابها

ولكن أُبَجِّلُ ساداتها ولاأتعلّمُ ألقابها

**وكان يقال:** الغيبة فاكهة القُرّاء.

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبي حَنيفة: أيّ اللّحمان أطيب؟ قال: لحوم النّاس، هي والله أطيب من لحوم الدّجاج والدّراج[2]. يعني الغيبة.

ابن المغيرة: لاتذكر الميّت بسوءٍ، فتكون الأرض أكتم عليه منك.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشميّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوءٍ، يقول: كُفُّوا عن أُسارَى الثَّرى.

وفي الأثر: سامعُ الغِيبة أحد المغتابَيْن.

أبو نواس [السّريع]:

ما حطّكَ الواشونَ من رُتْبةٍ عندي وما ضرّكَ مُغْتابُ

كأنّهمْ أثنوا ولَمْ يعلَمُوا عليكَ عندي بالّذي عابُوا

الحسن: ذمُّ الرّجل في السّرّ، مدحٌ له في العلانية.

عليّ عليه السلام: الغيبة جَهْدُ العاجز، أخذه المتنبّي فقال [الطّويل]:

وأكْبِرُ نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ وكلّ اغتيابٍ جُهْدُ مَن ما له جُهْدُ

---

١ ـ النَيرب: العداوة.

٢ ـ الدّارج: طائر على خلقة القطا.

بلغ الحسن أنّ رجلًا اغتابه، فأهدى إليه طبقًا من رُطَب، فجاءه الرّجل معتذرًا، وقال: أصلحك الله! اغتبتُك فأهديت لي! قال: إنّك أهديتَ إلى حَسَناتك، فأردت أن أُكافئك.

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله، فقال له: إنّ الأسواريّ لم يزل أمس يذكرُك ويقول: عمرو الضّالّ، فقال له: يا هذا، والله ما رعيتَ حقّ مجالسة الرّجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا رعيتَ حقّي حين بلغتَ عن أخي ما أكرهه. أعْلِمْه أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا. (٩ : ٥٩ ـ ٦٦)

## [حُكْمُ الغِيبة في الدِّين]

واعلم! أنّ العلماء ذكروا في حدّ الغِيبة: أن تذكُرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصانًا في بدنه، مثل أن تقول: الأقرع، أو الأعور، أو في نسبه نحو أن تقول: ابن النّبَطيّ، وابن الإسكاف، أو الزّبال، أو الحائك، أو في خُلُقه، نحو سيّئ الخُلق أو بخيل، أو متكبّر، أو في أفعاله الدّنيئة نحو قولك: كذّاب وظالم ومُتهاون بالصّلاة، أو الدّنيويّة نحو قولك: قليل الأدب، متهاون بالنّاس، كثير الكلام، كثير الأكل، أو في ثوبه كقولك: وَسِخ الثّياب، كبير العمامة، طويل الأذيال.

وقد قال قوم: لا غيبة في أُمور الدِّين، لأنّ المغتاب إنّما ذمّ ما ذمّه الله تعالى، واحتجّوا بما رُويَ أنّه ذُكِرَ لرسول الله ﷺ امرأة وكثرة صومها وصلاتها، ولكنّها تؤذي جارتَها، فقال: «هي في النّار»، ولم ينكر عليهم غيبتهم إيّاها.

ورُوي أنّ امرأة ذُكِرَت عنده عليه السلام بأنّها بخيلة: فقال: «فما خيرها إذن»!

وأكثر العلماء على أنّ الغيبة في أُمور الدِّين محرَّمة أيضًا، وادّعوا الإجماع على أنّ مَن ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب، سواء أكان في الدِّين، أو في غيره. قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذِكْرُكَ أخاك بما يكرهه». فقائل قال: أرأيت يا رسول الله، إن كان ذلك في أخي؟ قال: «إن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد

بهتّه[1]».

قالوا: ورَوَى مُعاذ بن جَبَل أنّ رجلًا ذُكِر عند رسول الله ﷺ، فقال قوم: ما أعجَزَه! فقال ﷺ: «اغتبتم صاحبَكم»، فقالوا: قلنا ما فيه، فقال: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه».

قالوا: وما احتجّ به الزّاعمون أنّ لاغيبة في الدِّين، ليس بحجّة، لأنّ الصّحابة إنّما ذكرتْ ذلك في مجلس رسول الله ﷺ لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسّؤال، ولم يكن غرضها التّنقّص.

**واعلم**! أنّ الغيبة ليست مقصورةً على اللّسان فقط، بل كلّ ما عرّفْتَ به صاحبَك نقصَ أخيك فهو غيبة، فقد يكون ذلك باللّسان، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وبالمحاكاة، نحو أن تمشي خلف الأعرج متعارجًا، وبالكتاب، فإنّ القلم أحد اللّسانَين.

وإذا ذكر المصنّف شخصًا في تصنيفه، وهجّن كلامه، فهو غيبة، فأمّا قوله: «قال قوم كذا» فليس بغيبةٍ، لأنّه لم يعيّن شخصًا بعينه.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا!»، فكان لايعيّن، ويكون مقصوده واحدًا بعينه.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين، وذلك نحو أن يُذكر عندهم إنسان، فيقول قائلهم: الحمد لله الّذي لم يبلُنا بدخول أبواب السّلطان، والتّبذّل في طلب الحُطَام، وقصده أن يفهم الغير عيب ذلك الشّخص، فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشّكر لله تعالى، فيحصل من ذلك غيبة المسلم، ويحصل منه الرّياء، وإظهار التّعفّف عن الغيبة وهو واقع فيها، وكذلك يقول: لقد ساءني ما يذكر به فلان، نسأل الله أن يعصمَه، ويكون كاذبًا في دعوى أنّه ساءه، وفي إظهار الدّعاء له، بل لو قصد الدّعاء له لأخفاه في خلوة عقب صلواته، ولوكان قد ساءه لساءه أيضًا إظهار ما يكرهه ذلك

---

١ ـ بهتّه، أي قذفته بالباطل.

الإنسان.

**واعلم!** أنّ الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التّعجّب كالغيبة، بل أشدّ، لأنّه إنّما يظهر التّعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها حكاية، يستخرج الغيبة منه بذلك، وإذا كان السّامع السّاكت شريك المغتاب، فما ظنّك بالمجتهد في حصول الغيبة، والباعث على الاستزادة منها!

وقد رُوي أنّ أبا بكر وعمر ذكرا إنسانًا عند رسول الله، فقال أحدهما: إنّه لَنَوؤم، ثمّ أخرج رسول الله ﷺ خُبْزًا قَفَارًا[1]، فطلبا منه أُدْما، فقال: قد ائتدمتما، قالا: ما نعلمه، قال: «بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما»، فجمعهما في الإثم، وقد كان أحدهما قائلًا والآخر مُستمعًا، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلّا بأن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قَدَر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك، فإن قال بلسانه: اسكت وهو مُريدٌ للغيبة بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرجه عن الإثم إلّا أن يكرهُه بقلبه، ولا يكفي أن يشير باليد، أي اكفف، أو بالحاجب والعين، فإنّ ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يذبّ عنه صريحًا، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَن أُذِلّ عنده مؤمن، وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره، أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق». (٩ : ٦٦ ـ ٦٩)

## [فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة]

**واعلم!** أنّ الأسباب الباعثة على الغيبة أُمور:

**منها:** شفاء الغيظ، وذلك أن يجري من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر، فإذا هاج غضبه تشفّي بذكر مساوئه، وسبق إليها لسانه بالطّبع إن لم يكن هناك دِين وازع، وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حِقْدًا ثابتًا، فيكون سببًا دائمًا لذكر المَساوئ.

---

١ ـ الخبز القفار: ما كان بغير أدم، والأدم: ما يؤتدم به.

**ومنها:** موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، فإنّهم إذا اجتمعوا ربّما أخذوا يتفكّهون بذكر الأعراض، فيرى أنّه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه، ونَفَرُوا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حُسْن المعاشرة، ويظنّ أنّه مجاملة في الصّحبة، وقد يغضب رفقاؤه من أمر فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم، إظهارًا للمساهمة في السَّرّاء والضَّرّاء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمَساوئ.

**ومنها:** أن يستشعر من إنسان أنّه سيذمّه ويطول لسانه فيه، ويقبّح حاله عند بعض الرّؤساء، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح حاله، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه. وقد يبتدئ بذكر بعض ما فيه صادقًا ليكذِب عليه بعد ذلك، فيروّج كذبه بالصّدق الأوّل.

**ومنها:** أن ينسب إلى أمرٍ فيريد التّبرّؤ منه، فيذكر الّذي فعله، وكان من حقّه أن يبرّئ نفسه، ولا يذكر الّذي فعله، لكنّه إنّما يذكر غيره تأكيدًا لبراءة نفسه، وكيلا يكون تبرّؤًا مبتورًا، وربّما يعتذر بأن يقول: فلان فعله، وكنت شريكًا في بعض الأمر ليبرّئ نفسه بعض البراءة.

**ومنها:** المباهاة وحبّ الرّياسة، مثل أن يقول: كلام فلان ركيك، ومعرفته بالفنّ الفلانيّ ناقصة، وغرضه إظهار فضله عليه.

**ومنها:** الحسد وإرادة إسقاط قَدْر مَن يمدحه النّاس بذكر مَساوئه، لأنّه يشقّ عليه ثناء النّاس عليه، ولا يجد سبيلًا إلى سدّ باب الثّناء عليه إلّا بذكر عيوبه.

**ومنها:** اللّعب والهَزَل والمطايبة وتزجية الوقت بالضّحك والسُّخْريّة، فيذكر غيره بما يُضحك الحاضرين على سبيل الهُزْء والمحاكاة.

**واعلم!** أنّ الّذي يقوّي في نفسي أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلّا إذا كانت على سبيل القصد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره، فأمّا إذا خرجت مخرجًا آخر، فليست بحرام، كمن يظلمه القاضي، ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه، فإنّ له أن يذكر حالَه للسّلطان متظلّمًا من حَيْف الحاكم عليه، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلّا بذلك، فقد

قال ﷺ: «مَطْل الغنيّ ظلم»، وقال: «ليّ[1] الواجد يحلّ عقوبته وعِرْضه». وكذلك النّهي عن المنكر واجب، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره، وردّ القاضي إلى منهج الصّلاح، فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكِب المنكر، ومَن ذكَر الإنسان بلقبٍ مشهورٍ فعرّف عن عيبه، كالأعرج والأعمش المحدثَين، لم يكن مغتابًا إذا لم يقصد الغضّ والنّقص.

والصّحيح أنّ المجاهر بالفِسْق لا غيبة له، كصاحب الماخور والمخنّث، ومَن يدعو النّاس إلى نفسه أبنة، وكالعشّار والمستخرج بالضّرب، فإنّ هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به، وربّما تفاخروا بذلك، وقد قال النّبيّ ﷺ: «مَن ألقى جلباب الحياء عن وجهه، فلا غيبة له»، وقال عمر: ليس لفاجر حرمة، وأراد المجاهر بالفسق، دون المستتر.

وقال الصّلت بن طريف: قلتُ للحسن رحمه الله: الرّجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب، هل ذِكْرِي له بما فيه غيبة؟ فقال: لا، ولا كرامة له! (٩ : ٦٠ ـ ٧١)

## [طريق التّوبة من الغيبة]

واعلم! أنّ التّوبة من الغيبة تكفّر عقابها، والتّوبة منه هي النّدم عليها، والعزم على ألّا يعود، فإن لم يكن الشّخص المذكور قد بلغتْه الغيبة، فلا حاجة إلى الاستحلال منه، بل لا يجوز إعلامه بذلك، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله، لأنّه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثم ذلك الإيلام، وفي إعلامه تضييق صدره، وإدخال مشقّة عليه، وإن كان الشّخص المذكور قد بلغتْه الغيبة، وَجَب عليه أن يستحلّه ويستوهبَه، فإن كان قد مات سقط بالتّوبة عقاب ما يختصّ بالبارئ سبحانه من ذلك الوقت، وبقي ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتّى يؤخذ العِوَض له من المذنب يوم القصاص. (٩ : ٧١)

---

١ ـ يقال: ليّ عن الأمر: إذا تثاقل.

(الحكمة: ٤٧٠) الأصل: اَلْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ.

الشّرح : قد تقدّم كلامنا في الغيبة مُستقصًى.

وقيل للأحنف: مَن أشرف النّاس؟ قال: مَن إذا حَضَرهابُوه، وإذا غاب اغتابوه.

وقال الشّاعر[الطّويل]:

ويَغتابُني مَن لوكَفانِي اغتيابُهُ لَكُنتُ لَهُ العينَ البصيرةَ والأذْنَا

وعندي مِنَ الأشياءِ ما لو ذكرتُها إذا قَرَعَ المُغْتابُ من نَدَمٍ سِنَّا

وقد نظمتُ أنا كلمة الأحنف، فقلت [الخفيف]:

أكْلُ عِرْضي إن غِبْتُ ذمًّا فإن أبْـ ـتُ فمدحٌ ورَهْبةٌ وسُجودُ

هكذا يَفْعَلُ الجَبانُ شُجاعٌ حِينَ يخلو وفي الوَغَا رِعْدِيدُ

لك مِنّي حالانِ في عَيْنك الجَنْـ ـنَة حُسْنًا وفي الفؤادِ وَقودُ

(٢٠ : ١٧٩)

## الفصل الرّابع والسّبعون: [في العيب والسّعاية]

**(الخطبة: ٤٢) أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنسِي الْآخِرَةَ ...**

.

**الشّرح:** ... أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وهذا صحيح لا ريب فيه، لأنّ الهوى يُعْمي البصيرة، وقد قيل: حبّك الشّيء يُعْمي ويُصمّ، ولهذا قال بعض الصّالحين: رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي، وذاك لأنّ الإنسان يحبّ نفسه، ومَن أحبّ شيئًا عَمِيَ عن عيوبه، فلا يكاد الإنسان يلمح عيبَ نفسه. وقد قيل [الطّويل]:

أرى كلّ إنسانٍ يَرَى عَيْبَ غَيرِهِ ... ويَعْمَى عَنِ العَيْبِ الّذي هُوَ فِيهِ

فلهذا استعان الصّالحون على معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم، علمًا منهم أنّ هوى النّفس لذّاتها يُعميها عن أن تُدرك عيبَها، وما زال الهوى مُرْديًا قَتّالًا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[1]، وقال ﷺ: «ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه»[2].

وأنت إذا تأمّلت هلاك مَن هلك مِن المتكلّمين كالمجبّرة والمرجئة، مع ذكائهم وفِطْنتهم واشتغالهم بالعلوم، عرفت أنّه لا سبب لهلاكهم إلّا هوى الأنفس، وحبّهم الانتصار للمذهب الّذي قد ألفوه، وقد رأسوا بطريقه، وصارت لهم الأتباع والتّلامذة، وأقبلت الدّنيا عليهم، وعدّهم السّلاطين علماء ورؤساء، فيكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله، ويحبّون الانتصار لتلك المذاهب والآراء الّتي نشؤوا عليها، وعرفوا بها، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها، ويخافون عار الانتقال عن المذهب، وأن يشتفي

---

١ ـ النّازعات / ٤٠.

٢ ـ كذا أورد الحديث مختصرًا، ونقله السّيوطيّ في «الجامع الصّغير» (١ : ٢٣٦) بهذه الرّواية: «ثلاث مُهْلكات، وثلاث مُنْجيات، وثلاث كفّارات، وثلاث درجات، فأمّا المهلكات: فشُحّ مطاع، وهَوًى مُتَّبع وإعجاب المرء بنفسه، أمّا المنجيات ...» إلى آخر الحديث.

بهم الخصوم ويقرعهم الأعداء، ومَن أنصف عَلِم أنّ الّذي ذكرناه حقّ.
(٢ : ٣١٨ ـ ٣١٩)

**(كتابه عليه السلام:٥٣) ... وَلْيَكُن أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِندَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَن سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنكَ مِنهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِن رَعِيَّتِكَ.**

**أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَن كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِن تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.**

## [فصل في النّهي عن ذكر عيوب النّاس وما ورد في ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلًا عند بعض الأشراف، فقال له: لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكْثِر فيه من عيوب النّاس، لأنّ طالب العيوب إنّما يطلبها بقدر ما فيه منها.

وقال الشّاعر[الوافر]:

وأجرأ مَن رأيتُ بظهرِ غَيبٍ ... على عَيبِ الرّجالِ أولُو العُيُوبِ

وقال آخر[الكامل]:

يا مَن يَعِيبُ وعيبُهُ مُتَشَعِّبٌ ... كَم فيكَ مِن عَيبٍ وأنتَ تَعِيبُ!

وفي الخبر المرفوع: «دَعُوا النّاس بغفلاتهم يعيش بعضهم مع بعض».

وقال الوليد بن عُتْبة بن أبي سُفْيان: كنتُ أُساير أبي ورجل معنا يقع في رجل، فالتفت أبي إليّ، فقال: «يا بُنيّ، نزّه سمعك عن استماع الخنا كما تنزّه لسانك عن الكلام به، فإنّ المستمعَ شريك القائل، إنّما نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفْرَغَه في وعائك، ولو ردّت كلمة جاهل في فيه لسعد رادّها كما شقي قائلها.

وقال ابن عبّاس: الحَدَث حَدَثان: حَدَث مِن فيك، وحَدَث من فَرْجك.

وعاب رجلٌ رجلًا عند قُتَيبه بن مسلم، فقال له قتيبه: أمْسِك ويحك! فقد تلمّظت بمُضْغةٍ طالما لَفِظها الكرام.

ومرّ رجل بجارَيْن له ومعه ريبة، فقال أحدهما لصاحبه: أفهمتَ ما معه من الرّيبة؟ قال: وما معه؟ قال: كذا، قال: عبدي حرّ لوجه الله شكرًا له تعالى إذ لم يعرّفني من الشّرّ ما عرّفك.

وقال الفُضَيل بن عِياض: إنّ الفاحشة لَتَشيع في كثيرٍ من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصّالحين كانوا لها خُزّانًا.

وقيل لبُزُرْجِمِهر: هل من أحدٍ لا عيب فيه؟ فقال: الّذى لا عيب فيه لا يموت. وقال الشّاعر[المتقارب]:

ولستُ بِذِي نَيرَبٍ في الرِّجا ... لِ مَنّاعَ خَيرٍ وسَبّابَها[1]

ولامَن إذا كان في جانِبٍ ... أضاعَ العشيرةَ واغتابَها

ولكن أطاوِعُ ساداتِها ... ولاأتَعَلّمُ ألقابَها

وقال آخر[البسيط]:

لاتَلْتَمِسْ مِن مَساوي النّاسِ ما سَتَروا ... فيكشف اللهُ سِتْرًا من مَساوِيكا

واذْكُرْ محاسِنَ ما فيهِمْ إذا ذُكِرُوا ... ولاتَعِبْ أحَدًا مِنْهُمْ بما فِيكا

وقال آخر[الكامل]:

ابْدأ بنفسكَ فانْهَها عَن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عَنهُ فأنتَ حَكِيمُ[2]

فهناكَ تُعذَرُ إن وَعَظتَ ويُقتدَى ... بالقَوْلِ منكَ ويُقبَلُ التّعليمُ

فأمّا قوله عليه السلام: «أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ»، فقد استوفى هذا المعنى زيادٌ

---

١ ـ النَيرب: الشَرّ و حمل العداوة.

٢ ـ لأبي الأسود الدُؤلي؛ خزانة الأدب ٣: ٦١٧؛ و الرّواية هناك: «عن غيّها».

في خطبته البَتْراء، فقال: وقد كانت بيني وبين أقوام إحَن[١]، وقد جعلت ذلك دَبْر أُذُني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومَن كان منكم مُسيئًا فلينزع عن إساءته، إنّي لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السُّلال[٢] من بُغْضي لم أكشف عنه قناعًا، ولم أهتِك له سِتْرًا، حتّى يبديَ لي صفحته، فإذا فعل لم أُناظره، ألا فليشمل كلّ امرئ منكم على ما في صدره، ولايكوننّ لسانُه شفرةً تجرى على وَدَجِه. (١٧ : ٣٧ ـ ٣٩)

## [فصل في النّهي عن سماع السّعاية وما ورد في ذلك من الآثار]

فأمّا قوله عليه السلام : «ولاتعجلنّ إلى تصديق ساعٍ»، فقد ورد في هذا المعنى كلام حَسَن، قال ذو الرّياستَين: قبول السّعاية شرّ من السّعاية، لأنّ السّعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَن دلّ على شيء كمن قبله وأجازه، فامقت السّاعي على سعايته، فإنّه لوكان صادقًا كان لئيمًا، إذ هتك العورة، وأضاع الحرمة.

وعاتب مُصْعبُ بن الزّبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه، فأنكره، فقال مصعب: أخبرني به الثّقة. قال: كلّا أيّها الأمير، إنّ الثّقة لا يبلّغ.

وكان يقال: لو لم يكن مِن عَيْب السّاعي إلّا أنّه أصدق ما يكون، أضرّ ما يكون على النّاس، لكان كافيًا.

كانت الأكاسرة لاتأذن لأحدٍ أن يطبخ السِّكْباج[٣]، وكان ذلك ممّا يختصّ به المَلِك، فرفع ساعٍ إلى أنوشروان: إنّ فلانًا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه سكباج، فوقّع أنوشروان على رقعته: قد حمدنا نصيحتك، وذممنا صديقك على سوء اختياره للإخوان.

---

١ ـ الإحن: جمع إحنة، وهي العداوة.

٢ ـ السّلال والسّلّ بمعنى.

٣ ـ السّكباج: مرق يعمل من اللّحم والخلّ؛ معرّب.

جاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك، وهو خليفة عبد الملك على دِمَشق، فقال: أيّها الأمير، إنّ عندي نصيحة. قال: اذْكُرها. قال: جارٌ لي رجع من بعثه سرًّا، فقال: أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنّك جارُ سَوْء، فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنتَ كاذبًا عاقبناك، وإن كنتَ صادقًا مقتناك، وإن تركتنا تركناك. قال: بل أتركك أيّها الأمير. قال: فانصرِف.

ومثل هذا يُحْكَى عن عبد الملك أنّ إنسانًا سأله الخلوة، فقال لجُلَسائه: إذا شئتم! فانصرفوا، فلمّا تهيّأ الرّجل للكلام، قال له: اسمع ما أقول، إيّاك أن تمدَحَني فأنا أعرَفُ بنفسي منك، أو تَكذِبني فإنّه لا رأى لمكذوب، أو تسعى بأحدٍ إليّ فإنّي لا أحبّ السّعاية. قال: أفيأذن أمير المؤمنين بالانصراف! قال: إذا شئت.

وقال بعض الشّعراء [الطّويل]:

لَعَمْرُكَ ما سَبَّ الأميرَ عدوُّهُ ولكنّما سَبَّ الأميرُ المبلِّغُ

وقال آخر [الطّويل]:

حُرِمْتُ مُنائِي مِنكَ إن كان ذا الّذي[1] أتاكَ بِهِ الواشُون عنّي كما قالوا

ولكنّهم لمّا رأوكَ شريعةً إليَّ تواصَوا بالنّميمةِ واحْتالوا[2]

فقد صِرْتَ أذْنًا للوُشاةِ سَمِيعةً يَنالونَ مِن عِرْضي ولو شِئْتَ ما

وقال عبد الملك بن صالح لجعفر بن يحيى، وقد خرج يودّعه لما شخص إلى خراسان: أيّها الأمير، أحبّ أن تكون لي كما قال الشّاعر [الطّويل]:

فكُونِي على الواشِينَ لَدّاء شَغْبةً كما أنا للواشِي ألَدُّ شَغُوبُ[3]

قال: بل أكون كما قال القائل [الرّمل]:

---

١ ـ في د: «إن يكن الّذي»، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضًا.

٢ ـ الشّريعة: مورد الشّاربة.

٣ ـ اللّدّاء: الشّديدة الخصومة.

وإذا الواشِي وَشَى يومًا بها نَفَعَ الواشِي بما جاء يَضُر

وقال العبّاس بن الأحنف [السّريع]:

ما حَطَّك الواشُونَ مِن رُتْبَةٍ عِندِي ولا ضَرَّكَ مُغْتابُ

كأنّهم أثنَوا ولم يَعلَمُوا عليكَ عندي بالّذي عابُوا

(١٧ : ٣٧ ـ ٤١)

**(الحكمة: ٦) الأصل: صَدْرُ الْعَاقِلِ صُندُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالِاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ. وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْعِبَارَةِ عَن هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا: الْمُسَالَمَةُ خَبْءُ الْعُيُوبِ.**

**الشّرح:** ... قوله: «الاحتمال قبر العيوب»، أي إذا احتملت صاحبك وحلمت عنه سترهذا الخُلق الحَسَن منك عيوبك، كما يستر القبر الميّت، وهذا مثل قولهم في الجود: كلّ عيب فالكرم يغطّيه ... .

وقد ذكرنا في فَضْل الاحتمال والمسالمة فيما تقدّم أشياء صالحة.

ومن كلامه عليه السلام: وجدت الاحتمال أنصرَ لي من الرّجال.

ومن كلامه: مَن سَالم النّاس سَلِم منهم، ومَن حارب النّاس حاربوه، فإنّ العثرة للكاثر.

وكان يقال: العاقل خادم الأحمق أبدًا، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتّقرّب إليه بُدًّا، وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شرّه بُدًّا.

وأسمع رجل يزيدَ بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه، فقال الرّجل: إيّاك أعني، قال: وعنك أعرض. وقال الشّاعر [الوافر]:

إذا نَطَقَ السَّفِيهُ فلا تجِبْهُ فَخَيرٌ مِن إجابتِهِ السُّكُوتُ

سَكَتُّ عَنِ السَفِيهِ فظنَّ أنّي عَيِيتُ عَنِ الجَوابِ وما عَيِيتُ

(١٨ : ٩٨ ـ ٩٩)

**(الحكمة: ٣٥٥) الأصل: مَن نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَن عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَن رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَن عَلَى مَا فَاتَهُ ... وَمَن نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيْرِهِ فَأَنكَرَهَا، ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ ....**

**الشّرح:** ... مَن نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، كان يقال: أصلِح نفسك أوّلًا، ثمّ أصلح غيرك ... مَن نظر في عيوب غيره فأنكرها، ثمّ رضيها لنفسه فذاك هو الأحمق بعينه، وكان يقال: أجهل النّاس مَن يرضى لنفسه بما يَسخَطُه من غيره .... (١٩ : ٢٦٤ ـ ٢٦٥)

**(الحكمة: ٣٥٩) الأصل: أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَن تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم هذا المعنى مِرارًا. وقال الشّاعر [الطّويل]:

إذا أنتَ عِبتَ الأمرَ ثمّ أتيتَهُ فأنتَ ومَن تُزْرِي عليهِ سَواءُ

(١٩ : ٢٦٩)

**(الخطبة: ١٤١) الأصل: ومن كلام له عليه السلام:**

**أَيُّهَا النَّاسُ، مَن عَرَفَ مِن أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ، وَيُحِيلُ الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.**

**فَسُئِلَ عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أَصَابِعه ووضعها بين أُذُنه وعينه، ثمّ قال: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَن تَقُولَ: رَأَيْتُ!**

**الشّرح:** هذا الكلام هو نهيٌ عن التّسرّع إلى التّصديق بما يقال من العَيْب والقَدْح في حقّ الإنسان المستور، الظّاهر المشتهر بالصّلاح والخير، وهو خلاصة قوله سبحانه: **﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ**

نَادِمِينَ﴾[١].

ثمّ ضرب عليه السلام لذلك مثلًا، فقال: قد يرمي الرّامي فلا يصيب الغرض، وكذلك قد يطعن الطّاعن فلا يكون طعنه صحيحًا، وربّما كان لغَرَضٍ فاسدٍ أو سمعة ممّن له غرض فاسد، كالعدوّ والحسود، وقد يشتبه الأمر فيُظنّ المعروف مُنكَرًا، فيعجَل الإنسان بقول لا يتحقّقه، كمن يرى غلام زيد يحمل في إناء مستور مغطًّى خلًّا، فيظنّه خمرًا ... .

**فإن قلتَ:** كيف يقول عليه السلام: الباطل ما يُسمع والحقّ ما يُرَى، وأكثر المعلومات إنّما هي من طريق السّماع، كعِلْمِنا الآن بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته الّتي لم نرها، وإنّما سمعناها!

**قلتُ:** ليس كلامه في المتواتر من الأخبار، وإنّما كلامه في الأقوال الشّاذّة الواردة من طريق الآحاد، الّتي تتضمّن القَدْح فيمَن قد غلبت نزاهته، فلا يجوز العدول عن المعلوم بالمشكوك. (٩ : ٧٢ ـ ٧٣)

---

١ ـ الحجرات / ٦ .

## الفصل الخامس والسّبعون: [في الغضب والحِدّة]

**(الخطبة: ١٨٦) [في وصف المتّقين] ... تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ ... .**

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «مكظومًا غَيْظه»، كَظْم الغيظ من الأخلاق الشّريفة، قال زيد بن عليّ عليه السلام: «ما سرّني بجرعة غَيْظٍ أتجرّعها وأصبر عليها حُمْر النّعم».

جاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثيّ، فقال: يا أبا عبد الرّحمان، إنّ فلانًا يغتابُك وينال منك، فقال: والله لأغيظنّ مَن أمرَه بذلك. قال الرّجل: ومَن أمره؟ قال: الشّيطان عدوّ الله، استغواه ليؤثمه، وأراد أن يغضبني عليه فأكافئه، والله لا أعطيه ما أحبّ من ذلك. غفر الله لنا وله!

وجهل[1] إنسان على عمر بن عبد العزيز، فقال: أظنّك أردت أن يستفزّني الشّيطان بعزّ السّلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منّي غدًا! انصرف عافاك الله.

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «الغضب يُفسد الإيمان، كما يُفسد الصَّبر العَسَل».

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله: أوْصِني. فقال: «لا تغضب». فأعاد عليه السّؤال، فقال: «لا تغضب». فقال: زدني. فقال: «لا أجد مزيدًا».

ومن كلام بعض الحكماء: لا يفي عزّ الغضب بذلّة الاعتذار. (١٠ : ١٥٨)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَإِيَّاكَ أَن تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَن تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلِنْ لِمَن غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَن يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ، فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ ... .**

---

١ ـ الجهل هنا: السّفاهة.

**الشّرح:** ... قوله: «تجرّع الغيظ، فإنّي لم أرَ جُرْعةً أحلى منها عاقبةً ولا ألذّ مغبّةً»، هذا مِثل قولهم: الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدّهر كلّه.

**وكان يقال:** التّذلّل للنّاس مصايد الشّرف.

**قال المبرّد في «الكامل»:** أوصى عليّ بن الحسين ابنه محمّد بن عليّ عليهما السلام، فقال: يا بنيّ، عليك بتجرّع الغيظ من الرّجال، فإنّ أباك لا يسرّه بنصيبه من تجرُّع الغيظ من الرّجال حُمُرُ النّعم، والحلم أعزّ ناصرًا وأكثر عددًا. (١٦ : ١٠٨)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِن كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الْاِخْتِيَارَ.**

**الشّرح:** ... ومنها نهيه إيّاه عن الغَضَب، وعن الحُكْم بما تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبه، قد جاء في الخبر المرفوع: «لا يقضي القاضي وهو غضبان». فإذا كان قد نُهِيَ أن يقضي القاضي وهو غَضْبان على غير صاحب الخصومة، فبالأوْلى أن ينهي الأمير عن أن يَسْطو على إنسان وهو غَضبانُ عليه.

وكان لكسرى أنوشَرْوانَ صاحبٌ، قد رتّبه ونَصّبه لهذا المعنى، يقف على رأس الملك يوم جلوسه، فإذا غَضِب على إنسان وأمَر به قَرَع سلسلة تاجِه بقضيب في يده، وقال له: إنّما أنت بشر، فارْحم مَن في الأرض يَرْحَمْك مَن في السّماء. (١٧ : ١١٧)

**(كتابه عليه السلام: ٦٩) ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمدانيّ: ... وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا. وَاكْظِمِ الْغَيْظَ، وَتَجَاوَزْ عِندَ الْمَقْدِرَةِ، وَاحْلُمْ عِندَ الْغَضَبِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُن لَكَ الْعَاقِبَةُ ... وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُندٌ عَظِيمٌ مِن جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلَامُ.**

**الشّرح:** ... ومنها قوله: «واكظم الغيظ» قد مدح الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[1] . ورُوِي أنّ عبدًا لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صَحفة فيها طعام حارّ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه، فغضب، فقال له: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. قال: قد كظمت. قال: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال: قد عفوت، قال: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحسِنِينَ﴾. قال: أنت حُرٌّ لوَجه الله، وقد نحلتك ضيعتي الفلانيّة.

ومنها قوله: «واحلم عند الغضب»، هذه مناسبة الأولى، وقد تقدّم منّا قولٌ كثيرٌ في الحلم وفَضله، وكذلك القول في قوله عليه السلام: «وتجاوز عند القدرة»، وكان يقال: القدرة تذهب الحفيظة ... .

ومنها قوله: «واحْذَر الغضب»، قد تقدّم لنا كلام طويل في الغضب، وقال إنسان للنّبيّ صلى الله عليه وآله: أوْصِني، قال: «لا تغضب»، فقال: زِدْني، فقال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: لا أجد لك مزيدًا، وإنّما جعله عليه السلام جُندًا عظيمًا من جنود إبليس، لأنّه أصل الظّلم والقتل وإفساد كلّ أمر صالح، وهو إحدى القوّتين المشؤُومتَين اللّتَين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان، وهما منبع الشّرّ: الغضب والشّهوة. (١٨ : ٤٦ و٥١)

**(كتابه عليه السلام: ٧٦) الأصل: ومن وصيّة له عليه السلام لعبد الله بن العبّاس، عند استخلافه إيّاه على البصرة:**

**سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ، فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَاعْلَمْ! أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِن النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ.**

**الشّرح:** ... فأمّا وصيّته له أن يسع النّاس بوجهه ومجلسه وحُكمه، فقد تقدّم شرح مثله، وكذلك القول في الغضب. (١٨ : ٧٠)

---

١ ـ آل عمران / ١٣٤ .

**(الحكمة: ١٩٠) وَكَانَ عليه السلام يَقُولُ: مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ! أَحِينَ أَعْجَزُ عَنِ الْانْتِقَامِ؟ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ!**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في الغَضَب مرارًا. وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المعنى، قال: لا سبيل لي إلى شفاء غَيْظي عند غَضَبي، لأنّي إمّا أن أكون قادرًا على الانتقام فيصدّني عن تعجيله قولُ القائل: لو غَفرتَ لكان أوْلى! وإمّا ألّا أكون قادرًا على الانتقام فيصدّني عنه كوني غير قادر عليه، فإذَن لا سبيل لي إلى الانتقام عند الغضب.

**وكان يقال:** العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدئه الغَضَب، كما تَصْدَأ المرآة بالخَلّ، فلا يَثْبُت فيها صورة القُبْح والحُسْن.

واجتمع سُفيان الثّوريّ وفُضَيل بن عِياض، فتذاكرا الزّهد، فأجمعا على أنّ أفضل الأعمال الحِلْم عند الغَضَب، والصّبر عند الطّمع. (١٩ : ١٢)

## [فصل في ذكر الأسباب المادّيّة للغلظة والفظاظة]

ونحن نذكر بعدُ كلامًا كلّيًّا في سبب الغلظة والفظاظة، وهو الخُلق المنافي للخُلق الّذي كان عليه أمير المؤمنين، فنقول: إنّه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسمانيّ، وقد يكون لأمرٍ راجع إلى النّفس:

**فأمّا الأوّل؛** فإنّما يكون من غَلَبة الأخلاط السّوداويّة وترمّدها، وعدم صفاء الدّم وكثرة كدرته وعكَره، فإذا غلظ الدّم وثَخُن غلظ الرّوح النّفسانيّ وثخن أيضًا، لأنّه متولّد من الدّم، فيحدث منه نوع ممّا يحدث لأصحاب الفِطْرة، من الاستيحاش والنّبْوة عن النّاس وعدم الاستئناس والبشاشة، وصار صاحبُه ذا جفاءٍ وأخلاق غليظةٍ، ويشبه أن يكون هذا سببًا ماديًّا، فإنّ الّذي يقوى في نفسي أنّ النّفوس إن صحّت وثبتت مختلفةٌ بالذّات.

**[فأمّا الثّاني]** وأمّا الرّاجع إلى النّفس؛ فأن يجتمع عندها أسقاط وأنصباء من قُوَى

مختلفة مذمومة، نحو أن تكون القوّة الغضبيّة عندها متوافرة، وينضاف إليها تصوّر الكمال في ذاتها وتوهّم النّقصان في غيرها، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب، وأنّ الصّواب ما توهّمه. وينضاف إلى ذلك قلّة أدب النّفس وعدم الضّبط لها واستحقارها للغير، ويقلّ التّوقير له، وينضاف إلى ذلك لجاجٌ وضيقٌ في النّفس وحدّةٌ واستشاطة وقلّة صبر عليه، فيتولّد من مجموع هذه الأُمور خُلق دَنيّ، وهو الغلظة والفظاظة والوعورة والبادرة المكروهة، وعدم حبّه النّاس، ولقاؤهم بالأذى وقلّة المراقبة لهم، واستعمال القَهْر في جميع الأُمور، وتناول الأمر من السّماء، وهو قادر على أن يتناوله من الأرض.

وهذا الخُلق خارجٌ عن الاعتدال، وداخل في حيّز الجَوْر، ولا ينبغي أن يُسمَّى بأسماء المدح. وأعني بذلك أنّ قومًا يسمّون هذا النّوع من العنف والخُلق الوَعْر رجوليّة، وشدّة وشكيمة، ويذهبون به مذهب قوّة النّفس وشجاعتها، الّذي هو بالحقيقة مدح. وشتّان بين الخُلقَين، فإنّ صاحب هذا الخُلق الّذي ذممناه تصدُر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه، ثمّ على إخوانه، على الأقرب فالأقرب من معامليه، حتّى ينتهي إلى عَبيده وحرمه، فيكون عليهم سَوْطَ عذاب، لا يقيلهم عَثْرة، ولا يرحم لهم عَبرة، وإن كانوا بُراء من الذّنوب، غير مجرمين ولا مكتسبي سوء، بل يتجرّم عليهم، ويهيج مِن أدنى سبب يجد به طريقًا إليهم، حتّى يَبْسُط يده ولسانه، وهم لا يمتنعون منه، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم، بل يُذْعِنون له ويقرّون بذنوب لم يقترفوها، استكفافًا لعاديته وتسكينًا لغَضِبه، وهو في ذلك يستمرّ على طريقته لا يكفّ يدًا ولا لسانًا.

وأصل هذا الخُلق الّذي ذكرناه أنّه مركّب من قُوًى مختلفة: شدّة القوّة الغضبيّة، فهي الحاملة لصاحب هذا الخُلق على ما يصدُر عنه من البادرة المكروهة والجَبْه[1]

١ ـ الجَبْهُ: جَبَهه بالكلام يجبَهه جَبْهًا: لقيه بما يكره. (الإفصاح في فقه اللّغة ١: ١٩٣).

والقِحَةُ[١]، وقد رأينا وشاهدنا مَن تشتدّ القوّة الغضبيّة فيه، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم الّتي لاتعقل وإلى الأواني الّتي لاتحسّ، وربّما قام إلى الحِمار وإلى البرذَوْن فضربهما ولكَمهما، وربّما كسر الآنية لشدّة غضبه، وربّما عَضّ القُفْل إذا تعسّر عليه، وربّما كسر القلم إذا تعلّقت به شَعْرة من الدّواة واجتهد في إزالتها فلم تزل.

ويُحكَى عن بعض ملوك اليونان المتقدّمين أنّه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب، وتأخّرت سُفُنه عن النّفوذ فيه، فيقسم بمعبوده ليطمّنه وليطرحنّ الجبال فيه حتّى يصير أرضًا، ويقف بنفسه على البحر، ويهدّده بذلك، ويزجُره زجرًا عنيفًا، حتّى تدرّ أوداجُه ويشتدّ احمرار وجهه، ومنهم مَن لايسكن غَضَبُه حتّى يصبّ عليه ماء بارد أو حتّى يبول، ولهذا ورد في الشّريعة الأمر لمن اشتدّ غضبه أن يتوضّأ للصّلاة ويصلّي.

وكان عمر بن الخطّاب إذا غضب على واحدٍ من أهله لايسكن غضبُه، حتّى يعضّ يده عَضًّا شديدًا حتّى يُدْمِيَها.

وذكر الزّبير بن بَكّار في «الموفّقيّات» أنّ سَريّة جاءت لعبد الرّحمان أو لعبيد الله بن عمر بن الخطّاب إليه تشكوه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ألاتعذُرني من أبي عيسى؟ قال: ومَن أبو عيسى؟ قالت: ابنك عبيد الله. قال: ويحك! وقد تكَنّى بأبي عيسى! ثمّ دعاه، فقال: إيهًا، اكتنيت بأبي عيسى! فحذر وفَزِع، وأخذ يده فعضّها، ثمّ ضربه، وقال: ويلك! وهل لعيسى أب؟ أتدري ما كُنَى العرب؟ أبو سلمة، أبو حنظلة، أبو عرفطة، أبو مرّة... .

قال الزّبير: وكان عمر إذا غضِب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتّى يعضّ يده عَضًّا شديدًا. وكان عبد الله بن الزّبير كذلك، ولقوّة هذا الخُلق عنده أضمر عبد الله بن عبّاس في خلافته إبطال القول بالعَوْل[٢] وأظهره بعده، فقيل له: هلّا قلتَ هذا في

---

١ ـ القِحَةُ: قلّة الحياء.

٢ ـ العول: ارتفاع الحساب في الفرائض. انظر: اللّسان ... .

أيّام عمر! فقال: هبْته، وكان أميرًا مهيبًا.

ولذلك قال أيضًا أبو سفيان في استلحاق زياد: أخاف من هذا العير الجالس أن يخرِق عليَّ إهابي، فإذا هابه أبو سفيان، وهو من بني عبد مناف في المنزلة الّتي تعلم، وحوله بنوعبد شمس، وهم جمرة قريش، فما ظنّك بمن هو دونه!

وقد علمتَ حال جبلة بن الأيهم وارتدادَه عن الإسلام لتهدّده له ووعيده إيّاه أن يضربه بالدِّرّة، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان وليًّا مصافيًا، ومنحرفًا عن غيره قاليًا، والشّأن الّذي كان بينه وبين طلحة حتّى همّ أن يوقع به، وحتّى همّ طلحة أن يجاهره، وطلحة هو الّذي قال لأبي بكر عند موته: ماذا تقول لربّك وقد ولّيتَ فينا فظًّا غليظًا! وهو القائل له: يا خليفة رسول الله، إنّا كنّا لانحتمل شراسته وأنت حيّ تأخذ على يديه، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّت وهو الخليفة؟

واعلم! أنّا لانريد بهذا القول ذمّه رضي الله عنه، وكيف نذمّه وهو أوْلى النّاس بالمدح والتّعظيم، ليُمْن نقيبته، وبركة خلافته، وكثرة الفتوح في أيّامه، وانتظام أُمور الإسلام على يده! ولكنّا أردنا أن نشرح حال العنف والرِّفْق، وحال سعة الخُلق وضيقه، وحال البشاشة والعبوس، وحال الطّلاقة والوعورة، فنذكر كلّ واحد منها ذكرًا كلّيًّا، لانخصّ به إنسانًا بعينه.

فأمّا عمر؛ فإنّه وإن كان وَعْرًا شديدًا خَشِنًا، فقد رزق من التّوفيق والعناية الإلهيّة ونُجْح المساعي، وطاعة الرّعيّة ونفوذ الحُكْم، وقوّة الدِّين وحُسْن النّيّة وصحّة الرّأي، ما يُرْبي محاسنه ومحامده على ما في ذلك الخُلُق من نقص، وليس الكامل المطلق إلّا الله تعالى وحده.

فأمّا حديث الرَّضيخة وما جعل معاوية لعمرو بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته، فقد تقدّم ذكره في أخبار صفّين المشروحة في هذا الكتاب من قبل.

(٦ : ٣٤٠ ـ ٣٤٤)

## الفصل السّادس والسّبعون: [في ردّ الشّرّ بالشّرّ]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنصَحُ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «إذا كان الرِّفْق خُرْقًا، كان الخُرْق رِفْقًا»، يقول: إذا كان استعمال الرِّفق مفسدة وزيادة في الشّرّ فلا تستعمله، فإنّه حينئذٍ ليس برفق بل هو خُرْق، ولكن استعمل الخرق، فإنّه يكون رفقًا والحالة هذه، لأنّ الشّرّ لا يلق إلّا بشرٍّ مثله، قال عمرو ابن كلثوم [الوافر]:

أَلَا لا يجهلنَّ أحدٌ عَلَينا  فنجهلُ فَوقَ جَهْلِ الجَاهلينَا[1]

وفي المَثَل: إنّ الحديد بالحديد يصلُح.

وقال زهير [الطّويل]:

ومَن لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ  يُهَدَّمْ ومَن لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلِمِ[2]

وقال أبو الطّيّب [الطّويل]:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بالعُلَا  مُضِرٌّ كوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

**(١٦ : ١٠٠ ـ ١٠١)**

**(كتابه عليه السلام: ٦٩) الأصل: ... وإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ ... .**

**الشّرح:** ... ومنها قوله: «وإيّاك ومصاحبة الفُسّاق، فإنّ الشّرّ بالشّرّ مُلْحق»، يقول: إنّ الطّباع ينزع بعضها إلى بعض، فلا تصحبنّ الفُسّاق، فإنّه يَنزع بك ما فيك من طَبْع الشّرّ إلى مساعَدَتهم على الفُسوق والمعصية، وما هو إلّا كالنّار تَقْوَى بالنّار، فإذا لم تجاوِرْها وتمازِجْها نارٌ كانت إلى الانطفاء والخمود أقرب.

---

١ ـ من المعلّقة ـ بشرح التّبريزيّ : ٢٣٨ .

٢ ـ ديوانه : ٣٠ .

ورُوي «مُلْحِق» بكسر الحاء، وقد جاء ذلك في الخبر النَبويّ، «فإنّ عذابك بالكفّار مُلْحِق» بالكسر... . (١٨ : ٥٠ ـ ٥١)

**(الحكمة: ٣٢٠) وقَالَ عليه السلام: رُدُّوا الْحَجَرَ مِن حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ.**

**الشّرح:** هذا مثل قولهم في المثل: إنّ الحديد بالحديد يُفْلَح، وقال عمرو بن كلثوم [الوافر]:

ألا لا يجْهَلَن أحَدٌ عَلَينا فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهِلينَا

وقال الفِند الزِّمانيّ[1] [مجزوء الوافر]:

فلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسى وَهْوَ عُرْيَانُ
ولم يبقَ سِوى العُدْوا نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا
وبعض الحِلْم عند الجَهْـ ـلِ للذّلّة إذعانُ
وفي الشّرّ نجاةٌ حِيـ ـنَ لا ينجيك إحسان

وقال الأحنف [الوافر]:

وذي ضِغْنٍ أمتُّ القولَ عنه بحلمي فاستمرَّ على المَقالِ
ومَن يَحْلُمْ وليسَ لَهُ سَفيهٌ يُلاقِ المعضلاتِ مِنَ الرّجالِ

وقال الرّاجز:

لابُدَّ للسّودُدِ مِن أرْماحِ ومِن عَديدٍ يُتَّقَى بالرّاحِ

ومِن سَفيهٍ دائم النُّباحِ وقال آخر[الطّويل]:

ولا يلبث الجُهّال أن يتهضَّمُوا أخا الحِلْم ما لم يستعِنْ بجَهُولِ

---

١ ـ واسمه: شهل بن شيبان.

وقال آخر[الطّويل]:

ولاأتمنّى السّرّ والسّرّتاركِي ولكن مَتى أحمَلْ على السّرّأركبُ

(١٩ : ٢٢١ ـ ٢٢٢)

## الفصل السّابع والسّبعون:
## [نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب]

(كتابه عليه السلام: ١١) الأصل: ومن وصيّة له عليه السلام وصّى بها جيشًا بعثه إلى العدوّ:

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُن مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا، وَلْتَكُن مُقَاتَلَتُكُمْ مِن وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ اجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِن مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْن.

وَاعْلَمُوا! أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَومِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا غَشِيكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَاتَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً.

**الشّرح:** ... والمعنى أنّه أمرهم أن ينزلوا مسندين ظهورَهم إلى مكانٍ عالٍ كالهضاب العظيمة، أو الجبال، أو منعطف الأنهار الّتي تجري مجرى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات، وليأمنوا أيضًا من إتيان العدوّ لهم من خَلْفهم، وقد فسّر ذلك بقوله: «كيما يكون لكم ردءًا»، والرِّدء: العَوْن، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾[1] ... .

ثمّ أمرهم بأن يكون مُقاتَلتهم ـ بفتح التّاء، وهي مصدر «قاتل» ـ من وجهٍ واحدٍ أو اثنين، أي لا تتفرّقوا، ولايكن قتالُكم العدوّ في جهات متشعّبة، فإنّ ذلك أدعى إلى الوهن، واجتماعُكم أدْعَى إلى الظّفر، ثمّ أمرهم أن يجعلوا رقباء في صَياصِي الجبال ... .

ثمّ نهاهم عن التّفرّق، وأمرهم أن ينزلوا جميعًا ويَرحلوا جميعًا، لئلّا يفْجَأهم العدوّ بغتةً على غير تعبيةٍ واجتماعٍ، فيَستأصلهم، ثمّ أمرهم أن يجعلوا الرِّماح كِفَّة إذا غشيهم اللّيل ... .

---

١ ـ القصص / ٣٤ .

ثمّ نهاهم عن النّوم إلّا غرارًا أو مضمضةً، وكلا اللّفظتَين ما قلّ من النّوم.

وقال شبيب الخارجيّ: اللّيل يَكفيك الجبان، ويصف الشّجاع ...

ولمّا فصَل قُحطبة من خراسان وفي جملته خالد بن بَرْمك، بينا هو على سَطْح بيتٍ في قرية نَزَلاها وهم يتغدَّون نظر إلى الصَّحْراء، فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهةٍ الصّحاري حتّى كادت تخالط العسكر، فقال خالد لقُحطبة: أيّها الأمير، نادِ في النّاس: يا خَيْلَ اللهِ اركبي، فإنّ العدوّ قد قَرُب منك، وعامّة أصحابك لن يُسْرِجوا ويُلجموا حتّى يَروْا سَرَعان[1] الخيل. فقام قُحطبة مذعورًا فلم يَرَ شيئًا يَروعُه، ولم يُعاين غُبارًا، فقال لخالد: ما هذا الرّأي؟ فقال: أيّها الأمير! لا تتشاغل بي، ونادِ في النّاس، أما تَرَى أقاطيعَ الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعها حتّى خالطت النّاس! وإنّ وراءها لجَمْعًا كثيفًا. قال: فوالله ما أسرَجوا ولا ألجَموا حتّى رأوا النّقْع[2] وساطع الغُبار، فسلّموا، ولولا ذلك لكان الجيش قد اصْطُلِم[3]. (١٥ : ٨٩ ـ ٩١)

**(كتابه عليه السلام :١٢) ومن وصيّة له عليه السلام وصّى بها مَعْقِل بن قيس الرّياحيّ حين أنفذه إلى الشّام في ثلاثة آلاف مقدمةً له:**

**اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِن لِقَائِهِ، وَلَا مُنتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلَاتُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَن قَاتَلَكَ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ، غَوْرٌ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَنًا، وَقَدَّرَهُ مُقَامًا لَا ظَعْنًا، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.**

**فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِن أَصْحَابِكَ وَسَطًا، وَلَاتَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَن يُرِيدُ أَن يُنشِبَ الْحَرْبَ، وَلَاتَبَاعَد عَنهُمْ تَبَاعُدَ مَن يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي،**

---

١ ـ سرعان الخيل : أوائلها .

٢ ـ النّقع : الغبار .

٣ ـ اصطلم : استؤصل .

وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

**الشّرح:** ... قوله عليه السلام: «ولا تَسِرْ أوّل اللّيل»، قد ورد في ذلك خبر مرفوع، وفي الخبر أنّه حين تُنشر الشّياطين. وقد علّل أمير المؤمنين عليه السلام النّهي بقوله: «فإنّ الله تعالى جعله سَكَنًا، وقَدّرَه مُقامًا لا ظَعْنًا»، يقول: لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم اللّيل ليسكنوا فيه[1] كره أن يخالفوا ذلك، ولكن لقائلٍ أن يقول: فكيف لم يكره السّير والحركة في آخره، وهو من جملة اللّيل أيضًا! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ اللّيل الّذي جعل سَكَنًا للبشر إنّما هو من أوّله إلى وقت السّحر... .

ثمّ أمره عليه السلام إذا لقي العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطًا لأنّه الرّئيس، والواجب أن يكون الرّئيس في قلب الجيش، كما أنّ قلب الإنسان في وسط جسده، ولأنّه إذا كان وسطًا كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة، وإذا كان في أحد الطّرفَين بَعُدَ من الطّرف الآخر، فربّما يختلّ نظامه ويضطرب.

ثمّ نهاه عليه السلام أن يدنو من العدوّ دُنُوّ مَن يريد أن يُنشِب الحرب، ونهاه أن يَبعُد منهم بُعْدَ مَن يهاب الحربَ، وهي البأس، قال الله تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾[2]، أي حين الحرب، بل يكون على حالٍ متوسّطة بين هذين حتّى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه أعرف بما تقتضيه المصلحة .... .

وفي الحديث المرفوع: «لا تتمنّوا العدوّ، فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا: اللّهمّ أكْفِنا شرّهم، وكفَّ عنّا بأسهم، وإذا جاؤُوك يعرفون أن يضجون فعليكم الأرض جلوسًا، وقولوا: اللّهمّ أنت ربّنا وربّهم، وبيدك نواصينا ونواصيهم، فإذا غَشَوْكم فثوروا في وجوههم».

وكان أبو الدّرداء يقول: أيّها النّاس، اعملوا عملًا صالحًا قبل الغَزْو؛ فإنّما تقاتلون

---

١ ـ وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يونس/٦٧

٢ ـ البقرة / ١٧٧ .

بأعمالكم.

وأوصى أبو بكر يزيدَ بن أبي سفيان حين استعمله، فقال: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلتَ بلاد العدوّ فكن بعيدًا من الحملة، فإنّي لا آمن عليك الجَوَلة، واستظهر بالزّاد، وسِرْ بالأدلّاء، ولا تقاتل بمجروح، فإنّ بعضه ليس منه، واحترسْ من البَيات، فإنّ في العرب غِرّة، وأقْلل من الكلام، فإنّ ما وُعِيَ عنك هو عليك، وإذا أتـ ك كتابي فامضه، فإنّما أعمل على حسب إنفاذه، وإذا قدم عليك وفود العَجَم، فأنزلهم مُعْظم عسكرك، وأسْبِغ عليهم من النّفقة، وامْنَع النّاس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين، ولا تلحّنّ في عقوبة فإن أدناها وجيعة، ولا تُسْرعنّ إليها وأنت تكتفي بغيرها، واقْبَل من النّاس علانيتهم، وَكِلْهم إلى الله في سريرتهم، ولا تَعْرِض عسكرك فتفضحه، وأستودعك الله الّذي لا تضيعُ ودائعه.

وأوصى أبو بكر أيضًا عِكْرمة بن أبي جهل حين وجّهه إلى عُمَانَ، فقال: سِرْ على اسم الله، ولا تنزلنّ على مُستأمِن، وقَدِّم النّذير بين يديك، ومهما قلتَ: إنّي فاعل فافْعله، ولا تجعلنّ قولك لغوًا في عقوبة ولا عقوبة، فلا تُرْجَى إذا أمّنت، ولا تخاف إذا خوّفت. وانظر متى تقول ومتى تفعل، وما تقول وما تفعل، ولا تتوعّدنّ في معصيةٍ بأكثر من عقوبتها، فإنّك إن فعلت أثِمْت وإن تركت كذبت، واتّق الله وإذا لقيت فاصْبر.

ولما ولّى يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد خراسان، قال له: إنّ أباك كفى أخاه عظيمًا، وقد استكفيتُك صغيرًا، فلا تتّكلنّ على عُذْرٍ منّي، فقد اتّكلت على كفايةٍ منك، وإيّاك منّي من قبل أن أقول إيّاك منك، واعلم! أنّ الظّنّ إذا أخلف منك أخلف فيك، وأنت في أدنى حظّك، فاطْلب أقصاه، وقد تبعك أبوك، فلا تريحنّ نفسك، واذكر في يومك أحاديث غَدِك.

وقال بعض الحُكَماء: ينبغي للأمير أن يكون له ستّة أشياء: وزيرٌ يَثِق به، ويُفشي إليه سِرّه، وحِصْنٌ إذا لجأ إليه عَصِمه ـ يعني فرسًا ـ وسيفٌ إذا نزل به الأقرانُ لم يخِفْ نبوَتَه، وذخيرةٌ خفيفة المحمل إذا نابته نائبة وَجَدها ـ يعني جوهرًا ـ وطبّاخٌ إذا أقرى

من الطّعام صَنَع له ما يَهيجُ شهوَتَه، وامرأةٌ جميلةٌ إذا دخل أذهبتْ همَّه.

في الحديث المرفوع: خير الصّحابة أربعة، وخير السّرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يُغلَب اثنا عشر ألفًا من قلّة إذا اجتمعت كَلِمَتُهم.

**كان يقال:** ثلاثة مَن كنّ فيه لم يُفلِح في الحرب: البَغي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[1]، والمكر السّيّئ، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[2]، والنّكث، قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾[3].

**يقال:** خرجت خارجةٌ بخراسان على قُتَيبة بن مسلم، فأهمّه ذلك، فقيل: ما يهمّك منهم! وجّه إليهم وَكيعَ بن أبي أسود يكفيك أمرَهم، فقال: لا أُوجّهه، وإنّ وكيعًا رجل فيه كِبر، وعنده بَغي، يَحْقِر أعداءه، ومَن كان هكذا قَلّت مبالاته بخَصْمه فلم يحترس، فوجد عدوّه فيه غِرّةً، فأوْقَعَ به.

**وفي بعض كُتُب الفُرْس:** إنّ بعض مُلوكِهم سأل: أيّ مكايد الحَرْب أحزم؟ فقال: إذكاء العيون، واستطلاع الأخبار، وإظهار القوّة والسُّرور والغَلَبة، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح، ولاانتصاح لمن يغشّ، وكتمان السّرّ، وإعطاء المبلّغين على الصّدق، ومعاقبة المتوصّلين بالكَذِب، وألّا تُخْرِج هاربًا فتحوجه إلى القتال، ولايضيّق أمانًا على مُستأمِن، ولاتدهشنّك الغنيمة عن المجاوزة.

**وفي بعض كتب الهند:** ينبغي للعاقل أن يَحْذَر عدوّه المحارب له على كلّ حال، يرهَب منه المواثَبة إن قَرُب، والغارة إن بَعُد، والكَمين إنِ انكشف، والاستطراد إن وَلّى، والمكر إن رآه وحيدًا، وينبغي أن يؤخّر القتالَ ما وَجَد بُدًّا، فإنّ النّفقة عليه من الأنفس، وعلى غيره من المال. (١٥ : ٩٤ ـ ٩٧)

---

١ ـ يونس / ٢٣.

٢ ـ فاطر / ٤٣.

٣ ـ الفتح / ١٠.

**(كتابه عليه السلام: ١٤) ومن وصيّته عليه السلام لعسكره قبل لقاء الْعَدُوّ بصفّين:**

**لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، لَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِن بَعْدِهِ.**

**الشّرح:** نهى أصحابه عن البَغْي والابتداء بالحرب، وقد رُوي عنه أنّه قال: ما نُصِرت على الأقران الّذين قتلتهم إلّا لأنّي ما ابتدأتُ بالمبارزة.

ونهى إذا ـ وقعت الهزيمة ـ عن قَتْل المُدبر، والاجهاز على الجريح، وهو إتمام قَتْله.

قوله عليه السلام: «ولاتصيبوا مُعْورًا» هو مَن يعتصم منك في الحرب بإظهار عوْرته لتكفّ عنه، ويجوز أن يكون المُعْور هاهنا المُريب الّذي يظنّ أنّه من القوم وأنّه حضر للحرب وليس منهم، لأنّه حضر لأمر آخر.

## [نبذ من الأقوال الحكيمة]

وممّا ورد في الشّعر في هذا المعنى قول الشّاعر[1] [الخفيف].

إنّ مِن أعظمِ الكبائرِ عندي ... قتلُ بيضاءَ حُرّةٍ عُطْبُولِ[2]

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحصَناتِ جَرُّ الذّيولِ

وقالت امرأة عبد الله بن خَلَف الخُزاعيّ بالبَصْرة لعليّ عليه السلام بعد ظفره، وقد مرّ ببابها: يا عليّ، يا قاتلَ الأحِبّة، لا مرحبًا بك! أيتَمَ الله منك ولدَك كما أيتمتَ بني

---

١ ـ من أبيات تنسب لعمر بن أبي ربيعة، ملحق ديوانه: ٤٩٠.

٢ ـ العُطْبُول: الشّابّة الفِتيّة الممتلئة ....

عبد الله بن خَلَف! فلم يرُدَّ عليها، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحيةٍ من دارها، ففهمتْ إشارتَه، فسكتَتْ وانصرفتْ. وكانت قد سترتْ عندها عبدَ الله بن الزُّبير ومروانَ بن الحكم، فأشار إلى الموضع الّذي كانا فيه، أي لوشئتُ أخرجتُهما! فلمّا فهمت انصرَفَتْ، وكان عليه السلام حليمًا كريمًا.

وكان عمر بنُ الخطّاب إذا بعث أُمراءَ الجُيوش يقول: بسم الله، وعلى عَوْن الله، وبركته، فامْضوا بتأييد الله ونصره. أُوصيكم بتقوى الله، ولزوم الحقّ والصّبر، فقاتلوا في سبيل الله مَن كَفَر بالله، ولاتَعتَدُوا إنّ الله لا يحبُّ المُعتَدين. ولاتجبنوُا عند اللِّقاء، ولاتُمثِّلوا عند الغارة، ولاتُسرفوا عند الظّهور، ولاتقتُلوا هَرِمًا، ولاامرأةً، ولاوَليدًا، وتَوَقَّوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الزَّحْفَين وعند حمَة النَّهَضات وفي شَنّ الغارات، ولاتغلّوا عند الغنائم، ونَزِّهوا الجهاد عن غرض الدُّنيا، وأبْشِروا بالإرباح في البَيْع الّذي بايعتمْ به، وذلك هو الفَوْز العظيم.

واستشَار قومٌ أكثمَ بنَ صَيْفيّ في حرب قومٍ أرادوهم وسألوه أن يُوصِيَهم، فقال: أقِلّوا الخلاف على أُمرائكم، واثبتوا، فإنّ أحزَم الفريقَين الرّكِين [1]، ورُبّ عَجَلة تَهب رَيْثًا [2].

وكان قيسُ بنُ عامر المنقّر إذا غَزَا شَهِد معه الحربَ ثلاثون من ولده يقول لهم: إيّاكم والبغي، فإنّه ما بغَى قوم قطّ إلّا ذَلّوا؛ قالوا: فكان الرّجل من وَلدِه يظلم فلا ينتصف مخافةَ الذُّلّ.

قال أبو بكر يومَ حُنَيْن: لن نُغلَب اليوم مِن قلّة ـ وكانوا اثني عشرَ ألفًا ـ فهُزِمُوا يومئذٍ هزيمةً قبيحة، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [3].

---

١ ـ الرّكين: العزيز الممتنع.

٢ ـ الرَّيْث: الإبطاء؛ وهو مَثَلٌ.

٣ ـ التّوبة / ٢٥.

وكان يقال: لا ظَفَر مع بَغْي، ولا صحّة مع نَهَم، ولا ثَنَاءَ مع كِبْر، ولا سُؤدد مع شُحّ.
(١٥ : ١٠٥ ـ ١٠٦)

## [نُبذ من الأقوال المتشابهة في الحرب]

**(كتابه عليه السلام: ١٦) وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب:**

**لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ.**

**وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.**

**الشّرح:** ... وأوصى أكثم بن صَيْفيّ قومًا نَهضوا إلى الحرب، فقال: ابرزُوا لِلْحرب، وادّرعوا اللّيل، فإنّه أخْفَى للوَيْل، ولا جماعةَ لمن اخْتَلَف، واعلموا أنّ كثرة الصِّياح من الفَشَل، والمرء يَعْجز لا محالة.

وسمعَتْ عائشة يوم الجَمَل أصحابها يُكبّرون، فقالت: لا تكبّروا هاهنا، فإنّ كثرة التّكبير عند القتال مِن الفَشَل.

وقال بعض السَّلَف: قد جمع الله أدبَ الحَرْب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ...﴾[1] الآيتَين.

وقال عُتْبة بن ربيعة لقريش يوم بَدْر: ألا تَرَونهم، يعني أصحابَ النّبيّ صلى الله عليه وآله جُثِيًّا على الرُّكَب، يتلمّظون تلمُّظ الحيّات!

وأوصى عبدُ الملك بن صالح أميرَ سَرِيّة بَعَثها، فقال: أنت تاجرُ الله لعباده، فكُن كالمضارب الكَيِّس الّذي إن وَجَد رِبْحًا تجر، وإلّا احتفظ برأس المال، ولا تظلب

---

١ ـ الأنفال / ١٥.

الغنيمة حتّى تحوز السّلامة، وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حَذَرًا من احتيال عدوّك عليك.

وفي الحديث المرفوع أنّه ﷺ قال لزيد بن حارثة: لا تُشقِ جَيْشَك، فإنّ الله تعالى يَنصُر القوم بأضعفهم.

وقال ابن عبّاس، وذكر عليًّا عليه السلام: ما رأيت رئيسًا يُوزَن به، لقد رأيته يومَ صفّين وكأنّ عَيْنيه سراجًا سليط[1] وهو يحمِّس أصحابه إلى أن انتهى إليّ وأنا في كنف، فقال: يا معشر المسلمين، استشعِروا الخشية، وتجلبَبُوا السّكينة، وأكملوا اللّامة.

(١٥ : ١١٥ ـ ١١٦)

١ ـ السّليط : زيت به يضاء .

## الفصل الثّامن والسّبعون: [في اللّجاجة]

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَن تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: « إيّاك وأن تجمح بك مطيّة اللّجاج»، هذا استعارة، وفي المَثَل: ألجّ من خنفساء، وألجّ من زُنبور.

**وكان يقال:** اللّجاج من القِحة، والقِحة من قلّة الحياء، وقلّة الحياء من قلّة المروءة.

وفي المَثَل: «لجّ صاحبك فحُجّ». (١٦ : ١٠٦)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ ... .**

**الشّرح:** ... ومنها: نهيه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعذّرت، كان يقال: مَن لاجّ الله فقد جعله خَصمًا، وكان الله خصمَه، فهو مخصوم، قال الغزّيّ [البسيط]:

دَعْها سماويّة تجري على قَدَرٍ لا تُفْسِدَنها برأيٍ منك مَعكوسِ

(١٧ : ١١٦)

**(الحكمة: ١٨١) الأصل: اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ.**

**الشّرح:** هذا مشتقّ من قوله عليه السلام: «لا رأي لمن لايطاع»، وذلك لأنّ عدم الطّاعة هو اللّجاجة، وهو خُلق يتركّب من خُلقَين: أحدهما: الكِبْر، والآخر: الجهل بعواقب الأُمور. وأكثر ما يعتري الوُلاة لما يأخذهم من العزّة بالإثم.

**ومن كلام بعض الحكماء:** إذا اضطررت إلى مُصاحبَة السّلطان، فابدأ بالفَحْص عن معتاد طَبْعه ومألوف خُلقه، ثمّ استحدِث لنَفسك طَبْعًا ففرّغه في قالب إرادته،

وخُلقًا تركّبه مع موضع وِفاقه حتّى تَسلم معه، وإن رأيته يَهْوَى فنًّا من فنون المحبوبات فأظهر هواك لضدّ ذلك الفنّ، ليُبْعِد عنك إرهابه، بل ويَكثر سكونه إليك، وإذا بدا لك منه فِعْلٌ ذَميمٌ، فإيّاك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يَستبذل فيه نُصْحك ويستدعى رأيك، وإنِ استدعى ذاك فَلْيَكن ما تفاوِضه فيه بالرِّفْق والاستعطاف، لا بالخشونة والاستنكاف، فيَحْمِله اللّجاج المركَّب في طبع الوُلاة على ارتكابه، فكلُّ والٍ لجوج، وإن علم ما يتعقّبه لجاجه من الضَّرَر وإن اجتنابه هو الحسن. (١٨ : ٤١٢)

## الفصل التّاسع والسّبعون:
## [فصل فيما جاء في الحَذَر من كيد العدوّ]

(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وَلَاتَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلّٰهِ فِيهِ رِضًى، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَرَاحَةً مِن هُمُومِكَ، وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِن عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَإِن عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً، أَو أَلْبَسْتَهُ مِنكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ.

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِن فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِن تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ. وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِن عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلَا إِدْغَالَ، وَلَا مُدَالَسَةَ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ، وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِن غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَن تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ.

**الشّرح:** ... أمره أن يقبل السِّلم والصّلح إذا دُعِي إليه، لما فيه من دَعَة الجنود، والرّاحة من الهمّ، والأمن للبلاد، ولكن ينبغي أن يحذر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيدِه، فإنّه ربّما قارب بالصّلح ليتغفّل، أي يطلب غفلتك، فخُذْ بالحَزم، واتّهم حُسْنَ ظنّك، لا تثق ولاتسكن إلى حُسنِ ظنّك بالعدوّ، وكن كالطّائر الحذر ... .

قد جاء في الحَذَر من كيد العدوّ، والنّهي عن التّفريط في الرّأي السّكون إلى ظاهر السّلم أشياء كثيرة، وكذا في النّهي عن الغَدْر والنّهي عن طلب تأويلات العُهود

وفَسْخها بغير الحقّ.

فرّط عبدُ الله بن طاهر في أيّام أبيه في أمرٍ أشرف فيه على العطب، ونجا بعد لأيٍ[1]، فكتب إليه أبوه: أتاني يا بُنيّ من خبر تفريطك ما كان أكبر عندي من نَعْيك لو وَرَدَ، لأنّي لم أرجُ قطّ ألّا تموت، وقد كنت أرجو ألّا تفتضح بترك الحَزْم والتيقّظ.

وروَى ابن الكَلْبيّ أنّ قيس بن زُهَير لمـا قَتَل حُذَيفة بن بدر ومَن معه بجَفْر الهباءة، خرج حتّى لحِقَ بالنَّمِر بن قاسط، وقال: لا تنظُرُ في وجهي غَطَفانيّةٌ بعد اليوم، فقال: يا معاشر النَّمِر، أنا قيس بن زُهَير، غريبٌ حَريبٌ طَريدٌ شَريدٌ موتور، فانظروا لي امرأةً قد أدّبها الغِنَى وأذلّها الفقر. فزوّجوه بامرأةٍ منهم، فقال لهم: إنّي لا أُقيم فيكم حتّى أخبرَكم بأخلاقي، أنا فَخور غَيور أنِف، ولست أفخر حتّى أُبتلَى، ولا أُغار حتّى أرَى، ولا آنَف حتّى أُظلَم. فرَضُوا أخلاقه، فأقام فيهم حتّى ولد له، ثمّ أراد أن يتحوّل عنهم، فقال: يا معشر النَّمِر، إنّ لكم حقًّا عليّ في مُصاهَرتي فيكم، ومُقامي بين أظهرُكم، وإنّي مُوصِيكم بخصالٍ آمركم بها، وأنهاكم عن خصالٍ: عليكم بالأناة، فإنّ بها تُدرَك الحاجة، وتُنال الفرصة، وتسويد مَن لا تُعابُون بتسويده، والوفاء بالعهود، فإنّ به يعيش النّاس، وإعطاء ما تريدون إعطاه قبل المسألة، ومنع ما تريدون منَعه قبل الإنعام، وإجارة الجار على الدّهر، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامَى، وخَلْط الضَّيف بالعيال. وأنهاكم عن الغَدْر، فإنّه عارُ الدّهر، وعن الرّهان، فإنّ به ثَكِلْتُ مالكًا أخي، وعن البَغْي، فإنّ به صُرع زُهَير أبي، وعن السَّرَف في الدِّماء، فإنّ قتلي أهل الهباءة أورثَني العار. ولا تُعْطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق، وأنكِحوا الأيامَى الأكفاء، فإن لم تصيبوا بهنّ الأكفاء فخير بيوتهنّ القبور. واعلموا! أنّي أصبحتُ ظالمًا ومظلومًا، ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكًا، وظلمتهم بقتلي مَن لا ذَنب له. ثمّ رحل عنهم إلى غمار[2] فتنصّر بها، وعَفّ عن المآكل حتّى أكل الحنظل إلى أن مات. (١٧: ١٠٦ـ١١٠)

---

١ ـ بعد لأي: بعد الجهد.

٢ ـ غمار: اسم وادٍ بنجد.

## الفصل الثّمانون: [في التّعازي]

**(الحكمة: ٢٩٧) الأصل: وقال عليه السلام للأَشْعَث بن قيس وقَدْ عَزَّاه عَنِ ابْنٍ لَهُ:**

**يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِكَ، فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنكَ الرَّحِمُ، وَإِن تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِن كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنتَ مَأْزُورٌ. يَا أَشْعَثُ، ابْنُكَ سَرَّكَ، وَهُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ، وَحَزَنَكَ، وَهُوَ ثَوَابٌ وَرَحْمَةٌ.**

قد رُوي هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوه مختلفة وروايات متنوّعة، هذا الوجه أحدها، وأخذ أبو العتاهيّة ألفاظه عليه السلام فقال لمن يعزّيه عن وَلَدٍ [المتقارب]:

وَلابدّ من جَرَيان القَضا ... إمّا مُثابًا وإمّا أثيما

وَمِن كلامهم في التّعازي: إذا استأثر الله بشيء فالْه عنه. وتُنسَب هذه الكلمة إلى عمر ابن عبد العزيز.

وذكر أبو العبّاس في «الكامل»: أنّ عُقْبة بن عِياض بن تميم أحد بني عامر بن لؤيّ استُشْهِدَ، فعَزَّى أباه مُعَزٍّ، فقال: احْتَسِبْه ولا تَجْزَع عليه، فقد مات شهيدًا، فقال عِياض: أتراني كنتُ أُسَرُّ به وهو من زينة الحياة الدّنيا؟! وأُساء به وهو من الباقيات الصّالحات؟ وهذا الكلام مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن التَّعازِي الجيّدة قولُ القائل [المتقارب]:

ومَن لم يَزَلْ غَرَضًا للمَنُو ... نِ يَتْرُكه كلّ يومٍ عَميدَا

فإن هُنّ أخطأنَه مرّةً ... فيُوشِك مُخْطِئها أن يَعودَا

فبَيْنَا يَحيد وأخْطَأنَهُ ... قصدنَ فأعجَلْنَهُ أن يَحيدَا

وقال آخر [الطّويل]:

هو الدّهرُ قد جرّبتُهُ وعرفتُهُ ... فصبرًا على مكروهِهِ وتجَلّدَا

وما النّاسُ إلّا سابقٌ ثمّ لاحِقٌ ... وفائتُ موتٍ سوف يَلْحَقُهُ غَدَا

وقال آخر [الخفيف]:

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ اللّيالي فالّذي أخّرت سَريعُ اللّحاقِ
غَدَراتُ الأيّامِ مُنتَزِعاتٌ عُنَقَيْنا مِن أُنسِ هذا العِناقِ

ابن نُبَاتَة السَّعديّ [الوافر]:

نُعلّلُ بالدّواءِ إذا مَرِضْنا وهل يَشْفي من الموتِ الدَّواءُ!
ونختارُ الطّبيبَ وهل طبيبٌ يُؤَخِّرما يقدّمهُ القَضاءُ!
وما أنفاسُنا إلّا حسابٌ وما حَرَكَاتنا إلّا فَناءُ

البُحتُريّ [الكامل]:

إنّ الرَّزيّةَ في الفَقيدِ فإن هَفَا جَزَعٌ بلُبّكَ فالرَّزيّةُ فِيكَا
ومتى وجدتَ النّاسَ إلّا تاركًا لحَميمه في التُّرْبِ أو مَتْروكَا
لو ينجلي لك ذُخرها من نكبةٍ جُلَلٍ لَأَضْحَكَكَ الّذي يُبْكيكَا

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه: كيف شُكْرُك لله تعالى على ما أخَذَ من وَديعته، وعَوّض من مَثُوبته!

وعَزّى عمر بن الخطّاب أبا بكرٍ عن طفلٍ، فقال: عَوّضَك الله منه ما عَوّضه منك، فإنّ الطّفل يعوّض من أبَوَيْه الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «مَن عَزّى مُصابًا كان له مثل أجره».

وقال عليه السلام: «مِن كُنوز السِّرّ كتمان المصائب، وكِتْمانُ الأمراض وكِتمانُ الصَّدَقة».

وقال شاعرٌ في رِثاء وَلَدِه [الطّويل]:

وسمّيتُهُ يحيى ليَحْيَا ولم يكنْ إلى رَدِّ أمرِاللهِ فيهِ سَبيلُ
تَخَيَّرتُ فيهِ الفألَ حِينَ رُزِقْتُهُ ولَمْ أدْرِ أنّ الفألَ فيهِ يَفيلُ

وقال آخر [الطّويل]:

وهَوَّنَ وَجْدي بعد فَقْدِكَ أنّني إذا شئتُ لاقَيْتُ أمرًا ماتَ صاحِبُهُ

آخر [الطّويل]:

وقد كُنتُ أرجو لو تملّيت عِيشةً عليك اللّيالي مَرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ في قَبْضة الرَّدَى فقُلْ للّيالي فلتُصِبْ مَن بَدَا لها

أخذه المتنبيّ فقال [البسيط]:

قد كُنتُ أشْفِق من دَمْعي على بَصَري فاليوم كلّ عزيزٍ بعدكم هَانَا

ومثله لغيره [الوافر]:

فِراقُك كُنت أخشى فافْترقْنا فمن فارقتُ بَعْدَك لا أبالي

(١٩ : ١٩٢ ـ ١٩٤)

**(الحكمة: ٣٦٣) الأصل: وَعَزَّى قَوْمًا عَن مَيِّتٍ مَاتَ لَهُمْ، فَقَالَ عليه السلام:**
**إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَأَ، وَلَا إِلَيْكُمُ انتَهَى، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ؟**
**فقالوا: نَعَمْ. قال:**
**فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ، فَإِن قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ.**

**الشّرح:** قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهديّ ببعض هذا في شعره الّذي رثَى به وَلَده، فقال [الطّويل]:

يَؤُوب إلى أوطانهِ كلّ غائبٍ وأحمَدُ في الغُيّابِ ليسَ يَؤُوبُ
تَبدَّل دارًا غيرداري وجيرةً سوايَ وأحداثُ الزّمان تَنُوبُ
أقام بها مُسْتوطِنًا غيرأنّهُ على طولِ أيّامِ المُقامِ غَريبُ
وإنّي وإن قُدِّمْتَ قبلي لَعالِمٌ بأنّي وإن أبطأتُ عنك قَريبُ
وإنّ صَباحًا نَلتقِي في مَسائهِ صباحٌ إلى قلبي الغَداةَ حَبيبُ

(١٩ : ٢٧٤)

(الحكمة: ٤١٨) الأصل: مَن صَبَرَ صَبْرَ الْأَحْرَارِ، وَإِلَّا سَلَا سُلُوَّ الْأَغْمَارِ. وفي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ عليه السلام قَالَ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ، مُعَزِّيًا عَنِ ابْنٍ لَهُ: إِن صَبَرْتَ صَبْرَ الْأَكَارِمِ، وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ.

الشّرح: أخذ هذا المعنى أبو تمام، بل حكاه، فقال [الطّويل]:

وقال عليٌّ في التّعازي لأشعثٍ ... وخاف عليه بعضَ تلك المآثمِ

أتَصْبرُ للبَلْوى عَزاءً وحِسْبَةً ... فتؤجَرَ أم تَسْلو سُلُوَّ البَهائمِ

(٢٠ : ٥٠)

## الفصل الحادي والثّمانون: [في الشّكوى]

**(الحكمة: ٢) الأصل: أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَن كَشَفَ عَن ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَن أَمَرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.**

**الشّرح:** ... الفصل الثّاني في الشّكوى: قال عليه السلام: «مَن كَشَف للنّاس ضُرّه» أي شكى إليهم بُؤسه وفقره، «فقد رَضِي بالذُّلّ».

كان يقال: لا تَشْكَوَنّ إلى أحدٍ، فإنّه إن كان عدوًّا سَرَّه، وإن كان صديقًا سَاءَهُ، وليست مسرّة العدوّ ولامَساءة الصّديق بمحمودة.

سمع الأحْنَف رجلًا يقول: لم أنمِ اللّيلة مِن وَجَع ضِرْسي، فجعل يكثر، فقال: يا هذا لِمَ تكثر؟ فوالله لقد ذهبتْ عَيْني منذ ثلاثين سنة، فما شكوت ذلك إلى أحدٍ، ولا أعلمتُ بها أحدًا. (١٨ : ٨٥)

**(الحكمة: ٢٢٤) مَن أَصْبَحَ عَلَى الدُّنيَا حَزِينًا، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ اللهِ سَاخِطًا، وَمَن أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ، فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ ... .**

**الشّرح:** إذا كان الرّزق بقضاء الله وقَدَره، فمَن حَزِن لفَوات شيء منه، فقد سَخِط قضاءَ الله وذلك معصية، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب، وكذلك مَن شكا مصيبةً حلّت به، فإنّما يشكو فاعِلَها لا هي، لأنّها لم تنزل به من تِلْقاء نفسها، وفاعِلُها هو الله، ومَنِ اشتكى الله فقد عصاه. (١٩ : ٥٢)

**(الحكمة: ٤٣٦) الأصل: مَن شَكَا الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا شَكَاهَا إِلَى اللهِ، وَمَن شَكَاهَا إِلَى كَافِرٍ فَكَأَنَّمَا شَكَا اللهَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في شَكْوى الحال وكراهيّتها، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّه لا يكرَه شَكْوى الحال إلى المؤمن، ويَكْرَهها إلى غير المؤمن، وهذا مذهبٌ دينيٌّ غير المذهب العُرْفيّ.

وأكثر مذاهبه ومقاصده عليه السلام في كلامه يَنحو فيها نحو الدّين والوَرَع والإسلام،

وكأنّه يجعل الشَّكْوى إلى المؤمن كالشَّكْوى إلى الخالق سبحانه، لأنّه لايشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شَكْواه من التّسخّط والتّأفّف، ولايشكو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شَكْواه بالاستزادة والتّضجُّر، فافترقت الحال في الموضعَين.

فأمّا المذهب المشهور في العُرْف والعادة فاستَهْجانُ الشَّكْوى على الإطلاق، لأنّها دليلٌ على ضَعْف النّفس وخِذْلانها، وقلّة الصّبر على حوادث الدَّهْر، وذلك عندَهم غير محمود. (٢٠ : ٧٢)

## الفصل الثّاني والثّمانون: [أقوال وحكايات حول الحَمْقَ ]

**(الحكمة: ٣٧) قال عليه السلام لابنه الحَسَنِ عليه السلام: يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعًا وَأَرْبَعًا؛ لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ.**

**يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَن يَنفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.**

**الشّرح:** هذا الفصل يتضمّن ذِكْر العقل والحُمْق، والعُجْب وحُسْن الخُلق والبُخْل والفُجور، والكَذِب، وقد تقدّم كلامُنا في هذه الخِصال أجمَع، وقد أخذتُ قوله عليه السلام: «إيّاك ومصادقة الأحمق، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك»، فقلتُ في أبياتٍ لي [المتقارب]:

حَياتَكَ لا تصحبنّ الجهول ... فلا خَيرَ في صُحبَةِ الأخْرَقِ
يَظُنّ أخو الجهلِ أنّ الضّلا ... لَ عينُ الرّشادِ فلا يتّقِي
ويَكْسَب صاحبُهُ حُمْقَهُ ... فيَسْرِقُ مِنهُ ولا يَسْرِقِ
وأقْسِمُ أنّ العدوَّ اللّبيـ ... ـبَ خيرٌ مِنَ المُشْفِقِ الأحمقِ

(١٨: ١٥٧)

**(الحكمة :٣٩) الأصل: لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ.**

قال الرّضيّ: وهذا من المعاني العجيبة الشّريفة، والمراد به أنّ العاقل لا يُطْلِقُ لسانَهُ إلّا بعد مشاورة الرَّويّة ومؤامرة الفكرة، والأحمق تَسْبِقُ حَذَفاتُ لسانه وفَلَتاتُ كلامه، مُراجَعَةَ فِكْرِه ومماخَضَةَ رأيه، فكأنّ لسان العاقل تابعٌ لِقَلْبِه، وكأنّ قَلْبَ الأحمق تابعٌ لِلسانِهِ.

**الشّرح:** قد تقدّم القول في العَقْل والحُمْق، ونذكرهاهنا زيادات أُخرى.

قالوا: كلّ شيء يَعِزُّإذا قَلّ، والعَقْل كلّما كان أكثر كان أعزّوأغْلَى.

وكان عبد الملك يقول: أنا للعاقل المُدبِرأرْجَى منّي للأحمق المُقْبِل.

قيل لبعضهم: ما جماعُ العقل؟ فقال: ما رأيتُه مجتمِعًا في أحدٍ فأصِفَه، وما لايوجد كاملًا فلا حدّ له.

وقال الزُّهْريّ: إذا أنكرتَ عَقْلكَ فاقْدَحه بعاقل.

وقيل: عَظُمت المؤونة في عاقلٍ مُتجاهلٍ وجاهل مُتعاقِل.

وقيل: الأحمق يتحفّظ من كلّ شيء إلّا من نفسه.

وقيل لبعضهم: العقل أفضل أم الجَدّ؟ فقال: العقل مِن الجَدّ.

وخَطَب رجلان إلى ديماووس الحكيم ابنته، وكان أحدهما فقيرًا والآخَر غنيًّا، فزوّجها من الفقير، فسأله الإسكندر عن ذلك، فقال: لأنّ الغَنيّ كان أحمق، فكنتُ أخاف عليه الفَقْر، والفقيركان عاقلًا، فرَجَوْتُ له الغِنَى.

وقال أرسطو: العاقل يوافق العاقل، والأحمق لا يوافق العاقل، ولاأحمق كالعُود المستقيم الّذي ينطبق على المستقيم، فأمّا المعوجّ؛ فإنّه لا ينطبق على المعوجّ ولاعلى المستقيم.

وقال بعضهم:لأن أُزاول أحمقَ أحبّ إليّ مِن أن أُزاوِل نصف أحمق، أعني الجاهل المتعاقل.

**واعلم!** أنّ أخبار الحَمْقَى ونوادرهم كثيرة، إلّا أنّا نذكر منها هاهنا ما يليق بكتابنا، فإنّه كتابٌ نزّهناه عن الخلاعة والفُحْش إجلالًا لمنصب أمير المؤمنين.

قال هِشام بن عبد الملك يومًا لأصحابه: إنّ حمْقَ الرّجل يُعْرَف بخصال أربع: طُولِ لحْيته، وبَشاعةِ كُنيته، ونَقْش خاتمه، وإفراط نهمته. فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُثْنون، فقال هشام: أمّا هذا فقد جاء بواحدةٍ، فانظروا أين هو مِن الباقي، قالوا له: ما كُنية الشّيخ؟ قال: أبو الياقوت، فسألوه عن نقش خاتمه، فإذا هو: ﴿وَجَاؤُعَلَى

﴿قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[١]، فقيل له: أيّ الطعام تشتهي، قال: الدُّبّاء[٢] بالزّيت، فقال هشام: إنّ صاحبكم قد كَمَل.

وسمع عمربن عبد العزيز رجلًا ينادي آخر: يا أبا العُمَرَين، فقال: لوكان له عَقْلٌ لكَفَاه أحدُهما.

وأَرسَل ابنٌ لعجل بن لجيم[٣] فرسًا له في حَلْبةٍ، فجاء سابقًا، فقيل له: سمِّه باسمٍ يُعرَف به، فقام ففقأ عَيْنَه وقال: قد سمّيتُه الأعور، فقال شاعر يَهْجُوه [الطّويل]:

رمتْني بنو عِجْلٍ بداءٍ وأيّ عباد الله أنوَكُ مِن عِجْلِ

ألَيس أبُوهُمْ عارَ عَينَ فأضْحَتْ به الأمْثالُ تُضْرَبُ

وقال أبوكَعْب القاصّ في قصصه: إنّ النّبيّ ﷺ قال في كَبِد حمزةَ ما علمتم، فادعوا الله أن يُطْعِمنا من كَبِد حمزة!

وقال مرّةً في قصصه: اسم الذّئب الّذي أكَلَ يوسفَ كذا وكذا، فقيل له: إنّ يوسف لم يأكلْه الذِّئب؟ فقال: فهذا اسم الذّئب الّذي لم يأكل يوسفَ.

ودخل كَعْبُ البَقَر الهاشميّ على محمّد بن عبد الله بن طاهر يعزّيه في أخيه، فقال له: أعْظَمَ الله مُصيبةَ الأمير! فقال الأمير: أمّا فيك فقد فَعَل، والله لقد هَمَمْتُ أن أحْلِقَ لحْيَتك. فقال: إنّما هي لحية الله ولحيةُ الأمير فليَفْعل ما أحبّ.

وكان عامربن كُرَيز أبو عبد الله بن عامر، مِن حَمْقَى قُرَيش، نظر إلى عبد الله وهو يخطُب والنّاس يستحسنون كلامه، فقال لإنسان إلى جانبه: أنا أخرجتُه من هذا، وأشار إلى متاعه.

ومِن حَمْقَى قُرَيش العاص بن هشام المَخْزوميّ، وكان أبو لهب قامَرَه فقَمَره مالَه ثمّ دارَه، ثمّ قليلَه وكثيرَه وأهلَه ونفسَه، فاتّخذه عبدًا، وأسلَمه قَيْنًا، فلمّا كان يوم بَدْر

---

١ ـ يوسف / ١٨ .

٢ ـ الدُّبّاء : القرع .

٣ ـ ورد الاسم محرّفًا في أ ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

بعث به بَدِيلًا عن نفسه، فقُتِل ببَدْر، قَتَلَه عمر بن الخطّاب، وكان ابن عمّ أُمّه.

وَمِنَ الحَمْقَى الأحوص بن جعفر بن عمرو بن حُرَيث، قال له يومًا مجالسوه: ما بالُ وَجْهِك أصفر! أتشتكي شيئًا؟ فرجع إلى أهله، وقال: يا بني الخَيْبة، أنا شاكٍ ولا تُعلمونني! اطْرَحوا على الثِّياب وابْعَثوا إلَيَّ الطّبيب.

ومِن حَمْقَى بني عجل حَسّان بن الغَضْبان من أهل الكوفة، وُرِث نصفَ دارِ أبيه، فقال: أُريد أن أبيع حِصّتي من الدّار وأشتريَ بالثّمن النّصف الباقي، فتصير الدّار كلّها لي.

ومِن حَمْقَى قُرَيش بكّار بن عبد الملك بن مروان، وكان أبوه ينهاه أن يجالِسَ خالدَ بنَ يزيد بن معاوية لما يَعْرِف مِن حُمْقه، فجلس يومًا إلى خالد، فقال خالد يعبث به: هذا والله المردّد في بني عبد مَناف، فقال بكّار: أجَلْ، أنا والله كما قال الأوّل [البسيط]:

*مُرَدَّدٌ في بني اللَّخْناءِ ترديدَا*

وطار لبكّار هذا بازيّ، فقال لصاحب الشّرطة: أغْلِق أبواب دِمَشْق لئلّا يخرج البازيّ.

ومِن حمْقَى قُرَيش معاوية بن مروان بن الحَكَم، بينا هو واقِفٌ بباب دِمَشْق ينتظر أخاه عبد الملك على باب طَحّان، وحِمارُ الطّحّان يَدُور بالرَّحَا وفي عُنُقه جُلْجُل، فقال للطّحّان: لمَ جعلتَ في عُنُق هذا الحمار جُلْجُلًا؟ فقال: ربّما أدركتْني نَعْسةٌ أو سآمةٌ، فإذا لم أسمع صوت الجُلْجُل علمتُ أنّه قد نام، فُصِحْتُ به. فقال: أرأيتَه إن قام وحَرّك رأسه، ما عِلْمُك به أنّه قائم؟ فقال: ومَن لحِماري بمثل عَقْل الأمير!

وقال معاوية لحَمِيه وقد دَخَل بابنته تلك اللّيلة فافتضّها: لقد ملأتنا ابنتُك البارحة دمًا، فقال: إنّها مِن نِسْوةٍ يخبأن ذلك لأزواجهنّ.

ومِن حمْقَى قُرَيش سُليمان بن يزيد بن عبد الملك، قال يومًا: لعن الله الوليدَ أخي! فلقد كان فاجرًا، أرادني على الفاحشة. فقال له قائل مِن أهْلِه: اسكُت ويحَك، فوالله إن كان هَمَّ لقد فعل!

وخطب سعيدُ بن العاص عائشةَ ابنَةَ عُثمان، فقالت: هو أحمق لا أتزوّجه أبدًا له بِرْذَوْنان لونُهما واحدٌ عند النّاس، ويحْمِل مؤنةَ اثنين.

وممّن كان يحمَّق من قُرَيش عُتْبة بن أبي سُفْيان بن حَرْب وعبد الله بن معاوية بن أبي سُفْيان وعبد الله بن قيس بن مخْرَمة بن المطّلب وسهلُ بن عمرو أخو سُهَيل ابن عمرو بن العاص.

وكان عبد الملك بن مروان يقول: أحمقُ بيتٍ في قُرَيش آل قيس ابن مخْرَمة.

ومن القبائل المشهورة بالحُمْق الأزْد، كتب مَسْلَمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلّب لـمّا خرج عليهم: إنّك لستَ بصاحب هذا الأمر، إنّ صاحبه مَغْمور مَوْتور، وأنت مشهور غير مَوْتور. فقام إليه رجلٌ من الأزد، فقال: قدِّم ابنك مخْلَدًا حتّى يُقْتل فتصير مَوْتورًا.

وقام رجلٌ من الأزْد إلى عُبَيد الله بن زياد، فقال: أصلح الله الأمير! إنّ امرأتي هلكتْ، وقد أردتُ أن أتزوّج أُمَّها، وهذا عَرِيفي فأعنّي في الصّداقِ، فقال: في كم أنت من العطاء؟ فقال: في سبعمائة، فقال: حُطّوا من عطائه أربعمائة يكفيك ثلاثمائة.

ومَدَح رجلٌ منهم المهلَّب، فقال [الرّجز]:

نِعْـم أميـرُ الرّفقـةِ أبْـيَضُ وَضّـاح كتَـيْسِ

فقال المهلّب: حَسْبُك يرحمك الله!

وكان عبد الملك بن هلالٍ عنده زِنبيل[1] مملوءٌ حصًا للتّسبيح، فكان يسبّح بواحدة واحدة، فإذا مَلّ طَرَح اثنتين اثنتين، ثمّ ثلاثًا ثلاثًا، فإذا ازداد مَلالُه قَبَض قَبْضةً وقال: سبحان الله عَدَدك! فإذا ضَجِر أخذ بعُرَا الزّنبيل وقلّبه، وقال سبحان الله بعدَدِ هذا.

ودخل قومٌ منزل الخُرَيميّ لبعض الأمر، فجاء وقت صلاة الظّهر، فسألوه عن القبلة، فقال: إنّما تركتُها منذ شهر.

---

١ ـ الزّنبيل، بالكسر وقد يفتح: القفّة أو الجراب أو الوعاء.

وحَكَى بعضُهم، قال: رأيتُ أعرابيًّا يبكي، فسألتُه عن سبب بكائه، فقال: بلغني أنّ جالوت قُتِل مظلومًا.

وَصَف بعضُهم أحمقَ، فقال: يَسْمَع غيرما يقال، ويحْفَظ غيرما يَسْمَع، ويَكْتُب غيرما يحفظ، ويحدِّث بغيرما يَكْتُب.

قال المأمون لثُمامة: ما جَهْد البَلاء يا أبا مَعْن؟ قال: عالمٌ يجري عليه حُكْم جاهل. قال: مِن أين قلتَ هذا؟ قال: حَبَسَني الرَّشيدُ عند مَسْرور الكبير، فضيّق علَيّ أنفاسي، فسمعتُه يومًا يقرأ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[1] بفتح الذّال، فقلت له: لا تَقُلْ أيها الأمير هكذا، قُلْ: ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وكسرتُ له الذّال، لأنّ المكذّبين هم الأنبياء، فقال: قد كان يقال لي عنك: إنّك قَدَريّ، فلا نجوتُ إن نجوتَ اللّيلة منّي! فعاينتُ منه تلك اللّيلة الموت من شدّة ما عذّبني.

قال أعرابيّ لابنه: يا بنيّ، كُن سَبُعًا خالصًا أو ذِئْبًا حائِسًا[2]، أو كَلْبًا حارِسًا، ولاتكن أحمق ناقصًا.

وكان يقال: لولا ظُلْمة الخطأ ما أشْرَق نورُ الصّواب.

وقال أبو سعيد السِّيرافيّ: رأيتُ متكلِّمًا ببغداد بلغ به نقصُه في العربيّة أنّه قال في مجلس مشهور: إنّ العبد «مضطَرّ» بفتح الطّاء، والله «مضطِرّ» بكسرها، وزعم أنّ مَن قال: «الله مضطَرّ عبده إلى كذا»، بالفتح كافر، فانظُر أين بلغ به جَهْلُه، وإلى أيّ رذيلة أدّاه نقصُه!

وصف بعضُهم إنسانًا أحمقَ، فقال: والله لَلحِكْمة أزلّ عن قلبه من المداد عن الأديم الدَّهين.

مَرّ عمر بن الخطّاب على رُماةِ غَرَض، فسمع بعضَهم يقول: أخْطَيْتَ وأسَبْتَ، فقال له: مَهْ، فإنّ سُوء اللَّحْن شرّ مِن سوء الرّماية.

---

١ ـ المرسلات / ١٥ و١٩.

٢ ـ يقال: يحوس الذّئب الغنم؛ أي يتخلّلها و يفرّقها.

تضجّر عمرُ بنُ عبد العزيز من كلام رجلٍ بين يديه، فقال له صاحب شرطتِه: قُمْ فقد أُوذِيتَ أمير المؤمنين! فقال عمر: والله إنّك لأشدّ أذًى لي بكلامِك هذا منه.

ومِن حمْقَى العرب وجُهَلائهم كِلابُ بن صَعْصَعة، خرج إخوته يشترون خَيْلًا، فخرج معهم، فجاء بعِجْلٍ يقوده، فقيل له: ما هذا؟ فقال: فرسٌ اشتريتُه، قالوا: يا مائق[1]! هذه بقرة، أما ترى قَرْنَيْها! فرجع إلى منزله فقطع قَرْنيها، ثمّ قادها، فقال لهم: قد أعدْتُها فرسًا كما تريدون؛ فأولاده يُدْعَوْن بني فارس البَقَرة.

وكان شَذرة بن الزِّبْرِقان بن بَدْر مِنَ الحَمْقَى، جاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع، فأخذ بعِضادَتَي[2] الباب، ثمّ رفع صوته: سلامٌ عليكم، أيَلِج شَذرة ؟ فقيل له: هذا يومٌ لا يستأذن فيه. فقال: أو يَلِج مِثْلي على قَوْم ولم يعرف له مكانُه.

واستعمل معاوية عامِلًا من كَلْب، فخَطَب يومًا، فذَكَر المجوس، فقال: لَعَنهم الله! يَنكِحون أُمّهاتهم، والله لو أُعطيتُ عشرةَ آلاف دِرْهمٍ ما نكحتُ أُمّي، فبلغ ذلك معاوية، فقال: قبّحه الله! أتَرَوْنه لو زادوه فَعَل! وعَزَله.

وسَرَدَ بعيرٌ لهَبَنَّقة ـ واسمه يزيد بن شَرْوان ـ فجعل ينادي: لمن أتى به بَعيران. فقيل له: كيف تَبْذُل وَيْلك بعيرَيْن في بعير! فقال لحَلاوة الوجْدان.

وسُرِقَ مِن أعرابيّ حمارٌ، فقيل له: أسُرِق حمارُك؟ قال: نعم، وأحمد الله. فقيل له: على ماذا تحْمَده؟ قال: كيف! لم أكن عليه.

وخَطَب وَكيعُ بن أبي سود[3] بخراسان، فقال: إنّ الله خَلَق السّماوات والأرض في ستّة أشْهُر. فقيل له: إنّها ستّة أيّام. فقال: والله لقد قُلْتُها وأنا أستقلّها!

وأُجْرِيَتْ خَيْلٌ فطَلَع فيها فَرَس سابقٌ، فجعل رجلٌ من النّظّارة يكبرّ ويَثِب من الفَرَح، فقال له رجل إلى جانبه: يا فتى، أهذا الفَرَس السّابق لك؟ قال: لا

---

١ ـ المائق : الأحمق .

٢ ـ عضادتا الباب : خشبتاه من جانبَيه .

٣ ـ ب : «أسود» تصحيف ، صوابه من د .

ولكنّ اللّجامَ لي.

وقيل لأبي السّفّاح الأعرابيّ عند موته: أوْصِ. فقال: أنا الكرام يوم طِخْفة[1]. قالوا: قُلْ خيرًا يا أبا السّفّاح، قال: إن أحبّت امرأتي فأعطُوها بَعيرًا. قالوا: قُلْ خيرًا. قال: إذا مات غلامي فهو حُرّ.

وقيل لرَجُلٍ عند موته: قُلْ لا إله إلّا الله. فأعرض، فأعادوا عليه مرارًا، فقال لهم: أخبروني عن أبي طالب، قالها عند موته؟ قالوا: وما أنت وأبو طالب! فقال: أرغَب بنفسي عن ذلك الشّريف.

وقيل لآخَرٍ عند موته: ألَا تُوصِي؟ فقال: أنا مغفور لي. قالوا: قُلْ إن شاء الله. قال: قد شاء الله ذلك. قالوا: يا هذا لا تَدَع الوصيّة. فقال لابنيْ أخيه: يا بنيْ حريث، ارْفعَا وسَادِي، واحتَفِظَا بالحلّة الجِياد، فإنّما حولكما الأعادي.

وقيل لمعلّم ابن معلّم: ما لك أحمق؟ فقال: لو لم أكن أحمق لكُنتُ وَلَدَ زِنًا.

(١٨ : ١٥٩ ـ ١٦٧)

**(الحكمة: ٢٩٩) الأصل: لَا تَصْحَبِ الْمَائِقَ، فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ وَيَوَدُّ أَن تَكُونَ مِثْلَهُ.**

**الشّرح:** المائق: الشّديد الحُمْق. والمُوق: شدّة الحُمْق. وإنّما يزيّن لك فِعْله، لأنّه يعتقد فِعْله صوابًا بحُمْقه فيزيّنه لك كما يزيّن العاقل لصاحبه فِعْله، لاعْتقاد كونه صوابًا، ولكنّ هذا صوابٌ في نفس الأمر، وذلك صوابٌ في اعتقاد المائق، لا في نفس الأمر. وأمّا كونه يودّ أن تكون مثله فليس معناه أنّه يَوَدّ أن تكون أحمق مثله، وكيف وهو لا يَعْلَم من نفسه أنّه أحمق، ولو عَلِم أنّه أحمق لما كان أحمق، وإنّما معناه أنّه لحُبّه لك، وصُحْبته إيّاك، يَوَدّ أن تكون مِثله، لأنّ كلّ أحدٍ يَوَدّ أن يكون صديقه مثل نفسه في أخلاقه وأفعاله، إذ كلّ أحدٍ يعتقد صواب أفعاله، وطهارة أخلاقه،

---

١ ـ طخفة : موضع في طريق البصرة إلى مكّة ؛ و يوم طخفة من أيّامهم لبني يربوع على المنذر بن ماء السّما .

ولا يشعر بعيب نفسه، لأنّه يَهْوَى نفسه، فعَيْبُ نفسه مَطْويٌّ مستورٌ عن نفسه، كما تَخْفَى عن العاشق عُيوبُ المعشوق. (١٩ : ١٩٨)

**(الحكمة: ٣٦٩) الأصل: مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ، وَالْأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في هذين المعنيَين.

ومن كلام ابن المعتزّ: إهمال الفُرصة حتّى تَفوتَ عَجْزٌ، والعَجَلة قبل التّمكّن خُرْقٌ.

وقد جعل أمير المؤمنين عليه السلام كِلْتَا الحالتَين خُرْقًا، وهو صحيح، لأنّ الخُرْق الحُمْق وقلّة العقل، وكِلْتَا الحالتين دليلٌ على الحُمْق والنّقص. (١٩ : ٢٨١)

## الفصل الثّالث والثّمانون:
## [في الظّلم وتحريم معاونة الظَّلَمة]

**(الخطبة: ١٧٧) أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[1]؛ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِندَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهِمْ بَعْضًا. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحًا بِالْمُدَى وَلَاضَرْبًا بِالسِّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ.**

**الشّرح:** قسّم عليه السلام الظّلم ثلاثة أقسام:

**أحدها:** ظلم لا يُغفَر، وهو الشّرك بالله، أي أن يموت الإنسان مُصِرًّا على الشّرك، ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر، وإن لم يذكرها، لأنّ حُكْمها حُكْم الشّرك عندهم.

**وثانيها:** الهَنَات المغفورة، وهي صغائر الذّنوب، هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام.

**وثالثها:** ما يتعلّق بحقوق البشر بعضهم على بعضٍ، فإنّ ذلك لا يتركه الله هملًا، بل لا بدّ من عقاب فاعله، وإنّما أفرد هذا القسم مع دخوله في القسم الأوّل لتميُّزه بكونه متعلّقًا بحقوق بني آدم بعضهم على بعضٍ، وليس الأوّل كذلك ... .

ثمّ ذكر عليه السلام أنّ القصاص في الآخرة شديدٌ، ليس كما يعهده النّاس من عقاب الدّنيا الّذي هو ضرب السّوط، وغايته أن يذوق الإنسان طعم الحديد، وهو معنى قوله: «جَرْحًا بِالمُدَى» جمع مُدْية، وهي السّكّين، بل هو شيء آخر عظيم لا يعبّر النّطق عن كُنهه وشدّة نكاله وألمه.

---

١ ـ النّساء/ ٤٨ و١١٦.

## [فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنّم]

قال الأوزاعيّ في مواعظه للمنصور: «روِي لي عن رسول الله ﷺ: لو أنّ ثوبًا من ثياب أهل النّار عُلّق بين السّماء والأرض لأحرق أهل الأرض قاطبة، فكيف بمن يتقمّصه! ولو أنّ ذَنوبًا من حميم جهنّم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجَنّه حتّى لا يستطيع مخلوق شربه، فكيف بمن يتجرّعه! ولو أنّ حلقةً من سلاسل النّار وضِعَتْ على جبلٍ لذاب كما يذوب الرّصاص، فكيف بمن يسلك فيها ويُرَدّ فضلها على عاتقه!».

وروى أبو هريرة عن النّبيّ ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وأُخرج إليهم رجلٌ من النّار فتنفّس وأصابهم نفسه لأحرق المسجد ومَن فيه».

ورُوي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل: ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكًا! قال: إنّ ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النّار ورآها.

وعنه ﷺ: «لما أُسرِي بي سمعت هدّة[1]، فسألت جبريل عنها، فقال: حَجَر أرسله الله من شَفير جهنّم، فهو يهوي منذ سبعين خريفًا حتّى بلغ الآن فيه».

ورُوي عن النّبيّ ﷺ في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[2]. قال: تتقلّص شفتُه العليا حتّى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السّفلى حتّى تضرب سرّته».

وروى عُبيد بن عُمَير اللّيثيّ عنه عليه السلام: «لتزفَرَنّ جهنّم زفرةً لا يبقى مَلَك ولا نبيّ إلّا خرّ مرتعدة فرائصه، حتّى إنّ إبراهيم الخليل، ليبحث على ركبتَيه، فيقول: يا ربّ، إنّي لا أسالك إلّا نفسي».

أبو سعيد الخُدريّ مرفوعًا: «لو ضُرِبتْ جبال الدّنيا بمقمع[3] من تلك المقامع الحديد

---

١ ـ الهدّة: صوت وقع الحائط أو الصّخر أو نحوهما.

٢ ـ المؤمنون / ١٠٤.

٣ ـ المقمع والمقمعة: العمود من الحديد، أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذلّ ويهان.

لصارت غبارًا».

الحسن البصريّ: قال: الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النّار، لأنّهم أعجزوا الرّبّ، ولكن إذا أصابهم اللّهب أرسبتهم في النّار. ثمّ خرّ الحسن صَعِقًا، وقال ودموعه تتحادر: يا بن آدم، نفسَك نفسَك! فإنّما هي نفس واحدة، إن نجتْ نجوتَ، وإن هلكتْ لم ينفعك مَن نجا.

طاوُس: أيّها النّاس، إنّ النّار لما خُلِقَتْ طارت أفئدة الملائكة، فلمّا خُلِقْتم سكنت.

مطرّف بن الشِّخِّير: إنّكم لتذكرون الجنّة، وإنّ ذكر النّار قد حال بيني وبين أن أسال الله الجنّة.

منصور بن عمّار: يا مَن البعوضة تقلقه، والبقّة تسهره، أمِثْلك يقوى على وَهَج السّعير أو تطيق صفحة خدّه لَفْحَ سَمومها، ورقة أحشائه خشونة ضَريعها[1]، ورطوبة كبده تجرُّع غَسّاقها[2]!

قيل لعطاء السُّلميّ: أيسرّك أن يقال لك: قَعْ في جهنّم، فتحرق فتذهب فلا تبعث أبدًا لا إليها ولا إلى غيرها؟ فقال: والله الّذي لا إله إلّا هو، لو سمعت أن يقال لي، لظننت أنّي أموت فَرِحًا قبل أن يقال لي ذلك.

الحسن: والله ما يقدر العباد قَدْر حَرّها، روينا: لو أنّ رجلًا كان بالمشرق، وجهنّم بالمغرب، ثمّ كُشِف عن غطاء واحد منها لغَلَتْ جمجمته، ولو أنّ دلوًا من صديدها صبّ في الأرض ما بقي على وجهها شيء فيه روح إلّا مات.

كان الأحنف يصلّي صلاة اللّيل، ويضع المصباح قريبًا منه، فيضع أصبعَه عليه، ويقول: يا حُنَيْف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا! حتّى يُصبِح. (١٠ : ٣٥ ـ ٣٧)

---

١ ـ الضَّريع: نبات يسمّى رطبه سبرقًا، و يابسه ضريعًا ؛ لا تقربه دابّة لخبثه .

٢ ـ الغسّاق: ما يقطر من جلود أهل النّار و صديدهم من قيح و نحوه .

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَن تُظْلَمَ ... .**

**الشّرح:** جاء في الحديث المرفوع: «لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه».

وقال بعض الأُسارى لبعض الملوك: افعل معي ما تحبّ أن يفعل الله معك. فأطلقه، وهذا هو معنى قوله عليه السلام: «ولا تظلم كما لا تحبّ أن تظلم».

وقوله: «وأحْسِن» مِن قول الله تعالى: ﴿وَاَحْسِنْ كَمَا اَحْسَنَ اللهُ اِلَيْكَ﴾ [1].

وقوله: «واستقبح من نفسك»، سُئِل الأحنف عن المروءة، فقال: أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ... . (١٦ : ٨٤)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُن مِنهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِن عَنهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ ... .**

**الشّرح:** ... قوله: «ظلم الضّعيف أفحش الظّلم». رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا، فقال: يا بنيّ، كيف لا يسع حِلْمك مَن تضربه فلا يمتنع منك!

وأمر المأمون بإشخاص الخطّابيّ القاصّ [2] من البَصْرة، فلمّا مثل بين يديه، قال له: يا سليمان، أنت القائل العراق: عين الدّنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، ومسجدي عين المربد، وأنا عين مسجدي. وأنت أعور، فإنّ عين الدّنيا عوراء!

قال: يا أمير المؤمنين، لم أقُلْ ذاك، ولا أظُنّ أمير المؤمنين أحضرني لذلك. قال: بلغني أنّك أصبحت فوجدت على سارية من سواري مسجدك [مجزوء الرّمل]:

رَحِم اللهُ عليًّا إنّهُ كانَ تقيّا

---

١ ـ القصص / ٧٧ .

٢ ـ كذا في أ ، ب : «القاضي» .

فأمرت بمحوه، قال: يا أمير المؤمنين، «كان ولقد كان نبيًّا»، فأمرت بإزالته. فقال: كذبت كانت القاف أصحّ من عينك الصّحيحة. ثمّ قال: والله لولا أن أُقيم لك عند العامّة سوقًا لأحسنت تأديبك. قال: يا أمير المؤمنين، قد ترى ما أنا عليه من الضّعف والزّمانة والهرَم وقلّة البصر، فإن عاقبتني مظلومًا فاذكر قول ابن عمّك عليّ عليه السلام: «ظلم الضّعيف أفحش الظّلم»، وإن عاقبتني بحقّ، فاذكر أيضًا قوله: «لكلّ شيء رأس، والحلم رأس السّؤدد». فنهض المأمون من مجلسه وأمر بردّه إلى البَصْرة، ولم يصله بشيء، ولم يحضر أحد قطّ مجلس المأمون إلّا وصله عدا الخطّابيّ، وليس هذا هو المحدِّث الحافظ المشهور، ذاك أبو سليمان أحمد بن محمّد بن أحمد البستيّ، كان في أيّام المطيع والطّائع، وهذا قاصّ بالبَصْرة كان يقال له: أبو زكريّا سليمان بن محمّد البصريّ .... (١٦ : ١٠٠)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنكَ عَلَى الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَن ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَن سَرَّكَ أَن تَسُوءَهُ ....**

**الشّرح:** ... قوله: «لا يكبرنّ عليك ظُلْم مَن ظَلَمك، فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك، وليس جزاء مَن سَرَّك أن تَسُوءه»، جاء في الخبر المرفوع أنّه صلى الله عليه وآله سمع عائشة تدعُو على مَن سرق عِقْدًا لها، فقال لها: «لا تمسحي عنه بدعائك». أي لا تخفّفي عذابه.

وقوله عليه السلام: «وليس جزاء مَن سَرَّك أن تسوءه»، يقول: لا تنتقم ممّن ظلمك، فإنّه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك، وليس جزاء مَن ينفع إنسانًا أن يسيء إليه. وهذا مقام جليل لا يقدر عليه إلّا الأفراد من الأولياء الأبرار.

وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين، فحبسهم وقيّدهم، فلمّا طال عليهم الأمر زفر بعضهم زَفْرةً شديدةً، ودعا على ذلك الجبّار، فقال له بعض أولاده ـ وكان أفضل

أهل زمانه في العبادة، وكان مستجاب الدّعوة ـ: لا تدْعُ عليه فتخفّف من عذابه. قالوا: يا فلان، ألا ترى ما بنا وبك! لا يأنف ربّك لنا! قال: إنّ لفلان مهبطًا في النّار لم يكن ليبلغه إلّا بما ترون، وإنّ لكم لمصعدًا في الجنّة لم تكونوا لتبلغوه إلّا بما ترون. قالوا: فقد نال منّا العذاب والحديد، فادْعُ الله لنا أن يخلّصنا وينقذنا ممّا نحن فيه. قال: إنّي لأظنّ إنّي لو فعلت لفعل، ولكن والله لا أفعل حتّى أموت هكذا، فألقى الله فأقول له: أي ربّ، سلْ فلانًا لمَ، فعل بي هذا؟ ومِن النّاس مَن يجعل قوله عليه السلام: «وليس جزاء مَن سَرَّك أن تسوءه»، كلمة مفردة مستقلّة بنفسها، ليست من تمام الكلام الأوّل، والصّحيح ما ذكرناه. (١٦ : ١١١ ـ ١١٢)

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... إنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَن كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيرًا، وَمَن شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَئِمَّةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنتَ وَاجِدٌ مِنهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّن لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّن لَمْ يُعَاوِن ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ: أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفًا، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُن آثَرُهُمْ عِندَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعًا ذَلِكَ مِن هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.**

**الشّرح:** نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بِطانةً قد كانوا من قبل بِطانة للظَّلَمة، وذلك لأنّ الظّلم وتحسينه قد صار مَلَكةً ثابتةً في أنفسهم، فبعيدٌ أن يمكنهم الخلوّ منها، إذ قد صارت كالخُلق الغريزيّ اللّازم لتكرارها وصيرورتها عادةً، فقد جاءت النّصوص في الكتاب والسُّنّة بتحريم معاونة الظَّلَمة ومساعَدتهم، وتحريم الاستعانة بهم، فإنّ مَنِ استعان بهم كان مُعينًا لهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]، وقال:

---

١ ـ الكهف / ٥١.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[١].

وجاء في الخبر المرفوع: «يُنادَى يوم القيامة: أين مَن بَرَى[٢] لهم ـ أي الظّالمين ـ قَلَمًا».

أُتي الوليد بن عبد الملك برجلٍ من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحَجّاج؟ قال: وما عَسَيت أن أقول فيه! هل هو إلّا خطيئة من خطاياك، وشَرَر مِن نارِك؟ فلَعَنَك اللهُ ولَعَنَ الحَجّاج معك! وأقبل يشتمُهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه! هذا رجل يشتِمُكم، فإمّا أن تَشْتِمُوه كما شتمكم، وإمّا أن تَعْفُوا عنه. فغضب الوليد وقال لعُمَر: ما أظنّك إلّا خارجيًّا! فقال عمر: وما أظنّك إلّا مجنونًا. وقام فخرج مُغْضَبًا، ولحقه خالدُ بن الرّيان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين! لقد ضربت بيدي إلى قائم سَيْفي أنتظر متى يأمرني بضرب عُنُقك، قال: أوكنت فاعلًا لو أمرك؟ قال: نعم. فلمّا استخلف عمر جاء خالد بن الرّيان، فوَقَف على رأسه متقلّدًا سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضَعْ سيفك، فإنّك مطيعنا في كلّ أمرٍ نأمرك به، وكان بين يديه كاتب للوليد، فقال له: ضَعْ أنت قَلَمك، فإنّك كنت تضرّ به وتنفع، اللّهمّ إنّي قد وضعتهما فلا ترفَعْهما. قال: فوالله ما زالا وَضيعَين مَهينَين حتّى ماتا.

وروى الغَزاليّ في كتاب «إحياء علوم الدّين»، قال: لمـّا خالط الزُّهريّ السّلطان كتب أخٌ له في الدّين إليه: عافانا الله وإيّاك أبا بكر من الفِتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك، فقد أصبحت شيخًا كبيرًا، وقد أثقلتْك نِعَم الله عليك بما فهّمك من كتابه، وعلّمك من سُنّة نبيّه، وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء، فإنّه تعالى قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[٣].

---

١ ـ المجادلة / ٢٢.

٢ ـ ب: «يرى»، تحريف، صوابه من أ، د.

٣ ـ آل عمران / ١٨٧.

واعلم! أنّ أيسر ما ارتكبتَ، وأخفّ ما احتملتَ، أنّك آنستَ وحشة الظّالم، وسهّلت سبيل الغيّ بدُنوّك إلى مَن لم يُؤَدِّ حقًّا ولم يترك باطلًا حين أدناك، اتّخذوك أبا بكر قُطْبًا تدور عليه رَحَا ظُلْمهم، وجِسْرًا يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم، وسُلَّمًا يَصْعدون فيه إلى ضلالتهم، يدخلون بك الشّكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجُهَلاء، فما أيسر ما عَمّروا لك في جَنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جَنب ما أفسدوا من حالك ودينك، وما يؤمّنك أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُوا الصَّلوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1]، يا أبا بكر، إنّك تُعامِل مَن لا يجهل، ويحفظ عليك مَن لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سَقَم، وهيّئ زادك فقد حضر سفر بعيد، ﴿وَمَا يَخْفٰى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[2]. (١٧ : ٤٢ ـ ٤٤)

**(الحكمة: ١٥٣) الأصل: لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَدًا بِكَفِّهِ عَضَّةٌ.**

**الشّرح:** هذا من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلٰى يَدَيْهِ﴾[3]، وإنّما قال: «للبادي»، لأنّ مَنِ انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه.

ومِن أمثالهم: البادي أظلم.

**فإن قلتَ:** فإذا لم يكن باديًا لم يكن ظالمًا، فأيّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله: «البادي»؟

**قلتُ:** لأنّ العرب تُطلِق على ما يَقَع في مقابلة الظُّلم اسم «الظُّلم» أيضًا، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[4]. (١٨ : ٣٦٩)

---

١ ـ مريم / ٥٩.

٢ ـ إبراهيم / ٣٨.

٣ ـ الفرقان / ٢٧.

٤ ـ الشورى / ٤٠.

**(الحكمة: ٢١٧) الأصل: بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم من قولنا في الظّلم والعدوان ما فيه كفاية.

وكان يقال: عَجَبًا لمن عُومِل فأُنصِف، إذا عامل كيف يَظْلِم! وأعجب منه: مَن عُومِل فظُلِم إذا عامل كيف يَظْلِم!

وكان يقال: العدوّ عَدُوّانِ: عَدوّ ظَلَمْتَه، وعَدوّ ظَلَمَك، فإن اضطرّك الدَّهْرُ إلى أحدهما فاسْتَعِن بالّذي ظَلَمك، فإنّ الآخر مَوْتُورٌ. (١٩ : ٤٣)

**(الحكمة: ٢٣٨) الأصل: يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِن يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم الكلام في الظُّلْم مرارًا.

وكان يقال: اذكُر عند الظُّلْم عدلَ الله تعالى فيك، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك.

وإنّما كان يوم المظلوم على الظّالم أشدّ من يومه على المظلوم، لأنّ ذلك اليومَ يومُ الجزاء الكُلّيّ، والانتقام الأعظم، وقُصارَى أمر الظّالم في الدّنيا أن يَقْتُل غيره فيُميته مِيتةً واحدةً، ثمّ لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يدخل عليه ألمًا آخَر، وأمّا يوم الجزاء؛ فإنّه يومٌ لا يموت الظّالم فيه فيستريح[1]، بل عذابه دائم متجدّد، نعوذ بالله من سُخْطِه وعِقابه! (١٩ : ٧٤)

**(الحكمة: ٣٥٦) الأصل: لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يَظْلِمُ مَن فَوقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، ومَن دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، ويُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.**

**الشّرح:** يمكن أن يفسّر هذا الكلام على وجهَين:

---

١ ـ أ: «لايستريح فيه الظّالم».

**أحدهما:** أنّ كلّ مَن وُجِدَتْ فيه إحدى هذه الثّلاث فهو ظالم، إمّا أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقه فعَصَاه، فهو بعِصْيانه ظالمٌ له، لأنّه قد وضعه في غير موضعه، والظُّلْم في أصل اللّغة، هو هذا المعنى، ولذلك سمَّوا اللَّبَن يُشْرَب قبل أن يَبْلُغ الرَّوْب مظلومًا، لأنّ الشّرب منه كان في غير موضعِه إذا لم يَرُب ولم يخرج زُبْدُه، فكذلك مَن عَصَى مَن فوقه فقد زَحْزَحه عن مقامه إذ لم يطعه. وإمّا أن يكون قد قهر مَن دونه وغَلَبَه. وإمّا أن يكون قد ظاهر الظَّلَمة.

**والوجه الثّاني:** أنّ كلّ ظالم فلا بدّ من اجتماع هذه العلامات الثّلاث فيه، وهذا هو الأظهر. (١٩ : ٢٦٦)

## الفصل الرّابع والثّمانون: [في الفتنة ومعناها]

(الخطبة: ١٥١) ... ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ، وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا، مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَتَنطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا!

يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَسْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ، يَهْرُبُ مِنهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ، مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَن سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ! بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ ... .

**الشّرح:** ... ثمّ قال: «فلا تكونوا أنصاب الفِتن، وأعلام البِدَع» أي لا تكونوا ممّن يشار إليكم في البِدَع كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة، وجاء في الخبر المرفوع: «كُن في الفتنة كابن اللّبون، لا ظَهْرَ فيركَب، ولا ضَرْع فيُحلَب» ، وهذه اللّفظة يرويها كثيرٌ من النّاس لأمير المؤمنين عليه السلام. (٩ : ١٤٦)

**(الخطبة: ١٥٧) الأصل:** وقام إليه رجل، فقال: أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ*اَحَسِبَ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوا اَنْ يَقُولُوا اٰمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ

مِن بَعْدِي».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِن وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذًا»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيسَ هَذَا مِن مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِن مِن مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ. وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنزِلُهُمْ عِندَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنزِلَةِ فِتْنَةٍ».

**الشّرح:** قد كان عليه السلام يتكلّم في الفتنة؛ ولذلك ذكر الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ولذلك قال: «فعليكم بكتاب الله»، أي إذا وقع الأمر واختلط النّاس، فعليكم بكتاب الله، فلذلك قام إليه مَن سأله عن الفتنة، وهذا الخبر مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قد رواه كثير من المحدّثين عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين، كما كتب عَلَيّ جهاد المشركين»، قال: فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة الّتي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالفون للسّنّة. فقلت: يا رسول الله، فعَلامَ أُقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث في الدّين، ومخالفة الأمر. فقلتُ: يا رسول الله، إنّك كنت وعدتني الشّهادة، فاسأل الله أن يعجّلها لي بين يديك. قال: فمَن يقاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين! أمّا إنّي وعدتُك الشّهادة وستستشهد، تُضرَب على هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذًا! قلت: يا رسول الله، ليس ذا بموطن صبر، هذا موطن شكر. قال: أجَلْ أصبتَ، فأعدّ للخصومة فإنّك مُخاصَم. فقلتُ: يا رسول الله، لو بيّنت لي قليلًا! فقال: إنّ أُمّتي سَتُفتَن من بعدي، فتتأوّل القرآن وتعمل بالرّأي،

وتستحلّ الخمر بالنّبيذ والسُحت بالهديّة والرّبا بالبيع، وتحرّف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضّلال، فكن جليس بيتك حتّى تقلّدها، فإذا قُلّدتها جاشت عليك الصّدور، وقلبت لك الأُمور، تقاتل حينئذٍ عَلَى تأويل القرآن، كما قاتلتَ عَلَى تنزيله، فليست حالهم الثّانية بدون حالهم الأُولى. فقلتُ: يا رسول الله، فبأيّ المنازل أُنزل هؤلاء المفتونين من بعدك؟ أ بمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة؟ فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلتُ: يا رسول الله، أيدركهم العدل منّا أم من غيرنا؟ قال: بل منّا، بنا فتح وبنا يختم، وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشّرك، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة. فقلتُ: الحمد لله على ما وهب لنا من فضله ... .

**فإن قلتَ:** فلِمَ قال: «علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا»؟

**قلتُ:** لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[1].

قوله: «ليس هذا من مواطن الصّبر»، كلام عالٍ جدًّا يدلّ على يقين عظيم وعرفان تامّ، ونحوه قوله، وقد ضربه ابن ملجم: فُزْتُ وربِّ الكعبة.

قوله: «سيفتنون بعدي بأموالهم» من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2].

قوله: «ويمنُّون بدينهم على ربّهم» من قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

قوله: «ويتمنّون رحمته» من قوله: «أحمق الحُمْق مَن أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله».

قوله: «ويأمَنُونَ سَطْوَتَهُ» من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[4].

---

١ ـ الأنفال / ٣٣ .

٢ ـ الأنفال / ٢٨ .

٣ ـ الحجرات / ١٧ .

٤ ـ الأعراف / ٩٩ .

وفي قوله: «بل بمنزلة فتنة» تصديقٌ لمذهبنا في أهل البغي وأنّهم لم يدخلوا في الكفر بالكلّيّة، بل هم فُسّاق، والفاسق عندنا في منزلة بين المنزلتَين، خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر. (٩ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨)

**(الحكمة: ١) الأصل: كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.**

**الشّرح:** ... وأيّام الفتنة هي أيّام الخصومة والحرب بين رئيسَين ضالَّين يدعوان كِلَا هما إلى ضلالةٍ، كفتنة عبد الملك وابن الزُّبَير، وفتنة مروان والضّحّاك، وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك، فأمّا إذا كان أحدهما صاحب حقّ، فليست أيّام فتنة كالجَمَل وصفّين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع صاحب الحقّ وسلّ السّيف والنّهي عن المنكر وبَذْل النّفس في إعزاز الدّين وإظهار الحقّ.

قال عليه السلام: «اخمِلْ نفسك أيّام الفتنة، وكُن ضعيفًا مغمورًا بين النّاس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تَنصر هؤلاء وهؤلاء». (١٨ : ٨٢ ـ ٨٣)

**(الحكمة: ١٦) الأصل: مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ.**

**الشّرح:** هذه الكلمة قالها عليّ عليه السلام لسعد بن أبي وَقّاص ومحمّد بن مَسْلَمة وعبد الله بن عمر لمّا امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجَمَل، ونظيرُها أو قريبٌ منها قول أبي الطّيّب [الطّويل]:

فمَا كلّ فَعّالٍ يُجازَى بفِعْلِهِ ولا كُلّ قَوّالٍ لَدَيَّ يُجَابُ

ورُبَّ كلامٍ مَرَّ فوقَ مَسامِعي كما طَنَّ في لَوح الهَجيرِ ذُبابُ[1]

(١٨ : ١١٩)

---

١ ـ البيتان لأبي فراس الحمداني، انظر ديوانه، وهما ليسا في ديوان المتنبّي.

**(الحكمة: ٧٤) الأصل: إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا.**

**الشّرح:** روى: «إذا اسْتَبْهَمَتْ»، والمعنى واحدٌ وهو حقّ، وذلك أنّ المقدّمات تدلّ عَلَى النّتائج، والأسباب تدلّ على المسبّبات، وطالما كان الشّيئان ليسا علّةً ومعلولًا، وإنّما بينهما أدنى[1] تناسب، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر، وإذا كان كذلك واشتبَهَتْ أُمور على العاقل الفَطِن ولم يعلم إلى ماذا تَؤُول، فإنّه يُستَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خَواتمها بفَواتحها، كالرّعيّة ذات السّلطان الرّكيك الضّعيف السّياسة، إذا ابتدأت أُمور مملكته تضطرب، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ في المستقبل، فإنّه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها، ويعلم أنّه سيفضي أمر ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال في مستقبل الوقت، لأنّ الحَرَكات الأُولى مُنذرة بذلك، وواعدة بوقوعه، وهذا واضح. (١٨ : ٢٢٣)

**(الحكمة: ٩٠) الأصل: لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلَكِن مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِن مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2]، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِن كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِن أَنفُسِهِمْ، وَلَكِن لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ وَيَكْرَهُ انثِلَامَ الْحَالِ.**

قال الرّضيّ رحمه الله تعالى: وهذا مِن غَريبِ ما سُمِعَ منه عليه السلام في التّفسير.

**الشّرح:** الفتنه لفظ مشترك، فتَارةً تُطْلَق على الجائحة والبَليّة تصيبُ الإنسان،

---

١ ـ أ: «أقرب».

٢ ـ الأنفال / ٢٨.

تقول: قد افتَتَن زيد وفُتن فهو مفتون، إذا أصابَتْه مُصيبة فذَهَب مالُه أو عقلُه أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1]، يعني الّذين عذَّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام. وتارةً تُطلَق على الاختبار والامتحان، يقال: فتنتُ الذَّهَب، إذا أدخلته النّار لتنظر ما جَوْدَته، ودينارٌ مفتون. وتارةً تُطلَق على الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[2] ... فمن قال: إنّي أعوذ بك من الفتنة، وأراد الجائحة، أو الإحراق أو الضّلال، فلا بأس بذلك وإن أراد الاختبار والامتحان فغير جائز، لأنّ الله تعالى أعلم بالمصلحة، وله أن يختبر عباده لا ليَعْلَم حالهم، بل ليَعْلَم بعض عباده حال بعض، وعندي أنّ أصل اللّفظة هو الاختبار والامتحان، وأنّ الاعتبارات الأُخرى راجعة إليها، وإذا تأمَّلْتَ علمتَ صحّة ما ذكرناه. (١٨: ٢٤٨ـ ٢٤٩)

---

١ ـ البروج / ١٠.

٢ ـ الذّاريات / ١٣.

## الفصل الخامس والثّمانون: [في ذمّ الحاسد والحسد]

(الخطبة: ٢٣) أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِن زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فإن رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِن قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنهُ الْمَغْرَمُ ... .

**الشّرح:** ... واعلم! أنّ مصدر هذا الكلام النّهي عن الحسد، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة.

وروى ابن مسعود عن النّبيّ ﷺ: «ألا لا تعادُوا نِعَم الله». قيل: يا رسول الله، ومَن الّذي يعادِي نِعَم الله؟ قال: «الّذين يحسدون النّاس».

وكان ابن عمر يقول: تعوّذوا بالله مِن قَدَرٍ وافق إرادةَ حسود.

قيل لأرسطو: ما بالُ الحسود أشدّ غمًّا من المكروب؟ قال: لأنّه يأخذ نَصيبَه من غموم الدّنيا، ويضاف إلى ذلك غمّه بسُرور النّاس.

وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على حوائجكم بالكِتْمان، فإنّ كلّ ذي نعمةٍ محسود».

وقال منصور الفقيه[1] [الوافر]:

مُنافَسَةُ الفَتَى فِيمَا يَزُولُ ... عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ

ومُخْتَارُ القَلِيلِ أقلّ مِنهُ ... وكُلّ فَوائِدِ الدُّنيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام: لله دَرّ الحسد! فما أعدله! بدأ بصاحبه فقَتَلَه.

ومن كلام عُثمان بن عَفّان: يكفيك مِن انتقامك من الحاسد أنّه يغتمّ وقتَ سُرورك.

---

١ ـ هو منصور بن إسماعيل بن عيسى التّميميّ، أحد فقهاء الشّافعيّة. (طبقات السُّبكيّ ٢: ٣١٧)

وقال مالك بن دينار: شهادة القُرّاء مقبولة في كلّ شيء إلّا شهادةُ بعضهم على بعض، فإنّهم أشدّ تحاسُدًا من السُّوس في الوبَر.

وقال أبو تمّام [الكامل]:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْـــرَ فَضـــيلةٍ طُوِيَتْ، أتَاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ[1]

لولا اشتِعَالُ النّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

لـولا محَـاذَرَةُ العَواقِـبِ لم تَـزَلْ للحَاسِـدِ النُّعْمَـى عَـلَى المحسُـودِ

وتذاكر قومٌ من ظُرَفاء البَصْرة الحسد، فقال رجلٌ منهم: إنّ النّاس ربّما حسدوا على الصُّلْب، فأنكروا ذلك، ثمّ جاءهم بعد ذلك بأيّام، فقال: إنّ الخليفة قد أمر بصلْب الأحنف (بن قيس[2])، ومالك بن مِسْمَع، وحَمْدان الحجّام، فقالوا: هذا الخبيثُ يُصْلَب مع هذين الرّئيسَين! فقال: ألم أقُلْ لكم إنّ النّاس يحسدون على الصَّلب!

ورَوَى أنَـس بـن مالـك مرفوعًـا: «أنّ الحَسَـد يأكـل الحَسَـنات كمـا تأكـل النّـارُ الحَطَب».

وفي الكُتُب القديمة: يقول الله عَزَّ وجَلّ: الحاسِدُ عدوّ نعمتي، متسخّط لِفِعْلي، غير راضٍ بِقِسْمتي.

وقال الأصمعيّ: رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطولَ عُمرَك! فقال: تركتُ الحسد فبَقِيتُ.

وقال بعضهم: ما رأيتُ ظالمًا أشْبَهَ بمظلومٍ مِن حاسِدٍ.

وقال الشّاعر [الطّويل]:

تـراه كـأنّ الله يجـدَعُ أنفَـهُ وأذْنَيْـه إن مـولاه ثـابَ إلى وَفْـرِ[3]

---

١ ـ ديوانه ١: ٤٠٢.

٢ ـ ساقط من ب.

٣ ـ البيت في ديوان علقمة الفحل، و عجزه فيه:

وقال آخر[الكامل]:

قُلْ للحَسُودِ إذا تَنفَّسَ ضِغْنُهُ يا ظالمًا وكأنّهُ مظلومُ!

ومن كلام الحكماء: إيّاك والحَسَد، فإنّه يَبِينُ فيك ولا يَبِينُ في المحسود.

ومن كلامهم: مِن دَناءة الحسد أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب.

وقيل لبعضهم: لزمتَ البادية، وتركتَ قومَك وبَلَدك! قال: وهل بقي إلّا حاسِدُ نِعْمةٍ، أو شامِتُ بمصيبةٍ!

بينا عبد الملك بن صالح يَسيرُ مع الرّشيد في موكبه، إذ هَتِف هاتِفٌ: يا أمير المؤمنين، طأطئ مِن إشرافه، وقَصِّر من عِنانه، واشْدُدْ مِن شِكاله ـ وكان عبد الملك مُتّهمًا عند الرّشيد بالطّمع في الخلافة ـ فقال الرّشيد: ما يقول هذا؟ فقال عبد الملك: مَقالُ حاسِدٍ، ودَسيسُ حاقِدٍ يا أميرالمؤمنين. قال: قد صدقتَ، نقصَ القومُ وفضلتَهم، وتخلّفوا وسبقتَهم، حتّى برز شأْوُك، وقَصّر عنك غيرُك، ففي صدورهم جمراتُ التّخلُّف، وحزازاتُ التّبلّد. قال عبد الملك: فأضْرِمْها يا أميرالمؤمنين عليهم بالمزيد.

وقال شاعر[البسيط]:

يا طالِبَ العَيْشِ في أمْنٍ وفي دَعَةٍ مَحْضًا بلا كَدَرٍ، صَفْوًا بلا رَنَقِ

خَلِّصْ فُؤادَكَ مِن غِلٍّ ومِن حَسَدٍ فالغِلّ في القَلْبِ مِثْلُ الغِلِّ في العُنُقِ

ومن كلام عبد الله بن المعتزّ: إذا زال المحسود عليه، علمتَ أنّ الحاسد كان يَحْسِدُ على غيرشيء.

ومن كلامه: الحاسد مُغْتاظ على مَن لا ذَنب له، بخيلٌ بما لا يَمْلِكه.

ومن كلامه: لا راحةَ لحاسدٍ، ولا حَياءَ لحريصٍ.

ومن كلامه: الميّت يقلّ الحسد له، ويكثر الكَذِبُ عليه.

ومن كلامه: ما ذلّ قوم حتّى ضَعِفُوا، وما ضَعِفُوا حتّى تفرّقوا، وما تفرّقوا حتّى

اختلفوا، وما اختلفوا حتّى تباغضوا، وما تباغضوا حتّى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتّى استأثر بعضهم على بعضٍ. وقال الشّاعر[البسيط]:

إن يحْسُدُونِي فإنّي غَيرُ لائِمِهِمْ قَبْلي مِنَ النّاسِ أهلِ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[1]

فدامَ لي ولَهُمْ ما بي وما بِهِمُ وماتَ أكثَرُنا غَيْظًا بما يجِدُ

ومن كلامهم: ما خلا جَسَدٌ عن حَسَدٍ.

وحدّ الحسد هو أن تغتاظ ممّا رُزِقه غيرك، وتودّ أنّه زال عنه وصار إليك. والغبطة ألّا تغتاظ ولاتودّ زوالَه عنه، وإنّما تودّ أن تُرزَقَ مِثْله، وليست الغِبْطة بمذمومة. وقال الشّاعر[الكامل]:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لم ينالوا سَعْيَهُ فَالْكُلّ أعداءٌ لَهُ وخُصُومُ

كضَرائِرِ الحَسْناءِ قُلْنَ لوَجْهِهَا حَسَدًا وبَغْيًا إنّهُ لَدَمِيمُ

(١ : ٣١٥ ـ ٣١٩)

**(الخطبة: ٨٥) ... وَلَا تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ....**

**الشّرح:** ... ثمّ نهى عن الحسد وقال: «إنّه يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحَطَب»، وقد ورد هذا الكلام في الأخبار المرفوعة، وقد تقدّم منّا كلامٌ في الحسد، وذكرنا كثيرًا ممّا جاء فيه. (٦ : ٣٥٦)

**(الحكمة: ٢٠٨) الأصل: عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في العُجْب، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لايزال مجتهدًا

---

١ ـ من أبيات في أمالي المرتضى ١ : ٤١٤ ، و نسبها إلى الكُمَيت بن زيد ؛ و هي في شرح المختار من شعربشّار : ٦٧ من غير نسبة .

في إظهار معايب المحسود وإخفاء محاسنه، فلمّا كان عُجب الإنسان بنفسه كاشِفًا عن نقص عقله كان كالحاسد الّذي دَأْبُه إظهارَ عيب المحسود ونقصه.

وكان يقال: مَن رَضِيَ عن نفسه كَثُر السّاخط عليه.

وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير: لَأن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا أحبّ إليّ من أن أبيت قائمًا وأصبح نادمًا. (١٩ : ٣٣)

**(الحكمة: ٢٢١) الأصل: اَلْعَجَبُ لِغَفْلَةِ الْحُسَّادِ عَنْ سَلَامَةِ الْأَجْسَادِ!**

**الشّرح:** إنّما لم يحسد الحاسد على صحّة الجسد، لأنّه صحيح الجسد، فقد شارك في الصّحّة، وما يشارك الإنسان غيره فيه لا يحْسَده عليه، ولهذا أرباب الحسد إذا مَرِضُوا حَسدوا الأصحّاء على الصّحّة.

**فإن قلتَ:** فلماذا تعجّب أميرُ المؤمنين عليه السلام ؟

**قلتُ:** لكلامه عليه السلام وَجْهٌ، وهو أنّ الحسد لمـا تمكّن في أربابه، وصار غريزةً فيهم، تعجّب كيف لا يتعدّى هذا الخُلق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه، فإنّ زيدًا إذا أبغض عَمْرًا بُغْضًا شديدًا ودّ أن تزول عنه نعمته إليه، وإن كان ذا نعمةٍ كنعمته، بل ربّما كان أقوى وأحسن حالًا. ويجوز أن يريد معنى آخَر، وهو تعجّبه مِن غَفْلة الحُسّاد، على أنّ الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقْمَهم، وهذا أيضًا واضح. (١٩ : ٤٩)

**(الحكمة: ٢٥٣) الأصل: صِحَّةُ الْجَسَدِ مِن قِلَّةِ الْحَسَدِ.**

**الشّرح:** معناه أنّ القليل الحَسَد لا يزال مُعافًى في بَدَنه، والكثير الحَسَد يُمْرِضه ما يجده في نفسه من مَضاضَة المُنافسة، وما يتجرّعه من الغَيْظ، ومَزاج البدن يَتْبَع أحوال النّفس.

قال المأمون: ما حَسَدْتُ أحدًا قطّ إلّا أبا دُلَفٍ على قول الشّاعر[1] فيه [المديد]:

إنّما الدّنيا أبو دُلَفٍ[2] بين بادِيهِ ومُحْتَضَرِهْ
فإذا وَلّى أبو دُلَفٍ وَلّتِ الدّنيا على أثَرِهْ

ورَوَى أبو الفَرَج الأصبهانيّ عن عَبْدوس بن أبي دُلَفٍ، قال: حدّثني أبي، قال: قال لي المأمون: يا قاسم، أنت الّذي يقول فيك عليّ بن جَبَلة:

*إنّما الدّنيا أبو دُلَفٍ*

البيتين، فقلتُ مُسْرِعًا: وما ينفعني ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله فيّ [الطّويل]:

أبا دُلَف، يا أكذَبَ النّاسِ كلّهم سِوايَ فإنّي في مَديحِكَ أكْذَبُ

ومع قول بكر بن النّطاح فيّ [الطّويل]:

أبا دُلَفٍ إنّ الفقيرَ بعَيْنِهِ لمَن يَرْتجِي جَدْوَى يَديْكَ ويَأمُلُهْ
أرى لكَ بابًا مُغْلقًا مُتمنّعًا إذا فَتَحوهُ عنكَ فالبُؤْسُ داخِلُهْ
كأنّكَ طَبلٌ هائِلُ الصّوتِ مُعْجِبٌ خَلِيًّا مِنَ الخَيراتِ تَعْسٌ مُداخِلُهْ
وأعْجَبَ شيءٍ فيكَ تسليمُ إمْرَةٍ عليكَ على طَنزٍ وإنّكَ قابِلُهْ

قال: فلمّا انصرفتُ قال المأمون لمن حَوْله: لله دَرّه! حَفِظ هجاء نفسه حتّى انتفع به عندي، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة. (١٩ : ٩٧ ـ ٩٨)

---

١ ـ هو عليّ جَبَلَة الطّوسيّ.

٢ ـ أبو دُلف، هو القاسم بن عيسى العجليّ.

## الفصل السّادس والثّمانون: [في الفَخْر وما قيل في النَهي عنه]

**(الخطبة: ١٤٧) ... وَإِنَّهُ لَا يَنبَغِي لِمَن عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَن يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَن يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَن يَسْتَسْلِمُوا لَهُ، فَلَا تَنفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي مِن ذِي السَّقَمِ.**

**الشّرح:** ... ثمّ نهى عليه السلام عن التّكبرّ والتّعظّم، وقال: إنّ رفعةَ القوم الّذين يعرفون عظمة الله أن يتواضعوا له ... .

وقد ورد في ذمّ التّعظّم والتّكبّر ما يطول استقصاؤه، وهو مذموم على العباد، فكيف بمن يتعظّم على الخالق سبحانه وإنّه لمن الهالكين!

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لما افتخر: «أنا سيّد ولد آدم»، ثمّ قال: «ولا فخر»، فجهر بلفظة الافتخار، ثمّ أسقط استطالة الكبر، وإنّما جهر بما جهر به، لأنّه أقامه مقام شكر النّعمة والتّحدُّث بها.

وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله: «إنّ الله قد أذهب عنكم حميّة الجاهليّة وفَخْرَها بالآباء، النّاس بنو آدم وآدم من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجر شقيّ. لينتهينّ أقوامٌ يفخرون برجال، إنّما هم فَحْمٌ من فَحْم جهنّم، أو ليكوننّ أهْوَن على الله من جُعْلان تدفع النَّتن بأنفها». (٩ : ١٠٧)

**(الحكمة: ٣٩٢) الأصل: مَن أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.**

**وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى: مَن فَاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ، لَمْ يَنفَعْهُ حَسَبُ آبَائِهِ.**

**الشّرح:** قد تقدّم مثل هذا، وقد ذكرنا ما عندنا فيه، وقال الشّاعر [البسيط]:

لَئِنْ فخرتَ بآباءٍ ذَوِي حَسَبٍ لقدْ صدقتَ ولكن بِئْسَ ما وَلَدُوا

وكان يقال: أجْهَلُ النّاس مَنِ افتَخَر بالعِظام البَالية، وتبجّح بالقُرُون الماضية، واتّكل على الأيّام الخالية.

وكان يقال: مِن طَريف الأُمور حَيٌّ يتّكل على ميّت.

وكان يقال: ضَعَة الدّنيء في نفسه والرّفيع في أصله، أقبح مِن ضَعَة الوَضيع في نفسه وأصله، لأنّ هذا تشبَّه بآبائه وسَلَفه، وذاك قَصّر عن أصله وسَلَفه، فهو إلى الملامة أقْرَب، وعن العُذْر أبعد.

افتخر شريفٌ بأبيه، فقال خَصْمه: لو وفّقتَ، لما ذكرت أباك، لأنّه حجّة عليك تُنادى بنَقْصك، وتقرّ بتخلّفك.

كان جعفر بن يحيى يقول: ليس مِنَ الكِرام مَنِ افتَخَر بالعِظَام.

وقال الفَضْل بن الرّبيع: كفى بالمرء عارًا أن يفتَخر بغيره.

وقال الرّشيد: مَنِ افتخر بآبائه فقد نادَى على نفسه بالعَجْز، وأقرّ على همّته بالدّناءة.

وقال ابن الرُّوميّ [الطّويل]:

وما الحَسَبُ الموروثُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بمحتَسَبٍ إلّا بآخِرِ مُكْتَسَبْ

إذا العُودُ لَمْ يُثْمِرْ وإنَ كان شُعْبَةً ... مِنَ الثّمراتِ اعتدَّهُ النّاسُ في الحَطَبْ

وقال عبد الله بن جعفر [السّريع]:

لَسْنَا وإن أحسابُنا كَرُمتْ ... يومًا على الآباءِ نَتَّكِلُ

نَبنِي كما كانتْ أوائلُنا ... تَبنِي، ونَفْعَل مِثْلَ ما فَعَلُوا

وقال آخر [الوافر]:

وما فَخْري بِجَدٍّ قامَ غيري ... إليهِ إذا رَقَدْتُ اللّيلَ عَنْهُ

إلى حَسَبِ الفَتَى في نَفسِهِ أنظُرْ ... ولاتَنظُرْ هُدِيتَ إلى ابنِ مَن هُو

وقال آخر [السّريع]:

إذا فخرتُ بآبائي وأجْدادِي ... فَقَدْ حَكَمْتُ على نَفسي لأضدادِي

هَلْ نافِعِي إن سَعَى جَدّي لمَكْرُمةٍ ... ونِمْتُ عَن أختها في جانبِ الوادِي!

وقال آخر [الطّويل]:

أيُقْنِعُني كَوْني بمَن كَوْنيَ ابْنهُ أبًا لي أنَ ارْضَى لفَخْري بمَجْدِهِ
إذا المرءُ لم يحْو العَلاءَ بنَفْسِهِ فليسَ بحَاوٍ للعَلاءِ بجَدِّه
وهَلْ يَقْطعُ السّيفُ الحسامَ بأصْلِهِ إذا هُوَ لم يَقْطعْ بصَارِمِ حَدِّه!

وقيل لرجلٍ يُدِلّ بشَرَف آبائه: لعَمْري لك أوّل، ولكن ليس لأوّلك آخر.

ومِثْلُه: أنّ شريفًا بآبائه فاخر شريفًا بنَفْسه، فقال الشّريف بنفسه: انتهى إليك شَرَف أهلك، ومنّي ابتدأ شَرَفُ أهلي، وشتّان بين الابتداء والانتهاء!

وقيل لشَريفٍ ناقِص الأدب: إنّ شَرَفك بأبيك لِغَيرِك، وشَرَفك بنفسك لك، فافْرُقْ بين ما لك وما لغيرك، ولا تَفْرَح بشَرَف النَّسَب، فإنّه دون شَرَف الأدب.

(١٩: ٣٣١ ـ ٣٣٣)

**(الحكمة: ٤٠٠) الأصل: ضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم القول في العُجْب والكِبر والفَخْر.

في الحديث المرفوع: «إنّ الله قد أذْهَبَ عنكم عيبة الجاهليّة وفَخْرها بالآباء، النّاسُ لآدم، وآدم مِن تُرابٍ، مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، لينتهينّ أقوام يتفاخرون برجالٍ إنّما هم فحم من فحم جهنّم، أو ليكوننّ أهْوَنَ على الله من الجِعلان[1] تدفع النَّتن بأنفها».

ومن وصيّته ﷺ إلى عليّ عليه السلام: «لا فَقْر أشدّ من الجهل، ولا وحشة أفحش من العُجْب».

أتى وائلُ بن حُجْر النّبيّ ﷺ فأقطعه أرضًا، وأمر معاوية أن يمضي معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه ويكتبها له، فخرج مع وائل في هاجِرة شاوية، ومشى خَلْف ناقته فأحرقَتْه الرَّمْضاء، فقال: أردفْني: قال: لستُ مِن أرْداف الملوك. قال: فادْفع إليّ

---

١ ـ الجِعلان: جمع جُعَل: بضمّ ففتح: دويبّة معروفة تغشى الأمكنة القذرة.

نَعْليك. قال: ما بخل يمْنَعَنى يابن أبي سفيان، ولكن أكرَه أن يبلغ أقيال[1] اليمن أنّك لبستَ نَعْلي، ولكن امْشِ في ظلّ ناقتي فحَسْبك بذاك سَرَفًا. ويقال: إنّه عاش حتّى أدرك زَمَن معاوية فأجلسه معه على سَريره.

قيل لحكيمٍ: ما الشّيء الّذي لا يحْسُن أن يقال وإن كان حقًّا؟ فقال: الفَخْر.

حبس هشامُ بن عبد الملك الفَرَزْدَق في سِجْن خالد بن عبد الله القَسْريّ، فوَفَد جَرير إلى خالد ليَشْفَع فيه، فقال له خالد: ألا يَسُرّك أنّ الله قد أخزى الفَرَزْدَقَ؟ فقال: أيّها الأمير، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشِعري، وإنّما قدمتُ لأشفعَ فيه. قال: فاشْفَعْ فيه في ملأ ليكون أخْزَى له، فشفع فيه، فدعا به، فقال: إنّي مُطْلِقك بشفاعةِ جَرير، فقال: أسيرُ قَسْريّ، وطَليقُ كَلْبيّ، فبأيّ وجهٍ أفاخر العربَ بعدها! ردّني إلى السِّجْن.

ذكر أعرابيّ قومًا، فقال: ما نالوا بأناملهم شيئًا إلّا وقد وطئناه بأخامِص أقدامِنا، وإنّ أقصى مُناهم لأدنى فِعَالنا.

نَظَرَ رجلٌ إلى بعض وَلَد أبي موسى يختال في مَشْيته، فقال: ألا تَرَوْن مَشْيته؟ كأنّ أباه خَدَع عمروبن العاص!

وسمع الفَرَزْدق أبا بُردة يقول: كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحَكَمَين؟ فقال: أحدهما: مائِقٌ، والآخر: فاسقٌ، فكُن ابن أيّهما شِئْتَ.

نَظَرَ رسول الله ﷺ إلى أبي دُجَانة وهو يتبختر بين الصّفّين، فقال: «إنّ هذه مَشْية يبغضها الله إلّا في هذا الموطن».

لمّا بلغ الحسن بن عليّ عليه السلام قول معاوية: إذا لم يكن الهاشميّ جوادًا والأُمويّ حليمًا والعوّاميّ شجاعًا والمخزوميّ تيّاهًا لم يشبهوا آباءهم، فقال: إنّه والله ما أراد بها النّصيحة، ولكن أراد أن يفني بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجوا إليه، وأن يشجعوا بني العَوّام فيقتلوا، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا، وأن يحلم بنو أُميّة فيُحبّهم النّاس.

---

١ ـ الأقيال: جمع قَيْل؛ وهو المَلَك.

كان قاضي القُضاة محمّد بن أبي الشّوارب الأُمويّ تائهًا، فهجاه عبد الأعلى البَصْريّ: فقال [الكامل]:

إنّي رأيتُ محمّدًا مُتَشاوِسًا ... مُستصغرًا لجميعِ هذي النّاسِ
ويقول لما أن تنفّس خاليًا ... نَفَسًا له يَعْلو على الأنفاسِ
وَيح الخلافة في جوانبِ لحيتي ... تستنّ دونَ لَحِي بني العبّاسِ!

بعض الأُمويّة [الطّويل]:

إذا تائهٌ مِن عبدِ شمسٍ رأيتَهُ ... يتيهُ فرشِّحْهُ لكلِّ عَظيمِ
وإن تاهَ تَيّاهٌ سِواهُ فإنّهُ ... يَتيهُ لحُمْقٍ أو يَتيهُ لِلُؤْمِ

لبعض الأُمويّة أيضًا [الطّويل]:

ألسنا بني مَرْوانَ كيفَ تبدّلتْ ... بنا الحالُ أو دارَتْ علينا الدّوائِرُ
إذا وُلِدَ المولودُ منّا تهلّلتْ ... لَهُ الأرضُ واهتزّتْ إليهِ المنابِرُ

بعض التّيّاهين [الطّويل]:

أتيهُ على إنسِ البلادِ وجِنّها ... ولو لَمْ أجِدْ خَلْقًا أتيهُ على نَفسي
أتيهُ فلا أدري مِنَ التّيهِ مَنْ أنا ... سِوَى مَن يقولُ النّاس فيّ وفي جِنسي
فإن زعموا أنّي مِنَ الإنس مِثْلُهُمْ ... فما لِيَ عَيبٌ غير أنّي مِنَ الإنسِ

بعض العَلَويّة [الطّويل]:

لقد نازعَتْنا من قُرَيش عصابةٌ ... يمُطّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ
فلمّا تنازعْنا الفَخارَ قَضَى لنا ... عليهمْ بما نَهوى نداءَ الصّوامعِ
ترانا سُكوتًا والشّهيدُ بفَضْلنا ... علـيهمْ أذانُ النّاسِ في كلِّ
بأنّ رسولَ اللهِ لا شكَّ جدُّنا ... وأنّ بَنِيهِ كالنُّجومِ الطّوالعِ

كان عُمارةُ بن حمزة بن ميمون مَوْلى بني العبّاس مَثَلًا في التّيه، حتّى قيل: أتْيَهُ من عُمارة. وكان يتولّى دَواوين السَّفّاح والمنصور، وكان إذا أخطأ مضى على خَطئه

تكبّرًا عن الرّجوع، ويقول: نَقْضٌ وإبرامٌ في حالة واحدة، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك.

وافتخرت أُمّ سَلمة المخزوميّة ـ امرأة السّفّاح ـ ذات ليلة بقَوْمها على السَّفّاح، وبنو مخزومٍ يُضْرَب بهم المَثَل في الكِبر والتّيه، فقال: أنا أحضرك السّاعة على غير أُهبة مولًى من مواليّ ليس في أهلك مثله، فأرسل إلى عُمارة، وأمر الرّسول أن يُعجِله عن تغيير زِيّه، فجاء على الحال الّتي وجده عليها الرّسول في ثياب ممسَّكة مزرّرة بالذَّهَب، وقد غَلّف لحيتَه بالغالية حتّى قامت، فرمى إليه السّفّاح بمُدْهِن ذَهَب مملوءٍ غاليةٍ، فلم يلتفت إليه، وقال: هل ترى لها في لحيته موضعًا؟ فأخرجتْ أُمّ سَلمة عِقْدًا لها ثمينًا، وأمَرَتْ خادمًا أن يضعه بين يديه، فقام وتركه، فأمرت الخادم أن يَتْبَعَه به، ويقول: إنّها تسألك قبولَه، فقال للخادم: هو لك. فانْصَرف بالعِقْد إليها، فأعطت الخادمَ فَكاكَه عشرة آلافِ دينارٍ، واسترجعتْه، وعجبتْ من نفس عُمارة، وكان عُمارة لا يذلّ للخلفاء وهم مواليه ويَتِيه عليهم.

نَظَرَ رجلٌ إلى المهديّ ويَدُه في يَد عُمارة، وهما يمشيان، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن هذا؟ قال: هذا أخي، وابن عمّي عُمارة بن حمزة. فلمّا ولّى الرّجل ذكر المهديّ الكلمةَ كالممازح لعُمارة، فقال عمارة: والله لقد انتظرت أن تقول: مولاي، فأنفُض يدي من يدك. فتبسّم المهديّ.

وكان أبو الرّبيع الغَنَويّ أعرابيًّا جافيًا تيّاهًا شديدَ الكِبر، قال أبو العبّاس المبرّد في «الكامل»: فذكر الجاحظ أنّه أتاه ومعه رجل هاشميّ، قال: فناديتُ: أبو الرّبيع هنا؟ فخرج إليّ وهو يقول: خرج إليك رجل أكرَم النّاس. فلمّا رأى الهاشميّ استَحْيَا، وقال: أكرمُ النّاس رَديفًا، وأشرفهم حَليفًا[1] ـ أراد بذلك أبا مَرْثد الغَنَويّ، لأنّه كان رديف رسول الله ﷺ وحَليف أبي بكر، قال: حدّثنا ساعةً ثمّ نهض الهاشميّ فقلت له: مَن خيرُ الخَلْق؟ قال: النّاس والله، قلتُ: مَن خيرُ النّاس؟ قال: العرب والله. قلتُ: فمَن

١ ـ قال أبو العبّاس: قوله: «وأشرفهم حَليفًا»، كان أبو مَرْثد حليف حمزة بن عبد المطّلب.

خير العرب؟ قال: مُضَر والله. قلتُ: فمَن خير مُضَر؟ قال: قَيْس والله. قلتُ: فمَن خير قَيْس؟ قال: يَعْصُر والله، قلت: فمَن خير يَعْصُر؟ قال: غَنيّ والله. قلتُ: فمَن خير غَنيّ؟ قال: المخاطِبُ لك والله. قلتُ: أفأنت خير النّاس؟ قال: إي والله. قلتُ: أيَسُرّك أن تكون تحتك ابنة يزيد بن المهلَّب؟ قال: لا والله. قلت: ولك ألف دينار. قال: لا والله. قلت: فألفا دينار. قال: لا والله. قلت: ولك الجنّة. فأطرَق، ثمّ قال: على ألّا تَلِدَ منّي، ثمّ أنشد [البسيط]:

تـأبَى لِيَعْصُـرَ أعـراقٌ[1] مهذَّبـةٌ ... مِنْ أن تُنَاسبَ قومًا غيرَ أكفاءِ

فإن يَكُن ذاكَ حَتْمًا لا مَرَدَّ لَهُ ... فاذكرْ حُذَيفَ فإنّي غيرُ أبّاءِ[2]

أراد حُذَيفة بن بَدْر الفَزَاريّ، وكان سيّد قَيْس في زمانه[3].

رأى عمر رجلًا يمشي ـ مُرْخِيًا يديه، طارحًا رِجْلَيه، يتبختر، فقال له: دَعْ هذه المِشْية. فقال: ما أطيق. فجلده ثمّ خلّاه، فترك التّبختر، فقال عمر: إذا لم أجلد في هذا، ففيم أجلد؟! فجاءه الرّجل بعد ذلك، فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيرًا، إن كان إلّا شيطانًا سُلِّط عَلَيّ فأذهَبَه اللهُ بك. (١٩ : ٣٥٢ ـ ٣٥٧)

**(الحكمة: ٤٦٢) الأصل: مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ، أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.**

**الشّرح:** قد تقدّم كلامُنا في الفَخْر، وذكرنا الشّعر الّذي أُخذ من هذا الكلام، وهو قول القائل [السّريع]:

مَـا بـالُ مَـنْ أوّلُـهُ نُطْفـةٌ ... وجِيفـةٌ آخِـرُهُ يَفخَـرُ

---

١ ـ في د: «أخلاق»، والمعنى عليه يستقيم أيضًا.

٢ ـ قال أبو العبّاس: قوله: «فاذكر حُذَيف»، أراد حُذَيفة بن بدر الفَزاريّ، وإنّما ذكره من بين الأشراف، لأنّه أقربهم إليه نَسَبًا، وذاك يَعْصر بني سعد بن قَيْس، وهؤلاء بنو ريث بن غَطَفان بن سعد بن قيس.

٣ ـ الكامل ٢ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

يُصْبِحُ ما يَمْلِك تَقدِيمَ ما  يَرْجُو ولا تأخِيرَ ما يحْذَرُ

وقال بعض الحكماء: الفَخْر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، وذلك نهاية الحُمْق لمن نَظَر بعَين عَقْلِه، وانحَسَر عنه قِناع جَهْله، فأعراض الدّنيا عاريَة مستردّة، لا يؤمَن في كلّ ساعةٍ أن تُرتجَع، والمُباهِي بها مُباهٍ بما في غير ذاته.

وقد قال لبعض مَن فخر بثَرْوَته ووَفْره: إنِ افتخرتَ بفَرَسِك فالحُسْن والفراهة له دونَك، وإنِ افتخرتَ بثيابِك وآلاتِك فالجمال لهما دُونَك، وإنِ افتخرتَ بآبائك وسَلَفِك فالفَضْل فيهم لا فيك، ولو تكلّمتْ هذه الأشياء لقالَتْ لك: هذه محاسِنُنا فما محاسِنُكَ!

وأيضًا فإنّ الأعراض الدّنيويّة كما قيل [الطّويل]

* سحابةُ صَيْف عن قليلٍ تَقَشَّع *

وظلٌّ زائلٌ عن قريب يَضْمَحِلّ، كما قال الشّاعر[الرّمل]:

إنّما الدّنيا كرؤيا فرّحَتْ  مَن رآها ساعةً ثُمَّ انقَضَتْ

بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتّٰى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتٰهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[1].

وإذا كان لا بدّ من الفَخْر فليَفْخر الإنسان بعِلْمه وبشريف خُلقه، وإذا أعجبك من الدّنيا شيء فاذْكُرْه فَناءَك وبقاءَه، أو بقاءك وفَناءه، أو فَناءَكما جميعًا، وإذا راقَك ما هو لك فانظُرْ إلى قُرْب خروجه من يَدِك، وبُعْد رُجوعه إليك، وطُول حسابك عليه، وقد ذمّ الله الفَخُور، فقال: ﴿وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]. (٢٠ : ١٥٠ ـ ١٥١)

---

١ ـ يونس / ٢٤ .

٢ ـ الحديد / ٢٣ .

## الفصل السّابع والثّمانون:

## [في الاعتضاد بالعشيرة والتّكثّر بالقبيلة]

**(الخطبة: ٢٣) ... أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِن كَانَ ذَا مَالٍ عَن عِتْرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِن وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِندَ نَازِلَةٍ إِنْ نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يُورِثُهُ غيرَهُ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ إنّه عليه السلام بعد نَهيه عن الرِّياء وطَلَب السُّمْعَة، أمر بالاعتضاد بالعَشيرة والتّكثّر بالقبيلة، فإنّ الإنسان لا يستغني عنهم وإن كان ذا مالٍ، وقد قالت الشُّعَراء في هذا المعنى كثيرًا، فمِن ذلك قول بعض شُعَراء الحماسة [1] [الطّويل]:

إذا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لَهُ حِينَ يَغْضَبُ ... فَوارِسُ إن قِيلَ ارْكَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا

ولم يَحْمِهِ بالنّصرِ قومٌ أعِزّةٌ ... مَقَاحِمُ في الأمرِ الّذِي يُتَهَيَّبُ

تَهَضَّمَهُ أدْنَى العِدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ ... وإن كانَ عِضًّا بالظّلامَةِ يُضْرَبُ

فآخِ لِحالِ السّلمِ مَن شِئْتَ واعْلَمَن ... بأنَّ سِوَى مَوْلاكَ في الحَرْبِ أجْنَبُ

ومَوْلَاكَ مَوْلَاكَ الّذِي إن دَعَوْتَهُ ... أجَابَكَ طَوْعًا والدِّماءُ تَصَبَّبُ

فلا تَخْذُلِ المَوْلَى وإن كانَ ظَالِما ... فإنَّ بِهِ تُقْأى الأمورُ وتُرْأبُ

ومن شعر الحماسة أيضًا [الطّويل]:

أفِيقُوا بني حَزْنٍ وأهْواؤُنا مَعًا ... وأرْحَامُنا مَوْصُولَةٌ لَمْ تُقَضَّبِ [2]

لَعَمْري لَرَهْطُ المَرْءِ خَيرٌ بَقِيَّةٍ ... عَلَيْهِ وإن عَالُوا بِهِ كُلّ مَرْكَبِ

إذا كُنتَ في قومٍ وأُمُّكَ مِنْهُمْ ... لَتُعْزَى إلَيْهِمْ في خَبِيثٍ وطَيِّبِ

---

١ ـ في الحماسة: «قراد بن عبّاد»، وصحّحه التّبريزيّ: «قراد بن العيّار»، وقال: «أبوه العيّار أحد شياطين العرب»، والأبيات في ٢ : ٦٦٩، من ديوان الحماسة بشرح المَرْزوقيّ.

٢ ـ ديوان الحماسة (١ : ٣١١) بشرح المرزوقيّ، ونَسَبَه التّبريزيّ (١ : ٢٩٧) إلى جُندل بن عمرو. مَعًا، أي مجتمعة. والقَضْب: القطع، ولم يرد في الحماسة سوى البيت الأوّل.

وإن حَـدَّثتْك الـنّفسُ أنّـك قـادِرٌ عَلَى ما حَوَتْ أيدِي الرِّجالِ فَكَذِّبِ

ومن شعر الحماسة أيضًا [الطّويل]:

لَعَمْرُكَ ما أنصَفْتَني حِينَ سُمْتَنِي هَـواكَ مَـعَ المَـوْلَى وأن لا هَـوَى لِيَـا[1]

إذا ظُلِمَ المَـوْلَى فَزِعْـتُ لِظُلْمِـهِ فَحَـرَّقَ أحشـائي وهَـرَّتْ كِلَابِيَـا

ومن شعر الحماسة أيضًا [الطّويل]:

وَمَـا كُنـتُ أبْغِي العَـمَّ يمشِـي عَـلَى شَـفَا وإن بَلَغَتْـنِي مِـن أذَاهُ الجَنَـادِعُ[2]

ولكـــن أوَاسِـــيهِ وأنسَـــى ذُنُوبَـــهُ لِتُرْجِعَـــهُ يومًـــا إلَيَّ الرَّوَاجِـــعُ

وحَسْـــبُكَ مِـــن ذُلٍّ وسُـــوءِ صَـــنِيعَةٍ مناواةُ ذِي القُرْبَى وإن قِيلَ قَاطِعُ

ومن شعر الحماسة أيضًا [الطّويل]:

أَلَا هَلْ أتَى الأنصَارَ أنّ ابْنَ بَحْدَلٍ حُمَيْدًا شَـفَى كَلْبًا فقَرَّتْ عُيونُهَا[3]

فإنّـا وكَلْبًـا كاليَـدَيْن مـتَى تَقَـعْ شِمَالُـكَ في الهَيْجَـا تُعِنهـا يَمِينُهَـا

(١ : ٣٢٦ ـ ٣٢٨)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ ....**

الشّرح: ... وأمّا قوله: «فأكرِم عشيرتك، فإنّهم جناحك»، فقد تقدّم منّا كلام في وجوب الاعتضاد بالعشائر.

---

١ ـ ديوان الحماسة (١ : ٣٥٠) بشرح التّبريزيّ، ونَسَبَه إلى حُرَيث بن جابر.

٢ ـ ديوان الحماسة (١ : ٣٨٠) بشرح التّبريزيّ، ونَسَبَه إلى محمّد بن عبد الله الأزديّ وروايته: «لا أدفع ابن العمّ يمشي ...».
وشَفَا الشّيء: حَرْفه . والجَنادع: الدّواهي .

٣ ـ ديوان الحماسة (٢ : ٥٢٢) بشرح المرزوقيّ، وهي هناك أربعة أبيات، هنا الأوّل والرّابع منها، ونَسَبها إلى بعض بني جُهَينة

## [اعتزاز الفَرَزْدَق بقومه]

روى أبو عبيدة، قال: كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأُمراء إلّا قاعدًا، فدخل على سليمان بن عبد الملك يومًا، فأنشده شعرًا فخر فيه بآبائه، وقال من جملته [البسيط]:

تاللهِ ما حملتْ مِن ناقةٍ مِثْلِي إذا الرّيحُ لَفَّتْنِي عَلَى

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك! قال: لي ولك يا أمير المؤمنين. فغضب سليمان وقال: قُمْ فأتمِمْ، ولاتنشد بعده إلّا قائمًا. فقال الفرزدق: لا والله، أو يسقط إلى الأرض أكثري شعرًا. فقال سليمان: ويلي على الأحمق ابن الفاعلة! لا يكني. وارتفع صوته، فسمع الضّوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لا ينشد الفرزدق قائمًا وأيدينا في مقابض سيوفنا. قال: فلينشد قاعدًا.

(١٦ : ١٢٨ ـ ١٢٩)

## الفصل الثّامن والثّمانون: [في العُجْب]

**(كتابه عليه السلام: ٥٣) ... وإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِن أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِن إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ ... .**

**الشّرح:** ... منها قوله عليه السلام: «إيّاك وما يُعجبك من نفسك والثّقة بما يعجبك منها»، قد ورد في الخبر: «ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى مُتَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه».

وفي الخبر أيضًا: «لا وحشة أشدّ من العُجْب».

وفي الخبر: «النّاسُ لآدم، وآدمُ من تُرابٍ، فما لابن آدم والفَخر والعُجْب!».

وفي الخبر: «الجار ثوبَه خُيَلاء لا يَنظُر الله إليه يوم القيامة».

وفي الخبر، وقد رأى أبا دُجانة يتبختر: «إنّها لَمِشْيةٌ يُبْغِضها الله إلّا بين الصَّفَّين». (١٧ : ١١٤)

**(الحكمة: ١٦٩) الأصل: الْإِعْجَابُ يَمْنَعُ الْازْدِيَادَ.**

**الشّرح:** قد تقدّم لنا قولٌ مُقْنع في العُجْب، وإنّما قال عليه السلام: «يمنع من الازدياد»، لأنّ المُعْجب بنفسه ظانّ أنّه قد بلغ الغرض، وإنّما يطلب الزّيادة مَن يستشعر التّقصير لا مَن يتخيّل الكمال، وحقيقة العُجْب ظنّ الإنسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحقّ لها، ولهذا قال بعضهم لرجلٍ رآه مُعْجبًا بنفسه: يَسُرّني أن أكون عند النّاس مثلك في نفسك، وإن أكون عند نفسي مثلك عند النّاس، فتمنّى حقيقة ما يقدره ذلك الرّجل، ثمّ تمنّى أن يكون عارفًا بعيوب نفسه، كما يعرف النّاس عيوب ذلك الرّجل المُعْجب بنفسه.

وقيل للحسن: مَن شرُّ النّاس؟ قال: مَن يَرَى أنّه خيرُهم.

وقال بعض الحُكَماء: الكاذب في نهاية البُعْد من الفَضْل، والمُرائي أسوَأ حالًا من الكاذب، لأنّه يكذب فعلًا، وذاك يكذب قولًا، والفِعْل آكدّ من القول، فأمّا المُعْجب

بنفسه فأسْوأ حالًا منهما، لأنّهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه، والمُعْجب بنفسه قد عَمَى عن عيوب نفسه فيراها محاسن ويُبْدِيها.

وقال هذا الحكيم أيضًا: ثمّ إنّ المُرائي والكاذب قد ينتفع بهما كمَلّاح خاف ركابه الغرق من مكان مَخُوف من البحر، فبشّرهم بتجاوزه قبل أن يتجاوزه لئلّا يضطربوا فيتعجّل غرقهم.

وقد يحْمَد رياءُ الرّئيس إذا قصد أن يقتدي به في فِعْل الخير، والمُعْجب لاحَظّ له في سَبَبٍ من أسباب المحْمَدة بحال.

وأيضًا: فلأنّك إذًا وعظتَ الكاذب والمُرائي فنفسهما تصدّقك وتثلّبهما لمعرفتهما بنفسهما، والمُعْجب فَلِجَهْله بنفسه يظنّك في وَعْظه لاغيًا، فلا ينتفع بمَقالك، وإلى هذا المعنى أشار سبحانه بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا﴾[1]، ثمّ قال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾، تنبيهًا على أنّهم لا يعقلون لإعجابهم.

وقال عليه السلام: ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وفي المَثَل: إنّ إبليس قال: إذا ظفرتُ من ابن آدم بثلاثٍ لم أُطالِبْه بغيرها: إذا أعْجبَ بنفسه، واسْتَكْثَر عَمَله، ونَسي ذُنوبه.

وقالت الحكماء: كما أنّ المُعْجب بفَرَسه لا يَرُوم أن يستبدل به غيره، كذلك المُعْجب بنفسه لا يُريد بحاله بَدَلًا، وإن كانت رَديئةً.

وأصل الإعجاب مِن حُبّ الإنسان لنفسه، وقد قال عليه السلام: «حُبّك الشّيء يُعْمِي ويُصِمّ»، ومَن عَمَى وصمّ تعذّر عليه رؤية عيوبه وسماعها، فلذلك وجب على الإنسان أن يجعل على نفسه عُيونًا تعرّفه عيوبه، نحو ما قال عمر: أحبّ النّاس إليّ امرؤٌ أهْدَى إليّ عُيوبي.

ويجب على الإنسان إذا رأى من غيره سيّئة أن يرجع إلى نفسه، فإن رأى ذلك موجودًا فيها نزعها ولم يغفل عنها، فما أحسن ما قال المتنبّي [المتقارب]:

---

١ ـ فاطر/ ٨.

ومَن جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رأى غيرُهُ منه ما لا يَرَى[١]

وأمّا التّيه وماهيّته فهو قريب من العُجْب، لكنّ المُعْجِب يُصدِّق نفسه وهما فيما يظنّ بها، والتّيّاه يُصدِّقها قطعًا، كأنّه متحيرّ في تيه.

ويمكن أن يُفرَّق بينهما بأمرآخَر، ويقول: إنّ المُعْجب قد يعجب بنفسه ولايؤذي أحدًا بذلك الإعجاب، والتّيّاه يضمّ إلى الإعجاب الغَضّ من النّاس والتّرفّع عليهم، فيستلزم ذلك الأذى لهم، فكلّ تائهٍ مُعْجب، وليس كلّ مُعْجب تائِهًا.

(١٨: ٣٩١ ـ ٣٩٣)

١ـ ديوانه ١: ٤٤.

## الفصل التّاسع والثّمانون: [في التّكبّر]

**(الخطبة: ٢١٠) ... وَإِنَّ مِن أَسخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِندَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَن يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، وَلَوكُنتُ أُحِبُّ أَن يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انحِطَاطًا لِلهِ سُبْحَانَهُ عَن تَنَاوُلِ مَا هُوأَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ....**

الشّرح: ... قوله عليه السلام: «مِن أسخف حالاة الوُلاة أن يظنّ بهم حُبّ الفخرويُوضع أمرهم على الكِبر»، قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يدخل الجنّة مَن كان في قلبه مثقال حبّة من كِبرٍ».

وقال صلى الله عليه وآله: «لولا ثلاث مُهْلِكات لصَلِح النّاس: شُحّ مُطاع، وهَوًى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وكان يقال: ليس لمُعْجَب رأْي، ولا لمتكبرّ صديق.

وكان أبو مسلم صاحب الدّولة، يقول: ما تاه إلّا وَضيع، ولا فاخر إلّا لقيط، ولا تعصّب إلّا دخيل.

وقال عمر لبعض ولده: التمس الرّفعة بالتّواضع، والشّرف بالدّين، والعفو من الله بالعفو عن النّاس، وإيّاك والخُيَلاء فتضعَ من نفسك، ولا تحقّرنّ أحدًا، لأنّك لا تدري لعلّ مَن تَزْدَريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك ... .

قوله عليه السلام: «لوكنت كذلك لتركتُه انحطاطًا لله تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من الكبرياء»، في الحديث المرفوع: «مَن تواضع لِلّه رَفَعَه اللهُ، ومَن تكبّر خَفضه الله».

وفيه أيضًا: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمَن نازعني فيهما قصمتُه.

(١١ : ١٠٢ ـ ١٠٥)

(الخطبة: ٢٣٨) ... أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا الْهُجَيْنَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ ... .

الشّرح: ... وقد كان أمر في الفصل الأوّل بالتّواضع لله، ونهى هاهنا عن التّواضع للرّؤساء، وقد جاء في الخبر المرفوع: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء، وأحسن منه تكبرّ الفقراء على الأغنياء».

الّذين تكبرّوا عن حسبهم، أي جهلوا أنفسهم ولم يفكّروا في أصلهم من النُّطف المستقذرة من الطّين المنتن، قال الشّاعر[السّريع]:

ما بال مَنْ أوّلُهُ نُطفَةٌ وجِيفةٌ آخِرُهُ يَفْخَرُ

يصبح لا يملك تقديمَ ما يرجُو ولا تأخيرما يحذَرُ

قوله عليه السلام: «وألقوا الهجينة على ربّهم».أي نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربّهم، مثل أن يقولوا للرّجل: أنت عجميّ ونحن عرب، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان، بل هو إلى الله تعالى، فأيّ ذنب له فيه ... .

واعتزاء الجاهليّة، قولهم: يا لَفلان! وسمع أُبيّ بن كعب رجلًا يقول: يا لَفلان! فقال: عَضَضْتَ بهنّ أبيك! فقيل له: يا أبا المنذر، ما كنتَ فَحّاشًا! قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يقول: «مَن تَعَزّى بعَزَاء الجاهليّة فأعِضّوه بهنّ أبيه ولا تكْنُوا».

قوله: «فلا تكونوا لنعمة الله أضدادًا»، لأنّ البغي والكِبر يقتضيان زوال النّعمة وتبدّلها بالنّقمة . (١٣ : ١٤٩ ـ ١٥٠)

(الحكمة: ١٢١) ... وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً، وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً ... .

الشّرح: ... فأمّا القول في الكِبر والتّيه، فقد تقدّم منه ما فيه كفاية، وقال ابن

الأعرابيّ: ما تاهَ عَلَيّ أحدٌ قطّ أكثر من مرّة واحدة، أخَذَ هذا المعنى شاعر فقال وأحسن [مجزوء الرّمل]:

هذه منك فإن عُدْ تَ إلى الباب فمَنّي

وقد تقدّم من كلامنا في نظائر هذه الألفاظ المذكورة ما يُغنِي عن الإطالة هاهنا. (١٨ : ٣١٥)

## الفصل التّسعون:

## [ الأشعار الواردة في الإباء والأنَفة من احتمال الضَّيْم]

**(الخطبة: ٥١) قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ.**

**الشّرح:** ... وقوله: «فأقرّوا على مَذَلَّةٍ وتأخير محَلَّةٍ»، أي اثبتوا على الذُّلِّ وتأخّر المرتبة والمنزلة، أو فافعَلوا كذا وكذا.

ونحو قوله عليه السلام: «فالموت في حياتكم مقهورين» قول أبي نصر بن نُباتة [الخفيف]:

والحُسَيْنُ الَّذِي رَأَى المَوْتَ في الـعِزْ ... ـزِ حَيَاةً والعَيْشَ فِي الذُّلِّ قَتْلَا

وقال التّهاميّ [الطّويل]:

ومَن فاتَهُ نَيْلُ العُلَا بعُلُومِهِ ... وأقْلامِهِ فليَبْغِهَا بحُسَامِهِ[1]

فمَوْتُ الفَتَى في العِزِّ مِثْلُ حَياتِهِ ... وعِيشتُهُ في الذُّلِّ مِثْلُ حِمامِهِ

والأشعار في الإباء الأَنَف مِن احتمال الضَّيْم والذُّلّ والتّحريض على الحرب كثيرة، ونحن نذكر منها هاهنا طَرَفًا، فمِن ذلك قول عمرو بن بَرّاقة الهَمْدانيّ [الطّويل]:

وكَيفَ يَنامُ اللّيْلَ مَن جُلّ مَالِهِ ... حُسَامٌ كلَوْنِ المِلْحِ أبْيضُ صَارِمُ[2]

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تأخذُونها ... مُراغَمَةً ما دامَ للسَّيْفِ قائِمُ

ومَن يَطْلُبِ المالَ الممنَّع بالقَنا ... يَعِشْ ماجِدًا أو تخترِمْه الخَوارِمُ

ومثله [الطّويل]:

ومَن يطلبِ المال الممنَّعَ بالقَنَا ... يَعِشْ ماجِدًا أو يُؤْذَ فيما يمارِسُ

وقال حَرْب بن مِسْعر [الطّويل]:

عَطَفْتُ عَلَيه المُهْرَ عَطْفَةَ بَاسِلٍ ... كَمِيٍّ ومَن لا يَظْلِم النّاس يُظْلَمِ

---

١ ـ ديوانه: ٣٣.

٢ ـ من أبيات له في الأغاني ٢١: ١١٣ ـ ١١٤.

فأوْجَرْتُـهُ لَـدْنَ الكُعُـوبِ مُثَقَّفًـا فخَـرَّ صَـريعًا لليَـدَيْنِ ولِلْفَـمِ

وقال الحارث بن الأزقم [الطّويل]:

وما ضَاقَ صَدْري يا سُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ ولكنّـني في الحَادِثَـاتِ صَـلِيبُ
تَـرُوكٌ لـدارِ الخَسْـفِ والضَّـيْمِ مُنكِـرٌ بَصـيرٌ بِفِعْـلِ المكرُمـاتِ أريـبُ
إذا سَـــامَني السُّـــلْطانُ ذُلّا أبيتُـــهُ ولم أعْطِ خَسْفًا ما أقَامَ عِسِيبُ

وقال العبّاس بن مِرْداس السُّلَميّ [البسيط]:

يَـأبَى فَـوارِسُ لا تَعْـرَى صَـواهِلُها أن يَقْبَلُوا الخَسْفَ مِن مَلْكٍ وإن عَظُمَا
لَا والسُّـــيوفُ بأيْـــدِينا مجـــرَّدَةً لا كَـــانَ مِنّـــا غَـــدَاةَ الـــرَّوْعِ مُنهَزِمَـــا

وقال وهب بن الحارث [البسيط]:

لا تَحْبِسَنّي كأقْوَامٍ عَبَسْتَ بِهِمْ لن يَأنفُوا الذُّلّ حتّى تَأنَفَ الحُمُرُ
لا تُعْلَقَنّي قَذَاةً لستُ فاعِلُها واحْذَرْ شَبَاتي فقِدْمًا يَنفَعُ الحَذَرُ
فَقَدْ عَلِمْتَ بأنّي غَيرُ مُهْتَضَمٍ حتَّى يَلوحَ ببَطْنِ الرّاحَةِ الشَّعَرُ

وقال المسيّب بن عَلَس [المتقارب]:

أبَلِـغْ[1] ضُـبَيعةَ أنّ الـبِلا د فيهـا لـذي قُـوّةٍ مُغْضَـبُ[2]
وقد يقعدُ القَوْمُ في دارِهِمْ إذا لم يُضَـــامُوا وإن أجْـــدَبُوا
ويَرْتَحِلُ القَوْمُ عند الهَوا نِ عَن دارِهِمْ بعد ما أخصَبُوا
وقد كانَ سَامَةُ في قَوْمِهِ لَـــهُ مَطْعَـــمٌ ولَـــهُ مَشْـــرَبُ
فسَامُوهُ خَسْفًا فَلَمْ يَرْضَهُ وفي الأرضِ عَن ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر [البسيط]:

---

١ ـ كذا في ديوانه، ولا يستقيم الوزن به، و يستقيم مع « أُبَلِّغ» أو«وأبْلِغ » بدل: أبْلِغ ... فلاحظ.

٢ ـ ديوان الأعشيين : ٣٤٩ ، مع اختلاف في الرّواية .

إنّ الهـوانَ حِمَـارُ القـومِ يَعْرِفُـه والحُـرّ يُنكِـرُهُ والرَّسْـلَةُ الأجُـدُ[١]
ولا يُقِيـمُ عـلى خَسْـفٍ يُـرادُ بِـهِ إلّا الأذلّانِ عَيـرُ الحَـيّ والوَتِـدُ[٢]
هذا عَلَى الخَسْف مَشْدُودٌ برُمّتِهِ وذا يُشَـجُّ فـلا يـأوي لـه أحَـدُ[٣]
فـإن أقَمْـتُمْ عـلى ضَـيْمٍ يُـرادُ بِكُـمْ فـإنّ رَحْـلي لَـهُ والٍ ومُعْتَمَـدُ
وفي البـلادِ إذا مـا خِفْـتُ بـادرَةً مكروهةً عَن وُلاةِ السَّوْءِ مُفْتَقَدُ

وقال بعض بني أسد [المنسرح]:

إنّي امرؤٌ من بَنِي خُزَيمةَ لَا أطْعَـمُ خَسْـفًا لناعِـبٍ نَعَبَـا
لَسْتُ بمُعْطٍ ظُلامةً أبدًا عُجْمًـا ولاأتّـقِي بهـا عَرَبَـا

دخل مُوَيلك السَّدوسيّ إلى البَصْرة يبيع إبلًا، فأخذ عامل الصّدقة بعضها، فخرج إلى البادية، وقال [الخفيف]:

ناقُ إنّي أرَى المُقامَ على االضَّيـ ـمِ عَظِيمًا في قُبّةِ الإسـلامِ
قد أراني وَلِي مِنَ العامِلِ النّصـ ـف بحدِّ السِّنانِ أو بالحُسَامِ

وقال يزيد بن المفرّغ الحِمْيريّ [الخفيف]:

لا ذعرتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ مُغِيـرًا ولادُعِيـتُ يَزِيـدَا[٤]
يَوْمَ أعْطَى مِنَ المَخَافَةِ ضَيْمًا والمَنايَـا يَرْصُـدْنَنِي أن أحِيـدَا[٥]

وقال آخر[مجزوء الكامل]:

لا تحْسـبِيني يـا أمـا ـمَةَ عـاجِزًا دَنِسًـا ثِيَابُـهْ

---

١ ـ للمتلمّس، معاهد التّنصيص ٢ : ٣٠٦. الرَّسْلة : النّاقة السّهلة السّير. والأجُد : الموثقة الخلق .

٢ ـ العير، بفتح العين: الحمار ، وغلب على الوحشيّ، والمراد به هنا الأهليّ .

٣ ـ الرُّمّة: القطعة من الحَبْل. وأوى له، أي رقّ .

٤ ـ السّوام: الإبل الرّاعية .

٥ ـ يرصدنني: يراقبنني .

إنّي إذا خِفْتُ الهَوا ... نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابُهْ[1]

مثله قول عَنتَرة [الكامل]:

ذُلُلٌ رِكَابي حَيْثُ شِئْتُ مُشايعي ... لُبّي وأحْفِزُهُ بِرأيٍ مُبرَمِ[2]

وقال آخر[المنسرح]:

أخْشَيَةِ الموتِ دَرَّ دَرُّكُمْ ... أعطيتُمُ القَوْمَ فَوْقَ ما سألُوا

إنّا لَعَمْرُ الإلهِ نَأبَى الّذِي ... قالوا ولما تُقَصَّفِ الأسلُ

نَقْبَلُ ضَيْمًا ونحنُ نَعْرِفُهُ ... ما دامَ مِنّا بِظَهْرِهَا رَجُلُ

وقال آخر[البسيط]:

ورُبَّ يَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً ... فِيهِ لأكْبِتَ أعداءً أحَاشِيهَا

آبَى وآنَفُ مِن أشياء آخُذُها ... رَثّ القُوى، وضعيفُ القَوْمِ يُعْطِيهَا

مثله للسّدّاخ [الطّويل]:

أبَيْنَا فلا نُعْطِي مليكًا ظُلَامةً ... ولا سُوقة إلّا الوَشِيج المقوّمَا

وإلّا حُسَامًا يَبْهَرُ العَينَ لَمْحُهُ ... كصَاعقةٍ في عَارِضٍ قد تَبَسَّمَا

(٣ : ٢٤٥ ـ ٢٤٩)

## [أُباة الضَّيم وأخبارهم]

سيّد أهل الإباء، الّذي علّم النّاس الحميّة والموت تحت ظِلال السُّيوف اختيارًا له على الدّنيّة: أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. عُرِض عليه الأمان وأصحابُه، فأنِفَ من الذُّلّ، وخاف من ابن زياد أن ينالَه بنوعٍ من الهَوان إن

---

١ ـ المشيَع: الشّجاع.

٢ ـ مِن المعلّقة: ٢٠٥ ـ بشرح التّبريزيّ. ذُلُل: جمع ذلول، وهو من الإبل وغيرها ضدّ الصّعب، والمشايع: الشّجاع، مثل المشيّع، كأنّ قلبه لا يخذله، فهو يشيّعه. وأحفزه: أدفعه. والمُبرَم: المحكم.

لم يَقْتُلْه[١]، فاختار الموت على ذلك.

وسمعتُ النَّقيب أبا زيد يحيى بن زيد العَلَويّ البَصْريّ، يقول: كأنّ أبيات أبي تمام في محمّد بن حُمَيد الطّائيّ ما قيلت إلّا في الحسين عليه السلام [الطّويل]:

وقَدْ كانَ فَوْتُ الموتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ ... إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونَفْسٌ تَعافُ الضَّيْمَ حتَّى كأنَّهُ ... هو الكُفْرُ يَومَ الرَّوْعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ

فأثْبَتَ في مُسْتَنقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ ... وقال لها: مِن تحت أخْمُصِكِ الحَشْرُ

تَرَدَّى ثِيابَ الموتِ حُمْرًا فما أتَى ... لها اللّيلُ إلّا وَهْيَ مِن سُندُسٍ خُضْرُ

لمّا فَرّ أصحابُ مُصْعَب عنه، وتخلّف في نَفَرٍ يَسيرٍ من أصحابه، كسر جَفنَ سَيْفه، وأنشد [الطّويل]:

فإنَّ الأُولَى بالطَّفِّ مِن آل هاشِمٍ ... تَأسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِرامِ التَّأسِيَا[٢]

فعَلِمَ أصحابه أنّه قد استقتل.

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطّفّ، المنقول عنه، نقله عنه زَيْنُ العابدين عليّ ابْنُه عليه السلام: «ألا وإنّ الدَّعِيّ بن الدَّعِيّ، قد خيّرَنا بين اثنتين: السّلّة[٣] أو الذّلّة، وهيهات منّا الذّلّة! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجُور طابَتْ، وحُجُزٌ طَهُرتْ[٤]، وأُنوفٌ حَمِيّة ونُفوس أبيّة».

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام، وقد ذكرناه فيما تقدّم: «إنّ امرأ أمكن عدوًّا من نفسه، يعرُق لحْمَه، ويفري جِلْده، ويهشِم عَظْمه، لعظيم عجزُه، ضعيف ما ضُمّت عليه جوانح صَدْره، فكُن أنت ذاك إن شئت، فأمّا أنا فدُون أن أعطِيَ ذلك ضَرْبٌ

---

١ ـ كذا في ج . و في أ، ب: «مع أنّه لم يقتله» .

٢ ـ لسُليمان بن قتّة، الكامل ١: ١٤ . والطّفّ: من ضاحية الكوفة، كان فيها مَقْتل الحسين عليه السلام .

٣ ـ السِّلّ: انتزاعك الشّيء و إخراجك إيّاه في رفق. وعند السّلّة، أي عند استلال السُّيوف .

٤ ـ الحُجُز: جمع حُجزة، حيث يُثنى طَرَف الإزار، كناية عن العفّة .

بالمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنهُ فَرَاشُ الهَامِ، وتطيح السّواعد والأقدام».

وقال العبّاس بن مِرْداس السُّلميّ [الطّويل]:

مَقال امرئٍ يُهْدى إليك نصيحةً ... إذا مَعْشرٌ جادوا بعرضِك فابخَلِ

وإن بَوَّؤُوكَ منزلًا غيرَ طائلٍ ... غليظًا فلا تنزلْ بهِ وتحوّلِ

ولا تَطْعَمَن ما يعلِفُونَك إنّهمْ ... أتَوْكَ على قُرْباهُم بالمَمَلِ[1]

أراك إذًا قد صِرْتَ للقَوْم ناضِحًا ... يقالُ لَهُ بالغَرْبِ أذْبِرْ وأقْبِلِ[2]

فخُذْها فليستْ للعزيزِ بخُطَّةٍ ... وفيها مَقامٌ لِامرِئٍ مُتَذَلِّلِ

وله أيضًا [الطّويل]:

فحارِبْ فإنْ مولاكَ حَاردَ نَصْرُهُ ... ففي السَّيف مولى نَصْرُه لا يحارِدُ[3]

وقال مالك بن حَريم الهَمْدانيّ [الطّويل]:

وكُنتُ إذا قَوْمٌ غَزَوْني غَزَوْتُهمْ ... فَهَلْ أنا في ذا يَالَ هَمْدانَ ظالمُ!

مَتى تجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيّ وصَارِمًا ... وأنفًا حَمِيًّا تجتنبْكَ المَظالمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العَنزيّ [الرّجز]:

بَاتُوا نِيامًا وابنُ هِنْدٍ لم يَنَمْ ... بَاتَ يُقاسِيهَا غُلامٌ كالزَّلَمْ[4]

خَدَلّجُ السّاقَين خَفّاقُ القَدَمْ[5] ... قد لَفَّها اللّيْلُ بِسوَّاقٍ حُطَمْ[1]

---

١ ـ قال التّبريزيّ: المَمَل: هو السّمّ الّذي قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ، أي سقوك السّمّ وإن كانوا أقرباءك فلا تغترّ بهم وكُنْ ذا أنفة». وبعده في رواية التّبريزيّ: أبْعَدَ الإزارِ مُجْسَدًا لك شاهِدًا ... أتيتَ بِهِ في الدّارِ لَمْ يتزيّلِ

٢ ـ النّاضح: البَعير الّذي يُستَقى عليه الماء، قال التّبريزيّ: «يقول: أبعد الإزار مخصوبًا بالدّم أتيت به في الدّار شاهِدًا تصالحهم! فإن فعلتَ ذلك صِرْتَ كالنّاضح للقوم انقيادًا لهم».

٣ ـ ديوان الحماسة ٢ : ١٥ ـ بشرح التّبريزيّ : وحارد نصره، أي امتنع، والمحاردة في الأصل: قلّة اللّبن، واستعيرهنا.

٤ ـ الزَّلَم: القَدح. يقاسيها، أي يعاني الغارة كيف يُوقِعها ويُدبرها.

٥ ـ خَدَلّج السّاقَين: ممتلئهما. خَفّاق القَدَم: سريع الخَطو، ضراب بها للأرض.

لَـيْسَ براعِـي إبـلٍ ولاغَـنَمْ ولابجـزّارٍ عَـلَى ظَهْـرِ وَضَـمْ[٢]

* مَن يَلْقَني يُودِ كما أوْدَتْ إرَمْ *

وقال آخر[الطّويل]:

ولَسْـتُ بمبتَـاعِ الحَيـاةِ بِسُـبَّةٍ ولامُرْتَقٍ مِن خَشْيَةِ المَوْتِ سُلّمَا[٣]

ولمـا رأيتُ الوُدَّ ليسَ بنَافِعي عَمَدْتُ إلى الأمرِ الّذي كانَ أحْزَمَا

ومن أُباة الضَّيْم يزيد بن المهلَّب؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته، لأسباب ليس هذا موضع ذِكْرها، فلمّا أفْضَتْ إليه الخلافة، وخَلَعه يزيد بن المهلّب، ونَزَع يده من طاعته، وعَلِم أنّه إن ظَفِربه قَتَلَه ونالَهُ من الهَوان ما القتل دونه، فدَخَل البَصْرة ومَلَكَها عَنوةً، وحبس عَدِيّ بن أرْطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جَيْشًا كَثيفًا، ويشتمل على ثمانين ألفًا من أهل الشّام والجزيرة، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلمة بن عبد الملك، وكان أعْرَف النّاس بقيادة الجيوش وتدبيرها، وأيمنَ النّاس نَقِيبةً في الحَرْب، وضَمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، فسار يزيد بن المهلّب من البَصْرة، فقَدِم واسطَ، فأقام بها أيّامًا، ثمّ سار عنها فنزل العَقْر[٤]، واشتملت جَريدة جَيْشه على مائة وعشرين ألفًا، وقَدِمَ مَسْلَمة بجُيوش الشّام، فلمّا تَراءَى العَسْكَرانِ، وشبّت الحرب، أمَرَ مَسْلَمة قائدًا من قُوّاده أن يحْرِق الجُسُور الّتي كان عَقَدها يزيد بن المهلّب، فأحْرَقها ، فلمّا رأى أهل العِراق الدُّخان قد عَلَا انهزموا، فقيل ليزيد بن المهلّب: قد انهزم النّاس. قال: ومِمّ انهزموا؟ هل كان قتال ينهزم النّاس مِن مِثْله؟ فقيل له: إنّ مَسْلَمة أحْرَق الجُسُور

---

١ ـ قد لَفَها، أي الإبل، وجعل الفعل للّيل على المجاز. والحُطَم: الّذي لايَبْقى من السّير شيئًا، والمعنى أنّه جمعها برجل متناهي القوّة، عَنيف السّوق .

٢ ـ الوَضَم: كلّ ما قطع عليه اللّحم .

٣ ـ للحُصَين بن حمّام المرّيّ، المفضّليّات : ٦٥، مع اختلاف في الرّواية .

٤ ـ قال ابن خَلّكان: «هي عَقر بابل، وهي عند الكوفة بالقُرب من كَربلاء، الموضع الّذي قُتِل فيه الحسين عليه السلام .

فلم يثبتوا. فقال: قَبَّحهم الله، بَقُّ دُخَن عليه فطارا! ثمّ وقف ومعه أصحابه، فقال: اضْربوا وُجوه المُنهَزِمين، ففعلوا ذلك حتّى كَثُرُوا عليه، واستقبله منهم أمثال الجبال، فقال: دَعَوهم قَبَّحهم الله! غَنَمٌ عَدَا في نواحيها الذِّئب. وكان يزيد تحدّثه نفسه بالفرار، وقد كان أتاه يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثَّقفيّ بواسِط، فقال له [الطّويل]:

فعِشْ مَلِكًا أو مُتْ كَريمًا فإن تَمُتْ وسَيْفُكَ مَشْهُورٌ بكفّكَ تُعْذَرِ

فقال: ما شعرت. فقال: إنّ بني مروانَ قد بَادَ ملكُهُمْ فإن كُنتَ لم تَشْعربذلكَ، فَاشْعُرفقال: أما هذا، فعَسَى. فلمّا رأى يزيد انهزام أصحابه، نزل عن فرَسه، وكَسِرَ جَفْن سَيْفه واستقتل، فأتاه آتٍ. فقال: إنّ أخاك حَبيبًا قد قُتِل. فزاده ذلك بَصيرةً في تَوْطينه نفسه على القتل، وقال: لا خَيرَ في العَيْش بعد حَبيب! والله لقد كُنتُ أبْغَضُ الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددتُ لها بُغْضًا، امْضوا قُدُمًا. فعَلِم أصحابه أنّه مستميت، فتسلّل عنه مَن يَكْره القتال، وبَقِي معه جماعةٌ خشية، فهو يتقدّم كلّما مَرّ بخَيْل كَشَفها، وهو يقصد مَسْلَمة بن عبد الملك لايريد غيره، فلمّا دنا منه، أذنى مَسْلَمةُ فَرَسه ليركبَ، وحالَتْ خُيول أهل الشّام بينهما، وعَطَفتْ على يزيد بن المهلّب، فجالدهم بالسّيف مُصْلتًا[1]، حتّى قُتِل وحُمِل رأسُه إلى مَسْلَمة، وقُتِل معه أخُوه محمّد بن المهلّب، وكان أخوهما المفضّل بن المهلّب، يقاتل أهل الشّام في جهةٍ أُخرى، ولا يعلم بقتْل أخَوَيْه يزيد ومحمّد، فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلّب، وقال له: ما تصنع وقد قُتِل يزيد ومحمّد، وقبلهما قُتِل حبيب، وقد انهزم النّاس!

وقد رُوِي أنّه لم يأته بالخَبر على وجهه، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقْتل، فقال له: إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط، فاقتصّ أثره. فانحدر المفضّل حينئذٍ، فلمّا عَلِمَ بقتل إخْوَته، حَلَف ألّا يكلّم أخاه عبد الملك أبدًا: وكانت عين المفضّل قد أُصيبت من قبل في حَرْب الخوارج، فقال: فَضَحني عبد الملك، فَضَحَه الله! ما عُذْري إذا رآني

---

١ ـ مصلتًا: أي مجرّدًا من غمده.

النّاس، فقالوا: شيخٌ أعْوَر مَهْزوم، ألا صدقني فقتلت! ثمّ قال [الطّويل]:

ولا خَيرَ في طَعْنِ الصَّنادِيدِ بالقَنَا ولا في لِقَاءِ النّاسِ بَعْد يَزِيدِ

فلمّا اجتمع مَن بَقِي من آل المهلّب بالبَصْرة بعد الكسرة، أخرجوا عَدِيّ بن أرطاة أمير البَصْرة من الحَبْس، فقتلوه وحملوا عياهم في السُّفُن البَحْريّة، وَلجِحُوا في البحر، فبعث إليهم مَسْلَمة بن عبد الملك بَعْثًا عليه قائد من قُوّاده، فأدركهم في قَندَابيل[1]، فحاربهم وحاربوه، وتقدّم بنو المهلّب بأسيافهم، فقاتلوا حتّى قُتِلُوا عن آخرهم، وهم: المفضّل بن المهلّب، وزياد ابن المهلّب، ومروان بن المهلّب، وعبد الملك بن المهلّب، ومعاوية بن يزيد بن المهلّب، والمِنهال ابن أبي عُيَينة بن المهلّب، وعمرو والمغيرة ابْنَا قبيصة بن المهلّب، وحمِلَتْ رءوسهم إلى مَسْلَمة ابن عبد الملك، وفي أُذُن كلّ واحدٍ منهم رُقْعة فيها اسمه، واستُؤْسِر الباقون في الوقعة، فحُمِلوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشّام، وهم أحد عشر رجلًا، فلمّا دخلوا عليه قام كُثَيّر بن أبي جمعة، فأنشد [الطّويل]:

حَلِيمٌ إذا ما نَالَ عَاقَبَ مُجْمِلًا أشَدّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ

فعَفْوًا أميرَ المؤمنينَ وحِسْبَةً فما تَأتِهِ مِن صَالحٍ لكَ يُكتَبِ

أَسَاؤُوا فإن تصفحْ فإنّك قادرٌ وأفضل حِلْمٍ حِسْبةً حِلْمُ مُغْضَبِ

فقال يزيد: أطّت[2] بك الرَّحِم يا أبا صخر! لولا أنّهم قَدَحوا في الملك لعفوت عنهم ،ثمّ أمر بقَتْلهم فقتلوا، وبَقِي منهم صَبيٌّ صغيرٌ، فقال: اقْتلوني فلستُ بصغيرٍ، فقال يزيد بن عبد الملك: انظروا هل أنبت! فقال: أنا أعلم بنفسي، قد احتلمتُ ووطئت النّساء فاقْتلوني، فلا خَيرَ في العيش بعد أهلي! فأمر به فقُتِل.

قال أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى: وأسماء الأُسارى الّذين قُتِلُوا صَبرًا ـ وهم أحد عشر

---

١ ـ قندابيل: مدينة بالسّند .

٢ ـ أطّت بك الرّحم: رقّتْ و حَنَتْ .

مُهلّبيًّا: المعارك وعبد الله والمغيرة والمفضّل والمِنجاب، بنو يزيد بن المهلّب. ودُرَيد والحجّاج وغَسّان وشَبيب والفَضْل، بنو المفضّل بن المهلّب لصُلْبه. والفضل بن قبيصة بن المهلّب. قال: ولم يَبْقِ بعد هذه الوقعة الثّانية لأهل المهلّب باقية إلّا أبو عُيَينة بن المهلّب. وعمر بن يزيد بن المهلّب، وعُثمان بن المفضّل بن المهلّب، فإنّهم لحقوا برتْبيل[1]، ثمّ أُومِنُوا بعد ذلك.

وقال الرَّضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى [الطّويل]:

ألا للهِ بـــادِرَةُ الطِّـــلَابِ ... وعَـــزْمٌ لا يُـــرَوَّعُ بالعِتَـــابِ[2]
وكـلّ مُشـمِّرِ البُـرْدَيْنِ يَهْـوِي ... هُـوِيَّ المُصْـلَتَاتِ إلى الرِّقـابِ
أعَاتِبُـهُ عـلى بُعْـدِ التَّنـائِي ... فيعـذُلُنِي عـلى قُـرْبِ الإيـابِ
رأيـتُ العَجْـزَ يخْضَـعُ لِلّيـالي ... ويَـرْضَى عَـن نَوائِبِهـا الغِضَـابِ
وآمـلُ أن تطـاوَعَني اللّيـالي ... وَيَنشَـبَ في المُـنَى ظِفري ونَـابِي
ولـولا صَـوْلةُ الأقْـدَارِ دُوني ... هَجَمْتُ على العُلَا من كلِّ بَابِ

وقال أيضًا [الخفيف]:

لا يَبُـذّ الهمـومَ إلّا غـلامٌ ... يَرْكَـبُ الهَـوْلَ والحُسَـامُ رَدِيـفُ[3]
مـا يُـذِلّ الزّمـانُ بـالفَقْرِ حُـرًّا ... كَيْفَمـا كـانَ فالشَّـرِيفُ شَـرِيفُ

وقال أيضًا رحمه الله تعالى [الوافر]:

ولَسْتُ أضَـلّ في طُرُقِ المَعـالي ... ونَـارُ العِـزّ عَالِيَـةُ الشُّـعَاعِ[4]
ودُونَ المجْـدِ رَأيٌ مُسْـتَطِيلٌ ... وبَـاعٌ غيـرُ مَجْبُـوبِ الـذِّرَاعِ

---

١ ـ رتبيل: من ملوك التُّرك .

٢ ـ ديوانه: لوحة ٧٧، مِن قصيدةٍ يفتخر و يمدح آل البيت و يذكر قبورهم و يتشوّقها .

٣ ـ ديوانه : لوحة ١٨٩ .

٤ ـ ديوانه : لوحة ٣٦ ، من قصيدةٍ يمدح فيها أباه و يهنّئه .

ويُعْجِبُـنِي البِعـادُ كـأنَّ قَلْـبي يحـدّث عـن عَـدِيّ بـن الرِّقـاعِ
فَـرِدْ نَهْـيَ العـلاءِ بـلا رَقيـبٍ وشَمِّـرَ في الأمُـورِ بـلا نِـزَاعِ
ولاتَغْـرُرْكَ قَعْقَعَـةُ الأعـادي فـذاكَ الصَّـخْرُ خَـرَّ مِـنَ اليَفَـاعِ
ونَحْـنُ أحَـقُّ بالـدُّنيا ولكـن تَخَيَّـرَتَ القُطـوفَ عـلى الوِسَـاعِ

وقال حارثة بن بَدْر الغُدانيّ [الطّويل]:

أهَـانُ وأقصَـى ثمّ ينتصـحُونَني ومَـن ذا الّـذي يُعْطِـي نصيحتَهُ قَسْـرَا!
رأيـتُ أكـفَّ المُصْـلِتينَ عَلَـيْكُمُ مِـلاءً وكـقِّي مِـن عَطـائِكُمُ صِـفْرَا
مَتى تسألوني ما عَلَيّ وتَمْنَعُوا الّـ ـلَـذي لي، لا أسـتطيع في ذلكـمُ صَـبرَا[1]

وقال بعض الخوارج [الطّويل]:

تُعَيِّرُني بالحَرْبِ عِرْسي وما دَرَتْ بأنِّي لها في كلِّ ما أمَرَتْ ضِدْ
لحَـا اللهُ قومًا يَقْعُـدونَ وعِنـدَهُمْ سُيُوفٌ ولَمْ يعصبْ بأيديهمُ قِدْ

وقال الأعشى [الطّويل]:

أبِالمَوْتِ خَشَّتْني عِبَادٌ وإنَّما رأيتُ مَنايَا القَوْمِ يَسْعَى ذَليلُها[2]
وما موتَةٌ إن مِتُّها غيرَ عاجِزٍ بعَارٍ إذا ما غَالتِ النَّفْس غولُهـا

وقال آخر[الطّويل]:

فـلا أسمعـن فـيكم بـأمرٍ هَضـيمةٍ وضَـيْمٍ ولاتَسْـمعْ بِـهِ هـامتِي بَعْـدِي
فـإنَّ السِّـنانَ يَرْكَـبُ المَـرْءُ حَـدَّهُ مِن الضَّـيْم، أو يَعْدُو على الأسَدِ الوَرْدِ

ومثله [الطّويل]:

---

١ ـ عجز هذا البيت غير مستقيم الوزن، و رواية الدّيوان:

فإن تسألوني ما عَلَيَ و تمنعوا الـ لَذِي ليَ لا أستطع على دلكم صبرا

٢ ـ ديوانه : ١٢٥ .

إذا أنـتَ لم تُنصِـفْ أخَـاكَ وَجَدْتَـهُ ... على طرف الهِجْرانِ إن كانَ يَعْقِلُ[1]
ويَرْكَبُ حَدّ السَّيْفِ مِن أن تُضِيمَهُ ... إذا لَمْ يَكُنْ عَن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

وقال آخر[الخفيف]:

كَرِهُوا المَوْتَ فاسْتُبِيحَ حِمَاهُمْ ... وأقـامُوا فِعْـلَ اللّئيمِ الـذّليلِ
أمِنَ المَـوْتِ تهربـون فـإنّ الْـ ... ـمَوْتَ مَوْتَ الذّليلِ غير جَميلِ

وقال بشامة بن الغدير[المتقارب]:

وإنَّ الّـتي سَـامَكُمْ قَـوْمُكُمْ ... هُـمُ جَعَلُوهـا علـيكمْ عُـدُولَا[2]
أخِـزْيِ الحيـاةِ وكُـرْه المَمـات ... فكُـلّا أراهُ طَعَامًـا وَبِـيلَا
فـإن لم يكـن غَيـرُ إحـداهما ... فَسِيرُوا إلى المـوتِ سَيرًا جَمِـيلَا
ولاتَقْعُـدُوا وبِكُـمْ مِنّـةٌ ... كَـفَى بـالحوادثِ للمَـرْءِ غُـولَا

قال يزيد بن المهلّب في حرب جرجان لاخيه أبي عيينة: ما أحسن منظر رأيت في هذه الحرب؟ قال: سيف بن أبي سَبرة وبيضته. وكان عبد الله بن أبي سَبرة حَمَل على غلام تركيّ قد أفرج النّاس له، وصدّوا عنه لبَأْسه وشجاعته، فتضاربا ضَرْبَتَيْن، فقتله ابن أبي سَبرة بعد أن ضربه التُّركيّ في رأسه، فنشب سيفُه في بيضة ابن أبي سَبرة، فعاد إلى الصّفّ وسيفه مصبوغٌ بِدَم التّركيّ وسيف التّركيّ ناشب في بيضته كجزء منها يَلْمَع، فقال النّاس: هذا كوكب الذّنب. وعجبوا من منظره.

وقال هُدْبة بن خَشْرم [الطّويل]:

وإنّي إذا ما الموتُ لم يَكُ دُونَهُ ... قِدَى الشّبر أحمى الأنف أن أتأخّرا[3]
ولكنّني أعْطِي الحفيظَةَ حَقَّهَا ... فـأعْرِفُ معروفًـا وأنكـرُ مُنكَـرَا

---

١ ـ لمعن بن أوس، ديوانه: ٥٩.

٢ ـ مختارات ابن الشّجريّ: ١٦، المفضّليّات: ٥٩.

٣ ـ قِدَى الشّبر: قدره، والبيت في اللّسان ٢٠: ٣٢.

وقال آخر[البسيط]:

إنّي أنا المَرْءُ لا يُغضي على تِرَهٍ ولا يُقَـرّعـلى ضَـيْمٍ إذا غُشِـمَا
ألقى المنيّةَ خَوْفًا أن يُقالَ فَتًى أمْسَى وقَدْ ثبتَ الصّفّانِ مُنهزِمَا

وقال آخر[أحذ الكامل]:

قَوِّضْ خِيَامَكَ والتمِسْ بَلَدًا تَنأى عَنِ الغاشِيكَ بالظُّلْمِ
أو شِدَّ شدَّةَ بَيْهَسٍ فعَسَى أن يَتَّقُوكَ بصَفحةِ السِّلْمِ[1]

استَنصَر سبيع بن الخطيم التّيميّ من بني تيم اللّات بن ثَعْلَبة زيد الفَوارس الضّبّيّ فنصره، فقال [البسيط]:

نَبّهْتُ زيدًا فَلَمْ أفْزَعْ إلى وَكِلٍ رَثِّ السّلاحِ ولا في الحيِّ مَغمورِ
سَالَتْ عَلَيْه شِعابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا أنصارَه بوُجُوهٍ كالدّنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطّلب [الطّويل]:

كَذَبْتُمْ وبيتِ الله نُخْلِي محمّدًا ولما نطاعِنْ دُونَهُ ونُنَاضِلِ[2]
ونَنصُرهُ حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحَلائلِ

لما برز عليّ وحمزة وعُبيدة عليهم السلام يوم بَدْر إلى عُتْبة وشَيْبة والوليد، قَتَل عليّ عليه السلام الوليدَ، وقَتَلَ حمزةُ شَيْبةَ، على اختلاف في رواية ذلك: هل كان شيبة قِرْنَهُ أم عُتْبة؟ وتجالَد عُبيدة وعُتْبة بسيفَيهما، فجَرَح عُبيدةُ عُتْبةَ في رأسه، وقطع عُتْبةُ ساقَ عُبَيدةَ، فكرّ عليّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما، فاستنقذاه من عُتْبة، وخبطاه بسيفَيهما حتّى قَتَلاه واحتملا صاحبَهما، فوَضَعاه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في العَرِيش، وهو يجود بنفسه، وإنّ مُخّ ساقه ليَسِيلُ، فقال: يا رسول الله، لوكان أبو طالب حيًّا لعَلِم أنّي أوْلى منه بقوله [الطّويل]:

---

١ ـ البَيْهس: الشّجاع.

٢ ـ ديوانه: ٥ (طبعة النّجف).

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ نُخْلِي محمّدًا ولما نُطَاعِنْ دُونهُ ونُنَاضِلِ
ونَنصُره حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحَلائلِ

فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتَني! اللّهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض».

لما قدم جيش الحَرّة إلى المدينة، وعلى الجيش مُسْلم بن عُقْبة المريّ، أباح المدينة ثلاثًا، واستعرض أهلَها بالسَّيف جَزْرًا كما يجْزُرُ القَصّاب الغَنَم، حتّى سَاخَتِ الأقدام في الدّم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذُرّيّة أهل بَدْر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ مَنِ استبقاه من الصّحابة والتّابعين، على أنّه عبد قِنّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحَرّة، إلّا عليّ بن الحسين بن عليّ عليهما السلام، فإنّه أعظمه وأجلسه معه على سَريره، وأخذ بيعته على أنّه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمّه، دفعًا له عمّا بايَعَ عليه غيره، وكان ذلك بوُصَاةٍ من يزيد بن معاوية له، فهرب عليّ بن عبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى إلى أخْوالِه مِن كِندَة، فحَمَوْه من مُسْلم بن عُقْبة، وقالوا: لا يُبَايع ابنُ أُخْتنا إلّا على ما بايَعَ عليه ابن عمّه عليّ بن الحسين، فأبَى مُسْلم بن عُقْبة ذلك، وقال: إنّي لم أفعل ما فعلت إلّا بوُصاة أمير المؤمنين، ولولا ذلك لقَتَلْتُه، فإنّ أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل، أو لأخذتُ بيعتَه على ما أخذتُ عليه بيعة غيره. وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم، حتّى وقع الاتّفاق على أن يبايع ويقول: أنا أُبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وألتزم طاعته، ولا يقول غير ذلك، فقال عليّ بن عبد الله بن العبّاس [الوافر]:

أبي العبّاسُ رأسُ بني قُصَيٍّ وأخْوالي المُلُوكُ بَنُو وَلِيعَهْ
هُمُ مَنَعُوا ذِمارِي يومَ جاءَتْ كَتائِبُ مُسْرِفٍ وبَنُو اللّكِيعَهْ
أرادَ بِيَ الّتِي لا عِزّ فيها فحالتْ دُونهُ أيْدٍ مَنِيعهْ

مُسْرِف كناية عن مُسْلم، وأُمّ عليّ بن عبد الله بن العبّاس زُرْعة بنت مشرّح بن مَعْدي كَرِب بن وليعة بن شُرَحبيل بن معاوية بن كِندة.

قال الحسين بن الحمام [الطّويل]:

ولستُ بمُبْتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ ولا مُرْتَقٍ مِن خَشْيَة الموتِ سُلّمَا
تأخَّرْتُ أستبقي الحياةَ فلم أجِدْ لنفسي حياةً مِثْلَ أن أتقدّمَا
فلَسْنَا على الأعقابِ تدمَى كلومُنا ولكن على أقدامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا
نُفلِّقُ هامًا من رجالٍ أعزّةٍ علينا، وهُمْ كانوا أعقَّ وأظْلَمَا
أبَى لابنِ سَلْمَى أنّهُ غيرُ خالدٍ مُلاقِي المَنايَا أيّ ضَرْبٍ تَيَمَّمَا

ابن سَلْمَى يعني نفسه، وسَلْمَى أُمّه.

وقال الطّرمّاح بن حكيم [الطّويل]:

وما مُنِعَتْ دارٌ ولا عَزَّ أهْلُها مِنَ النّاس إلّا بالقَنَا والقَنَابلِ

وقال آخر [الطّويل]:

وإنّ الّتي حَدَّثْتُهَا في أنوفِنَا وأعناقنا من الإباء كمَا هِيَا

وقال آخر [الطّويل]:

فإن تَكُن الأيّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ ببُؤْسَى ونُعْمَى والحوادِثُ تَفْعَلُ
فما لَيَّنَتْ مِنّا قَنَاةً صَلِيبَةً ولَا ذَلَّلَتنا للّتي لَيْسَ تجمُلُ
ولكِن رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كريمةً تُحَمَّل ما لا يستطاع فَتَحْمِلُ

وقال آخر [الطّويل]:

إذا جانبٌ أعْيَاكَ فَاعْمِدْ لجانبٍ فإنّكَ لاقٍ في البلادِ معوّلَا[1]

وقال أبو النّشناش [الطّويل]:

إذا المرءُ لم يَسْرَحْ سَوامًا ولم يُرِحْ سَوامًا ولم تَعْطِفْ عَلَيْهِ أقارِبُهْ[2]

---

١ ـ لجابر بن ثعلب الطّائيّ، ديوان الحماسة ١: ٢٩٣ ـ بشرح التّبريزيّ.

٢ ـ ديوان الحماسة ١: ٣٠٢ ـ بشرح التّبريزيّ.

فَلَلْمَوْتُ خَيرٌ للفَتَى مِن قُعودِهِ عَديمًا ومِن مَوْلًى تَدِبُّ عَقارِبُهْ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الهَمِّ ضَاجَعَهُ الفَتَى ولاكَسَوادِ اللَّيلِ أخْفَقَ طالِبُهْ
فعِشْ مُعْدمًا أو مُتْ كريمًا فإنّني أرَى الموتَ لا يَنجُو من الموتِ هارِبُهْ

وَفَد يحيى بن عُرْوة بن الزُّبير على عبد الملك، فجلس يومًا على بابه ينتظر إذنَه، فجرى ذِكْرُ عبد الله بن الزُّبير، فنال منه حاجب عبد الملك، فلَطم يحيى وجهه حتّى أدْمَى أنفه، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه، فقال: مَن ضربك؟ قال: يحيى بن عروة، قال: أدخله ـ وكان عبد الملك متّكئًا فجلس ـ فلمّا دخل، قال: ما حملَك على ما صنعت بحاجبي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ عمّي عبد الله كان أحسن جوارًا لعمّتك منك، لنا والله إن كان ليُوصِي أهْلَ ناحيته ألّا يُسْمعوها قَذَعًا[1]، ولا يذكر وكم عندها إلّا بخير، وإن كان ليقول لها: مَن سبّ أهلك فقد سبّ أهله، فأنا والله المعمّ المُخْوِل، تفرّقت العرب بين عمّي وخالي، فكنتُ كما قال الأوّل [الطّويل]:

يَداهُ أصَابَتْ هَذِهِ حَتْفَ هَذِهِ فَلَمْ تَجِدِ الأخرَى عليها مُقَدّمَا

فرجع عبد الملك إلى متّكَئِه، ولم يزل يُعْرَف منه الزّيادة في إكرام يحيى بعدها.
وأمّ يحيى هذه ابنةُ الحَكَم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان.
وقال سعيد بن عمر الحرشيّ أمير خراسان [الطّويل]:

فلستُ لعَامِرٍ إن لم تَرَوْني أمامَ الخَيلِ أطْعَنُ بالعَوالي[2]
وأضْرِبُ هامةَ الجَبّارِ مِنهُمْ بماضِي الغَرْبِ حُودِثَ بالصّقالِ[3]
فما أنا في الحروبِ بمستكينٍ ولاأخْشَى مُصاوَلةَ الرِّجالِ
أبَى لي والدي مِن كلّ ذَمٍّ وخَالي حِينَ يُذْكَرُ خَيرُ خَالِ

---

١ ـ القَذَع: الفُحْش.
٢ ـ العوالي: جمع عالية؛ وهي أعلى القناة.
٣ ـ غرب السّيف: حدّه، ويقال: حات السّيف؛ إذا جلّاه؛ وصقال السّيف.

قال عبد الله بن الزُّبير لمـّا خَطَب حين أتاه نَعْيُ مُصْعَب: أمّا بعد؛ فإنّه أتانا من العِراق خَبرٌ أفرحَنا وأحزنَنا، أتانا خبر قَتْل المُصْعب، فأمّا الّذي أحْزَنَنا فلوعةٌ يجِدُها الحَميم، عند فراق حميمه، ثمّ يرعوى بعدها ذواللُّبّ إلى حُسْن الصّبر وكرم العَزاء.

وأمّا الّذي أفْرَحَنا، فإنّ ذلك كان له شهادة، وكان لنا وله خِيرة؛ إنّا والله ما نموت حَبْجًا[1] كما يموت آل أبي العاص، ما نموت إلّا قَتْلًا قَعْصًا[2] بالرّماح، رموتًا تحت ظِلال السُّيوف، فإن يهلك المصعب، فإنّ في آل الزُّبير لخَلَفًا.

وخَطَب مرّةً أُخرى، فذكره، فقال: لوَدِدْت والله أنّ الأرض قاءتْني عنده حين لفظ غُصَّتَه وقَضَى نَحْبَه. شعر[الطّويل]:

خُذِيهِ فَجُرّيهِ ضُبَاع وأبْشِرِي بلَحْمِ امرئٍ لَمْ يَشْهَدِ اليومَ ناصِرُهْ

وقال السَّدّاخ بن يَعْمَر الكِنانيّ [المنسرح]:

قاتِلُوا القَوْمَ يا خُزَاعُ ولا يَـدْخُلْكُمُ مِـن قِتَـالِهِمْ فَشَـلُ

القومُ أمثالكمْ لَهُـمْ شَعَرٌ في الرّأس لا يُنشرونَ إن قُتِلوا

وقال يحيى بن منصور الحنفيّ [الطّويل]:

ولمـا نَأتْ عنّا العَشيرةُ كلّها أنخْنا فحالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ

فما أسلمتْنا عند يوم كَريهةٍ ولا نحنُ أغْضَينا الجُفُونَ على وتْرِ

قيل لرَجُلٍ شهد يوم الطّفّ مع عمر بن سعد: ويحك! أقَتَلْتُم ذُرّيّة رسول الله ﷺ! فقال: عَضَضْتُ بالجُندَل، إنّك لوشَهِدتَ ما شَهِدْنَا لَفَعلتَ ما فعلنا، ثارَتْ علينا عِصابةٌ، أيديها في مقابض سُيوفها كالأُسود الضّارية تحطمُ الفرسان يمينًا وشمالًا، وتُلْقِي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا تَرْغب في المال، ولا يحُول حائلٌ بينها

---

١ ـ الحَبَج: أن يأكل البعير لحاء العرفج، فيرم بطنه سمنًا، وربمّا قتله ذلك ، وفي اللّسان (٣ : ٤٨) بعد أن ذكر كلام ابن الزُّبير: «يعرض ببني مروان لكثرة أكلِهم وإسرافهم في ملاذّ الدّنيا، وأنّهم يموتون بالتّخمة». وفي ج : «جنحا» .

٢ ـ القعص: الموت السّريع؛ و يقال : مات قعصًا؛ أي أصابته ضربةٌ أو رميةٌ فمات مكانه .

وبين الوُرود على حِياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كَفَفْنَا عنها رُوَيدًا لأَ تَتْ على نفوس العَسْكر بحَذافيرها، فما كنّا فاعلين لا أُمّ لك!

السّخاء من باب الشّجاعة، والشّجاعة من باب السّخاء، لأ نّ الشّجاعة إنفاق العمر وبَذْله فكانت سخاء، والسّخاء إقدام على إتلاف ما هو عَديل المهجة فكان شجاعة.

أبو تمام في تفضيل الشّجاعة على السّخاء [الكامل]:

كَمْ بَينَ قَوْمٍ إنّما نَفَقاتُهُمْ مَالٌ وقومٍ يُنفِقُونَ نُفُوسَا

قيل لشيخنا أبي عبد الله البَصْريّ رحمه الله تعالى: أتجدُ في النّصوص ما يدلّ على تفضيل عليّ عليه السلام، بمعنى كثرة الثّواب لا بمعنى كثرة مَناقبه، فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه؟ فذَكَر حديثَ الطّائر المَشويّ[1]، وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثّواب. فقيل له: قد سَبَقك الشّيخ أبو عليّ رحمه الله تعالى إلى هذا، فهل تجد غير ذلك؟ قال: نعم؛ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[2]، فإذا كان أصل المحبّة لمن ثبت كثُبوت البُنيان المرصوص، فكلّ مَن زاد ثباته، زادت المحبّة له، ومعلوم أنّ عليًّا عليه السلام ما فَرّ في زَحْفٍ قطّ، وفَرّ غيره في غير موطن. وقال أبو تمام [البسيط]:

السَّيْفُ أصْدَقُ أنباءً من الكُتُبِ في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللّعِبِ[3]

---

١ ـ يشير إلى ما رواه التِّرمذيّ في باب المناقب (١٣ : ١٧٠)، بسنده عن أنس بن مالك، ولفظه: «كان عند النّبيّ صلى الله عليه وآله طيرٌ، فقال: اللّهمّ ائتني بأحبّ خَلْقك إليك، يأكل معي هذا الطّير. فجاء عليّ فأكل معه. وانظر: الجزء الأوّل من هذا الكتاب: ٧.

٢ ـ الصّفّ / ٤.

٣ ـ ديوانه ١ : ٤٥، من قصيدةٍ يمدح بها المعتصم بالله، ويذكر فَتْح عَمّورية، وكان المنجّمون قد حكموا أنّ المعتصم لا يفتح عمّورية، وراسلته الرّوم بأنّا نجد في كُتُبنا أنّه لا تفتح مدينتنا إلّا وقت إدراك التّين والعنب، وبيننا وبين ذلك الوقت شُهورٌ يمنعك من المقام فيها الثّلج والبَرد، فأبَى أن ينصرف وأكبّ عليها ففَتَحها، فأبطل ما قالوا.

بِيضُ الصّفائحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[1]
والعِلْمُ في شُهُبِ الأرْمَاحِ لامِعَةً ... بين الخميسَين لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ[2]

وقال أبو الطّيب المتنبّي [البسيط]:

حتّى رَجَعْتُ وأقْلَامي قَوائِلُ لي ... المجْدُ للسَّيْفِ لَيْسَ المجْدُ للقَلَمِ[3]
اكْتُبْ بنا أبدًا بعد الكِتابِ بِهِ ... فإنَّما نَحْنُ للأسْيافِ كالخَدَمِ
أسْمَعْتَنِي ودوائي ما أشَرْتُ بِه ... فإن غَفَلْتُ فَدَائي قلّة الفَهمِ
مَنِ اقْتَضَى بسوى الهنديّ حاجَتَهُ ... أجَابَ كلّ سُؤالٍ عن «هَلْ» بِلَمِ

قال عَطّاف بن محمّد الآلُوسيّ [أحذ الكامل]:

أمُكابِدَ الزَّفَراتِ مؤصَدة ... تلتذّ خوف القَطْعِ بالشَّلَلِ
صَرِّفْ هُمومَك تَنتَدِبْ هِمَمًا ... فالسُّكْرُ يُعْقِبُ نشوَةَ الثّمَلِ
ولِلَيْلَةِ المِيلادِ مَفْرَحَةٌ ... تُنسِي الحَوامِلَ أشهرَ الحَبَلِ
سِرْ في البلاد تخوضها لُجَجًا ... فالدُّرّ ليس يُصابُ في الوَشَلِ[4]
واجْعَلْ لِصَبْوَتِكَ الظِّبَا سَكَنًا ... والدّور أكوارًا على الإبِلِ
والعَيْشُ والوَطَنُ المهَّد في ... غَرَبِ الحُسَام وغَارِبِ الجملِ
واشْدُدْ عليكَ وخُذْ إليكَ وَدَعْ ... ضَعَةَ الخُمولِ وفَتْرَةَ الْكَسَلِ

---

١ ـ الصّفائح: جمع صفيحة، وهي الحديدة العريضة، ويقال للسّيف العريض كذلك .

٢ ـ يرد على المنجّمين ما حكموا به، لأنّ الظّفر كان قبل حُكْمهم. ويعني بشُهُب الأرماح أسنّتها، ويعني بالسّبعة الشُّهُب الطّوالع الّتي أرفعها زُحَل وأدناها القمر.

٣ ـ ديوانه ٤ : ١٥٩ .

٤ ـ الوشل: الماء القليل .

وارْمِ العُـداةُ بكـلِّ صَـائِبَةٍ مَـا الرَّمْـيُ مَوْقوفًـا عـلى نُعَـلِ[١]
لا تَحْسَـبِ النَّكَبَـاتِ مَنقصـةً قـد يُسـتجاد السَّـيْفُ بالفَلَـلِ

وقال عُرْوة بن الورد [الطّويل]:

لحَا اللهُ صُعلوكًا إذا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي المُشَاشِ آلِفًا كلّ مَجْزَرِ[٢]
يَعُدُّ الغِنَى مِن نَفْسِهِ كلّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِراهَا مِن صَدِيقٍ مُيَسَّرِ[٣]
يَنَامُ عِشاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا يحُتُّ الحَصَى مِن جَنبِهِ المتقعِّرِ[٤]
يُعِينُ نِسَاءَ الحَيِّ ما يَستَعِنَّهُ ويُمْسِي طَلِيحًا كالبَعِيرِ المحَسَّرِ[٥]
ولكنَّ صُعْلُوكًا صَفِيحَةُ وَجْهِهِ كَضَوْءِ شِهابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا على أعدائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المشَهَّرِ[٦]
وإن قَعدُوا لا يأمنونَ اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظِّرِ[٧]
فذلك إن يَلْقَ المَنِيّة يَلْقَهَا حَمِيدًا وإن يَسْتَغْنِ يَوْمًا فأجْدرِ

وقال آخر [الطّويل]:

ولَسْتُ بِمَوْلى سَوْأةٍ أدَّعَى لها فإنَّ لِسوءاتِ الأمورِ مَواليَا[٨]

---

١ ـ نُعَل: أبوحيّ من طيء؛ اشتهروا بالرّمي.

٢ ـ ديوانه: ٩٣ (ضمن دواوين الشُّعراء الخمسة). الصُّعلوك: الفقير. والمصافي: من المصافاة، وهي الاختيار والملازمة. والمُشَاش: العَظْم الممكن مُضَغه، والمَجْزَر: موضع نحر الإبل.

٣ ـ الميسَّر: الّذي قد نتج إبله فكَثُرَ خَيرُه، يقول: مِن صفات ذلك الصُّعلوك أنّه إذا أصاب القَري في كلّ ليلةٍ من صَدِيقٍ غنيّ، عدّ ذلك لنفسه غِنًى وخيرًا.

٤ ـ يحُتّ الحَصَى: يَفْرُكه، والنّاعس: الّذي يأتي عليه الصّباح وهو ناعِسٌ لخُموله وانحطاط همّته.

٥ ـ البَعير الطَّليح: المُعْيي، وكذلك المحسَّر.

٦ ـ أطلّ على أعدائه: أوفى عليهم. والمَنيح والسّفيح والرَّغَد: قداح لا أنصباء لها، وإنّما يكثر بها القداح فهي تجال أبدًا، وتزجرحا لًا بعد حالٍ، فشبّه الصُّعلوك به (من شرح التّبريزيّ).

٧ ـ الدّيوان: «فإن بَعُدوا يأمنون اقترابه».

٨ ـ لطَرَفة الجُذَيميّ، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١: ٣٨٩، مع اختلاف في الرّواية وترتيب الأبيات.

وسَيَّان عِندي أن أمُوتَ وأن أرَى ... كـبَعْضِ رجـالٍ يُوطِنُـونَ المخازِيَـا
ولن يجِدَ النّاسُ الصّديقُ ولا العِدَى ... أديمـي إذا عَـدّوا أدِيمـي واهِيَـا
وإنَّ نجـارِي بـابن غَـنمٍ مخَـالِفٌ ... نجـارَ لِئَـامٍ فـابْغِني مِـن وَرائِيَـا[1]
ولَسْـتُ بهَيّـابٍ لِمَـن لا يَهـابني ... ولَسْتُ أرَى للمرءِ ما لا يَرَى لِيَا
إذا المـرءُ لم يُخْبِبْـكَ إلّا تَكَرُّهًـا ... عِراضَ العَلُوقِ لم يَكُن ذاك باقِيَا[2]

نَهار بن تَوْسعة في يزيد بن المهلّب [الوافر]:

ومـا كُنّـا نُؤَمِّـلُ مِـن أميـرٍ ... كمـا كُنّـا نُؤَمِّـلُ مِـن يَزِيـدِ
فأخْطَـأ ظنُّنـا فِيـهِ وقِـدْمًا ... زَهِـدْنا في معاشـرةِ الزَّهيـدِ
إذا لم يُعْطِنـا نِصْـفًا أميـرٌ ... مَشَـيْنا نحـوهُ مَشْـيَ الأُسُـودِ

كان هُدْبة اليَشْكُريّ ـ وهو ابن عمّ شَوْذب الخارجيّ اليَشْكُريّ ـ شجاعًا مِقدامًا، وكان ابن عمّه بِسْطام الملقّب شَوْذبًا الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جَيْشًا كَثيفًا فحاربه، فانكشفت الخوارج، وثبت هُدْبة وأبَي الفرار، فقاتَلَ حتّى قُتِل، فقال أيُّوب بن خَوْلة يرثيه [الطّويل]:

فَيَا هُدْبَ لِلْهَيْجَا ويا هُدْبَ لِلنَّدى ... ويـا هُـدْبَ لِلْخَصْـمِ الألَـدِّ يحَارِبُـهْ[3]
ويا هُدْبَ كَمْ مِن مُلْحَمٍ قد أجَبْتَهُ ... وقَـدْ أسْـلَمَتْهُ للرِّمـاحِ كَتائِبُـهْ[4]
تَـزَوَّدْتَ مِـن دُنيَـاكَ دِرْعًـا ومِغْفَـرًا ... وعَضْـبًا حُسَـامًا لَمْ تخنـكَ مَضَـارِبُهْ

---

١ ـ النّجار: الأصل.

٢ ـ العَلُوق: النّاقة الّتي ترأم وَلَدها وتَلمسه حتّى يأنس بها، فإذا أراد ارتضاع اللّبن منها ضربته وطردته.

٣ ـ الأبيات مع ذكر الخبر مفصّلًا في تاريخ الطّبريّ ٢: ١٣٧٦ ـ ١٣٧٨ (طبع أُوربا).

٤ ـ المَلْحَم: الّذي أُسِر وظفر به أعداؤه. وفي ج: «ملجم» تصحيف.

وأجْـــرَدَ مَحْبُـــوكِ السَّـــرَاةِ كأنّـــهُ إذا انقضَّ وافي الرِّيش حُجْنٌ مَخَالِبُهْ[1]

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تَرِدُ إلى أبي مسلم بخراسان: إن استطعت ألّا تَدَع بخُراسان أحدًا يتكلّم بالعربيّة إلّا وقتلته فافعَل، وأيّما غلام بلغَ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله، وعليك بمُضَر، فإنّهم العدوّ القريب الدّار، فأبِدْ خَضْرَاءهم[2]، ولاتدع على الأرض منهم ديّارًا.

قال المتنبيّ [الكامل]:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفيعُ مِنَ الأذَى حَتَّى يُراقَ على جَوانِبِهِ الدَّمُ

وله [الطّويل]:

ومَن عَرَفَ الأيّامَ مَعْرِفَتي بِهَا وبالنّاسِ رَوّى رُمْحَهُ غيرَ رَاحِمِ

فَلَيْسَ بمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا في الرَّدَى الجارِي عَلَيْهِمْ بآثِمِ

وقال المتنبيّ أيضًا [البسيط]:

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يا نَفْسُ واطَّرِحِي حِيَاضَ خُوْفِ الرَّدَى للشَّاءِ والنَّعَمِ

إن لَمْ أذُدْكِ عـــلى الأهْـــوَالِ سـائِلَةً فَـلَا دُعِيتُ ابْـنَ أمِّ المجْـدِ والكَـرَمِ

ومِن أُباة الضَّيْم قُتَيبة بن مُسْلم الباهِليّ ـ أمير خراسان وما وراء النَّهر ـ لم يَصْنَعْ أحَدٌ صَنيعه في فتح بلاد التُّرْك، وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن يَنزع أخاه سُلَيمان بن عبد الملك من العَهْد بعده، ويجعله في ابنه عبد العزيز بن الوليد، فأجابه إلى ذلك قُتَيبة بن مُسْلم وجماعة من الأُمراء، فلمّا مات الوليد قبل إتمام ذلك، وقام سليمان بالأمر بعده ـ وكان قُتَيبة أشدّ النّاس في أمر سليمان وخَلْعِه عن العَهْد ـ علم أنّه سيعزِله عن خُراسان، يولّيها يزيد بن المهلّب، لودٍّ كان بينه وبين سليمان، فكتب

---

١ ـ أجْرَدَ، من وَصْف الفَرَس، والجَرَد قصر شَعْر الجلد فيه، وهو من الأوصاف المحمودة. السَّراة: الظّهر، ومحبوك السَّراة، أي شديد الخَلْق. حُجْن مخالبه، يريد صقرًا. والحُجْن: الاعوجاج.

٢ ـ في الأساس: أباد الله خَضْراءهم، أي شجرتهم الّتي تفرّعوا منها.

قُتَيبة إليه كتابًا يُهنّئه بالخلافة، ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده، وأنّه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خُراسان، وكتب إليه كتابًا آخَر يذكّره فيه بفُتوحه وآثاره، ونِكايتِه في التُّرك، وعِظَم قَدْره عند مُلُوكهم، وهَيْبة العَجَم والعَرَب له وعِظَم صيته فيهم، ويذمّ آل المهلّب، ويحلف له بالله لئن استعمل يزيد بن المهلّب على خراسان ليخلعنّه، وليملأنّها عليه خَيْلًا ورجلًا، وكتب كتابًا ثالثًا فيه خَلْع سليمان، وبَعَث بالكُتُب الثّلاثة مع رجل من قومه مِن باهِلَة يَثِقُ به، وقال له: ادْفَع الكتاب الأوّل إليه، فإن كان يزيد بن المهلّب حاضرًا عنده. فقرأ الكتاب ثمّ دفعه إلى يزيد فادْفَع إليه هذا الثّاني، فإن قَرَأه وألقاه إليه أيضًا فادْفَع إليه الثّالث، وإن قرأ الكتاب الأوّل ولم يدفعه إلى يزيد، فاحْتَبِس الكتابَين الآخَرين معك.

فقَدِم الرّسول على سُلَيمان، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع إليه الكتاب الأوّل، فقرأ وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثّاني، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضًا، فدفع إليه الكتاب الثّالث، فقرأه وتغيّر لونُه وطواه، وأمسكه بيده، وأمر بإنزال الرّسول وإكرامه، ثمّ أحضره ليلًا، ودفع إليه جائزته، وأعطاه عهد قُتَيبة على خُراسان، وكان ذلك مَكيدةً من سليمان يسكنه ليَطْمئنّ ثمّ يعزله، وبعث مع رسوله رسولًا، فلمّا كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قُتَيبة سليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان إليه، فلمّا اختلفت العرب على قُتَيبة حين أبْدَى صَفْحته لسُلَيمان، وخلع رِبْقَة الطّاعة، بايعوا وَكيعَ بن أبي سُود التّميميّ على إمارة خراسان، وكانت أُمراء القبائل قد تنكَّرَتْ لقُتَيبة لإذلاله إيّاهم، واستهانته بهم واستطالته عليهم، وكرهوا إمارته، فكانت بيعة وكيع في أوّل الأمر سِرًّا، ثمّ ظهر لقُتَيبة أمْرُه، فأرسل إليه يدعوه، فوجده قد طلَا رِجْلَه بمَغْرة[1] وعلّق في عُنقه خَرَزًا، وعنده رجلان يَرْقيَان رجلَه، فقال للرّسول: قد ترى ما برجلي! فرجع وأخبر قُتَيبة فأعاده إليه، فقال: قل له ليأتيني محمولًا. قال: لا أستطيع. فقال قُتَيبة لصاحب شرطته: انطلق إلى وَكيع فأتني به، فإن أبَى فاضْرِبْ عُنقَه، وأْتِني

---

١ ـ المَغْرة: طين أحمر.

برأسه. ووجّه معه خيلًا، فقال وَكيع لصاحب الشّرطة: الْبَثْ قليلًا تلحق الكَتائب. وقام فلبس سلاحه، ونادى في النّاس فأتَوْه، فخرج فتلقّاه رجل، فقال: ممّن أنت؟ فقال: مِن بني أسد. فقال: ما اسمك؟ فقال ضِرْغام. فقال: ابن مَن؟ قال: ابن لَيْث. فتيمّن به وأعطاه رَايَته، وأتاه النّاس أرسالًا من كلّ وَجْهٍ، فتقدّم بهم، وهو يقول [السّريع]:

قَـرْمٌ إذا حُمِّـلَ مَكْرُوهَـةً شَـدّ الشَّراسِيفَ لها والحَـزِيمْ[1]

واجتمع إلى قُتَيبة أهله وثِقاته، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه. فأمر قتيبة رجلًا فنادى: أين بنو عامر؟ وقد كان قتيبة جَفَاهم في أيّام سلطانه، فقال له مَجْفر[2] بن جزء الكِلابيّ: نادِهم حيثُ وضعتَهم. فقال قتيبة: أنشدكم الله والرَّحِم ـ وذاك لأنّ باهلة وعامرًا من قَيْس عيلان ـ فقال مجفر: أنت قطعتَها. قال: فلكم العُتْبى. فقال مجفر: لا أقالنا الله إذًا! فقال قتيبة [البسيط]:

يا نَفْسُ صَبرًا عَلَى مَا كَانَ مِن أَلَمٍ إذْ لم أجِـدْ لفُضُـولِ العيشِ أقْرانَا

ثمّ دعا ببِرْذَون له مُدَرّب[3] ليركَبه، فجعل يمنعه الرّكوب حتّى أعيا. فلمّا رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس، وقال: دعوه، فإنّ هذا أمرٌ يُراد. وجاء حيّان النَّبَطيّ ـ وهو يومئذ أمير الموالي، وعدّتهم سبعة آلاف، كان واجدًا على قتيبة ـ فقال له عبد الله بن مسلم أخو قُتَيبة: احمَلْ يا حيّان. فقال: لَمْ يَأْنِ بعد. فقال له: ناولْني قَوْسَك. فقال حيّان: ليس هذا بيوم قوس. ثمّ قال حيّان لابنه: إذ رأيتَني قد حوّلت قَلَنْسُوَتي، ومضيتُ نحو عسكر وَكيع فمِلْ بمن معك من العَجَم إليّ.

فلمّا حَوَّل حيّان قَلَنسوته ومضى نحو عسكر وكيع، مالت الموالي معه بأسْرها،

---

١ ـ البيت في اللّسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة . القَرْم : السّيّد . والشَّراسيف : أطراف أضلاع الصَّدر الّتي تشرّف على البَطن. والحَزيم: موضع الحزام من الصَّدر والظَّهر كلّه .

٢ ـ في الطّبريّ: «محصن» .

٣ ـ المدرّب: المؤدّب الّذي ألف الرّكوب وعود المشي .

فبعث قُتَيبة أخاه صالح بن مسلم إلى النّاس، فرماه رجلٌ من بني ضَبّة فأصاب رأسه، فحمل إلى قُتَيبة ورأسه مائل، فوَضَعه على مصلّاه، وجلس عند رأسه ساعة، وتهايج النّاس، وأقبل عبد الرّحمان بن مسلم أخو قُتَيبة نحوهم، فرماه الغوغاء وأهلُ السُّوق فقتلوه، وأُشِير على قتيبة بالانصراف، فقال: الموت أهْوَنُ من الفرار.

وأحْرَقَ وكيع موضعًا كانت فيه إبل قُتَيبة ودوابّه، وزحَفَ بمن معه حتّى دنا منه، فقاتل دونه رجل من أهله قتالًا شديدًا، فقال له قُتَيبة: انجُ بنَفْسِك، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل. قال: بئسما جَزَيْتُك به أيّها الأمير إذًا، وقد أطعمتَني الجَرْدَق، وألبستَني النُّمرق[1].

وتقدّم النّاس حتّى بلغوا فُسْطاط قُتَيبة، فأشار عليه نُصَحاؤه بالهرَب، فقال: إذًا لستُ لمسلم بن عمرو! ثمّ خرج إليهم بسيفه يجالدهم، فجرح جراحات كثيرة، حتّى ارتُثَّ[2] وسقط، فأكبّوا عليه، فاحتزُّوا رأسه، وقُتِل معه من إخوته عبد الرّحمان، وعبد الله وصالح، والحُصَين، وعبد الكريم، ومسلم، وقُتِل معه جماعةٌ من أهله وعدّة مَن قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلًا.

وصعد وكيع بن أبي سود المنبر وأنشد [الرّجز]:

*مَن يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيّاكَا*[3]

إنّ قُتَيبة أراد قتلي، وأنا قَتّال الأقران، ثمّ أنشد [الرّجز]:

قَدْ جَرَّبوني ثمّ جَرَّبُوني ... مِن غَلْوَتَينِ ومِنَ المِئينِ

حتّى إذا شِبْتُ وشَيَّبُوني ... خَلوا عِنانِي ثمَّ سَيَّبُوني[4]

---

١ ـ الجَرْدق: الرَغيف، معرّب فارسيته: (كرده). والنُّمرق: المِيثَرَة.

٢ ـ ارتُثّ، بالبناء للمجهول: حمل من المعركة جريحًا وبه رمق.

٣ ـ مَثَلٌ، قاله خضر بن شِبْل الخَثْعَميّ، في خَبرٍ ذَكَره صاحب مجمع الأمثال ٢: ٣٠٥.

٤ ـ أصله في الدّابّة، يقال: سَيّب الدّابّة، إذا تركها تذهب حيث شاءت، وفي تاريخ الطّبريّ [الرّجز]:

حتّى إذا شِبْتُ وشَبّوني ... خَلوا عِنانِي وتنكّبُوني

حَـذرًا مـنّي وتنكّبُـوني فـإنّني رامٍ لمَـن يَـرْمِيني

ثمّ قال: أنا أبو مُطرِّف، يكرّرها مِرارًا، ثمّ قال [البسيط]:

أنا ابنُ خندِف تنمِيني قَبائلُها للصّـالحاتِ وعَمّـي قَـيْسُ عَيْلانـا

ثمّ أخذ بلِحْيته، وقال: إنّي لأقتلنّ ثمّ لأقتلنّ ولأصلبنّ ثمّ لأصلبنّ، إنّ مَرْزُبَانكم[1] هذا ابن الزّانية، قد أغْلَى أسْعَاركم، والله لئن لم يَصِرْ القفيز بأربعة دراهم لأصلبنّه، صَلّوا على نبيّكم.

ثمّ نزل وطلبَ رأس قُتَيبة وخاتمه، فقيل له: إنّ الأزْد أخذَتْه. فخرج مُشْهِرًا[2]، وقال: والله الّذي لا إله إلّا هو لا أبرح حتّى أُوتَى بالرّأس، أو يذهب رأسي معه. فقال له الحُصَين بن المُنذر: يا أبا مُطرِّف فإنّك تُؤْتَى به. ثمّ ذهب إلى الأزْد، فأخذ الرّأس وأتاه به، فسيّره إلى سليمان بن عبد الملك، فأدخل عليه ومعه رؤُوس إخْوَته وأهله، وعنده الهُذَيل بن زُفَر بن الحارث الكلابيّ، فقال: أساءك هذا يا هُذَيل؟ قال: لو ساءني لسَاءَ ناسًا كثيرًا. فقال سليمان: ما أردتُ هذا كلّه، وإنّما قال سُلَيمان ذلك للهُذَيل، لأنّ قَيْس عَيْلان تجمع كِلابًا وباهِلَة، قالوا: ما وَلِيَ خُراسان أحدٌ كقُتَيبة بن مسلم، ولوكانت باهلة في الدّناءة والضَّعة واللّؤم إلى أقصى غاية، لكان لها بقُتَيبة الفَخْر على قبائل العرب.

قال رؤساء خراسان من العَجَم لمـا قُتِل قتيبة: يا مَعْشَر العرب، قتلتُمْ قُتَيبة، والله لوكان منّا ثمّ مات لجعلناه في تابوت، فكنّا نستفتح به إذا غَزَوْنا.

وقال الأصبهبذ[3]: يا معشر العرب، قتلتم قُتَيبة ويزيد بن المهلّب، لقد جئتم شيئًا

---

وانظر: أمالي القالي ١ : ٢٨٦ .

١ ـ المرزبة: رياسة الفَرَس ، وهو مَرْزُبانهم .

٢ ـ أي سَيْفه .

٣ ـ الأصبهبذ في الدّيلم: كالأمير في العرب .

إذًا! فقيل له: أيّهما كان أعظم عندكم وأهْيَب؟ قال: لو كان قُتَيبة بأقْصَى حُجْرةٍ[١] في المغرب، مكبّلًا بالحديد والقيود، ويزيد معنا في بلدنا والٍ علينا، لكان قُتَيبة أهْيَبَ في صُدورنا وأعظم.

وقال عبد الرّحمان بن جمانة الباهِليّ يرثي قتيبة [الطّويل]:

كـأنّ أبـا حَفْـصٍ قُتَيبـة لَمْ يَسِـرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولم يَغْـلُ مِنبـرَا
ولَمْ تخْفِق الرّاياتُ والجيشُ حَوْلَهُ ... صُفوفًا ولَمْ يَشْهَدْ لَهُ النّاسُ عَسْكرَا
دَعَتْـهُ المَنايَـا فاسْـتَجابَ لربّـهِ ... وراحَ إلى الجنّـاتِ عَفًّـا مُطَهَّـرَا
فمـا رُزِئَ الإسـلامُ بَعْـدَ محمّـدٍ ... بِمِثْـلِ أبِي حَفْـصٍ، فبَكِّيـهِ عَبْهَـرَا

عَبْهَر: أُمّ ولد له.

وفي الحديث الصّحيح: «إنّ مِن خير النّاس رجلًا ممْسِكًا بعِنان فَرَسه في سبيل الله، كلّما سمع هَيْعَةً[٢] طار إليها».

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعْلم! أنّ عليك عُيونًا من الله تَرْعَاك وتَراك، فإذا لقيت العدوّ، فاحْرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة، ولا تغسّل الشّهداء من دمائهم، فإنّ دم الشّهيد يكون له نورًا يوم القيامة.

عمر: لا تزالون أصحّاء ما نزعتم ونزوتم. يريد: ما نزعتم في القَوْس، ونزوتم على الخيل.

بعض الخوارج [الطّويل]:

ومَن يخْشَ أظْفَارَ المَنايا فإنّنا ... لَبِسْـنا لهـنَّ السّـابغاتِ مِـنَ الصَّـبرِ
وإنَّ كرِيهَ الموتِ عَذْبٌ مَذاقُهُ ... إذا مـا مزجنـاهُ بطيـبٍ مِـنَ الـذِّكْرِ

حضّ منصور بن عَمّار في قصصه على الغَزْو والجهاد، فَطُرِحَتْ في المجلس صُرّة

---

١ ـ الحُجْرة: النّاحية.

٢ ـ الهيعة: الصّوت أو الصّياح.

فيها شيء، ففُتِحَتْ، فإذا فيها صفيرتًا امرأة، وقد كتبت: رأيتُك يا بن عمّار تحضّ على الجهاد، ووالله إنّي لا أملك لنفسي مالًا، ولا أملك سوى صفيرتَي هاتَين، وقد ألقيتُهما إليك، فتالله إلّا جعلتَهما قَيْد فَرَسٍ غازٍ في سبيل الله، فلعلّ الله أن يرحمني بذلك. فارتجّ المجلس بالبكاء والضّجيج.

لبعض شُعراء العَجَم [المنسرح]:

وا سَوْءَتَا لامْرِئٍ شَبيبَتُهُ ... في عُنفُوانٍ وماؤُهُ خَضِلُ!
راضٍ بنزْرِ المَعاشِ مُضْطَهَدٌ ... على تُراثِ الآباء يتّكلُ
لا حَفظَ اللهُ ذاكَ مِن رَجُلٍ ... ولا رَعاهُ ما أطّتِ الإبِلُ
كَلّا وربّي حتّى تكون فَتًى ... قَدْ نَهكَتْهُ الأسفارُ والرِّحلُ
مُشَمِّرًا يطلبُ الرِّياسةَ أوْ ... يُضْرَبُ يَوْمًا بِهُلْكِهِ المَثَلُ
حتّى مَتى تَتْبَعُ الرِّجالَ ولا ... تُتْبَعُ يَوْمًا، لِأُمِّك الهَبَلُ!

عبد الله بن ثَعْلبة الأزْديّ [مجزوء الكامل]:

فَلَئِن عَمَرْتُ لَأُشْفِيَنْـ ... ـنَ النَّفْسَ مِن تلكَ المَساعِي
ولَأَعْلِمَنَّ البَطْنَ أنْـ ... ـنَ الزّادَ ليسَ بمُسْتَطاعِ
أمّا النّهارُ فَقَدْ أرَى ... قومي بمرقَبَةٍ يَفَاعِ[1]
في قَرّةٍ هَلَكٍ وشَوْ ... كٍ مِثْلِ أنيابِ الأفاعِي[2]
تَرِدُ السِّباعُ معي فَتَحْـ ... ـسُبني السِّباعُ مِنَ السِّباعِ

مجير الجراد أبو حَنبل حارثة بن مرّ الطّائيّ، أجار جرادًا نزل به ومنعَ مِن صَيْده، حتّى طار من أرضه، فسمّيَ مجيرَ الجرادِ.

---

١ ـ اليفاع: التّلّ.

٢ ـ القرّة: ما يصيب الإنسان من البرد.

وقال هلال بن معاوية الطّائيّ [المتقارب]:

وبـــالجَبَلَينِ لنـــا مَعْقِـــلٌ صَـعَدْنا إليـهِ بصُـمِّ الصِّـعَادِ
مَلَكْنـاهُ في أولَيـاتِ الزَّمـا نِ مِن قَبلِ نُوحٍ ومِن قَبلِ عَادِ
ومنّـا ابـنُ مُـرٍّ أبـو حَنبَـلٍ أجَارَ من النّاس رجْلَ الجَرادِ
وزَيْـدٌ لنـا ولنـا حـاتمٌ غِيـاث الـوَرَى في السِّـنين

وقال يحيى بن منصور الحَنَفيّ [الطّويل]:

ولمّا نَأتْ عنّا العَشيرَةُ كُلّها أنخْنَا فحَالفْنَا السُّيوف على الدَّهْرِ[1]
فما أسْلَمَتْنَا عند يَوْمِ كَريهةٍ ولا نحن أغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

وقال آخر [الطّويل]:

أرِقّ لأرْحَـامٍ أراهـا قَريبَـةً لحـارِ بْنِ كَعْبٍ لا لجرْمٍ ورَاسِبِ[2]
وإنّا نَرَى أقدامَنا في نِعالِهمْ وآنفَنـا بَـينَ اللّحَـى والحَواجِـبِ
وإقدامنا يَوْمَ الوَغَى وإباءنا إذا مـا أبَيْنـا لا نُـدِرّ لعَاصِـبِ

حاصرت التُّرك مدينة بَرْذَعة من أعمال أذْرَبيجان في أيّام هِشام بن عبد الملك حصارًا شديدًا، واستضعفتها وكادت تملكها، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحرشيّ من قِبَل هِشام بن عبد الملك في جُيوش كثيفة، وعلم التّرك بقُربه منهم فخافوا، وأرسل سعيد واحدًا من أصحابه إلى أهل بَرْذَعة سِرًّا يعرّفهم وصوله، ويأمرهم بالصّبر خوفًا ألّا يدركهم، فسار الرّجلُ، ولَقِيَه قومٌ من التّرك، فأخذوه وسألوه عن حاله، فكتمهم فعذّبوه، فأخبرهم وصدقهم، فقالوا: إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك، وإلّا قتلناك. فقال: ما تريدون؟ قالوا: أنت عارف بأصحابك ببرْذَعة وهم يعرفونك، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم: إنّه ليس خَلْفي مَدَد، ولا مَن يكشف ما بكم، وإنّما بُعِثْتُ

---

١ ـ ديوان الحماسة: ٣٢٦ ـ بشرح المرزوقيّ.

٢ ـ ديوان الحماسة ١: ٣٢٨ بشرح المرزوقيّ، ونَسَبها إلى بعض بني عبس.

جاسوسًا. فأجابهم إلى ذلك، فلمّا صار تحت سُورها، وقف حيث يسمع أهلُها كلامَه، وقال لهم: أتعرفونني؟ قالوا: نعم، أنت فلان ابن فلان. قال: فإنّ سعيدًا الحرشيّ قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف، وهو يأمركم بالصّبر وحِفظ البَلَد، وهو مُصْبِحكم أو ممسّيكم. فرفع أهل بَرْذَعة أصواتهم بالتّكبير، وقتلت التّرك ذلك الرّجل، ورحلوا عنها، ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين.

وقال الرّاجز:

مَن كان يَنوِي أهلَه فلا رَجَعْ فَرّ مِنَ المَوْتِ وفي الموتِ وَقَعْ

أشرف معاوية يومًا فرأى عَسْكَر عليّ عليه السلام بصفّين فهاله، فقال: مَن طلب عظيمًا خاطر بعظيمته.

وقال الكلحبة [الطّويل]:

إذا المَرْءُ لَمْ يَغْشَ المَكارِهَ أو شَكَتْ حِبالُ الهوينى بالفَتى أن تَقَطَّعَا[1]

ومن شعر الحماسة [الوافر]:

أقُولُ لها وقَدْ طارَتْ شَعَاعًا مِنَ الأبطالِ وَيحَكِ لا تُراعِي[2]

فإنّكِ لوسَألْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الأجلِ الّذي لكِ لم تُطَاعِي

فصَبرًا في مجالِ المَوْتِ صَبرًا فمَا نَيْلُ الخُلودِ بمُسْتَطاعِ

ولاثَوْبُ البَقاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فيطوَى عن أخي الخَنَعِ اليراعِ[3]

سَبيلُ المَوْتِ غايةُ كلِّ حَيٍّ فداعيهِ لِأهْلِ الأرضِ دَاعِي

ومَن لا يُعْتَبَطْ يَسْأمْ ويَهْرَمْ وتُسْلِمْهُ المَنون إلى انقطاعِ

وما لِلْمَرْءِ خَيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المَتاعِ

---

١ ـ المفضّليّات: ٣٢ .

٢ ـ لقطري بن الفجاءة ، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٩٦ .

٣ ـ أخو الخَنَع: الذّليل . واليراع: الرّجل الجبان ، كأنّه لا قلب له، تشبيهًا له بالقصبة الجَوْفاء .

ومنه أيضًا [الهزج]:

وفي الشَّرِّ نجاةٌ حِيـ ـنَ لا يُنجِيكَ إحسانُ[١]

ومنه أيضًا [الطّويل]:

ولَم نَدْرِ إن جِضْنا عَنِ المَوْتِ جَيْضةً كَمِ العمرُ باقٍ والمَدَى مُتَطاوِلُ[٢]

ومنه أيضًا [الطّويل]:

ولايَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلّا ابنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرات الموتِ ثمّ يَزُورُها[٣]

ومنه أيضًا [الطّويل]:

فـلا تحْسَـبي أنّي تَخَشَّـعْتُ بَعْـدَكُمْ لشـيءٍ ولاأنّي مِنَ المَـوْتِ أفْرَقُ[٤]

ولاأنَّ نَفْـسي يَزْدَهِيهـا وَعِيـدكُمْ ولاأتّـني بالمشـي في القَيْـدِ أخْـرَقُ

ومنه أيضًا [الطّويل]:

سأغْسِـلُ عـنّي العَـارَ بالسَّـيْفِ عَـلَيَّ قَضَـاءَ اللهِ مـا كـان جَالِبَـا[٥]

وأذْهَـلُ عَـن داري وأجْعَـلُ هَـدْمَها لِعِـرْضِي مِـن بـاقي المذمَّـةِ حَاجِبَـا

ويَصْغُر في عَيْني تلادِي إذا انثَنَتْ يميـني بـإدراك الّـذي كُنـتُ طالِبَـا

فـإن تَهْـدِمُوا بالغَـدْرِ داري فإنَّهـا تُـراثُ كَـرِيمٍ لا يُبـالي العَواقِبَـا

أخي عَزَماتٍ لا يُطِيع عَلَى الّذي يَهُـمُّ بـه مِـن مُفْظِـع الأمْـرِ عَاتِبَـا

إذا هَـمَّ ألْـقَى بـين عَيْنَيْـهِ عَزْمَـهُ ونكَّـبَ عـن ذِكْـرِ العَواقِـبِ جَانِبَـا

فيَـا لَـرِزَامٍ رَشِّـحُوا بي مُقَـدّمًا إلى المـوتِ خواضًـا إليـه السَّباسِـبَا

---

١ ـ للفند الزّماني، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٢٦ .

٢ ـ لجعفر بن عُلْبة الحارثيّ، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٤٨ . جِضْنا: عَدِلْنا وانحرفْنا .

٣ ـ لجعفر بن عُلْبة أيضًا، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٥٠ .

٤ ـ له أيضًا، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٥٤ .

٥ ـ لسعد بن ناشب، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٧٠ .

إذا هَـمَّ لم تُـرْدَعْ عَزِيمَـةُ هَمِّـه ... ولَمْ يَـأتِ مـا يَـأتِي مِـنَ الأمـرِ هَائِبَـا
ولم يَسْتَشِـرْ في أمـره غَيـرَ نَفْسِـهِ ... ولم يَـرْضَ إلّا قـائم السَّـيْفِ صَـاحبا

ومنه أيضًا [الطّويل]:

هما خُطّتَا إمّا إسارٌ ومنّـةٌ ... وإمّـا دَمٌ، والقَتْـلُ بـالحرِّ أجْـدَرُ[1]

ومنه أيضًا [الطّويل]:

وإنَّـا لَقَـوْمٌ لا نَـرَى القَتْـلَ سُـبَّةً ... إذا مـا رَأتْـهُ عَـامِرٌ وسَـلُولُ[2]
يُقَصِّـرُ حُـبُّ المَـوْتِ آجَالَنَـا لنـا ... وتكرهُـهُ آجـالُهُمْ فتطـولُ
ومَـا مَـاتَ مِنَّـا سـيِّدٌ حَتْـفَ أنفِـهِ ... ولا طُـلَّ مِنّـا حَيْـثُ كـانَ قَتِيـلُ
تَسِـيلُ عـلى حَـدِّ الظُّبـاةِ نُفُوسُـنَا ... ولَيْسَـتْ عـلى غَيـرِ السُّـيوفِ تَسِـيلُ

ومنه أيضًا [الكامل]:

لا يَـرْكَنَن أحَـدٌ إلى الإحْجَـامِ ... يَـوْمَ الـوَغى مُتَخوِّفًـا لِحِمـامِ[3]
فلَقَـدْ أرَانِي للرِّمـاحِ دَرِيئَـةً ... مِـن عَـن يمِيـني تـارةً وأمَـامِي
حتَّى خَضَـبْتُ بما تحَـدَّرَ مِن دَمِي ... أكْنَافَ سَرْجِي أو عِنَانِ لجامِي
ثُمَّ انصرفتُ وقد أصَبْتُ ولَمْ أُصَبْ ... جَـذَعَ البَصِـيرَة قـارحَ الإقـدامِ

ومنه أيضًا [الطّويل]:

وإنِّي لـدَى الحَـرْبِ الضَّـروسِ موكَّـلٌ ... بإقـدامِ نَفْسٍ لا أريـدُ بَقاءَهـا[4]
متى يَأتِ هذا المَوْتُ لا تُلْفَ حاجَةٌ ... لنَفْسِيَ إلّا قد قَضَـيْتُ قَضَـاءَها

---

١ ـ لتأبّط شَرًّا، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ٧٨ .

٢ ـ للسّموأل، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ١١١ .

٣ ـ لقطري بن الفجاءة، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ١٣٠ .

٤ ـ لقَيْس بن الخطيم، ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ١ : ١٨١ .

كتب عبدُ الحميد بن يحيى عن مَرْوان بن محمّد إلى أبي مسلم كتابًا، حُمِل على جَمَلٍ لعِظَمه وكثرته. وقيل: إنّه لم يكن في الطّول إلى هذه الغاية، وقد حُمِل على جَمَلٍ تعظيمًا لأمره، وقال لمروان بن محمّد: إن قرأه خاليًا نخِبَ[1] قلبه، وإن قرأه في ملإٍ من أصحابه ثبّطهم وخذلهم. فلمّا وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنّار ولم يقرأه، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان [الطّويل]:

محَا السَّيْفُ أسْطَارَ البلاغةِ وانتحتْ إليكَ ليوثُ الغَابِ مِن كلِّ جانِبِ[2]

فإن تقدموا نعْمَل سُيوفًا شَحيذةً يَهُونُ عليها العَتْبُ مِنْ كلِّ عاتِبِ[3]

ويقال: إنّ أوّل الكتاب كان: لو أراد الله بالنّملة صلاحًا، لما أنبتَ لها جناحًا.

وكتب أبو مسلم إلى نَصْر بن سَيّار، وهو أوّل كتاب صَدَر عن أبي مسلم إلى نَصْر، وذلك حين لبس السّواد، وأعْلَنَ بالدّعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة: أمّا بعد؛ فإنّ الله جَلَّ ثناؤُه ذَكَر أقوامًا، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾[4].

فلمّا ورد الكتاب إلى نصر تعاظَمه أمْرُه، وكَسَر له إحدى عَيْنَيه، وقال: إنّ لهذا الكتاب لَأَخَوات، وكتب إلى مروان يستصرِخه، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجِده، فقعدا عنه حتّى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس.

الرّضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى [الطّويل]:

---

١ ـ نخب: جُبن.

٢ ـ انتحت: قصدت.

٣ ـ شحيذة: مسنونة.

٤ ـ فاطر/ ٤٢ ـ ٤٣.

سأمْضِي لِلّتِي لا عَيْبَ فِيهَا ... وإن لَمْ أَسْتفِدْ إلّا عَنَاءَ[1]
وأَطْلُبُ غايةً إن طوَحَتْ بي ... أَصَابَتْ بي الحِمامَ أو العَلَاءَ
نَمَا بي مِن أباةِ الضَّيْم آبٍ ... أفَاضَ عَلَيَّ تلكَ الكِبْرِيَاءَ
ومِنَّا كُلّ أغْلَبَ مُستميتٍ ... إذا أنتَ لَدَدْتَه بالذّلّ قَاءَ[2]
إذَا ما ضِيمَ نَمَّرَ صَفْحَتَيْهِ ... وقَامَ على بَرَاثِنِهِ إبَاءَ[3]
ونأبى أن يُنالَ النِّصْفَ مِنَّا ... وأن نُعطِي مقارِعَنَا السَّواءَ
ولوكان العِداءُ يسوغُ فينا ... لما سُمْنا الوَرَى إلّا العَدَاءَ

وله [الوافر]:

سَيُقْطِعكَ المهنَّدُ ما تمَنَّى ... ويُعطيكَ المثقَّفُ ما تشاءُ[4]
وما ينجى من الغَمَرات إلّا ... طِعانٌ أو ضِرابٌ أو رِماءُ

ومن أهل الإباء الّذين كرهوا الدّنيّة واختاروا عليها المنيّة، عبدُ الله بن الزُّبَير، تفَرّق عنه ـ لما حاربه الحجّاج بمكّة، وحصره في الحرم ـ عامّة أصحابه، وخرج كثيرٌ منهم إلى الحجّاج في الأمان، حتّى حمزة وخُبَيْبٌ ابناه، فدخل عبد الله على أُمّه أسماء بنت أبي بكر الصِّدّيق، وكانت قد كُفّ بَصَرُها، وهي عجوز كبيرة، فقال لها: خَذَلني النّاس حتّى ولدي وأهلي، ولم يَبْقِ معي إلّا مَن ليس عنده من الدّفع أكثر مِن ساعةٍ، والقوم يُعْطونني من الدّنيا ما سألت، فما رأيك؟ فقالتْ: أنتَ يا بنيّ أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو، فَامْضِ له، فقد قُتِل أكثر أصحابك، فلا تمكِّن من رَقَبتِك يتلاعب بها غِلْمانُ بني أُميّة، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدّنيا فبِئْس العَبْد أنت!

---

١ ـ ديوانه: لوحة ٧٥ ـ ٧٦ .

٢ ـ الأغلب: الشّجاع ، وأصله في الأسد .

٣ ـ الصّفحتان: جانبا العُنُق ، ونَمَّرها : جعلهما يشبهان صفحة النّمر.

٤ ـ ديوانه: لوحة ١٧٦ .

أهلكتَ نفسك، وأهلكتَ مَن قُتِل معك، وإن كنتَ قاتَلْتَ على الحقّ، فما وهنَ أصحابُك إلّا ضعفت، فليس هذا فِعْل الأحرار ولا أهل الدِّين. وكم خلودك في الدّنيا! القَتْلُ أحسن.

فدَنا عبد الله منها فقبَّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والله ما ركنتُ إلى الدّنيا ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلّا الغضبُ لله تعالى عَزَّ وجَلَّ أن تُستَحلّ محارِمُه، ولكنّني أحببتُ أن أعلم رأيك، فقد زِدْتَني بصيرةً، فانظُري يا أُمّاه، إنّي مقتول يومي هذا، فلا يشتدّ جَزَعُك، وسلِّمي لأمر الله، فإنّ ابنك لم يتعمَّدْ إتيان مُنكَر، ولا عَمَلًا بفاحشةٍ، ولم يجُرْ في حُكْم الله، ولم يظلِمْ مُسلمًا ولا مُعاهِدًا، ولا بلغَني ظلمٌ عن عاملٍ من عُمّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيء عندي آثَرَ مِن رضا الله. اللّهمّ إنّي لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، أنت أعلم بي، ولكنّي أقوله تعزيةً لأُمّي لتسلوَ عنّي. فقالت: إنّي لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حَسَنًا إن تقدّمتني، فاخْرُج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك!

فقال: جَزَاكِ الله خيرًا يا أُمّي! فلا تَدَعي الدّعاء لي حيًّا وميّتًا.

قالت: لا أدَعُه أبدًا، فمَن قُتِل على باطلٍ فقد قتلتَ على حقّ. ثمّ قالت: اللّهمّ ارْحَمْ طُول ذلك القيام في اللّيل الطّويل، وذلك النّحيبَ في الظّلماء، وذلك الصّوم في هَواجِر مكّة والمدينة، وبرَّه بأبيه وبي، اللّهمّ إنّي قد أسلمتُ لأمرك، ورضيتُ بما قَضَيْتَ فيه، فأثِبْني عليه ثواب الصّابرين.

وقد رُوِي في قصّة عبد الله مع أُمّه أسماء رواية أُخرى، أنّه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغْفر ـ وهي عمياء لا تبصر ـ وقف فسلّم، ثمّ دنا فتناول يدها فقبَّلها، قالت: هذا وِداعٌ فلا تَبْعُد. فقال: نعم، إنّما جِئْتَ مودِّعًا، إنّي لأرى هذا اليوم آخر أيّامي من الدّنيا، واعلمي يا أُمّي أنّي إذا قتلتُ فإنّما أنا لحم لا يضرّني ما صنع بي. فقالت: صدقتَ يا بنيّ! أقِمْ على بصيرتك، ولا تمكِّن ابن أبي عقيل منك، ادْنُ منّي لأودّعك. فدنا منها فقبَّلته وعانَقَته، فوجدت مسّ الدِّرْع، فقالت: ما هذا صنع مَن يريد ما تريد. فقال: إنّما لبسته لأشدّ منك. قالت: إنّه لا يشدّ منّي. ثمّ انصرف عنها، وهو يقول

[الرّجز]:

إنّي إذا أعرفُ يَوْمي أصْبرُ إذْ بعضهم يَعْرِفُ ثمّ ينكِرُ

وأقام أهل الشّام على كلّ بابٍ من أبواب الحَرَم رجالًا وقائدًا، فكان لأهل حِمص الباب الّذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دِمَشْق باب بني شَيْبة، ولأهل الأُردن باب الصّفا، ولأهل فلسطين باب جُمَح، ولأهل قِنّسْرِين باب بني سَهْم. وخرج ابنُ الزُّبير فمرّة يحمل هاهنا ومرّة يحمل هاهنا، وكأنّه أسد لا يُقْدم عليه الرِّجال، وأرسلت إليه زوجته: أ أخرج فأُقاتل معك؟ فقال: لا، وأنشد [الخفيف]:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ عَلَيْنَا وعلى المُحْصِناتِ جَرُّ الذُّيولِ[1]

فلمّا كان اللّيل، قام يصلّي إلى قريب السّحر ثمّ أغفى محتبيًا بحمائل سَيْفه، ثمّ قام فتوضّأ وصلّى، وقرأ ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]، ثمّ قال بعد انقضاء صلاته: مَن كان عنّي سائلًا فإنّي في الرَّعيل الأوّل. ثمّ أنشد [الطّويل]:

ولستُ بمُبْتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ ولا مرتقٍ مِن خَشْيَةِ المَوْتِ سُلّمَا[3]

ثمّ حمَل حتّى بلغ الحَجون، فرُمِي بآجرة، فأصابت وجهه فَدَمِي، فلمّا وجد سخونة الدّم يسيل على وجهه، أنشد [الطّويل]:

ولَسْنَا على الأعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا ولكِن على أقْدامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

ثمّ حمل على أهل الشّام فغاص فيهم، واعتوروه بأسيافهم حتّى سقط، وجاء الحجّاج فوقف عليه وهو ميّت، ومعه طارق بن عمرو، فقال: ما ولدت النّساء أذْكَر من هذا! وبعث برأسه إلى المدينة، فنصب بها، ثمّ حمل إلى عبد الملك.

أبو الطيّب المتنبّي [الطّويل]:

---

١ ـ ينسَب إلى عمر بن أبي ربيعة، ملحق ديوانه ٤٩٨ .

٢ ـ القلم:١ .

٣ ـ للحُصَين بن الحمام المُرّيّ، من مفضّليته: ٦٤ ـ ٦٩ .

أطاعِنُ خَيْلًا مِن فَوارِسِهَا الدَّهْرُ وَحيدًا ومَا قَوْلي كذا ومعي الصَّبرُ![1]
وأشْجَعُ مِنّي كلّ يَوْمٍ سَلَامَتي ومَا ثَبَتَتْ إلّا وفي نَفْسِهَا أمْرُ
تمَرَّسْتُ بالآفَاتِ حتَّى تَرَكتُها تقولُ: أمَاتَ المَوْتُ؟ أمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ؟
وأقْدَمْتُ إقْدامَ الأبيّ كأنَّ لي سِوَى مُهْجَتِي أوكانَ لي عِندَهَا وِتْرُ[2]
ذَرِ النَّفْسَ تأخذْ حَظَّها قَبْلَ بَيْنَها فَمُفْتَرِقٌ جَارانِ دارِهما عُمْرُ!
ولا تحْسِبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً فمَا المَجْدُ إلّا السَّيْفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ[3]
وتَضْرِيبُ هَامَاتِ المُلُوك وأن تُرَى لكَ الهَبواتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ[4]
وتَرْكُكَ في الدّنيا دَوِيًّا كأنّما تداوَلَ سَمْعَ المَرْءِ أنمُلُهُ العَشْرُ

وقال ابن حَيّوس [الطّويل]:

ولستُ كمَن أخْنى عَلَيْهِ زمانُهُ فظَلّ على أحْداثِهِ يتعَتَّبُ[5]
تَلَذُّ لَهُ الشَّكْوَى وإن لَمْ يُفِدْ بها صَلاحًا كما يلتذّ بالحَكِّ أجْرَبُ
ولكنّني أحمِي ذِمارِي بعَزْمَةٍ تَنُوبُ مَنابَ السَّيْفِ والسَّيْفُ مُقْضَبُ
ولَيْسَ الفَتَى مَن لَمْ تسمْ جِسْمَه الظُّبَا ويحْطَمُ فِيهِ مِن قَنَا الخَطِّ أكْعُبُ

وله أيضًا [الخفيف]:

أخْفَقَ المُتْرَف الجنوحُ إلى الخفـ ـضِ وفازَ المُخاطِرُ المِقْدامُ[6]

---

١ ـ ديوانه ١ : ١٤٨ .

٢ ـ في الدّيوان: «إقدام الأتي» ، والأتي : السّيل الّذي لا يردّه شيء .

٣ ـ القَينة: المغنيّة . والزِّقّ: ظَرف الخَمر. والفَتكة البِكْر: الّتي لم يسبق إلى مثلها .

٤ ـ الهَبَوات: جمع هَبْوة، وهي الغيرة العظيمة. والمَجْر: الجَيش العظيم .

٥ ـ ديوانه ١ : ٣٥ .

٦ ـ المُقْضَب : السّيف القطاع .

وإذا مـا السُّـيوف لَمْ تَشْـهَدَ الحَـرْ ـبَ فسـيّانِ صـارِمٌ وكَهَـامُ

وممّن تَقَيَّل مذاهب الأسلاف في إباء الضَّيم وكراهيّة الذّلّ، واختار القتل على ذلك وأن يموتَ كريمًا، أبو الحسين زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أُمّه أُمّ ولد، وكان السّبب في خروجه وخَلْعه طاعة بني مروان، أنّه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في صَدَقات عليّ عليه السلام، وهذا يخاصم عن بني حسين، وهذا عن بني حسن، فتنازعا يومًا عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة، فأغلظ كلّ واحد منهما لصاحبه، فسُرَّ خالد بن عبد الملك بذلك، وأعجبه سِبابهما، وقال لهما حين سكنا: اغْدُوا عَلَيّ، فلستُ بابن عبد الملك إن لم أفْصِلْ بينكما غدًا. فباتت المدينة تَغْلي كالمِرْجَل، فمِن قائلٍ يقول: قال زيد كذا. وقائل يقول: قال عبد الله كذا. فلمّا كان الغد جلس خالد في المسجد، وجمع النّاس، فمن بين شامِتٍ، ومَغْمومٍ، ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما، فذهب عبد الله يتكلّم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمّد، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدًا. ثمّ أقبل على خالد، فقال له: أجمعتَ ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر. فقال خالد: أما لهذا السّفيه أحدٌ يكلّمه؟!

فتكلّم رجلٌ من الأنصار من آل عَمْرو بن حَزْم، فقال: يا بْن أبي تراب، ويا ابن حسين السّفيه! أما تَرَى عليك لوالٍ حقًّا ولا طاعة! فقال زيد: اسكُت أيّها القَحْطانيّ، فإنّا لا نجيب مثلك. فقال الأنصاريّ: ولم ترغبُ عنّي! فوالله إنّي لخير منك، وأبي خيرٌ من أبيك، وأُمّي خيرٌ من أُمّك! فتضاحك زيد، وقال: يا معشر قريش، هذا الدِّين قد ذهب، أفذهبت الأحساب! فتكلّم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب، فقال: كذبت أيّها القَحْطانيّ، والله لهو خيرٌ منك نفسًا وأبًا وأُمًّا ومُحْتِدًا. وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفًّا من الحَصَى، فضرب به الأرض، وقال: إنّه والله ما لنا على هذا مِن صَبرٍ. وقام.

فقام زيد أيضًا، وشخص من فَوْره إلى هِشام بن عبد الملك، فجعل هشام

لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص، وكلّما رفع إليه قصّة كتب هشام في أسفلِها: ارْجِع إلى أرْضِك. فيقول زيد: والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدًا. ثمّ أذِنَ له بعد حَبْسٍ طويلٍ وهشام في عِلّيّة له، فرقيَ زيد إليها، وقد أمر هشام خادمًا له أن يتبعه حيث لا يراه زيد، ويسمع ما يقول. فصعد زيد ـ وكان بادِنًا ـ فوقف في بعض الدّرجة، فسمعه الخادم، وهو يقول: ما أحَبَّ الحياةَ إلّا مَن ذَلَّ! فأخبر الخادم هِشامًا بذلك، فلمّا قعد زيد بين يدي هشام وحدّثه حَلَف له على شيء، فقال هشام: لا أصدّقك. فقال زيد: إنّ الله لا يرفع أحدًا عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحدًا عن أن يرضى بذلك منه. قال له هشام: إنّه بلغني أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها، ولستَ هناك! لأنّك ابن أَمَة. فقال زيد: إنّ لك جوابًا. قال: تكلّم. قال: إنّه ليس أحد أوْلى بالله، ولا أرفع درجةً عنده من نبيّ ابتعثه، وهو إسماعيل بن إبراهيم، وهو ابن أَمَة، قد اختاره الله لنبوّته، وأخرج منه خيرَ البشر. فقال هشام: فما يَصْنعُ أخوك البقرة! فغضب زيد، حتّى كاد يخرج من إهابه، ثمّ قال: سمّاه رسول الله ﷺ الباقر وتسمّيه أنت البقرة! لشدّ ما اختلفتما! لتخالفنّه في الآخرة، كما خالفتَه في الدّنيا، فَيَرِد الجنّة، وتَرِد النّار.

فقال هشام: خُذُوا بِيَدِ هذا الأحمق المائق، فأخرجوه. فأخذ الغلمان بيده فأقاموه، فقال هشام: احمِلوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله. فقال زيد: والله لئن حملتَني إليه لا أجتمع أنا وأنت حَيَّين، وليموتنّ الأعجل منّا. فأُخرِج زيد وأُشخص إلى المدينة، ومعه نفرٌ يسيّرونه حتّى طردوه عن حدود الشّام، فلمّا فارقوه عَدَل إلى العراق، ودخل الكوفة، وبايع لنفسه، فأعطاه البيعة أكثر أهلها، والعامل عليها وعلى العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثّقفيّ، فكان بينهما من الحَرْب ما هو مذكور في كُتُب التّواريخ. وخذل أهل الكوفة زيدًا، وتخلّف معه ممّن تابعه نفرٌ يسيرٌ، وأبلى بنفسه بلاءً حَسَنًا وجهادًا عظيمًا، حتّى أتاه سَهْم غربٍ[1]، فأصاب جانب جبهته اليُسرى، فثبت في دماغه، فحين نزع منه مات عليه السلام.

---

١ ـ سَهْم غَرْبٍ، على الإضافة: لا يدري راميه.

عنّف محمّد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام زيدًا لما خرج، وحَذَّره القتل، وقال له: إنّ أهل العراق خَذَلوا أباك عليًّا وحَسَنًا وحسينًا عليهم السلام، وإنّك مقتول، وإنّهم خاذلوك. فلم يُثْنِ ذلك عَزْمه وتمثّل [الكامل]:

بَكَرَتْ تخوّفُني الحُتُوفُ كأنّني ... أصْبَحْتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ بمَعْزِلِ[1]

فأجبتُها أنّ المَنِيَّةَ مَنهَلٌ ... لا بُدَّ أن أسْقَى بذاكَ المَنهَلِ

إنَّ المَنِيَّةَ لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ ... مِثْلِي، إذا نَزَلوا بضِيقِ المَنزِلِ[2]

فاقْنَيْ حَياءَك لا أبا لك واعْلَمِي ... إنّي امرؤٌ سأمُوتُ إن لَمْ أقتَلِ[3]

العلويّ البَصْريّ صاحب الزّنج يقول [الكامل]:

وإذا تُنازِعُني أقولُ لها قَرِي ... مَوْتُ المُلوكِ عَلَى صُعُودِ المِنبرِ

ما قَدْ قَضَى سَيَكُونُ فاصطَبِري لهُ ... ولكِ الأمان مِنَ الّذي لَمْ يقْدَرِ

وقال أيضًا [الكامل]:

إنّي وقَوْمي في أنسَابِ قَوْمهم ... كمَسْجدِ الخَيْف في بُحْبُوحة الخَيْفِ

ما عُلِّق السَّيْف منّا بابن عاشرةٍ ... إلّا وعزمتُه أمْضَي من السَّيْفِ

بعض الطّالبيّين [المتقارب]:

وإنّا لتُصْبحُ أسيافُنَا ... إذا ما انتُضِين ليَوْمٍ سَفُوكِ

مَنابِرُهُنّ بطونُ الأكُفّ ... وأعْمادُهُن رءوس المُلوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه [الكامل]:

وهُمُ الأسودُ لَدَى العَرِينِ بسَالَةً ... ومِنَ الخُشوعِ كأنّهُمْ أحْبَارُ

---

١ ـ لعَنْترة، ديوانه: ٤٢ ، (من مجموعة العِقْد الثّمين) .

٢ ـ في الدّيوان: «ضَنك المنزل» .

٣ ـ اقْنَى حياءك: الْزَمِيه .

يَمْضُونَ قد كَسَرُوا الجُفُونَ إلى ... مُتَبَسِّمين وفيهمُ اسْتِبْشارُ
فكأنّما أعداؤهُمْ أحْبَابُهُمْ ... فَرَحًا إذا خَطَرَ القَنَا الخَطّارُ
يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمامِ وإنّها ... تاللهِ عند نُفُوسِهِمْ لَصِغَارُ
ولَقَدْ مَضَوْا وَأنا الحَبيبُ إليهمُ ... وَهُمُ لَدَيَّ أحبّةٌ أبْرارُ
قَدَرٌ يخلّفُني ويُمْضِيهم بِهِ ... يا لهفَ كيف يفوتني المقدارُ!

وفي الحديث المرفوع: «خُلُقان يحبّهما الله: الشّجاعة والسّخاء».

كان بِشْر بن المعتمر مِن قُدَماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل عليّ عليه السلام ويقول: كان أشْجَعهم وأسْخَاهم، ومنه سَرَى القولُ بالتّفضيل إلى أصحابنا البغداديّين قاطبة، وفي كثير من البَصْريّين.

دخل النَّضْر بن راشد العبديّ على امرأته في حَرْب التُّرْك بخُراسان في ولاية الجُنَيد بن عبد الرّحمان المريّ في خلافة هِشام بن عبد الملك والنّاس يقتتلون، فقال لها: كيف تكونين إذا أُتِيتِ بي في لِبْدٍ قتيلًا مُضَرّجًا بالدِّماء؟ فشقّت جَيْبَها، ودَعَتْ بالوَيْل، فقال: حسبك! لو أعولَتْ عَلَيَّ كلّ أُنثى لعصيتُها شوقًا إلى الجنّة. ثمّ خرج فقاتل حتّى قُتِل، وحمل إلى امرأته في لِبْدٍ ودمه يقطر من خلاله.

قال أبو الطّيّب المتنبّي [الوافر]:

إذا غَامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومٍ ... فلا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُومِ[1]
فطَعْمُ المَوْتِ في أمرٍ حَقيرٍ ... كَطَعْمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ
يَرَى الجُبَناءُ أنَّ الجُبْنَ حَزْمٌ ... وتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللّئيمِ
وكلّ شجاعةٍ في المرءِ تُغْني ... ولا مثلَ الشَّجاعةِ في الحَكيمِ

وقال [الطّويل]:

---

١ ـ ديوانه ٤ : ١١٩ .

إذا لم تجدْ ما يَبْتُرُ العُمْرَ قاعِدًا فقُمْ واطْلُبِ الشّيءَ الّذي يَبْتُرُ العُمْرَا[1]

وقال [الطّويل]:

أهمُّ بشيءٍ واللّيالي كأنّها تُطارِدُني عن كَوْنِهِ وأطارِدُ[2]

وَحيدًا من الخلّان في كلِّ بَلْدَةٍ إذا عَظُمُ المطلوبُ قَلّ المساعِدُ

قيل لأبي مسلم في أيّام صباه: نراك تنظر إلى السّماء كثيرًا كأنّك تسترقّ السّمع، أو تنتظر نزولَ الوحي! قال: لا، ولكن لي همّة عالية، ونفس تتطلّع إلى معالي الأُمور، مع عيش كعيش الهَمَج والرِّعاع، وحال متناهية في الاتّضاع. قيل: فما الّذي يشفي علّتَك، ويروي غُلّتك؟ قال: المُلْك. قيل: فاطْلُب المُلْك. قال: إنّ المُلْك لا يُطلَب هكذا. قيل: فما تصنع وأنت تذوب حَسَرًا، وتموت كمدًا؟ قال: سأجعل بعض عقلي جَهْلًا، وأطلب به ما لا يطلب إلّا بالجهل، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلّا بالعقل، فأعيش بين تدبير ضِدَّين، فإنّ الجهل أخو العدم، والشُّهْرة أُخت الكَوْن.

قال ابن حَيّوس [الكامل]:

أمواتُهُمْ بالذِّكْرِ كالأحياء ولحيّهِمْ فَضْلٌ على الأحياءِ[3]

نَزَلُوا على حُكْمِ المروءةِ وامتطَوْا بالبَأسِ ظَهْرَ العِزّةِ القَعْساءِ

والعِزّ لا يَبْقَى لغيرِ معوّدٍ أن يَكشفَ الغمّاءَ بالغَمّاءِ

لا تحْسَبِ الضَّرّاءَ ضَرّاءً إذا أفْضَتْ بصاحِبها إلى السَّرّاءِ

وقال [الكامل]:

وهي الرّياسةُ لا تبوحُ بسرِّها إلّا لِأَرْوَع لا يُباح ذِمارُهُ[4]

---

١ ـ ديوانه ٢ : ١١٤ .

٢ ـ ديوانه ١ : ٢٧٠ .

٣ ـ ديوانه ١ : ١٢ ـ ١٩ .

٤ ـ ديوانه ١ : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

يَحْمـــي حِمَـــاهُ قَلْبُـــهُ ولِســـانُهُ وتَـذودُ عنـه يَمِينُـهُ ويسـارُهُ
لا العذل ناهِيهِ، ولا الحِرْص الّذي أمَرَ النُّفوسَ بِشُـحِّها أمّـارُهُ
فلْـيَعْلَمُ السّـاعي ليبلغَ ذَا المَـدَى إنّ الطّريـقَ كثيـرةٌ أخطـارُهُ

كان ثابت بن قُطْنة في خيل عبد الله بن بِسْطام في فتح سكند من بلاد التُّرك في أيّام هشام بن عبد الملك، فاشتدّت شوكة التّرك، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق، فقال ثابت: والله لا ينظر إلى بنوأُميّة غدًا مشدودًا في الحديد، أطلُب الفداء، اللّهمّ إن كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة، فاجْعلني ضَيْفَك اللّيلة. ثمّ حمل وحمل معه جماعة، فكسرتْهم التُّرْك، فرجع أصحابُه وثبت هو، فرُمِيَ برذونه فشبَ، وضربه فأقدم، فصرع ثابت وارْتُثّ، فقال: اللّهمّ إنّك استجبْتَ دعوتي وأنا الآن ضَيْفك، فاجْعَلْ قِرَايَ الجنّة. فنزل تركيّ فأجهز عليه.

قال يزيد بن المهلّب لا بنه خالد، وقد أمّره على جيش في حَرْب جُرْجان: يا بنيّ، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغْلَبنّ على الموت، وإيّاك أن أراك غدًا عندي مَهْزومًا!

عن النّبيّ ﷺ: «الخير في السَّيْف، والخير مع السَّيْف، والخير بالسَّيْف»، كما يقال: المنيّة ولا الدَّنيّة، والنّار ولا العار، والسّيف ولا الحَيْف.

قال سيفُ بن ذي يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بوَهْرز الدَّيْلميّ ومَن معه: أيّها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفًا؟ فقال: يا أعرابيّ، كثيرُ الحَطَب يكفيه قليل النّار.

لمـّا حَبَس مَرْوانُ بن محمّد إبراهيمَ الإمام، خرج أبو العبّاس السَّفّاح، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهّاب ومحمّد ابنا إبراهيم الإمام، وعيسى. وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصّمد أبناء عليّ بن عبد الله بن العبّاس، وعيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ ابن عبد الله بن العبّاس، ويحيى بن جعفر بن تمّام بن العبّاس، من الحُمَيْمَة من أرض السَّراة يطلبون الكوفة، وقد كان داود بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس وابنه موسى بن داود بالعراق، فخرجا يطلبان الشّام، فتلقّاهما أبو العبّاس وأهل بيته بدُومة الجَنْدَل، فسألهم داود عن خروجهم، فأخبروه أنّهم يريدون الكوفة ليظهروا بها،

ويَدْعُوا إلى البيعة لأبي العبّاس، فقال: يا أبا العبّاس، يظهر أمرك الآن بالكوفة، ومروان بن محمّد شيخ بني أميّة بحرّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشّام والجزيرة، ويزيد بن عمر بن هبيرة شيخ العرب بالعراق في فُرسان العرب؟! فقال: يا عمّ، مَن أحبّ الحياة ذلّ. ثمّ تمثّل بقول الأعشى [الطّويل]:

فما ميتَةٌ إن مِتُّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْس غُولُها[1]

فقال داود لابنه موسى: صَدَقَ ابنُ عمّك، ارْجِع بنا معه، فإمّا أن نهلك أو نموت كِرامًا.

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة: إنّ ثلاثة عشر رجلًا خرجوا من ديارهم وأهليهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة هِمَمهم، كبيرة نفوسهم، شديدة قلوبهم.

أبو الطّيّب المتنبّي [الخفيف]:

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا تَعِبَتْ في مُرادِهَا الأجْسامُ[2]

وله [الطّويل]:

إلى أيّ حينٍ أنتَ في زِيّ مُحْرِمٍ وحتّى متى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ
وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيوفِ مكَرَّمًا تَمُتْ وتُقاسي الذُّلّ غيرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ واثقًا باللهِ وَثْبَةَ ماجِدٍ يَرَى المَوْتَ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

وقال آخر [البسيط]:

إن تَقْتُلُوني فآجالُ الرِّجالِ كمَا حُدِّثْتُ قَتْلٌ وما بالقَتْلِ مِن
وإن سَلِمْتُ لوَقْتٍ بعده فعَسَى وكلّ شيءٍ إلى حَدٍّ ومِقْدارِ

---

١ ـ ديوانه: ١٢٥.

٢ ـ ديوانه ٣: ٣٤٥.

٣ ـ ديوانه ٤: ٣٣.

خطب الحجّاج فشَكَا سوءَ طاعة أهل العراق، فقام إليه جامع المحاربيّ، فقال: أيّها الأمير، دَعْ ما يُباعِدُهم منك إلى ما يقرّبُهم إليك، والتمس العافية ممّن دونك تُعْطَها ممّن فوقك، فلو أحبُّوك لأطاعوك، إنّهم ما شنِئوك بنَسَبك ولالبأْسك، ولكن لإيقاعك بعد وعيدِك، ووعيدِك بعد وَعْدِك.

فقال الحجّاج: ما أراني أُرَدّ بني اللّكيعة إلى طاعتي إلّا بالسّيف، فقال جامع: أيّها الأمير، إنّ السّيف إذا لاقَى السّيف ذهب الخيار. فقال الحجّاج: الخيار يومئذٍ لله. فقال: أجَلْ، ولكنّك لاتدري لمن يجعله الله. فقال: يا هنّاه، إيهًا فإنّك من مُحارب. فقال جامع [الطّويل]:

وِلِلْحَرْبِ سُمِّينَا فكُنّا محاربًا ... إذا ما الْقَنَا أمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أحْمَرَا

ومن الشّعر الجيّد في تحسين الإباء والحميّة والتّحريض على النّهوض والحَرْب وطلب المُلْك والرّياسة، قصيدة عُمارة اليمنيّ شاعر المصريّين في فخر الدّين تورانشاه بن أيُّوب، الّتي يغريه فيها بالنُّهوض إلى اليمن، والاستيلاء على مُلْكها، وصادفت هذه القصيدة محلًّا قابلًا، وملك تورانشاه اليمن بما هزّت هذه القصيدة من عَطْفه، وحركت من عَزْمه، وأوّلها [البسيط]:

العِلْمُ مُذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْني عَنِ القَلَمِ[1]

وخَيرُ خَيْلِكَ إن غامَرْتَ في شَرَفٍ ... عَزْمٌ يفرّق بَينَ السّاقِ والقَدَمِ

إنَّ المعالي عَروسٌ غيرُ واصِلَةٍ ... ما لم تخلِّقْ رِدَاءَيْها بنَضْحِ دَمِ

تَرَى مَسَامِعَ فَخرِ الدّين تَسْمَعُ مَا ... أمْلَاهُ خَاطِرُ أفْكارِي عَلَى قَلَمِي

فإن أصَبْتُ فَلِي حظّ المُصيبِ وإن ... أخْطأتُ قَصْدَكَ فَاعْذِرْني ولاتَلُمِ

كَمْ تتركِ البيضُ في الأجفانِ ظامِئَةً ... إلى المَوارِدِ في الأعناقِ والقِمَمِ

ومُقلَةُ المَجْدِ نحو العَزْمِ شاخِصَةٌ ... فاتْرُكْ قُعودَكَ عن إدراكِها وقُمِ

---

١ ـ النّكت العصريّة: ٣٥٢.

فعمَّـكَ المَلِـكُ المنصـور سَـوَّمَهَا مِـنَ الفُـراتِ إلى مِصْـرٍ بـلا سَـأمِ
واخْلُـقْ لنَفْسِـكَ أمْـرًا لا تضـافُ بِـهِ إلى سِـواكَ، وأورِ النّـارِ في العَلَـمِ
وانـهَ المشـيرينَ إن لَجَّـتْ نصيحتُهُمْ أو لا، فأنْعِمْ على العُمْيانِ بالصَّمَمِ
واعْـزِمْ وصَـمِّمْ فَقَـدْ طالَـتْ وقَـدْ قضـيّة لفظتْهـا ألسـنُ الأمَـمِ
فـرُبَّ أمْـرٍ يَهـابُ النّـاسُ غايتَـهُ والأمْـرُ أهْـوَنُ فِيـهِ مِـن يـدٍ لِفَـمِ
فكيفَ إن نهضتْ فيما همَمْتَ بِهِ أسْـد تَسِـير مِـنَ الخَطّـيّ في أجَـمِ
لا يـدركُ المجـدَ إلّا كـلّ مُقْـتَحِمٍ في مَـوْجِ مُلْـتطِمٍ أو فَـوْجِ مُضْـطَرِمِ
لا يـنقصُ الخَطْـوةَ الأولَى بثانيـةٍ ولا يفكّـرُ في العُقْـبَى مِـنَ النَّـدَمِ
كأنّمـا السَّـيْفُ أفْتَـاهُ بقـتلِهِم في فَتْح مكّة حَلّ القَتْل في الحَرَمِ
ولَمْ يراعُـوا لعُثْمـانَ ولا عمـرٍ ولا الحُسَـين ذِمـام الأشْـهُرِ الحُـرُمِ
فمـا تـرومُ سـوَى فَـتْحٍ صَـوارِمُهُ يُضْحكْنَ في كلّ يومٍ عَابسِ البُهَمِ
حتَّى كـأنَّ لسـانَ السَّـيْفِ في يـدِهِ يَروِي الشّريعةَ عَنْ عادٍ وعَن إرَمِ
هـذا ابْـنُ تـومرتَ قَـدْ كانـتْ بدايتـهُ فيما يقولُ الوَرَى لحمًا على وَضَمِ
وقَـدْ تَـرَقَّى إلى أن صـارَ طالِعُـهُ مِـنَ الكواكـبِ بالأنفاسِ والكَظَمِ
وكـانَ أوّلُ هـذا الـدّينِ مِـن رجـلٍ سَـعَى إلى أن دَعَـوْهُ سـيّدَ الأمَـمِ

ـ كذب، لم يظهر الدّين الحَنيف المقدّس على الأديان بسَعْي البشر، بل بالتّأييد الإلهيّ، والسّرّ الرّبّانيّ، صلوات الله وسلامه على القائم به، والمتحمّل له ـ

والبَدْرُ يبدُو هلالًا ثمَّ يكشف بالـ ـأنوارِ مـا سـترتهُ شَمْلَـةُ الظُّلَـمِ
والغَيْـثُ فَهْـوَ كمـا قَـدْ قِيـلَ أوّلُـهُ قَطْـرٌ وبـدءُ خـرابِ السَّـدِّ بـالعَرَمِ
تَنمُـو قُـوَى الشّـيءِ بالتّـدريجِ إن لَـظًى ويَقوَى شِرارُ النّارِ بالضَّـرَمِ
حَاسِـبْ ضَـميرَكَ عـن رأيٍ أتَـاكَ نصـيحةً وَرَدَتْ مِـنْ غيـرِ مُـتَّهَمِ

أقسمت ما أنتَ ممّن جَلّ همَّتُهُ ما راقَ مِن نِعَمٍ أو رَقّ مِن نِعَمِ
وإنّما أنتَ مَرْجوّ لواحدةٍ بَنَى بها الدَّهْرُ مَجْدًا غيرَ مُنهَدِمِ
كأنّني باللّيالي وَهْيَ هاتِفَةٌ قد صمَّ سمعَ رجالٍ دُونَها وعَمِي
وبالعلا كلّما لاقَتْكَ قائلة أهلًا بمُنشِرِ آمالي مِنَ الرَمَمِ

ومِن أباة الضَّيم الّذين اختاروا القَتْلَ على الأسر، والموت على الدَّنيّة، مُصْعَب بن الزُّبير، كان أمير العِراقَين مِن قِبَل عبد الله بن الزُّبَير، وكان قد كَسَر جُيوش عبد الملك مِرارًا، وأعياه أمره، فخرج إليه من الشّام بنفسه، فلِيمَ في ذلك، وقيل له: إنّك تغرّر بنفسك وخلافَتِك. فقال: إنّه لا يَقُوم لحَرْب مُصْعب غيري، هذا أمر يحتاج إلى أن يقوم به شجاع ذو رأي، وربّما بعثتُ شجاعًا ولا رأي له، أو ذا رأي ولا شجاعة عنده، وأنا بصيرٌ بالحَرْب، شجاع بالسَّيف، فلمّا أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب، جاءته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فالتزمتْه، وبَكَتْ لِفراقِه، وبكى جَواريها حولها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جُمْعة[1]،كأنّه شاهد هذه الصّورة حيث يقول [الطّويل]:

إذا هَمّ بالأعداء لم يَثْنِ عَزْمُهُ حصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُهَا
نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النَّهْيَ عاقَهُ بَكَتْ فبَكَى ممّا عَرَاهَا قَطِينُهَا

فسَارَ عبدُ الملك حتّى إذا كان بمَسْكن من أرض العراق، وقد دنا منه عَسْكر مُصْعب، تقاعد بمُصْعب أصحابه وقُوّاده وخذلوه، فقال لابنه عيسى: الحَقْ بمكّة فانجُ بنفسك، وأخبر عمّك عبد الله بما صنع أهل العراق بي، ودَعني فإنّي مقتول. فقالَ: لا تتحدّث نساء قريش أنّي فررتُ عنك، ولكن أُقاتل دونك حتّى نقتل، فالفرار عارٌ، ولا عارٌ في القتل. ثمّ قاتل دونه حتّى قُتِل. وخفّ مَن يحامي عن مُصْعب من أهل العراق، وأيقن بالقتل، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمّد بن مروان، فأعطاه

---

١ ـ هو كثير بن عبد الرّحمان بن أبي جمعة .

الأمان وولاية العراقَين أبدًا ما دام حيًّا، وألفي ألف درهم صِلَةً، فأبى وقال: إنّ مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلّا غالبًا أو مقتولًا. فشدّ عليه أهل الشّام ورموه بالنَّبل فأثخنوه، وطعنه زائدة بن قيس بن قُدَامة السّعديّ، ونادى: يا لثارات المختار! فوقع إلى الأرض، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان، فاحتزّ رأسه، وحمله إلى عبد الملك.

لما حُمِل رأسُ مُصْعب إلى عبد الملك، بَكَى وقال: لقد كان أحبّ النّاس إليّ وأشدّهم مودّةً لي، ولكنّ الملك عقيم.

كتب مُصْعب إلى سُكَينة بنت الحسين عليها السلام، وكانت زوجته لما شخص إلى حَرْب عبد الملك وهي بالكوفة بعد ليالٍ من فِراقها [الطّويل]:

وكان عَزيزًا أن أبيتَ وبينَنَا ... حِجابٌ فقَدْ أصْبَحْتِ منّي عَلَى عَشْرِ

وأبكاهُمَا واللهِ للعين فاعْلِمي ... إذا ازددت مثليها فصِرْت عَلَى شَهْرِ

وأنكَى لقَلْبي منهما اليومَ أنّني ... أخافُ بألّا نلتقي آخَرَ الدَّهْرِ

ثمّ أرسل إليها وأشخصها، فشهدت معه حَرْب عبد الملك، فدخل عليها يوم قتل، وقد نزع ثيابه ثمّ لَبِس غُلالة، وتوشّح بثوبٍ واحدٍ، وهو محتضِنٌ سيفه، فعلمتْ أنّه غير راجع، فصاحت: واحَزَناه عليك يا مُصْعب! فالتفت إليها، وقال: إنّ كلّ هذا في قلبك! قالت: وما أخفي أكثر! قال: لوكنتُ أعلم هذا لكان لي ولك شأن، ثمّ خرج فلم يرجع.

فقال عبد الملك يومًا لجُلَسائه: مَن أشجَعُ النّاس؟ فقالوا: قطريّ، شبيب، فلان وفلان. قال عبد الملك: بل رجل جَمَع بين سُكَينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وأمّة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وقلابة ابنة زبان بن أنيف الكلبيّ سيّد العرب، ووَلِيَ العِراقَين خمس سنين، فأصاب كذا وكذا ألف دِرْهم، وأُعطِي الأمان على ذلك كلّه وعلى ولايته وماله فأبَى، ومَشَى بسَيْفِه إلى الموت حتّى قُتِل، ذاك مُصْعَب بن الزّبير، لا مَن قطع الجسور مرّة هاهنا ومرّة هاهنا!

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر أيُّ ابنَي الزّبير أشجع؟ فقال: كلاهما جاءه الموت، وهو ينظر إليه.

لمّا وُضِع رأس مُصْعب بين يدي عبد الملك، أنشد [الوافر]:

لقد أرْدَى الفَوارسُ يومَ حِسْيٍ غُلامًا غيرَ مَنّاعِ المتاعِ[1]
ولا فَـرِحٍ بخيـرٍ إن أتَـاهُ ولا هَلِعٍ مِن الحَدَثانِ لاعِ
ولا وقّافَـةٍ والخَيْـلُ تَـرْدِي ولا خَـالٍ كـأنبُوبِ اليـرَاعِ

كان ابن ظَبْيان، يقول: ما نَدِمْتُ على شيء نَدَمي على ألّا أكونَ لمـا حَمَلتُ إلى عبد الملك رأسَ مُصْعبٍ فسجَد قتلتُه في سَجْدَته، فأكون قد قتلتُ مَلِكي العرب في يومٍ واحد.

قال رجل لعبد الله بن ظَبْيان: بماذا تحتجّ عند الله عَزَّ وجَلَّ غدًا، وقد قتلتَ مُصْعبًا؟ قال: إن تُركت أحتجّ كنتُ أخطب من صَعْصعة بن صَوْحان! كان مُصْعب لمّا خرج إلى حَرْب عبد الملك سأل عن الحسين بن عليّ عليه السلام، وكيف كان قَتْله؟ فجعل عُرْوة بن المغيرة يُحدِّث عن ذلك، فقال متمثّلًا بقول سليمان بن قَتَّة [الطّويل]:

وإنَّ الأُولى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هاشمٍ تأسَّوْا فَسَنُّوا للكرامِ التّأسّيا[2]

قال عُرْوة: فعلمتُ أنّ مُصْعبًا لا يفرّ.

لما كان يوم السَّبَخة، وعَسكر الحجّاج بإزاء شَبِيب، قال له النّاس: أيّها الأمير، لو تنحَّيت عن هذه السَّبَخة، فإنّها منتنة الرّيح! قال: ما تنحُّوني ـ والله ـ إليه أنتن، وهل ترك مُصْعَب لكريم مَفَرًّا! ثمّ أنشد قول الكلحبة [الطّويل]:

---

١ ـ من أبيات نسبها ابن الشّجريّ في أماليه: ٨٥ ، إلى طفيل الغنويّ .

٢ ـ اللّسان ١٨ : ٣٧ .

إذا المَرْءُ لم يَغْشَ الكَريهةَ أو شَكَتْ حِبَالُ الهُوَيْنَى بالهَوَى أن تَقَطَّعَا[1]

وروى أبو الفَرَج في كتاب «الأغاني»[2] خطبةَ عبد الله بن الزُّبير في قَتْل مُصْعب برواية هي أتمّ ممّا ذكرناه نحن فيما تقدّم، قال: لما أتى خبرُ المُصْعب إلى مكّة، أضرب عبد الله بن الزّبير عن ذِكْره أيّامًا، حتّى تحدَّث به جميع أهل مكّة في الطّريق، ثمّ صعد المنبر فجلس عليه مَلِيًّا لا يتكلّم، فنظر النّاس إليه، وأنّ الكآبة على وجهه لَبادية؛ وأنّ جَبينه ليرشَح عرقًا، فقال واحد لآخر: ما له لا يتكلّم؟ أتراه يهابُ النّطق! فوالله إنّه لخطيب. فما تراه يهاب؟ قال: أراه يريد أن يذكر قتل المُصْعب سيّد العرب، فهو يقطّع بذلك. فابتدأ، فقال: الحمد لله الّذي له الخَلْق والأمر، مَلِك الدّنيا والآخرة، يُعِزّ مَن يشاء، ويُذِلّ مَن يشاء، ألَا إنّه لا يُذِلّ مَن كان الحقّ معه وإن كان مفردًا ضعيفًا، ولا يُعِزّ مَن كان الباطل معه، وإن كان ذا عَدَدٍ وكثرةٍ. ثمّ قال: أتانا خبرٌ من العراق، بلد الغَدر والشِّقاق، فساءنا وسرّنا، أتانا أنّ مصعبًا قُتِل رحمه الله، فأمّا الّذي أحزننا من ذلك فإنّ لفِراق الحَميم لَذْعة ولَوْعة، يجدها حميمُه عند المصيبة، ثمّ يرعوي ذو الرّأي والدِّين إلى جميل الصّبر. وأمّا الّذي سَرّنا منه، فإنّ قتله كان له شهادة، وإنّ الله جاعلٌ لنا وله في ذلك الخِيرة. ألَا إنّ أهلَ العراق باعُوه بأقلّ الأثمان وأخسرها، وأسلموه إسلام النَّعم المخطَّمة[3] فقتل، وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه[4]، وكانوا الخِيار الصّالحين، وإنّا والله ما نموت حَتْف آنافنا، ما نموت إلّا قَتْلًا قَتْلًا، وقَعْصًا[5]

---

١ ـ المفضّليّات: ٣٢.

٢ ـ الأغاني ١٧: ١٦٦، تاريخ الطّبريّ ٧: ١٩٠. عيون الأخبار ٢: ٢٤٠. مع اختلاف في الرّوايات.

٣ ـ المخطَّمة، من قولهم خطم البعير بالخطام: إذا جعله على أنفه، والخطام: ما وضع على أنف البعير ليقتاد به.

٤ ـ قُتِل أبو الزّبير بن العوّام يوم الجَمَل، قَتَلَه عمرو بن جرموز في صلاته بوادي السّباع. وعمّه عبد الرّحمان بن العوّام بن خُوَيلد، قُتِل يوم اليرموك، وأخوه المنذر بن الزّبير قُتِل يوم الحرّة.

٥ ـ القَعْص: الموت السّريع، ويقال: مات قَعْصًا، أي أصابَتْه ضربةٌ أو رميةٌ فمات في مكانه.

قَعْصًا، بين قِصَد[١] الرِّماح، وتحت ظِلال السُّيوف، ليس كما تموت بنو مَرْوان، والله ما قُتِل منهم رجلٌ في جاهليّة ولاإسلام، وإنّما الدّنيا عارية من المَلِك القهّار الّذي لا يَزُول سلطانه، ولايَبِيدُ مُلْكه، فإن تُقْبِل الدّنيا عَلَيّ لا آخذها أخْذَ اللّئيم البَطر، وإن تدبِرْ عنّي لا أبكي عليها بُكاء الخَرِف[٢] المُهْتَر. ثمّ نزل.

وقال الطِّرِمّاح بن حكيم، وكان يَرَى رأي الخوارج [الطّويل]:

وإنّي لَمُقْتادٌ جَوادِي فقاذِفٌ ... بِهِ وبنفسي اليوم إحْدَى المتالفِ[٣]

لأكْسِبَ مالًا أو أؤُوب إلى غِنًى ... مِنَ اللهِ يكفيني عذاب الخلائِفِ[٤]

فيا ربّ إن حَانَتْ وفاتي فلا تَكُن ... على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضْرِ المَطارفِ[٥]

ولكنَّ قبري بَطْنُ شبرمَقِيلُهُ ... بجوِّ السّماءِ في قصورٍ عَواكِفِ

وأمْسِي شهيدًا ثاوِيًا في عِصابةٍ ... يُصابونَ في فجٍّ مِنَ الأرضِ خانفِ

فوارِسُ أشتاتٍ يؤلِّفُ بينهمْ ... هُدَى الله نَزّالُونَ عند المواقِفِ

قال ابن شُبرُمة: مررتُ يومًا في بعض شَوارع الكوفة، فإذا بنَعْشٍ حوله رجالٌ، وعليه مُطرف خَزٍّ أخضر، فسألت عنه؟ فقيل: الطِّرِمّاح، فعلمتُ أنّ الله تعالى لم يستحبّ له.

وقال محمّد بن هانىء [الطّويل]:

ولم أجِدُ الإنسانَ إلّا ابنَ سَعْيِهِ ... فمَن كانَ أسْعَى كانَ بالمَجْدِ أجْدَرَا[٦]

---

١ ـ القصدة: القطعة ممّا يكسر، وجمعها قِصَد.

٢ ـ الخَرِف: مَن فسد عَقْلُه من الكِبر، وكذلك المُهْتَر.

٣ ـ ديوانه: ١٥٥. والقَوَد: نقيض السّوق، فهو من أمام.

٤ ـ الخلائف: جمع خليفة، وهو السّلطان.

٥ ـ الشَّرْجَع: النَّعْش. وفي الدّيوان: (أذا العرش إن حانَتْ).

٦ ـ ديوانه: ٣٦٢.

وبالهِمَّةِ العلياءِ تَرْقَى إلى العُلَا فمَن كانَ أعْلَى هِمَّةً كانَ أظْهَرَا
ولَمْ يتأخَّرْ مَن أرادَ تقدُّمًا ولَمْ يتقدَّمْ مَن أرادَ تأخَّرَا

الرّضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى [الطّويل]:

ومَن أخَّرَتْهُ نَفْسُهُ ماتَ عَاجِزًا ومَن قَدَّمَتْهُ نَفْسُهُ ماتَ سَيِّدَا[1]

وله ﷺ [الخفيف]:

مَا مُقامِي على الهَوانِ وعِندِي مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنفٌ حَمِيُّ[2]
وإباءٌ محلّقٌ بِي عَنِ الضَّيْـ ـمِ كما زاغَ طائِرٌ وَحْشِيُّ

أبو الطّيّب المتنبّي [الطّويل]:

تَقُولينَ ما في النّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ ما أحببتُهُ تجِدي مِثْلِي[3]
محِبًّا كَنَى بالبِيضِ عَن مُرْهَفَاتِهِ وبالحُسْنِ في أجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ[4]
وبالسُّمْرِ عَن سُمْرِ القَنَا غَيْرَ أنَّنِي جَنَاهَا أحِبَّائي وأطْرافُهَا رُسْلِي
عَدِمْتُ فُؤادًا لَمْ يَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ ثَنايَا الغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ
تُرِيدِينَ إدْرَاكَ المَعالي رَخِيصَةً ولابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِن إبَرِ النَّحْلِ

ابن الهُبَاريّة: الهِمَم العَلِيّة، والمهَجُ الأبية تقرّب المنيّة، منك أو الأُمنية.

أبو تمام [الوافر]:

فَتَى النَّكَباتِ مَن يَأوِي إذَا مَا يَطُفْنَ بِهِ إلى خُلقٍ وسَاعِ[5]
يُثِيرُ عَجَاجَةً في كلِّ فجٍّ يَهِيمُ بها عَدِيُّ بْنُ الرِّقَاعِ

---

١ ـ ديوانه: ١٢٧ . ( طبعة نخبة الأخبار )

٢ ـ ديوانه: ٥٤٦ . (طبعة نخبة الأخبار )

٣ ـ ديوانه ٣ : ٢٨٩، مع اختلاف في الرّواية .

٤ ـ البيض: النّساء. والمهفات: السّيوف .

٥ ـ ديوانه ٢ : ٣٣٦ .

يخُوضُ مع السِّباعِ الماءَ حتَّى لتَحْسِبُهُ السِباعُ مِنَ السِبَاعِ
فَلَبِّ العَزْمَ إن حاوَلْتَ يومًا بأن تَسطِيع غَيْرَ المُسْتَطاعِ
فلَمْ تَرْكَبْ كنَاجِيَةِ المَهارِي ولَمْ تُرْكَبْ هُمُومَك كالزَّمَاعِ

وله أيضًا [الخفيف]:

إنّ خَيرًا ممّا رأيتُ مِنَالصَّفْـ ـحِ عَنِ النّائِبات والإغْمَاضِ[1]
غُرْبةٌ تَقْتدِي بغُرْبَةِ قَيْسِ بْـ ـنِ زُهَيرٍ والحارثِ بْنِ مُضاضِ
غَرَضَيْ نَكْبَتَين ما فَتَلَا رَأْ يًا فخَافَا عليهِ نَكْثَ انتقاضِ
مَن أبَنَّ البُيوتَ أصْبَحَ في ثَوْ بٍ مِنَ العَيْشِ لَيْسَ بالفَضْفَاضِ[2]
صَلَتَانٌ أعداؤُهُ حَيْثُ حَلّوا في حَديثٍ مِن ذِكْرِهِ مُسْتَفاضِ[3]
والفَتَى مَن تَعَرَّقَتْهُ اللّيالِي والفيافي، كالحَيَّةِ النَّضْنَاضِ[4]
كلّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللّيالي فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ البَرَّاضِ[5]

وله أيضًا [الخفيف]:

إن تَرَيْني تَرَيْ حُسَامًا صَقيلًا مَشْرَفِيًّا مِنَ السُّيوفِ الحِدادِ
ثانِيَ اللّيْلِ ثالثَ البِيدَ والسَّيْـ ـرِ نَدِيمَ النُّجُومِ تِرْبَ السُّهَادِ[6]

أخذ هذا اللّفظ أبو عُبادة البُحتريّ، فقال [الخفيف]:

---

١ ـ ديوانه ٢ : ٣٠٩ .

٢ ـ يقال: أبن بالموضع إذا أقام به .

٣ ـ الصَلتان: الماضي في أمره .

٤ ـ الحيّة النَضناض: الّتي لا تستقرّ في مكان .

٥ ـ البرّاض بن قيس الكَنانيّ، قتل عُزوة الرّحال في غير حَرْبٍ، فجرّ ذلك حرب الفجّار بين قَيْس وكَنانة .

٦ ـ البيتان للبحتريّ وليسا لأبي تمّام. انظر ديوانَيهما.

يا نَدِيمَيَّ بالسَّواجِيرمن شَمْـ ... سِ بْنِ عمرٍو وبُختر بْنِ عَتودِ[1]
اطْلبَا ثالثًا سوايَ فإنّي ... رابعُ العِيسِ والدُّجَى والبِيدِ
لستُ بالعاجز الضَّعيفِ ولا القا ... ئلِ يومًا إنَّ الغِنَى بالجُدودِ
وإذا استصعبتْ مقادةُ أمْرٍ ... سَهَّلَتْهُ أيْدِي المهَارَى القُودِ

وقال الرّضيّ رحمه الله تعالى [الوافر]:

ولَمْ أرَ كالرَّجَاءِ اليومَ شيئًا ... تَذِلّ لَهُ الجَماجِمُ والرِّقابُ[2]
وبعضُ العُدْمِ مأثُرَةٌ وفَخْرٌ ... وبعضُ المالِ مَنقصةٌ وعَابُ
بَنَاني والعِنانُ إذا نَبَتْ بِي ... رُبَى أرْضٍ، ورِجْلي والرِّكابُ
وقَدْ عَرَفَتْ تَوَقِّيَ اللّيالي ... كمَا عَرَفَتْ تَوَقِّيَ العِقابُ[3]
لأ مْنَعَ جَانِبًا وأفِيدَ عِزًّا ... وعِزّ الموت ما عَزَّ الجَنَابُ
إذا هَوْلٌ دَعَاكَ فَلَا تَهَبْهُ ... فَلَمْ يَبْقَ الّذِينَ أبَوْا وهَابُوا
كُلَيْبٌ عَاقَصَتْهُ يَدٌ وأوْدَى ... عُتَيْبَةُ يَوْمَ أقْعَصَهُ ذُؤابُ[4]
سواءٌ مَن أقلّ التُّرْبَ منّا ... ومَن وارَى مَعَالِمَهُ التُّرابُ
وإنَّ مُزايِلَ العَيْشِ اغْتِبَاطًا ... مُساوٍ للّذين بَقُوا وشَابُوا
وأوّلُنا العَنَاءُ إذا طَلَعْنَا ... إلى الدُّنْيا، وآخِرُنَا الذَّهابُ
إلى كَمْ ذا التّردُّدُ في الأمَانِي ... وكَمْ يُلْوِي بِنَاظِرِي السَّرابُ!

---

١ ـ ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفي الدّيوان: (ودّ بن مَعْن) .

٢ ـ ديوانه: لوحة ٧٩ .

٣ ـ التّوقّل: الصّعود. والعِقاب: جمع عُقْبة، وهي المُرْتَقَى الصّعب في الجَبَل ونحوه .

٤ ـ كُلَيب هو كُلَيب وائل، وأراد باليد جسّاس بن مرّة الّذي قتله. وأوْدَى : هَلَك. وعُتَيبة هو ابن الحارث بن شهاب، كان فارس بني تميم، قَتَله ذُؤاب بن ربيعة الأسديّ. وأقْصَعه: قتله قتلًا سريعًا .

ولانَقْــعٌ يُثــارُ ولاقَتَــامُ ولاطَعْــنٌ يُشَــبُّ ولاضِــرَابُ
ولاخَيْـلٌ مُعَقَّـدةُ النَّـواصِي يَمَــوجُ عـلى شَكائِـمِها اللّعـابُ
عَلَيْهَا كلّ مُلْتَهِبٍ الحَواشِي يُصِـيبُ مِـنَ العـدوّ ولايُصـابُ
سأخْطُبُها بجَدِّ السَّيْفِ فِعْلًا إذا لَمْ يُغْــنِ قَــوْلٌ أو خِطــابُ
وآخُذُها وإن رُغِمَتْ أنوفٌ مُغالَبَــةً وإن ذَلّــتْ رِقــابُ

قعد سليمان بن عبد الملك يَعْرِض ويَفْرِض، فأقبل فَتًى من بني عبس وَسيم، فأعجبه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان. قال: ابْنُ مَن؟ قال: ابن عبد الملك. فأعرض عنه، وجعل يَفْرِض لمن دونه، فعلم الفتى أنّه كره موافقة اسمه واسم أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، لا عدمتَ اسمك، ولاشَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك؟ فافْرِضْ، فإنّما أنا سَيْفٌ بيدك، إن ضربتَ به قطعت، وإن أمرتَني أطعْت، وسَهْمٌ في كنانتك، أشتدّ إن أُرْسِلْت، وأنفُذُ حيث وُجّهت. فقال له سليمان، وهو يَرُوزه[1] ويختبره: ما قولك يا فَتى، لو لقيتَ عدوًّا؟ قال: أقول: حسبي الله ونِعْم الوكيل. قال سليمان: أكنت مُكْتفِيًا بهذا لو لقيتَ عدوّك دون ضَرْبٍ شديدٍ! قال الفتى: إنّما سألتَني يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل؟ فأخبرتُك، ولو سألتَني: ما أنت فاعل؟ لأنبأتُك أنّه لو كان ذلك لضربتُ بالسَّيْف حتّى يتعقّف، ولطعنتُ بالرُّمْح حتّى يتقصّف، ولعلمتُ إن أُلِمْتَ فإنّهم يألمون، ولرَجَوْتُ من الله ما لا يَرْجون. فأعجب سليمان به وألحَقَه في العطاء بالأشراف، وتمثّل [الطويل]:

إذا ما اتَّقَى اللهَ الفَتَى ثمّ لَمْ يَكُن عَلَى أهْلِه كَلّا فَقَدْ كَمُلَ الفَتَى

السِّرُّ تحت قوله: «ثمّ لم يكن على أهله كَلًّا»، يقال في المَثَل: «لا تكن كَلًّا على أهلك فتهلك». عديّ بن زيد [الوافر]:

---

١ ـ يروزه: يختبره و يجرّبه .

فهَلْ مِن خَالِدٍ إمّا هَلَكْنَا وهَلْ بالمَوْتِ يا للنَّاسِ عَارُ[1]

الرَضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى [الطَويل]:

إذا لم يَكُـــن إلّا الحِمَـــامُ فـــإنَّني سَـأُكْرِمُ نَفسـي عـن مَقـالِ لَوائِـمِ[2]

وأَلْبَسُـــهُمَا حَمْـــراءَ تَضْـــفُو ذُيُولُهُـــا مِن الدَّمِ بُعْدًا عن لِبَاسِ المَلاوِمِ

فمِن قَبْلِ ما اخْتَارَ ابنُ الأَشْعَثِ عَيْشَهُ على شَرَفٍ عَـالٍ رَفِيـعَ الدَّعـائِمِ

فطَـــار ذَميمًـــا قـــد تَقَلَّـــدَ عَارَهـــا بشَـرِّ جَنـاحٍ يَـوْمَ دَيْـرِ الجَمَـاجِمِ[3]

وجَـــاءَهُمُ يجـــرِي البريـــدَ برأْسِـــهِ ولم يُغْـنِ إيغـالٌ بـه في الهَزائِـمِ

وقَدْ حَاصَ مِن خَوْفِ الرَّدَى كلَّ حَيْصَةٍ فَلَـمْ يَـنجُ والأقـدارُ ضَـرْبَةُ لَازِمِ[4]

وهَـذَا يزيـدُ بْـنُ المُهَلَّـبِ نـافَرَتْ بِـهِ الـذُّلَّ أعْـراقُ الجُـدودِ الأكـارِمِ[5]

فقـالَ وقَـدْ عَـنَّ الفِـرارُ أوِ الـرَّدَى: لَحَـى لله أخْـزَى ذِكْـرَةً في المَواسِـمِ

ومـا غَمَـراتُ المَـوْتِ إلّا انغِمَاسَـة ولاذي المَنَايَـا غيـرُ تَهْويـمِ نائِـمِ

رأَى أنَّ هَـذَا السَّـيْفَ أهْـوَن مَحْمَـلًا مِـنَ العَـارِ يَـبْقَى وَسْمُـهُ في المَخـاطِمِ

ومـا قَلَّـدَ البِـيضَ المَبَـاتِيرَ عُنقَـهُ سِوَى الخَوْفِ مِن تَقْلِيدِها بالأداهِمِ

فَعـافَ الـدَّنَايَا وامْتَطَـى المَـوْتَ شـامِخًا بِـمَارِنِ عِـزٍّ لا يَـذِلُّ لخَـاطِمِ

---

١ ـ شعراء النَصرانيّة:٤٥٦ .

٢ ـ ديوانه: لوحة ١١٠ .

٣ ـ وقعة دَيْر الجَماجم، كانت بين الحجّاج الثَقَفيّ وعبد الرَحمان بن محمّد بن الأشعث، انتهت بمقتل ابن الأشعث سنة ٨٣ .

٤ ـ حاص، أي حاد وذهب بعيدًا .

٥ ـ يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة، مِنْ أُمراء الدَولة الأُمويّة وقُوّادها، قَتَله يزيد بن عبد الملك في خبر مشهور سنة ١٠٢ .

وقَـدْ حَلَّقَـتْ خَـوْفَ الهَـوَانِ بِمُصْـعَبٍ قَـوادِمُ آبَـاءٍ كِـرامِ المَقَـادِمِ
عَـلَى حِـينَ أعْطَـوْهُ الأمَـانَ فعَافَـهُ وخُيِّـرَ فاخْتَـارَ الـرَّدَى غَيـرَ نَـادِمِ
وفي خِـدْرِهِ غَـرَّاءُ مِـن آلِ طَلْحَـةٍ عَـلَا قَـةُ قَلْـبٍ للنَّدِيـمِ المُخَالِـمِ[1]
تُحَبِّـبُ أيَّـامَ الحَيَـاةِ وإنَّهَـا لَأعْـذَبُ مِـن طَعْـمِ الخُلُـودِ لِطَـاعِمِ
ففارَقَهَـا والمُلْـكَ لمَّـا رآهُمَـا يَجُـرَّانِ إذْلالَ النُّفـوسِ الكَرائِـمِ
ولمَّـا أَلَاحَ الحَـوْفَزانُ مِـنَ الـرَّدَى حَذَاهُ المَخَازي رُمْحُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
وغَادَرَهَـا شَـنعَاءَ إن ذُكِـرَتْ لَـهُ مِنَ العَارِ طَاطا رأْسَ خَزْيانَ واجِمِ
كَـذاكَ مُـنِي بَعْـدَ الفِـرَارِ أُمَيَّـةٌ بِشِقْشِـقَةٍ لَوثَـاءَ مِـن آلِ دَارِمِ
وسَـلَّ لها سَـلَّ الحُسَـامِ ابـنُ مَعْمَـرٍ فكَـرَّ عـلى أعْقـابِ نَـابٍ بصَـارِمِ
يُـرَدِّدُ ذِكْـري كُـلَّ نَجْـدٍ وغـائِرٍ وأُلْجِـمَ خَـوْفِي كُـلَّ بـاغٍ وظَـالِمِ
وهَـدَّدَنِي الأعْـداءُ في المَهْـدِ لَمْ يَحِـن نُهـوضِي ولَمْ تُقْطَـعْ عُقـودُ تَمـائِمِي
وعِنـدِيَ يَـوْمٌ لـو يَزِيـدُ ومُسْـلِمٌ بَـدَا لهمـا لاسْتَصْـغَرا يَـوْمَ واقِـمِ
عَـلَى العِـزِّ مُـتْ لا مِيْتَـةً مُسْـتكينَةً تُزِيـلُ عَـنِ الـدُّنْيَا بشَـمِّ المَـراغِمِ
وخَـاطِرعـلى الجُـلَّى خِطـارَ ابْـنِ حُـرَّةٍ وإن زاحَـمَ الأمْـرُ العَظِـيمُ فـزَاحِمِ

ومِن أُباة الضَّيْم ومؤثري الموت على الحياة الذّليلة محمّد وإبراهيم، ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام. لمـا أحاطتْ عساكر عيسى بن

---

١ ـ هي عائشة بنت طلحة، كانت زوجًا لعبد الله بن عبد الرّحمان بن أبي بكر، ولمـّا هلك تزوّجها مُصعبُ بن الزّبير، فقُتِل عنها. والمُخالمة: المصادقة والمغازلة.

موسى بمحمّد وهو بالمدينة، قيل له: انجُ بنفسك، فإنّ لك خَيلًا مُضمَرة[١] ونجائب سابقة[٢]، فاقعد عليها، والْتَحقْ بمكّة أو باليمن. قال: إنّي إذًا لعَبْدٌ! وخرج إلى الحَرْب يباشرها بنفسه وبمواليه، فلمّا أمسى تلك اللّيلة وأيقن بالقتل، أُشير عليه بالاستتار، فقال: إذَن يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسّيف، فيكون لهم [يوم] كيوم الحَرّة، لا والله لا أحفظ نفسي بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمي دون دِمائهم. فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله، فأبَى ونَهَد[٣] إلى النّاس بسيفه، لا يقارِبُه أحَدٌ إلّا قتله، لا والله ما يَبقَى شيئًا، وإنّ أشبه خَلْق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطّلب. ورَمَى بالسِّهام، ودَهَمته الخيل، فوقف إلى ناحية جدار، وتحاماه النّاس فوجد الموت، فتحامل على سَيْفه فكسره، فالزّيديّة تزعم أنّه كان سيف رسول الله ﷺ ذا الفقار.

وروى أبو الفَرَج الأصفهانيّ في كتاب «مقاتل الطّالبيّين» أنّ محمّدًا عليه السلام، قال لأُخته ذلك اليوم: إنّي في هذا اليوم على قِتال هؤلاء، فإن زالت الشّمس، وأمطرت السّماء فإنّي مقتول، وإن زالت الشّمس ولم تمطر السّماء، وهبّت الرّيح، فإنّي أظفر بالقوم، فأجِّجي التّنانير، وهيّئي هذه الكتب ـ يعني كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق ـ فإن زالت الشّمس، ومطرت السّماء فاطْرَحِي هذه الكتب في التّنانير، فإن قدرتم على بَدَني فخذوه، وإن لم تقدروا على رأسي فخذوا سائر بدني، فأْتُوا به ظُلّة بني بلية[٤] على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها، فاحْفروا لي حفيرة، واذْفنوني فيها.

فمطرت السّماء وقت الزّوال، وقتل محمّد عليه السلام، وكان عندهم مشهورًا أنّ آية قَتْل

---

١ ـ ضمّر الخيل، إذا ربطها وأكهر ماءها وعلفها حتى تسمن، ثمّ قلّل ماءها وعلفها مدّة، ثمّ ركضها في الميدان حتّى تهزل. ومدّة التّضمير عند العرب أربعون يومًا.

٢ ـ الخيل السّوابق: المجلِية في الجري.

٣ ـ يقال: نهد لعدوّه، إذ برز لقتاله وصمد له.

٤ ـ مقاتل الطّالبيّين: (بني نبيه).

النّفس الزّكيّة أن يَسيل دَم بالمدينة حتّى يدخل بيت عاتِكَة، فكانوا يعجبون كيف يَسيل الدَّم حتّى يدخل ذلك البيت! فلمّا مطرت السّماء ذلك اليوم، وسَالَ الدّم بالمطر حتّى دخل بيت عاتكة، وأخذ جسده، فحُفِر له حفيرة في الموضع الّذي حَدَّه لهم، فوقعوا على صَخْرةٍ فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: «هذا قبرالحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام»، فقالت زينب أُخت محمّد عليه السلام: رَحِمَ الله أخي، كان أعلم حيث أوصى أن يُدْفَن في هذا الموضع[1].

ورَوَى أبو الفَرَج، قال: قَدِم على المنصور قادِمٌ، فقال: هرب محمّد! فقال له: كذبْتَ! إنّا أهلَ البيت لا نفرّ.

وأمّا إبراهيم عليه السلام، فرَوَى أبو الفَرَج عن المفضّل بن محمّد الضّبّيّ، قال[2]: كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن مُتواريًا عندي بالبَصْرة، وكنت أخْرُج وأتْرُكه، فقال لي: إذا خرجتَ ضاق صَدْري، فأخرج إليّ شيئًا من كُتُبك أتفرّج به، فأخرجتُ إليه كُتُبًا من الشِّعر، فاختار منها القَصائد السّبعين الّتي صدَّرْت بها كتاب «المفضّليّات»، ثمّ أتممتُ عليها باقي الكتاب.

فلمّا خرج خرجت معه، فلمّا صار بالمِرْبدِ، مِرْبد سليمان بن عليّ، وقف عليهم، وأمّنهم واستَسْقَى ماء، فأُتِيَ به فشرب، فأخرج إليه صِبْيان من صِبْيانهم فضمّهم إليه، وقال: هؤلاء والله منّا ونحن منهم، لحْمُنا ودَمُنا، ولكنّ آباءهم انتَزَوْا على أمرنا، وابتَزُّوا حقوقنا، وسفكوا دماءنا، ثمّ تمثّل [المنسرح]:

مَهْلًا بَنِي عَمِّنَا ظلامَتَنا ... إنَّ بِنَا سَوْرةً مِنَ الغَلَقِ[3]

لِمِثْلِكُمْ نَحْمِلُ السُّيوفَ ولا ... تُغْمَزُ أحْسَابُنا مِنَ الرَّقَقِ

إنّي لَأنْمَى إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عَزيزٍ ومَعْشَرٍ صُدُقِ

---

١ ـ نفس المرجع: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

٢ ـ ورد الخبر مختصرًا في مقاتل الطّالبيين: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

٣ ـ من أبيات في حماسة ابن الشّجريّ: ١٦؛ والأغاني ١٠: ٥، مع اختلاف في ترتيب الأبيات وعددها وروايتها.

بِيض سِبَاط كأنّ أعيُنَهُمْ تُكْحَلُ يومَ الهِيَاجِ بالْعَلَقِ

فقلت له: ما أجودَ هذه الأبيات وأفحلها! فلِمَن هي؟ فقال: هذه يقولها ضِرارُ بن الخطّاب الفِهْريّ يوم عبرَ الخَندق على رسول الله ﷺ، وتمثّل بها عليّ بن أبي طالب يوم صِفّين، والحُسَين يوم الطّفّ، وزيد بن عليّ يوم السَّبَخَة، ويحيى بن زيد يوم الجُوزجان، فتطيرتُ له من تمثُّله بأبيات لم يتمثّل بها أحدٌ إلّا قُتِل. ثمّ سِرْنا إلى باخمرَى، فلمّا قرب منها أتاه نَعْيُ أخيه محمّد، فتغيرّ لونُه وجَرِض بريقه، ثمّ أجهش باكيًا، وقال: اللّهمّ إن كنتَ تعلم أنّ محمّدًا خرج يطلب مَرْضاتك، ويؤثر أن تكون كلمتُك العُلْيا، وأمْرك المتَّبع المطاع، فاغْفِرْ له وارْحَمْه، وارْضَ عنه، واجْعَل ما نقلتَه إليه من الآخرة خيرًا ممّا نقلتَه عنه من الدّنيا، ثمّ انفجر باكيًا ثمّ تمثّل [البسيط]:

أبا المُنازِل يا خيرَ الفَوارس مَن يُفْجَعْ بمثلِكَ في الدُّنْيَا فَقَدْ فَجِعَا[1]

اللهُ يعلَمُ أنّي لو خَشِيتُهُمُ أو آنَسَ القلبُ مِن خوفٍ لهم فَزِعَا

لَمْ يقتلوكَ ولَمْ أسْلم أخي لهمُ حتَّى نعيشَ جميعًا، أو نموتَ معًا

قال المفضّل: فجعلت أُعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جَزَعه، فقال: إنّي والله في هذا، كما قال دُرَيد بن الصِّمة [الطّويل]:

يقولُ ألَا تَبْكي أخاكَ وقَدْ أرَى مكانَ البُكَا، لَكِن بُنيتُ على الصَّبرِ[2]

لمقتلِ عبد الله والهالِكِ الّذي على الشَّرَفِ الأعلَى قتيلِ أبي بكرِ

وعَبْدُ يَغُوثَ أو نديمي مالكٍ وجلّ مُصابًا جَثْو قَبْرٍ على قَبْرِ

فإمّا تَرَيْنا لا تَزالُ دِماؤُنا لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بها آخِرَ الدَّهْرِ

فإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيرَ نَكيرَةٍ ونَلْحَمُه طورًا، ولَيْسَ بِذِي نُكْرِ

---

١ ـ الأبيات لراسع بن خَشْرَم يرثي هدبة، الأغاني ٢١ : ١٧٧ .

٢ ـ ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ٢ : ٣٠٩ ، مع اختلاف في الرّواية وعدد الأبيات .

يُغَـارُ عَلَيْنَـا واتِـرينَ فَيُشْـتَقَى بِنَـا إن أصِـبْنا أو نُغِيـرُ عـلى وِتْـرِ
بذاكَ قَسَمْنَا الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بيننا فَـما يَنْقَضِـي إلّا ونحـنُ عـلى شَـطَرِ

قال المفضّل: ثمّ ظهرت لنا جُيوش أبي جعفر مثل الجراد، فتمثّل إبراهيم عليه السلام قوله [الكامل]:

إن يقتلـوني لا تُصِـبْ أزمـاحهم ثأري ويَسْعَى القوم سَعْيًا جاهِدَا
نُبِّئْـتُ أنّ بـني جَذيمـةَ أجمعـتْ أمـرًا تـدبّره لتقتـلَ خالِـدَا
أرْمي الطّريقَ وإن رُصِدْتُ بضيقِهِ وأنـازِلُ البَطَـلَ الكَمِـيّ الحَـارِدَا

فقلت له: مَن يقول هذا الشّعر يابن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كلاب يوم شِعْب[1] جبلة، وهذا اليوم الّذي لقيَتْ فيه قَيْس تميمًا. قال: وأقبلت عساكر أبي جعفر، فطعن رجلًا وطعنه آخر، فقلت له: أتُباشِر القِتال بنفسك! وإنّما العَسْكَر منوط بك؟! فقال: إليك يا أخا بني ضَبّة، فإنّي لكما. قال عُويف القَوافي [المتقارب]:

أَلَمّـتْ سُعادُ وإلمامُها أحاديث نَفْسٍ وأحلامُهَا
مُحَجَّبةٌ من بني مالكٍ تَطاوَلُ في المجْدِ أعْلامُهَا
وإنّ لنا أصلَ جُرْثومَةٍ تَـرُدُّ الحـوادثَ أيّامُهَـا
تـرد الكَتيبـة مفلولـةً بهـا أفْنُهـا وبهـا ذَامُهَـا

والتحمتِ الحَرْبُ واشتدّت، فقال: يا مفضّل، احكِني بشيء، فذكرتُ أبياتًا لعُوَيف القَوافي لما كان ذِكْره هو من شِعْره، فأنشدتُه [الطّويل]:

أَلا أيّهـا النّـاهي فـزَارَةَ بَعْـدَما أجَـدَّتْ لسيرٍ إنّمـا أنـتَ ظـالِمُ
أبى كـلّ حُـرٍّ أن يبيـتَ بـوَتْرِهِ وتمنـع منـه النَّـوْم إذ أنـت نـائِمُ
أقـولُ لِفِتْيـانٍ كِـرامٍ تَرَوَّحُـوا عـلى الجُـرْدِ في أفْـواهِهِنَّ الشَّكائِمُ

---

١ ـ لعامر وحُلَفائهم من عَبَس، على تميم وحُلَفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما. الأغاني ١٠: ٣٣ (ساسي).

قِفُوا وَقفةً، مَن يَحْيَ لا يخْزَ بعدها ومَـن يُخْتَـرِمْ لاتتَّبِعْـهُ اللَّـوائِمُ
وهل أنتَ إن باعَدْتَ نَفْسَك عنهمُ لِتَسْـلَمَ فيمـا بعـد ذلـك سـالِمُ

فقال: أعِدْ، وتبيّنت من وجهه أنّه يستقتل، فانتهيت وقلت: أوَ غير ذلك؟ فقال: لا، بل أعِدِ الأبيات، فأعدتُها، فتمطّى في ركابَيْه فقطعهما، وحمل فغاب عنّي، وأتاه سَهْم عائر فقَتَلَه، وكان آخر عهدي به عليه السلام.

قلتُ: في هذا الخبر ما يحتاج إلى تفسير، أمّا قوله: «إنّ بنا سَوْرة من الغَلَق» فالغَلَق: الضَّجَر وضيق الصّدر والحدّة، يقال: احتدّ فلان فنشب في حِدَّته وغَلِق. والسَّوْرة: الوثوب، يقال: إنّ لغضبه لسَوْرة، وإنّه لسوّار، أي وثّاب معربد، وسَوْرة الشّراب: وثوبه في الرّأس، وكذلك سَوْرة السَّمّ، وسَوْرة السّلطان: سَطْوته واعتداؤه.

وأمّا قوله: «لمثلكم نحْمِلُ السُّيوف»؛ فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمِل له السُّيوف وإنّما نحملها لكم، لأنّكم أكفاؤنا، فنحن نحاربكم على المُلْك والرّياسة، وإن كانت أحسابُنا واحدة، وهي شريفة لا مَغْمَز فيها.

والرَّقق، بفتح الرّاء: الضّعف، ومنه قول الشّاعر[البسيط]:

*لم تَلْق في عظمها وَهْنًا ولا رَقَقا*

وقوله [المنسرح]:

* تُكْحَل يوم الهِيَاج بالعَلَقِ *

فالعَلَق: الدّم، يريد أنّ عُيونهم حُمْر لشدّة الغيظ والغضب، فكأنّها كُحِلَتْ بالدّم.

وقوله: «لكن بُنيتُ على الصّبر»، أي خُلقْتُ وبُنِيتُ بِنيَة تقتضي الصّبر. والشَّرَف الأعلى، العالي، وبنو أبي بكر بن كِلاب، من قَيْس عيلان، ثمّ أحد بني عامر ابن صَعْصَعة.

وأمّا قوله [الكامل]:

*إن يَقْتُلوني لا تُصِبْ أرْماحُهم*

فمعناه أنّهم إن قتلوني ثمّ حاولوا أن يصيبوا رجلًا آخر مِثْلي يصلح أن يكون لي

نظيرًا، وأن يجعل دَمَه بَواء لدَمِي، وسَعَوْا في ذلك سَعْيًا جاهدًا، فإنّهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه.

وقوله: «أرمي الطّريق...» البيت، يقول: أسلك الطّريق الضّيق، ولو جعل عَلَيّ فيه الرَّصَد لقَتْلِي. والحارِد: المنفرد في شجاعته، الّذي لا مِثْل له. (٣ : ٢٤٩ ـ ٣١٢)

## الفصل الحادي والتّسعون: [الأشعار الواردة في ذمّ الجُبن]

(الخطبة: ٦٨) ... إنَّكُمْ وَاللهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ ....

**الشّرح:** ... واعلم! أنّ الهجاء بالجُبن والذُّلّ الفَرق كثيرٌ جدًّا، ونظير قوله: «إنّكم لكثير في الباحات، قليل تحت الرّايات» قول مَعْدان الطّائيّ [الطّويل]:

فأمّا الّذي يُحْصيهُمُ فَمُكَثِّرٌ  وأمّا الّذي يُطْرِيهُمُ فَمُقلِّلُ[1]

ونحو قول قراد بن حَنَش، وهو من شعر الحماسة[2] [الطّويل]:

وأنتم سماءٌ يُعْجِبُ النّاسَ رِزُّها  بآبدةٍ تُنحِي شَدِيدٍ وَئِيدُهَا[3]

تُقَطِّعُ أطنابَ البيوتِ بحاصِبٍ  وأكذبُ شيء بَرْقُهَا ورُعُودُها[4]

فَوَيْلُمِّهَا خيلًا بهاءً وشارةً  إذا لَاقَتِ الأعداء لولا صدُودُها!

ومن شعر الحماسة في هذا المعنى [الطّويل]:

لَقَدْ كَانَ فيكُمْ لَو وفيتمْ بجارِكُمْ  لَحًى ورِقَابٌ عَرْدَةٌ ومَنَاخِرُ[5]

مِن الصُّهْبِ أثناء وجُذْعًا كأنّها  عذارَى عليها شارةٌ ومَعَاجِرُ[6]

ومن الهجاء بالجُبن والفرار، قولُ بعض بني طيّئ يهجو حاتمًا، وهو من شعر الحماسة أيضًا[7] [الطّويل]:

لعَمْري ومَا عَمْري عَلَيَّ بهيّنٍ  لَبِئْسَ الفَتَى المدعُوّ باللّيلِ حاتِمُ

---

١ ـ ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقيّ ٣: ١٤٦٣ .

٢ ـ ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقيّ ٣: ١٤٣١.

٣ ـ رزّها: صوتها، أي صوت رعدها . والآبدة: الغريبة. وتنحي: تعتمد.

٤ ـ الحاصِب: الرّيح تجيء بالحَصْباء.

٥ ـ من أبيات لمنصور بن مِنجاح الضّبّيّ؛ حماسة أبي تمّام ـ بشرح التّبريزيّ ٤: ٢٥. عَرْدَة: غِلاظ.

٦ ـ يريد من الإبل الصُّهْب ، والصّهبة: حمرة يعلوها بياض. وأثناء: جمع ثنيّ؛ وهو من الإبل ما يلقى ثنيته؛ وذلك فى السّنة الثّالثة ، والجُذْع: جمع جذع؛ وهو ما قبل الثّنيّ. والمَعْجر: ثوبٌ أصغر من الرّداء تلبسه المرأة. وفي التّبريزيّ: «ومعاصر» .

٧ ـ ليَزيد بن قُنَافة. ديوان الحماسة، بشرح المرزوقيّ ٣: ١٤٦٤ .

غَـدَاة أتَى كـالثَّوْرِ أحْـرجَ فـاتَّقَى بجَبْهَتِـهِ أقتالَـهُ وَهْـوَ قـائِمُ [١]
كـأنَّ بصـحراءِ المُـرَيْطِ نعامةً تبادِرُهـا جِـنحَ الظّـلامِ نَعَـائِمُ
أعارَتْـكَ رِجْلَيْهَـا وهَـافِيَ لُبّهـا وقد جُـرِّدَتْ بِيضُ المتُونِ صوارمُ

ونظير المعنى الأوّل أيضًا قول بعضهم من شعر الحماسة [الطّويل]:

كـاثِرْ بسَعْـدٍ إنّ سَعْـدًا كـثيـرةٌ ولاتـرجُ من سَعْدٍ وفاءً ولانَصْرَا [٢]
يَروعـكَ مِـن سـعدِ بْـنِ عَمْـرٍو جُسُـومُها وتزهـد فيهـا حـين تقتلهـا خُبْـرَا

ومنه قول عُوَيف القَوافي [الطّويل]:

وما أمُّكم تَحْتَ الخَوافِقِ والقَنَا بـثَكْلَى ولا زَهْراء مِن نسوةٍ زُهْرِ [٣]
ألستمْ أقلّ النّاسِ عِندَ لوائِهِمْ وأكْثَـرَهُمْ عِنـدَ الذّبيحـةِ والقِـدْرِ

وممّن حَسَّن الجُبن والفرار بعضُ الشّعراء في قوله [البسيط]:

أضحتْ تشجّعُني هندٌ وقد عَلِمَتْ أنَّ الشُّـجاعةَ مقـرونٌ بهـا العَطَـبُ [٤]
لا والّـذي حَجَّـتِ الأنصـارُ كَعْبَتَـهُ ما يشتهي الموتَ عندي مَن لَهُ أرَبُ
للحـربِ قـومٌ أضـلّ اللهُ سـعيَهُمُ إذا دعـتهمْ إلى حوماتِهـا وثَبـوا
ولَسْـتُ مـنهمْ ولاأهْـوَى فِعالـهُمُ لا القتـلُ يعجبـني منهـا ولاالسَّـلَبُ

ومن هذا قول أيمن بن حزيم الأسديّ [الرّمل]:

إنّ للفتنـةِ مَيْطًـا بَيِّنًـا ووَريـد المـيْطِ منهـا يَعْتَـدِلْ [٥]

---

١ ـ غداة أتى كالثّور؛ يعني حاتمًا. وأحرج: ضيّق عليه وأخرج من عادته. والأقتال: الأقران والأعداء، واحده قَتْل.

٢ ـ ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ٤: ٩١، من غير نسبة .

٣ ـ ديوان الحماسة ـ بشرح التّبريزيّ ٤: ٩٩ .

٤ ـ عيون الأخبار٤: ١٦٤، من غير نسبة، العِقْد١: ١٦٦ .

٥ ـ عيون الأخبار١: ١٦٤؛ العِقْد١: ١٦٧. والمَيْط: الضّخب والشّدة .

فإذا كانَ عَطاءٌ فابتدِرْ وإذا كـانَ قتـالٌ فـاعتزِلْ
إنَّمـا يُسعِرُهَا جُهَّالُـها حَطَـبُ النَّـارِ فـدَعْها تشتعِلْ

وممّن عُرِف بالجُبن أُميّة بن عبد الله بن خالد بن أُسيد، عيَّره عبد الملك بن مروان، فقال [الطّويل]:

إذا صَوّتَ العُصْفُورُ طارَ فؤادُهُ وليثٌ حديدُ النَّابِ عِندَ التَّرائدِ[1]

وقال آخر [الوافر]:

يَطِيرُ فؤادُهُ مِن نَبْحِ كَلْبٍ ويكفيهِ مِنَ الزَّجرِ الصَّفيرُ

وقال آخر [الطّويل]:

ولو أنّها عصفورةٌ لحسبتُها مُسَوّمَةً تدعو عبيدًا وأزْنَـمَا[2]

## [أخبار الجُبَناء وذِكْر نَوادرهم]

ومن أخبار الجُبَناء ما رواه ابن قُتيبة في كتاب «عيون الأخبار»، قال: رأى عمروبن العاص معاويةَ يومًا فَضَحِك، فقال: ممّ تضحكُ يا أمير المؤمنين، أضحكَ الله سنَّك! قال: أضحك مِنْ حُضُور ذِهْنك عند إبدائك سَوْأتك يوم ابن أبي طالب، والله لقد وجدتَه مَنّانًا [كريمًا][3] ولو شاء أن يقتلَك لقتلك! فقال عمرو: يا أميرَ المؤمنين، أمّا والله إنّي لعن يمينك حين دعاك إلى البرّاز فأحولَّتْ عيناك، وانفتخ سَحْرُك، وبدا منك ما أكره ذِكْرُه لك؛ فمن نفسك فاضْحك أو فدَعْ[4].

قال ابن قُتيبة: وقدم الحجّاج على الوليد بن عبد الملك، وعليه دِرْعٌ وعمامةٌ

---

١ ـ عيون الأخبار ١: ١٦٦؛ العقد ١: ١٦٨ .

٢ ـ هو العَوّام بن شَوْذَب الشّيبانيّ، عيون الأخبار ١: ١٦٦ ؛ والبيت من شواهد المغني ٢: ١٩٦ .

٣ ـ من عيون الأخبار.

٤ ـ عيون الأخبار ٤: ١٦٩ .

سَوْداء، وقَوْسٌ عربيّة وكنانة، فبعثت أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد، وهي تحته يومئذٍ: مَن هذا الأعرابيّ المستلئم في السّلاح عندك على خلوة، وأنت في غُلالة؟

فأرسَلَ إليها الوليد أنّه الحجّاج. فأعادت عليه الرّسول: والله لأن يخلو بك مَلَكُ الموت أحبُّ إليّ من أن يخلو بك الحجّاج! فضَحِك وأخبر الحجّاج بقولها وهو يمازحه، فقال الحجّاج: يا أمير المؤمنين، دَعْ عنك مفاكهة النّساء بزُخْرُف القول، فإنّما المرأة رَيْحانة وليست بقَهْرمانة؛ فلا تطلِعْها على سِرّك، ومُكايدة عدوّك.

فلمّا انصرف الحجّاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجّاج، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، حاجتي إليك اليوم أن تأمرَه غدًا أن يأتيَني مستلئمًا. ففعل ذلك، وأتاها الحجّاج فحجَبتْه ثمّ أدخلته، ولم تأذن له في القُعود، فلم يزل قائمًا، ثمّ قالت: إيهِ يا حجّاج! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقَتْلك ابنَ الزُّبير وابن الأشعث! أما والله لولا أنّ الله عَلِم أنّك شرُّ خَلْقه ما ابتلاك برَمْي الكعبة الحرام، ولا بقَتْل ابن ذات النِّطاقَين أوّل مولود في الإسلام؛ وأمّا نهيُك أمير المؤمنين عن مُفاكهة النِّساء وبلوغ لذّاته وأوطاره؛ فإن كنّ ينفرِجْنَ عن مثلك فما أحقَّه بالقبول منك! وإن كنّ ينفرِجْنَ عن مثله، فهو غير قابل لقولك، أما والله لو نفضَ نساء أمير المؤمنين الطّيبَ من غدائرهنّ فبعنَه في أعطية أهل الشّام حين كنت في أضيَق من القرن، قد أظلّتك الرِّماح، وأثخنك الكفاح، وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إيّاه؛ قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسِنان غزالة[1] بين كِتْفَيك [الكامل]:

أَسَدٌ عليّ وفي الحُروبِ نعامةٌ ... رَبْدَاءُ تنفِرُ مِن صَفيرِ الصَّافرِ

هلّا بَرَزْتَ إلى غزالةَ في الوَغَا ... أمْ كانَ قلبُك في جَنَاحَيْ طائرِ!

---

١ ـ غزالة : امرأة شبيب الخارجيّ .

ثمّ قالت لجواريها: أخرجْنَه، فأُخرج[١].

ومِن طَريف حكايات الجُبَناء ما ذَكره ابن قُتيبة أيضًا في الكتاب المذكور؛ قال: كان بالبَصْرة شيخٌ من بني نَهْشَل بن دارم، يقال له عُرْوة بن مِرْدَد، ويكني أبا الأعزّ، ينزل في بني أُخت له من الأزْد في سكّة بني مازِن، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان، وخرج النّساء يصلّين في مسجدهم، ولم يَبْقِ في الدّار إلّا إماء، فدخل كَلْبٌ يتعسَّس فرأى بيتًا مفتوحًا فدخله، وانصفق الباب عليه، فسمع بعضُ الإماء الحركة، فظنّوا أنّه لُصٌّ دخل الدّار، فذهبت إحداهنّ إلى أبي الأعزّ، فأخبرته، فقال أبو الأعزّ: إلام يبتغي اللّصّ عندنا، وأخذ عصاه، وجاء حتّى وقف بباب البيت، وقال: إيْهِ يا فلان! أما والله، إنّي بك لعَارِف، فهل أنت من لُصوص بني مازن! شربت حامضًا خَبيثًا، حتّى إذا دارت في رأسكَ منّتْكَ نَفْسُكَ الأمانيّ، وقلتَ: أطْرُق دُور بني عمرو، والرِّجال خلُوف والنِّساء يصلّين في مسجدهنّ، فأسرقهم. سوأةً لك! والله ما يفعل هذا ولد الأحرار! وايمُ الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هَتْفة مشؤومة يلتقي فيها الحيّان عمرو وحِنظَلة، وتجيء سعد عدد الحمى، وتَسيل عليك الرِّجال، من هنا وهنا، ولئن فعلتُ لتكونن، أشْأمَ مولودٍ!

فلمّا رأى أنّه لا يجيبُه، أخذه باللِّين، فقال: اخْرُج ـ بأبي أنت ـ مستورًا، والله ما أراك تعرِفُني، ولو عرفتَني لقنَعت بقولي، واطمأننت إلى ابن أُختي البارّ الوَصول، أنا ـ فَدَيْتُك ـ أبو الأعزّ النَّهْشَليّ! وأنا خالُ القوم، وجِلْدة بين أعينهم؛ لا يعصونني، ولا تضارّ اللَّيلة وأنت في ذِمَّتي، وعندي قوْصَرتان، أهداهما إليّ ابنُ أُختي البارّ الوصول، فخُذْ إحداهما، فانبذها حلالًا من الله ورسوله.

وكان الكَلْب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت أبو الأعزّ وثب، يريد المخرَج، فتهاتف أبو الأعزّ، ثمّ تضاحك، وقال: يا ألأَم النَّاس وأوْضَعهم! ألا أراني لك منذ اللّيلة في وادٍ وأنت لي في وادٍ آخر، أقبلت السَّوداء والبَيْضاء، فتصيح وتطرق؛ فإذا

---

١ ـ عيون الأخبار١: ١٦٩ ـ ١٧٠.

سكتّ عنك وَثَبتَ تريد الخروج! والله لتخرجنّ أو لأُلجَنّ عليك البيت.

فلمّا طال وقوفُه جاءت إحدى الإماء، فقالت: أعرابيّ مجنون والله، ما أرى في البيت شيئًا. فدفعت الباب، فخرج الكَلْب شارِدًا، وحاد عنه أبو الأعزّ ساقطًا على قفاه شائلة رجلاه؛ وقال: تالله ما رأيتُ كاللّيلة هذه! ما أراه إلّا كَلْبًا، ولو علمتُ بحاله لوَلجْتُ عليه[1].

ونظير هذه الحكاية حكاية أبي حيّة النّميريّ، وكان جبانًا، قيل: كان لأبي حيّة سيفٌ ليس بينه وبين الخَشَب فَرْقٌ، كان يُسمّيه لُعاب المنيّة، فحَكَى عنه بعضُ جيرانه أنّه قال: أشرفتُ عليه ليلة، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت في داره، وقد سمع فيه حِسًّا، وهو يقول: أيّها المغترّ بنا، المجترئ علينا، بئس والله ما اخترتَ لنفسك! خيرٌ قليلٌ وسَيْفٌ صَقيلٌ؛ لعاب المنيّة الّذي سمعتَ به مشهورة صولته، ولا تخاف نبوته. اخْرُج بالعفو عنك؛ لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إنّي والله إن أدَعْ قيسًا، تملأ الفضاء عليك خيلًا ورجلًا. سبحان الله! ما أكثرها وأطيبها؛ والله ما أنت ببعيدٍ من تابعها، والرُسوب في تيار لُجّتها!

وقال: وَهَبّتْ ريحٌ ففتحت الباب؛ فخرج كَلْبٌ يشتدّ، فلبِط بأبي حيّة وازبد، وشغر برِجْلَيه، وتبادرت إليه نساءُ الحيّ، فقُلْنَ: يا أبا حيّة، لتفرخ روعتُك، إنّما هو كَلْبٌ؛ فجلس وهو يقول: الحمد لله الّذي مَسَخَك كَلْبًا، وكفاني حربًا[2]!

وخرج مُغيرة بن سعيد العِجْليّ في ثلاثين رجلًا بظَهْر الكوفة، فعَطَعَطُوا، وخالد بن عبد الله القَسْريّ أمير العِراق، يخطب على المنبر فعَرق، واضطرب وتحيّر، وجعل يقول: اطْعِمُوني ماء، فهجاه ابن نَوْفل فقال [الوافر]:

أخالــدُ لا جــزاكَ اللهُ خيــرًا وأيــرى في حرامــك مــن أميــرِ[3]

---

١ ـ عيون الأخبار١: ١٦٨ـ١٦٩ .

٢ ـ عيون الأخبار١: ١٦٨ـ ١٦٩ .

٣ ـ من أبياتٍ وردت متفرّقة في البيان والتّبيين ٣: ٢٦٧ و٤: ٢٠٥ ؛ والحيوان ٢: ٢٦٧ ؛ ٤: ٣٢٢ ؛ ٧: ٢٠ .

تَـرُومُ الفَخْـرَ في أغْـرابِ قَسْـرٍ كأنَّـكَ مـن سَـراةِ بـني جَريـرِ
جَريـرٌ مـن ذَوِي يَمَـنٍ أصيلٌ كـريمُ الأصْـلِ ذُو خَطَـرٍ كثيـرِ
وأمّـكَ عِلْجَـةٌ وأبـوكَ وَغْـدٌ ومـا الأذنـابُ عَـذْلٌ للصُّـدورِ!
وكنت لَدَى المغيرة عَبْدَ سُوءٍ تَبُـولُ مِـنَ المخافـةِ للزَّئيـرِ
لأغْـلاجٍ ثمانيـةٍ وشـيخٍ كبيـرِ السِّـنِّ لَـيْسَ بِـذِي ضَـريرِ[1]
صرختَ مِنَ المخافةِ: أطعِمُوني شـرابًا ثمّ بُلْـتَ عـلى السَّـرِيرِ

وقال آخر يعيره بذلك [البسيط]:

بَلّ المنابرَ مِن خَوْفٍ ومِن دَهَشٍ واستطعم الماء لما جدَّ في الهَرَب[2]

ومن كلام ابن المقفّع في ذمّ الجُبن: الجُبنُ مَقْتلة، والحِرْص محرمة؛ فانظر فيما رأيت وسمعت: مَن قُتِلَ في الحرب مُقْبِلًا أكثر أم مَن قُتِل مُدْبِرًا! وانظر مَن يطلب إليك بالإجمال والتّكرّم أحقّ أن تُسخو نفسُك له بالعطيّة أم مَن يطلب ذلك بالشَّرَهِ والحِرص! (٦ : ١٠٤ ـ ١١١)

**(الحكمة: ٣) الأصل: الْبُخْلُ عَارٌ وَالْجُبْنُ مَنقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَن حَاجَتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.**

**الشّرح: هذه ثلاثة فصول: . . . .**

---

١ ـ أورد المَرْزبانيّ هذا البيت في الموشّح :٢٣٥، وعدّه شاهدًا على ما في الشّعر من التّناقض، قال: فلفظة «ضرير» إنّما تُستَعمل، وهي تصريف من الضّرّ في الأكثر للّذي لا بَصَر له، وقول هذا الشّاعر في هذا الشّيخ إنّه ذو بَصَرٍ، وأنّه ضرير تناقض من جهة القِنْية والعدم؛ وذلك أنّه كأنّه يقول: إنّ له بصرًا ولا بَصَر له؛ فهو بصير أعمى.

٢ ـ البيت أيضًا ليحيى بن نوفل، ذكره الجاحظ في البيان ١: ١٢٢، وأورد بعده:

وَأَلْحَنُ النَّاسِ كلِّ النَّاسِ قاطبةً وكانَ يُولَعُ بالتَّشْدِيقِ في الخُطَبِ

**الفصل الثّاني: في الجُبن**، وقد تقدَّم قولنا في فضل الشَّجاعة.

وقال هِشام بن عبد الملك لمَسْلَمة أخيه: يا أبا سعيد، هل دَخَلك ذُعْرٌ في حَرْبٍ قطّ شهدتَها؟ قال: ما سلمت في ذلك عن ذُعْر ينبّه على حيلةٍ ولاغشيَني ذُعْر سلَبني رأيي. فقال له هشام: هذه والله البَسالة. قال أبو دُلَامة وكان جَبانًا [البسيط]:

إنّي أعوذ برَوْح أن يقدّمَني إلى القتالِ فَتَشْفَى بي بنو أسَدِ

إنّ المُهَلّبَ حُبَّ الموتِ أورثَكُمْ ولَمْ أرِثْ رغبةً في الموتِ عَنْ أحدِ

قال المنصور لأبي دُلامة في حَرْب إبراهيم: تقدّم وَيْلك! قال: يا أمير المؤمنين، شهدتُ مع مَرْوان بن محمّد أربعة عساكر كلّها انهزمتْ وكسرتْ؛ وإنّي أُعيذك بالله أن يكون عَسْكرك الخامس. (١٨ : ٨٨)

## الفصل الثّاني والتّسعون: [ذِكْر الخوف وما وَرَد فيه من الآثار]

(الخطبة: ١٨٦) ... وَأَمَّا النَّهَارَ، فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِن مَرَضٍ ... .

الشّرح: ... واعلم! أنّ الخوفَ مقامٌ جليلٌ من مقامات العارفين، وهو أحد الأركان الّتي هي أُصولُ هذا الفنّ، وهو التَّقْوَى الّتي حثّ الله تعالى عليها، وقال: إنّ أكرَم النّاس عنده أشدُّهم خوفًا له، وفي هذه الآية وَحْدَها كفاية، وإذا نظرتَ القرآن العزيز وجدتَ أكثره ذِكْر المتّقين، وهم الخائفون، وقال النّبيّ ﷺ: «مَن خافَ اللهَ خافَهُ كلُّ شيءٍ، ومَن خاف غيرَ الله خَوَّفه الله مِن كلّ شيء». وقال عليه السلام: «أتمّكُمْ عقلًا أشدّكم لله خَوْفًا، وأحسنُكم فيما أمَرَ به ونهَى عنه نظرًا».

وقال يحيى بن مُعاذ: مِسْكين ابن آدم، لو خاف النّار كما يخاف الفقر، دخل الجنّة.

وقال ذُو النّون المِصْريّ: ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء؛ فإنّ الرّجاء إذا غُلِب تشوّش القلب.

وقيل لبعض الصّالحين: مَن آمَنُ الخَلْقِ غدًا؟ قال: أشدُّهم خوفًا اليوم.

وقيل للحَسَن: يا أبا سعيد، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك، يخوّفوننا حتّى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: إنّك والله لأن تَصْحَبَ قومًا يخوّفونك حتّى تدرك الأمْن، خيرٌ لك من أن تصحَبَ قومًا يؤمّنونك حتّى يدركك الخوف.

وقيل للنّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[1]: هم الّذين يَعْصَوْن ويخافون المعصية؟ قال: «لا، بل الرّجل يصوم، ويتصدّق، ويخاف ألّا يُقْبَل منه».

وقال ﷺ: «ما مِن قَطْرةٍ أحبّ إلى الله تعالى من قَطْرة دَمْعٍ مِن خشية الله، أوقطرةِ دَمٍ أُريقتْ في سبيل الله».

وقال عليه السلام: «سبعةٌ يظلّهم الله بظِلّه يومَ لا ظِلّ إلّا ظِلُّه»، وذكَر منهم رجلًا ذكر الله في خَلْوةٍ، ففاضت عيناه. (١٠ : ١٤٦ ـ ١٤٧)

---

١ ـ المؤمنون/٦٠.

## الفصل الثّالث والتّسعون: [في الرّجاء]

(الخطبة: ١٦١) ... يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَن رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ـ إِلَّا رَجَاءَ اللهِ ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ـ إِلَّا خَوْفَ اللهِ ـ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ.

يَرْجُو اللهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ!

أَتَخَافُ أَن تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِن عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِن خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِن خَالِقِهِ ضِمَارًا وَوَعْدًا، وَكَذَلِكَ مَن عَظُمَتِ الدُّنيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِن قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَانقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا.

الشّرح: ... ثمّ أقسم على كِذب هذا الرّاعم، فقال: «والعظيم» ولم يقل: والله العظيم، تأكيدًا لعظمة البارئ سبحانه، لأنّ الموصوف إذا أُلقِيَ وتُرِك واعتمِد على الصّفة حتّى صارت كالاسم، كان أدلّ على تحقّق مفهوم الصّفة، كالحارث والعبّاس.

ثمّ بيّن مستند هذا التّكذيب فقال: ما بال هذا الرّاعم! إنّه يرجو ربّه، ولا يظهر رجاؤه في عمله، فإنّا نرى مَن يرجو واحدًا من البشر يلازم بابه، ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه، ويتقرّب إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب، ليظفر بمراده منه، ويتحقّق رجاؤه فيه، وهذا الإنسان الّذي يزعم أنّه يرجو الله تعالى، لا يظهر من أعماله الدّينيّة ما يدلّ على صدق دعواه، ومراده ﷺ هاهنا ليس شخصًا بعينه، بل كلّ إنسانٍ هذه صفته، فالخطاب له والحديث معه.

ثمّ قال: «كلّ رجاء إلّا رجاء الله فهو مدخول» أي معيب ... .

ثمّ قال: «وكلّ خوف محقَّق إلّا خوف الله فإنّه معلول»: محقّق، أي ثابت. أي كلّ خوف حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتّحقّق معلول ليس بالخوف الصّريح، إلّا خوف الله وحده وتقواه، وهيبته وسطوته وسخطه، ذلك لأنّ الأمر الّذي يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزّوال، والأمر الّذي يخاف من البارئ تعالى لا غاية له ولا

انقضاء لمحذوره كما قيل في الحديث المرفوع: «فضوح الدّنيا أهون من فضوح الآخرة».

ثمّ عاد إلى الرّجاء، فقال: يرجو هذا الإنسان الله في الكثير أي يرجو رحمته في الآخرة، ولا يتعلّق رجاؤه بالله تعالى إلّا في هذا الموضع، فأمّا ما عدا ذلك من أُمور الدّنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسّلطان واندفاع المضارّ والتّوصّل إلى الأغراض بالشّفاعات والتّوسّلات، فإنّه لا يخطر له الله تعالى ببالٍ، بل يعتمد في ذلك على السُّفَراء والوُسَطاء ويرجو حصول هذه المنافع، ودفع هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر، فقد أعطى العبادَ من رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه، فهو مخطئ، لأنّه إمّا أن يكون هو في نفسه صالحًا لأن يرجوه سبحانه، وإمّا ألّا يكون البارئ تعالى في نفسه صالحًا لأن يُرجَى، فإن كان الثّاني فهو كُفْرُ صُراح، وإن كان الأوّل فالعبد مخطئ حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لفِعْل الصّالحات، لأن يصلح لرَجاء البارئ سبحانه.

ثمّ انتقل عليه السلام إلى الخوف، فقال: وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبدًا مثلَه، خافه أكثر من خوفه البارئ سبحانه، لأنّ كثيرًا من النّاس يخافون السّلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة البارئ سبحانه، وهذا مُشاهَد ومعلوم من النّاس، فخوفهم بعضهم من بعض كالنّقد المعجّل، وخوفهم من خالقهم ضِمَار ووعد ... .

ثمّ قال: «وكذلك من عظمت الدّنيا في عينه» يختارها على الله، ويستعبده حبّها. (٩ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨)

**(الخطبة: ١٨٦) [في وصف المتّقين] ... يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا، حَذِرًا لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ... .**

الشّرح: ... وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف، فإنّ فرح العارف بما

أصاب من الفضل والرّحمة يمكن أن يُحمَل على أنّه فرح بمجرّد ما أصاب من فضل الله ورحمته. ويمكن أن يُحمَل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه، لذا استدلّ على وصوله إليه وقوي ظنّه بظفره به بما عجّل الله تعالى له من الفضل والرّحمة في الدّنيا. ومقامُ الرّجاء للعارفين مقام شريف، وهو في مقابلة مقام الخوف، وهو المقام الّذي يوجد العارف فيه فرحًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَاَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَاَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[1].

وقال النّبيّ ﷺ حكاية عن الله تعالى: «أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء».

ودخل ﷺ على رجل من أصحابه، وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تجدك؟ قال: أجدني أخاف ذنوبي، وأرجو رحمة ربّي. فقال ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما رجاه، وأمنه ممّا خافه». (١٠ : ١٥٤ ـ ١٥٥)

---

١ ـ فاطر/ ٢٩.

## الفصل الرّابع والتّسعون: [أقوال وحكايات في المزاح]

**(الخطبة: ٨٣) عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ، أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا، وَنَطَقَ آثِمًا ... .**

**أَما وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِن قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَن يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.**

**الشّرح:** ... وأنت إذا تأمّلت حالَ عليّ عليه السلام في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدتَه بعيدًا عن أن يُنسبَ إلى الدُّعابة والمزاح، لأنّه لم يُنقَلْ عنه شيء من ذلك أصلًا؛ لا في كُتُب الشّيعة ولا في كُتُب المحدّثين، وكذلك إذا تأمّلتَ حالَه في أيّام الخليفَتين ـ أبي بكر وعمر ـ لم تجدْ في كُتُب السِّيرة حديثًا واحدًا يمكن أن يتعلّق به متعلِّق في دُعابته ومِزاحه، فكيف يظُنّ بعُمَر أنّه نَسَبه إلى أمرٍ لم ينقله عنه ناقل، ولا ندّد به صديق وعدوّ؟! وإنّما أراد سهولة خُلُقِه لا غَيْر، وظَنّ أنّ ذلك ممّا يُفضى به إلى ضَعْف إن وَلِيَ أمر الأُمّة، لاعتقاده أنّ قِوام هذا الأمر إنّما هو بالوُعُورة، بناءً على ما قد ألفتْه نفسه، وطبعت عليه سجيّتُه، والحال في أيّام عثمان وأيّام ولايته عليه السلام الأمرَ كالحال فيما تقدّم، في أنّه لم يظهر منه دُعابة، ولا مِزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب.

ومَن تأمّل كُتُب السِّيَر عرف صِدْق هذا القول، وعرف أنّ عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصِدْ بها العيب فجعلها عيبًا، وزاد عليها أنّه كثيرُ اللَّعب، يُعافِس النِّساء ويمارسهنّ، وأنّه صاحب هَزْل.

ولعَمْر الله لقد كان أبعدَ النّاس من ذلك، وأيّ وقت كان يتّسع لعليّ عليه السلام حتّى يكون فيه على هذه الصِّفات؟ فإنّ أزمانه كلّها في العبادة والصَّلاة، والذِّكر والفتاوى والعلم، واختلاف النّاس إليه في الأحكام وتفسير القرآن، ونهاره كلّه أو مُعْظَمه مشغول بالصَّوْم، وليله كلّه أو مُعْظَمه مشغول بالصّلاة. هذا في أيّام سِلْمه، فأمّا أيّام حَرْبه فبالسَّيْف الشَّهير، والسِّنان الطِّرير، وركوب الخَيْل، وقوْد الجيوش، ومُباشرة الحروب.

ولقد صدق عليه السلام في قوله: «إنّني لَيمنعني من اللّعب ذِكْرُ الموت»، ولكنّ الرَّجل الشَّريف النَّبيل، الَّذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيبًا أو يَعُدّوا عليه وَصْمةً، لا بدّ أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم في تحصيل أمرٍ ما وإن ضَعُف، يجعلونه عُذْرًا لأنفسهم في ذمّه، ويتوسّلون به إلى أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقته، والانحراف عنه، وما زال المشركون والمنافقون يصنَعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات، ينسبون إليه ما قد برّأه الله عنه من العيوب والمَطاعن، في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا، وما يزيدُه الله سبحانه إلّا رفعةً وعلوًّا، فغيرُ مُنكَر أن يعيب عليًّا عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه، بما إذا تأمّله المتأمّل علم أنّهم باعتمادهم عليه وتعلّقهم به، قد اجتهدوا في مَدْحه والثّناء عليه، لأنّهم لو وجدوا عيبًا غير ذلك لذكروه، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده في أن يثني أعداؤه وشانئوه عليه من حيث لا يعلمون، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقًا ألطف من هذه الطَّريق الّتي أسلكهم الله تعالى فيها، وهداهم إلى منهاجها، فظنُّوا أنّهم يغضُّون منه وإنّما أعلوْا شأنه، ويضعون من قدره وإنّما رفعوا منزلته ومكانه.

ونحن نذكر من بعد ما جاء في الأحاديث الصِّحاح والآثار المستفيضة المتّفَق على نقلها مِزاحَ رسول الله صلى الله عليه وآله، ومِزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتّابعين له، ليُعْلَم أنّ المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشَّرعيّة لم يكن قبيحًا.

فأوّل ذلك ما رواه النّاس قاطبة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّي أمزح، ولاأقول إلّا حقًّا».

وقيل لسُفيان الثَّوْريّ: المِزاح هُجْنَة؟ فقال: بل هو سُنّة، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّي أمزح ولاأقول إلّا الحقّ».

وجاء في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لامرأةٍ من الأنصار: «الحَقِي زوجك، فإنّ في عينه بياضًا»، فسعث نحوه مرعوبة، فقال لها: ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم، إنّ في عيني بياضًا لا لسُوءٍ، فخفّضي عليك. فهذا من مُزاح رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأتَتْ عَجوزٌ من الأنصار إليه عليه السلام، فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنّة، فقال:

«إنّ الجنّة لا تدخلها العجُز»، فصاحَتْ، فتبسّم عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾[1].

وفي الخبر أيضًا: أنّ امرأة استحملَتْه، فقال: «إنّا حامِلُوكِ إن شاء الله تعالى على ولد النّاقة»، فجعلت تقول: يا رسول الله، وما أصنع بولد النّاقة؟ وهل يستطيع أن يحملَني! وهو يتبسّم ويقول: «لا أحملك إلّا عليه»، حتّى قال لها أخيرًا: «وهل يَلِدُ الإبل إلّا النُّوق»!

وفي الخبر أنّه عليه السلام مَرّ ببَلالٍ وهو نائمٌ، فضَرَبه برِجْله، وقال: أنائمة أُمّ عمرو؟ فقام بلال مرعوبًا، فضرب بيده إلى مذاكيره، فقال له: ما بالك؟ قال: ظننتُ أنّي تحوّلت امرأة. قيل: فلم يمزح رسول الله بعد هذه.

وفي الخبر أيضًا أنّ نُغَرًا[2] كان لصبيّ من صِبْيان الأنصار، فطَارَ من يده، فبكى الغلام، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ به فيقول: «يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغير»؟ والغلام يبكي.

وكان يمازح ابنَي بنته مِزاحًا مشهورًا، وكان يأخذ الحسين عليه السلام، فيجعله على بَطْنه، وهو عليه السلام نائم على ظَهْره ويقول له: حُزُقَّة حُزُقَّة، تَرِقّ عين بقّة[3].

وفي الحديث الصّحيح المتّفق عليه أنّه مرّ على أصحاب الدِّرْكِلة وهم يلعبون ويرقصون، فقال: جِدّوا يا بَنِي أَرْفِدَة، حتّى يعلم اليهود والنّصارى أنّ في ديننا فُسْحةً.

قال أهل اللُّغة: الدِّرْكِلة، بكَسر الدّال والكاف: لُعْبة للحَبَش فيها ترقص. وبنو أَرْفِدَة: جنس من الحبش يرقصون.

وجاء في الخبر أنّه سابَق عائشة فسبقَتْه، ثمّ سابقها فسبقها، فقال: هذه بتلك.

---

١ ـ الواقعة/٣٥.

٢ ـ النُّغَر: صغار العصافير. وانظر: اللّسان.

٣ ـ الحُزُقّة: الضّعيف الّذي يقارب خطوه من ضعف. عين بقّة: كناية عن صغر العين. وانظر: اللّسان ١١: ٣٣٠.

وفي الخبر أيضًا أنّ أصحاب الزُّفافة وهم الرّاقصون، كانوا يقمَعون[١] باب حجرة عائشة، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستترًا بها.

وكان نُعيمان، وهو من أهل بَدْر، أوْلَع النّاس بالمزاح عند رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يكثر الضَّحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يدخل الجنّة وهو يضحك».

وخرج نُعيمان هو وسُوَيبط بن عبد العُزّى وأبو بكر الصّديق، في تجارة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بعامَين، وكان سُوَيبط على الزّاد، فكان نُعَيمان يستطعمه فيقول: حتّى يجيء أبو بكر؛ فمرّ برَكْبٍ من نَجْران، فباعه نُعَيمان منهم على أنّه عبدٌ له بعشر قلائص، وقال لهم: إنّه ذو لسان ولهجة، وعساه يقول لكم: أنا حُرّ. فقالوا: لا عليك. وجاؤوا إليه فوضعوا عمّامته في عُنُقه، وذهبوا به، فلمّا جاء أبو بكر أُخبر بذلك، فردّه وأعاد القَلائص إليهم. فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من ذلك سَنَةً.

ورُوي أنّ أعرابيًّا باع نُعَيمانَ عكّة[٢] عسل، فاشتراها منه، فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال: خذوها. فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه أهداها إليه، ومضى نُعيمان فنزل الأعرابيّ على الباب، فلمّا طال قعوده نادى: يا هؤلاء، إمّا أن تعطونا ثمن العسل أو تردّوه علينا، فعَلِم رسول الله صلى الله عليه وآله بالقصّة، وأعطى الأعرابيّ الثّمن، وقال لنُعَيمان: ما حملك على ما فعلتَ؟ قال: رأيتُك يا رسول الله تحبّ العسل، ورأيت العُكّة مع الأعرابيّ. فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينكِر عليه.

وسُئِل النَّخَعيّ: هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون؟ فقال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرَّواسي.

وجاء في الخبر أنّ يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام ـ وعيسى متبسّم ـ فقال يحيى عليه السلام: ما لي أراك لاهيًا كأنّك آمن؟ فقال عليه السلام: ما لي أراك عابسًا كأنّك آيس؟ فقالا: لا نبرح حتّى ينزل علينا الوحي، فأوْحَى الله إليهما: أحبُّكما إليّ الطّلْقُ البَسّام،

---

١ ـ يقمعون: يضربون.

٢ ـ العكّة: زقّ السَّمن أو العسل.

أحسنكما ظنًّا بي.

وروي عن كُبراء الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم، أنّهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار، فإذا خاضوا في الدِّين، انقلبتْ حماليقهم، وصاروا في صُوَر أُخرى.

وروي أنّ عبد الله بن عمر قال لجاريته: خلقَني خالِقُ الخير، وخلقكِ خالِقُ الشّرّ. فبكت، فقال: لا عليك، فإنّ الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشّرّ.

قلتُ: يعني بالشّرّ: المرض والغَلاء ونحوهما.

وكان ابن سيرين ينشد [البسيط]:

نُبِّئتُ أنّ فتاةً كنتُ أخطبُها عُرقوبها مِثْلُ شَهْرِ الصَّومِ في الطّولِ[1]

ثمَّ يضحك حتّى يسيل لعابه.

وجاء عبد الرّحمان بن عوف إلى باب عمر بن الخطّاب، فوجدَه مستلقيًا على مِرفقةٍ له، رافعًا إحدى رِجْلَيْه على الأُخرى، منشدًا بصوتٍ عالٍ [الطّويل]:

وكيف ثوائي بالمدينةِ بعد ما قَضَى وطرًا منها جميلُ بن مَعْمَرِ

فلمّا دخل عبد الرّحمان وجلس، قال: يا أبا محمّد، إنّا إذا خلونا قلنا كما يقول النّاس.

وكان سعيد بن المسيّب ينشد [الطّويل]:

لقد أصبحتْ عِرْس الفَرَزْدَق جامحًا ولو رَضِيَتْ رُمْح استه لاستقرّتِ[2]

ويضحك حتّى يستغرق.

وكان يقال: لا بأس بقليل المزاح يخرج منه الرّجل عن حَدّ العبوس.

ومن كلام بعض الأُدباء: ونحن نحمد الله إليك، فإنّ عُقْدة الإسلام في قلوبنا صحيحة، وأواخِيه عندنا ثابتة، وقد اجتهد قومٌ أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم، وأن يَشُوبوا يقينَنا بشكّهم، فعَصِم الله منهم، وحال توفيقه دونهم، ولنا بعدُ مذهب

---

١ ـ زهر الآداب: ١٦٥، من غير نسبة.

٢ ـ لجَرير، ديوانه: ٨٨.

في الدُّعابة جميل، لا يَشُوبه أذًى ولا قَذًى، يخرج بنا إلى الأُنس من العبوس، وإلى الاسترسال من القطوب، ويُلحقنا بأحرار النّاس الّذين ارتفعوا عن لُبسة الرِّياء، وأنِفوا من التّشوّف بالتّصنّع.

وقال ابن جُرَيج: سألت عطاء عن القراءة على ألحان الغِناء والحُداء، فقال لي: لا بأس بذلك؛ حدّثني عُبَيد الله بن عمر اللَّيثيّ أنّه كان لداود النّبيّ عليه السلام مِعْزَفَة قد يضرب بها إذا قرأ الزَّبور، فتجمع إليه الطّير والوحش، فيبكي ويُبكي مَن حوله.

وقال جابر بن عبد الله الجُعْفيّ: رأيت الشَّعبيّ يقول لخيّاط يمازحه: عندنا حُبٌّ مكسور وأحبّ أن تخيطه. فقال الخيّاط: أحضر لي خيوطًا من ريح لأخيطه لك.

وسُئِل الشّعبيّ: هل يجوز أن يؤكل الجِنّي لو ظُفِر به؟ فقال: ليتنا نخرج منه كفافًا[1] لا لنا ولا علينا.

وسأل إنسان محمّد بن سيرين عن هِشام بن حَسّان، فقال: توفّي البارحة، أما شعَرتَ؟ فخرج يسترجع، فلمّا رأى ابن سيرين جزعَه، قرأ: ﴿اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْاَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2].

وكان زيد بن ثابت من أفكَهِ النّاس في بيته وأرْفَثهم، وقد أباح الله تعالى الرَّفَث إلى النِّساء، فقال: ﴿اُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ اِلٰى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَاَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[3].

وقال أهلُ اللُّغة: الرَّفَث: القول الفاحش تخاطَب به المرأة حال الجِماع.

ومرّ بالشّعبيّ حمّال على ظَهْره دَنّ خَلّ، فوضع الدَّنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشّعبيّ: ذلك نكاح ما شهدناه.

وقال عِكْرمة: خَتن ابنُ عبّاس بَنيه فأرسلني، فدعوت اللَّعّابين فلعِبوا، فأعطاهم

---

١ ـ الكفاف: المثل.

٢ ـ الزمر/٤٢

٣ ـ البقرة/١٨٧.

أربعة دراهم.

وتقدّم رجلان إلى شُرَيح في خُصومة فأقرّ أحدَهما بما ادُّعِيَ عليه وهو لا يدري، فقضى شُرَيح عليه، فقال: أصلحك الله! أتقضي عَلَيّ بغيْر بيّنةٍ؟ قال: بلى، شهد عندي ثقة. قال: ومَن هو؟ قال: ابنُ أُخت خالتك.

وجاء في الخبر أنّ النّبيّ ﷺ مرّ بصُهَيب وهو أرْمَد يأكل تمرًا، فنهاه، فقال: إنّما آكله عن جانب العين الصّحيحة يا رسول الله، فضَحِك منه ولم ينكِر عليه.

وفي الخبر أنّه ﷺ مَرّ بحسّان بن ثابت، وقد رشّ[1] أطماره، وعنده جارية تُغَنّيه [المقتضب]:

هَلْ عَلَيَّ ويحكما إن لَغَوْتُ مِن حَرَجِ

فقال ﷺ: «لا حَرَجَ إن شاء الله».

وقيل: إنّ عبد الله بن جعفر قال لحَسّان بن ثابت في أيّام معاوية: لو غنّتْك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرِكْ ركابك. فقال: يا أبا جعفر: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَاَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[2].

وقال أسلم مَوْلى عمر بن الخطّاب: مرّ بي عمر وأنا وعاصم نُغنّي غِناءَ النَّصْب[3]، فوقف، وقال: أعيدا عَلَيّ. فأعِدْنا عليه، وقلنا: أيّنا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين؟ فقال: مَثَلُكما كحِماري العِبادِيّ. قيل له: أيّ حماريك شرّ؟ فقال: هذا، ثمّ هذا. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا الأوّل من الحمارَين؟ فقال: أنت الثّاني منهما.

ومرّ نُعيمان وهو بَدْرِيّ بمَخْرمة بن نَوْفل في خلافة عثمان، وقد كُفّ بَصَرُه، فقال: ألا يقودني رجل حتّى أبول؟ فأخذ نُعَيمان بيده حتّى صار به إلى مؤخّر المسجد، وقال: هاهنا، فبُلْ. فبَالَ، فصَاحَ به النّاس، فقال مَن قادني؟ قيل: نُعيمان. قال: لله

---

١ ـ رش أطماره: غسلها.

٢ ـ الحجّ/٢٨.

٣ ـ نَصْب العرب: غناء يشبه الحداء؛ إلّا أنّه أرقّ.

عَلَيّ أن أضْرِبَه بعصاي هذه. فبلغ نُعيمان فأتاه، فقال: بلغني أنّك أقسمت لتضربنّ نُعيمان، فهل لك فيه؟ قال: نعم. قال: قُمْ، فقام معه حتّى وافَى به عثمان بن عفّان وهو يصلّي، فقال: دونك الرَّجل، فجمع مخرَمة يديه في العصا وضربه بها، فصاح النّاس: ويلك، أمير المؤمنين! قال: مَن قادني؟ قالوا: نُعيمان. قال: وما لي ولنُعَيمان؟ لا أعرض له أبدًا! وكان طُوَيس يتغنّى في عُرْس، فدخل النُّعمان بن بَشير الأنصاريّ العرس طويس يغنيهم [المتقارب]:

أجِدَّ بعَمْرةَ هجرانُها وتسخطُ أمْ شأننا شأنُها[1]

فأشاروا إليه بالسُّكوت، فقال النُّعمان: دَعَوْه إنّه لم يقل بأسًا، إنّما قال [المتقارب]:

وعَمْرةُ مِن سَرَوَاتِ النِّسَا ءِ تنفحُ بالمِسْكِ أرْدَانُها

وعَمْرة هذه أُمّ النُّعمان؛ وفيها قيل هذا النَّسيب.

وقد روي عن جماعة من الصّحابة والتّابعين اللَّعب بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ومنهم من روى عنهم شُرْبَ النَّبيذ وسماع الغِناء المُطْرب.

فأمّا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؛ فإذا نظرت إلى كُتُب الحديث والسِّيَر، لم تجد أحدًا من خَلْقِ الله، عدوًّا ولا صديقًا روى عنه شيئًا من هذا الفنّ؛ لا قولًا ولا فعلًا، ولم يكن جِدّ أعظم مِن جِدّه، ولا وقار أتمّ من وقاره، وما هَزَل قطّ ولا لَعِب، ولا فارق الحقّ والنّاموس الدّينيّ سرًّا ولا جَهْرًا؛ وكيف يكون هازلًا، ومِن كلامه المشهور عنه: «ما مزح امرؤٌ مزحة إلّا ومجّ معها من عقلَه مجّة»! ولكنّه خُلِق على سَجِيّةٍ لطيفةٍ وأخلاق سهلة، ووَجْهٍ طلْقٍ، وقَوْلٍ حَسَن، وبِشْر ظاهر، وذلك من فضائله عليه السلام، وخصائصه الّتي منحه الله بشَرَفها، واختصّه بمزيّتها، وإنّما كانت غِلْظته وفَظاظته فعلًا لا قولًا، وضَرْبًا بالسَّيف لا جَبْهًا بالقول، وطَعْنًا بالسِّنان لا عَضْهًا باللِّسان[2]، كما قال الشّاعر [الطّويل]:

---

١ ـ البيتان لقَيس بن الخَطيم، ديوانه: ٧ـ٨.

٢ ـ يقال: جبهت فلانًا؛ إذا خاطبته بما يكره. والعضة: الرَّمي بالكذب والبُهتان.

وتسفَهُ أيدينا ويحلُم رأينا ونشتمُ بالأفعالِ، لا بالتّكلّمِ

(٦ : ٣٢٨ ـ ٣٣٧)

**(كتابه عليه السلام: ٣١) ... إِيَّاكَ أَن تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِن حَكَيْتَ ذَلِكَ عَن غَيْرِكَ ....**

**الشّرح:** نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مُضحكًا، لأنّ ذلك مِن شغل أرباب الهَزل والبَطالة، وقلّ أن يخلو ذلك من غيبةٍ أو سُخريَةٍ. ثمّ قال: «وإن حَكَيْتَ ذلك عن غيرك»، فإنّه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير؛ وذلك كلام فصيح، ألا ترى أنّه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر، ويكره أيضًا حكايتها.

وقال عمر لما نهاه رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلِف بالله: «فما حلفتُ به ذاكرًا، ولا آثرًا، ولا حاكيًا».

وكان يقال: مَن مازَحَ استُخِفّ به، ومَن كَثُر ضَحْكُه قَلَّتْ هَيْبتُه.

(١٦ : ١٢٢ ـ ١٢٣)

**(الحكمة: ٤٥٦) الأصل: مَا مَزَّحَ امْرُؤٌ مَزْحَةً إِلَّا مَجَّ مِن عَقْلِهِ مَجَّةً.**

**الشّرح:** قد تقدَّم القولُ في المزاح.

وكان يقال: خيرُ المزاحِ لا يُنال، وشرّه لا يُستقَالُ.

وقيل: إنّما سُمّيَ المِزاحُ مِزاحًا، لأنّه أُزيح عن الحقّ. (٢٠ : ١٠٠)

## الفصل الخامس والتّسعون:

## [أقوال في العَين والسِّحْر والفَأْلِ والعَدْوى والطِّيرة]

**(الحكمة: ٤٠٨) الأصل: اَلْعَيْنُ حَقٌّ، وَالرُّقَى حَقٌّ، وَالسِّحْرُ حَقٌّ، وَالْفَأْلُ حَقٌّ. وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ، وَالعَدْوى لَيْسَتْ بِحَقٍّ. وَالطِّيبُ نُشْرَةٌ، وَالْعَسَلُ نُشْرَةٌ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ،[1] وَالنَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ.**

**الشّرح:** وقد جاء في الحديث المرفوع: «العَينُ حقّ، ولو كان شيء يَسبِق القَدَر لسبقته العين، وإذا استُغسِلتم فاغسِلوا»؛ قالوا في تفسيره: إنّهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضّأ بماء ثمّ يسقي منه المَعِين[2] ويَغتسِل بسَائِره.

وفي حديث عائشة: «العين حقٌّ كما أنَّ محمّد حقّ».

وللحُكَماء في تعليل ذلك قولٌ لا بأس به، قالوا: هذا عائدٌ إلى نَفْس العَائِن، وذلك لأنّ الهيُولى مُطِيعة للأنفس، متأثّرة بها؛ ألا تَرَى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقُب الصُّوَر عليها! والنّفوس البَشَريّة مِن جَوْهر نفوس الأفْلَاك، وشديدة الشَّبَه بها؛ إلّا أنّ نسبتَها إليها نسبة السِّراج إلى الشّمس، فليست عامّة التّأثير، بل تأثيرُها في أغلَب الأمر في بدَنِها خاصّة، ولهذا يَحْمَى مِزاجُ الإنسان عند الغضب، يستعدّ للجماع عند تصوُّر النَّفس صورَة المعشوق، فإذَن قد صار تصوُّر النَّفس مؤثّرًا فيما هو خارجٌ عنها؛ لأنّها ليست حالّةً في البدن، فلا يُستَبعد وجُود نفْس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النّفوس تؤثّر في غير بدنها، ولهذا يقال: إنّ قومًا من الهند يُقتلَون بالوَهْم، والإصابة بالعَيْن من هذا الباب، وهو أن تستحسِن النَّفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها، وتكون تلك النَّفس خبيثة جدًّا؛ فينفعل جسمُ تلك الصّورة مُطِيعًا لتلك النَّفْس كما ينفَعِل البدَن للسّمّ.

وفي حديث أُمّ سَلَمة أنّ رسول الله ﷺ رأى في وَجْه جاريةٍ لها سَعْفَة[3]، فقال:

---

١ ـ النُّشْرة: كالعَوْذة والرّقية.

٢ ـ المعين: المعيون، أي المصاب بالعَين.

٣ ـ السَّعفة: قُروح تخرج على رأس الصّبي. واسترقوا، أي اطلبوا مَن يرقيها.

«إنّ بها نَظْرةً فاسترقُوا لها».

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ: كنّا نَرقي في الجاهليّة، فقلتُ: يا رسول الله، ما تَرَى في ذلك؟ فقال: «اعْرضوا عَلَيّ رُقَاكم، فلا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيها شِرْك».

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في سفرٍ، فمرّوا بحيّ من أحياء العَرَب؛ فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم: هل فيكم مِن راقٍ، فإنّ سيّد الحيّ لَدِيغ؟ فقال رجل منهم: نعم. فأتاه، فَرَقاه بفاتحة الكتاب فبرئ، فأُعْطِي قَطيعًا من الغَنَم، فأَبَى أن يَقبَلها حتّى يأتيَ رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: وعَيْشك ما رقيتُه إلّا بفاتحة الكتاب، فقال: «ما أدراكم إنّها رُقْية! خذُوا منهم واضْربوا لي معكم بسَهْمٍ».

ورَوَى بُرَيْدة، قال: قال رسولُ الله ﷺ وقد ذُكِرتْ عنده الطِّيَرة: «مَن عَرض له من هذه الطِّيَرة شيء فلْيَقلْ: اللّهمّ لا طَيْر إلّا طَيْرُك، ولا خيرَ إلّا خيرُك، ولا إله غيرُك، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله».

وعنه عليه السلام: «ليس منّا مَن تَطيَّر أو تُطُيِّر له، أو تَكَهّن أو تُكُهِّن له».

أَنَس بن مالك يرفَعه: «لا عَدْوَى ولا طِيَرة، ويُعجِبني الفأل الصّالح». قالوا: فما الفأل الصّالح؟ قال: الكلمة الطّيّبة. وعنه عليه السلام: «تَفاءَلوا ولا تَطَيَّرُوا».

ورَوَى عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه، أنّ رسول الله ﷺ كان لا يتطيّر من شيء، وكان إذا بَعَث عاملًا سأل عن اسمه، فإذا أعجَبه سُرَّ به، ورُئي بِشْرُ ذلك في وَجْهه، وإن كَره اسمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه، وإذا دخل قريةً سأل عن اسمها فإن أعجبَه ظَهرَ على وَجْهه.

بَنى عُبيد الله بن زياد بالبَصْرة دارًا عظيمةً، فمرّ بها بعضُ الأعراب، فرأى في دِهْليزِها صورةَ أَسَد وكَلْب وكَبْش، فقال: أسدٌ كالح، وكَبْشٌ ناطح، وكَلْب نابح، والله لا يُمَتَّع بها؛ فلم يَلبَثْ عبيد الله فيها إلّا أيّامًا يسيرة.

أبو هُرَيرة يرفَعه: «إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا، وإذا تطيّرتم فامْضوا، وعلى الله فتوكّلوا».

وقال عليه السلام: «أحسَنُها الفألُ، ولا يَرُدّ قَدَرًا، ولكن إذا رأى أحدُكم ما يَكرَه فليَقُل: اللّهمّ لا يأتي بالحَسَنات إلّا أنت، ولا يَدفَع السّيّئات إلّا أنت، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك». وقال بعض الشّعراء [البسيط]:

لا يَعلَمُ المرءُ لَيلًا ما يُصبِّحُهُ إلّا كواذِبَ ما يَجري به الفَالُ
والفألُ والزّجرُ والكُهّانُ كلّهمُ مُضلِّلون ودُونَ الغَيبِ أقفالُ

وعن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الجَبَث».

ابن عبّاس يرفَعُه: «مَن اقتبس عِلْمًا من النّجوم اقتَبَس شُعْبة من السِّحر».

أبو هريرة يرفَعه: «مَن أتَى كاهنًا فصدّقَه فيما يقول، فقد بَرِئ ممّا أنزل اللهُ على أبي القاسم». شاعر [الطّويل]:

لَعَمْرُك ما تَدري الطّوارقُ بِالحَصَى ولا زاجِراتُ الطّير ما اللهُ صانعُ[1]

وقال آخر [مجزوء الكامل]:

لا يقعدنَّك عَن بغا ءِ الخير تَعقاد العزائمْ[2]
فلقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أغدو على راقٍ وحائِمْ
فإذا الأشائمُ كالأيا مِنِ والأيامِنُ كالأشائمْ
وكذاكَ لا خيرٌ ولا شرٌّ على أحَدٍ بدائِمْ

تَفاءَل هِشامُ بن عبد الملك بنَصْر بن سيّار فقلّده خُراسان، فبقي فيها عشرَ سنين. وتَفاءَل عامرُ بن إسماعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه، فسأله عن اسمه، فقال: منصور بن سعد، قال: مِن أيّ العرب؟ قال: مِن سَعْد العشيرة ، فاستصحَبه وَطَلب مروان فَظفِر به وقَتَله.

وتفاءل المأمونُ بمَنصور بن بسّام، فكان سببَ مكانتِه عندَه.

---

١ ـ للبيد، ديوانه: ١٧٢ .

٢ ـ عيون الأخبار ١: ١٤٥ ، ونسبها إلى المرقش.

قالوا: إنّما أصل اليد اليُسرَى العُسرَى؛ إلّا أنّهم أبدَلوا اليُسرَى من اليُسر تفاؤلًا. مزرِّد بنُ ضِرار [الطّويل]:

وإنّي امرؤٌ لا تَقشَعِرُّ ذُؤابَتي مِن الذّنْبِ يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ

الكُمَيت [الطّويل]:

ولا أنا مِمَّن يَزْجُر الطّيرُ هَمَّهُ أصاحَ غُرابٌ أمْ تَعَرَّضَ ثَعلَبُ[1]

وقال بعض العرب: خرجتُ في طلب ناقةٍ ضلّت لي، فسمعتُ قائلًا يقول [مجزوء الكامل]:

وَلَئِنْ بَعَثْتُ لها بُغا ةَ فما البُغاةُ بِوَاجِدِينَا[2]

فلم أتطيّر ومضيتُ لوَجْهي، فلقيَني رجلٌ قبيح الوجه به ما شئت من عاهة؛ فلم أتطيّر وتقدّمت، فلاحَت لي أَكَمة[3] فسَمِعْت منها صائحًا [المنسرح]:

*والشّرّ يلقى مَطالِعَ الأكَمِ*

فلم أكترث ولا انثنيت وعلوتُها، فوجدتُ ناقتي قد تفاجّت[4] للولادة فنتجتُها[5]، وعدتُ إلى منزلي بها ومعها ولدُها.

وقيل لعليّ عليه السلام: لا تحاربهم اليَوم، فإنّ القمر في العَقْرب، فقال: قَمَرُنا أم قَمَرُهُم!

ورُوِي عنه عليه السلام أنّه كان يَكرَه أن يُسافر أو يتزوّج في مَحاق[6] الشّهر، وإذا كان القمر في العَقْرب.

---

١ ـ الهاشميّات : ٣٦ .

٢ ـ للبيد، ديوانه : ٣٢٣ .

٣ ـ الأكمة: الموضع يكون أشدّ ارتفاعًا ممّا حوله، وانظر: عيون الأخبار ١: ١٤٥.

٤ ـ تفاجَت: وسَعت ما بين رِجلَيها .

٥ ـ نتجتها: أي أولدتها.

٦ ـ المحاق، مثلّثة: آخر الشّهر أو ثلاث ليالٍ من آخره ، أو أن يستتر القمر فلا يُرَى غُدْوةً ولا عشيّةً، سمّي محاقًا لأنّه طلع مع الشّمس فمحقته.

ورُوِي أنّ ابن عبّاس قال على مِنبَر البَصرة: إنّ الكلاب من الجِنّ وإنّ الجنَّ من ضُعَفاء الجِنّ؛ فإذا غَشِيَكم منهم شيء فألقوا إليه شيئًا أو اطْردُوه، فإنّ لها أنفُس سوء.

وقال أبو عُثمان الجاحظ: كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يَكرهون الأكل بين يَدي السِّباع، يخافون عيونَها لِلّذي فيها من النّهَم والشَّرَه، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرَّديء، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه. وكانوا يكرهون قيامَ الخَدَم بالمُذاب والأشْرِبة على رؤوسهم خَوْفًا من أعينهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم، وكانوا يأمرون بإشْباعهم قبل أن يأكلوا، وكانوا يقولون في الكَلْب والسِّنَّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له.

**وقالت الحكماء:** نفوسُ السِّباع أزدَأ النُّفوس وأخبَثها، لفَرْطِ شَرَهها وشَرّها. قالوا: وقد وَجَدْنا الرّجل يضرِب الحَيّة بعَصًا فيموت الضّارب والحَيّة، لأنّ سمّ الحيّة فُصِل منها حتّى خالط أحشاءَ الضّارب وقَلْبَه، ونفذ في مَسامّ جسدِه.

وقد يُدِيم الإنسانُ النَّظر إلى العين المحمرَّة فتعتري عينه حمرة، والتّثاؤب يُعدِي إعداءً ظاهرًا، ويكره دنوّ الطّامِث من اللّبن لتسوطه، لأنّ لها رائحةً وبُخارًا يُفسِد اللّبن المَسُوط[1].

**وقال الأصمعيّ:** رأيت رجلًا عَيُونًا[2] كان يَذكُر عن نفسه أنّه إذا أعجبه الشّيء وَجدَ حرارَة تَخرُج من عينه.

وقال أيضًا: كان عندنا عَيونانِ فمرّ أحدُهما بحَوض من حجارة؛ فقال: تالله ما رأيتُ كاليوم حَوْضًا! فانصَدع فِلقَتين، فمرّ عليه الثّاني، فقال: وأبيك لقلّما ضررتَ أهلك فيك! فتطاير أربع فِلَق.

---

١ ـ الطّامث: الحائض. والمَسُوط: المخلوط.

٢ ـ العيون: الشّديد الإصابة بالعَين.

وسمع آخر صوت بَوْل من وراءِ جِدار حائط، فقال: إنَّك كثيرُ الشَّخب، فقالوا: هُو ابنُك، فقال: أوه انقطَع ظَهْرُه! فقيل: لا بأس عليه إن شاء الله، فقال: والله لا يَبُول بَعْدها أبدًا، فما بال حتّى مات.

وسمع آخَرُ صوت شَخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجَبه، فقال: أيّتهنّ هذه، فورّوا بأُخرى عنها، فهلَكَتا جميعًا، المورَّى بها والمورَّى عنها.

قال رجل من خاصّة المنصور له قبل أن يقتُل أبا مسلم بيَوْم واحد: إنّي رأيتُ اليوم لأبي مسلم ثلاثًا تطيّرت له منها. قال: ما هي؟ قال: ركب فوقعتْ قَلَنسُوَتُه عن رأسه. فقال المنصور: الله أكبرُ! تَبعها والله رأسُه. فقال: وكَبا به فرسُه. فقال: الله أكبر! كبًّا والله جَدُّه، وأصلَد زَندهُ، فما الثّالثة؟ قال: إنّه قال لأصحابه: أنا مقتول، وإنّما أُخادِع نفسي. وإذا رجلٌ يُنادِي آخر من الصّحراء: اليوم آخِر الأجل يا فلان. فقال: الله أكبر! انقضى أجَلُه إن شاء الله، وانقطع من الدُّنيا أثرُه. فقُتِل في غَدِ ذلك اليوم.

تجهّز النّابغةُ الذُّبيانيّ للغَزْو ـ واسمُه زياد بن عمرو ـ مع زبّان بن سيّار الفزاريّ فلمّا أراد الرَّحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر، وقال: ذات لَوْنَين تجرّد، غُرّي من خرج. فأقام ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته، فذهب ورَجَع غانمًا، فقال [الوافر]:

تطيّــر طيــرةً يومًــا زيــادٌ ... لتخبِره وما فيها خَبيرُ[1]

أقــامَ كــأنَّ لقمــانَ بْــنَ عــادٍ ... أشارَ لَهُ بحكمتِهِ مُشيرُ

تَعلّــمْ أنّــهُ لا طيــر إلّا ... على مُتطيّر وَهُوَ الثّبورُ

بَلَى شيءٌ يوافِقُ بَعْضَ شيءٍ ... أحايينًــا وباطِلُــهُ كَثِيــرُ

حضر عمرَ بنَ الخطّاب الموسمُ، فصَاحَ به صائحٌ: يا خليفة رسول الله، فقال رجل من بني هِلْب؛ وهم أهلُ عِيافة وزَجْر: دعاه باسم ميّت: مات واللهِ أمير المؤمنين عليه السلام فلمّا وقف النّاس للجَمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعةَ عُمَر، فأَدمِي منها، فقال ذلك

---

١ ـ الحيوان ٣: ٤٤٧.

القائل: أشعر والله أمير المؤمنين، لا والله ما يقف هذا الموقف أبدًا، فقُتِل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل وقال كثيِّر بن عبد الرّحمان [الطّويل]:

تيمّمت لـهْبًا أبتغي العِلْم عَنْدَها وقد صار عِلْم العائفين إلى لـهْب[1]

كان للعرب كاهِنان اسمُ أحدهما شِقّ، وكان نصف إنسان، واسم الآخر سَطيح، وكان يُطوَى طَيَّ الحَصير، ويتكلّمان بكلّ أُعجوبة في الكهانة، فقال ابنُ الرُّوميّ [الخفيف]:

لَـكَ رأيٌ كأنّـهُ رأي شِـقٍّ وسَـطِيحٍ قَرِيعَـيِ الكُهّانِ

يستشفُّ الغُيوبَ عمّا تواري بعيـونٍ جَلِيَّـةِ الإنسـانِ

**وقال أبو عثمان الجاحظ:** كان مُسيلمة قبل أن يتنبّأ يدور في الأسواق الّتي كانت بين دُور العرب والعَجَم كسُوق الأُبُلّة وسوق بقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّم الحِيَل والنّيرنجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقَى والعَزائم والنّجوم، وقد كان أحكم علم الحُزاة وأصحاب الزّجر والخطّ، فعَمَد إلى بَيْضة فصبّ إليها خَلّا حاذقًا قاطعًا، فلَانَتْ، حتّى إذا مَدّها الإنسان استطالتْ ودَقّت كالعلَك، ثمّ أدخلها قارورةً ضيّقة الرّأس وتركها حتّى انضمّت واستدارتْ وجمدتْ، فعادت كهيئتها الأُولى، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها، وفيه قيل [الطّويل]:

بِبَيْضَةِ قارورٍ ورايةِ شادِنٍ وتَوصِيلِ مَقْطوعٍ مِنَ الطّيرِ حاذِقِ

قالوا: أراد براية الشّادن الّتي يعملها الصّبيّ من القِرطاس الرّقيق، ويَجعَل لها ذَنبًا وجناحَين ويُرسلها يوم الرّيح بخَيْط طويل.

كان مُسَيْلمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس، ويعلّق فيها الجلاجِل، ويُرسلها لَيْلًا في شدّة الرّيح، ويقول هذه الملائكة تنزّل عَلَيّ، وهذه خَشْخَشة الملائكة وزجَلُها، وكان يصل جَناح الطّير المقصوص بريشٍ معه فيطير ويَستغوِي به الأعراب.

---

١ ـ عيون الأخبار ١: ١٤٩.

شاعرٌ في الطِّيَرة [البسيط]:

وأمنع الياسمينَ الغَضَّ مِن حَذِري ... عليكِ إذْ قِيلَ لي نِصْفُ اسْمِهِ ياسُ

وقال آخر [الكامل]:

أهـدَتْ إليـه سَـفَرْجلًا فَتطيَّـرَا ... منـه وظَـلّ مفكِّرًا مستعبرَا[1]

خـوف الفِراقِ لأنَّ شَطْرَ هِجائِـهِ ... سَفَرٌ وحُـقَّ لَـهُ بـأن يتطيَّـرَا

وقال آخر [السّريع]:

يـا ذا الّـذي أهْـدَى لنـا سَوْسَـنا ... مـا كنـت في إهدائِـهِ مُحسِـنَا

نِصـفُ اسْمِـهِ سَـوٌّ فقـد سـاءَني ... يـا ليـتَ أنّي لَمْ أرَ السَّوْسَـنَا

ومِثلُه [مجزوء الرّمل]:

لا تـراني طـوال دَهْـ ... ـرِيَ أهْـوى الشَّـقائِقَا

إن يكن يُشْبِهُ الخُدُو ... دَ فَنِصْـفُ اسمِـهِ شَـقَا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه، ويتطيّرون من النّرجِس لسُرْعة انقضائه، ويسمّونه الغَدّار. وقال العبّاس بن الأحنف [السّريع]:

إنّ الّـذي سَمّـاكِ يـا مُنيَـتي ... بـالنّرجِسِ الغَـدّارِ مـا أنصَـفَا

لـو أنَّـهُ سَمّـاكِ بالآسَـةِ ... وفيـتِ إنَّ الآسَ أهـلُ الوَفَـا

خرج كُثيِّر يريد عَزّةَ ومعه صاحِبٌ له مِن نَهْد، فرأى غُرابًا ساقطًا فوق بانَةٍ يَنتِف ريشَه، فقال له النَّهْديّ: إن صَدَق الطَّيْر فقد ماتت عَزّة، فوافى أهلَها وقد أخرَجوا جَنازَتها، فقال [الطّويل]:

ومـا أغْيَـفَ النّهـديَّ لا دَرَّ دَرّهُ ... وأزجـرَه للـطّيرِ لا عَزَّ نَاصِـرُهْ[2]

---

١ ـ مستعبرًا: أي سَالَتْ عَبرته، أي دموعه.

٢ ـ عيون الأخبار ١: ١٤٨.

رأيتُ غرابًا ساقطًا فوقَ بَانةٍ ينتّف أعلَى ريشِهِ ويُطايِرُهْ
فقال: غرابٌ لاغترابٍ، وبانَةٌ لِبَيْن، وفقدٌ من حبيبٍ تُعَاشِرُهْ

وقال الشّاعر [الطّويل]:

وسَمّيتهُ يَحْيَى لِيَحْيَا ولَمْ يكن إلى رَدِّ حُكمِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ
تَيَمَّمْتُ فِيهِ الفألَ حِينَ رُزِقْتُهُ ولَمْ أدْرِ أنّ الفألَ فِيهِ يَفِيلُ

**فأمّا القول في السِّحر**؛ فإنّ الفُقهاء يُثبِتونه ويقولون: فيه القَوَد، وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ سَحَره لَبيدُ بن أعصَم اليهوديّ حتّى كان يُخيَّل إليه أنّه عَمِل الشّيءَ ولم يَعْمَله.

ورُوي أنّ امرأةً من يهود سحرتْه بشَعْر وقُصاص ظُفْر، وجَعَلت السِّحرَ في بئر، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك، فبعث عليًّا عليه السلام فاستخرَجه وقَتَل المرأة.

وقومٌ من المتكلّمين يَنفون هذا عنه عليه السلام، ويقولون: إنّه معصوم مِن مِثله.

والفلاسفة تَزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النّفسِ النّاطقة، وأنّه لا يَبعُد أن يكون في النّفوس نفس تؤثّر في غيرِ بَدنها المرض والحُبّ والبُغْض، ونحو ذلك، وأصحاب الكواكب يَجعلون للكواكب في ذلك تأثيرًا، وأصحابُ خَواصّ الأحجار والنّبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر.

**وأمّا العَدْوى**؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوَى في الإسلام».

وقال لمن قال: أَعدَى بعضُها بعضًا ـ يعني الإبل ـ: «فمَن أَعدَى الأوّل؟» وقال: «لا عَدْوَى ولا هامَة ولا صَفَر»، فالعَدْوى معروفة، والهامَة: ما كانت العرب تَزعُمه في المقتول لا يؤخذ بثأْرِه، والصَّفَر: ما كانت العرب تَزعُمه من الحيّة في البَطْن تَعَض عند الجُوع. (١٩: ٣٧٢ ـ ٣٨٢)

## الفصل السّادس والتّسعون:

## [فصل في ذمّ الكذب وحقارة الكذّابين]

**(الخطبة: ٨٥) ... جَانِبُوا الْكَذِبَ، فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ، الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ ... .**

**الشّرح:** ... ثمّ نهى عن الكَذِب، وقال: «إنّه مجانِبٌ للإيمان»، وكذا ورد في الخبر المرفوع ... .

جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كِذبةً تباعد المَلَك منه مسيرة ميل، مِن نَتن ما جاء به».

وعنه عليه السلام: «إيّاكم والكَذِب، فإنّ الكذب، يهدي إلى الفُجور، والفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذِب ويتحرّى الكذب، فيُكتَب عند الله كاذبًا؛ وعليكم بالصِّدق، فإنّ الصِّدق يَهدي إلى البِرّ، وإنّ البرّ ليهدي إلى الجنّة، وإنّ الرّجل ليصدُق ويتحرّى الصِّدْق، فيُكتَب عند الله صادقًا».

وروي أنّ رجلًا قال للنّبيّ ﷺ: أنا يا رسول الله أستسِرّ بخلال أربع: الزّنا، وشُرب الخمر، والسَّرق، والكذب، فأيّتهنّ شئتَ تركتُها لك؛ قال: دع الكذب؛ فلمّا وَلّى همَّ بالزّنا، فقال: يسألني فإن جحدت نقضت ما جعلت له، وإن أقررت حُدِدت، ثمَّ همّ بالسَّرق، ثمَّ بِشُرب الخمر، ففكّر في مثل ذلك، فرجع إليه فقال: قد أخذتَ عَلَيّ السّبيل كلّه، فقد تركتهنّ أجمع.

قال العبّاس بن عبد المطّلب لابنه عبد الله: يا بنيّ، أنت أفقهُ منّي، وأنا أعقل منك، وإنّ هذا الرّجل يُدنِيك ــ يعني عمر بن الخطّاب ــ فاحفظ عنّي ثلاثًا: لا تُفشِيَنّ له سرًّا، ولا تغتابَنّ عنده أحدًا، ولا يطّلِعَنّ منك على كِذبةٍ.

قال عبد الله: فكانت هذه الثّلاث أحبّ إليّ من ثلاث بَدَرات ياقوتًا.

قال الواثق لأحمد بن أبي دُوَاد رحمه الله تعالى: كان ابنُ الزّيات عندي، فذكَرَك بكلّ قبيح. قال: الحمد لله الّذي أحوَجه إلى الكذب عَلَيّ، ونزَّهني عن الصِّدق في أمره.

وكان يقال: أمران لا يكاد أحدُهما ينفكّ من الكذب: كثرةُ المواعيد، وشدّة الاعتذار.

ومِنَ الحِكَم القديمة: إنّما فَضْل النّاطق على الأخرس بالنُّطق، وزَيْن المنطق الصِّدْق، فالكاذب شرٌّ من الأخرس.

قال الرَّشيد للفَضْل بن الرَّبيع في كلام جَرَى بينهما: كذبتَ. فقال: يا أمير المؤمنين، وَجْه الكَذوب لا يقابلك، ولسانه لا يحاورك.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1]: هي في الكذّابين، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة.

ومن كلام بعض الصّالحين: لو لم أترك الكذب تأثُّمًا لتَرَكْتُه تكرُّمًا.

أبو حيّان: الكذب شِعارٌ خَلَق، ومَوْردٌ رَنِق[2]، وأدب سيّئ، وعادة فاحشة، وقَلّ مَن استرسل معه إلّا ألِفَه، وقلّ مَن ألفه إلّا أتلفه. والصّدق مَلْبَسٌ بهيٌّ، ومَنهَل غذيّ، وشُعاع منبثّ، وقلّ مَن اعتاده ومرنَ عليه إلّا صحبتْه السَّكينة، وأيّده التّوفيق، وخدمتْه القلوبِ بالمحبّة، ولحظتْه العيون بالمهابَة.

ابن السّمّاك: لا أدري أُوجَر على تَرْك الكذب أم لا ؟ لأنّي أتركه أَنَفَةً.

يحيى بن خالد: رأيتُ شِرّيب خمرٍ نَزَع، ولصًّا أقلع، وصاحبَ فواحش ارتدع، ولم أرَ كاذبًا رَجَع.

قالوا في تفسير هذا: إنّ المولَع بالكذب لا يكاد يصبر عنه، فقد عُوتِبُ إنسان عليه، فقال لمعاتبه: يا بن أخي، لو تغرْغَرْتَ به لما صبرت عنه.

وقيل لكاذبٍ معروف بالكذب: أ صَدَقْتَ قطّ؟ قال: لولا أنّي أخاف أن أصدُق لقلتُ: لا !

وجاء في بعض الأخبار المرفوعة: قيل له: يا رسول الله، أيكون المؤمن جَبانًا؟ قال:

---

١ ـ الأنبياء/١٨ .

٢ ـ الرّنق ـ بفتح النّون و إسكانها وكسرها ـ : الكَدِر.

نعم. قيل: أفيكُون بخيلًا؟ قال: نعم. قيل أفيكون كاذبًا؟ قال: لا.

وقال ابنُ عبّاس: الحَدَث حَدَثان: حَدَثٌ مِن فِيك، وحَدَثٌ من فَرْجك.

وقال بعضهم: مَن أسرع إلى النّاس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون. أخَذَه شاعر فقال [السّريع]:

ومَن دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّــوه بــالحقِّ

وكان يقال: خُذُوا عن أهل السَّرَف، فإنّهم قَلّما يكذبون.

وقال بعض الصّالحين: لو صحِبَني رجل فقال لي: اشترُط عَلَيّ خَصْلَةً واحدة لا تزيد عليها. لقُلْت: لا تكذب.

وكان يقال: خَصْلتان لا يجتمعان: الكذب والمروءة.

كان يقال: مِن شرف الصّدق أنّ صاحبَه يُصدَّق على عدوّه، ومِن دَناءة الكذب أنّ صاحبه يكذَّب وإن كان صادقًا.

ومثل هذا قولهم: مَن عُرِف بالصِّدق جاز كِذْبُه، ومَن عُرف بالكذب لم يَجُزْ صِدْقُه.

وجاء في الخبر المرفوع: إنّ في المعاريض لمندوحَةً عن الكذب.

وقال ابن سِيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريفٌ.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾[1]؛ لم ينسَ. ولكنّه من معاريض الكلام وكذلك قالوا في قول إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2].

وقال العُتْبيّ: إنّي لأصدُق في صغارِ ما يضرّني، فكيف لا أصدق في كبار ما ينفعني! وقال بعض الشّعراء [البسيط]:

لا يكذِبُ المرءُ إلّا مِن مهانَتِهِ أو عادةِ السُّوءِ أو مِن قِلّةِ الأدبِ

لَعَضّ جيفَةِ كَلْبٍ خيرُ رائحةٍ مِن كِذبةِ المرءِ في جِدٍّ وفي لعبِ

---

١ ـ الكهف/٧٣.

٢ ـ الصّافّات/٨٩.

شهد أعرابيّ عند معاوية بشهادة، فقال له: كذبت. فقال: الكاذب والله المتزمِّل في ثيابك. فقال معاوية: هذا جزاء من عَجِل.

وقال معاوية يومًا للأحنف ـ وحدّثه حديثًا ـ : أتكذب؟ فقال له الأحنف: والله ما كذبتُ منذ علمتُ أنّ الكذب يشين أهله.

ودخل عبدُ الله بن الزُّبير يومًا على معاوية فقال له: اسمع أبياتًا قُلْتُها ـ وكان واجدًا على معاوية ـ فقال: هاتِ. فأنشده [الطّويل]:

إذا أنتَ لَمْ تُنصِفْ أخاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهجرانِ إن كان يعقلُ

ويركبُ حَدَّ السَّيفِ من أن تَضيمهُ إذا لَمْ يَكُنْ عَن شَفرةِ السَّيْفِ مِزْحَلُ

فقال معاوية: لقد شعرتَ بعدنا يا أبا بكر؛ ثمّ لم يلبث معاوية أن دخل عليه مَعْنُ بن أوس المُزَنيّ، فقال: أقلت بعدنا شيئًا؟ قال: نعم. وأنشده [الطّويل]:

لَعَمْرُكَ لا أدري وإنّي لَأَوْجَلُ عَلَى أيّنَا تَعْدُو المنيّةُ أوّلُ[1]

حتّى صار إلى الأبيات الّتي أنشدها ابن الزّبير؛ فقال معاوية: يا أبا بكر، أما ذكرتَ آنفًا أنّ هذا الشِّعر لك؟ فقال: أنا أصلحتُ المعاني وهو ألّف [الشّعر][2]. وبعدُ، فهو ظِئْري[3]، وما قال من شيء فهُو لي.

وكان عبد الله بن الزّبير مُسترضَعًا في مُزَيْنة[4].

وروى أبو العبّاس المبرّد في «الكامل» أنّ عمرَ بن عبد العزيز كَتَب في إشخاص إياس بن معاوية المُزَنيّ، وعديّ بن أرطاة الفَزاريّ ـ أمير البَصْرة وقاضيها ـ إليه،

---

١ ـ ديوانه : ٥٧ .

٢ ـ من «الكامل» .

٣ ـ الكامل : «و هو بعد ظئري» .

٤ ـ الخبر في «الكامل» : ٣٥٧ (طبع أُوربّا ) .

فصار عديٌّ إلى إياس، وقدَر أنّه يمزّنه[١] عند عمر بن عبد العزيز ويُثني عليه، فقال له: يا أبا وائلة، إنّ لنا حقًّا ورَحِمًا. فقال إياس: أ عَلَى الكذب تريدني! والله ما يسرّني أن كذبتُ كِذْبة يغفرهَا الله لي، ولا يطّلع عليها هذا ـ وأومأ إلى ابنه ـ ولي ما طلعت عليه الشّمس[٢]!

وروى أبو العبّاس أيضًا: أنّ عمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبيديّ كان معروفًا بالكذب، وقيل لخلف الأحمر ـ وكان مَوْلى لهم وشديد التّعصّب لليمن ـ: أكان عمرو بن مَعْديكَرِب يكذب؟ قال: يكذب في المقال ويصدق في الفِعال[٣].

قال أبو العبّاس: فرُوي لنا أنّ أهل الكوفة الأشراف، كانوا يظهرون بالكُنَاسة[٤]، فيركبون على دوابّهم حتّى تطرُدَهم[٥] الشّمس، فوقف عمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبيديّ، وخالد بن الصّقعب النّهديّ ـ وعمرو لا يعرفه، إنّما يسمع باسمه ـ فأقبل عمرو يُحدّثه، فقال: أغزَنا مرّة على بني نَهْد، فخرجوا مسترعفين بخالد بن الصّقعب، فحملتُ عليه، فطعنته فأدريتُه[٦]، ثمّ مِلْت عليه بالصَّمْصَامة[٧] فأخذت رأسه، فقال خالد بن الصّقعب: حِلًّا أبا ثور، إنّ قتيلك هو المحدَّث. فقال عمرو: يا هذا إذا حُدثت فاستمِع، فإنّما نتحدّث بمثل ما تستمِع لنُرهِب به هذه المعدّيةَ. (٦ : ٣٥٧ ـ ٣٦٢)

---

١ ـ في الأُصول : «يقرظه» ، وما أثبتناه من «الكامل»، و في زيادات أبي الحسن الأخفش : التّمزين: المدح، ولم أسمع هذه اللّفظة إلّا من أبي العبّاس، وهي عندي مشتقّة من المازن. وهو النّمل؛ ولهذا سمّيت مازن؛كأنّه أراد منه أن يكثّره. ويروى «بكثرة»، وفي زيادات الكامل أيضًا: قال الشّيخ: قوله: «أن يمزّنه عند الخليفة ؛ أي كأنّه يجعله سيّد مُزَينة؛ لأنّه كان مُزَينيًا» .

٢ ـ الكامل : ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

٣ ـ الكامل : ٣٥٥ .

٤ ـ الكناسة : محلّة بالكوفة .

٥ ـ الكامل : «إلى أن يطردهم حرّ الشّمس» .

٦ ـ أذريته: صرعته وألقيته عن فرسه .

٧ ـ الصّمصامة: السّيف الصّارم لا ينثني؛ وهو اسم عمرو بن مَعْديكَرِب .

**(الحكمة: ٣٨٨) وقَالَ عليه السلام: لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ؛ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**

**الشّرح:** هذا نَهيٌ عن الكذب، وأن تقول ما لا تَأمَن من كونه كَذِبًا، فإنّ الأمرَين كِليهما قبيحان عَقلًا عند أصحابنا.

**فإن قلتَ:** كيف يقول أصحابكم: إنّ الخبر الّذي لا يأمن كونه كَذِبًا قبيح، والنّاس يَستَحسِنون الأخبارَ عن المظنون[1].

**قلتُ:** إذا قال الإنسان: زيدٌ في الدّار، وهو يظنّه في الدّار ولا يَقطع عليه، فإنّ الحَسَن منه أن يُخبر عن ظنّه، كأن يقول: أُخبِرُ عن أنّي أظنّ أنّ زيدًا في الدّار، وإذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذَن خبرٌ عن معلوم لا عن مَظْنونٍ، لأنّه قاطع على أنّه ظانّ أنّ زيدًا في الدّار. فأمّا إذا فُرِض الخبر لا على هذا الوجه، بل على القَطْع بأنّ زيدًا في الدّار، وهو لا يقطع على أنّ زيدًا في الدّار، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه، لأنّه أخبر عن أنّه قاطع، وليس بقاطعٍ، فكان قبيحًا. (١٩ : ٣٢٣)

**(الحكمة: ٤٦٤) وقَالَ عليه السلام: الْإِيمَانُ أَن تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ، عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنفَعُكَ، وَأَلَّا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَن عِلْمِكَ، وَأَن تَتَّقِيَ اللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ.**

**الشّرح:** قد أَخَذ المعنى الأوّل القائلُ [السّريع]:

عليكَ بالصِّدقِ ولَو أنّهُ أحرَقَكَ الصِّدْقُ بنارِ الوَعِيدْ

ويَنبغي أن يكون هذا الحُكم مقيّدًا لا مطلقًا، لأنّه إذا أضَرّ الصِّدْق ضَرَرًا عظيمًا يؤدّي إلى تَلَف النَّفْس أو إلى قَطْع بعض الأعضاء لم يَجُزْ فِعْلُه صَريحًا، ووَجَبتْ المعَاريضُ حينئذٍ.

---

١ ـ كذا في ا، ب، و في د: «المظنونات».

فإن قلتَ: فالمعَارِيض صِدق أيضًا، فالكلامُ على إطلاقه!

قلتُ: هي صِدق في ذاتها، ولكنّ مُستعمِلَها لم يَصدُق فيما سُئِل عنه، ولاكَذَب أيضًا، لأنّه لم يُخبِرعنه، وإنّما أَخبرَعَن شيء آخَرَوهي المعَارِيض؛ والتَارك للخَبرلا يكون صادقًا ولاكاذبًا، فوَجَب أن يقيّد إطلاقُ الخَبَر بما إذا كان الضَّرَر غير عظيم، وكانت نتيجةُ الصِّدق أعظَم نفعًا من تلك المَضَرّة.

قال عليه السلام: «وأن لايكون في حديثك فَضْلٌ عن علمِك»، متى زاد مَنطِق الرَجل على عِلْمِه فقد لغَا وظَهَرنقصُه، والفاضلُ مَن كان عِلمُه أكثرَمن مَنطِقه.

قوله: «وأن تتّقي الله في حديثِ غيرك»، أي في نَقْلِه وروايتِه فَترْوِيه كما سَمِعْتَه من غيرتحريف. (٢٠ : ١٧٥)

## الفصل السّابع والتّسعون: [في الهمّ والحزن]

(كتابه عليه السلام: ٣١) ... أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنتُ مِن إِدْبَارِ الدُّنيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَن ذِكْرِ مَن سِوَايَ، وَالْاِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَّقَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَن هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِن أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِن أَمْرِ نَفْسِي....

.

**الشّرح:** ... يقول عليه السلام: إنّ فيما قد بان لي مِن تنكّر الوقت وإدبار الدّنيا، وإقبال الآخرة شاغلًا لي عن الاهتمام بأحدٍ غيري، والاهتمام والفكر في أمر الولد وغيره ممّن أخلفه ورائي.

ثمّ عاد فقال: إلّا أنّ همّي بنفسي يقتضي اهتمامي بك، لأنّك بعضي بل كلّي، فإن كان اهتمامي بنفسي يصرفني عن غيري لم تكن أنت داخلًا في جملة مَن يصرفني همّي بنفسي عنهم، لأنّك لست غيري.

**فإن قلتَ:** أفهذا الهمّ حَدَث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن، أو مِن قبل لم يكن عالمًا بأنّ الدّنيا مُدبِرة والآخرة مُقبِلة؟

**قلتُ:** كلّا، بل لم يزل عالمًا عارفًا بذلك، ولكنّه الآن تأكّد وقوى، بطريق علوّ السّنّ وضعف القُوَى، وهذا أمرٌ يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب، لا بدّ من حصوله لكلّ أحد، وإن كان عالمًا بالحال من قبل، ولكن ليس العيان كالخبر.

ومِن مستحسن ما قيل في هذا المعنى قول أبي إسحاق الصّابئ [الطّويل]:

أقيكَ الرَّدى إنّي تنبّهتُ من كَرى ... وسهو على طولِ المدَى اعترياني

فأثبتُّ شخصًا دانيًا كان خافيًا ... على البُعْدِ حتَّى صارَ نُصْبَ عَيَاني

هُوَ الأجلُ المحتومُ لي جَدّ جِدّه ... وكانَ يُرِيني غَفْلةَ المتواني

لَـهُ نُـذُرٌ قـد آذَنَتْـنِي بهجمَـةٍ لَـهُ لستُ منهـا آخـذًا بِأمـانِ
ولا بـدّ منـه مُمْهِـلًا أو مُعـاجِلًا سَـيَأتِي فـلَا يُغْنِيـهِ عـنِّيَ ثـانِ

وأوّل هذه القصيدة وهو داخل له في هذا المعنى أيضًا:

إذا مـا تَعَـدَّتْ بي وسَـارَتْ مُخِفَّـةٌ لهـا أرجـلٌ يَسْـعَى بهـا رَجُـلانِ
ومـا كنـتُ مِـن فُرسـانها غيـر أنّهـا وَفَـت لِـيَ لمّـا خانـتِ القَـدَمَانِ
نزلـتُ إليهـا عَـن سـراةِ حصـاني بِحُكـمِ مَشِـيبٍ أو فـراشِ حَصـانِ[1]
فقد حملت منّي ابن سبعينَ سالكًا سـبيلًا عليهـا يسـلك الـثّقلانِ
كمـا حمـلَ المُهْـدَ الصَّـبِيُّ وقبلَهـا ذعـرتْ أسُـودُ الغيـلِ بـالنَّزَوَانِ[2]
ولي بعـدها أخـرَى تُسمَّى جِنـازة[3] جنيبـة يـومٍ للمنيّـةِ دانِ
تَسِـيرُ عـلى أقـدام أربعـةٍ إلى دِيَـارَ الـبلَى معـدودهنّ ثمـانِ
وإنّي على عَيْثِ الرَّدَى في جوارحِي وما كفَّ مِنْ خَطْوي وبَطْشِ بناني
وإن لم يَـدَعْ إلّا فـؤادًا مُرَوّعًـا بِهِ غِير باقٍ مِن [أذًى] الحَدَثانِ[4]
تلوّم تحتَ الحُجُبِ ينفث حُكْمَهُ إلى أذُنٍ تَصْـغَى لنُطْـقِ لسـانِ[5]
لأعلـم أنّي ميّـتٌ عـاقَ دفنـهُ ذمـاءٌ قليـلٌ في غَـدٍ هُـوَ فَـانِ
وإنّ فـمًا لـلأرضِ غرثـان حائمًـا يُراصِـد مِـنْ أكـلي حضـور أوانِ
بِـهِ شـرَهٌ عَـمَّ الـوَرَى بفجـائعٍ تـركّن فلانًـا ثـاكلًا لِفُـلانِ

---

١ ـ د: «بحلم».

٢ ـ الغيل: الشّجر الكثيف الملتفّ.

٣ ـ الجِنازة، بالكسر: ما يحمل عليه الميّت.

٤ ـ الحدثان: غِيَرُالدّهر ونوائبه.

٥ ـ تلوّم: أي انتظر.

غدًا فاغِرًا يَشكُو الطّوَى وَهْوَ راتعٌ فما تَلْتَقِي يومًا لَهُ الشَّفَتانِ
إذا عاضنا بالنّسل ممّن نعولُهُ تلا أوّلًا منه بِمَهْلَكِ ثانِ
إلى ذاتِ يومٍ لاترى الأرض وارثًا سِوَى اللهِ مِنْ إنسٍ تراه وجانِ

قوله: «تفرّد بي دون هموم النّاس همّ نفسي-» أي دون الهموم الّتي قد كانت تعتريني لأجل أحوال النّاس. فصدّقني رأيي ... والمعنى أنّ هذا الهمّ صدّقني عن الصّفة الّتي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصّفة هي ألّا يفكّر في أمر شيء من الموجودات أصلًا إلّا الله تعالى ونفسه، وفوق هذه الطّبقة طبقة أُخرى وهي ألّا تفكر في شيء قطّ إلّا في الله وحده، وفوق هذه الطّبقة طبقة أُخرى تجلّ عن الذّكر والتّفسير، ولاتصلح لأحد من المخلوقين إلّا النّادر الشّاذّ، وقد ذكرها هو فيما سبق، وهو ألّا يفكّر في شيء أصلًا لا في المخلوق ولا في الخالق، لأنّه قد قارب أن يتّحد بالخالق، ويستغني عن الفكر فيه.

قوله: «وصرفني عن هواي» أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرّعيّة والقيام بما يقوم به الأئمّة.

قوله عليه السلام: «فأفضَى بي إلى كذا»، ليس بمعنى أنّه قد كان من قبل يمازج جدّه باللّعب، بل المعنى أنّ همومه الأُولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحقّ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولايقول إلّا حقًّا، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلًا، ومدار الفرق بين الحالتَين ـ أعني الأُولى والثّانية ـ على إمكان اللّعب لا نفس اللّعب وما يلزم من قوله: «أفضى لك بي هذا الهمّ» إلى انتفاء إمكان اللّعب أن تكون همومه الأُولى قد كان يمازجها اللّعب، ولكن يلزم من ذلك أنّها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكانًا محضًا، على أنّ اللّعب غير مُنكَر إذا لم يكن باطلًا، ألا ترى إلى قول النّبيّ صلى الله عليه وآله: «المؤمن دَعِب لعِب»، وكذلك القول في قوله: «وصدقٍ لا يشوبه كذب» أي لا يمكن أن يشوبه كذب، وليس المراد بالصّدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورَين، بل هو من

قولهم: صدَقونا اللّقاء، ومن قولهم: حمل عليهم فما كذب! قال زهير[البسيط]:

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد اللّيوثَ إذا ما كذَب اللّيث عن أقرانه صَدَقا

أي أفضَى بي هذا الهمّ إلى أن صدَقتني الدّنيا حربها، كأنّه جعل نفسه محاربًا للدّنيا، أي صدّقتني الدّنيا حربها ولم تكذب، أي لم تجبن ولم تخن. (١٦ : ٥٧ ـ ٦١)

**(الحكمة: ١٣٩) الأصل: الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ.**

**الشّرح:** من كلام بعض الحكماء: الهمّ يُشِيب القلب، ويُعقم العقل، فلا يتولّد معه رأْي، ولا تَصْدُق معه رَويّة. وقال الشّاعر[الوافر]:

همومٌ قد أبَتْ إلّا التباسًا تَبُثُّ الشّيبَ في رأسِ الوَليدِ

وتُقعد قائمًا بِشَجا حَشاهُ وتُطلق للقيامِ حُبَا القُعودِ

وأضحتْ خُشَّعًا منها نِزارٌ مركّبة الرّواجِبِ في الخدودِ

وقال سُفيان بن عُيَينة: الدّنيا كلّها هموم وغموم، فما كان منها سرور فهو رِبح.

ومن أمثالهم: الهمّ كافور الغُلْمة. وقال أبو تمّام [الخفيف]:

شاب رأسِي وما رأيت مَشيبَ الرْ ـرَأسِ إلّا مِن فَضْلِ شيبِ الفُؤادِ

وكذاكَ القلوبُ في كلِّ بؤسٍ ونعيمٍ طلائعُ الأجسادِ

طال إنكاري البياضَ ولَو عُمْـ ـرْتُ شيئًا أنكرتُ لونَ السَّوادِ

(١٨ : ٣٤١)

## الفصل الثّامن والتّسعون: [في الجهل]

**(كتابه عليه السلام: ٦٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهَمْدَانيّ:**

**... وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْمِ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا... .**

**الشّرح:** ... ومنها قوله: «ولاتردّ على النّاس كلّ ما حدّثوك، فكفَى بذلك جَهْلًا»، من الجَهْل المبادرة بإنكار ما يَسمَعه، وقال ابنُ سينا في آخر «الإشارات»: إيّاك أن يكون تكيّسك وتبرّؤك من العامّة، هو أن تَنبري منكِرًا لكلّ شيء، فذلك عَجْز وطَيْش، وليس الخُرْق في تكذيبك ما لم يَستبِنْ لك بعد جليّته دون الخرْق في تصديقكِ بما لم تَقم بين يدَيْك بيّنةٌ، بل عليك الاعتصام بحَبْل التّوقّف وإن أَزْعَجك استنكار ما يُوعيه سَمْعك ممّا لم يبرهن على استحالته لك، فالصّواب أن تسرّح أمثالَ ذلك إلى بُقْعة الإمكان، ما لم يَذُدك عنها قائمُ البُرْهان. (١٨ : ٤٦)

**(الحكمة: ١٧٤) الأصل: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.**

**الشّرح:** هذه الكلمة قد تقدّمت وتقدّم منّا ذِكْر نظائرها. والعلّة في أنّ الإنسان عدوّ ما يجهله أنّه يخاف من تقريعه[1] بالنّقص، وبعدم العلم بذلك الشّيء، خصوصًا إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من النّاس، فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يعْرِفه ويَنقُص في أعين الحاضرين، وكلّ شيء آذاك ونَالَ منك فهو عدوّك[2]. (١٨ : ٤٠٣)

---

١ ـ د: «تعريضه».

٢ ـ أ: «فهو عدوّلك».

## الفصل التّاسع والتّسعون: [في العجز]

**(الحكمة: ٤) الأصل: اَلْعَجْزُ آفَةٌ وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ. وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.**

الشّرح: فهذه فصول خمسة: الفصل الأوّل: قوله عليه السلام: « العجز آفة»، وهذا حقّ، لأنّ الآفة هي النّقص أو ما أوجب النّقص، والعجز كذلك.

وكان يقال: العجز المفرط ترك التّأهّب للمعاد.

وقالوا: العجز عجزان:

أحدهما: عجز التّقصير وقد أمكن الأمر.

والثّاني: الجدّ في طلبه وقد فات.

وقالوا: العجز نائم والحَزْم يَقَظان.

## الفصل المائة: [نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر: إنّ هذا الأمر لا يَصلُح إلّا لقويٍّ في غير عُنفٍ، ولَيّنٍ في غير ضعْفٍ.

وكان أنوشَرْوانَ إذا وَلّى رجلًا أمرَ الكاتبَ أن يَدَع في العَهْد موضِعَ ثلاثة أسطر ليوقّع فيها بخطّه، فإذا أُتِي بالعَهْد وقّع فيه: سُس خِيارَ النّاس بالمودّة، وسفلتَهم بالإخافة، وامزُج العامّة رهبةً برَغْبة.

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: إنّي لَأهمّ أن أخرج للنّاس أمرًا من العدل، فأخاف ألّا تحتملَه قلوبُهم، فأخرج معه طمعًا مِن طمع الدّنيا، فإن نفرتِ القلوبُ من ذاكَ سكنتْ إلى هذا.

وقال معاوية: إنّي لا أضَعُ سَيْفي حيث يَكفِيني سَوْطي، ولاأضع سَوْطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أنّ بيني وبين النّاس شَعْرةً ما انقطعتْ. فقيل له: كيف؟ قال: إذا مدّوها خَلَّيتُها، وإذا خَلَّوها مَددْتها.

وقال الشَّعْبيّ في معاوية: كان كالجَمل الطّبّ، إذا سُكِت عنه تقدّم، وإذا رُدّ تأخّر.

وقال ليزيد ابنه: قد تبلغُ بالوَعيد ما لا تَبلُغ بالإيقاع، وإيّاك والقَتْل، فإنّ الله قاتِل القتّالين. وأغلَظَ له رجل، فحلم عنه، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ قال: إنّا لا نحول بين النّاس وألسنتِهم ما لم يَحولُوا بيننا وبين سلطاننا.

وفَخَر سليم مولَى زياد عند معاوية بن زياد، فقال معاوية: اسْكُت، وَيْحَك! فما أدركَ صاحبُك بسَيْفه سيّئًا قطّ إلّا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: ما السّياسة يا أبَتِ؟ قال: هَيْبة الخاصّة لك، مع صدق مودّتها، واقتيادك قلوبَ العامّة بالإنصاف لها، واحتمال هَفَوات الصّنائع.

(١٥ : ١٠٢ ـ ١٠٣)

## [نبذ من الوصايا الجليلة]

(كتابه عليه السلام: ٦٩) ومن كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهَمْدَانيّ:

... وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَن تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ. وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوتِ، وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ ....

وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْمِ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا.

وَاكْظِمِ الْغَيْظَ، وَاحْلُمْ عِندَ الْغَضَبِ وَتَجَاوَزْ عِندَ الْمَقْدَرَةِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُن لَكَ الْعَاقِبَةُ. وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِن نِعَمِ اللهِ عِندَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ! أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِن نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِن خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُن لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ.

وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَن يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَيُنكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مَعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ.

وَاسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةَ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، واقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ.

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ، فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ. وَأَكْثِرْ أَن تَنظُرَ إِلَى مَن فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِن أَبْوَابِ الشُّكْرِ.

وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ. وَأَطِعِ اللهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا.

وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ، وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِن قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِندَ مَحَلِّهَا.

وَإِيَّاكَ أَن يَنزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنتَ آبِقٌ مِن رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنيَا، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ.

**وَوَقِّرِ اللهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُندٌ عَظِيمٌ مِن جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلَامُ.**

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع:

**ومنها قوله:** «وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلّا على حَقّ»، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[1]، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصِّدق، أمّا في أحدهما فمحرّم وأمّا في الآخر فمكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغو القول والهزءِ والعبث.

**ومنها قوله:** «ولا تَجعَل عِرْضك غَرَضًا لنِبَال القوم»، قال الشّاعر [البسيط]:

لا تستتِرْ أبدًا ما لا تَقومُ لَهُ ولاتهيجنَّ مِنْ عِرّيسِهِ الأسَدَا[2]

إنّ الزَّنَابيرَ أن حرّكتها سَفَهًا مِن كورِها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدَا

وقال [السّريع]:

مَقالةُ السُّوءِ إلى أهلها أسرَعُ من مُنحَدرٍ سائلِ

ومَن دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالباطلِ

**ومنها قوله:** «ولا تُحَدِّث النّاسَ بكلّ ما سمعتَ، فكفَى بذلك كَذبًا» ، قد نهى أن يُحدِّث الإنسان بكلّ ما رأَى من العَجائب فَضْلًا عمّا سَمِع، لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارِع النَّفس إلى تكذيبه، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فَرَط من سوء الظّنّ فيه ما فرط.

ويقال: إنّ بعض العَلويّة قال في حَضْرة عَضُد الدّولة ببغداد: عندنا في الكُوفة نَبِقٌ وَزْنُ كلّ نَبِقةٍ مثقالان. فاستطرَف الملِك ذلك، وكاد يكذّبه الحاضرون، فلمّا قام ذكر ذلك لأبيه، فأرسَل حَمامًا كان عندَه في الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءَه بإرسالِ مائةِ

---

١ ـ البقرة/٢٢٤ .

٢ ـ العريسة: مأوى الأسد .

حمامةٍ، في رِجلَي كلّ واحدة نبقَتان من ذلك النَّبق، فجاء النَّبق في بُكْرة الغَدِ وحُمل إلى عَضُد الدّولة، فاستحسَنه وصدّقه حينئذٍ، ثمّ قال: له لَعَمْري لقد صدَقتَ، ولكنّ لا تُحدِّث فيما بعدُ بكلّ ما رأيتَ من الغرائب، فليس كلّ وقت يتهيّأ لك إرسال الحَمَام.

**وكان يقال:** النّاس يَكتُبون أحسنَ ما يَسمعون، ويَحفَظون أحسنَ ما يَكتُبون، ويتحدّثون بأحسن ما يَحفَظون؛ والأصدق نوع تحت جنس الأحسن ... .

**ومنها قوله:** «واصفَح مع الدّولة تكن لكَ العاقبة»؛ هذه كانت شيمةُ رسول الله ﷺ، وشيمة عليّ عليه السلام؛ أمّا شيمة رسولِ الله ﷺ ،فظفِرَ بمشركي مَكّة وعفا عنهم، كما سبق القولُ فيه في عام الفَتْح؛ وأمّا عليّ عليه السلام، فَظفِر بأصحاب الجَمَل وقد شَقّوا عصا الإسلام عليه، وطَعَنوا فيه وفي خلافته، فعفا عنهم، مع عِلْمِه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد، ويَصِيرون إلى معاوية، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم، وهذا أعظمُ من الصَّفْح عن أهل مكّة، لأنّ أهل مكّة لم يَبْقَ لهم لما فُتِحَت فئةٌ يتحيّزون إليها، ويُفسِدون الدّين عندها.

**ومنها قوله:** «واستَصلح كلّ نعمةٍ أنعمها الله عليك»، معنى استَصلِحْها: استَدِمْها، لأنّه إذا استدامها فقد أَصلَحها، فإنّ بقاءَها صلاحٌ لها، واستدامتها بالشُّكر.

**ومنها قوله:** «ولاتضيّعنّ نعمةً مِن نِعَم الله عندَك»، أي واسِ النّاسَ منها، وأَحسن إليهم، واجعلْ بعضها لنَفسك وبعضها للصّدقة والإيثار، فإنّك إن لم تفعلْ ذلك تكن قد أَضَعْتَها.

**ومنها قوله:** «وليُرَ عليك أثرُ النّعمة» قد أَمَر بأن يُظهر الإنسانُ على نفسِه آثارَ نعمةِ الله عليه، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

وقال الرَّشيد لجعفر: قُمْ بنا لنمضي إلى منزل الأصمعيّ. فمضيا إليه خِفْية ومعهما

---

١ ـ الضّحى / ١١ .

خادمٌ معه ألفُ دينار ليَدْفَع ذلك إليه، فدَخَلا دارَه فوجدا كساء جَرْداء، وبارية[1] سَمْلاء، وحصيرًا مقطوعًا، وخباءً قديمة، وأباريق من خزف، ودَواةً من زُجاج، ودَفاترَ عليها التُّراب وحيطانًا مملوءةً من نَسْج العناكِب، فوَجَم الرَّشيدُ، وسأله مسائلَ غَثّةً لم تكن من غَرَضه، وإنّما قطع بها خَجَله؛ وقال الرَّشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفْس هذا المهين، قد بَرّزناه بأكثر من خمسين ألفَ دينار وهذه حالُه، لم تَظهر عليه آثارُ نعمتنا! واللهِ لا دفعتُ إليه شيئًا، وخرج ولم يُعطِه.

**ومنها قوله:** «واعْلم! أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تَقْدِمةً من نفسِه وأهله وماله»، أي أفضلهم إنفاقًا في البرّ والخير من مالِه، وهي التَّقْدمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾[2]، فأمّا النَّفس والأهل، فإنّ تقدِمتهما في الجهاد، وقد تكون التّقدمة في النّفس بأن يَشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب، وثناءٍ حَسَن، وأن يُصلِح بين المُتخاصِمَيْن، ونحو ذلك، والتَّقدِمة في الأهل أن يحجّ بوَلَده وزَوْجته ويكلّفهما المشاقّ في طاعة الله، وأن يؤدّب ولده إن أذنَب، وأن يقيمَ عليه الحدّ، ونحو ذلك.

**ومنها قوله:** «وما تقدّم من خير يَبْق لك ذُخُره، وما تؤخّره يكن لغيرك خيرُه»، وقد سبق مثلُ هذا، وأنّ ما يتركُه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه، وكأنّما كان يكدَح لغيره، وذلك من الشّقاوة وقلّة التّوفيق ...

**ومنها قوله:** «واسكُن الأمصار العظام»، قد قيل: لا تسكن إلّا في مصرٍ فيه سوقٌ قائمة، ونهرُ جارٍ، وطبيبٌ حاذق، وسلطانٌ عادل، فأمّا مَنازل الغَفْلة والجفاء، فمِثْلُ قُرَى السّواد الصّغار، فإنّ أهلها لا نُور فيهم، ولا ضوءَ عليهم، وإنّما هم كالدَّوابّ والأنعام، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة، ولا يفقهون شيئًا أصْلًا فمجاوَرتهم تُعمِي القلب، وتُظلِم الحِسّ، وإذا لم يَجِد الإنسانُ مَن يُعينه على طاعةِ الله وعلى تَعلُّم العِلم، قصَّر فيهما.

---

١ ـ البارية: الحصيرة.

٢ ـ البقرة/١١٠.

**ومنها قوله:** «واقْصِر رأيَك على ما يَعْنيك»؛ كان يقال: من دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه ما يَعْنيه.

**ومنها:** نَهيُه إيّاه عن القُعود في الأسْواق. قد جاء في المَثَل؛ السُّوق محلّ الفُسوق.

وجاء في الخبر المرفوع: «الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجنده»، وذلك لأنّها قلّما تخلوعن الأيْمان الكاذبة، والبُيوع الفاسدة، وهي أيضًا مَجمَع النّساء المُومِسات، وفجّار الرِّجال، وفيها اجتماعُ أرباب الأهواء والبِدَع، فلا يخلو أن يَتجادَل اثنان منهم في المذاهب والنِّحَل فيُفضِي إلى الفِتَن.

**ومنها قوله:** «وانظر إلى مَن فُضِّلْتَ عليه»، كان يقال: انظُرإلى مَن دونك، ولا تَنظُرإلى مَن فَوْقك، وقد بيّن عليه السلام السِّرّ فيه، فقال: إنّ ذلك من أبواب الشّكر، وصَدَق عليه السلام، لأنّك إذا رأيتَ جاهلًا وأنتَ عالم، أو عالمًا وأنت أعلَمُ منه، أو فقيرًا وأنتَ أغْنَى [منه][1]؛ أو مُبتلًى بسَقَم وأنتَ مُعافًى عنه، كان ذلك باعثًا وداعِيًا لك إلى الشُّكر... .

**ومنها قوله:** «وإيّاك أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك في طَلب الدّنيا». هذه وصيّة شريفة جدًّا، جَعَل طالبَ الدُّنيا المُعرِضَ عن الله عند مَوْته كالعَبْد الآبِق يقدم به على مَوْلاه أسيرًا مكتوفًا ناكِسَ الرَّأس، فما ظنّك به حينئذٍ! ...

**ومنها قوله:** «وأحِبّ أحبّاءه»، قد جاء في الخبر: « لا يكمل إيمان امرئ حتّى يحبّ مَن أحبّ الله، ويبغض مَن أبغض الله» ... . (١٨ : ٤٣ ـ ٥١)

---

١ ـ تكملة من أ.

## [نبذ من الوصايا الحكيمة]

وأوصتِ امرأةٌ من نساء العرب بِنتَها ليلةَ إهدائها[١]، فقالت لها: لو تركتُ الوصيّة لأحدٍ لحُسْنِ أدب وكَرَم حَسَب، لتركتُها لكِ، ولكنَّها تذكرةٌ للغافل، ومَؤُنةٌ للعاقل.

إنّك قد خَلَفْتِ العُشَّ الّذي فيه دَرَجْتِ، والوَكْر الّذي منه خَرَجْتِ إلى منزلٍ لم تَعْرِ فيه، وقرينٍ لم تألفيه، فكوني له أمَةً، يكُن لكِ عَبْدًا، واحفَظِي عنّي خِصالًا عَشْرًا:

**أمّا الأُولى والثّانية:** فحسَن الصّحابة بالقناعة، وجميلُ المعاشرة بالسَّمع والطّاعة، ففي حُسْن الصَّحابة راحةُ القلب، وفي جميل المعاشَرة رِضا الرَّبّ.

**والثّالثة والرّابعة:** التّفقّد لمواقع عَيْنِه، والتّعهُّد لمواضع أنفِه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولايَجِد أنفهُ منكِ خبيث ريح، واعلَمي أنّ الكُحْل أحسَنُ الحسن المفقود، وأنّ الماءَ أطيَبُ الطِّيب الموجود.

**والخامسة والسّادسة:** الحِفْظُ لمالِه، والإرْعاء على حَشَمه وعِياله، واعلمي أنّ أصل الاحتفاظ بالمال حُسن التّقدير، وأصل الإرعاء على الحَشم والعيال حُسن التّدبير.

**والسّابعة والثّامنة:** التّعهّد لوقت طعامه، والهُدوّ والسّكون عند مَنامِه، فحرارةُ الجوع ملْهَبة، وتَنغيص النَّوم مَغْضبة.

**والتّاسعة والعاشرة:** لا تُفْشِينَ له سِرًّا، ولاتَعْصِين له أمرًا، فإنّك أن أفْشَيْتِ سِرّه لم تأمَني غَدْره، وإن عصيتِ أمرَه أوغَرْتِ صَدْرَه.

وأوصتِ امرأةٌ ابنتها وقد أهدتْها إلى بَعْلها، فقالت: كوني له فِراشًا، يكن لكِ مَعاشًا، وكوني له وِطاء، يكن لكِ غِطاءً، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحًا، والفَرَح إذا كان كئيبًا، ولايَطّلعَنّ منك على قبيح، ولايَشُمَّنَّ منكِ إلّا طيّبَ ريح[٢].

---

١ ـ ليلة إهدائها: أي ليلة زواجها؛ يقال: هَدَى العروس إلى بعلها. أهداها هداءً وإهداءً.

٢ ـ د: «ريحًا طيّبًا».

وزَوّجَ عامرُ بنُ الظَّرِب ابنته من ابن أخيه، فلمّا أراد تَحويلها قال لأُمِّها: مُرِي ابنتك ألّا تنزل مفازَةً إلّا ومعها ماء، فإنّه لِلأعْلَى جِلاء، وللأسْفَل نقاء، ولاتُكْثِر مُضاجَعَته، فإذا ملّ البدنُ ملّ القلب، ولاتمنعه شهوته، فإنّ الحُظْوة في المواقعة. فلم يلبث إلّا شهرًا حتّى جاءته مشجوجة، فقال لابن أخيه: يا بُنيّ ارفَعْ عصاك عن بَكْرَتك، فإن كان من غيرأن تنفّر بك فهو الدّاء الّذي ليس له دواء؛ وإن لم يكن بينكما وفاق ففِراق، الخلع أحسن مِنَ الطّلاق، وأن تترك أهلك ومالك. فردّ عليه صداقَها، وخلَعها منه، فهو أوّل خلْع كان في العرب[1].

وأوصَى الفرافِصة الكلبيّ ابنته نائلة حين أهداها إلى عثمان، فقال: يا بُنيّة، إنّك تقدمين على نساءٍ من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطِّيب منكِ، ولاتُغلَبين على خَصْلَتَين: الكُحْل والماء. تطهَّري حتّى يكون ريح جِلْدِك ريح شَنٍّ أصابه مطر، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك، فإنّها مفتاح الطّلاق.

وروى أبو عمرو بن العلاء قال: أنكح ضرارُ بن عمرو الضّبيّ ابنته من مَعبد ابن زُرارة، فلمّا أخرَجَها إليه قال: يا بُنيّة، أمسكي عليك الفَضْلَين: فضل الغُلْمة، وفضلِ الكلام.

قال أبو عمرو: وضِرار هذا هو الّذي رَفع عَقِيرته بعُكاظ، وقال: ألا إنّ شَرَّ حائلٍ[2] أُمّ، فزّوجوا الأُمّهات. قال: وذلك أنّه صُرِع بين الرِّماح، فأشبل عليه إخوته لأُمّه حتّى استنقَذوه.

وأوصتْ أعرابيّةٌ ابنتها عند إهدائها، فقالت لها: اقلعي زُجَّ رُمحِه، فإن أقرّ فاقلَعي سِنانه، فإن أقرّ فاكسري العظام بسيفه، فإن أقَرّ فاقطعي اللّحم على تُرْسه، فإن أقرّ فضعي الإكاف على ظَهْره، فإنّما هو حمار. وهذا هو قُبْح التّبعُّل، وذكرناه نحن في بابِ حُسنِ التّبعّل، لأنّ الضّدّ يُذكر بضدّه. (١٨ : ٣٣٢ ـ ٣٣٤)

---

١ ـ يقال: خلع الرّجل امرأته وخالعها: إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبانها من نفسه.

٢ ـ الحائل: الّتي لا تحمل.

## [طُرَف وأخبار]

(الخطبة: ١٨٤) ... واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنيَا. أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِن نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ!

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِن زَجْرَتِهِ!

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ هَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ.

فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِن قَبْلِ أَن تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِن أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2]، فَلَمْ يَسْتَنصِرْكُمْ مِن ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِن قُلٍّ، اسْتَنصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَن يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... .

**الشّرح:** ... ونظير قوله عليه السلام: «استقرَضَكُم وله خزائن السَّماوات والأرض»، ما رواه المبرّد في «الكامل» عن أبي عثمان المازنيّ، عن أبي زيد الأنصاريّ، قال: وقف

---

١ ـ محمّد / ٧.

٢ ـ الحديد / ١١.

علينا أعرابيّ في حلقة يونس [النّحويّ] [١]، فقال: الحمدُ لله كما هو أهله، وأعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه، خرجنا من المدينة، مدينة الرَّسول ﷺ، ثلاثين رجُلًا ممّن أخرجته الحاجة، وحُمِل على المكروه، ولا يمرَضُون مرضاهم [٢]، ولا يدفنون ميّتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه؛ والله يا قوم لقد جُعْتُ حتّى أكلْتُ النَّوى المحرق، ولقد مشيت حتّى انتعلتُ الدّم، وحتّى خرج من قدمي بَخَص [٣] ولحم كثير، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ [٤] طريق، ونضْنو سَفَرٍ! فإنّه لا قليل من الأجر، ولا غِنَى عن [ثواب] الله، ولا عمل بعد الموت، وهو سبحانه يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [٥]؛ مَليٌّ وفيٌّ ماجد واجد، [جواد] لا يستقرض من عَوَز [٦]، ولكنّه يبلُو [٧] الأخيار [٨].

قال المازنيّ: فبلغني أنّه لم يبرحْ حتّى أخذ ستّين دينارًا.

ومن كلام عليّ بن عبيدة الرّيحانيّ: الأيّام مستودَعات الأعمال، ونِعْم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصّالح!

وخطب الحجّاج، فقال: أيّها النّاس، إنّكم أغراضُ حِمام، وفُرَص هَلَكة، قد أنذركم

---

١ ـ من الكامل .

٢ ـ الكامل: «مريضهم» .

٣ ـ قال أبو العبّاس المبرّد: قوله: «بخص»؛ يريد اللّحم الّذي يركب القدم؛ هذا قول الأصمعيّ .وقال غيره: هو لحم يخلطه بياض من فساد يحلّ فيه. ويقال: بخصت عينه ـ بالصّاد ـ ولا يجوز إلّا ذلك، ويقال: بخسته حقّه؛ بالسّين: إذا ظلمته ونقصته؛ كما قال الله عَزَّ وجلّ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، وفي المثل: «تحسبها حمقاء وهي باخس» .

٤ ـ قال أبو العبّاس: الفلّ في أكثر كلامهم المنهزم الذّاهب؛ وفي خبر كعب بن معدان الأشقريّ: «إنّا آثرنا الحدّ على الفلّ» .

٥ ـ البقرة/٢٤٥ .

٦ ـ قال أبو العبّاس: «لا يستقرض من عوز»؛ فالعوز تعذر المطلوب؛ يقال: أعوز فلان؛ فهو معوز؛ إذا لم يجد .

٧ ـ قال أبو العبّاس : قوله: «ولكن ليبلوَ الأخيار»؛ يقال : الله يبلوهم ويبتليهم ويختبرهم، في معنى، وتأويله: يمتحنهم؛ وهو العالِم عزّ وجلّ بما يكون، كعلمه بما كان ؛ قال الله جلّ ثناؤه :﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

٨ ـ الخبر في «الكامل» ١: ٤٥١ ـ ٤٥٥ .

القرآن، ونادى برحيلكم الجديدان! ها إنّ لكم موعدًا لا تؤخّر ساعتُه،ولا تُدْفَع هجمتُه، وكان قد دلَفت إليكم نازلتُه، فتعلّق بكم رَيْبُ المنُون، وعلقَتْ بكم أُمّ اللُّهَيْم الحيزبون؛ فماذا هَيّأتُمْ للرّحيل؟ وماذا أعددتم للنّزيل؟ مَن لَمْ يأخذ أُهبة الحذَر، نزل به مرهوب القَدَر! (١٠ : ١٢٥ ـ ١٢٦)

# فهرس الفصول

## الباب السّادس: المسائل الأخلاقيّة والعرفانيّة، وفيه فصول:


| | |
|---|---|
| تصدير | ٣ |
| الفصل الأول: [ في العقل وفضل العلم ] | ٧ |
| [نُكَت في مدح العقل وما قيل فيه] | ٢٧ |
| الفصل الثّاني: [في الحكمة] | ٣٠ |
| الفصل الثّالث: [في العمل] | ٣٥ |
| الفصل الرّابع: [أقوال في التّجربة] | ٣٩ |
| الفصل الخامس: [في الهمّة وكِبرها] | ٤٣ |
| الفصل السّادس: [في العبادة] | ٤٤ |
| الفصل السّابع: [في الرّزق] | ٤٧ |
| الفصل الثّامن: [في الذّكر] | ٤٩ |
| الفصل التّاسع: [في الاستغفار والتّوبة] | ٥١ |
| الفصل العاشر: [في التّقوى] | ٥٥ |
| [نبذ وأقاويل في التّقوى] | ٥٥ |
| [في الورَع] | ٦٢ |
| الفصل الحادي عشر: [في التّوكّل] | ٦٤ |
| الفصل الثّاني عشر: [في الرّضا] | ٦٦ |
| الفصل الثّالث عشر: [في الشّكر] | ٧٠ |
| الفصل الرّابع عشر: [في الحوائج وقضائها] | ٧٧ |
| الفصل الخامس عشر: [في العدل والإنصاف] | ٧٩ |

[الآثار الواردة في العدل والإنصاف] ٨٣
الفصل السّادس عشر: [في الأدب] ٩٠
الفصل السّابع عشر: [في التّواضع وهضم النّفس] ٩٤
الفصل الثّامن عشر: [في الحياء وما قيل فيه] ٩٨
الفصل التّاسع عشر: [في الغيرة] ١٠١
الفصل العشرون: [في المروءة] ١٠٣
[نبذ ممّا قيل في المروءة] ١٠٤
الفصل الحادي والعشرون: [في الفضل والكَرَم والإحسان] ١٠٧
الفصل الثّاني والعشرون: [في الجُود والبُخْل] ١١٤
[أقوال مأثورة في الجُود والبُخْل] ١١٦
الفصل الثّالث والعشرون: [في الصّدقة] ١٢٠
الفصل الرّابع والعشرون: [في الفقروالغِنى] ١٢٤
[الأقوال الحكيمة في الفقروالغنى] ١٢٩
الفصل الخامس والعشرون: [في الاقتصاد] ١٣٦
الفصل السّادس والعشرون: [نبذ من كلام الحكماء في مدح القناعة وذمّ الطّمع] ١٣٧
[نبذ من الأقوال الحكميّة في مدح القناعة وقلّة الأكل] ١٥٣
الفصل السّابع والعشرون: [في العَفْووالحِلْم] ١٦١
الفصل الثّامن والعشرون: [في حُسْن الخُلُق ومدحه] ١٦٦
الفصل التّاسع والعشرون: [في حُسْن الظّنّ وسوئه] ١٧٠
الفصل الثّلاثون: [في حُسْن المعاشرة] ١٧٧
الفصل الحادي والثّلاثون: [في الصّديق والصّداقة والإخوان] ١٧٩
الفصل الثّاني والثّلاثون: [في الشّفاعة] ١٨٩
الفصل الثّالث والثّلاثون: [في الحزم والتّفريط] ١٩٣
الفصل الرّابع والثّلاثون: [في حُسْن الثّناء وطيب الأحدوثة] ١٩٤

الفصل الخامس والثّلاثون: [في المدح والثّناء] ١٩٧
الفصل السّادس والثّلاثون: [الأخبار والآيات الواردة في مدح الوفاء وذمّ الغدر] ٢٠٥
الفصل السّابع والثّلاثون: [نبذ من الأقوال الحكيمة في الوعْد والمَطْل] ٢٠٩
الفصل الثّامن والثّلاثون: [في السّرّ والأمر بكتمانه و إفشائه] ٢١٢
الفصل التّاسع والثّلاثون: [في مدح الصّبر وانتظار الفَرَج] ٢١٧
الفصل الأربعون: [أقوال مأثورة في مدح الأناة وذمّ العجلة] ٢٣٢
الفصل الحادي والأربعون: [في سعة الصّدر وما ورد في ذلك من الحكايات] ٢٣٧
الفصل الثّاني والأربعون: [في الفرصة و إضاعتها] ٢٤٠
الفصل الثّالث والأربعون: [في المشورة] ٢٤٢
الفصل الرّابع والأربعون: [في الجَدّ والسّعادة] ٢٤٥
الفصل الخامس والأربعون: [في التّقدير والتّدبير] ٢٤٨
الفصل السّادس والأربعون: [في فضل الصّمت والاقتصار في المنطق] ٢٥١
[في المراء] ٢٥٥
[فصل في مدح قلّة الكلام وذمّ كثرته] ٢٥٩
[في حفظ اللّسان] ٢٦٦
الفصل السّابع والأربعون: [في مواساة الأهل وصِلَة الرَّحِم] ٢٧٥
الفصل الثّامن والأربعون: [فصل في الآثار الواردة في حقوق الجار] ٢٧٧
الفصل التّاسع والأربعون: [في الأمانة والخيانة] ٢٨١
الفصل الخمسون: [ذِكْر الحِجاب وما ورد فيه من الخبر والشّعر] ٢٨٥
الفصل الحادي والخمسون: [نبذ وحكايات حول العفّة] ٢٩٢
الفصل الثّاني والخمسون: [في البِشْر والبَشاشة] ٣٠١
الفصل الثّالث والخمسون: [في ما ورد في الطِّيب من الآثار] ٣٠٣
الفصل الرّابع والخمسون: [في الشّيب والخضاب] ٣١٣
[ مختارات ممّا قيل من الشّعر في الشَّيب والخِضاب] ٣١٦

الفصل الخامس والخمسون: [في الابتلاء] ٣١٩
الفصل السّادس والخمسون: [في المعافاة] ٣٢١
الفصل السّابع والخمسون: [في مجاهدة النّفوس وما ورد في ذلك من الآثار] ٣٢٢
[فصل في الرّياضة النّفسيّة وأقسامها] ٣٢٧
[فصل في أنّ الجوع يؤثّر في صفاء النّفس] ٣٣٠
الفصل الثّامن والخمسون: [في الزُّهد والآثار والأخبار الواردة فيها] ٣٣٥
[في العُبّاد والزُّهّاد والعارفين وأحوالهم] ٣٤٤
[نبذ من أقوال الصّالحين والحكماء] ٣٥١
[ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهّاد] ٣٦٢
[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء] ٣٦٧
[بيان أحوال العارفين] ٣٧٩
[نبذ من كلام الحكماء] ٤٢٨
الفصل التّاسع والخمسون: [في العُزْلة والاجتماع وما قيل فيهما] ٤٣٠
[فوائد العُزْلة] ٤٣٤
[في مدح الخمول والجنوح إلى العُزْلة] ٤٤٤
الفصل السّتّون: [أقوال في النّساء] ٤٤٨
الفصل الحادي والسّتّون: [نبذ ممّا قيل في السّلطان] ٤٥٧
الفصل الثّاني والسّتّون: [نُبَذٌ وحكايات ممّا وقع بين يدى الملوك] ٤٦١
الفصل الثّالث والسّتّون: [في طبقات المجتمع] ٤٦٦
الفصل الرّابع والسّتّون: [فصل في ذكر بعض وصايا العرب] ٤٨٤
الفصل الخامس والسّتّون: [في الدّنيا وصفاتها وبعض الآثار والأشعار فيها] ٤٩٦
[الأخبار والآثار الواردة في البُعْد عن زينة الدّنيا] ٥٢٨
[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة في ذمّ الدّنيا] ٥٣٥
[أقوال حكيمة في وصْف الدّنيا وفَناءِ الخَلْقِ] ٥٤٨

[نبذ من أقوال الحكماء والصّالحين في الدّنيا] ٥٥٤
[نبذ من الأقوال الحكيمة في وصف حال الدّنيا وصُروفها] ٥٧٢
[نبذ ممّا قيل في حال الدّنيا وهَوانها واغترار النّاس بها] ٥٨٢
الفصل السّادس والسّتّون: [في وصْف القُبور والمَوتى] ٥٩٠
الفصل السّابع والسّتّون: [بعض ما قيل من الشِّعْرفي الدَّهْروفِعْله بالإنسان] ٦١٨
الفصل الثّامن والسّتّون: [في الإقبال والإدبار] ٦٢٧
الفصل التّاسع والسّتّون: [أقوال في الأمَل والمُنى] ٦٣١
الفصل السّبعون: [في المال] ٦٣٦
الفصل الحادي والسّبعون: [في الرِّياء والنّهي عنه] ٦٤٠
الفصل الثّاني والسّبعون: [في الطّمع] ٦٤٨
الفصل الثّالث والسّبعون: [في الغيبة] ٦٥٤
[حكم الغيبة في الدّين] ٦٦٠
[ فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة] ٦٦٢
[طريق التّوبة من الغيبة] ٦٦٤
الفصل الرّابع والسّبعون: [في العيب والسّعاية] ٦٦٦
[فصل في النّهي عن ذكرعيوب النّاس وما ورد في ذلك من الآثار] ٦٦٧
[فصل في النّهي عن سماع السّعاية وما ورد في ذلك من الآثار] ٦٦٩
الفصل الخامس والسّبعون: [في الغضب والحِدّة] ٦٧٤
[فصل في ذكرأسباب المادّيّة للغلظة والفظاظة] ٦٧٧
الفصل السّادس والسّبعون: [في ردّ الشّرّ بالشّرّ] ٦٨١
الفصل السّابع والسّبعون: [نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب] ٦٨٤
[نبذ من الأقوال الحكيمة] ٦٨٩
[نُبذ من الأقوال المتشابهة في الحرب] ٦٩١
الفصل الثّامن والسّبعون: [في اللّجاجة] ٦٩٣

الفصل التّاسع والسّبعون: [فصل فيما جاء في الحَذَر من كيد العدوّ] ٦٩٥
الفصل الثّمانون: [في التّعازي] ٦٩٧
الفصل الحادي والثّمانون: [في الشّكوى] ٧٠١
الفصل الثّاني والثّمانون: [أقوال وحكايات حول الحَمْقَى] ٧٠٣
الفصل الثّالث والثّمانون: [في الظّلم وتحريم معاونة الظَّلَمة] ٧١٢
الفصل الرّابع والثّمانون: [في الفتنة ومعناها] ٧٢٢
الفصل الخامس والثّمانون: [في ذمّ الحاسد والحسد] ٧٢٨
الفصل السّادس والثّمانون: [في الفَخْر وما قيل في النّهي عنه] ٧٣٤
الفصل السّابع والثّمانون: [في الاعتضاد بالعشيرة والتّكثّر بالقبيلة] ٧٤٢
الفصل الثّامن والثّمانون: [في العُجْب] ٧٤٥
الفصل التّاسع والثّمانون: [في التّكبّر] ٧٤٨
الفصل التّسعون: [الأشعار الواردة في الإباء والأَنَف من احتمال الضَّيْم] ٧٥١
[أُباة الضَّيْم وأخبارهم] ٧٥٤
الفصل الحادي والتّسعون: [الأشعار الواردة في ذمّ الجُبن] ٨١٤
الفصل الثّاني والتّسعون: [ذِكر الخوف وما ورَد فيه من الآثار] ٨٢٢
الفصل الثّالث والتّسعون: [في الرّجاء] ٨٢٣
الفصل الرّابع والتّسعون: [أقوال وحكايات في المزاح] ٨٢٦
الفصل الخامس والتّسعون: [أقوال في العَين والسِّحر والفَأْلِ والعَدْوى والطِّيرة] ٨٣٥
الفصل السّادس والتّسعون: [فصل في ذمّ الكذب وحقارة الكذّابين] ٨٤٤
الفصل السّابع والتّسعون: [في الهمّ والحزن] ٨٥١
الفصل الثّامن والتّسعون: [في الجهل] ٨٥٥
الفصل التّاسع والتّسعون: [في العجز] ٨٥٦
الفصل المائة: [نبذ من الأقوال الحكيمة] ٨٥٧

# فهرس الآيات


الٓمٓ*ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ البقرة / ١ ـ ٣

اِنِّی جَاعِلٌ فِی الْاَرْضِ خَلِیفَةً البقرة /٣٠

وَاِیَّایَ فَارْهَبُونَ البقرة / ٤٠

فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِینَ البقرة / ٩٤

فَاذْكُرونِی اَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِی وَلَاتَكْفُرُونِ البقرة/ ١٥٢

اِنَّا لِلّٰهِ وَاِنَّا اِلَیْهِ رَاجِعُونَ البقرة/ ١٥٦

یَا اَیُّهَا الَّذِینَ اٰمَنُوا كُلُوا مِن طَیِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ البقرة / ١٧٢

وَحِینَ الْبَاْسِ البقرة / ١٧٧

اِنْ تَرَكَ خَیرًا البقرة/١٨٠

اُحِلَّ لَكُمْ لَیْلَةَ الصِّیَامِ الرَّفَثُ اِلٰی نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَاَنْتُمْ لِبَاسٌ لَـهُنَّ البقرة/١٨٧

وتَزَوَّدُوا فَاِنَّ خَیرَالزَّادِ التَّقْوٰی البقرة / ١٩٧

فَاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ المَشْعَرِالْحَرَامِ البقرة / ١٩٨

فَاذْكُرُوا اللّٰهَ كَذِكْرِكُمْ اٰبَاءَكُمْ اَوْ اَشَدَّ ذِكْرًا البقرة/ ٢٠٠

وَعَسٰی اَن تَكْرَهُوا شَیْئًا وَهُوَ خَیْرٌ لَكُمْ وَعَسٰی اَن تُحِبُّوا شَیْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّٰهُ یَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ البقرة / ٢١٦

اِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِیكُم بِنَهَرٍفَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَمَنْ لَّمْ یَطْعَمْهُ فَاِنَّهُ مِنِّی اِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِیَدِهِ البقرة / ٢٤٩

وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْاَرْضُ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی

| | |
|---|---|
| الْعَالَمِينَ | البقرة / ٢٥١ |
| وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا | البقرة / ٢٦٩ |
| يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ اَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ | البقرة/ ٢٧٣ |
| وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ | آل عمران / ٢٨ |
| اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ | آل عمران / ١٠٢ |
| فَاَ لَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ اِخْوَانًا | آل عمران / ١٠٣ |
| وَلَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا | آل عمران / ١٠٥ |
| وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ | آل عمران / ١٣٤ |
| وَسَيَجْزِيَ اللهُ الشَّاكِرِينَ | آل عمران / ١٤٤ |
| وَلَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ | آل عمران / ١٥٩ |
| وَشَاوِرْهُمْ فِي الْاَمْرِ | آل عمران / ١٥٩ |
| وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ | آل عمران / ١٦١ |
| وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اَمْوَاتًا بَلْ اَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا اٰتٰهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ | آل عمران / ١٦٩ ـ ١٧٠ |
| فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ اِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ | آل عمران / ١٧٥ |
| وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيرٌ لِاَنْفُسِهِمْ اِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا اِثْمًا | آل عمران / ١٧٨ |
| لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ | آل عمران / ١٨٧ |
| اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلٰى جُنُوبِهِمْ | آل عمران / ١٩١ |
| اِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا | النّساء / ١٧ |
| فَعَسٰى اَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيرًا كَثِيرًا | النّساء/ ١٩ |
| وَيَغْفِرُمَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ | النّساء / ٤٨ |
| اَطِيعُوا اللهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاُولِي الْاَمْرِ مِنْكُمْ | النّساء / ٥٩ |

| | |
|---|---|
| اِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا | النّساء / ٧٦ |
| فَاِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلٰوةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلٰى جُنُوبِكُمْ | النّساء / ١٠٣ |
| وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا اَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِاللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا | النّساء / ١١٠ |
| اِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهِ | النّساء / ١١٦ |
| وَاُحْضِرَتِ الْاَنْفُسُ الشُّحَّ | النّساء / ١٢٨ |
| يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ اِلَّا قَلِيلًا | النّساء / ١٤٢ |
| مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ اِنْ شَكَرْتُمْ وَاٰمَنْتُمْ | النّساء / ١٤٧ |
| يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ | المائدة / ١ |
| مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَاْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ | المائدة / ٥٤ |
| يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا اُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا اِنَّكَ اَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ | المائدة / ١٠٩ |
| اِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ | المائدة / ١١٦ |
| وَلَلدَّارُالْاٰخِرَةُ خَيْرٌلِلَّذِينَ يَتَّقُونَ | الأنعام / ٣٢ |
| بَلْ اِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ اِلَيْهِ اِنْ شَاءَ | الأنعام / ٤١ |
| وَلَاتَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ | الأنعام / ٥٢ |
| فَمَنْ يُرِدِ اللهُ اَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْاِسْلَا مِ وَمَنْ يُرِدْ اَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَاَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ | الأنعام/ ١٢٥ |
| هُوَالَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْاَرْضِ | الأنعام/ ١٦٥ |
| وَلَاتَجِدُ اَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ | الأعراف / ١٧ |
| قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ | الأعراف / ٣٢ |
| فَاَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ اَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ | الأعراف/ ٤٤ |
| وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِاِذْنِ رَبِّهِ | الأعراف / ٥٨ |
| اَفَاَمِنُوا مَكْرَاللهِ فَلَا يَاْمَنُ مَكْرَاللهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ | الأعراف / ٩٩ |
| اَمْ لَهُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا | الأعراف / ١٩٥ |

خُذِ الْعَفْوَ وَاْمُرْ بِالْعُرْفِ وَاَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ الأعراف / ١٩٩
وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْاٰنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَاَنْصِتُوا الأعراف / ٢٠٤
وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً الأعراف / ٢٠٥
اَنَّمَا اَمْوَالُكُمْ وَاَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ الأنفال / ٢٨
وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيهِمْ الأنفال / ٣٣
وَمَا لَهُمْ اَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ الأنفال / ٣٤
وَاعْلَمُوا اَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَاَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبٰى وَالْيَتَامٰى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ الأنفال / ٤١
يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا الأنفال / ٤٥
وَيَتُوبُ اللهُ عَلٰى مَنْ يَشَاءُ التّوبة / ١٥
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اِذْ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا التّوبة / ٢٥
فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ اِنْ شَاءَ التّوبة / ٢٨
قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلٰنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ التّوبة / ٥١
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَاِنْ اُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَاِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ التّوبة /٥٨
وَلَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا اٰتٰهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ اِنَّا اِلَى اللهِ رَاغِبُونَ التّوبة /٥٩
وَيَقْبِضُونَ اَيْدِيَهُمْ التّوبة / ٦٧
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَاٰخَرَ سَيِّئًا التّوبة / ١٠٢
اِنَّ اللهَ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ التّوبة / ١١١
حَتّٰى اِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ اَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا اَنْ لَا مَلْجَاَ مِنَ اللهِ اِلَّا اِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ التّوبة/١١٨
وَاٰخِرُ دَعْوٰهُمْ اَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يونس / ١٠
يَا اَيُّهَا النَّاسُ اِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلٰى اَنْفُسِكُمْ يونس / ٢٣

اِنَّمَا مَثَلُ الْحَيٰوةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْاَنعَامُ حَتّٰى اِذَا اَخَذَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ اَهْلُهَا اَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اَتٰهَا اَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَاَنْ لَّمْ تَغْنَ بِالْاَمْسِ يونس / ٢٤

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا اَسْلَفَتْ وَرُدُّوا اِلَى اللهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ يونس / ٣٠

اَلَا اِنَّ اَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ يونس / ٦٢

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ يونس / ٦٧

اِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ اَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ هود / ٨١

وَمَا اُرِيدُ اَنْ اُخَالِفَكُمْ اِلٰى مَا اَنْهٰكُمْ عَنْهُ هود / ٨٨

فَاسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ هود / ١١٢

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرٰى بِظُلْمٍ وَاَهْلُهَا مُصْلِحُونَ هود / ١١٧

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ اَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ هود / ١٢٠

وَجَاؤُ عَلٰى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ يوسف / ١٨

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَن رَاٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ يوسف / ٢٤

مَا جَزَاءُ مَنْ اَرَادَ بِاَهْلِكَ سُوءًا اِلَّا اَنْ يُسْجَنَ يوسف / ٢٥

اِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ اِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يوسف / ٢٨

اَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَاِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ يوسف /٥١

رَبِّ قَدْ اٰتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وعَلَّمْتَنِي مِن تَاْوِيلِ الْاَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ اَنتَ وَلِيِّ فِي الدّنيَا وَالْاٰخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَاَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ يوسف / ١٠١

اَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الرّعد / ٢٨

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَاَزِيدَنَّكُمْ إبراهيم / ٧

وَمَا يَخْفٰى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِى الْاَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ إبراهيم / ٣٨

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظّٰلِمُونَ إبراهيم / ٤٢

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْاَمْثَالَ إبراهيم / ٤٥
اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ الحجر / ٧٥
يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ النّحل / ٥٠
وَلَاتَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ اَنْكَاثًا النّحل / ٩٢
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْثٰى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً النّحل / ٩٧
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ اِلَّا بِاللّٰهِ النّحل / ١٢٧
سُبْحَانَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ... الإسراء / ١
اِنْ اَحْسَنْتُمْ اَحْسَنْتُمْ لِاَنْفُسِكُمْ وَاِنْ اَسَاْتُمْ فَلَهَا الإسراء / ٧
اِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا اِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا الإسراء / ٢٧
وَلَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً اِلٰى عُنُقِكَ وَلَاتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا الإسراء / ٢٩
وَلَاتَمْشِ فِي الْاَرْضِ مَرَحًا اِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْاَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا الإسراء / ٣٧
كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا الإسراء / ٣٨
وَاِذَا قَرَاْتَ الْقُرْاٰنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا الإسراء / ٤٥
وَاِذَا اَنْعَمْنَا عَلَى الْاِنْسَانِ اَعْرَضَ وَنَاٰ بِجَانِبِهِ الإسراء / ٨٣
اِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْاَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا* وَاِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا الكهف / ٧ ـ ٨
اِنَّهُمْ فِتْيَةٌ اٰمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى الكهف / ١٣
اِنَّا لَا نُضِيعُ اَجْرَمَنْ اَحْسَنَ عَمَلًا الكهف / ٣٠
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ فَاَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا الكهف / ٤٥
اَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا الكهف / ٤٦

وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا الكهف / ٥١
لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ اَجْرًا الكهف / ٧٧
هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ الكهف / ٧٨
فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ اَحَدًا الكهف / ١١٠
وَاٰتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا مريم / ١٢
اِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ مريم / ٥٤
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُوا الصَّلٰوةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا مريم / ٥٩
رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي طه / ٢٥
وَعَجِلْتُ اِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضٰى طه / ٨٤
وَخَشَعَتِ الْاَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ اِلَّا هَمْسًا طه / ١٠٨
وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اِلٰى مَا مَتَّعْنَا بِهِ اَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا طه / ١٣١
وَاْمُرْ اَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا طه / ١٣٢
خُلِقَ الْاِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ الأنبياء / ٣٧
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ اِبْرٰهِيمُ الأنبياء / ٦٠
اِذْ نَادٰى رَبَّهُ اَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَاَنْتَ اَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ الأنبياء / ٨٣
كَمَا بَدَاْنَا اَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا اِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ الأنبياء / ١٠٤
خَسِرَ الدُّنيا وَالْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الحجّ / ١١
فَكُلُوا مِنْهَا وَاَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ الحجّ / ٢٨
فَاِنَّهَا لَا تَعْمَى الْاَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ الحجّ / ٤٦
لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللّٰهُ رِزْقًا حَسَنًا الحجّ / ٥٨
ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللّٰهُ الحجّ / ٦٠
اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ المؤمنون / ٢

يَا اَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا المؤمنون / ٥١
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا اٰتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ المؤمنون/٦٠
حَتّٰى اِذَا جَاءَ اَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى اَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا اِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ اِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ المؤمنون / ٩٩ـ١٠٠
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ المؤمنون / ١٠٤
اَلَا تُحِبُّونَ اَنْ يَغْفِرَاللهُ لَكُمْ النّور / ٢٢
قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ اَبْصَارِهِمْ النّور / ٣٠
وَتُوبُوا اِلَى اللهِ جَمِيعًا اَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ النّور / ٣١
يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْاٰصَالِ *رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِاللهِ النّور/ ٣٦ ـ٣٧
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً اَتَصْبِرُونَ الفرقان / ٢٠
وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلٰى يَدَيْهِ الفرقان / ٢٧
وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْاَرْضِ هَوْنًا الفرقان / ٦٣
اِذَا ذُكِّرُوا بِاٰيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا الفرقان / ٧٣
وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْاٰخِرِينَ الشّعراء / ٨٤
اَفَرَاَيْتَ اِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ *ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *مَا اَغْنٰى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ الشّعراء / ٢٠٥ ـ٢٠٧
قَالَ سَنَنْظُرُ اَصَدَقْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ النّمل / ٢٧
اِنَّ الْمُلُوكَ اِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً اَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا اَعِزَّةَ اَهْلِهَا اَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ النّمل / ٣٤
اَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذَا دَعَاهُ النّمل / ٦٢
وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ النّمل / ٨٨
فَاَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْاً يُصَدِّقُنِى القصص / ٣٤
وَاَحْسِنْ كَمَا اَحْسَنَ اللهُ اِلَيْكَ القصص / ٧٧
قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا اُوتِىَ قَارُونُ اِنَّهُ لَذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ*وَقَالَ الَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ اٰمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقّٰهَا اِلَّا الصَّابِرُونَ القصص / ٧٩ ـ ٨٠
مَنْ كَانَ يَرْجُولِقَاءَ اللهِ فَاِنَّ اَجَلَ اللهِ لَاٰتٍ العنكبوت / ٥
فَلَبِثَ فِيهِمْ اَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِينَ عَامًا العنكبوت / ١٤
وَلَذِكْرُاللهِ اَكْبَرُ العنكبوت / ٤٥
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا العنكبوت / ٦٩
وَلَقَدْ اٰتَيْنَا لُقْمٰنَ الْحِكْمَةَ لقمان / ١٢
وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ لقمان / ١٩
وَاَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً لقمان / ٢٠
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا السجدة / ١٦
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ الأحزاب / ٢١
يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا الأحزاب / ٤١
اِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا الأحزاب / ٧٢
وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ سبأ / ١٣
اَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا ... فَلَاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ الفاطر / ٨
وَمِنْ كُلٍّ تَاْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا فاطر / ١٢
يَا اَيُّهَا النَّاسُ اَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ اِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَالْغَنِيُّ الْحَمِيدُ فاطر / ١٥
اِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰؤُا فاطر / ٢٨
اِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَاَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَاَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فاطر / ٢٩
وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فاطر / ٣٧
وَاَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ اَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدٰى مِنْ اِحْدَى الْاُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌمَا زَادَهُمْ اِلَّا نُفُورًا*اسْتِكْبَارًا فِي الْاَرْضِ وَمَكْرَالسَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُالسَّيِّئُ اِلَّا بِاَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ اِلَّا سُنَّتَ الْاَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ

| | |
|---|---|
| تَخْويلًا | فاطر / ٤٢ ـ ٤٣ |
| لِيُنذِرَمَنْ كَانَ حَيًّا | يس / ٧٠ |
| نِعْمَ الْعَبْدُ اِنَّهُ اَوَّابٌ | ص / ٣٠ |
| اِنّى اَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيرِعَنْ ذِكْرِرَبّى | ص / ٣٢ |
| هَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِاَحَدٍ مِنْ بَعْدِى | ص / ٣٥ |
| وَلَا يَرْضٰى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ | الزُّمَر / ٧ |
| اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْاَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا | الزّمر / ٤٢ |
| وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ | الزّمر / ٧٤ |
| لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارَ | غافر / ١٦ |
| فَوَقٰىهُ اللّٰهُ سَيِّاٰتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِاٰلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ | غافر / ٤٥ |
| اُدْعُونِى اَسْتَجِبْ لَكُمْ | غافر / ٦٠ |
| قَالَتَا اَتَيْنَا طَائِعِينَ | فصّلت / ١١ |
| قَالُوا مَنْ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً | فصّلت / ١٥ |
| اِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا | فصّلت / ٣٠ |
| اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ | فصّلت / ٣٤ |
| يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ | الشّورى / ١٩ |
| مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْاٰخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْاٰخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ | الشّورى / ٢٠ |
| وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌوَاَبْقٰى لِلَّذِينَ اٰمَنُوا | الشّورى / ٣٦ |
| وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا | الشّورى / ٤٠ |
| وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ اِذْ ظَلَمْتُمْ اَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ | الزّخرف / ٣٩ |
| وَتَرٰى كُلَّ اُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ اُمَّةٍ تُدْعٰى اِلٰى كِتَابِهَا | الجاثية / ٢٨ |
| فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا اَنْصِتُوا | الأحقاف / ٢٩ |
| فَمَنْ نَكَثَ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلٰى نَفْسِهِ | الفتح / ١٠ |

اِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا اَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ الحجرات / ٦

وَلَاتَنَابَزُوا بِالْاَ لْقَابِ الحجرات / ١١

وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا الحجرات / ١٢

اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ اَتْقٰكُمْ الحجرات / ١٣

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ اَنْ اَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ اِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ اَنْ هَدٰكُمْ لِلْاِيمَانِ اِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ الحجرات / ١٧

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ اِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا اَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ق / ٢٨ ـ ٢٩

وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ق / ٣٣

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ الذّاريات / ١٣

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُونَ الذّاريات / ٥٦

فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهِ مَا اَوْحٰى النّجم / ١٠

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغٰى النّجم / ١٧

خَلَقَ الْاِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الرّحمن / ٣ ـ ٤

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ الرّحمن / ١٩

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ الرّحمن / ٢٢

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ الرّحمن / ٤٦

اِنَّا اَنْشَاْنَاهُنَّ اِنْشَاءً* فَجَعَلْنَاهُنَّ اَبْكَارًا الواقعة / ٣٥

مَا اَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي اَنْفُسِكُمْ اِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ اَنْ نَبْرَاَهَا اِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ*لِكَيْلَا تَاْسَوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا اٰتٰكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الحديد / ٢٢ ـ ٢٣

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ المجادلة / ٢٢

وَيُؤْثِرُونَ عَلٰى اَنفُسِهِمْ وَلَوكَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاُولٰـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الحشر / ٩

اِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَاَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ الصّف / ٤

اِنْ زَعَمْتُمْ اَنَّكُمْ اَوْلِيَاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ اَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ الجمعة / ٦ـ٧

وَلِلّٰهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَلٰـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ المنافقون / ٧

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ التّغابن / ١٦

وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ التّغابن / ١٧

وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ الطّلاق / ٢ ـ ٣

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ القلم / ١

وَاِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ القلم / ٤

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ القلم / ١٠ ـ ١١

وَيُمْدِدْكُمْ بِاَمْوَالٍ وَبَنِينَ نوح / ١٢

وَاَنْ لَوِاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَاَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا الجنّ / ١٦

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ المدّثر / ٤

وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا المدّثر / ١٢

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ المدّثر / ٤٥

هَلْ اَتٰى عَلَى الْاِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا الإنسان / ١

اِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا الإنسان / ٩

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ المرسلات / ١٥ و١٩

وَاَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوٰى * فَاِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَاْوٰى النّازعات / ٤٠ ـ ٤١

فَلْيَنظُرِ الْاِنْسَانُ اِلٰى طَعَامِهِ عبس / ٢٤

وَاِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ الانفطار ١٤ـ١٦

| | |
|---|---|
| اِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ | البروج / ١٠ |
| عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً | الغاشية / ٣ ـ ٤ |
| وَاَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ | الضّحى / ١١ |
| اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ | الشّرح / ١ |
| كَلَّا اِنَّ الْاِنْسَانَ لَيَطْغٰى * اَنْ رَاٰهُ اسْتَغْنٰى | العلق / ٦ ـ ٧ |
| اَ لَمْ يَعْلَمْ بِاَنَّ اللهَ يَرٰى | العلق / ١٤ |
| وَاِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ | العاديات / ٨ |
| اَلْهٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتّٰى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ | التّكاثر / ١ ـ ٢ |
| وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ | الهمزة / ١ |
| اَلَّذِينَ هُمْ عَن صَلٰوتِهِمْ سَاهُونَ * اَلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ | الماعون / ٥ ـ ٦ |